

# مذكراتي

في السياسة والثقافة  
زوت عكاشة



دار الهلال



# مذكراتي

## في السياسة والثقافة

### زوت عكاشة

١

الطبعة الأولى يناير ١٩٨٨

الطبعة الثانية يناير ١٩٩٠



# مذكراتي

## في السياسة والثقافة

## زوت عكاشة

١

دار الهلال

صورة الغلاف  
« موسيقى ريفية » للفنان حسين بيكار  
تفصيل . تصوير زيت على قماش  
٨٣ سم × ٦٨ سم  
بإذن من البنك الأهلي

الإخراج والإشراف الفني  
الفنان حلمي التوني

## إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى ابني محمود علّهُ يغفر لي ما كان  
مني من انصراف عنه في مرحلة من حياته إلى أعمال  
استغرقتني ولم تترك لي من الوقت ما يتسع لأن أبادله عطفى  
وحنانى ، ولعلّ ما قامت به زوجتى فى حملها هذا العبء عنى  
فعاشرت لابننا تعوّضه وتمنحه ما تملك من عطف وحنان قلّ أن  
تملك قدرهما أمّ ، لعلّ هذا ما يحفزنى هنا إلى أن أشكر لها  
طيبّ جميلها .

ها هي ذى الطبعة الثانية من « مذكراتي في السياسة والثقافة » ، وقد جاءت مزامنة لطبعة باللغة الفرنسية سوف تصدر قريبا . وما حداني إلى إصدارها إلا ما رأيته من إقبال القراء على الطبعة الأولى ، ثم ما رأيته من جدل حولها حين ظهرت ، كان سببه فيما أرى ما جاء في الطبعة الأولى من إيجاز في بعض الأماكن ، فرأيت أن أفصل هنا حيث أوجزت هناك وأن أضيف مزيدا من البيان .

ولن يفوتني وأنا أقدم هذه الطبعة الثانية أن أتجه بالشكر لكل من قرأ وأثنى ، كما لن أبخل بشكري على من قرأ ونقد ، فلكل صاحب قلم - كما يقول فولتير - معركة ، والمثل العربي يقول : « من ألف استهدف » .

## كلمة أولى

لكل امرئ ما يجول بخاطره صواباً أو خطأ ، والمرء بين هذين الخاطرين حائر ، أيسجل الخطأ إلى جانب الصواب ليكون حجة عليه ، أم يجتزئ بالصواب ليكون صاحب الحجة على الأيام ، أو يمضى من الحياة بصفحة بيضاء لا يخط فيها حرفاً من هذا أو ذاك ؟ وتاريخ الوجود كله ليس إلا كلمة منى أو كلمة منك أكتبها أنا أو تكتبها أنت ، غير أنه ينبغي أن تكون هذه وتلك الصدق ، لا تحوير فيها ولا تبديل .

هذا ما عنى لى عندما جال بخاطري أن أسجل ما كان من دور شاركت فيه من قريب أو من بعيد فى تاريخ مصر القريب ، أعنى هذا التاريخ الذى بدأ بقيام الثورة ، ثورة ٢٣ يولييه سنة ١٩٥٢ ، على أن ما كتبت عن مشاهدة ومعاناة فإنما أنقله مطمئن النفس ، وأما ما كان منى رأياً أو تبريراً فأمره بينى وبين الناس يأخذون على وأخذ عليهم فيه ، ومجال القول ذو سعة .

وهذه على أية حال ذكريات مسطورة لم أقصد بها فى مبدأ الأمر إلا أن أتحدث فيها بينى وبين نفسى ، فما أكثر ما كنت أحس الحاجة إلى أن أتأمل أحداثاً لا تكشف أبعادها وأتبين ما وراءها ، وكنت فى لحظات أخرى أحس أننا على مفترق طرق فأوى إلى نفسى لأتحدث إليها . ذلك أن فى طبيعتى شيئاً

من حب العزلة والرغبة في التأمل والاستبطان . غير أن سنوات طويلة مرّت وإذا نحن نجد أنفسنا أمام حملة غريبة من مذكرات وذكريات ومقالات ودراسات وأبحاث تعيد تقييم أوضاع سنوات عشناها وأحداث شاركنا فيها ، فأحسست أن من واجبي أن أعود إلى الوثائق التي كنت محتفظاً بها وإلى ما دوّنته حيناً بعد حين لأخرج منها على الناس مشاركا بالرأى في الجدل الدائر حول ثورة ٢٣ يولييه ، فقد كنت واحداً من الذين شاركوا في صنعها ، وكان لى رأى في بعض الأمور ، منه ما أعلنته ، ومنه ما أضمرته إذ لم تكن ثمة مناسبة للإفصاح عنه ، ومنه ما أيّدته ، ومنه ما أحجّمت عن إبدائه لموانع مرهونة بظروفها - وأعتقد أن من حق غيرى ألا يرى مثل رأىي - ووجدت في نشر هذه السطور مجالا لأفصح عما لم يُتَح لى الإفصاح عنه .

هذا وإن الأيام قد تمرّ دون أن يسجّل الإنسان ما يقع له ، كما أن الذاكرة قد يفوتها الكثير مع تعاقب الأيام ، وما أجل المثل القائل بأن الشجرة حين تشيخ تدبّ الشيخوخة أول ما تدبّ في رأسها ، وما أشبه هذه الرأس بالذاكرة من الإنسان . ولم يطف في ذهني وأنا أسجّل واقعة أن أشوّه سمعة إنسان أو ألصق به ما هو منه براء ، فما أصدق جوته حين قال إن المرء حين يبلغ به السن مبلغه ويعود بذكرته إلى الوراء شيئاً يرى أنه لم يكن ثمة خطأ من حوله إلّا وارتكبه . ولقد كنت فيما أكتب عن رجال عاشرتهم وكان لى على بعضهم مآخذ ، غير أنى كنت إذا ما ذكرت ما آخذه عليهم رجعت إلى نفسى فقلت لعلّ عليك مثل هذه المآخذ . فالحكم على الناس عسير ، وأعسر منه أن تحكم على نفسك ، ويكاد السوّى بين الناس يكون من الاستحالة بمكان . يؤكد قولي هذا عبارة مشهورة للعالم النفساني كارل يونج : «أروني في الوجود كله امرأً واحداً سوياً ، وسأكون أنا عندها كفيلاً بشفائه» .

وأنا هنا لا أؤرّخ للثورة ، بل أذكر ما كان منى من مشاركة أو ما جرى تحت سمعى وبصرى ، فإن ثمة أحداثاً كثيرة قد لا يجد القارئ إشارة إليها ولا إفصاحاً عنها لأنها ليست مما شهدت ، وأترك لغيرى ممن كانوا شهودها كي يقولوا كلمتهم . كذلك فإنى أومن أنه لا يمكن كتابة التاريخ بموضوعية حقّة إلا بعد انقضاء فترة مناسبة على الأحداث ، لأن الادّعاء بكتابة التاريخ من واقع مذكرات كتّاب معاصرين واتخاذ المؤرخ المعاصر لهم كتاباتهم وثائق تاريخية كافية لإصدار الحكم على عصر كامل بذاته ، والخروج من ذلك بنتائج

محدّدة ، إن مثل هذا المنهج فى تصوّرى هو نوع من الانحياز الذى لا يمكن تبرئته من الهوى أو العجلة أو السير فى ركاب السلطة القائمة . فقد يحدث أن تظهر بعد ذلك وثائق تنقض ما كان وتفصح عما كان وراء الأحداث من دوافع ومبررات ، ولا معدى عن أن تكشف الأيام إن أجلاً أو عاجلاً عن خفايا غابت عنا واحتوتها أضاير منسية أو مخفية إلى حين ، ستضىء الطريق يوماً وتتضح معها الرؤية . ومن البديهيات التى تعلّمناها أن التاريخ الحق لا يكتب إلا بأقلام مؤرخين غير معاصرين للأحداث حتى لا يكون هناك أدنى شك فى نزاهتهم وبُعدهم عن الأغراض والمصالح المادية ، فالمرء - كما يقول سير ولترالى - إذا حاول أن يؤرّخ لما حوله عن كُتب متحرّياً الحقيقة هُشمت أسنانه تلك الحقيقة ، وركلته كما تركل الدّابة صاحبها . إن البُعد الزمنى يكفل للمؤرخ رؤية أكثر اتساعاً ونظرة أبعد غوراً ، بقدر ما يجعل منه انفصاله عن الأحداث حكماً يطمأن إليه . كما أن العجلة فى إصدار الأحكام على التاريخ لا تكون حكماً صحيحاً عليه ، وإنى هنا أسوق مثلاً تشييد السّدّ العالى ، وهو واحد من أروع إنجازات الثورة المصرية ، وقد كانت له دلالات عاجلة أحدثت تغييراً فى الميزان السياسى بالمنطقة ، واستقطب عداء جملة من القوى الداخلية والخارجية ، كما كانت له آثار جانبية معروفة قبل تشييده ، وكان علاجها مطروحاً قبل أن تظهر ، غير أن التباطؤ فى تنفيذ هذا العلاج كان سبباً فى خروجها إلى حيّز الوجود ، فاتخذ البعض منها ذريعة لإثارة حملة شرسة ضد المشروع وضد الثورة ككل ، وانطلقت السنة حداد تصمّه بأنه جريمة فى حق مصر . ولم تتوقف هذه الحملة طوال خمسة عشر عاماً ، وكأنما كان ينبغى أن توقظ هؤلاء المجاعة التى وقعت فى أغلب بلدان أفريقيا الملاصقة لحدودهم حتى يعرفوا فضله فى إنقاذ مصر من الجفاف الذى اعتصر القارة وأخذ يفتك بالملايين من أبنائها .

وقد يكون من المناسب أن أبسط للقارىء بادية ذى بدء رؤيتى السياسية وأنا أكتب هذه السطور . فنحن لم نجتمع على إحداث ثورة تنتهى بنا إلى كراسى الحكم لننقذ من خلالها أهدافنا السّنة المعروفة - ولا بأس من تكرارها هنا - وهى القضاء على الاستعمار وأعوانه ، والقضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم ، وإقامة عدالة اجتماعية ، وإقامة جيش وطنى قوى ، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة ، وإنما كنا نقصد إقصاء معوّقات تحقيق هذه

الأهداف وإسناد الحكم إلى أكفأ رجال السياسة الموثوق في وطنيتهم وتفانيهم ، غير أن الثورة فوجئت بأن تحرّكها لم يعد تحرّكا محدودا داخل القوات المسلّحة بل إنه لم يشملها كلها فحسب بل تجاوزها إلى هبة شعب كامل وقف يؤازرها من اليوم الأول الذي أعلنت فيه بيانها ، وأمكن لهذا اللقاء المذهل بين طليعة الجيش وبين هذه الملايين الغفيرة أن يُرغم الطغيان على أن يطأطئ رأسه ويُخلى الطريق . وكان ما سَمّينا به انتفاضتنا هو « الحركة » ، فما لبث الشعب بحسّه التلقائي الصادق أن منحها تأييده ومساندته فسمّاها « الحركة المباركة » . وأدركنا بعد هذا النصر الحاسم أن ما قُمنّا به لم يكن انقلابا أو حركة بل كان ثورة حقّة ، ومع هذا فقد استبقينا هذا الإحساس عميقا في وجداننا وآثرنا أن نلجأ إلى الفعل وأن نحقق كل يوم جديدا ندعم به حركتنا . وانتظرنا حتى انبرى الشعب مرة أخرى فخلع على حركتنا « المباركة » اسم « الثورة » . غير أن هذا الاعتراف لم يأت هذه المرة على ألسنة البُسطاء من الناس وحدهم وإنما جاء على لسان عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في مقالته الشهيرة بمجلة التحرير في أول ديسمبر ١٩٥٢ حيث يقول : « لم أفهم إلى الآن لِمَ أظهر رئيس وقائد الجيش [ اللواء محمد نجيب ] في بعض خطبه كُرّهه لكلمة الثورة وإيثاره كلمة أخرى يسمّى بها ما نحن فيه منذ كانت الأحداث الكبرى التي شهدتها مصر في أواخر شهر يوليو الماضي وهي كلمة النهضة .. لقد أتيح لنا البدء في هذه النهضة منذ ثلاثين عاما ، هذه النهضة التي بدأت مع هذا القرن أو قبله بقليل . فأما ما نحن فيه منذ يوليو الماضي فهو أعظم خطرا من النهضة كما ألفها الناس . ليس هو تطورا يحدث هيّنا ليّنا رفيقا في ظل القانون والدستور . ليس شيء من هذا تطورا ، وليس شيء من هذا ملائما لما كانت مصر تخضع له من نظام مقرر مألوف ، وإنما هو خروج عنيف على هذا النظام ومحاولة عنيفة لتغييره جملة أو تفصيلا . وليس للحركة التي تخرج على النظام بالقوة وتريد تغييره بالقوة أيضا ، وتخلع ملكا وتولّي ملكا طفلا وتعلّق نظام الملك بين الأرض والسماء ، ليس لهذه الحركة اسم إلا الثورة . وحقيقة الواقع أننا نحيا في ظل الثورة التي تريد تغيير النظم السياسية والاجتماعية التي ألفناها ، تبقى منها ماتراه خيرا يستطيع البقاء ويلائم الإصلاح ، وتلغى منها ما تراه شرا لتضع مكانه نظاما جديدة أجدر أن تحقّق العدل السياسي والاجتماعي .. » . وليس طه حسين



ممن يلقون القول جزافا أو على عواهنه ، بل إنه يدرك بواطن الأمور وخفاياها وحقيقة مسمياتها ، وكان إطلاقه اسم الثورة على « الحركة المباركة » لا يبعد عن الحقيقة فى شىء ، وفى كتب السياسة والاجتماع ما يكشف لنا عن مدلولات تلك المسميات ، فالثورة كما تقول المراجع : « هى تغيير عام فى مدة محدودة ، وهو ما يباعد بها عن التطور التدريجى . كما تنشأ الثورات عامة عن عجز السلطة القائمة عن أن تدير دفة الأمور مع الأزمات الطاحنة الشاملة التى تعم الطبقات جمعاء فتبليبل خواطرها وتشير نفوسها فتهبّ نائرة ، وإذا ما تهيأ لهؤلاء الثائرين من يملك زمام الأمر منهم عن وعى ونضج أطاحوا بالسلطة القائمة . وكلما كانت الثورة اجتماعية كانت أفدر ما تكون على القضاء على المتناقضات اقتصادية كانت أو طبقية ، تلك المتناقضات التى من شأنها أن تعوق مسيرة التطور الاجتماعى . ويكون أشدّ الناس تأثرا بهذه الثورة وما تنطوى عليه من تغيير ، الجيل الذى يعاصرها وينفعل بها . » وهذا التعريف لا ينافى - فيما أرى - ما قامت به ثورة ٢٣ يولييه منذ أن قامت إلى أن امتد بها الزمن سنوات أربع ، ولا يستطيع مُنصف أن ينكره عليها . كما أن هذا الخلاف حول تسمية ما وقع فى الثالث والعشرين من يولييه ١٩٥٢ ، إنقلابا كان أم حركة أو ثورة ، لا طائل تحته ولا يمسّ الجوهر ولا الغرض .

حقا إننا انطلقنا حاملين أهدافا ستّة لا تمثل برنامجاً تفصيلياً دقيقاً لكل منها ، لكنها كانت تركز على مفهومي أساسيين ، هما تخليص الوطن من قيود الاستعمار والاستغلال وردّ الاعتبار إلى الشخصية المصرية . ثم إن خلايا الضباط الأحرار قد تجمّعت من رجال مؤمنين بوطنهم وإن تنوّعت مشاربهم السياسية ورؤاهم الاجتماعية . فقد كان بيننا من تأثر بالفكر الدينى أو بالفكر الماركسى أو بالفكر الليبرالى . كان بيننا من تربّى فى أحضان حزب الوفد ومن لقن السياسة فى حزب مصر الفتاة ، ومن كان عضواً فى جماعة الإخوان المسلمين . ومنّا من لم تكن تجربته السياسية إلا ارتشافاً من الكتب الجادة فى السياسة والتاريخ والاقتصاد . لقد كنا تلاميذ أساتذة الفكر السياسى فى مصر ، وقراء الصحف والمجلات التى تعنى بقضايا الوطن والإنسان المصرى ، وكنا نتابع نشاط الأحزاب المصرية فى دقة وأناة ، فلا عجب إن ألمنا بجميع الاتجاهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى مصر خلال تلك الفترة الخصيبة ، ولا غرو إذ كنا لدات هذا التراث السياسى ، عايشناه كما عايشنا الواقع المصرى بكل انتفاضاته وخلجات شعبه ، وإن غلب علينا التعبير عن

آمال الطبقة الوسطى المتعلّمة التي كنا منها ، وشاء القدر أن يضع في أيدينا السلاح الذي نشارك به في تحقيق ما نادى به حَمَلَةُ القلم . لم نكن خلايا معزولة عن الشعب ولا عن فِكْرِهِ وأمانيه ، بل كنا أدوات المحقّقة لتطلّعاته . حقا لم نكن أصحاب إيديولوجية محدّدة لأننا لم نكن حزبا سياسيا يعدّ نفسه للوصول إلى كراسى الحكم ، غير أنه كانت لنا مبادئ لا يمكن أن تستخفى وراء الغموض ، بل كانت أكثر وضوحا من أن يختلف عليها اثنان .. وما كان من الممكن أن يخرج في ليلة ٢٣ يوليه هذا العدد من ضباط الجيش المختلفي الاتجاهات والميول السياسية حاملين رؤوسهم على أكفهم وهم يسعون إلى أهداف غامضة إلا إذا كانوا نفرأ لا يجمع بينهم رأى جامع ، بل يعيش في وجدانهم بله غريب . وأستطيع الزعم بأن الثورة قد خطت - ولا أقول حققت - خطوات جادة مخلصنة نحو تنفيذ خمس من مبادئها خلال أعوام أربعة ، وإن لم تنفّذ الهدف السادس وهو إقامة حياة ديمقراطية سليمة ، على الرغم من محاولات جادة بُذلت لتحقيقها ، فكانت تتربّص بها التيارات المضادة الجارفة ، فليس ثمة ما هو أنكى على الحرّية من ثورة ناجحة تنكّص على أعقابها .

أما عن تجربتي الخاصة فقد كانت عن الإمام بشتى المذاهب قارئا ثم دارسا على أيدي أساتذتي بالجامعة ، وإذا أنا بعد هذه القراءات وتلك الدراسات أجدني صاحب رأى « انتقائي » مستقل بين هذه الآراء المختلفة تُمليه ميولى الليبرالية ، فأخذت من هذه المذاهب ما اقتنعت به ، واطّرحت جانبا ما لم أرتضه ، وانتهيت من ذلك إلى أمرين : أولهما أن تكون الدولة في جميع مناحيها « دولة رعاية » على نحو ما نادى به فلاسفة السياسة والاقتصاد بدءا بستيوارت ملّ وانتهاء بأولوف پالمه ومرورا ببسمارك وهنرى فورد . وثانيهما الالتزام بالجمع بين الأخلاق والسياسة ، لا كما يُقال إذا دخلت السياسة من باب خرجت الأخلاق من باب آخر . فالفرد كما يمت إلى الدولة بسبب ، كذلك الدولة تمت إليه بأسباب ، وما للفرد من صحة وعافية وفطرة وخلق بل ورأى ، هذه كلها تتأثر أراد أم لم يرد بالمناخ الذى هيأته الدولة له . غير أن فى أعماق كل إنسان بذرة روحانية لا تستطيع يد الدولة أن تمتد إليها مهما حاولت ، لأنها أعصى ما تكون على الاستئصال . وهذا ما عليه المفكرون بدءا من سقراط وانتهاء برولز ونوزيك ومرورا بجان چاك روسو وچون لوك .

وأنا مع القائلين بأن يكون الدستور الأخلاقي الذي يسود الأفراد أخطر شأنا من الدستور السياسي ، ومن هنا كان صحيحا تشبيه الفرد بالشمس والدولة بالقمر الذي يستمد نوره من الشمس ، فإذا غرزة « الانتماء » تولد في النفس وتنمو مع الأيام شيئا فشيئا حتى تؤتى ثمرتها جهدا وتضحية بلا حدود .

على أن لى رأيا أرجو ألا أكون فيه بعيدا عن القصد في تحديد الفترة التي يمكن أن نطلق عليها « عهد الثورة » التي بدأت في ٢٣ يولييه ١٩٥٢ ، أهي تمتد إلى رحيل الزعيم جمال عبدالناصر عام ١٩٧٠ ، أم أنها انتهت حقا قبل ذلك ؟ وفي رأبي أن ثورة ٢٣ يولييه لم تتجاوز شهر يونيه ١٩٥٦ حين جرى الاستفتاء على دستور ١٩٥٦ وتولى جمال عبدالناصر رئاسة الجمهورية . فلقد نشأ بهذا الدستور « نظام سياسي » جديد ذو ملامح محدّدة هي « مركزية السلطة » authoritarian ، نظام يجمع السلطة كلها في يد رئيس الجمهورية دون غيره ودون مساءلة دستورية حقة أمام الشعب . ومن الإنصاف أن نقول إن هذا النظام هو أحد أنظمة الحكم المقننة ، ومن ثم فلم يكن من ابتداع عبدالناصر أو صنعه . هذا إلى أن عبدالناصر لم يدّع يوما أن أسلوب حكمه أسلوب ديمقراطي بمعناه العام . ثم لقد كان يؤمن - ولكل أن يؤمن بما يراه - أن مثل هذا النظام الذي اتخذه هو الكفيل بأن يحقق ما يصبو إليه من آمال لخير الوطن .

ولقد كان مجلس قيادة الثورة إلى أن نُحى الرئيس اللواء محمد نجيب عن رئاسة الجمهورية - التي كان أول رئيس لها - في نوفمبر عام ١٩٥٤ له وجوده الفعّال ، ولأمر ما جمع عبدالناصر بعد ذلك الأمور كلها في يده بتفويض من مجلس قيادة الثورة ، فغدا مجلس الثورة ولا مشاركة حقة له في الأمر . ولكننا لا ننسى لهذا المجلس ما قام به قبل من إنجازات وطنية جلييلة طوّرت الحياة المصرية تطويرا جذريا جديدا خرج بها من عهود مظلمة إلى حقبة وضاء .

ومن هنا كان لنا أن نقول إن « عهد الثورة » كان ثمرة لإرادة جماعة من الثوّار ثاروا لمبادئهم الستة المعروفة ، وإن « عهد مركزية السلطة » مرّده إلى عبدالناصر مبنى ومعنى ، إيجابا وسلبا . وبهذا يكون « عهد الثورة » هو مرحلة توطيد أركانها بتصفية المعارضة الموجهة ضدها سواء من اليمين أم اليسار أم الأحزاب السياسية ، وتتبع خصومها في مؤسسات الدولة ، كما أنه فترة

الاهتمام بقضية التحرر الوطنى وتحقيق الاستقلال السياسى والبدء فى الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى بإصدار قانون الإصلاح الزراعى وإسقاط نفوذ كبار الملاك الزراعيين . وقد تم ذلك كله بأسلوب التجربة التى قد ينتابها الخطأ ، واعتماد « التوفيقية » أحيانا فى تبنى المشروعات الإصلاحية.. ولا غرو فقد كان قادة الثورة أنفسهم أمام مسئوليات كبرى وهم بعد شباب فى مقتبل العمر لم يخوضوا من قبل تجربة فى مناصب الحكم ولم يُدربوا على ذلك فى حزب سياسى .

وليس ثمة ثورة لم تجد من يكون لها ومن يكون عليها ، فهذا شأن الثورات جميعا . فالثورات عامة لا تخلو من أن يُضار بها نفرٌ ليس عن عمدٍ منها ، ولكن تلك طبيعة ما تُحدثه من تغييرات اجتماعية من شأنها أن تثير هؤلاء عليها فكرا وسلوكا . وما من شك فى أن جمال عبدالناصر كانت له صفة الزعامة القوية ، وما من شك فى أنه كان فى وطنيته مضرب الأمثال ، وفى نزاهته وطهارة يده قدوة تُحتذى ، وفى عفة نفسه أبيا لا يلين ، ثم ما من شك أيضا فى أنه قد أزاح عن مصر كابوس الاستعمار ، فخاض معارك ضارية لا يستطيع خوضها غيره مع الاستعمار البريطانى والفرنسى القديم ثم مع الاستعمار الأمريكى الجديد ، إلى أن تكاثف عليه هؤلاء وهؤلاء بغية القضاء عليه ، وإذا قوى التسلُّط الخارجية - التى عهدناها دوما تناوىء كل حاكم جاد يقوم فى مصر أو فى غير مصر من بلدان الشرق - لا تترك فرصة تسنح لها للنيل منه بشتى الوسائل والأساليب إلا انتهزتها ، وإذا هم آخر الأمر يبلغون ما يريدون . لقد كان عبدالناصر بحق القوة الدافعة وراء ما نالته مصر الحديثة من وزن عالمى كبير وما حدث فيها من تطور اقتصادى اجتماعى لا سبيل إلى إنكاره ، فلقد أرسى قواعد جديدة للنهضة اجتماعيا وسياسيا وحضاريا ، وحسبه ما قدم فى ميادين التصنيع والزراعة والتعليم وإعادة توزيع الدخل وتحرير الاقتصاد المصرى من سيطرة رأس المال الأجنبى ، كما كان على الدوام نصيراً للمهضومين ففكَّ عن الطبقات المستضعفة ربقتها ، كما أتاح لها الفرصة إلى مستقبل أنضر كان يُعدُّ من قبيل المستحيلات . وكان أقصى أمله أن يرى العرب أمة واحدة قد اجتمع شملها فى كيان واحد ، بعد أن حظى الإنسان المصرى والعربى عامة على النطاق العالمى باحترام لم يكن له من

قبل . هذا فضلا عن إنجازاته الأساسية الخالدة مثل قانون الإصلاح الزراعى ، وتأميم قناة السويس ، وتشبيد السد العالى ، وإحقاق عروبة مصر ، وإقدامه على تحقيق وحدة بين مصر وسوريا غير أنها ما لبثت أن أجهضت ، وتأيبده الإيجابى لحركات التحرر وتقرير المصير الأفريقى ، إلى غير ذلك من مآثر جليلة سجلها التاريخ ولا يستطيع أن ينكرها إلا جاحد . وما إخال جمال عبدالناصر وسط ما أحاط به من شدائد وأعاصير قد غاب عنه ما قاله أرسطو قديما من عبارة مأثورة : « ما خطر ببال متطلع إلى أن يقود أمته أنه سوف يعيش فى رغد وهدوء ، فالطريق إلى السيادة مملوء بالشوك والقتاد » . كما لا إخاله قد غابت عنه قوله بنيتو موسوليني المعروفة : « على القادة أن يتجشموا المخاطر Vivere Pericolosamente » .

ولكن الضائقين به ممن مسهم منه ضر فى جاههم أو مالهم نتيجة للتغيرات الثورية أو كانوا على رأى سياسى غير رأيه ، أو حصلوا على مغنم لا تعد ولا تحصى فى عهد من خلفه ، لم يروا فيه إلا شيطانا رجيمًا لم يجيء على يديه خير ما ، وكأننى بهؤلاء لم يروا عبدالناصر وإنجازاته إلا وعلى أعينهم منظار أسود ، بينما الحقيقة لا يفصح عنها إلا ما هو كلى لا جزئى ، فكثيرا ما تكون الجزئيات مشوهة لكنه الحقيقة . والتعميم كذلك ليس من منطق التاريخ ، فليس ثمة ما هو حلوبحت ولا ما هو مربحت ، بل ثمة أيضا ما بين هذا وذاك . وكذا الرجال لا يكون كل ما يصدر عنهم خيرا كله ولا شرا كله ، فالخير والشر ممتزجان لا يفرقان ، تمازج الخيط الأبيض بالخيط الأسود لُحمة وسدى .

وإذا كان ثمة فريق ممن استعان بهم عبدالناصر كانوا على مستوى كبير من الوطنية والشرف والكفاءة تم على أيديهم الكثير مما تحقق من إنجازات هامة فى عهده لا سبيل إلى إنكارها ، فلقد كان إلى جانب هؤلاء نفر كانت عليهم تبعة الكثير من السلبات التى نسبت إلى تلك الحقبة . وفى علمى أن بعض هؤلاء الذين كان يؤليهم ثقته كانوا يعرضون بعض الأمور التى يرفعونها إليه مَعَمَّة مزيفة بما يتفق وهواهم وتحقيق أغراضهم . وقد يقال إنه ليس غريبا أن يقع الحكام فى مثل هذا لاسيما إذا كانوا يحملون أعباء ثقلا كثيرة تحول بينهم وبين النظر فى كل دقيقة من الأمور . ولكننا لا ننسى ولا نحب أن ننسى .

أن الحكام مهما نُقلت تبعاتهم فهم المسئولون الأول عن كل ما يجرى على أيدي أتباعهم ، ولا يشفع لهم أن يقال إنهم ما كانوا يدرون مما يجرى حولهم شيئا ، فتلك أنكى وأمر . ومن هنا كان على الحكام الذين يحملون مثل هذه الأعباء الجسام أن يكفلوا لشعوبهم - التي التفت حولهم وألقت بمقاليد الأمور بين أيديهم - ضمانات تحول دون تسلط أمثال هؤلاء على مصائرهم .

وفيما عدا حَفنة من خصوم عبدالناصر لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة عدا ، التزموا بمواقفهم لم يحددوا عنها أولا وآخرا حين كانوا موالين لعبدالناصر ثم حين كانوا مخالفين له في الرأي إبان حياته ، يعلم الله أن من بين الكتاب الذين يهاجمون الثورة وعبدالناصر الآن مَنْ كانوا على غير هذا فيما سبق بل كانوا يؤيدونه حقا وباطلا حتى لقد كادوا يؤلّوهونه . وخير دليل على ما أقول ما جاء بأقلامهم في الصحف التي كانوا يكتبون فيها ، ومن شاء فليرجع إليها . ولكن المسار لم يكن ممهدا لهم جميعا على طول الخط ، فإذا عبدالناصر يستبعد بعضهم الواحد تلو الآخر بعد أن انكشف إليه أمرهم ، وما إن انتقل إلى جوار ربّه حتى انقضوا عليه بكل ضراوة . وما لبث أن انضم إليهم رجيل من الناشئين أغراهم وبهرهم ما حظى به أساتذتهم من مال أو جاه أو نفوذ مؤخرا فمضوا على الدرب نفسه . وليس بجديد على الحياة أن نرى من كانوا يصقّون لعبدالناصر حيا قد انقلبوا عليه ميّتا ، فإذا المآثر كلها مثالب بلا استثناء . ولم يكن عهد عبدالناصر كله سيئات كما يصوّرون ، فعلى الرغم من أولئك الضالعين في النيل من عهده ، وعلى الرغم ممن وراءهم ، فلا ينكر منصف على « الثورة » ونظام « الحكم الناصري » إيجابياتهما . إن المرء - لاسيما الجيل الناشئ - ليحسّ وهو يطالع تلك الافتراءات أنه لم تكن في تلك الحقبة زهرة نضرة بل كانت كل الزهرات ذابلة يابسة . ورسالة الكاتب المنصف أن يتناول الأمور بميزان عدل حتى نعطي كل ذي حق حقه لرجال سبقوا إلى رحمة الله ، لكي يبقى الوطن تربة طيبة توجد بالأبطال على مرّ الأزمان ، وإلا نكون قد كتبنا على أنفسنا أن نعيش أمة لا بطولة فيها .

وما أنا بمتهم للكتاب جُملة ، بل إنى لأومن الإيمان كله بأن بينهم في القديم والحاضر من كانوا حَملة أقلام طاهرة غير مغرضة ، فلم يستحسنوا من

عبد الناصر إلا ما كان حسنا ولم يستقبحوا منه إلا ما جانب الحق . ثم على هذا وذاك لم يُتهموا بالرياء حين أثتوا عليه فرفعوه إلى مرتبة عالية حياته ، ولم يهبطوا إلى السوقية حين عابوا عليه بعض ما كان بعد مماته . هل أن الآوان أن نطوى صفحات الماضي بما فيها من خلافات ومات ، ونكف عن هذا التناؤ والتخاصم والتشهير والتشائم ، تلك الأمور لا تليق بأمة لها كيائها الحضارى . وماضيها التليد ، فلقد كادت البغضاء البعض والبعض منا أن تكون أشد من البغضاء لخصومنا الألداء الذين صون بنا الدوائر . والتاريخ يحدثنا أنه ما من أمة مُنيت بخلافات داخلية هذا القبيل إلا كان نصيبها الخسارة والضّياح . فواجبنا الذى يُمليه الضمير المُفعم بالحب لمصر أن نفتح صفحات جديدة لا يُسطر فيها إلا ما هو ودّاء وصفاء ، ونطرح جانباً ما هو مدعاة للفرقة والشقاق .. فنجمع الحَبّات نائرة فى عقد واحد والأطراف المبتورة فى جسد واحد ، لا تناؤ ولا حن لبناء هذا الوطن الذى هو أحوج ما يكون إلى أيد متضامّة وقلوب نعمة ، حتى لا نمكّن أعداءنا من أن ينالوا منا متفرقين ؟ وما أظن هذا على بعيد .

على أن كونى واحداً من المشاركين فى ثورة ٢٣ يولية لا يجعلنى أقف موقف المدافع عن مسلكها وعن جميع ما اتخذته من قرارات إن خيراً ، شراً . إنى أوّمن بها حقاً وأكِنُّ لقائدها الغالى الحب والوفاء والتقدير ، د منحتها الإخلاص الذى هى به جديرة ، وأوّمن أيضاً أنه مما يشين أن مق فى المياه التى شربنا منها ، ولكن إذا كنت أعترف بأنها حققت من نجاحات ما أحدث أثره لا فى مصر وحدها ولا فى المنطقة العربية فحسب . عبر العالم الثالث كله ، فإنى أعترف أيضاً أنه خلال فترة « الثورة » وخلال ثرة مركزية السلطة « قد وقع فى عهديهما مالم يكن ينبغى أن يقع . وما قد ه القارىء فى كتابى هذا من خلاف فى رأى مع الرئيس جمال عبدالناصر لعته ببعضه فى حياته ما وانتنى الفرصة وبعض آخر عن لى بعد رحيله ، فهذا يعنى انتقاصاً للودّ الذى كنت ولا أزال أضمره له .. والخلاف فى رأى يعة الوجود ولا يستقيم وجود دونه .

وإذا كان هناك من مأخذ بعد استتباب الثورة واستقرارها فهو منهج الحكم

الذى ترسّخ خلال فترة «مركزية السلطة». فعلى الرغم مما حققته من إنجازات اجتماعية واقتصادية شامخة رائدة ومواقف رائعة فى السياسة الخارجية خاصة إلا أنه قد صحبها ما جنح بها حيناً عن سواء السبيل . وهو ما يفسّره قول الوزير الإنجليزى الأسبق أنطونى ناتنج : « كما كانت إنجازات عبدالناصر شامخة عملاقة ، كذلك كانت سلبياته مأساوية جسيمة » . ومن طبيعة الكثير من الثورات أن تتعجّل خطى مسيراتها فتبتنى عن صدق وعقيدة الحكم المطلق ليكون مطيّتها إلى أهدافها الكبرى ، متصوّرة فيه سلامتها وسرعة تحقيق إنجازاتها ، وهنا تخطئ خطأ جسيماً فى حق نفسها وفى حق الأجيال التالية ، لأنه المكنم الذى يؤتى منه الحذر . إنه كعب أخيل الذى ينبغى أن يكون درساً نافعا لبناء المستقبل . فالسلطة المطلقة بسحر إغرائها كلما رشف منها الحاكم - أى حاكم - مُتعة فجّرت فى أعماقه ظمأً جديداً ، فثمة ذِروة خفية تستحثه أن يبلّغها ، كما أن السلطة فيما يقال مدعاه إلى الانحراف ، والسلطة المطلقة مدعاه إلى الانحراف المطلق .

وإنى لأرى أن أكثر أخطاء الثورة على امتدادها لم تكن وليدة الحاكم نفسه بقدر ما كانت وليدة منهج الحكم الذى يشكّل بيئة تترعرع فى تربتها قوارض النماء . لقد أضع أسلوب الحكم من الزعيم جمال عبدالناصر: فرصة لم تتح لغيره ، فقد بلغ فى إحدى مراحل حكمه مرتبة أسكنته قلوب الجماهير المصرية والعربية بل والشعوب الأخرى ، حتى كانت تكفى إيماءة من سبّابته لتحرك نحوه الجموع طائعة مختارة . ولو أنه أطرح عن نفسه النهج السلطوى آنذاك لसार بالشعب إلى ذرى آماله التى كان ينشدها . وإنى لأوقن اليوم - ولا سيما بعد أن أنضجتنى تجارب العمر - أن أطراح الحكم الفردى هو طوق النجاة للأمم والشعوب بغير نزاع . فعلى الرغم من بُعد الشقة فى النظام الديمقراطى ومن أنه محفوف بالمكاره والمصاعب غير أنه يُفضى آخر الأمر إلى برّ الأمان ، وكأنى بالمؤسسات الديمقراطية تؤدى دور الحَجَرِ الصّحى الذى يكبح جماح شهوة السلطة المطلقة المُزْمَن ، وهو دور لا غنى عنه رغم ما قد يعتور إجراءاته من ببطء وإثقال . على أنه من الإنصاف أن أسجل أيضاً أن عبدالناصر قد فطن إلى ذلك بأخيرة على نحو ما سيرى القارىء بعد ، لكن العمر لم يمهله للأسف كى يمضى إلى طريق «الخلاص» .



ومحال أن يكون ثمة نظام سياسي ديمقراطي في ظل السنين الأولى للثورات ، والتاريخ خير شاهد على ذلك ، إذ لا بد للثورات من فترة يُرعى لها فيها لتحقيق أهدافها التي قامت من أجلها ولتُرسى مبادئها بما تتناوله من تغييرات اجتماعية واقتصادية تحقق للأغلبية وجودها. حتى لا يكون للأقلية الطبقية بعدُ فرصة للهيمنة عليها . وما إن تنتهى هذه الفترة حتى يُرد الأمر إلى الشعب ليختار نظام الحكم الذي يرضاه . ولعل إرخاء عبدالناصر للفترة الثورية كان مبعثه ومبرره ذلك التأييد الشامل الجارف الذي حظى به لا في مصر وحدها بل في شتى الأقطار العربية جمعاء تقديرا لزعامته وإيمانا بأنه الرجل الذي جاد به الزمن ليخلص مصر بل الشرق من قبضة الاستعمار . من أجل هذا اطمأن الناس به حاكما ثوريا وتجاوزوا عما جاء في عهده من سلبيات مرّ بعضها في ثنايا هذا الكتاب ، سُقّتها لتكون لنا عظة وعبرة كي لا نقع في أمثالها في حاضرنا ومستقبلنا . والتاريخ يحدثنا أنه ما من عهد هنا وهناك على مرّ الأجيال والأيام خلا من سلبيات ، وهل مِنّا مَنْ هو معصوم من الخطأ ، فما أصدق قوله المسيح عليه السلام : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » ، ثم ما أصدق قوله أيضا ، إنه قبيح بالمرء أن ينظر إلى القذى في عين أخيه ولا ينظر إلى الخشبة في عينه . فمن مِنّا من ليست له زلة ، غير أن ثمة فرق بين زلة تجيء عن عمد ودراية وزلة تجيء عَرَضاً وعفواً . ويُخيل إلّى أن العمر لو امتد بجمال عبدالناصر لعالج تلك السلبيات وردّ الأمور إلى نصابها الحق الذي كان ينشده ويبيغيه ، ولآمن قبلي بما أقوله الآن وجري على لسانه ما يجري به لساني ، فما كان يجري في الخمسينات والستينات يستحيل جريانه في الثمانينات والتسعينات ، والأزمان تمرّ ومع مرور الأزمان تختلف الظروف والأحوال .

وما من شك أيضا في أن العنف الثوري ظاهرة تعايش الثورات أنى كانت ، إذ لا مناص للثورات من أن تحتاط من خصومها لتأمين انقضاءهم عليها . وقد متفاوتت درجات هذا العنف من ثورة إلى أخرى لوفق ما ينزع إليه خصومها . والرأى السوّى أن هذا العنف يجب أن ينتهى إلى غاية لا يتجاوزها حسب ما تفرضه الاعتبارات الإنسانية . ولقد كان شعار الثورة المصرية حين قامت أنها ثورة بيضاء ولهذا لم ترق فيها دماء ، ولم تصحبها ما صحب غيرها من مذابح ،

وإذا هي تضطر مع مرور الأيام إلى مسلك آخر ظننته أرفق بالخصوم وأرحم حين زجّت ببعضهم إلى المعتقلات للحيلولة بينهم وبين ما يبتغون من ضرب الثورة وإفشال ما رسمته من أهداف ، فإذا هذا اللون من التحفّظ يتحوّل - على أيدي زبانية وجلّادين محترفين تبرأ منهم الثورة وثوارها ولم يسلم عهد من أمثالهم - إلى إهدار للإنسانية . وما أظن هذا الذى لحق المعتقلين كان مما يجيزه أحد ، بل لقد وقع على أيدي نفر مرضى القلوب غلاظ الأكباد يفقدون كل مقومات الإنسانية ، بهم ظمأ إلى الشرّ وإلى النيل من الضعفاء والتهوين من كرامات الناس ، فلا يمكن أن يخال أحد أن تمضى أجهزة الأمن على اختلاف ألوانها وأسمائها على ما أُلْفناه عنها قبل من عنف وقسوة على أيدي شِرْذمة من النّهّازين المتسلّلين يتظاهرون أمام الناس بأن القوة فى جانبهم وهم فى حقيقة الأمر ضعاف النفوس ضماثرهم خواء . فكانوا أشبه ما يكونون بالجرائم الخفية تبتّ سمومها الفتاكة التى لم يتضح أثرها الشائن المعيب إلا بأخيرة حين كُشف الستار عن تلك الخبايا الرهيبة البعيد على عقل عاقل أن يتخيّلها أو يُجيزها . فما خرجنا يوم خرجنا نحمل رءوسنا على أكفنا لنحرّر شعبنا من عبودية الاستعمار والسلطة المتعاونة معه لنردّهم مرة أخرى إلى الرقّ والهوان .

ومن أسف أن مثل هذه الأمور لا تسيء إلى القائمين بها فحسب ، بل إلى النظام كله . ومن أسف أيضا أن الثورات - كل الثورات - تحفل بما يشينها فى نظر الناس ، إذ هى بما يتسلل إليها من أمثال تلك الجرائم أشبه بالصورة الشعرية التى رسمها هاينريش هاينى حين قال : « ما أكثر ما تجتذبنا الثورات إليها بروعة هالاتها السحرية عندما نقرأ عنها كلمات أنيقة مُبهرة ، فتكون أشبه ما تكون بالمشاهد الطبيعية الجذابة المصوّرة على ورق مصقول ، موحية بالصفاء والألفة . غير أنك مع الصورة لا يبلغ أنفك منها عفن أكوام الرّوث ، ولا تقع عينك فيها على راكد مياه المستنقع » .

كذلك يتساءل الناس لِمَ لَمْ تمض الدولة فى السبعينات فى معاقبة أولئك الجناة جميعهم الذين أساءوا إلى الثورة بتكليفهم بالناس شرّ تكتيل بعد أن أزيح الستار عن أفعالهم ، فإذا هى تتكبّ السبيل وتكيل بكيلين ، تُدين بعضاً وتقمض العين عن بعض عن عمد ، لا لسبب معقول ولكن لأمر خفية لا تزال

مستورة . وما من شك فى أن المؤرخ المُنقَّب سوف يكشف النقاب عنها يوما .  
ولقد كنت إبان السنوات الأربع التى كانت عمر « الثورة » ضابطا بالقوات المسلحة ، إلى أن ارتأى جمال عبدالناصر مع قيام نظام « مركزية السلطة » فى يونيه ١٩٥٦ أنه لابد من إعفاء الضباط الأحرار - وكان عددهم لا يتجاوز التسعين - من الخدمة العسكرية حتى لا يجمعوا بين النقيضين : الجندية والسياسة . ثم شاركت فى نظام « مركزية السلطة » فكنت فيه سفيرا بروما فى الفترة من أكتوبر ١٩٥٧ حتى أكتوبر ١٩٥٨ ، ثم وزيرا للثقافة مرتين ، الأولى من أكتوبر ١٩٥٨ إلى سبتمبر ١٩٦٢ ، والثانية من سبتمبر ١٩٦٦ إلى نوفمبر ١٩٧٠ . وهكذا مكثت سفيرا لمدة سنة أو تزيد ، ووزيرا للثقافة مدة سنوات ثمانى تفصل ما بينهما سنوات أربع كنت فيها رئيسا لمجلس إدارة البنك الأهلى المصرى . ويعلم الله أنى ما سعت فى أمر من أمور حياتى إلا فى اثنين أولهما اختيارى الكلية الحربية دون غيرها من الكليات ، ثم اختياري أن أعكف على دراسة الأدب والفن دراسة أكاديمية . أما ما عدا هذا فيعلم الله أيضا أنه لم يكن عن رغبة منى وإنما كُلفت به تكليفا ، وأحمد الله أننى كُلفت بخدمة الثقافة بعيدا - إلى حد ما - عن الانخراط فى معمة الصراع على السلطة بما تزخر به من تيارات متنافرة .

وكان لزاما على أن أكتب فيما أكتب عن وزارة الثقافة وعن عهدى بها ، لا إطراء لعمل أدبته ولا نبلاً من عمل غيرى ، فإن كل ما أهدف إليه أن أضع الحقائق بين أيدي الناس تنطق وحدها بما هو لى وبما هو على فى حقل العمل الثقافى . ووجدتني مدفوعا إلى أن أعرض لقضايا فكرية بينها وبين الثقافة صلات وثيقة ، وكنت فيها على خلاف أحيانا مع آخرين . وقد أدركت أول ما أدركت أن من أولى مهامى أن أجمع من حولى من لهم كفاياتهم الممتازة للاضطلاع بما يُسند إليهم ، ولم يكن هذا بالأمر اليسير ، بل كان لابد من تودة وأناة . وما أدعى أنى قد وقفت كل التوفيق فيمن اصطفت فلقد بدا من البعض ما خيب ظنى ، ولكن حسبي أنى قد ظفرت بجمهرة من الكفايات المناسبة فى الوقت المناسب ، مهّدت لهم السبيل ليعملوا معا فى توافق وانسجام . وأعتذر للقارئ إذا كنت قد فضلت فيما عرضت من أمور العمل الثقافى تفصيلا فيه إسهاب ، ولكن كان لابد من هذا الإسهاب حتى لا يكون

ثمة لبسٌ ولا يكون ثمة مجالٌ لمدّح أن يدّعى ما ليس له . وليس لأحد أن يستهين بما كان لمن سبقوا من تجارب ، فما جاءت تجارب السابقين إلا عن بذل غال استرخصوا في سبيله ما يملكون من جهد ونفس لا يبيغون عنه عوضاً ولا أجراً . وسنة الوجود أن ينتفع الخلف بما ترك السلف وأن يهتدى الحاضر بتجارب الماضي حتى لا يضل في دروب المستقبل .

وما أكثر ما يخلق المسئول لنفسه خصوما مع كل قرار تخطّه يمينه ، فهو بين اثنتين : إما أن يجمد في مكانه لا يعمل شيئاً ، وبهذا قد ينال رضا الناس جميعاً ، وإما أن يمضى في تحمّل المسؤولية كاملة ، لا يعنيه رضى البعض أم سخطوا مادام يُصدر فيما يُصدر عن إيمان بأن ما يفعله هو الحق والواجب . وكان هذا شأنى مع البعض ، فكم ثارت خصومات لا لهدف ذاتى ، بل لقرار آمنت به استملاء من الواجب وحده فأغضبهم . وكم رأيت من طامعين يرغبون فى المزيد ولا يقنعون بما نالوا - وكان فوق ما يستحقون - ولم يكن تحقيق رغباتهم مما يتفق وواجب المسؤولية ، فالمسئول وإن كان يملكه أن يفعل ، لكن ثمة واجب يحدّ من فعله . فإذا أنا أخسر بالتزامى بالواجب أفراداً ممن كانوا أصدقاء ، وإذا أنا أراهم بعدّ من أشدّ الناس جحوداً وإمعاناً فى الخصومة . وهكذا كان لى مع جهودى أصدقاء وأعداء ، وهذا شأن كل عامل ، فمع السكون تنمحي العدوّة ، ومع الحركة يتبيّن العدو والصدى .

وما أكثر من أساءوا إليّ دون سبب أعلمه ، منهم من عادانى مُعلنًا عن عداوته دون مواربة وما ضقت بمثلهم ، ومنهم من كان يواجهنى بغير ما يُخفى فيلقانى مُثنيًا وإذا ما غاب عنيّ أطلق لسانه هاجبًا ، ومنهم من كان يدسّ لى فى خفية ، ومنهم من أوليتهم ثقتى وقرّبتهم إليّ فإذا هم بعدّ عيونٌ عليّ أحبّ شيء إليهم الغدر بى . فما أصدق حكمة أمنمحات حين قال : « هكذا كان من أكل خبزى هو أول من تنكّر لى ، ومن مددت له أنا يدى بالخير هو أول من مدّ يده إليّ بالشر » . وإنى لأصدق القارىء فأقول إنى كنت على وشك أن أضيّق بهؤلاء غير أنى سرعان ما كنت أستعيد هدأتى حين أذكر قول جبران : « عيشوا نهبا لغشّ الغاش وخداع الخادع . أجل كونوا صيداً للخديعة وارتموا فى حبالها ولو سخر منكم الناس .... فليس هذا كلّ بضائركم » .

وأخيرا فإذا أحسَّ القارىء أنى لم أذكر بعض من أعرفهم بقليل أو كثير ، فليس هذا عن تنقّص لشأنهم وما بذلوه فى سبيل الوطن ، وإنما لقلّة ما بين يديّ عنهم من معلومات تُعيننى على أن أذكر ما لهم . ثم أنا فيما أكتب لم أقصد أن أقف موقف المدافع عن نفسى أو أن أضيف إلى جهودى جهدا لم أفعله ، فما هى إلاّ ذكريات رجل أدّى واجبه وتحمل مسؤوليته على قدر ما استطاع فحسب ، فيها ما لى ، وفيها ما علّى ، وإنه لتخالجنى رغبة شديدة فى أن أسرّ إلى القارىء بما رآه بعض المعارف والأصدقاء ممن أتق فى أمانتهم معى من عيوبى الذاتية . فقد ذهب أحدهم وهو صحفى مرموق إلى أن بى عصبية فائرة ، وأنتى منطو على نفسى متفوق لا أخرج إلى الناس إلا حين أكون مدفوعا إلى ذلك دفعا ، وأنتى فى كثير من الأحيان أصدر أحكاما بالغة الحدّة ، ذلك أنى دون إحساس منى بالعداء أتصور الناس فريقين : أبيض وأسود .. مع منهجى أو ضدّه ، وهكذا .

وأضاف أستاذ جامعى جليل كان وما يزال قريب الصلة بى بأنى قليل التحفّظ مع الناس ، إذ أنى أبادر بمنحهم ثقتى دون أن أتبيّن حقيقة دخيلة أنفسهم وهو ما جرّنى إلى أن أضرار من البعض ممن منحتهم ثقتى ، وهو أيضا ما يجعلنى بعد ذلك أسقطهم من حسابى دون رجعة ، فأبدو بذلك متقلّبا فى نظر الناس عنيفا . وما أظننى عنتفت فى حياتى بادئا ، ولكننى لا أنكر أن هذا العنف الذى كان يبدر منى حينما كان دوما ردّا على إساءة لحقتنى .

وعزا هذا كله صديق آخر موصول كل الصلة بالسلوك الإنسانى إلى أن من صفات شخصيتى التطرّف مع رهاقة المزاج ، ويسترسل صديقى فيقول إن هذه السمة كانت من الأسباب المباشرة لانطوائى وانعزالى ووقوفى عن مسaire البعض من الزملاء إلا من كان مثلى نزعة وميولا .

وأقول إن هذا كله حق ، غير أنى آثرت أن أقدم نفسى إلى القارىء بما رمانى به بعض معارفى وأصدقائى من عيوب ذاتية ، وأحمد الله أنهم توقّفوا عند هذا الحدّ فلم يضيفوا مزيدا يوجعنى ، فلا يضير المرء أن يعرفه الناس بصفته : ما يُحبّ منه وما يُكره فيه . وما أصدق هذا الصديق الأخير فيما وصفنى به ؛ فلقد أحسست منذ مشاركتى فى الثورة فكراً ورأياً وعملاً ، ثم فى

الوزارة التي تحملت أعباءها سنين ثمانى أنى كنت بين معظم رفقاءى غربيا عنهم نزعة ومشارب وميولا برغم اجتماعنا على أهداف متقاربة . وفى الحق أيضا إنه لم يكن من طبعى أن أكون محترف سياسة بل كنت فيما نهضت به ذا نزعة ثورية ، وبين هذا الطبع وتلك النزعة اختلاف .

ولعل القارىء يعرفنى الآن بعض المعرفة قبل أن يرافقنى خلال هذه السطور التي استغرقت ما يقارب نصف قرن ، والتي ستخرج بنا عبر حدود الوطن إلى بلاد أخرى تزخر بأمواج السياسة ، كما تزخر بمواطن جمال فنّي وأثرى وطبيعى كانت ملاذى خلال عملى ورحلاتى بالخارج ، فنفدت بسحرها إلى وجدانى حتى بت لا أملك الانسلاخ عنها . وفى ظنى أن بعض من تشغلهم الشئون السياسية وحدها سيصرفون النظر عنها ويتعجلون قلب صفحاتها . وشفيعى فى إدماجها ضمن هذه السيرة أننى أعتقد أن البعض الآخر سيركن إليها كلما أثقلت هموم السياسة حتى يستروح فى ظلالها بما يعينه على العودة إلى الموضوعات السياسية ، وجفافها على النفس ثقيل .

وبهذا تكون هذه المذكرات شقين : واقع لا مسحة للخيال فيه ، يتناول الثورة ومشاركتى فيها وجانبها من حياتى العامة ، أعنى حياتى الرسمية فى مصر والخارج ، عسكريا ودبلوماسيا ووزيرا وكاتبا وعضوا بالمجلس التنفيذى لمنظمة اليونسكو . أما الشق الثانى فتأملات قد يكون للخيال فيها نصيب ، أياما عشتها بعيدا عن السياسة وخواطر عما شاهدته فى أوروبا . وهذا الخيال الذى أضفته لم يجيء من مجهول ، وإنما هو لا شك كان مُضمرًا فى نفسى ، وما إن أخذت فى الكتابة حتى فاض على قلمى . وما أصدق ميكلا نجلو حين كان يقول عن تماثيله إنه لم يُزد على الحجر شيئا ، وإن ما يراه الناس بعد نحتة إياها كان مستكنا فى جوف الحجر منذ الأزل ، وكل ما فعله هو أنه أزاح القناع عن السرّ الدفين .

## الفصل الأول

# تجربتي ضابطاً بإصلاح الفرسان





## ١ شذرات من الأمل البعيد

منذ سنّ الأولى كان أبى هو مناط حبى وإعجابى ، وكان أشوق ما يصبو إليه أن يرانى رجلا من رجال القانون . من أجل هذا مال بى إلى كلية الحقوق ، ولم تكن بى رغبة إلى تلك الدراسة ، ولم تكن الشهور الستة التى قضيتها بتلك الكلية كفيلة بأن تجذبنى إليها ، فكم كنت أحمل نفسا تواقا إلى الأدب والفن . غير أنه لم يكن بعيداً عن ناظرى أيضا ما كان عليه جدى وأبى ، فلقد كان كل منهما رجلا عسكريا ( ١ ) ، لهذا نزعَت نفسى منزعتهما ، وإذا أنا دون علم من أبى ألتحق بالكلية الحربية ، وكأن القدر الذى قدّر لى هذا قدّره لكى أشارك فى ثورة وطنية . وها أنذا أخطّ ما أخطّه الآن لكى أسجل ذكريات تلك الأحداث تباعاً .

وكانت تجربتى فى الانتقال من حياة مدنية إلى حياة عسكرية صارمة مليئة بالمشاق ، كانت ولاشك تجربة حافلة بالدروس البناءة فى تنشئة الشخصية العسكرية من اعتماد على النفس واحترام للقوانين وطاعة للرؤساء ومنافسة شريفة وتعاون كامل مع الفريق وغرس روح الجماعة والشعور بالانتماء الذى

لا يفارق الرجل العسكرى مدى حياته . وكان لابد لنا أن نقضى فترة أولى بالكلية الحربية تسمى « فترة المستجدين » مدتها خمسة وأربعون يوما ، وإذا نحن بعد هذه الفترة قد ألفنا تلك الحياة العسكرية ولم نعد نبرم بها بل على العكس فقد أصبحت محبة إلينا تجرى مجرى الدم فى شراييننا .

ولقد كان لنا فى كثرة من ضباطنا خير قدوة احتذيناها وأطيب مثل تمثلناه ، حتى أنى ما أزال أذكر بتقدير كبير اللواء عمر الطنطاوى رحمه الله الذى تخرج على يديه جيل بعد جيل أعتقد أن بعضهم ما يزالون لهم نشاطهم فى الحياة العامة متأثرين بما بثه فيهم من قيم رفيعة وتغليب للنفع العام على النفع الذاتى . ولقد كنا جميعا ونحن نهاب فيه صرامته وشدة محبته له مطيعين لأوامره ، إذ كنا نحس أن وراء هذه القسوة حرصا على تنشئتنا تنشئة سووية صلبة لا تلين . كما لا أنسى اللواء محمد كامل الرحمانى قائد السرية التى كنت فيها والذى كانت له مثاليته خلقا وعلمًا ونزاهة ، وكم كانت له من وقفات بعد فى الدفاع عن الشرف العسكرى والدأود عن القضايا الوطنية فى السلم والحرب على السواء .

وفى أعماقى تحيا دائما ذكرى البطل الشهيد أحمد عبدالعزيز الذى كان يدرس لنا التاريخ العسكرى ، فقد كنا نترقب محاضراته بفارغ الصبر مشوقين إليها لما كانت تحويه من معلومات شيقة وخبرة ثمينة نصغى إليها مبهورين . وكم كانت له من لمحات فى خلایا حديثه تؤجج فىنا العزيمة وتحفز على التضحية والفداء . ولقد كنت بين فريق الفروسية الذى اختاره للركوب الراقى [ فريق الركبدارية كما كان يسمى وقتذاك ] قفزا فوق السدود ومهارة فى استخدام السيف والمزراق لإصابة الأهداف . . وكنا نراه فى قاعة التدريب غيره فى ساحة التدريب ، فعلى حين كان فى الأولى لينا رقيقا كان فى الثانية حازما شديد القسوة ، فما كان يرحم مخطئا من عبارات التأنيب القاسية التى نالنى منها الكثير ، وهو ما أضقت به أول الأمر ثم مالبت أن عدت راضى النفس بعد ما تبينت قيمة قسوته ونفعها لنا . ولقد رأيت فيه دوما التزاما بالرأى الذى يدين به فلا يحيد عنه مهما كلفه ذلك من صعاب وتضحيات حتى بات مثلى العسكرى الأعلى . وما ننسى له أنه كان أول فدائى استقال من الجيش لتكوين « القوة الخفيفة » التى انضم إليها آخرون لناهضة عصابات الصهاينة فى فلسطين قبل أن تعلن مصر

والدول العربية الحرب عليها ، ثم استشهاده في سبيل مادعا إليه . وفي الحق لم يكن البكباشى أحمد عبدالعزیز قائد فذاً وبطلاً لا يبارى وقدوة جديرة بالاحتذاء فحسب ، بل كان إلى جانب هذا معلماً يبت في وجدان تلامذته أسمى المبادئ التى تخلق منهم رجالاً على طابعه وشاكلته . وما طاف بخيالنا ونحن نوسده الثرى أننا غيبهناءه في باطن الأرض بل كنا نحس أننا قد نصبنا نصباً عالياً يبقى شاخاً مدى الحياة .

\* \* \*

وعند التخرج من الكلية الحربية في أبريل ١٩٣٩ كان ترتيبى الخامس بين زملائى المائة والعشرين في الدفعة ، وكان من حق الستة الأوائل أن يُختبروا في السلاح الذى ينسطون تحت لوائه . وعلى الرغم من شغفى العام بالانخراط في سلاح الفرسان — وكان ذلك من حقى — فقد اخترت عندها أن أنضم الى كتيبة مدافع الماكينة الثانية التى كان موكولا إليها الدفاع عن مرسى مطروح ، وكانت الحرب العالمية الثانية على وشك أن تشب . ولعل إحساسى بهذا وحاسى وتوقعى لما سيكون هو الذى جعلنى أختار هذا الموقع ، وما كان أغرم الشباب بأن يشارك في الدفاع عن الوطن . وكفى أسعدنى أن يكون اختيار زميلى وصديقى [ الفريق أول ] محمد أحمد صادق هو عين ما اخترت . وما كادت أقدامنا تطل هذه المنطقة حتى أخذنا أماكنا في الخنادق المحيطة بمرسى مطروح التى كانت خط الدفاع الأول عن مصر .

وهناك التقيت بصديق مجاهد نبيل شريف عاش ومات على حب مصر هو الملازم محمد وجيه خليل . هذا الرجل الذى لم تتحرك في نفسه قط بذرة الحسد ، إذ كان يولع بالشموخ أنى وجد وينعم بالبطولات حيث تكون . وإن المجال لا يفسح لى أن أذكر شيئاً عن سيرته العطرة ، فلقد عرفته كارها للاستعمار أثراً عليه ، لا يدخر وسعاً في سبيل مناهضته . وحسبى دليلاً على ذلك ما كان منه من تصد للبعثة العسكرية البريطانية ، وما كانت كرامته ولا وطنيته تسمح له بأن يقبل أى اعتداء على مايمس مصر والمصريين . وكان هو أول من فكّر في عام ١٩٣٩ في تكوين مجموعة من الضباط الذين يدينون بمصر دينونته بها ، انخرطوا فيما أسماه « رجال الفداء » ، وكنت والأخ محمد أحمد صادق من أوائل من

انضموا إليه . وسرعان ما لحقت بنا جملة من الضباط الذين كانت قلوبهم تشتعل وطنية ، وصدر عن هذه المنظمة أولى المنشورات المحرّضة في القوات المسلّحة .

ولقد بقى محمد وجيه خليل على ولائه للوطن الذى عهدناه فيه منذ أن كنا بحامية مرسى مطروح ، وما ألان من شكيمته ولا هون من عزيمته ما كان يلقى من ضربة بعد ضربة من الاستعمار والبوليس السياسى ، مما خط به في صفحات التاريخ خطوطا بارزة هادية من نور تثير الحماس وتدعو الى الفداء وإنكار الذات . وكانت هذه المنظمة التى دعا إليها الصديق الراحل هى من غير شك النواة التى أنبثقت منها شتى التنظيمات بعد ذلك .

ويشأء الله أن يلقى محمد وجيه خليل مصيره و يودعنا إلى الخلود في معركة من معارك فلسطين المبكرة عام ١٩٤٨ . وكان ذلك حين رأى زميلا له هو كمال بشارة ميخائيل — على ما أذكر — سقط جريحا على الأسلاك الشائكة التى تفصل بيننا وبين إحدى المستعمرات الصهيونية وعزّ عليه أن يترك زميله مطّرحا كذلك ، فحُفّ إليه بحمالة مدرّعة على الرغم من أن الأوامر كانت قد صدرت إليه بوصفه أركان حرب الكتيبة بالانسحاب . ولكن شهامته أبّت عليه إلا أن يخالف الأمر ، وإذا هويّنطلق نحوه في جرأة خارقة ويحمّله على كتفيه ويضعه فوق الحمالة المدرّعة ، وما كاد يقفز إليها حتى أصيب برصاصات رشاشات العدو وقلقى مصرعه . فاضت روحه الطاهرة وهو متشبّث بركن من أركان الحمالة فأُسرع السائق به وبزميله الجريح الى حيث واقعنا . وهكذا استشهد وجيه خليل بطلاً كما كان طوال حياته بعد أن غرس في نفوس الضباط الذين التّفوا من حوله بذرة الوطنية المتأججة والفداء .

\* \* \*

وبعد قضائى عاما بمرسى مطروح نُقلت إلى سلاح الفرسان بالقاهرة حيث انتظمت في سلك المدرعات التى أُغرمت بها وأصبحت شغلى الشاغل وموضوعى الأثير الذى أقرأ عنه كل ما يقع لى من المجلات والكتب العسكرية الأجنبية . ومما قرأته في هذا المجال كتاب « الحرب الميكانيكية » (٢) للجنرال فولر الذى ظهر مع مستهل الحرب العالمية الثانية مبشّرا بأسلوب الحرب الخاطفة في استخدام

الوحدات المدرعة بمبادئ القتال ، وماذا بصر الفكر العسكري إلى مناشط الحياة كلها لتوجيهها لخدمة الحرب سواء المجال العلمى أو الدينى أو الفلسفى أو الأخلاقى أو الاقتصادى . ذلك أن غرض المنظم العسكرى هو تحقيق أعظم النتائج من تسخير القوى الآلية وتوفير القوى البشرية ، فأقدر الجيوش هى أهمها عتادا لا أكثرها رجالا . ويعطى الكتاب دراسة الهزائم أهمية كبرى ، فالهزيمة أشبه بعصا المعلم تجعل الجيش الخاسر أبعد نظرا وأكثر قدرة على كسب المعركة التالية من جيش أتمله النصر وجعله أقصر نظرا . كما عنى المؤلف بدراسة حروب العصور الوسطى باعتبارها أكثر الحروب التى لعبت الدور فى دوراً مؤثراً فى النصر والهزيمة الى أن جاءت الدبابات فأحدثت ذعرا وفوضى شكلا دروعا إضافية لها وشحداً لقوة نيرانها ، وما أقدر الذعر على نزع سلاح الجيش المذعور . وإذا شئنى ما احتواه هذا الكتاب أحببت أن أنقله الى العربية لما فيه من نفع وفائدة ، وظهرت ترجمتى له تباعا بمجلة الجيش على امتداد عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ . ثم كان أن نشرته إدارة التدريب الحربى برئاسة هيئة أركان حرب الجيش فى كتاب جامع أصدرته ووزعته على ضباط القوات المسلحة كافة . هذا إلى جملة من كتيبات فنية أخرى عن استخدام المدرعات تكتيكيا وصيانتها ترجمتها وأصنفتها .

وفى عام ١٩٤٢ تشكلت قوة خفيفة من الدبابات ومركبات الاستطلاع بقيادة الأمير اسماعيل داود كنست من بين ضباطها ، وعُهد إلى تلك القوة مهمة تأمين جانب القوات البريطانية أثناء هجومها على قوات المحور فى الصحراء الغربية خلال الحرب العالمية الثانية ؛ وبعد انتهاء هذه القوة الخفيفة من مهمتها تلك عادت أدراجها الى القاهرة . وما لبثت وحدات سلاح الفرسان أن أخذت أماكنها على امتداد قناة السويس لحمايتها من الألغام التى كانت تلقىها الطائرات الألمانية . وبعدها عُيِّنَت مدرسا بمدرسة المدرعات فزادت مطالعاتى فى الفنون والعلوم العسكرية وأخذت أضيف إليها بعض كتب الأدب والتاريخ والسير الذاتية وغيرها مشدود الفكر إلى مجالات الثقافة العامة .

وخلال تلك السنين نشطت التنظيمات السرية فى القوات المسلحة حتى بات لكل سلاح تنظيمه الخاص ، وكانت طبيعتها الوطنية تُملى عليها جميعا التعاطف

مع غيرها من التنظيمات المشابهة ، فشاعت منشورات مختلفة تصدرها تلك التنظيمات منها ما هو صادق ، ومنها ما كان مدسوسا لتشتيت الكلمة . وكان من ديدن هذه التنظيمات المختلفة في الجيش أن تجمع ما تستطيع جمعه من الضباط في اشتراكات شهرية ثابتة لتعين بها أسر الضباط المعتقلين أو الذين بطشت بهم السلطة . وحين انتقلت إلى سلاح الفرسان وكنت منضما من قبل كما قدمت إلى تنظيم « رجال الفداء » التقيت بالزميل الضابط أحمد حافظ مظهر [ الفنان المعروف ] وكان هو الآخر منخرطا في تنظيم سرى ، وسرعان ما اتصل ما بينى وبينه . وذات مرة في عام ١٩٤٢ حين كنا نخدم في بورسعيد اتصل به الفريق عزيز المصرى ليدبر له خطة للهروب من مصر ، فكاشفنى أحمد مظهر بما اتواه عزيز المصرى وأخذنا نفكر معا في الوسيلة التى نستطيع بها أن نمهد السبيل لهروبنا فاستأجرنا قارباً وأخذنا في الخروج يوما بعد آخر إلى عرض البحر محاولين التعرف على أماكن الألغام البريطانية المغمورة تحت سطح مياه الميناء حتى لا نعترض حياة عزيز المصرى للخطر إذا ما حاول تنفيذ خطته . وبعد أن فرغنا من إعداد خريطة بما خيل إلينا معه أنها مواقع الألغام عقدنا اتفاقا مع صاحب « لنش » لكى يحمله إلى أقرب غواصة ألمانية ! وكما نستغرق في السخرية من أنفسنا — أحمد مظهر وأنا — كلما تذكرنا تلك الفترة التى غمرنا فيها الحماس الوطنى وكدنا نودى بحياة عزيز المصرى ونحن نظن أننا منقذوه . ثم إننا لنذهل اليوم لأن لغما لم ينسفنا معا في إحدى تلك الجولات الساذجة ، كما زادت سخريتنا من أنفسنا حين عرفنا أننا ونحن نجابه الموت كل ليلة كان عزيز المصرى قد عدل عن هذه الخطة وأخذ يعد العدة لاستقلال طائرة من السلاح الجوى ما لبثت أن سقطت بمجرد إقلاعها .

وكان من بين من ربطت بينى وبينهم مودة وثيقة من ضباط سلاح الفرسان الصديق خالد محيى الدين الذى أنست فيه وحدة المشرب والشغف بالمعرفة ، هذا إلى ما كان يتمتع به من سجايا كريمة ونزاهة في الخلق والتزام بالحق وصدق في التعامل وتقان في الإخلاص لما يعتقد ، لما كان يتحلى به من سماحة في الطباع وإقبال على الحياة تصحبه بشاشة تكاد لا تفارقه . وكنا لانفترق في أوقات الفراغ ، أبادله الكتب و يبادلنى إياها ، وأناقشه الرأى في القضايا الوطنية وما يحيط بنا من أحداث . وكان أملنا الذى ربط بيننا هو السعى إلى تطهير الجيش أولا ثم خلاص

لن من الاستعمار ومن الظلم والطغيان راجين أن ينعم الوطن بحياة جديدة نرفيها الحال أئمتنا ويسود فيها الرخاء .

وفي فبراير ١٩٤٦ ثارت ثائرة مصر وهبت الأمة هبة واحدة تطالب بجلاء قوات البريطانية ، فما كان من قوات الاحتلال إلا أن أطلقت النيران من مناراتها بقصر النيل — حيث كانت تستقر — على المتظاهرين الذين ازدحم بهم ان الاسماعيلية [ التحرير الآن ] ، فراح ضحية هذا العدوان كثيرون لا يحصون .دا ، وغضبت مصر لهذا غضبة عامة شديدة شملت المذن جميعاً ، وكان أن شكلت لجنة وطنية من الطلبة والعمال لجمع الصفوف ولم الشمل وتوحيد ضال . وفزع اسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء آنذاك ، وأمر بإرسال قوات الجيش إلى المناطق الثائرة لإخماد الحركة الوطنية . وصدرت الأوامر فإذا بي من قوة أرسلت إلى المنصورة ، وكنت قد تعاهدت مع كثرة من الزملاء عن امتناع عن التصدي لأفراد الشعب الثائرين ، وتحايلاً على ذلك بأن منعنا مذخيرة الحية عن الجنود حتى لا يتورط أحد منهم في إطلاق النار . وكان رجال شرطة في المنصورة يشاركون قوات الجيش التي نزلت هناك لكبح جماح الثورة . كان أن تورط جندي من الشرطة فأطلق الرصاص على المتظاهرين فأردى واحداً هم ، فهاجت المنصورة هياجاً عارماً ، الأمر الذي أصاب مدير الدقهلية بالارتباك التبعاً إلى وحدة الفرسان يطلب منها العون حين عجز رجال الشرطة عن تصدي . ولما كنا نؤمن أن من الخطأ الاشتراك في هذا العمل المعادي للجماهير قد راوغناه متعللين بحاجتنا إلى أمر كتابي بإطلاق النار ، ونحن نعلم استحالة لك .

## ٢ صلاتي توثق مع عبدالناصر وعامر

وفي صيف عام ١٩٤٥ تقدمت لامتحان المسابقة الذي كان يعقد سنويا لتلاتحاق بكلية أركان الحرب ، وكنت قد أعددت لهذا الامتحان العدة في عامين سابقين ، وشاء الله لى أن أكون من بين الناجحين ، وكانت الدراسة في تلك الكلية وقتذاك تستغرق عامين . وفي هذه الكلية ربطت بينى وبين جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر صلات توثقت بعد فغدت صداقة حميمة يجمع بيننا شعور وطنى مشترك ، وكان من بين أفراد هذه الدفعة بكلية أركان الحرب أيضا الزميلان زكريا محيى الدين وصلاح سالم . وكانت الدراسة فرصة نادرة لتبادل الرأى في مختلف المسائل ، ولم يكن معدى من أن تغدو الأحوال السياسية المضطربة في تلك الظروف التى كانت تمر بها البلاد والثورات الشعبية المكتومة والاضطهاد والعسف هى محور الحديث الشائع بيننا والذي تجرى به ألسنتنا . وكنا نحس في هذا الوقت والجيش في ظل كثرة من القادة ليس لهم من ثقتنا نصيب أنه لنزام علينا أن نتناول أحاديثنا ما عليه الحال العامة . وكنا نحن الضباط نجد أنفسنا أولى الناس بالحديث عن هذا ، فكم كنا نحس أن الشعب الساخط يرانا شركاء



فما ترتطم به البلاد من فساد ، وأتت حماة هذا الفساد ، ومعنى هذا أن الشعب كان يرانا العمقة الكأداء في سبيل تحقيق ما يطمح إليه ، وما من شك في أن هذا كان يجرح كبرياءنا ونحن مع الشعب ومنه . ولقد قوى ما بيننا روح الأخوة الصافية التي حركت منا الضمائر وحفزت فينا الإرادات ووحدت منا الآراء لكي نقوم بعمل لردة الأمور إلى نصابها .

وكان مما نأخذه على بعض قاداتنا ما يجعلنا نخجل حتى من ارتدائنا للزى العنسكري ، والشعب ناظم على الحكومة ، ثم هونا قم على الجيش الذي يقف من وراء الحكومة يساندها ، فكان الجيش في نظر الشعب أشبه بالعصا التي يلوح بها الملك كلما أراد أن يحقق مأربا شخصيا أو سياسيا . وفي ظل هذه الحيرة التي غشيتنا ونحن نبحث عن السبل التي نخرج بها من هذا المأزق ، وكنا من الشباب المتطلع إلى وسيلة نلجأ إليها لتحقيق أهدافنا رأينا الاتصال بجماعة الإخوان المسلمين لما كنا نتوسمه فيها من تجرد في الدعوة . وكان قد سبقنا إلى تلك الجماعة أخ وطني فاضل من الضباط هو المرحوم عبد المنعم عبد الرؤوف ، فاتصل به جمال عبد الناصر بوصفه المتكلم باسمنا ليستوضح منه على أي أساس سوف يكون انضمام الضباط للإخوان المسلمين . ومنذ البداية كانت ثمة قضية أساسية يدور حولها الخلاف ، فعلى حين رأى عبد المنعم عبد الرؤوف أن انضمام الضباط يجب أن يكون اندماجا دون قيد أو شرط ، كنا نرى أنه يجب أن يكون لمن ينضمون من بيننا كيانهم المستقل في ظل الجماعة . وكان أن استجابت جماعة الإخوان في نهاية الأمر لمطلبنا ، فكان للضباط استقلالهم ، وتكوّن منهم خلايا شتونها بيد لجنة منهم مختارة من جمال عبد الناصر وعبد المنعم عبد الرؤوف وخالد محيي الدين وكمال الدين حسين وصلاح خليفة وجملة غيرهم فضلا عن الضباط المتقاعد محمود لبيب الذي كان همزة الوصل بين المرشد العام — وهو اللقب الذي أضفاه على نفسه المرحوم الشيخ حسن البنا — واللجنة المختارة والخلايا . وكان هذا الضابط الكريم ذا ماض غير مشوب ، هذا إلى ما كان يتميز به من أخلاق سمحة وتواضع محبب مما جعلنا نجمع على إجلاله واحترامه . وكانت خليتي تجمعني بجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وخالد محيي الدين وحسن إبراهيم وغيرهم ، وكانت لنا اجتماعات أسبوعية نتداول فيها الأمر ، كما كنا حريصين مع ذلك على

## ٢

## صلى توثق مع عبد الناصر وعامر

وفي صيف عام ١٩٤٥ تقدمت لامتحان المسابقة الذي كان يعقد سنويا للالتحاق بكلية أركان الحرب ، وكنت قد أعددت لهذا الامتحان العدة في عامين سابقين ، وشاء الله لى أن أكون من بين الناجحين ، وكانت الدراسة في تلك الكلية وقتذاك تستغرق عامين . وفي هذه الكلية ربطت بينى وبين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر صلوات توثقت بعد فغدت صداقة حميمة يجمع بيننا شعور وطنى مشترك ، وكان من بين أفراد هذه الدفعة بكلية أركان الحرب أيضا الزميلان زكريا محيى الدين وصلاح سالم . وكانت الدراسة فرصة نادرة لتبادل الرأى في مختلف المسائل ، ولم يكن معدى من أن تغدو الأحوال السياسية المضطربة في تلك الظروف التى كانت تمرّ بها البلاد والثورات الشعبية المكتومة والاضطهاد والعسف هى محور الحديث الشائع بيننا والذى تجرى به ألسنتنا . وكنا نحس في هذا الوقت والجيش في ظل كثرة من القادة ليس لهم من ثقتنا نصيب أنه لزام علينا أن تتناول أحاديثنا ما عليه الحال العامة . وكنا نحن الضباط نجد أنفسنا أولى الناس بالحديث عن هذا ، فكم كنا نحس أن الشعب الساخط يرانا شركاء

فما ترتطم به البلاد من فساد ، وأتينا حماة هذا الفساد ، ومعنى هذا أن الشعب كان يرانا العقبة الكأداء في سبيل تحقيق ما يطمح إليه ، وما من شك في أن هذا كان يجرح كبريائنا ونحن مع الشعب ومنه . ولقد قوى ما بيننا روح الأخوة الصافية التي حركت منا الضمائر وحفزت فينا الإرادات ووحدت منا الآراء لكي نقوم بعمل لرد الأمور إلى نصابها .

وكان مما نأخذه على بعض قاداتنا ما يجعلنا نخجل حتى من ارتدائنا للزى العسكري ، والشعب ناظم على الحكومة ، ثم هو ناظم على الجيش الذي يقف من وراء الحكومة يساندها ، فكان الجيش في نظر الشعب أشبه بالعصا التي يلوح بها الملك كلما أراد أن يحقق مأرباً شخصياً أو سياسياً . وفي ظل هذه الحيرة التي غشيتنا ونحن نبحث عن السبل التي نخرج بها من هذا المأزق ، وكنا من الشباب المتطلّعين إلى وسيلة نلجأ إليها لتحقيق أهدافنا رأينا الاتصال بجماعة الإخوان المسلمين لما كنا نتوسّمه فيها من تجرّد في الدعوة . وكان قد سبقنا إلى تلك الجماعة أخ وطني فاضل من الضباط هو المرحوم عبد المنعم عبد الرؤوف ، فاتصل به جمال عبدالناصر بوصفه المتكلم باسمنا ليستوضح منه على أي أساس سوف يكون انضمام الضباط للإخوان المسلمين . ومنذ البداية كانت ثمة قضية أساسية يدور حولها الخلاف ، فعلى حين رأى عبد المنعم عبد الرؤوف أن انضمام الضباط يجب أن يكون اندماجاً دون قيد أو شرط ، كنا نرى أنه يجب أن يكون لمن ينضمون من بيننا كيانهم المستقل في ظل الجماعة . وكان أن استجابت جماعة الإخوان في نهاية الأمر لمطلبنا ، فكان للضباط استقلالهم ، وتكوّنت منهم خلايا شئونها بيد لجنة منهم مختارة من جمال عبدالناصر وعبد المنعم عبد الرؤوف وخالد محيي الدين وكمال الدين حسين وصالح خليفة وجملة غيرهم فضلاً عن الضباط المتقاعدين محمود لبيب الذي كان همزة الوصل بين المرشد العام — وهو اللقب الذي أضفاه على نفسه المرحوم الشيخ حسن البنا — واللجنة المختارة والخلايا . وكان هذا الضابط الكريم ذا ماضٍ غير مشوب ، هذا إلى ما كان يتميز به من أخلاق سمحة وتواضع محبّب مما جعلنا نجمع على إجلاله واحترامه . وكانت خليّتي تجمعني بجمال عبدالناصر وعبد الحكيم عامر وخالد محيي الدين وحسن إبراهيم وغيرهم ، وكانت لنا اجتماعات أسبوعية نتداول فيها الأمر ، كما كنا حريصين مع ذلك على

الاختلاف إلى دار الجماعة بالحلمية كل ثلاثاء للاستماع إلى خطبة المرشد العام الذى كان يزيّدنا حماسا إلى حماس ، كما كنا نتردّد عليه أحيانا يحدّثنا ونحدّثه ونتبادل معه الرأى . ولقد نُظِّمَت خلايانا تنظيما لوحظت فيه السّرية التامة ، حتى ما يكاد ضابط فى خلية ما يعرف غيره من الضباط فى الخلايا الأخرى اللهم إلا عن حدس وتخمين . وما من شك فى أن انتظام الضباط فى الخلايا المستقلة بجماعة الإخوان المسلمين كان البوتقة التى صهرت عددا يُعتد به من الضباط الأحرار فيها بعد .

وكنّت فى تلك المرحلة يتناوبنى الشك الذى يساور كل شاب يُعمل فكره فى مستهل حياته ، فلم أترك بابا يقودنى إلى الإيمان إلا طرّقه ولم أدع عالما أستطيع الوصول إليه إلا سألته . وما أظننى قد فاتنى الإلمام بالعقائد جملة ، سواء أكانت سماوية أو غير سماوية ، مُنعما البحث مستقصيا مقارنا بين ما جاء هنا وما جاء هناك . ثم مضيت أستقصى ما كُتب عن موضوع الإيمان سواء فى العربية أو الإنجليزية ، إلى أن وقعت على كتاب لعالم من علماء النفس يدعى هنرى لك هو « العودة إلى الإيمان » (٣) اعترف فيه أنه ظل زهاء ربع قرن يستقبل مرضاه الذين كانوا يتصوّرون فيه إلها قادرا على أن يوفر لهم سبل السعادة ، فكانت رغبته فى تحقيق أمنيات مرضاه سبيلا إلى إيمانه بإله ذى قدرة تُزرى بقدرته ، وأخذ يستشف أدواء المتردّدين عليه بحسّه أكثر مما يتلمّسها بمنطقه ، مؤمنا بعجز العقل عن إدراك كنه كثرة من الأمور العصيّة على الفهم . وقد عرف من استقرائه لكتب التاريخ أن الإنسان جُبل منذ نشأته الأولى على الإيمان بعقيدة ما ، فحتى الإيمان بالخرافات خير من نكران كل شيء وتقديس العقل ثم الإزراء بالديانات ، كما أدرك عقم النظريات شبه العلمية والعقائد الوضعيّة التى ما إن تقوم اليوم إلا ويلحقها التغيير فى الغد ، فى حين أن الاعتقاد بوجود إله هو الاعتقاد الحق الدائم الذى لا تدانيه اعتقادات أخرى ، وإذا ما خلا قلب من إيمان كان عُرضة لأن تتنازع نزعات شتى يتخبّط فيها دون أن يصل إلى هداية . وإذا قد ارتاحت نفسى إلى هذا الكتاب وما جاء فيه من دعوة إلى ضرورة الإيمان مبنية على أسس سوّية ، إذا أنا أنهض إلى ترجمته حتى أسهم بدورى فى تبديد الشكوك التى قد تساور

عقول البعض ، فظهر مطبوعا بالعربية للمرة الأولى فى عام ١٩٤٨ ، ثم طبع ثانية عام ١٩٥٩ ومرة ثالثة فى عام ١٩٦٤ .

ولم يفتنى كذلك أن أقرأ بعض ما جاء عن المذاهب الفلسفية والجمالية ؛ وكان أكثر ما شدنى إليه من هذه المذاهب مذهب « الشيبومى » اليابانى [ أورهافة الحسّ الخارقة ] ، وهى كلمة يابانية يوصف بها كل ما هو من الجمال رقيق نافذ الأثر غير صارخ ولا يحيط بكُنْهه وصف . فهو ما بلغ الذروة من كمال ونقاء ولا ينفذ إلى أعماقه إلا من ملك حسّا مرفها وذوقا شفافا ، ويعمّ كل ما كان ذا صلة بالسلوكيات والفنون . هو فى عمومهِ الإحاطة بالشئ فهما وإدراكا لا علما فحسب ، كما هو الصمت المعبرّ والتواضع الصادق والإيجاز المبين . وفنّا هو التأق فى بساطة ، وفلسفة هو الإخلاص إلى التأمل إيجابا لا سلبا والإيمان بما كان فى غير خشية مما سيكون . وإنسانية هو سلطة دون عنف . وعلى حين أن الجمال الفاضح يجذب إليه عامة الناس ، فالشيبومى لا يستهويه إلاّ الجمال الخفىّ الذى لا يلقي بالا لما هو برّاق أخاذ . ولقد كان لهذا المذهب بما تضمّن وحوى أثره العميق فى نفسى لم يفارقنى حتى اليوم .

وبقينّا نحن معشر الضباط فى خلايانا المختلفة موصولين بجماعة الإخوان المسلمين ننشر الدعوة إلى الإصلاح إلى أن قامت حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ ، فحالت أحوال القتال بيننا وبين سيرتنا الأولى مع التنظيم ، إذ كان كل واحد منا قد أصبحت له تبعات ومسئوليات ، ثم ما كان من تشّتت لا يستقر فيه أحد فى مكان بالميدان . ولقد أملت علينا تلك الحرب القاسية أنه لابد من تغيير شامل ، بعد ما لسنّا فى إعدادها من قصور جرّ إلى ما يشبه الهزيمة ، فعقدنا العزم على أن نعدّ العدة لذلك التغيير ، ومن هنا كانت نشأة تنظيم الضباط الأحرار .

وكان تورط الإخوان المسلمين فى أمور غامضة كالاغتيالات وما يجرى مجراها قد نفّر خلايا الضباط منهم ودفعهم إلى اكتشاف حاجتهم إلى تنظيم شامل لا يتقيّد بمعتقد مذهبى ، بل تنظيم يضمّ تحت لوائه مواطنى مصر ، على أى دين كانوا وعلى أى مذهب سياسى عاشوا طالما أن هدفهم هو مصر الوطن الأم . ومن هنا دبّ الخلاف بيننا نحن معشر الضباط وبين المرحوم عبد المنعم عبد الرؤوف الذى خلف

محمود لبيب بعد وفاته ، وكان من رأيه أن التنظيم لا يتسع إلا لمن يدين بالإسلام وحده بل وبالتشدد فيه ، فضلا عن أنه كان يرى على العكس مما كنا نرى أن خلايا الضباط يجب أن تكون تابعة التبعية كلها لسلطان الإخوان المسلمين . فكان هذا باعثا إلى نشأة تنظيم الضباط الذي ضم الأحرار منهم للسعى وراء تطهير البلاد من كل عبث والوصول بها إلى تحقيق ما يريدون من خير ونفع لمصر ، عن طريق جمع كل القوى الوطنية المؤمنة باستقلال مصر وطرده الاستعمار في جبهة موحدة .

وكان مما يجيش في صدور الضباط عامة عند بدء النزاع في فلسطين أن يتركوا الجيش إلى التطوع في صفوف الفدائيين الذين يناوشون العصابات الصهيونية وهو ما استقر عليه رأى زمريتنا . ولكن الأمور لم تمض هكذا ، فإذا الحكومة المصرية تعلن الحرب على الصهاينة ، وهذا أفسحت السبيل أمام من كانوا يريدون منا الانضمام إلى الفدائيين ليجدوا مجالا أوسع للتضحية .

## أرض فلسطين الذبيحة

وفي عام ١٩٤٢ خلال الحرب العالمية الثانية كنت مبعوثاً إلى فلسطين لأتلقى تدريباً حربياً على الأسلحة الحديثة في إحدى مدارس الجيش البريطاني قرب دير سنيد . وهناك لمست ما كانت تصنعه حكومة الإنتداب البريطاني من تمكين للصهاينة في البلاد وتنظيم هجرتهم إليها . ولكي تكفل لهم جواً آمناً أوعزت الحكومة في تجريد الفلسطينيين من أسلحتهم حتى المدى والخنجر ، كما أغمضت العين عما يُهرَّب إلى العصابات الصهيونية من سلاح ، بل وساهمت — تمهيداً للمعركة المقبلة — في تدريب ضباطهم على القتال والنسف والتدمير ، كما مضت تعينهم على الاستيلاء على أراضي فلسطين وإجبار الأهالي على التنازل عنها . وهنا أحب أن أزيح الستار عن شائعة روج لها المغرضون ألصقت ظلماً بالفلسطينيين وهي التنازل عن أرضهم اختياراً ، فلقد قيل إنهم باعوا ما يملكون من أرض في فلسطين للصهاينة للإنفاق على ملذاتهم وشهواتهم ، والحقيقة إنهم اضطروا إلى التنازل عن تراب أرضهم تحت ضغط حكومة الإنتداب حين جعلت هذه الأراضي أرض بناء ، ورفعت بذلك ما يُحصَّل عليها من ضرائب لم يقو الأهالي على أدائها فنزلوا عن أرضهم صاغرين للحكومة التي نزلت هي الأخرى عنها للغاصيين إما هبات وإما بأسعار رمزية . والغريب أنه حتى صدور قرار التقسيم كان اليهود لا يملكون أكثر من ست في المائة من مجموع أرض فلسطين .

وإمعانا في تدبير المؤامرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حالت بريطانيا بين الجيوش العربية وبين الدخول إلى فلسطين قبل أن تجلوعها القوات البريطانية الجلاء الأخير، على حين أنهم أباحوا للصهاينة أن يتوغلوا في البلدان العربية الفلسطينية كيف شاءوا بلدا بعد بلد . وليزيدوا الأمر تعقيدا أباحوا من ناحية أخرى للعرب أن يدخلوا فلسطين بعد جلائهم عنها مزودين بعض الدول العربية بالأسلحة ليثيروها حربا مستعرة بين الصهاينة والعرب ، ويكون لهم من ورائها مغنم يبعثونه ، الأمر الذي جعل العرب يتوهون أن الإنجليز يساندونهم . ولم تغادر قوات الاحتلال فلسطين إلا بعد أن اطمأنت الاطمئنان كله إلى رسوخ أقدام العصابات الصهيونية في الأرض المفتصة ، وبعد أن نالت من الصهاينة أنفسهم اعتداءات متكررة لم تستطع قمعها ، هذا إلى ما كان من عجزها — كما تزعم — عن فض الاشتباكات التي طالما وقعت بين العرب والدخلاء . فلقد كان للصهاينة اعتداءات لا يقرها نظام ولا ترضاها حضارة ، منها ذلك الاعتداء على قرية دير ياسين بالقرب من القدس الذي أتت فيه عصابة إرجون زفاي ليومي بقيادة الإرهابي مناحم بيجين على القرية جمعا فلم يتركوا امرأة ولا رجلا ولا شيخا ولا رضيعا إلا ذبحوه وخلفوا القرية محتشدة بمحش القتل . ومثل ما فعلوه في دير ياسين فعلوا مثله في كفر قاسم وفي يافا ثم في الحى العربى من حيفا وغيرها . وفي ٢٥ أبريل ١٩٤٨ هبّت الدول العربية واعترمت إرسال قواتها النظامية الى فلسطين « لتأديب العصابات الصهيونية وإنقاذ العرب من العدوان الغادر بمجرد انتهاء الانتداب البريطانى في ١٥ مايو ١٩٤٨ » .

ومن المناسب في هذا المقام أن أكشف عن الحال التي كان عليها الجيش المصرى حينذاك ، فلقد كان همّ الدولة الأول رعاية الأمن داخل البلاد فلم تكل إليه مهمة غيرها ، وقد حال هذا بغير شك دون أن يكون الجيش على أهبة الاستعداد لخوض معركة حربية . لذلك أخذت القيادة المصرية تنظر فيما بين يديها وفيما سيواجهها في فلسطين وما يجب عليها عمله . ولكنها لم تستطع أن تعد للمعركة المقبلة في فلسطين غير « مجموعة لواء مشاة » تعاونها بعض الوحدات المدرعة ، لأن سائر القوات الأخرى من الجيش كان منوطا بها حفظ الأمن الداخلى وحراسة القاعدة وخطوط المواصلات في أنحاء البلاد . وكانت الذخيرة المتوفرة من القلة



بحيث تحد من سير العمليات إلا إذا فُتح باب الاستيراد على مصراعيه وإلا إذا قررت الحكومة ضرورة الحصول عليها بأية وسيلة ومن أية دولة . وقد قُدِّر للذخيرة التي كانت بين يدي الجيش حينذاك أنها تكفى للقتال خمسة عشر يوما للمدافع وشهرا للبنادق والرشاشات ، وكان نحو ستين في المائة من مركبات الجيش غير صالحة ولا تفي بمطالب مجموعة اللواء . وعلى الرغم من أن « التدريب الانفرادي » للجيش — أعنى تدريب الفرد على القتال — كان مرضيا فلقد كان « التدريب المشترك » — أعنى تدريب الوحدات والأسلحة المختلفة على المشاركة سويا في القتال — غير ذي جدوى لأن وحدات الجيش لم تكن قد شاركت قبل في مناورات على مستوى مجموعة لواء . وكانت القوات الجوية على حال لم يسمح لها بأكثر من معاونية مجموعة اللواء المقترحة للقيام بأعمال الاستطلاع ومهاجمة الأغراض الأرضية الحيوية ، على حين أن القوات البحرية كانت ماتزال في بدء نشأتها .

ولقد نيط بالقوات المصرية النظامية أن تحرر القطاع الجنوبي الغربي من فلسطين الممتد من رفح والعوجة الى غزة وبيرسبع على أن تتعاون بعد ذلك مع القوات العربية النظامية الأخرى في الاستيلاء على تل أبيب . وكان المقدّر أن خطوط مواصلاتنا ستمتد لمسافات كبيرة مما كان سيجعلها هدفا سهلا لإغارات العصابات الصهيونية ، وهو ما كان يقتضى إعداد وحدات نظامية من الجيش ينضم إليها نفر من الأهليين لحماية خط السكة الحديدية الممتد بمجوار الساحل وتأمين الطرق ومرافقة حملات التموين . لذلك كان من الواجب البدء فورا في تدريب مجموعة لواء المشاة على ماستضطلع به من مهام ، ثم الاتصال بقيادات الجيوش العربية لتنسيق الخطة العامة التي يُحدّد فيها اختصاص كل دولة على حدة ، ثم الاتصال بالفلسطينيين داخل فلسطين لتنظيم التعاون بينهم وبين الجيش المصري أثناء تقدمه .

وسرعان ما تكوّنت طوائف من المتطوعين أخذت أماكنها المختلفة بفلسطين يقودها ضباط عراقيون وسوريون ومصريون ، غير أنها لم تكن للأسف مسلحة التسليح الكافي ، هذا إلى أن أسلحتها كانت تختلف أنواعا مما يصعب معه إمدادها

وجرأة ، لم يشنها عن ذلك ماقدمته من شهداء من الضباط والجنود ، يحدها الأمل في أن تتمكن من إرجاع الحق المقتصب للفلسطينيين . ثم واصلت القوات المصرية تقدمها يوم ١٩ مايو وكانت بينها وبين اليهود معركة في دير سنيد ، وبلغت مدينة المجدل يوم ٢١ مايو ، وكانت القوات الجوية توالى غاراتها يوميا على تل أبيب . وعندها كانت قوات المتطوعين المصريين قد وصلت إلى بيت لحم على مقربة من القدس . وفي اليوم الرابع والعشرين تم للقوات المصرية والأردنية الاتصال ببعضها البعض . وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه كانت قواتنا المصرية قد انتهت شمالا الى مدينة أسدود ، وأخذت بعدها تتقدم شرقا الى عراق سويدان والفالوجا وعراق المنشية حتى بيت جبرين ليتم الاتصال بينها وبين قوات المتطوعين في الخليل وبيت لحم والقدس . وكان الهدف من ذلك هو الفصل بين المستعمرات الصهيونية شمالا عن جنوبها . وفي السابع من يونيو تم استيلاء القوات المصرية على مستعمرة نيتسانيم الواقعة إلى الشمال من أسدود ، وكان لليوزباشي عبد الحكيم عامر دوره البطولي في اقتحام هذه المستعمرة ، ومن أجل هذا رُقي اترقية استثنائية .

وما من شك في أن قيادة القوات المصرية بفلسطين في خطواتها الموقفة كانت تُصدّر عن رَويّة وتدبّر وعن وعي بما يحيط بنا من ظروف سياسية واقتصادية . ولكن البليّة التي تعرّض لها الجيش المصرى كانت في هذا التفاوت بين الضباط والجنود . فعلى حين كان الضباط على درجة من التدريب المتميّز كان الجنود دون المستوى المنشود في الجندية ، إذ لم يكن التجنيد إجباريا يشمل مستويات الأمة كلها بل كان مقصورا على تلك الطبقة التي تعجز عن سداد البدل ، وكان آنذاك خمسة عشر جنيا . ولذلك كانت الحرب حرب ضباط لا حرب جنود ، وكان من استشهد من الضباط يُربى نسبيا على من استشهد من الجنود .

وقد فوجيء الجيش المصرى بفرض الهدنة الأولى من الحادى عشر من يونيو إلى السابع من يوليو على أن تبقى خطوط القتال دون تغيير ، وأن يقف الطرفان دون المزيد جنّداً وتسليحاً ، وأن يُحال بين المهاجرين الصهاينة القادرين على حمل السلاح وبين دخول فلسطين ، وأقامت الأمم المتحدة الكونت برنادوت وسيطا للبحث عن حل سلمى للمشكلة ، فأتخذ جزيرة رودس مركزا له .

ولم يلتزم الصهاينة بشروط الهدنة فاستقبلوا المهاجرين الجدد واستجلبوا المزيد من السلاح واستولوا دون قتال على بعض المواقع ، وانتهزت مصر هذه الفرصة وأعدت تنظيم قواتها مقسّمة الجبهة إلى قطاعات وزوّدتها بوحدة جديدة وكتائب من الجيش الاحتياطي والقوات المربطة ، وبهذا أصبحت القوة المصرية «فرقة مشاة» مزوّدة بالأسلحة المعاونة استعدادا لطرد العدو مما احتله من مواقع أثناء الهدنة واستعداداً لتدمير المستعمرات اليهودية التي تهدّد مواقعنا . غير أن القوات المصرية وجدت نفسها بين أعباء كثيرة شتتت جهودها ، فضلا عما كان عليها أن تواجهه من أسلحة جديدة وطائرات مقاتلة وصلت للعدو أثناء الهدنة الأولى . وكانت ثمة مؤامرة مكّنت القوات الصهيونية من تطويق مدينتي اللد والرملة في وسط فلسطين ، وما إن بدأ العدو في تطويقها حتى انسحبت قوات الجيش الأردني بعد أن استغاثوا بإخوانهم العراقيين غير أنهم لم يجدوا لديهم استجابة . وبذلك تمكّن العدو من الاستيلاء على مدينتين من أهم المدن العربية فضلا عن أفضل مطار بفلسطين وهو مطار اللد . وكانت نتيجة هذا أن فرّ الكثير من أهالي المدينتين فزادوا من عدد اللاجئين ، كما أعطى هذا الانسحاب الفرصة للصهاينة ليتحركوا كيف شاءوا في ميدان القتال . ثم إذا بنا نفاجا مفاجأة أخرى ، وذلك حين صدرت الأوامر للجيش الأردني بإيقاف جميع العمليات الهجومية والاكتفاء بأن يقف للدفاع فحسب على ألا يطلق النار إلا إذا هوجم ، الأمر الذي كان من شأنه أن يفرغ العدو لمواجهة الجيش المصري فضلا عن إخلاء الطريق أمامهم لينفذوا إلى النقب . وأخذ العدو يهاجم بعض المواقع المصرية مستغلا خبرته في القتال ليلا ليشنّ هجماته على النقاط المصرية في ساعات الظلام ، وكان كل اعتمادهم على حرب العصابات فأخذوا يتابعون غاراتهم تلك في أضعف النقاط ، ثم تخرج أبواقهم بعد ذلك تهلل وتطنطن .

وفي اليوم الثامن عشر من يولييه صدر الأمر بإيقاف القتال تنفيذا لقيام الهدنة الثانية ، غير أن قواتنا كانت قد تمكنت في اللحظات الأخيرة من أن تحتل بلدة العسلوج مرة أخرى بعد أن طردت العدو منها لتأمين طريق العوجة وبيرسبع والخليل ، وهو طريق الإمداد والتموين الذي كانت تعتمد عليه قواتنا الموجودة في جنوب القدس . وكما هي عادة الصهاينة الغادرة فقد اغتالوا الكونت برنادوت في

السابع عشر من سبتمبر، وذلك حين رأوه يقترح حلاً لمشكلة فلسطين بإنشاء دولتين إحداهما عربية والأخرى إسرائيلية يربط بينهما نظام اقتصادي واحد ويكون لكل منهما استقلالها المحلي والسياسي والإداري على أن يكون إقليم الجليل للصهاينة والنقب لفلسطين العربية .

ومما يثير الحيرة حقاً ذلك التعاطف الأمريكي مع الصهاينة فقد جاء اعتراف الحكومة الأمريكية بدولة إسرائيل في اليوم ذاته الذي دخلت فيه الجيوش العربية أرض فلسطين وهو الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ ، وكان هذا يعني كل التحدي للعرب . وأكد أعز هذا التعاطف إلى أسباب ستة .

الأول منها أنه ثمة مصلحة استراتيجية عليا للولايات المتحدة الأمريكية ، إذ يعنيها أن تعتمد على دولة أكثر ماتكون ولاء لها في منطقة الشرق الأوسط الحساسة والتي فيها تجاذب وأخذ ورد ، فلقد وجدت في إسرائيل خير عون لها على ذلك . ثم إن أمريكا والغرب كانت لهم تجارب سابقة في التحالف مع العرب ، غير أنهم إن أفلحوا في هذا حيناً لم يفلحوا حيناً آخر . ثم إن الذي لاشك فيه أن أمريكا ودول الغرب قاطبة أخشى ماتخشاه أن تكون للعرب قوة ، ولهذا وجدوا في هذا الحليف الجديد إسرائيل الذي كان طوع أمهم ويكاد ياتمر بكل ما يأمرون به وما يبغيون ليكون داعي فُرقة بين العرب بعضهم وبعض . وهذا ما قد أفلحت فيه أمريكا ، فعظم الحروب التي مانشك أن الغرب كان من ورائها قد أوهنت من عضد الوطن العربي وأثقلته مالا وكلفته رجالا ، ثم إذا هذه الحروب آخر الأمر تثير الفُرقة التي نراها بين العرب اليوم دولة هنا ودولة هناك ، وما ندرى متى سيكون التئام هذا الشقاق الطاحن .

وثاني تلك الأسباب هو مانعلمه جميعاً من تغلغل النفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة حتى باتت الأجهزة الحكومية تأتمر بأمره .

وثالث تلك الأسباب هو ما بين الشعبين الأمريكي واليهودي من تشابه ، فكلاهما شعب نازح . فكما نزع الأمريكيان الأول من دول أوروبا المختلفة إلى أمريكا وغالبوا أهلها الأصلاء على أرضهم ، كذلك كان الشعب اليهودي شعباً نازحاً هاجر من شتى أقاليم العالم شرقاً وغرباً إلى فلسطين ليغلب هو الآخر أهل

الأرض من العرب على موطنهم وينزع الحق من أهله . كذلك لقي الشعبان الأمريكى واليهودى الكثير من الاضطهاد الدينى ، فرجع الهجرة إلى أمريكا هو ذلك الاضطهاد الدينى الذى ساد أوربا قبل تلك الهجرة ضد « الأطهار » المتزمتين ، وكذلك كان الاضطهاد الدينى لليهود فى أوربا هو الذى حفزهم إلى البحث عن أرض ينتزعونها ويستقرون بها مطلقيين على أنفسهم اسم الرواد شأن مهاجرى أوربا إلى أمريكا .

ورابع تلك الأسباب هو ما غمر نفوس هؤلاء وهؤلاء من تحذد للسكان الأصليين فى أمريكا وفلسطين من إظهار ملامح التفوق الحضارى ليثبتوا للعالم أجمع أنهم أفضل حالا من المواطنين الأصليين .

وخامس تلك الأسباب أنه وإن كان الشعب الأمريكى معاديا للسامية بطبعه ، غير أنه ليكفر عن هذه الخطيئة التى تثقل ضميره غالى فى تشجيعه للصهيونية .

ثم لانسى ما هو معروف من أن الكثرة من رؤساء الولايات المتحدة نهّazon للفرص همهم الوصول إلى كرسى الرئاسة ، وهم ليسوا رجال دولة بقدر ما هم سياسيون محترفون تعينهم مصالحهم الخاصة فحسب ، وقد يضاف إلى ذلك رغبة أمريكىّا آنذاك فى أن تترث الاستعمار الأوروبى فى الشرق الأوسط ، وأن تكون اسرائيل هى قاعدتها فيه . والغريب أيضا أن رأينا أندريه جروميكو وى ير خارجية الاتحاد السوفيتى يقف فى الأمم المتحدة يجاهر بتأييد قيام دولة اسرائيل فى الرابع عشر من مايو قبل أن تعترف بها الولايات المتحدة دولة ، ثم لا تلبث حكومة الاتحاد السوفيتى أن تعترف باسرائيل دولة بعد اعتراف الولايات المتحدة بمالاجاوز اليومين ، وسمعنا لستالين عبارته الماثورة عنه من أنه يلدّ له أن يقف حاميا نصيرا لدولة يهودية !

وكان مما يروع أن يُسند لكتائب الجيش الاحتياطى والجيش المرباط ما كان يجب أن يُسند إلى الجيش النظامى ، ونحن نعلم كعسكريين تلك الروح التى تسود قوات الاحتياط ، فلا انضباط ولا روح معنوية ولا تدريب أو خبرة عسكرية ، وهذا يكون الجيش الاحتياطى أقل مستوى من الجيش النظامى ، الأمر الذى دعا

قيادة القوات المصرية بفلسطين أن تطلب من رئاسة هيئة أركان حرب الجيش بمصر أن تستبدل بالقوات الاحتياطية وحدات نظامية حتى تكفل للمعارك الحربية بيننا وبين العدو الغلبة والتفوق . غير أن تلك الدعوة من القيادة العسكرية بفلسطين لم تلق من الرئاسة بالقاهرة أذنا صاغية ولا وعيا بالمسؤولية ، وإذا هي بدلا من أن تستجيب لهذا المطلب المُلح تسترسل في غيها وترسل المزيد من قوات جيش الاحتياط ثم قوات أخرى من الجيش المربط . ولكي تفيد القيادة بفلسطين من تلك القوات الاحتياطية التي كانت شبه عبء عليها ألحقها سرية بعد سرية مع الكتائب النظامية لكي تكفل لها لونا من ألوان العون ، وهو وإن كان عوناً يسيراً إلا أنه في ميدان القتال قد يفيد شيئاً . ولقد كان لهذا الحل شأن ما في الارتفاع بمستوى تدريب القوات الاحتياطية وتخفيف العبء على القوات النظامية . ولو قليلاً .

وضرب الصهاينة بالهدنة الثانية أيضاً عرض الحائط وشتوا هجمات متتالية على مواقع القوات المصرية التي تجاوز طول جبهتها ثلاثمائة من الكيلومترات مما جعل المهمة الملقة على عاتقها من الصعوبة بمكان ، إذ كانت قلة غير كافية والشغرات بينها واسعة لا تقع عليها عين ولا يكفلها دفاع . من أجل هذا تمكن الصهاينة من النفاذ من تلك الشغرات في يُسردون أن يلقوا إلا مقاومة قليلة ، ذلك أن الجيش الزاحف كلما طالت خطوط مواصلاته وبعُدت عن قاعدة انطلاقه كلما بات كقطعة المطاط التي باتت أدنى إلى التمزق مع أوهن الضربات . وقد اضطرت قيادة القوات المصرية بفلسطين مرة أخرى إلى إعادة تقسيم الجبهة إلى مناطق وقطاعات وناطت بكل منطقة وقطاع قوة خاصة على قدر ما تسمح الظروف . وكانت للعدو قوة بحرية استطاع أن يفيد منها في نقل ما يحتاج إليه بحراً من إمدادات ، وكنا عندها نفقد السيطرة على طرق مواصلاته البحرية مما سهل له نقل السلاح دون أن يواجه ما يعترضه . ولقد جرّ خرق الصهاينة للهدنة أكثر من مرة إلى أن تنشب الحرب مرة ثالثة في الخامس عشر من أكتوبر ١٩٤٨ وبقيت طيلة خمسة أشهر إلى أن كان توقيع اتفاق الهدنة الأخيرة في ٢٤ فبراير ١٩٤٩ .

والحق إن التنسيق بين أسلحتنا البرية والجوية والبحرية لم يكن وثيقاً على النحو المنشود . ولقد كانت الروح المعنوية بين صفوف القوات المصرية مرتفعة

لا سيما حين كُتِب لها دخول فلسطين ، ولكن هذه الروح مالبثت أن خمدت شيئاً حين تدفقت الأسلحة والإمدادات على إسرائيل من كل حذب وصوب شرقاً وغرباً ، الأمر الذى هبها لإسرائيل التفوق عُدّة وسلاحاً ، بينما لم يكن للجيش المصرى من تلك الموارد إلا ما هو محدود يُشترى ولا يوهب .

وما من شك فى أن إدارة المعركة سياسياً كانت على درجة كبيرة من التخلف سواء من ناحية شرح أبعاد القضية تاريخياً وحضارياً أو كشف أهداف الصهيونية وتعبئة الرأى العام العربى والغربى ، وكذلك من الناحية العسكرية فقد كان للتدخل السياسى فى سير المعركة أسوأ الأثر ، فلم يكن ثمة غرض استراتيجى واضح أمام القوات المحاربة ، فغدت غايتهم الاحتفاظ بما يحتلون من أراض ، أما لماذا وكيف وإلى متى فكل هذا كان أمراً غامضاً مشوّش الرؤية والهدف . ولقد تم للقوات المصرية أول مانسببت المعارك احتلال الفسيح من الأراضى جنوبى فلسطين ، واستمسكت بهذه الأراضى استمسكاً لا معدل عنه لأسباب رأتها الإدارة السياسية ، وهذا أحست القوات قصور حركتها الميدانية ، وفقدت ميزة المبادأة التى انتقلت إلى العدو . وعلى حين أصبح الجيش المصرى يعمل على خطوط مواصلات طويلة مهددة كان العدو على العكس من ذلك يعمل على خطوط مواصلات متضامة آمنة تتيح له خفة الحركة وكيل الضربات هنا وهناك . كذلك أملت السياسة على قائد القوات المصرية التقدم السريع فى مستهل الحملة إلى أن انتهى إلى المجدل وأسدود والخليل وبيت لحم ، فاضطرته هذه العجلة إلى أن يتترك مستعمرات العدو خلف خطوط مواصلاته لم تُظهِر ولم تؤمّن فأصبحت ماثراً للتهديد الدائم . أضف إلى هذه كله أن الحكومة المصرية لم تتيّن سياستها إزاء مشكلة فلسطين إلا قبل أن تصدر أوامرها للجيش بالتدخل بأربعة أيام فقط ، فكانت مفاجأة للقيادة المصرية لا لقيادة العدو كما كان ينبغى . وقد اضطرت هذه المدة القصيرة للجيش المصرى إلى أن يعد عُدته على عجل ودون استعداد كاف ، فضلاً عن الظروف الصعبة الأخرى التى سلف بيانها .

ومما زاد الأمر عسراً وقوف الجيوش العربية موقف الدفاع فى أماكنها لا موقف الهجوم مما أتاح للعدو أن يواجه الجيش المصرى على انفراد بقواته كلها . وكذلك فإن التعاون كان شبه مفقود بين الجيوش العربية والجيش المصرى ، ولم تكن ثمة

قيادة موحدة ، هذا إلى أن نوايا السياسة العربية لم تكن خالصة أو جلية . كذلك كان القتال الليلي مفاجأة للجيش المصرى الذى كان تدريب جنوده عليه محدوداً كما لم يكن مستعداً له بأجهزة القتال الليلي المتاحة للعدو فظل مضطراً إلى خوض معاركه نهاراً فقط . وعلى للعكس من هذا كان جيش الصهاينة مدرباً على القتال ليلاً ونهاراً ومجهزاً بوسائل القتال الليلي مُلِمًا الإمام كله بمسالك الأرض التى يعمل عليها ، وهذا مما كبّد الجيش المصرى خسائر جسيمة كان فى الإمكان تجنبها ، بينما كانت الكثرة من جنود الصهاينة قد شاركوا فى الحرب العالمية الثانية سواء منهم من كان مع الشرق أم الغرب فأفادوا من ذلك أيما فائدة .

أما ضباط الصف فى قواتنا فلم يكونوا على مستوى لائق ، ينقصهم التدريب كما تعموزهم الخبرة مما أثقل بهم عاتق الجيش ، وحرّم الضباط من الاعتماد عليهم لقلة ثقتهم بكفاءتهم ، فكان إذا ما أصيب ضابط من الضباط لاتجد الوحدة من يخلفه فى مكانه . ولو أن ضباط الصف كانوا على قدر من الدراية لنابوا عن أولئك الضباط وسدّوا ثغرات كان الجيش فى حاجة ماسة إلى سدّها . أما قلة الطائرات التى كان يملكها سلاح الجو المصرى فقد اضطرتّه إلى استخدام طائراته فى غير ما خصّص لها فحدثت البلبلة ، إذ أخذ كل نوع من الطائرات يشارك فى الغرض الذى ليس له ، مما حثّل الطيارين المصريين عبثاً لا طاقة لهم به وعرضهم مع طائراتهم لخسائر وتضحيات جمة زادهما كانوا هم عليه من الإقدام والجسارة . وأذكر بالفخر طياراً كان نموذجاً للتضحية الغالية والشجاعة النادرة حتى لقد عُذّ حينذاك أسطورة من الأساطير خافها الصهاينة وكانوا يرجفون بحق لذكر اسمه إلى أن لقي حتفه شهيداً فى المعركة ، هو الطيار « عبد الحميد أبوزيد » رحمه الله .

ومما يسترعى الانتباه حقاً أن مراقبى الهدنة حينذاك وكلهم من الغرب لم يكونوا على مستوى الإنصاف والحياد بل كانت ميول بعضهم اسرائيلية . أقول هذا لأننى أربط بين ما كان يحدث من جولات بعضهم بين مواقعنا نهاراً ثم تتبعها الغارات الاسرائيلية ليلاً على نفس المواقع . ترى هل كان ثمة ارتباط بين هذه وتلك ؟ علم هذا عند الله ، ولكنى أكاد أذهب إلى أن تلك المتع التى كان يهيئها الإسرائيليون لبعض هؤلاء المراقبين من ضعاف النفوس لاشك كانت تغريهم بالانحراف . وظهرت انحرافات أخرى لدى بعض الأعراب ممن كانوا يشتغلون



بالتجارة، فلم يدركوا ما تمليه عليهم ضمائرهم فأغراهم الجشع إلى المغالاة في الأسعار مما أرهق أهالي فلسطين وجعلهم يرمون بجياتهم، بينما كان الصهاينة حينذاك يشترون بأغلى الأثمان، فدفع هذا هؤلاء التجار الجشعين إلى أن يستبدلوا بالأسواق الفلسطينية أسواقاً صهيونية مما مكن هؤلاء من شراء مقادير كبيرة من الأسمنت والوقود عاونتهم أشد العون في حرهم ومكنت لهم .

ومما كان يثير دهشتي خلال تلك الحرب أنه على حين كانت نشرة الأنباء المصرية تتصدرها مقطوعة موسيقية حماسية لمحمد عبدالوهاب كانت النشرة الإسرائيلية تتصدرها موسيقى رقص الباكاتال المعريدة من أوبرا « شمشون ودليلة » لكلامي سأن صانص المعيرة عن نشوة نصر الفلسطينيين القدامى (٤) في غزة على بنى إسرائيل بعد أن أسلمت دليله الفلسطينية عشيقها شمشون الإسرائيلي إلى قومها الفلسطينيين . وما زالت دهشتي قائمة حتى اليوم ، كما لازلت أتساءل هل فأتت هذه الحقيقة الواضحة على الإذاعة الإسرائيلية ، أم تراها كانت تقصد تذكير الفلسطينيين الجدد بعودة شمشون من جديد ؟

أما ما قيل من أن سبب هزيمة الجيش المصري في فلسطين عام ١٩٤٨ الأوحدهو فساد الأسلحة والذخائر التي كانت في أيدي الجيش فهذا حديث أراه متجاوزا الحقيقة . فلقد كنت خلال هذه الحرب أعمل كما أسلفت في المخابرات الحربية بالقطاع الجنوبي من الميدان ، وما من شك في أنني بحكم موقعي كنت على علم بما يدور حولي من شئون حربية ومنها تلك الأسلحة والذخائر . وكل ما حدث هو انفجار أربعة مدافع ٢٥ رطلا عن خطأ في تعبئة ذخيرتها الإنجليزية . وكان مثل هذا الحادث قد وقع بالجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية ، وأثبتوا هذا في مراجعهم التي وصلتنا في مصر بعد انتهاء الحرب في فلسطين ، واستدراكا لما وقع قامت المصانع البريطانية بإصلاح هذا الخطأ في ذخيرتنا بعد إيقاف القتال .

ولا أعنى بتسجيل هذه الحقيقة تبرئة ذلك العهد مما استشرى به من فساد ، فلقد كان عدد من رجال القصر والخاصية نفسها قد فرضوا لأنفسهم عمولات على صفقات شراء الأسلحة والذخائر في تلك الظروف التي كانت فيها أرواح الآلاف من رجالنا معرضة للخطر في كل لحظة يتأخر فيها وصول الأسلحة ، فتحول هؤلاء إلى الاتجار بأرواح الشعب إلى جانب الاتجار بأقواته ، ومن هنا قامت حملة

الأسلحة الفاسدة . وقد حدث بالفعل عندما اجتمعت لجنة الاحتياجات في عام ١٩٤٨ لمد الجيش بما يحتاج إليه من أسلحة ومعدات بطريقة لا تخضع للقيود الرسمية أن قامت منافسة بين بعض ضباط سلاح المهندسين وبين نفر من ضباط الذخيرة والمفرقات من صغار النفوس لتولى هذه المهمة التي لم تخضعها اللجنة لرقابة الضباط الفنيين المتخصصين في الأسلحة والذخيرة والمفرقات ، وهو ما أتاح الفرصة لآخرين من مدنيين وعسكريين ممن لم تكن لهم الدراية اللازمة الى المشاركة في جلب الأسلحة والذخائر حتى رأينا الأمير عباس حليم يشارك في جلب صفقة من تلك الأسلحة وهي صفقة المدفع الإسباني عيار ١٠٥ مم وذخيرته ، كما قام عبد اللطيف أبورجيله بجلب صفقة الذخيرة عيار ٧٥ مم للدبابات شيرمان من مخلفات الحرب العالمية الثانية في المسرح الأوربي ، وكذا قام غيرهما بجلب صفقات من القنابل اليدوية من إيطاليا ، وكذا ذخيرة ٣٠٣ ، من إنجلترا وقنابل من مخلفات الجيش البريطاني في الصحراء الغربية . والغريب في هذا أن تلك الذخائر المستجلبه لم تحظ بتفتيش الفتيين المصريين عليها قبل أن تُسجن إلى مصر وفق العُرف السائد . وكان أن اكتشف ضباط الذخيرة الفتيون أن أكثر مما استجلب على أيدي هؤلاء الدخلاء كان غير صالح فطالبوا بإتلافه ولكن طلبهم لم يلق أذنا صاغية ، وشاء الله أن تنفجر هذه الذخائر وحدها تلقائيا في شهر من شهور الحر المعروفة وهو شهر أغسطس ١٩٤٩ ، وكان لهذا الانفجار أثره في إشعال حريق الجيوشى . ولو أن هذه الذخائر الفاسدة قد وصلت إلى ميدان القتال لكانت عاقبتها وخيمة ماديا ومعنويا .

وانتهت الحرب وأثير هذا الموضوع فإذا الاتهامات تُتقَازَف ، يُلقى كل فريق التبعة على غيره ، وشتت الصحافة حملتها ، وإذا الكاتب الأديب إحسان عبد القدوس يدلى بدلوه في الموضوع بمجلة روز اليوسف بشجاعة فريدة ارتقت به كصحفى مبروق . ويذهب في اتهاماته إلى أن سبب هزيمة الجيش المصرى في فلسطين مرجعه إلى الذخيرة الفاسدة التي تسربت إليه مع أن هذه الذخيرة كما قبلت لم يستخدمها الجيش المصرى في فلسطين . وكانت الفرصة مواتية لقيادة الجيش لأن تجعل الهزيمة التي منيت بها مردها الى هذا الذى أثير على لسان هذا الكاتب . كما وجد حزب الوفد الفرصة مواتية أيضا لأن يتهم السراى ويجعلها

شر يكة في هذا الموضوع فأثار استجوابا في مجلس النواب يسائل فيه المسؤولين عن هذا . وردت السراى تبسرىء نفسها ، وإن كانت شريكة في جلب الأسلحة والذخيرة الفاسدة التى أشرت إليها . وكان إثبات الرشوة من العسر بمكان على النيابة العامة فجعلت الاتهام مرجعه إلى أسباب فنية . ولقد شغلت النيابة العامة بهذا الموضوع سنين بدأت من أكتوبر ١٩٥٠ وانتهت سنة ١٩٥٣ أى إلى ما بعد قيام الثورة ، فحفظت بعض الاتهامات وأحيل بعضها إلى المجالس العسكرية العليا وأحيل البعض الآخر إلى محكمة الجنايات .

على أنه بالرغم مما منيت به قواتنا المسلحة من خسائر في فلسطين كان مردّها إلى الأسباب التى ذكرتها قبل ، كانت هذه الحرب على أية حال تجربة أيقظت العرب من سباتهم وكشفت لهم عما هو محقق بهم من خطر إسرائيلى يعاونه تأييد شامل من الدول شرقا وغربا ، وكانت بحق أول صراع تمتحن به القوات المسلحة المصرية بعد فترة من ركود طويل . وعلى الرغم من أن ما كان بين يدى الجيش من أسلحة كان محدودا قليلا إلا أن ضباطه وجنوده قد بذلوا من التضحيات ما لا يستوعبه وصف ، وكم عاشوا أياما وليالى في مستهل الحرب على الكفاف . ومع هذا فقد قبلوا هذه الأوضاع راضية نفوسهم مطمئنين إلى أنهم يؤدون واجبا مقدسا لا ينظرون إلى غيره ، ملتبون ما يلقى إليهم من أوامر دون برم أوضيق ، ولعل في هذا ما يفسر تلك الانتصارات الأولى التى أحرزها الجيش المصرى . وكما عودتنا المرأة المصرية من مشاركة للرجال في الشدائد من قديم الزمان ، فقد لمسنا بوضوح وجلاء ما كان منها في الحرب الفلسطينية من وقفات كريمة إلى جانب الجيش المصرى ، فلم تدخر وسعا في تمر يض الجرحى ومواساة الأسر المنكوبة كما قامت بخدمة اللاجئين الفلسطينيين في معسكراتهم المختلفة .

\* \* \*

## ٤ تنظيم الضباط الأحرار

عدنا إلى القاهرة بعد أمل ضائع ، حزاني موتورين وفي نفوسنا ثورة لم نستطع التعبير عنها أو الإفادة منها أو توجيها . لقد تضافر الاستعمار العالمى مع الحالة السياسية المصرية المضطربة المزرية ، والموقف الرث لأساليب الحكم فى الدول العربية عامة ، ونتج عن ذلك كله تلك الهزيمة الشاذة التى لم تكن فى واقع الأمر هزيمة عسكرية بل هى تخاذل وتخبط للسياسة العربية كلها .

وعُيِّنَتْ بإدارة التدريب الحربى فى رياسة هيئة أركان حرب الجيش ، وعُيِّن جمال عبدالناصر مدرّسا بكلية أركان الحرب ، وعيّن عبدالحكيم عامر برياسة سلاح المشاة ، وبدأ يدعوان إلى تشكيل تنظيم جديد أطلق عليه « الضباط الأحرار » ، وكان من الطبيعى أن أنضم إليهما فور إبلاغهما لى بالشروع فى العمل . كان جمال عبدالناصر هو الداعى الأول لهذا التنظيم ومن ثم فقد أسلمنا إليه القيادة ، فما شهدنا عليه إلا نراة مسرفة فيما يفعل ويأتى ، وتضحية من أجل الغير ، وإنسانية فيّاضة ، وحرصا على إغاثة كل من تنزل به نازلة مادية كانت أم معنوية ، وبذلا لجهده وماله ووقته فى سبيل قضيه مصر التى كانت شغلنا الشاغل ، فضلا عن حنكته السياسية ودرايته العسكرية وتجردة المثالى . كانت

هذه الصفات التى طُبع عليها هى التى أهلتها لأن يقود وأن يسوس وأن يكون منا موضع تقدير وإعزاز. وبقدر ما كانت لقاءاتنا به جادة ومثمرة بقدر ما كان يتخللها مرح مستفيض ، إذ كان رحمه الله يتميز بخفة ظل فريدة ، كما كان يملك قدرة على السخرية اللاذعة التى عادة ما يغلفها بدعابة تخفف من قسوتها .

وذات يوم من عام ١٩٤٩ وخلال حملة للبوليس السياسى على أحد مقار جماعة الإخوان المسلمين عُثر على كتاب سرى من الكتب الخاصة بالجيش المصرى فى استخدام القنابل اليدوية عليه اسم اليوزباشى جمال عبدالناصر ، وهو أمر يحظره نظام الجيش . من أجل هذا استدعاه ابراهيم عبدالهادى باشا رئيس الوزراء إذ ذاك ليسأله فى هذا الأمر بحضور الفريق عثمان المهدي رئيس هيئة أركان حرب الجيش . وكان جمال لبقا حاضرا البديهة فى تخلصه من هذا المأزق إذ قال إنه كان قد أعار هذا الكتاب لليوزباشى أنور الصيحي زميله فى الجيش ، وكان قد استشهد فى حرب فلسطين . ولقد أحس جمال بعد هذه المواجهة أن البوليس السياسى سوف يتعمقه كما سوف يتعقب من يتصلون به فخف إلى ليلقانى وليحذرنى ، كما أوصانى أن أنهى هذا التحذير إلى صديق لنا ثالث كان على صلة وثيقة بى كما قلت قبل وهو خالد محيى الدين ، وطلب منى أن أدعوه إلى المرور به ليلقاه . وكان هذا الحادث بدء التفكير فى تكوين تنظيم الضباط الأحرار على وجه أكثر دقة وأعمق فهما . وقد علمتُ بعد أن نجحت الثورة أن جمال عبدالناصر فكر منذ ذلك اليوم فى أن يُنظم شبه قيادة من نفر من الزملاء يكون إليها التفكير فيما سيكون وما يصح أن يضطلع به الضباط الأحرار . وكان هؤلاء الزملاء الذين فكر جمال ليجعل منهم هذه القيادة سنة ١٩٤٩ هم كمال الدين حسين وخالد محيى الدين وحسن ابراهيم . وبعدها كاشفهم بأنه لا يكتف عن صديقه عبدالحكيم عامر سرا ، ولذا رأى أن يضمه إلى تلك الجماعة . وكما فعل جمال فعل حسن ابراهيم فضمَّ عبداللطيف البغدادى ، ثم انضم صلاح سالم ، ومالبت أن ضم هو الآخر شقيقه جمال سالم ، وبأخيرة ضمَّ جمال عبدالناصر أنور السادات سنة ١٩٥٢ . وكان طبيعيا أن يبقى هذا التشكيل سرا خفيا على الجميع .

وخلال سنتى ١٩٤٩ و١٩٥٠ أصبح التنظيم حقيقة حلت محل الإيمان والعقيدة فى نفوسنا ، ثم أخذ هذا التنظيم يمتد إلى ما وراء نطاقه المحدود ،

فبدأ يمتد إلى أسلحة الجيش المختلفة ، بل وبدأ يمتد إلى خارج القوات المسلحة ، فقد كانت المنشورات السرية أتر بعيد فيما دب بين الضباط من يقظة وترقب . ففي الوقت الذي كانت قيادة الجيش تضرب فيه نطاقا حديديا من الرقابة على تحركات الضباط ، وفي الوقت الذي كانت فيه قيادة الجيش تظهر بمظهر القوى المستبد ، وفي الوقت الذي كانت تتجه فيه إلى التكتيل بكل من تسول له نفسه التمرد على طاعتها أو الخروج على إرادتها ، في هذا الوقت عرف الضباط الأحرار طريقهم إلى الضباط على اختلاف مواقعهم في أسلحة الجيش ، فقاموا بتوزيع المنشورات التي تناقش الموقف السياسي وتكشف عن مساوئه ، وتعرض لسياسة التخبّط والارتجال وتنادى بالحرية والتحرّر . وكانت كتابة هذه المنشورات وطبعها ثم توزيعها على تلك الصورة التي شاعت بها بين الأسلحة ، كان كل هذا كافيا للتدليل على أن تنظيم الضباط الأحرار أقوى من أسلحة البطش ، وأقدر على مواجهة الجبروت ، وأصلب عزما على كسر هذه الحواجز بين الضباط ، بل بينهم وبين الرواد الوطنيين من الشباب خارج هذه الأسلحة .



وقد بدأت منشورات الضباط الأحرار تصدر تباعا منذ عام ١٩٤٩ متضمّنة هجوما عنيفا على الاستعمار البريطاني وعلى عناصر الفساد سواء في القوات المسلحة أم في السراى أم في الحكومة ، وكذا كانت تحضّ على التمرد والثورة والعصيان بين ضباط الجيش خاصة وتكشف الظلم والفساد للشعب عامة ، وذلك لإيماننا بأن ثورة الشعب لا يمكن أن تظفر بالنجاح إلا إذا أزرها الجيش ووقف حاميا لها ، كما كانت تلك المنشورات تهاجم بعض القيادات في الجيش . أما كيف كانت هذه المنشورات تطبع وكيف كانت تُوزّع فقد احتال التنظيم لهذا وذاك بحيل كثيرة حتى تجد طريقها إلى مختلف الصفوف . كانت تُرسل في خطابات تكتب عناوينها بأيدي مختلفة ، كما كانت ترسل من جهات مختلفة لتضليل الرقابة ، بل لقد كانت تجد طريقها في بعض الأحوال

إلى ضباط الجيش على أيدي الضباط الأحرار أنفسهم يحملونها في حقائبهم إلى إخوانهم في كل سلاح . وكان الذى يتولى هذا وذاك - أعنى اختيار الموضوع والصياغة والتوزيع - خالد محيى الدين وجمال عبدالناصر .

وكان أن أصبح كل من تصله هذه المنشورات عضواً فى التنظيم دون أن يعرفه التنظيم . أصبح هذا واضحاً من حرص كل ضابط يتلقى منشوراً من هذه المنشورات على أن يكتُم سرّه ، يخاف على هؤلاء الإخوة من هول ما قد يصيبهم لو أن أمرهم ذاع . وسرت موجة من التعاون الخفى بين ضباط التنظيم وبين الضباط خارج التنظيم ، تعاوناً قلّ أن يحدث مثله دون تعارف شخصى . وما كان هذا التعارف الشخصى يُغنى شيئاً ، فقد التقت إرادة هؤلاء جميعاً حول مافى المنشورات من أفكار ومن حقائق ومن عزم صحيح على عمل شئٍ للخلاص . ولم تكن حركة التنظيم نوعاً من أنواع التمرد أو العصيان ولا تعبيراً عن طموح فئة تسعى إلى القوة والجاه ، ولكنها كانت انعكاساً لكل ما كان يساور النفوس من اتجاهات وآمال . لهذا كانت الصفوف المتراصة خارج نطاق التنظيم تحمى بطريقة إيجابية تنظيم الضباط الأحرار .

ولعل من ردّ الحق إلى أصحابه أن أذكر هنا أنه كانت ثمة تشكيلات سرّية عدّة بين صفوف ضباط الجيش منذ بداية الأربعينات لها هى الأخرى منشورات طُبعت ووزّعت . ولم تكن تلك التنظيمات على صلة وثيقة فيما بينها ، بل كان لكل تنظيم وجهته واستقلاله . وكان من بين هذه التنظيمات تنظيم بسلاح الفرسان يمسك بزمامه البيوزباشى جمال الدين منصور الذى كان بعدُ سفيراً لمصر فى يوغوسلافيا ، ولقد أخذ تنظيمه هذا يمارس نشاطه منذ عام ١٩٤٥ ، وكانت له منشورات بلغت العشرين تُمهر باسم « ضباط الجيش » . وكان ثمة بطل مجهول وراء كتابة هذه المنشورات على الآلة الكاتبة وطبعها هو المواطن المدنى محمد شوقى عزيز ، بعد أن يعدّها ويصوغها جمال منصور . ثم كانت حملة للبوليس السياسى والمخابرات الحربية تعقبت هذا التنظيم مما اضطر معه إلى التلبّث عام ١٩٤٨ ثم عاود نشاطه بعدُ ، وأخذ فى إصدار منشوراته .

وكان ثمة لقاء بين الأخ خالد محيي الدين والسيد جمال منصور انتهى الأمر بعده بينهما إلى أن يتعاون تنظيم الفرسان مع تنظيم جمال عبدالناصر - الذى أنشأه عام ١٩٤٩ - فى طبع المنشورات التى صدرت ممهورة باسم « الضباط الأحرار » ، وكان جمال منصور هو من اقترح هذا الاسم ، ثم مالبت هو الآخر أن انضم بعد قليل إلى هذا التنظيم الجديد .

وعند صدور المنشور الثانى الذى صدر فى ٢٢ ديسمبر ١٩٤٩ علم بأمره البوليس السياسى وجمعه كله من البريد قبل أن يصل إلى أصحابه ، ورأى عبدالناصر حرصا منه على أمن المسيرة أن تنقل الآلة الكاتبة وآلة الطباعة إلى بيت قائد السرب عبدالرحمن عنان ، ثم إلى بيت البكباشى حمدى عبيد ، إلى أن انتهى المطاف بهما إلى الحركة الديمقراطية للتححرر الوطنى « حدتو » التى كانت لها جهودها الإيجابية المساندة لأهداف التنظيم ، فاضطلع القاضى أحمد فؤاد [ رئيس مجلس إدارة بنك السويس الآن ] بكتابة المنشورات على الآلة الكاتبة بمكتبه بالنيابة العامة ثم طبعها على آلة الجستتر الخاصة بـ « حدتو » ، كما اشترك أعضاء هذه الحركة من الضباط فى كتابة العناوين . وقد تبدو الآن هذه المهمة سهلة يسيرة ، تنقل ورقا من هنا إلى هناك ، ولكنه لم يكن ورقا عاديا ، إنما كان منشورات سرية للضباط تحضهم على الثورة بيد رجل عسكرى ومن هنا تأتى خطورتها ، ومن ثم كانت هذه العملية تتطلب رباطة جأش وقوة أعصاب وعزما وإرادة لن تتوفر إلا لمن يضعون إيمانهم فوق رغباتهم . ولن ننسى تلك الأيام التى كان خالد يتجول فيها حاملا فى حقيقته الدليل المادى الذى يمكن أن يؤدى به إلى الإعدام رميا بالرصاص ، وكان يمضى مع هذا دون أن تضطرب خطاه الهادئة أو تتضاءل إبتسامته الودودة أو يستشعر أنه يؤدى عملا خطيرا إذ كان يؤمن أنه يقوم بواجب قومى لا معدل عنه .





ويمكن للقارئ أن يدرك مستوى النضج السياسى الذى بلغه الضباط الأحرار ومدى إحساسهم بنبض الشعب بآماله وآلامه حين يقرأ ما سجّله فى منشوراتهم قبل أن تبدأ الثورة ، فسوف يرى فيها أغلب مطالب المثقفين المصريين وأكثر رجال السياسة وطنية وإخلاصا لمصر . فقد أداروا منشوراتهم حول مطالب محدّدة مثل القضاء على الاستعمار الأجنبى الأنجلو أمريكى وأعوانه المحليين من السياسيين ورجال القصر والصحفيين المرتشين ، وإطلاق الحريات العامة للشعب وتكوين جبهة وطنية وإقامة جيش وطنى مجهّز بأحدث الأسلحة وأقدرها على حماية الوطن . بل يمكن أن نتبين منه ارتباط هؤلاء الضباط بأمتهم العربية التى كانوا يؤمنون بأن من واجبه أن يساهموا معها فى استرداد فلسطين . إن مثل هؤلاء الضباط بمثل هذا الوعى لا يمكن اتهمهم كما يزعم البعض بسرقة أفكار المثقفين واقتصار دورهم على تنفيذها . لقد كانت هذه المطالب دما يجرى فى عروقهم بقدر ما كانت دما يجرى فى عروق جميع الشرفاء ، مثقفين مدنيين وفلاحين وعمالا وموظفين وطلبة فى المستويات المتوسطة . فما يمكن لأحد أن يزعم أن الثقافة وقف على خريجي الكليات المدنية أو كتاب الصحف والمجلات ، أو أن الكليات العسكرية تقام داخل أسوار لا تتسرب إليها الثقافة ، فتلك سذاجة فجّة ممن يجهلون للأسف كثيرا من الحقائق حول الدراسة فى المعاهد العسكرية بمختلف درجاتها ، ولكن بعضا من المتصدّرين للنيل من العسكريين لا يعرفون للأسف كثيرا من هذه الحقائق البديهية ، ولا أعتقد أن نسبة غير المثقفين من بين الضباط تختلف كثيرا عن نسبتهم بين خريجي الكليات المدنية . ولست أعنى بهذا أننى أشابع قيام نظام حكم عسكرى ممتد ، فمن المسلّم به أنه ليس النظام الأمثل للحكم فى أى مكان فى العالم حسب ما نستقرئه من أحداث التاريخ .

حقا إن التعميم خاطيء حتى لو صدر عمن يزعم لنفسه أنه مثقف أو مؤرخ أو عقل . ترى أكان من الخطأ أن يتبنّى بعض الضباط مطالب شعبهم التى ينادى بها مثقوبلادهم ويخرجوا حاملين رءوسهم على أكفهم ليواجهوا الملكية والاستعمار بكل ماكان لهما من بأس و سطوة ، ويخلعوا الملك عن عرشه ، ويجعلوا مصر جمهورية

مستقلة؟ وإذا فرضنا جدلا أن هؤلاء الضباط لم يكونوا يوم قاموا بهذا العمل الجسور إلا مجرد أداة تنفيذية لأفكار المثقفين، أفلا يستحق هؤلاء الضباط ولولسة وفاء وكلمة تقدير لتحركهم ليلة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ وحملهم عن عاتق المثقفين عبء القيام بثورة اجتماعية يعلم الله وحده كيف ومتى كان سيقوم بها المثقفون؟

\*\*\*

وفى أكتوبر ١٩٥١ حدثت مفاجأة جديدة عندما أعلنت حكومة الوفد إلغاء المعاهدة المصرية البريطانية، وبدأ الفدائيون يعملون لتطهير منطقة قناة السويس من جنود الاحتلال. وبرغم ما قيل من أن الحكومة لجأت إلى هذا الأسلوب لتطيل بقاءها في الحكم وتوريط القصر أمام الرأي العام، برغم هذا فقد قرر الضباط الأحرار أن يدخلوا المعركة جنبا إلى جنب مع الفدائيين، ومنهم من كان من الإخوان المسلمين ومنهم من كان من التنظيمات التقدمية، استشهد من بينهم الكثيرون، يجمعهم هدف مشترك هو حماية الوطن. وكانت تجربة جديدة، أخذ فريق من الضباط الأحرار أذكر منهم الأبطال الفدائيين كمال رفعت رحمه الله ولطفى واكد وحسن التهامي وغيرهم يقصدون منطقة القناة مع عطلة آخر الأسبوع إذ لم يكن يسيرا عليهم الحصول على الأجازات ليشاركوا اشتراكا متصلا في المقاومة، وأخذ البعض يدرّبون الفدائيين على استعمال السلاح في أماكن متفرقة من القاهرة، وأخذ فريق ثالث يجمع السلاح من الأسواق ويختبره قبل تسليمه للفدائيين. ومضى فريق رابع يحمل الذخيرة والقنابل ويجوب بها شوارع القاهرة لتسليمها لفرق الفدائيين بعد أن يستوثق من قدرتهم على استخدامها. وهكذا شارك الضباط الأحرار مشاركة فعلية في معركة القناة تدريبا وإمدادا وقتالا على الرغم مما كان يجابههم بفعلهم هذا من مخاطرة قد تؤدي بأرواحهم وتعرضهم للسجون والتشريد، ولكن أملهم في المستقبل كان عظيما، وأنه لا بد من تغيير سيقع. وأما عنى فقد أصدرت بالاشتراك مع صديق العمر الصاغ أحمد وحيد الدين حلمى فى نوفمبر ١٩٥١ كتيباً بعنوان «أصول حرب التحرير» أشرف على إخراجه فنيا الفنان عبدالعزيز صادق، موجّها إلى المدنيين لتعليمهم كيفية اقتحام

معسكرات الاحتلال وقض مضاجع المحتلين نشدانا للخلاص ، تناول القواعد العامة للمقاومة الشعبية وتدريبها وأصول التسلّل والنسف والتدمير والحريق ومهاجمة المعسكرات والسفن والمطارات والقتال الليلي والقتال من بيت إلى بيت وعبور الأنهار والقنوات واختراق الأسلاك الشائكة واقتحام الموانع ، وبيع هذا الكتيب بسعر التكلفة . وقد طُبعت من هذا الكتيب طبعة ثانية مجانية بعد هزيمة ١٩٦٧ أصدرتها وزارة الثقافة لتعزيز المقاومة الشعبية بعنوان « دعوة البطولة والمقاومة الشعبية » .

وكنّت وقتذاك أحد ضباط التدريب الحربي برياسة أركان حرب الجيش كما أسلفت ، وكان على رأس هذه الإدارة اللواء سعد الدين صبور رحمه الله الذي كان من ألمع ضباط الجيش علما وكفاية . وذات صباح من عام ١٩٥١ استدعاني وتدرج في الحديث معي حتى وصل إلى موضوع منشورات الضباط الأحرار وفاجأني قائلا : « إني لأكاد أحسّ في تصرفاتك ما يجعلني أشك في أنك من الضباط الأحرار ، ولست أدري لم يهاجمني هؤلاء الضباط في منشوراتهم ؟ » . وكان الموقف يملئ عليّ أن أنكر صلتى بهذا التنظيم ، وبقي يلحّ عليّ فوعده بأن أسعى سعيي للاتصال بمن أتوسّم فيه أنه منهم وأسأله عن الأسباب الداعية إلى مهاجمته . وذكرت ذلك لجمال عبدالناصر فيما كان يدور بيني وبينه من حديث حول التنظيم ، فعهد إليّ أن أطلب من اللواء صبور أن يساعدني في مدّ التنظيم بالذخيرة والقنابل اليدوية ليثبت بذلك أنه على ولاء للقضية الوطنية . وعدت إلى اللواء صبور أكاشفه بما أحمل فاستجاب لي وسألني ما السبيل إلى ذلك ؟ فاقترحت عليه أن نمّر معا على ميادين الرماية لنأخذ منها ما استطعنا من ذخيرة ، وكان هذا يعني أن يستنفذ الجندي في الرماية شيئا ويستبقى شيئا نحوزه نحن . ومضى اللواء صبور ينفذ وعده وما أخلّ به . وكنّت أحمل هذه الذخيرة والقنابل اليدوية كلّ صباح في عربتي إلى بيتي أولا ثم أنقلها بعد ذلك إلى بيت جمال عبدالناصر أو إلى المرحوم المحامي عبدالوهاب حسني أو إلى اليوزباشي مجدى حسنين الذي كان يودعها مؤقتا بأحد مخازن سلاح خدمة الجيش لحين توزيعها على القائمين بالفداء . وهذا - أعنى استقطاع قدر من ذخيرة تدريب الجنود - وإن كان يبدو لأول وهلة عملا غير مشروع ، غير أنّنا فيما بيننا وبين أنفسنا نبرّره بسعيينا لغرض أسمى وأرفع وهو

الدفاع عن الوطن ضد جنود الاحتلال ، وكان هذا الغرض هو الواجب الأول للجيش فلم يكن من الغريب أن يُمَدَّ الفدائيون ببعض أسلحة الجيش وبخبرة رجاله .

غير أنى رأيت أن جمال عبدالناصر لم يسكت عن مهاجمة اللواء صبور في منشورات التنظيم على الرغم مما أبداه لنا من عون ، فاعتضت على ذلك ، لكنه لم يأخذ باعتراضى بحجة أن هذا التشهير سلاح علينا أن نستفيد منه إلى أبعد مدى .

وكننت آنذاك مسئولاً عن تدريب سلاح الفرسان [ المدرعات ] فضلاً عن كل ما يتصل بكلية أركان الحرب وبالنشر الحربي في القوات المسلحة . وكان من أهم واجباتى الاختلاف إلى وحدات سلاح الفرسان مع كل صباح في ميادين الرماية أو ساحات التدريب التكتيكي للمدرعات . ومن ثم كانت صلتى بضباط السلاح تكاد تكون متصلة منذ الثامنة صباحاً حتى الحادية عشرة حين أقصد مكتبى برياسة الجيش ، الأمر الذى جعل علاقتى بهم وطيدة ، فلقد نشأت بينى وبينهم ألفة وثقت تلك الصلات ، هذا إلى أنى كنت من ضباط هذا السلاح من قديم . غير أن هذا لم يكن من شأنه أن يتيح لى الفرصة لاختيار من أجثده من بينهم للتنظيم على النحو الذى يتاح لقائد يشارك ضباطه قيامهم ونومهم وعملهم وتدريبهم وأوقات فراغهم في معسكر منعزل يعمق التعارف بينهم ، وهو الأمر الذى أتيج لحسين الشافعى حين خرج يقود كتيبتين إحداهما للدبابات والأخرى للسيارات المدرعة استقرتا على طريق السويس في الصحراء عقب إلغاء المعاهدة فخلا لهُ الجو كى يستخير من بين الضباط من يرى فيه الصلاحية للانضمام إلى التنظيم ، ووفق إلى أن يضم جملة وفيرة من ضباط السيارات المدرعة إلى التنظيم تجاوز عددها العشر ، على حين جتد خالد محيى الدين ضباطاً ثلاثة من الآلاى الأول المدرع قام اثنان من بينهم هما توفيق عبده اسماعيل وأحمد حمودة بضم عشرة ضباط آخرين . أما الفرصة التى أتيجت لى فكانت من خلال اختلافى اليومى إلى وحدات الفرسان التى كان الإشراف على تدريبها من صميم مسئوليتى ، وكننت أنتهز الفرصة كى أبتث في روع الضباط الأمل فى الخلاص والنهوض بالقضية الوطنية والتلميح إلى ماسهية له من القيام بثورة على النظام القائم ،

جاعلا حديثى إليهم فيما يمس الأمور العسكرية الفنية المدخل الذى أنفذ به إلى قلوبهم . وكنت خلال هذا كله أعجم عودهم وأبتين مآلديهم من صلابة وإخلاص وتفان فى سبيل المبدأ ، إذ كان العزم أن نسد إليهم فيما بعد مهام جسيمة .

وكان الجيش حينذاك يستعين بنفر من كبار الضباط الألمان استوفدهم للنهوض بمستواه . وكان من بين هؤلاء الضباط الجنرال مُونزِل الذى كان أحد قادة المدرعات المرموقين تحت قيادة الجنرال العبقرى هاينز جُودير يان أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان من نصيبى أن نعمل سوياً . وما من شك فى أنها كانت رفقة مشمرة نافعة أفدت منها الكثير ، ولقيت عنه خبرة وعلماً وضعتها فى خدمة سلاح الفرسان . وكان لإخلاصه فيما يسوقه من نصح وما يفصح عنه من تجربة أثره فى الارتفاع بمستوى تدريب المدرعات المصرية . وخلال هذا وقعت لى نسخة من كتاب الجنرال هاينز جُودير يان المعنون « قائد.الپانزر» (°) فى طبعته الإنجليزية ، فأنكفأت على مطالعته مشغوفا بما انطوى عليه من مادة غزيرة ، معجبا بالقائد الذى كان أحد صانعى التاريخ على نطاق واسع من خلال فكره العسكرى المبتكر فى استخدام المدرعات ، وإن قاد هذا الفكر إلى خاتمة لم يكن يتوقعها لوطنه الألمانى . ومع ذلك فقد كان كتابه القيم تسجيلاً دقيقاً للمعارك العظمى التى خاضتها القوات المدرعة الألمانية تحت قيادته والتى حقق بها — رغم ضآلة عددها — نصراً خاطفاً حين اخترقت فرنسا فى مستهل الحرب العالمية الثانية متجهة صوب القنال الإنجليزى ، وأوشكت بعد عام واحد من اتجاهها نحو الشرق أن تقضى على الجيوش الروسية لولا تردد القيادة العليا عن دعم انطلاقه جُودير يان الجسورة . ويكشف هذا الكتاب الممتع عن أفضل المزايا التى تخلق القائد العسكرى العظيم من دقة الملاحظة وعمق التحليل وسرعة الرد والثقة بالنفس والقدرة على مفاجأة الخصم وإبقائه فى حالة من الاضطراب الذى ينتهى به إلى الشلل ، هذا إلى جانب قدرته على تعميق المودة بينه وبين جنده وتحريك إعجابهم والتأثير فيهم بما يحفزهم لبذل أقصى جهد ممكن . فقد كان شديد البراعة فى التحايل على جعل المستحيل ممكناً ، إذ كان واسع الخيال فى الإفادة مما لديه من معدات بإدخال تحسينات على بعض الأسلحة أو تطويرها والإسراع بتجربة ابتكاره ، وهو الأمر الذى لم يُقدم عليه قائد عسكرى من قبل ، إذ كان ذلك

مستروكا للإحصائيين المدنيين والعسكريين ، و يندر أن نجد في التاريخ مبتدع فكرة تسنح له الفرصة كى يضع نظريته موضع التنفيذ والتطبيق . ولقد كان لجوديريان من القدرة على التخيل الإنشائي والطاقة الديناميكية والجرأة في استغلال الفرص التي تسنح له ماهياً له أن يخرج على العالم بنتائج ثورية في فن الحرب . وما أثار دهشتي أن وجدت بين ثنايا الكتاب اسم الجنرال مونزل يتكرر في أكثر من موضع موثى بالشناء عليه من قائده الأكبر فزادنى هذا إعجاباً به ، وعُدتُ أستفسر منه تفصيل ما ذكر في الكتاب عنه مجملًا . وإذا بى أجدنى مسوقاً إلى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية بعد أن وجدت فيه من الدروس ما ينبغي أن يفيد منه كل مقاتل في قواتنا المسلحة ، وقدمته إلى القيادة العامة للقوات المسلحة التي تولت طبعة ونشره وظهرت طبعته الأولى عام ١٩٦٠ في جزئين ضخمين مزودين بالخرائط بعنوان « قائد البانزر » .

وكنيت قد قرأت فيما قرأت شيئاً عن القائد المغولي چنكيز خان مما كُتِب في العربية لابن الأثير وابن الفرات ومحمد بن النسوى ثم علاء الدين عطاء الملك الجوينى وعبدالله بن فضل الله . ولقد كان يعوز بعضهم حديث لا يعرفونه ويُملى على بعضهم الآخر بُغْضٌ يحملونه ، فأصابوا في شيء وأخطأوا في أشياء . وفي ظل هذه البحوث الإسلامية نشأت محاولات غربية ما أشك في أن هذا التراث الشرقى كان مادتها ، وكانت بعض هذه المحاولات ترجمة لما كُتِب في العربية وبعضها تأليفاً استعين فيه بتلك المادة العربية . أقول لقد قرأت شيئاً من هذا وذاك فهالنى هذا التاريخ ، ورأيت في چنكيز خان في مبدأ الأمر صورة من الفتوة العارمة التي لا تأبى للشدائد ، والعنف الصاحب الذي يستهين بالمصاعب ، والإقدام الجريء الذي يشق طريقه وسط العقبات . رأيتُ هذا كله فأعجبت به قائداً فذاً من قادة الفرسان . لم تَغْنِي صورته التي وقع عليها وإنما عنتنى الصورة التي حفزت إليه . ثم رأيت تاريخاً بدأ على صورة وانتهى على صورة ، بدأ قاسياً فكان وحشياً وانتهى بالمشاركة في ألوان من الخضارات ، وكان من هؤلاء الغزاة علماء ومشروعون . ثم لقد كان تاريخاً على كل حال شغل من تاريخ العالم صفحات طويلة ، وكان شأنه شأن كل غزوان اتصف بالشر لما فيه من سلب وعدوان فله جوانبه الإيجابية لما فيه من إيقاظ للشعور وإثارة للهمم ، فأصدرت في عام ١٩٥١ الطبعة الأولى من

كتاب «چنكيز خان»، وما أردت أن أقف منه موقف المؤرخ وإنما أردت أن أجعل منه قصة أقصها، لا أسرده سرد المؤرخين بل أدع تفاصيل ذلك لهم وحسبى أن أستصفى منه دقيقه الحى. فلقد اكتسحت جيوش المغول الوديان والسهول والجبال والقفار والغابات لأنها كانت متحدة متأخية، يجمع بينها شعور واحد بخطورة ما تحمل من تبعات فحققت هذه القبائل البربرية المتوحشة معجزات عسكرية مازالت حديث التاريخ يقف عندها المؤرخون حيارى. وعلى الرغم من تخلفها وتأخرها فإنها صرعت شعوبا ذوات حضارات عريقة وأذن لبطشها أهل هذه الحضارات، وذلك بفضل وحدتها وانقسام هؤلاء انقساماً جرهم إليه الترف الضال والشهوات العابثة والخلاف القاتل. كان بى إكبار حين أخرجت هذا الكتاب فى شبابه فى طبعته الأولى لچنكيزخان قائدا وفارسا، تستهوينى المثل الجريئة المملوءة شجاعة وإقداما ويستهوينى لو يسمع بين الناس ذكرها. كما كان بى إشفاق على شعبنا العربى فأردت أن يجد من يقرأ هذا الكتاب منهم ما يوحى إليه بمواطن ضعف الشعوب وقوتها، غير أن مرور الأيام جعلنى أشعر بالرتاء لچنكيزخان وللدولة التى أنشأها على الجماجم، ولا أرى فيه إلا أحد مجرمى الحروب الذين يقتلون الأبرياء ويعصفون بالحضارات ويهدمون المثل الإنسانية، لاتحفرهم إلى ذلك غير نوازع شريرة كامنة فى نفوسهم المريضة، فسجلت تحول نظرتى هذه فى مقدمات الطبقات الأربع التى ظهرت بعد ذلك وآخرها عام ١٩٩٠.

كذلك ترجمت عن الإنجليزية فى تلك الآونة رواية للكاتب الأمريكى الساخر ثورن سميث الذى بعثنى شغفى به إلى قراءة كل ماصدر عنه، واخترت من بين مؤلفاته رواية «سروال القس» Bishop's Jaegers التى صدرت طبعها الأولى سنة ١٩٥١ والثانية سنة ١٩٧٦.

وكانت قيادة الجيش وقتذاك تطرح فى العام بعد العام مسابقات فى البحوث والدراسات العسكرية لتستحث الضباط على البحث والدراسة والتنقيب فيما يتصل بالاستراتيجية وفنون الحرب. وكانت هذه المسابقات جائزة تعطى لأول المتسابقين تسمى «جائزة فاروق الأول العسكرية». وقد سعدت بالفوز بالجائزة

الأولى عام ١٩٥١ عن موضوع « تأثير الأسلحة الذرية على الموقع الاستراتيجي لمصر » الذي نُشر بعد ذلك في مجلة الجيش .

وإذ لم تكن نظم الجيش تبجح لضباطه الكتابة في الصحف والمجلات ، وكنت حريصا على أن تظهر لى دراسات في موضوعات أدبية وفنية مختلفة ، لذا كنت أمدّ الصحف لاسمًا صحيفة « المصري » بمقالات متنوعة فيما بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٥٢ كانت تُنشر باسم ثروت محمود . على أن التعارض بين صفتي ضابطا في القوات المسلحة وصفتي كاتبًا لم يكن هو وحده الذي حدا بي لاختيار هذا التوقيع ، لكن ربما كان التردد هو السبب . وليس مما يخفى على أحد أن أى كاتب يبدأ مترددا يتلمّس الثقة بنفسه ، فإذا ما تأكد لديه أنه قادر على أن يطرق هذا الميكان واجه الناس بشخصيته كاملة . هذا التفسير أشعر به الآن بعد أن مرّت السنوات وتأكّدت بى الثقة والقدرة على الكتابة ، أما يومها فلا أظن أنى كنت قادرا على أن أثبتن هذه الحقيقة في نفسى بل ربما كنت أنكرها لوأنها ألحّت على .

وبعد أن أتممت دراساتى العسكرية العليا بكلية أركان الحرب رأيت أن أضيف إلى العلم العسكرى علما بشئون الأدب والصحافة . وكانت تُعقد حينذاك للقبول في قسم الصحافة بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول مسابقة جُزئها والتحقّت بالكلية ، وكان يزاملنى في هذه الدراسة المرحوم الصديق يوسف السباعى . وحصلت في عام ١٩٥١ من الكلية على دبلوم الترجمة والصحافة المعادل لدرجة الماجستير التى تؤهّلنى لتسجيل رسالة للدكتوراة . وقد درست على أيدي أساتذة أجلاء يأتى على رأسهم الدكتور حسين كامل سليم والأستاذ محمود عزمى والدكتور عبد الله العربى والدكتور إبراهيم عبده والدكتور على راشد والدكتور سويلم العمري والدكتور عبد اللطيف حمزة ثم الدكتور لويس عوض الذى لفتنى إلى قدره تعدّد مناحى المعرفة فيه ، هذا إلى منهجه العلمى الشائق مما أفدّت منه كثيرا . كما شدّتنى إليه مواقفه الليبرالية التى تجلّت أكثر ما تجلّت في احتضانه تلامذته من مختلف المذاهب والجنسيات والعقائد ، فكان بيته مفتوحا لهم دائما بمكتبته الزاخرة بالمراجع الثينة وبتدفء وده الأصيل .



وإذ كنت شغوفا بالاستماع إلى الموسيقى بجانب المطالعة فقد كانت لى فرحة خاصة بخلاص العالم من الحرب العالمية الثانية ، فقد أتاحت نهايتها لمصر أن تفتح إليها للمرة الأولى أجهزة الاستماع الحديثة المتميزة بنقاء الصوت high fidelity وكثرة من الأسطوانات التى تتسع لأعمال موسيقية تزيد فترة أدائها على الساعة long playing . بعد أن كانت لا تزيد قبل ذلك عن خمس دقائق ، فاجتذبت هذه وتلك أعدادا كبيرة من عشاق الموسيقى بقدر ما أتاحت للمبدعين مزيدا من الإمكانيات التى تحفز مواهبهم .

كذلك عرفت الطريق مع كثرة من المصريين إلى دار الأوبرا التى كان يُجلى روادها الأول من الأجانب بعد أن عادت تُحوى مواسمها الشتوية فرق الأوبرا الإيطالية وفرق الباليه الأوربية من أمثال فرقة المريكزى كويكاس وغيرها . أما مكائى فكان يتأرجح بين مقاعد الصفوف الأخيرة أو أماكن الوقوف الخلفية لوفى ماتسمخ به ميزانيته المتواضعة . وكان أن استقبلت القاهرة عام ١٩٤٦ حدثا فنيا باهرا فى حقل الموسيقى ، إذ وفد إليها أوركسترا فيينا الفيلهارموني يقوده كليمانس كراوس ليقدم سبع حفلات متوالية متعددة البرامج بدار سينما ريقولى ، ويعود الفضل فى تنظيم تلك الظاهرة الثقافية إلى طاهر باشا أحد ثروة مصر وقتذاك . وفى العام التالى وفد أوركسترا برلين الفيلهارموني يقوده ولهم فورتقأنجلر أعظم قادة القرن العشرين ليعزف فى نفس الدار سبع ليال متصلة . وكنت حريصا على ألا تفوتنى هذه الحفلات الأربع عشرة لا أنقطع عن واحدة منها .

ووجدتني إزاء تلك الحفلات الأخيرة قد استبان الطريق أمامي ، فبعد سنوات طوال عاش العالم فيها على الاستماع إلى الموسيقى على نحو موضوعى مرسوم فرضه المايسترو العالمى توسكانيني ، إذا الأمور تختلف فنعود نسمع الموسيقى بأداء تعبيري مطلق على يد فورتقأنجلر الذى كان التجسيد الحق للتقاليد الرومانسية الألمانية ، فلم يلتزم بنص الكراسة الموسيقية حرفيا بل مضى إلى ما وراء الألحان باحشا عن جوهرها الخفى الذى يُضفى على الأداء الموسيقى روعة وجلالا ، حتى غدت لقيادة الأوركسترا على يديه صفة الخلق الفنى الذاتى ، فيحسن المستمع وكأن عناصر الموسيقى جميعا نابعة من ذاتها لا طارئ عليها ، فلقد وهب فورتقأنجلر

قدرة يطوّع بها عصيّ الألحان وأعقدها فتبدو متسقة في بناء موسيقى منطقى  
تسوده الوحدة الرابطة ، وأصبح ما طُبِع عليه فورتفانجلر من حرية صفة لازمة  
لأسلوبه وإن عدّها البعض من الشطحات .

وفى حفله الأخير استمعت لأول مرة إلى « لحن الحب والموت » الشهير  
فى ختام أوبرا « تريستان وإيزولده » لريتشارد فاغنر ، المصحوب بالإنشاد  
المشهور لإيزولده الوالهة ، وقد وقفت إلى جوار جثة حبيبها تريستان تنعيه  
قبل موتها وهى ترنو إليه وتناجيه شاديةً بقصيدة من نظم الموسيقار نفسه ، فإذا  
الجانب الرومانسى من شخصية فورتفانجلر يُطلق العنان للعواطف الجياشة  
والشعور الفيّاض تسرى فى السطور الموسيقية المتدفقة وكأنها لا تتناهى ،  
وقد أجزى لنفسى أن أسوق هذا النشيد بلغة عربية :

علي شفتيه الباسمتين  
ترف أرقّ عذوبة  
غرامٌ جياش

يسبح فى عينيه  
أترُون معى .. أم خَفَى عليكم يا أصحاب ؟  
إشراقٌ يتجلّى  
يتلألاً

يلمع تحت بريق النجم  
يُحلق أعلا .. أعلا  
أترُون معى  
خفقان قلبه

يعلو فى مهابة

- بجلال يتسامى

يطفو فوق الصدر

والغبطة وادعة تنحدر من شفتيه

أنفاسا عذبة

تخفق حانية .

يا صحابى .. القوا نظرة

ألا ترون

ألا تحسون

أم وحدى أسمع  
هذا اللحن ؟  
ما أعجب .. ما أحنى ما فيه من الغبطة وهى تن  
وتبوح بكل الأسرار  
وتواثم فى رقة  
تطفو من جسده  
لتغوص إلى أعماق أعماق  
ولتسمو عالية  
فى أصداء غرام  
ريان حولى  
وتعود تدوى  
حولى ساجدة .  
أثرها أمواجاً ،  
أم نسائم من ريح عذبة ؟  
أم غيا من عطر آسر  
ينتشر ويعلو  
ويدمدم حولى  
أثرانى أستنشق  
أثرانى أصغى  
أثرانى أرشف  
أم أغرق نفسى  
فى الشذى الجذاب  
أننسم آخر أنفاسى  
وسط الجيشان الصاخب  
فى رج الصوت  
فى الرحب الممتد الشامل :  
أنفاس الكون .  
فلأ غرق  
فلأ هوى حتى الأعماق  
بلا وعى  
فى نشوة الوصال الباهرة .

هذا الشعور الغامر الذى تولّى العاشقة هو هو الشعور الذى تولّانى حين استمعت إلى موسيقى ريتشارد فاغنر للمرة الأولى فى تلك الأمسية البعيدة منذ أربعين سنة ، فإذا أنا بموسيقاه مولع بعد أن أصبحت الموسيقى مع فاغنر غاية الأوبرا وكانت فى الأصل وسيلتها . أسرتنى تلك الخلقة اللحنية بما فيها من تدفق واسترسال ينقل المستمع من عالم الواقع إلى عالم الخيال ، وقد تناوبتها تفاعلات جمعت بين شتى ضروب الصنعة الموسيقية من ارتقاء وهبوط ومن انفصال والتحام ومن ارتفاع وخفوت ثم من تصارع وتعانق ، تارة يكون اللحن على العكس من اتجاهه ملحوقا باللحن نفسه فى طبقة أخرى وعلى طابع آخر ، وتارة يُساق اللحن مصغّرا وتارة أخرى يُساق مكبّرا ، بما يجعل الإحساس مرهفا مشدودا بالأسطورة وبالمأساة حين يستخدم فاغنر آلة الهارپ للإيحاء بالتاريخ والأسطورة والغموض ، والآلات النحاسية فيما يؤيد الأسطورة ويُبرز البطولة . ومن هنا كان اللحن مستجدا بالمرغم من تكراره ما ينفى عن ثلاثين مرة ، مازجا بين مضمون الفاجعة بأصداها المختلفة سمعية ومرئية وبين كل من الشخصيتين الرئيسيتين والموقف الدرامى ، وجامعا بين اللحن والحدث ، تتخلل ذلك لحظات من الصفاء النفسى تجدد النشوة والمتعة وتذكى « التّظهير » . ويتجاذب اللحن أخذ وردّ ، فقفلاته هى بدايات فى الوقت نفسه ، وخاتمته ضبابية فيها إيهام وشعور بالنهاية ... ولكنها نهاية تحتوى المضمون الدرامى كله مع الشعور بالروعة والسكينة والجمال .

حقا لقد فتحت لى فور تّقانجلر الباب على مصراعيه لألج عالما جديداً لازلت غارقا فيه إلى اليوم .

\* \* \*

٥

## ليلة تاريخية لها ما قبلها

كنت أوشر ألا أقول ما أعلم عن ليلة الثورة وأن يظل الذي أعلم لى ذكرى أفسح لها فى صدرى أعز مكان آنس بها بين الحين والحين ، غير أنى تذكرت فىلما يابانيا كنت قد شاهدته يعرض حياة زوج يابانى وزوجته كانا يتجولان فى غابة ، وبينما هما كذلك إذعدا عليها عاد . وإذا الزوج يروى ما وقع بروايته الخاصة ، وإذا الزوجة هى الأخرى تروى ما وقع بروايتها الخاصة ، ويفاجئنا المعتدى فيروى ما وقع بأسلوب ثالث ، ويجىء الفنان المصور بعد هؤلاء الثلاثة فينفرد برواية تخالف الروايات الثلاث . هذا الحادث برواياته الأربع لفتنى إلى أنه على الكاتب الذى يسجل رؤاه وذكرياته أن يكتبها بأسلوبه هو ونهجه هو ومن واقعه هو، تاركاً للمؤرخ إذا ارتأى أن يجمع ما كتب إلى ما كتب غيره فى الموضوع نفسه ، ويخرج من هذا كله بصورة شاملة شأن الفنان الذى صوّر هذه الأحداث الأربعة بأسلوبه الخاص . فما من شك فى أن وجهات النظر تختلف ، إذ أثر الشيء فى الرائى لا يمكن أن يكون واحداً متفقاً ، ومن هنا كان لابد من تعدد وجهات النظر .

وها أنذا أعرض قصة هذه الليلة رجاء أن يشاركني فيما أعرض من عاصرني وعاصر أحداثها من الضباط الذين كانوا ألصق ما يكونون بما أروى والذين أصبحوا وباتوا مشغولين بقضية الوطن المنكوب في ملكه وحكامه ومن ورائهم المستعمر البريطاني ، يحاولون تلمس السبل للخلاص وإزالة أعباء سبعين عاما ظل الوطن يرزح تحت أثقالها لا يجد من يمدّ يده إليه ليعينه على النهوض على أقدامه ثابتا شامخا . وهذا كله كان يفرض أن لا بد من هبة تجرف أمامها كل هذه الرواسب وتطوّج بها بعيداً ، وتبذّر في هذه الأرض الطيبة بذورا صالحة تمنح الحرية والعدل والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات . وإنّني إذ أذكر هذا أذكر أن من قام بهذه الحركة واضطلع بأعبائها من الضباط الأحرار لم يتجاوز التسعين عداً ، وهبوا حياتهم لخلاص بلادهم مما تعاني ، ما هابوا أن يكون مصيرهم إذا كُشف أمرهم الموت أو التشريد ، وقدّروا مع بريق النصر شبح الموت ، والتقوا على عهد من الحب والإيمان والتضحية والعمل ، واستقر رأيهم على أن يكتبوا مصير أمّتهم بدمائهم ، وأن يحفروا مستقبل أيامهم بأظافرهم ، فإن كان الإخفاق فيكون معه الغذاء الذي تحيا عليه الأجيال من بعدهم ، وإن كان النصر فسوف يكون المستقبل المنشود الذي إليه يطمحون . كانت تلك العناصر الكريمة التي التقى عليها الضباط الأحرار والقيم التي اعتنقوها والمبادئ الخلقية التي استمسكوا بها في حياتهم وفي سلوكهم وفي علاقاتهم ببعضهم البعض لها أكبر الأثر في نجاح مهمتهم . وكان الفضل لكل الفضل أيضاً لما عمرت به قلوب كثرة من الجنود وضباط الصف لبوا النداء جميعاً ، فما أن قرّ في الأسماع نفير الجهاد حتى خفّوا مع الضباط الأحرار صفّاً منيعاً يحمي قداسة هذا العمل الكبير .

وإذ أحسّ الشعب أن الضباط الأحرار يلتقون معه في حسّه ويطالبون بنفس مطالبه فقد بادر بموازة الثورة التي عدّها ثورته وأحاطها بشعوره الفياض . وفي الحق إن الضباط الأحرار على نحو ما أسلفت هم نتاج النبض الشعبي الحقيقي خلال فترة الأعوام العشرة السابقة على ثورتهم . فليس منهم واحد إلا وقد تأثر بفكر السياسيين الشرفاء الذين كانوا يعمرّون الساحة الإعلامية في تلك الفترة ، بل لقد كان منهم - أعني السياسيين - من يتردد صوته المدوّى في اجتماعات البرلمان ، وليس واحد من الضباط الأحرار إلا وقرأ لكبار المثقفين الذين انحازوا إلى قضايا الشعب ، وليس

منهم من لم يخبر الحياة داخل المنظمات السياسية أو الفكرية أو الاجتماعية على اختلافها التي كان يتوسم فيها القدرة على صنع المستقبل الأفضل . لقد كنا نتاج الحماسة الوطنية وتلاميذ كبار رجال السياسة والفكر ، كما أن البرنامج الذي وضعناه لحركتنا هو من هدى الفكر الوطنى والاقتصادى والاجتماعى الذى كان سائدا فى فترة انتفاضتنا . كان همنا الأساسى أن نُحدث تغيرا جذريا فى مصر ينقلها من عهد التسلط الفردى والأجنبى إلى عهد تتحرر فيه الجماهير من مشاكلها . ولم نكن نطمح إلى الإمساك بالسلطة لتنفيذ هذا التغير بل كنا نتمنى لو استطاع حزب أن يجمع الأغلبية الشعبية فى انتخابات حرة وأن يتسلم السلطة لإحداث هذا التغير الذى قنا بثورتنا من أجله ، وما غاب عن أذهاننا وقتها ما كان يتمتع به حزب الوفد من أغلبية ساحقة . وإذا كان ثمة واجب قت به تلك الليلة فهو واجب كل ضابط حرّجه بإخوانه الأحرار عهد تمثله فى فكره ووجدانه فأدنى هذا الواجب كما أدّوه سواء بسواء ، فلا فضل لثائر من المشتركين فى الثورة على آخر علت رتبته أودنت ، فلقد كنا جميعا سواسية فى ميدان الفداء .

وكانت ثقة الضباط الأحرار باللواء محمد نجيب تزداد شيئا فشيئا لاسيما بعد انتخابه لرئاسة نادى الضباط ، وأراد التنظيم أن يختار من بين كبار الضباط من يكون إليه أن يكون على رأس حركتهم الثورية ، إذ كان إيمانهم أن يكون قائد الحركة من غير الشبان . فإلى اقتناع الجماهير بمن هو على السّن غير اقتناعهم بمن هو دون ذلك ، فتشاورنا فيما بيننا من سيكون ؟ أم محمد نجيب الذى وضعنا فيه ثقتنا ولم يخذلنا فى شىء ولم يش بنا بعد علمه بأمرنا وكان ذلك فى استطاعته ، أم اللواء أحمد فؤاد صادق وكان هو الآخر من القادة المحنكين المعترّين بقيمهم المتمسكين بأهداف الخلق والحائزين على ثقة من حولهم ؟ ولكننا أثّرنا محمد نجيب الذى سائرنا فى مسيرتنا شوطا بعيدا فكانت كفته هى الأرجح . ومن أجل هذا فحين اعترّم التنظيم القيام بالانقلاب وحدد له موعدا ناب عنا جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر ليلغا محمد نجيب بالموعد المضروب كى يشاركنا فيما سيكون ، وكان ذهابهما إليه فى صبيحة يوم ١٩ يولية ١٩٥٢ على أن يكون الانقلاب فى الخامس من أغسطس ١٩٥٢ . وأبت على هذا الرجل شجاعته رفض ما أراد الضباط الأحرار إسناده إليه دون تردد أو تعثر ، وبلا تدقيق أو تمحيص كان مقتنعا بسمو الهدف غير

عابىء بأخطار هى فى علم الغيب ، ومن ثم كان قبوله فى حد ذاته عملا بطوليا استحق عليه لقب قائد الثورة التى كان جمال عبدالناصر صانعها . وفى يقينى أن ما سجله الأستاذ جمال حماد عن إسناد قيادة الثورة إلى محمد نجيب فى بحثه الموضوعى الجاد بكتابه « ٢٢ يوليه أطول يوم فى تاريخ مصر . دار الهلال ١٩٨٣ » هو أصدق ما كُتب عن هذا الموضوع الدقيق ، كما أنه يمثل الحق والإنصاف كله لما جرى فى تلك الليلة .

وكان اللواء محمد نجيب رحمه الله رحمة واسعة أحد قادة الجيش المرموقين لأسباب ثلاثة : أولها أخلاقياته الرفيعة ، وثانيها ثقافته الواسعة فهو حاصل على ليسانس الحقوق وخريج كلية أركان الحرب ويحيد أكثر من لغة ويلم بالغة العبرية ، وثالثها شجاعته فى حرب فلسطين التى ضرب فيها القدوة لغيره ونال عنها أرفع الأوسمة وظفرباعجاب الضباط كافة فى ميدان القتال . وأذكر أيضا أنه كان على وشك أن يستقيل من الجيش مع حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ المعروف ، غير أنه تحت إلحاج زملائه عدل عن ذلك . وما كان هذا منه تملقا للملك فقد كان الملك وقتها فى موقف لا يحسد عليه ، ولكن كان إعرابا عن سخطة على ما أصاب البلد من امتهان .

كان هذا الماضى هو الذى جعلنا نجمع على ترشيحه فى انتخابات نادى الضباط ليكون رئيسا للنادى بدلا من مرشح الملك . ولقد كان فى قبوله لترشيحنا له مسئولية خطيرة تعرضه لغضب الملك ، ولكنه بالرغم من هذا قبل الترشيح عن طواعية ، وكم عانى هذا الرجل بعد ذلك من مضايقات أجهزة الأمن له مع غدوه ورواحه . لم يعننا حين رشحناه لرياسة النادى أكان من التنظيم أم لا ، فلقد كان حسبنا منه رصيده الرفيع حسب ما قدمت . وما كنا نشك فى أنه كان على علم بأسرار التنظيم وإن كان غير منضم إليه ، فقد كنا نحس أن قلبه عامر بالعطف والحدب على رجال التنظيم يعرفهم وإن كان لا يجهربه ولا يفصح عنه . وما من شك فى أنه كان يعلم أن جمال عبدالناصر كان قائد التنظيم وأن اثنين من كبار معاونيه على التوالى فى رياسة سلاح المشاة هما عبد الحكيم عامر ثم جمال حماد كانا من الضباط الأحرار ، فما كان يغيب عليه مثل هذا وهو الرجل الذكى اللماح . ثم إنى لأذكر أنه حين قدم إليه الصاغ جمال حماد — وكان أركان حربه فى سلاح



المشاة - بيانا بتنقلات الضباط قصد فيها أن يضع ضباط التنظيم في مواقع خاصة تستفيق وما سيؤكل إليهم بعد حين عندما تهب الثورة . وافق محمد نجيب على هذا العرض ، وما كان يغيب عنه ما يخططون عليه .

و حين كان اللواء محمد نجيب مديرا لسلاح الحدود كشف عن أعمال مربية اللواء حسين سرى عامر - صاحب الولاء التام للملك - يتردد صداها في المجتمع ، وعلى الرغم من هذا لم يُحَقَّق فيها مما جعله يطلب إلى قيادة الجيش التحقيق فيها ، ولكنه لم يُجَبَّ إلى طلبه فقدم استقالته . وإذا قيادة الجيش إزاء هذه الاستقالة تعدل عن رأيها وتحيل الأمر إلى التحقيق فرجع عن استقالته وعُيِّن مديراً لسلاح المشاة ترضية له ، وأحيل الأمر إلى النيابة العامة فأخذت في التحقيق مع حسين سرى عامر ، فإذا هو يستغيث بالملك فاروق فأرسل له في شهر أغسطس ١٩٥٠ برقية إلى فندق الجولف بمدينة دوفيل حيث كان يقيم وقتها باسم « صاحب السعادة فؤاد المصري باشا » وهو الاسم الذي كان يتسمّى به فاروق حينذاك . غير أن تلك البرقية احتجزها حيدر باشا وحال بينها وبين أن تصل إلى الملك ، فما كان من حسين سرى عامر إلا أن احتال فأرسل البرقية طّى خطاب شخصي إلى محمد حسن السليمانى خادم الملك ، ومن الغريب أنه جعله من أعزائه فعنونه « عزيزى محمد بك » . ولقد وقع لى هذا الخطاب مع البرقية التى كانت في طيّه هو وغيره بعد قيام الثورة ، وهذا هو نص البرقية : « بعد خدمة بالشرف أكثر من ٣٠ عاما نُفَتِّش ونُهان من النيابة جزاء ما قننا به من شرف وأمانة وتعرض حياتنا للخطر بحرب فلسطين » ، ثم راح في خطابه يشكو من أن وزير الحربية وقتذاك وراء هذه التحقيقات والتفتيش . على أن الأحداث كانت أسرع مما كنا نتوقع ، وظهرت بوابر الغدر واضحة فيما بدأ القصر يفكر فيه من إقحام عناصر باغية في قيادة الجيش ، وأحسنا أن حركة يُراد بها استفزازنا تُدبّر للتكيل بنا وبمن يؤيدنا من ضباط الجيش . وإذ كنا على ثقة من أنفسنا آثرنا مقابلة التحدى بالتحدى والاستفزاز بالاستفزاز ، فكانت تجربة انتخابات نادى الضباط حدثاً أثار السلطات وأفقدنا صوابها . لقد رأينا أن الأوان قد آن لخوض معركة فاصلة بيننا وبين الملك وصنائه الذين كان يتصدرهم حسين سرى عامر . فعندما حلّ موعد انتخابات نادى الضباط في أواخر ديسمبر ١٩٥١ استقر الرأى على اختبار مدى

قوتنا وتأثيرنا بين الضباط في معركة صريحة مع الملك وأعوانه ، وتقدمنا بمرشحين وعلى رأسهم اللواء محمد نجيب . ولقد نجح كل من رشحهم الضباط الأحرار وأصبحوا هم مجلس إدارة النادى . وأيا كانت قيمة النادى إلا أنه كان أول عمل خبر به التنظيم قوته بين الضباط ، وسقط مرشحو القصر وقيادة الجيش ، فقررت حكومة حسين سرى غلق النادى بعد هذه الهزيمة المرة . على أن غلق النادى لم يكن إلا مقدمة لأعمال أخرى عنيفة توقعها الضباط وأخذوا يترقبونها .

وفى هذه الأثناء كان حسين سرى عامر يحس أن ثمة حركة تجرى بين ضباط الجيش فكان كثير التحدى لمن يشك في أمره منهم . وبعد انتخابات نادى الضباط أرسل مذكرة أخرى إلى صديقه شماشرجى الملك في ٢٩ ديسمبر ١٩٥١ وقعت لى هى الأخرى بعد قيام الثورة في أربع عشرة نقطة يستعدى فيها الملك على الضباط الأحرار، هذا نصها :

(١) سبق تحديد موعد انتخابات نادى الضباط دعاية قوية بينهم يقوم بها اللواء محمد نجيب ومساعدده الأميرالاي محمد كامل الرحمانى ، بأنهم يريدون مجلس إدارة من الضباط الأصاغر المعروفين بالتطرف لكى يغيروا قانون النادى ويجعلوا من مجلس إدارته نقابة للضباط تنظر في كل طلباتهم وتوقف أى أوامر لا تتماشى مع رغباتهم وكذلك أى تعيينات أو ترقيات لا تتفق مع أغراضهم ، كما تدلى برأيها في الحالة السياسية للبلد وتعين الوزارات وغيرها من الوظائف الكبيرة ، ولم يحصل تقصير في تبليغ ذلك للرياسة .

(٢) وقد عين اللواء محمد نجيب مديراً للمشاة في الوقت الموجود فيه مساعدا الأميرالاي محمد كامل الرحمانى ، وكلاهما من زعماء المنشورات السرية بالجيش ومن الذين يرغبون أن يسير الجيش في تيارات سياسية معينة ويطمحون في السيطرة عليه بإرشادات اللواء فؤاد صادق لدفعه إلى ما يخالف القانون والواجب . وكل ضباط الجيش تعرف هذا ، علما بأن مدير المشاة ومساعدده يسيطران على ألف ومائتين من ضباط الجيش .

(٣) اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة شقيق اللواء محمد نجيب مدير المشاة ويسيطر على ضباط حامية قسم القاهرة كلها وعددهم حوالى ألف وخمسمائة ضابط . وطبعا مطلوب من الشقيق مساعدة شقيقه<sup>(١)</sup> .

(٤) ورغم تأجيل موعد انتخابات النادى فقد أوعز السابقون للضباط بما لهم عليهم من نفوذ أن يجتمعوا فى النادى متحدثين أمر التأجيل ، وقد تمكنوا من جمع ثلاثمائة ضابط ، وكل مانشر بأهرام يوم ٢٩/١٢/٥١ صحيح .

(٥) لم يكن هناك داع لإثارة موضوع الانتخابات فى هذه الظروف سيما وقد مضى على النادى ثلاث سنوات للآن لم يحصل فيه انتخابات . وعمل انتخابات فى الوقت الحاضر يدعو للاستغراب والتساؤل .

(٦) الحركة القائمة الآن يغذيها الوفد لشطر الجيش وتسلىل الحزبية إلى صفوفه .

(٧) بعد التأجيل السابق واجتماع الضباط رغم ذلك ، أطلق من ذكروا إشاعة بين الضباط أنهم كانوا يريدون الانتخابات وتشكيل مجلس الإدارة الجديد ليحتجوا على تعيين حافظ عفيفى باشا .

(٨) أذيع منشور سرى على الضباط بمعرفة هؤلاء أن الضباط الأحرار (وهم الذين يعملون المنشورات السرية ) يرشحون الأسماء التى ذكرت بجريدة المصرى يوم ٢٨/١٢/١٩٥١ لمجلس إدارة النادى ، وكلهم من الضباط الذين يسيطر عليهم هؤلاء ويتخذون منهم ثكأة لإفساد الجيش . وقد ساعدتهم فى نشر ذلك بجريدة المصرى بالشكل الكبير الذى نشر به الضاغ ثروت عكاشة شقيق حرم أحمد أبو الفتح رئيس التحرير .

(٩) إن من يثيرون الفتنة بالجيش أفراد يعدون على أصابع اليد معروفون تماما للرياسة ، ولكن بدلا من أن تقف منهم موقف الحزم تقرهم وتعطيهم المناصب التى بها يسيطرون على الضباط الآخرين لكى يسيروا على منوالهم حتى ينالوا ماينال هؤلاء ، وفى هذا كل الخطر .

(١٠) الموقف الآن وفى هذا الأسبوع بالذات يحتاج لحزم وعمل سريع قاطع للقضاء على هذه الفتنة فى مهدها حتى لا تنطور لأكثر من ذلك وقبل فوات الوقت .

(١١) إن كلمات التهدة والتهوين التى تسمع من الرياسة ليست مع الأسف الحق .

(١٢) إن ترك آلاف من الضباط فى مثل هذه الأيدى العابثة التى لا تراعى الواجب والإخلاص يتنافى تماما مع الولاء ونظم الجيش فى كل العالم ، وهامى مبادئ خطورته قد ظهرت وتحتاج لإجراء سريع حازم لا لنكرانها والتهوين من شأنها ، ولا يجب أن يتولى رياسة لها قيمتها وخطورها إلا من كان نموذجا للولاء والجنديّة

لأن تعطى المناصب لمن يعتنق مبادئ هدامة مداراة له ، لأن في هذا كل الخطر خصوصاً في هذه الظروف . والواقع إننا في احتياج شديد لعزم وحزم .

(١٣) من المؤلم بعد كل هذا المعروف لمعالى القائد العام [ يقصد حيدر باشا ] أن يذهب يومياً محمد نجيب لمعاليه ويفهمه أنه تحت أمره حتى يتم ما يريد في غفلة منه وأن يرسل معاليه الصاغ اسماعيل فريد ليقابل بعض هؤلاء المتمردين ليسألهم عن طلباتهم لينفذها معاليه لهم ، مما أطمعهم وشد أزهرهم وجعلهم يعتقدون أنه خائف منهم .

(١٤) لقد كانت المنشورات السرية للضباط الأحرار توزع في فترات ، أما بعد تعيين محمد نجيب مديراً للمشاة فقد صارت توزع دورية وبتواريخ كالنشرة الأولى والثانية التي وزعت ، وهي بنفس الجسترن التي وزع بها منشور الأعضاء والرئيس الذين يريدون انتخابهم لمجلس إدارة نادى الضباط أمس واليوم ، والتي فيها انتخب محمد نجيب رئيساً للنادى .

\* \* \*

ولقد كان ممن أشار إليهم حسين سرى عامر ضباط أربعة مشتبه في أمرهم منهم من كان عضواً في التنظيم وكان يعينى وكذا اسماعيل فريد ، ومنهم من لم يكن عضواً في التنظيم وهم سائر الأسماء التي ذكرها . وفي الحق إن ما جاء في هذه المذكرة لم يجانب كثيراً ما كانت عليه الحال ، فلقد سرد حسين سرى عامر في خطابه إلى الملك حقائق وقع عليها بصدق حدسه وبما نقلته إليه عيون المدسوسة في الجيش . ولو أن فاروق أوتى شيئاً من الذكاء والفتنة لأخذ بما ذكره حسين سرى عامر في مذكرته وقضى على الثورة في مهدها وبطش بمن يعدون لها ، ولكن الله أراد والشيطان أراد ، فغلبت إرادة الله إرادة الشيطان . ولعل الملك قد أفاق بعد غيبة حين راودته فكرة تعيين حسين سرى عامر في العشرين من يولييه ١٩٥٢ وزيراً للحربية قبل اندلاع الثورة بليلتين ثم عدل عنها خشية ما تحمله من تحذير سافر لضباط الجيش وعين بدلاً منه صهره اسماعيل شيرين ، غير أن الثورة باغتته ولم تترك له أولعيله حسين سرى عامر فرصة للتفكير . كذلك لو أن الحظ واتى فاروقاً لعين محمد نجيب بعد أن انتخب رئيساً لنادى الضباط وزيراً للحربية أوقاداً عاماً للقوات المسلحة ، فلقد كان في أحد هذين المنصبين ما قد يرضى به الضباط ،

ومما لاشك فيه أن محمد نجيب كان سيستجيب وهو وزير للحربية أوقائد عام لما للضباط من مطالب وطنية وسياسية هي كل ما يبغيه الضباط الأحرار. ومن يدرى فلعله إذا كان قد تم هذا لكان للتاريخ مسار آخر غير ذلك المسار الذي اتخذته .

ومن الغريب أن ما كان يصدره التنظيم من منشورات تندد بموقف حسين سرى عامر الشائن الذي كان يكيد فيه للتنظيم كان الأمل منه أن يكبح جماحه ولكنه تهاوى في غيّه واسترسل في طغيانه ، مادعا بعض أفراد التنظيم إلى التفكير في العنف بعد أن فشل فيما ذهب فيه من سلم . وتأجج الغضب في نفوس الضباط حتى بلغ الأمر ببعضهم أن دبّروا اغتياله ، وخرج لتنفيذ ذلك في الثامن من شهر يناير ١٩٥٢ وعلى غير علم من بقية التنظيم ، جمال عبدالناصر وكمال رفعت وحسن التهامي وحسن إبراهيم في جنح الليل وعادوا أدراجهم وهم يظنون أن الأجل قد وافاه بعد أن أطلقوا عليه الرصاص .

وفي صبيحة تلك الليلة فوجئت بجمال عبدالناصر يطرق على باب بيتي في ساعة مبكرة لم يكن قد اعتادها وتحت إبطه صحف الصباح ، وقد رأيت في قسما وجهه سمات من تحرر من عبء همّ ثقيل ، وإذا هو يحدثني لأول مرة بما كان منه في الليلة الماضية حامدا الله على أن المغامرة لم تتم كما أرادوا . وعلمت منه أنه بقي ليلته كلها ساهرا يدعو الله ألا يكون الاغتيال قد نجح ، متلهفا على أن يتلقى صحف الصباح لتحمل إليه نبأ فشل المحاولة ، فلقد كان جد أسف على ما كان ، ولم يعد يرى في الاغتيال وسيلة لتحقيق مأرب وطني . وكنا نظن أن هذه الحادثة كفيفة بأن تعيد حسين سرى عامر إلى رشده غير أننا وجدناه قد ازداد عتوا وازداد تحديا وازداد شرا ، مما زاد في ثورتنا عليه .

وفي أواخر مارس من عام ١٩٥١ شاعت بين أفراد التنظيم شائعة هي أن قيادة الجيش كشفت عن الضباط الأحرار ، وأنها بيّنت الأمر للاستغناء عن خدمات سبعة منهم في مقدمتهم جمال عبدالناصر . ولم يكن ماردته الألسن بالشئ الهين ، فلقد كان من الخطورة بمكان أن يُعرف التنظيم قبل أن يحقق أغراضه ، إذ كان معنى ذلك القضاء على آخر محاولة جادة في سبيل الخلاص . وكنا على يقين من أن الجيش لن تهدأ له ثائرة ، ولكن وقتا طويلا

قد يمرّ قبل أن يستجمع صفوفه لتنظيم آخر جديد ، فانهى بنا الرأى إلى أن يكون لنا عمل إيجابى حاسم وسريع .

ومع مطلع عام ١٩٥٢ أخذت الأمور تمرّ سريعة ، كما أخذت البلاد كلها تغلى بالسخط والغضب من المحتلين والمستغلين ، وأصبح الهتاف بسقوط الملك مألوفاً على ألسنة الشباب ، وهكذا تحطمت الهالة الزائفة وغدونا على أبواب حقبة جديدة ، أما التنظيم فقد نما مع الزمن ومع الأحداث حتى أصبح شيئاً ملموساً تخشاه السلطات وتحسب له ألف حساب . ووسط الغليان الشعبى وهيب معركة القنّاة وأنين الجرحى ودماء الشهداء أحرقت القاهرة وأقيلت الوزارة وعُينت وزارة أخرى وكأبها كانت مشكلة الوطن وقتها مشكلة وزارية . وكان وقوع حريق القاهرة بشهادته وجرحاه يعنى أن يداً آثمة قد ساءها اندفاع جموع الشباب نحو القنّاة قطعنت طعناتها فى الظلام . ولعل أشد ما ألمانا هو أن يكون السفاكون فى حادث الحريق مصريين بمقتضى ما يحملون من جنسية مصرية للأسف الشديد . ولا شك أن الحريق كان مدبراً صحبته ثورة غوغائية تخرّيبية لم يستطع معها رجال الشرطة إخمادها مما اقتضى نزول قوات الجيش إلى الساحة لإخماد هذه الفتنة التى لو قُدّر لها أن تمتد لأتت على القاهرة كلها . ومن الطريف أنى كنت وجمال عبدالناصر من بين الضباط الدين دعوا إلى وليمة الغداء التى أقامها الملك بقصر عابدين احتفاء بمولد ولّى عهده يومذاك ، وحين خرجنا من الوليمة وجدنا القاهرة تشتعل فيها الحرائق هنا وهناك ، فقصدت وجمال إلى منزلى بشكنات العباسية حيث انضم إلينا فى غروب يوم ٢٦ يناير صلاح سالم وعبدالحكيم عامر ومجدى حسنين وأخذنا نتداول فيما يجب علينا فعله ، وكان التفكير فى التعجيل بموعد الانقلاب خلال عام ١٩٥٢ . ومضينا بعد ذلك فى الطريق نزن كل حركة بميزان ونفتح عيوننا على كل صغيرة وكبيرة تحدث فى القصر أو فى الحكومات المتعاقبة . وتوالى الأحداث ، وعمّ الضيق البلاد من أقصاها إلى أدناها ، وبدأت مظاهر الثورة المكبوتة تتجلى فى كل مكان ، واستقر رأينا على أن نبدأ ثورتنا فى شهر نوفمبر ١٩٥٢ باعتباره الموعد المحدد لاجتماع مجلس النواب .

وكان جمال عبدالناصر قد طلب منى فى غضون عام ١٩٤٩ أن أعرفه بأحمد أبوالمفتح رئيس تحرير صحيفة « المصرى » وزوج شقيقتى ، فصحبته

إلى منزله حيث كان لقاء فتعأرف ، وبهذا وصلنا أحمد أبو الفتح بالتنظيم صلة وثيقة . وأخذ جمال يختلف إلى صحيفة « المصري » على فترات متباعدة إلى أن شبّ حريق القاهرة وجاء على ماهر على رأس الحكومة ومنع التجوّل وتوزّع الجيش على المرافق . وفي مطلع شهر فبراير ١٩٥٢ طلب إلى جمال أن نذهب إلى أحمد أبو الفتح سوياً ، وفي هذا اللقاء سأل جمال أحمد أبو الفتح عن رأيه في تحرك الجيش ليستولى على القاهرة ، وعما يعتزمه بعض ضباط الجيش لاغتيال الخونة ، فكان رد أحمد أنه لا معنى لاستيلاء الجيش على القاهرة الآن فالجو متوتر مشحون والأعصاب متقدة ، ومن الممكن أن يكون في ذلك فرصة لتدخل الإنجليز في الأمر ، أما عن الاغتيال فقد أباه أحمد إباءً شديداً .

ومن إحقاق الحق أن أصرّح هنا أن أحمد أبو الفتح كان خير عون للتنظيم ، فلقد أفسح من صفحات المصري للأخبار التي كنا نزوده بها فيصوغها هو الصياغة التي تؤيد موقفنا وتزيده قوة . ولا أنسى يوم نشر قائمة بأسماء الضباط الذين كنا نرشحهم لعضوية نادي الضباط قبل موعد الانتخابات متحذياً بهذا رغبات السراى والقيادة العامة للجيش ، وكان في هذا ما أوقعه في كثير من المشاكل . وظل أحمد أبو الفتح على صلة وثيقة بالتنظيم لا يرد لنا مطلباً إلى أن قامت الثورة ، فبدأ غند ذلك صدق معونته ، وإذا هو ينشر في الصفحة الأولى من صحيفة المصري الصادرة في صباح يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ أخبار الحركة بعناوين ثلثت الأنظار . على حين أن الأهرام أهمل ذلك كل الإهمال ولم تشر إليه صحيفة الأخبار إلا بأسطر دقيقة في زاوية من زوايا الصفحة الأولى لا تكاد تبين . والغريب أن هذه الصحف التي تنكّرت للثورة في أولها عادت آخر الأمر حين خرج الملك وأمنت ، لتتنشر أخبار الثورة تفصيلاً لا إجمالاً ، ثم أمعنوا فأخذوا ينشرون مساوئ الملك ماخفت منها ومادق في تفصيل واسع ، وكان هذا كله لونا من ألوان النفاق لم يخف على أحد .

وبعد حريق القاهرة وفي صبيحة يوم جمعة من شهر مارس ١٩٥٢ لا أذكره على وجه التحديد زارنى جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر وأخذنا نستمع إلى تسجيل موسيقى شجى لرمسكى كورساكوف علّه يروح عنا بعض الشيء ، وإذا بى أرى جمال شاردا فظننت هذا منه استغراقا في الاستماع إلى النغم وإذا هو

يفاجئنى بقوله : « لقد آن الأوان لأن نقوم بحركتنا » . وأخذنا نتداول الأمر ، وكان مما أثير توقع وصول وحدات من المشاة كانت ترابط في سيناء وتضم عددا من رجال التنظيم ، وكان وجودها في القاهرة لاشك سيساعد على إنجاح الحركة . ولقد رأى جمال أن يكون موعدها في الخامس من أغسطس ١٩٥٢ بدلا من موعدها الذى ضرب من قبل وهو نوفمبر ، وهو الشهر الذى كان محددًا لافتتاح الدورة البرلمانية المعطلة فنكون بهذا قد واكبنا بقيامنا بالحركة في هذا الموعد عودة الحياة النيابية . وحين انتهينا إلى هذا الرأى ذهبنا سويا إلى حسين الشافعى لإحاطته علما بما استقر عليه الرأى ، ومن ثم أفضينا بالأمر إلى الضباط الأحرار بسلح الفرسان ليتخذوا أهبتهم .

وفي يوم ٢٠ يولييه كنت قد دعوت الأخ حسين الشافعى إلى تناول الغداء معى في منزلى ، وإذا بأحمد أبو الفتوح يتصل بى تليفونيا من الإسكندرية لينهى إلى أن ثمة أزمة وزارية قد تطيح بحكومة حسين سرى ، إذ طلب منه الملك تعيين حسين سرى عامر وزيرا للحربية ، غير أن رئيس الحكومة اعترض على الترشيح تفاديا لما كان مرتقبا على أيدي بعض ضباط الجيش وأشار بتعيين محمد نجيب في هذا المنصب . كذلك أبلغنى أحمد أبو الفتوح أن في النية تشريد أربعة عشر من الضباط يُزج بهم في السجون ، ونصح إلى رمزا بأن لا بد من تحرك سريع وإلا حاق بالضباط الأحرار ما لا يتوقعون . وما كان يعنينى أن أتعرف منه أسماء الضباط الأربعة عشر ، فسواء كننا منهم أو لم نكن فما يمس ضابطا منا سواء أكان من التنظيم أم من خارج التنظيم فهو يمس الجيش كله ، فلم يكن ما يجمعنا هو الدفاع عن شخص ما بل الدفاع عن الوطن وحرمة وحقوقه . وقد عرفنا بعد نجاح الثورة أسماء هؤلاء الضباط مدونة في مفكرة كان يحملها معه الفريق حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش وقت اعتقاله .

على أن سوء التقدير الذى لازم فاروقا في جميع تصرفاته في سنواته الأخيرة لازمه هذه المرة أيضا فأصر على تعيين حسين سرى عامر في مبدأ الأمر إلى أن اضطر إلى العدول عن هذه الرغبة لما غشيه من خوف ، فعين صهره اسماعيل شيرين بدلا منه في وزارة نجيب الهلالي .



ونزلت لتوى أنا وحسين الشافعى قاصدين منزل جمال عبدالناصر فوجدنا فيه جملة من إخواننا الضباط كما هى العادة ، فاختلينا به لأنهى إليه ما أفضى به إلّى أحمد أبو الفتح ، وسألنى جمال رأى . فقلت له لابد من أن يكون الغد موعدنا للقيام بالحركة ، وسرعان ما اقتنع بوجهة نظرى على الرغم من أن وحدات المشاة التى كنا نرقب وصولها من سيناء لم تكن قد وصلت منها غير طلائعها . ولكى نطمئنه - حسين وأنا - ذكرنا له أن وحدات الفرسان المهمة للقيام بالإنقلاب قوامها اثنان وثلاثون ضابطا ، هذا إلى عدد من الدبابات مقداره ثمانية وأربعون وسيارات مدرعة عددها ثمانية وأربعون أيضا ، فضلا عن الكتيبة الميكانيكية ، وأن هذه الوحدات من الفرسان بما تضم كفيلة بإنتاج الحركة دون حاجة إلى انتظار وحدات المشاة . وأخذنا - حسين وأنا - على نفسينا تدبير هذا على حين أخذ هو على نفسه تدبير وحدات المدفعية والمشاة . لقد وجدنا أنفسنا أمام موقف جديد بعد أن كدنا نؤخذ على غرة ، وبات علينا أن ندبر بين يوم وليلة وفى ظروف شائكة ما كنا سندبره على مهل . وكنا على حذر فيما تجرى به أمورنا فما نعزم القيام به ليس بالأمر اليسير ، وما من شك فى أنه كانت تحوطه صعاب وصعاب ، غير أن ما لقيناه بعد من حماس إخواننا الضباط والجنود من لهفة شديدة كان كفيلا بأن يبعث فينا الاطمئنان . وأذكر أنى حين أردت أن أستشف نوايا بعضهم إذا كلمة تدير على لسان ضابط صغير فيها شبه تقريع على تلبثنا وترقبنا وكأنه يستحثنا ويستعجلنا ، وقد غمرتني هذه الحماسة فعقلت لسانى وقتها عن أن أوفيه حقه من الثناء .

ومما ضاعف هذه الشقة أيضا أنه حين طلبنا من الضباط إعداد الدبابات والسيارات المدرعة فى ٢٠ يولييه استجابوا على الفور استجابة لا تردّ فيها ، وزادوا بأن لزموا ثكناتهم ولم يبارحوها بعد ذلك إلى أن غادر الملك الوطن فى ٢٦ يولييه . وفى اليوم التالى وهو ٢١ يولييه مرّى جمال عبدالناصر بمكتبى برئاسة هيئة أركان حرب الجيش ، ليبلغنى أنه يرى أن يؤجل البدء أربعا وعشرين ساعة ريثما تصل وحدات المشاة التى يرقب حضورها من سيناء ، فكاشفته مطمئنا بما بين أيدينا من قوة فى سلاح الفرسان تكفى لتحقيق مآلنا ، وهى تلك القوة التى أشرت إلى تعدادها .

وفي نفس اليوم أى ٢١ يوليه اجتمع شمل جماعتنا خالد محيى الدين وعثمان فوزى وأنا فى منزل حسين الشافعى ، فأعدنا قائمة بأسماء ضباط الفرسان الذين ستوكل إليهم مهمة التنفيذ ، وأطرحنا جانباً من تحوم حولهم أهون شبهة أو شك ، وحددنا أسماء من يجب اعتقالهم من الضباط حتى لا يعوقوا المسيرة . وتشكّلت منا قيادة رباعية لسلاح الفرسان يجمع بينها التآلف والود والثقة تولّى رياستها بطبيعة الحال أقدم الأربعة رتبة وهو حسين الشافعى ، ووُكلت إلّى مهمة أركان حرب العملية وإلى خالد قيادة الكتيبة الميكانيكية وإلى عثمان فوزى قيادة الحيّالة .

وإثر اتفاقنا على كل تفاصيل الخطة خلفنا حسين قاصداً إلى بيت جمال ليعرف منه الموعد الذى استقر عليه لبدء الحركة ، وكان لابد لخالد من أن يذهب بابنته إلى الطبيب فغادرنا ثم عاد بعد ساعة ، وانتحى عثمان ناحية يقرأ إحدى المجلات ، بينما بقيت أنا مشغولاً بانتظار موعد بدء التحرك . ثم عاد حسين إلينا يحمل نبأ تأجيل البدء أربعاً وعشرين ساعة أخرى ، فغادرت منزل حسين إلى ثكنات الآلاى المدرع الأول لأجد إخوانى من الضباط يرتقبون مجيئى فى لهفة وعلى وجوههم بسمة الارتياح وعيونهم تتطلع إلى اعتلاء متن مدرعاتهم لتغيير الأوضاع وتنفيذ ماسئلتى على عواتقهم ، فأنهيت إليهم نبأ التأجيل ، وكان الإنهاك قد بلغ منى مبلغه بعد ليلتين قضيتها ساهراً لم يذق فيها جفناى طعماً للنوم .

\* \* \*

وحين انهلج صبح الثانى والعشرين من يوليه نهضت من فراشى متطلعا إلى إنجاز تلك المهمة التى كان فيها الحد الفاصل بين الظلام والنور . ولم يكن من الطبيعى أن تمضى هذه الأمور كلها دون أن أشرك فيها شريكة حياتى التى حطت معى مواقف الشدة ومواقف الرخاء والتى كنت آنس فيها الصديق والولاء كما كنت آنس فيها الحفاظ على السر والعهد ، ثم لما كنت آنسه فيها أيضاً من رأى صادق يعين على تحمل المسؤولية . لهذا لم أكنم عنها ذلك اليوم مأساً قوم به ، وضربت لها مثلاً ما كانت ستتعرض له بيوتات كثيرة من بيوت إخوانى الضباط من ترمّل ويثم وألوان من العذاب كانت ستصّب فوق رؤوسهم لولم أنهض بعينى فى هذه الحركة ، فسمعت منها عبارات لا أنساها من التشجيع والتأييد تدعولنا فيها بالتوفيق والعون من الله مما زادنى ثقة بما أنا مقدم عليه . وأذكر كم كنت

ذاهلا وأنا أتناول الغداء الأخير في بيتي قبل ذهابي إلى الشكنات ، فلم ألق بالالما  
 كان يصدر عن ابني الوحيد محمود من مشاكسات كانت تلقى مني قبل الزجر  
 والنهر، بل بادلتها على تلك المشاكسات حنانا ورققا وعطفا وكأني أودعه إلى غير  
 رجعة ، ونظرت إلى عيني ابنتي نورا التي كانت ماتزال في المهد أتزود بنظرة قد  
 تكون الأخيرة ، كما أذكر شرودي ونظراتي المعلقة بالصحن الذي أمامي لا أكاد  
 أرفع نظري عنه ، فلقد كان في نفسي هم ليس وراءه هم ومصير لا أدرى ماسوف  
 ينتهي بي . ولقد ذكرتني زوجتي بعدها أنني حين فارقت بيتي مودعا لم أنس أن  
 أوصيها بتأكيد موعد زيارتنا الأسبوعية لوالدي وهي تقول : « لقد حدثت بقولك  
 هذا إنك واثق بنصر الله » .

وعاد حسين الشافعي إلى جمال عبدالناصر ثانية في يوم ٢٢ يوليه ، ثم رجع في  
 الخامسة مساء من عنده يحمل إلينا الخطة العامة التي استخلصنا منها ماسيقوم به  
 الفرسان من واجبات ، وأخذت على عاتقي تحويله إلى خطة تنفيذية . وأقدم  
 للقارئ تلك الخطة العامة بخط عبدالحكيم عامر وإضافات زكريا محيي الدين  
 وتعقيبات جمال عبدالناصر . وإن من يرى تلك الخطة بأقلام أصحابها ، وبذلك  
 الخط العجول وما فيها من ترميج وحذف وتعديل وإضافة ثم تلك الرموز العسكرية  
 التي تزخر بها لن يصدق أن تلك الصفحات الست كانت الحد الفاصل بين  
 عهدين . وإنني أجمل للقارئ بعض مايعنيه من هذه الخطة . وما قد تصعب عليه  
 قراءته . فقد استهلت الخطة بأن تكون الوحدات المشتركة في العملية في أماكنها في  
 الواحدة بعد منتصف الليل ، على أن يُمنع استخدام التليفونات ، وأن يوكل إلى  
 فصيلة من السيارات المدرعة مهمة التحفظ على مصلحة التليفونات بصحبة أنور  
 [ السادات ] ولقد اختارته الخطة لهذه المهمة لأنه كان ضابطا في سلاح الإشارة ،  
 ولكنه لم يحضر ليصحب فصيلة السيارات المدرعة لأداء مهمتها مما اقتضاني أن  
 أطلب من زكريا محيي الدين فور وصوله إلى سلاح الفرسان أن يرسل لي غيره  
 ليؤدي الدور الذي كان منوطا به .

وتمضي الخطة بعد هذه الاستهلال لتحديد التعليمات الخاصة بمن سيُعْتَقَل من  
 الضباط تأمينا للحركة ، وقد وُكِّل هذا الاعتقال إلى فريقين من الضباط تصحبها  
 سيارتان مدرعتان من سلاح الفرسان . وتبلي هذا في الخطة إقامة كوردون

[ حصار ] من الواحدة والنصف صباحا للمنطقة التي تشمل بوابة العباسية وبوابة مدخل سلاح الصيانة وبوابة رقم ٦ من قشلاقات العباسية والطريق الموصل من حدائق القبة إلى إدارة التجنيد وكوبرى المترو أمام المستشفى العسكرى العام وتقاطع شارع الخليفة المأمون بشارع نادى سبورتنج ، إلى أن خصصت الخطة فصيلتين من دبابات سلاح الفرسان لتأمين مطارى مصر الجديدة وأماظة ، وفصيلة سيارات مدرعة وفصيلة من كتيبة المشاة الثالثة عشر للتحفظ على دار الإذاعة منذ الرابعة صباحا ، وفصيلة دبابات مع سرية من كتيبة المشاة الثالثة عشرة لاحتلال رئاسة الحدود ابتداء من الساعة الخامسة صباحا ، على أن يحتل مجدى حسنين ثكنة الحدود بالجبل الأصفر ، وأن يحتل جنود لواء الأساس مبنى قسم القاهرة . وأنيط بمركز تدریب المدفعية سد طريق مصر الجديدة وهاكستب وقفل طريق السويس فى اتجاه الكيلو ٤٥ ، وتسير دوريات بين ميدان الجولف ومعهد الصحراء إلى أن يتم لفصيلة من كتيبة مدافع الماكينة الثانية وفصيلة مدرعات من سلاح الفرسان الاستيلاء على رئاسة الجيش . وكانت الخطة العامة قد حددت تشكيلا احتياطيا مكونا من إحدى وحدات مدفعية الميدان وكتيبة المشاة الثالثة عشر وكتيبة دبابات فضلا عن بقية سلاح الفرسان التى رابضت بثكناتها .

. وتنسقل الخطة إلى شبكة المواصلات اللاسلكية ، فخصصت عربة بجهاز لاسلكى لرياسة الجيش وأخرى لسلاح الفرسان وثالثة مع يوسف صديق ورابعة مع الكتيبة الثالثة عشرة وخامسة مع رئاسة المدفعية على أن تقدم كل مجموعة من هذه المجموعات تقريرا دوريا كل ربع ساعة إلى مجموعة رياسة الجيش منذ ابتداء العملية حتى العاشرة من صباح ٢٣ يولية .

وأسندت الخطة واجبات خاصة لأربعة ضباط ، فأناطت بجمال عقد مؤتمر برياسة أركان حرب الجيش ، وبعبد الحكيم إعلان السياسة العامة ، وبكمال حسين الاجتماع بالمستشارين الألمان ، كما ناطت بذكرى واجبا حيويا رئيسيا هو أركان حرب العملية كلها الذى أذاه يهدوئه المعهود على خيز وجهه وتغان ملحوظ .

ونصت الخطة على إنشاء شبكة لتلقى المعلومات العسكرية تتولاها المخابرات الحربية ، والمدنية وتتولاها الصحف والإخوان المسلمون ، لمعرفة جميع التطورات

السياسية في المملكة عامة والجيش خاصة ، وكذلك تطور الأمور في الإسكندرية . وكلفت الخطة سلاح خدمة الجيش بسد المنطقة المحاصرة بالبراميل ، كما أوضحت أن إخطار القوات المسلحة المراقبة بفلسطين يبدأ بعد إذاعة بيان الراديو . وكذا نصت الخطة على أنه بعد نجاح الانقلاب تطوف دوريات من الاحتياط في السابعة صباحا بالقاهرة مكونة من الدبابات والسيارات المدرعة وبطارية مدفعية وسرية مشاة مختربة شارع الملكة نازلي ( رمسيس الآن ) وميدان المحطة وشارع إبراهيم باشا ( الجمهورية الآن ) وميدان الأوبرا . وكان على قوات الكوردون توجيه الضباط من رتبة بكباشي فما فوق وغير المرغوب فيهم من الرتب الأخرى إلى صالة السينما بالتدريب الحربي في رياسة الجيش حيث يستمعون إلى كلمة يلقيها عليهم رئيس هيئة أركان الحرب في الثامنة والنصف صباحا .

وكان ثمة بيانان سيداعان عقب نجاح الحركة في الساعة السابعة والنصف في الإذاعة ، أحدهما موجه للشعب والآخر موجه للجيش ، على أن يخلق سلاح الطيران في العاشرة صباحاً في سماء القاهرة والإسكندرية ، ويتوجه ضابط اتصال مع داورية مسلحة إلى وزارة الداخلية للمحافظة على الأمن .

وما كان يدور بخلد أحد أن هذه الأوراق الست كانت تحمل في طياتها هذا الانقلاب الذي هزّ عرش فاروق وأطاح به وأزاح عن شعب مصر غمة طالما كتمت أنفاسه وقهراً عانى منه أقسى المعاناة . وأذكر هنا بعد أن درست مع زملائي - حسين وخالد وعثمان - الخطة إجمالاً وتفصيلاً بمنزلي ، أنني بدأت أخطط لما جاء فيها من واجبات ملقاة على عاتق سلاح الفرسان وأخذت في ترتيب الأمر وإعداد السبل الكفيلة بتنفيذه على وجه الدقة حتى لا يفوتني شيء . فدوّنت بخطي الخطوات التنفيذية على وريقات عشر تحمل كل منها عملية من العمليات . فواحدة فيها تفصيل لاحتلال دار الإذاعة ، وثانية وثالثة ورابعة فيها تفصيل بما سيفرض من حصار المنطقة بكتيبة سلاح الفرسان الميكانيكية ، وخامسة وسادسة لاعتقال من ينبغي اعتقاله ، وسابعة لما كان سيتخذ من احتلال لرياسة سلاح الحدود ، وثامنة وتاسعة لما كان سيتخذ من تأمين للمطارات ، وعاشرة لما كان سيتخذ من تأمين للبوابات والمداخل .

هذا ما كان يخص جانباً من قوات سلاح الفرسان . أما ما كان يخص سائر قوات الفرسان ففصلته في وريقات أربع . أولاً خاصة بتجهيز الاحتياطي ليكون على أهبة الاستعداد في خمس عشرة دقيقة . وثانياً بأن يقوم الآلى الأول المدرع بإعداد كتيبة دبابات لعمل طابور سير داخل المدينة في الساعة العاشرة صباحاً مع بيان خط سيرها كما جاء في الخطة العامة . وثالثاً بما يقوم به الآلى الأول المدرع من إعداد لكتيبة دبابات لتكون على استعداد للتوجه إلى الإسكندرية في مدى ساعتين إذا لزم الأمر . ورابعاً أن تظل باقى القوات المدرعة في حالة استعداد لما ستؤمر به . وخامساً خاصة ببقاء الضباط مع جنودهم حرصاً على ألا يتسرب بينهم من يدعو إلى الهزيمة . وسادساً خاصة بإعداد كتيبة الدبابات « اليسطور يون » حذراً من تدخل القوات البريطانية . وسابعاً خاصة بتعيينى للملازم رضا صابر رحمه الله ليصحب ضابط الإشارة الذى كان سيوكل إليه الإشراف على تأمين مصلحة التليفونات كما أشرت قبل .

ذلك هو مجمل ما جاء فى الخطة وتفصيل ما أعدته للتنفيذ . وكانت الساعة حين انتهت من هذا كله قد بلغت التاسعة ، وأحسّت زوجتى أنه لابد لنا من وجبة خفيفة تعيننا على مواصلة ما نحن فيه فقدّمتهما إلينا . وفيما نحن هكذا دخل علينا جمال عبدالناصر فى زى مدنى وقد ارتدى قميصاً أبيض وبنطلوناً رمادياً ، وكان يبدو عليه الإرهاق الشديد . ولكنه ما كاد يطالعنا حتى بدت على وجهه بسمة الارتياح العريضة . وإذا هو يقول لنا : « ما جئت فى هذه الساعة وعلى غير موعد إلا لأطمئن إلى ما سينهض به سلاح الفرسان » . فقلت له مداعباً تخفيفاً لحدة الموقف وتوتر الأعصاب : « عجباً .. عشنا ورأينا سلاح المشاة يريد أن يطمئن على قيام سلاح الفرسان بواجبه » ، وأضفت هامساً : « هل تحب أن أصارحك مرة ثانية بأن الله خلق أول ما خلق ضابط الفرسان ثم أرفده بالحصان .. وبعد أمد طويل .. خلق الله ضابط المشاة ! » . وضحكنا ثم أعدنا مناقشة تطبيق الخطة عاجلين . وحين رافقته مودّعاً التفت نحوى قائلاً وهو يغادر المنزل : « فلتخلع عنك عواطفك الليلة ، ولا تفلت من يعترض طريقك . نحن فى مفترق الطرق ، إما الحياة أو الموت » . فشددت على يديه مؤكداً أننا على العهد لن نفتر ولن نلين ، وأن الفرسان على قدم الاستعداد . وأحببت أن أبدد كل مخاوفه فقلت له : « نحن محيطون بك كسرب

من النحل اللاذع فتوكل على الله ، وسننتزع الفوز معا » ، فغادرنا مشرق الوجه .

وعدت إلى حيث كان رفاقي في انتظاري . ولقد كان الموعد المضروب للقيام بالحركة هو الواحدة بعد منتصف الليل ، غير أنه كان ثمة هاجس هاجس في نفوسنا في أن نبكر عن الموعد المضروب ساعة أو بعض ساعة خشية أن يحدث ما لا نقدر أو نتوقع ، فأسرعنا إلى الثكنات في العاشرة والنصف ، ولعل هذا الهاجس كان مبعثه ما يحسه من يقدمون على مثل عملنا من قلق وخشية ، فلقد كنا أمام مصير مجهول لاندري معه أسنستقبل غدنا أحياء أم نكون في عداد الضائعين . ثم ما أشق وأمر ساعات الترقب والانتظار على النفوس التي تحمل مثل ذلك العبء . ودعت زوجتي وقبّلت طفلي وهما نائمان ولم أنس المصحف الصغير الذي وضعته في جيبى وكأني أتزود بسلّاح لا يُفْل . وصحبت حسين في سيارته إلى ثكناتنا ومضى خالد في سيارته متوجّها إلى وحدته للخروج بها في الموعد الذي حدّدناه . ودخلت برقّة حسين إلى المعسكر من باب خلفى مهجور ، وعندما وصلنا فوجّشنا بانطفاء الأنوار فظننا أول ما ظننا أن أمرنا قد انكشف ، وهكذا تعثر الظنون من هم على مثل عملنا مُقدّمون ، وحمدنا الله على أننا بكرنا بالحضور إلى أن تبين لنا أن انقطاع الكهرباء كان لعطل فنى . وعلى الرغم من هذا فقد أخذت في التنفيذ ، وفي ضوء البطاريات والشموع أخرجت من جنانة الجراية التي كنت أعلقها على كتفى الوريقات التي دوّنت عليها كل عملية على حدة ، ومضيت أصدر الأوامر لضباط آلاى السيارات المدرعة الأول ولأركان حرب فنى الآلاى الأول المدرع يوزباشى توفيق عبده اسماعيل [ وز يرشون مجلس الشعب وقت كتابة هذه السطور ] ليتولى إصدارها بدوره إلى ضباط وحدته . وسلمت كل ضابط نسخة من أوامر العمليات التي كنت قد أعددتها مع احتفاظى بصورة من كل نسخة مدوّنا اسم كل ضابط على نسخته التي بين يديه . وكان مما أثار دهشتى وإعجابى ولأننى ثقة بإخوانى أنى بعد أن فرغت من إناطة كل ضابط بواجبه أن أقدم التّى ملازم شاب اسمه ممدوح اسماعيل وإذا هو يحتاج على لِم لم يكن له نصيب كغيره من الضباط في هذا العمل ؟ فأسرعت وأسندت إليه مهمة تعزيز الحصار على مداخل مصر الجديدة لتخفيف العبء الشديد على خالد

محمي الدين . وجدير بالذكر أنه حدث عقب حركة الانفصال بسوريا مباشرة في عام ١٩٦١ أن طلب مني جمال عبدالناصر في تلك الفترة الحرجة أن أختار ضابطا يوثق به من الفرسان لقيادة مدرعات الحرس الجمهوري ، فلم يرد على خاطري غير اسم هذا الضابط المتميز لما عهدته فيه من حماسة وشجاعة وذكاء . ولقد ثبت صدق حدسي فيه لما كان منه من إخلاص وكفاءة أشاد بها رئيس الجمهورية في أكثر من مناسبة .

وبحمد الله مضى كل شيء في يسر على الرغم من أننا كنا نعمل في الظلام . وبينما نحن واقفين إلى جوار المدرعات إذا باليوز باشي توفيق عبده اسماعيل يبلغني بأنه انتهى من إصدار أوامره إلى ضباط الآلاي المدرع الأول بالمهام المطلوبة من كل منهم وأنه أمر بصرف وقود الدبابات ، وأن اليوز باشي أحمد حموده قد فتح مخازن الذخيرة ليزود الدبابات بما تحتاجه منها . ثم أخطرني أنه تصادف وهو عائذ في الثانية عشرة ونصف أن التقى قرب ميس سلاح الفرسان بسيارة كان يستقلها اللواء على نجيب قائد قسم القاهرة وسأله عن سبب وجوده فأجابته بأنه إنما جاء ليوثق الضباط للقيام بخدمة الطوارئ . ولقد شاء القدر أن يلقى في هذه الليلة واجب الطوارئ في قسم القاهرة على سلاح الفرسان ، وهو ما كان يتعين به على السلاح تجهيز كتيبة دبابات ومائة جندي مشاة . ولأول مرة في تاريخ خدمة الطوارئ كانت كتيبة الدبابات مزودة بالذخيرة هي وسرية المشاة ، وهكذا قُدم العهد القديم هدية إلى الثورة منذ بدايتها . أنهى التي توفيق ما كان بينه وبين اللواء على نجيب الذي أمره بإعداد كتيبة الطوارئ للخروج وأنه سيمرّ عليه بعد نصف ساعة لمراقبة التنفيذ ، وبأنه كان في نيته أن يقبض عليه لولا أنه كان عندها أعزل وكان على نجيب في ظلّ حارس مسلح ، فبادرته بقولي « إذا وقع عليه بصرك مرة أخرى فاسرع باعتقاله » .

ووقف ضباط الدبابات بين جنودهم يُنبئونهم بأن الليلة ليلة طوارئ ولكنها طوارئ من نوع جديد ، فلقد كانت الطوارئ من قبل لردع الشعب عن أن يشور بالملك ، أما طوارئ الليلة فهي لردع الملك عن أن يعيث بحقوق الشعب ، فإذا نفوس الجند تلتهب حماسا وإذا تطلعهم للحرية يعتمهم جميعا وهزّ منهم القلوب .



وهكذا ألقينا كل ما نملك وتركنا المصير لله العلى القدير، و يعينى هنا أن أسرد كل ما قام به ضباط الفرسان الأحرار الذين استهانوا بكل ماقد يعترضهم من عثرات وماقد يتعرضون له من ويلات إذا ما أخفقوا، لا لغرض أولنفع ولكنهم هبوا هبة بريئة خالصة من كل مايشوب، طاهرة لله والوطن. ولقد كان لضباط المشاة والمدفعية بطبيعة الحال واجبات أخرى هنا وهناك - لا تقل شأنًا عما قام به ضباط الفرسان - أدوها على خير وجه وأكمله. وإذا كان ماأكتبه هنا هو ماعايشته واضطلعت به، لذا سجلت ما يخصنى ويخص زملائي معى من سلاح الفرسان، تاركا لغيرى أن يكتب ما يخصه.

وبعد ساعة الصفر بفترة وجيزة إذا بى أفاجأ بالصاغ عثمان فوزى يسرع نحوى ليلبلغنى أن الأمير اللى حسن حشمت قائد اللواء المدرع قد دخل إلى ثكنات السلاح، وهو ما كان يعنى أن ثمة عائقا سيقف فى سبيلنا إذ كان وجوده بين الضباط والجنود مما يشبب من الروح المعنوية، وكانت لحظة حاسمة فى مصير المعركة. وكان الملازم ابراهيم العرابى [رئيس هيئة أركان الحرب العامة وقت كتابة هذه السطور] الذى أنيطت به حراسة بوابة الفرسان بفصيلة من السيارات المدرعة فى طريقه لانتخاذ موقعه حين التقى بقائد اللواء المدرع الذى أمره بالعودة بفصيلته إلى ثكنته. اعتليت وحسين الشافعى والملازم ممدوح شوقى سيارة جيب مسرعين إلى حيث قائد اللواء المدرع بالقرب من آلى الخيالة حيث وجدناه بملابسه المدنية بالقرب من سيارته الخاصة مشتبكًا فى جدل عنيف مع الملازم حسن الدمنهورى، وكان قد شك فى أمره وحاول إرغامه على الركوب معه فى سيارته الخاصة فأبى عليه ذلك محتدا، فأصدر إليه حسن حشمت أمره بالإيقاف مما زاد الدمنهورى إباء وتشدداً فى موقفه الذى آزره فيه الملازمان محمد عثمان الكتبى وفاروق توفيق من آلى الخيالة. وإذا بصر حسن حشمت يقع على حسين الشافعى فتوجه إليه قائلا: «حتى أنت يا حسين؟» فرد عليه فى صلابة مُعلنًا إياه أن الأمر قد حُسم، فالتفت إلينا قائد اللواء ليحذرننا من مغبة هذه الخطوة المتهوره. وحسبًا للموقف وعدم ضياع الوقت الثمين فى جدل عقيم لا طائل وراءه تقدمت إليه مهدداً إياه بما كان بين يدى من سلاح أن يركب معنا وحملناه إلى مقر قيادة كتية

السيارات المدرعة حيث وكلت إلى الملازم ممدوح شوقي التحفظ عليه ،  
وسألته عما قد يخفف عنه محنة الاعتقال المؤقت معتذراً عما يكون قد بدر منا  
من صرامة ، إذ كان الموقف يقتضى هذا .

انطلق خالد محبى الدين ومعه الملازم وجيه رشدى بالكتيبة الميكانيكية  
لضرب الحصار على منطقة العمليات وعزلها عن القاهرة لكي تتمكن القوات  
المشاركة فى الانقلاب من تنفيذ الخطة دون أن يعوقها عائق .

وكانت حراسة بوابة الفرسان قد نبطت إلى الملازم إبراهيم العربى على رأس  
فصيلة من السيارات المدرعة كما قدمت . وكان مما قامت به تعرضها لقوة الشرطة  
العسكرية التى كُلفت بالتحرك من عابدين إلى قيادة الجيش للقضاء على  
الحركة ، واعتقل العربى أفرادها بعد تجربتهم من أسلحتهم ، وكان فى هذا  
بلاشك حقن لإراقة الدماء .

وانطلق الملازم محمود عبد اللطيف حجازى على رأس فصيلة من السيارات  
المدرعة تضم الملازم ثان فكرى بطاح الى كوبرى القبة أمام المستشفى العسكرى  
لإحكام الحصار حول منطقة العمليات . واتجه الملازم فاروق الأنصارى ومعه  
فصيلة من السيارات المدرعة إلى مبنى قيادة الجيش بعد منتصف الليل بقليل  
حيث قام بدور مشهود أغفله الكثيرون ممن تعرضوا لتأريخ تلك اللحظات  
الحاسمة . فما كاد البكباشى يوسف صديق رحمه الله يصل على رأس فصيلة من  
مشاة مدافع الماكينة إلى مبنى القيادة حتى تصدى له الحرس الرابط على البوابة  
والشرطة العسكرية ، فاقتحم فاروق البوابة بمدفعته ليخلى الطريق ليوסף  
صديق لاحتلال مبنى القيادة ثم نزع أسلحة الحرس وأودعها مخازن سلاح  
الفرسان ، وكان فيما فعل ما أذى من غير شك إلى البعد عن التضحية بالأرواح دون  
جدوى .

وفى الثالثة صباحاً صاحب الملازم أحمد على المصرى ومعه فصيلة من السيارات  
المدرعة أليوز باشى جمال القاضى على رأس سرية من كتيبة المشاة الثالثة عشر إلى  
مقر الإذاعة ، واستطاع بالذكاء والحيلة أن يجلب قوات الشرطة عن مبنى الإذاعة  
إلى أن أذيع بيان الحركة فى الساعة والدقيقة الخامسة عشر على لسان البكباشى  
أنور السادات — على ما أذكر — عقب تلاوة القرآن الكريم .

واشترك المرحوم الملازم آمال المرصفي بفصيلة من السيارات المدرعة في تعزيز الضباط المنوط بهم اعتقال من كان يُشكّ في أمره من قيادات الجيش . وتوجه الملازم ممدوح اسماعيل إلى ميدان روكسى عند مدخل مصر الجديدة لضرب الحصار حول منطقة العمليات ومعه فصيلة من السيارات المدرعة . وخرجت فصيلة أخرى بقيادة المرحوم الملازم عادل حسنى لتعزيز فصيلة الدبابات المرتبطة بمدخل العباسية . ومضى اليوزباشى عبدالفتاح على أحمد على رأس فصيلة من السيارات المدرعة لمعاونة اليوزباشى مجدى حسنين لاحتلال محطة الإرسال بأبى زعبل . وتولى الملازم محمد صبرى القاضى مهمة ضابط الإشارة والاتصال لاسلكيا بجميع الوحدات المشتركة في الحركة . ومضت فصيلتان من السيارات المدرعة غاب عن ذاكرتى تماما من تولاهما لتكونا تحت إمرة الصاغ جمال جهاد لتأمين لواء المشاة السابع ، كما وُكل إلى اليوزباشى سامى تركى مهمة الاتصال بسلاح الطيران . وفى أول ضوء ذهب الملازم محمد ابراهيم عطية على رأس فصيلة من الدبابات ليحتل رئاسة الحدود في معاونة سرية من كتية المشاة الثالثة عشر . ومضى الملازم على محمد على ومعه فصيلة دبابات لتأمين مطار مصر الجديدة فإذا هو يجد سرينة من المشاة كانت على نية الذهاب إلى رئاسة الجيش لكبت الحركة فحال بينها وبين أن تتحرك من موقعها . وخفق الملازم بهاء الحينى على رأس فصيلة من الدبابات إلى مطار أوماظه لتأمينه ، وتوجه الملازم فؤاد عمر ومعه فصيلة دبابات إلى العباسية لتأمين مدخلها . وحوالى الثالثة صباحاً وصل اللواء محمد نجيب إلى حيث كان ينتظره الملازم محمود عبداللطيف حجازى ليصحبه إلى مقر القيادة . وحوالى السادسة قصد الملازم عبدالمنعم عانوس مقر الإذاعة على رأس فصيلة من الدبابات لتعزيز فصيلة السيارات المدرعة التى توجهت إلى المكان نفسه فى الثالثة صباحاً . وظل المرحوم الملازم محمد أحمد المغربى فى احتياط الآلاى الأول المدرع حين تجدد الحاجة . وأخذ الملازم حسن الدمهورى على عاتقه مهمة الاتصال بين سائر وحدات سلاح الفرسان ، كما قصد رئاسة سلاح الفرسان لتأمينها وقطع الاتصال بينها وبين الخارج . وبعد أن تم للحركة الاستيلاء على قيادة الجيش اصطحب الأمير الاى حسن حشمت واليوزباشى سعد مأمون [ وزير الحكم المحلى الأسبق ] والمرحوم الأمير الاى عبدالعزيز فتحى مدير مكتب رئيس هيئة أركان

حرب الجيش الذين قبض عليهم داخل ثكنات سلاح الفرسان بسيارته الخاصة إلى المعتقل الذي أعده التنظيم بمبنى الكلية الحربية .

كان الشعور فياضاً عمّ الجميع ، فعلى حين كنا قد أعددنا الآلاى المدرع الأول والآلاى الأول سيارات مدرعة وجانبها من الكتبية الميكانيكية للقيام بالحركة ، إذا بالمرحوم الملازم آمال المرصفى ينهض وحده بإعداد آلاى الاستطلاع الأول الذى لم يكن للتنظيم ضباط بين أفرادهم ليكون على أهبة لتنفيذ ما يطلب منه ولايستغل ليكون ضد الحركة ، وإذا بالمرحوم اليوزباشى عبد الله فهمى يعد الآلاى المدرع الثانى للهدف نفسه مستخدماً سلطته إذ كان ليلتها ضابط عظيم الطوراء يعاونه فى ذلك اليوزباشى رءوف أسعد ، وتحول هذا الآلاى ليصبح احتياط حامية القاهرة متخذاً مواقعه على امتداد شارع الخليفة المأمون طوال الأيام الثلاثة الأولى . وكان فى هذا وذاك إضافتان لهما قيمتهما فيما اضطلع به سلاح الفرسان .

ولقد شارك فى الحركة من بين الضباط الأحرار بسلاح الفرسان إثنان وعشرون ضابطاً من بين ضباط التنظيم الذين كان عددهم اثنين وثلاثين لم يخذلنا واحد منهم أو يتخلف فيما عدا من تعذر إبلاغهم بالموعد المحدد لظروف خارجة عن الإرادة . كما انضم عشرة ضباط من غير الضباط الأحرار يحدوهم إلى ذلك حماسهم ، أو عن تكليف من الضباط القائمين بالحركة بعد أن توسموا فيهم روح الوطنية الخالصة .

فرغنا من واجبتنا واطمأنت النفوس إلى أنها أدت رسالتها ، لم نستشعر الكد ولم يفت فى عضدنا وهن . وحانت منى التفاتة إلى مدافعى الرشاش الصغير الذى كنت أحمله فى يدى طيلة هذه الساعات الرهيبه ليكون لى عدة فى الدفاع ضد من يقف حجر عثرة فى طريقى ، ومددت يدى أتحتسه وأختبره فإذا هو فارغ لا ذخيرة به . هنا استغرقت فى ضحك طويل وانخرطت فى تفكير طويل . . . . ضحكى حين ذكرت أنى نسيت نفسى نسيانا وكدت أعرضها للخطر حين أعددت الذخيرة .

لكل المدافع والمدرعات ونسيت أن أعد الذخيرة لمدفعى ، ولكن الواجب العام كثيراً ما ينسى الواجبات الخاصة ، وفكرت كيف حاطنى الله بأمنه فلم ألق شراً . ومازلت أذكر هذه أكثر مما أذكر غيرها لأنها عاشت فى خاطرى أوضح دليل على أن الله كان يؤيدنا بنصره . ثم هى عناية الله التى ملأت قلبى إيماناً فلم أشعر

بالحاجة إلى تلك الذخيرة . ومع دقائق الساعة الرابعة صباحاً كان كل شيء قد  
استقر وأدركنا ما نبغى ، وأصبح كل ما سطرته أيدينا على تلك الوريقات وما  
جال بنفوسنا وماوراء خواطرننا ، أصبح هذا كله حقيقة واقعة تشيع في أنحاء  
البلاد ، وغداً واجبا علينا أن نتجه إلى الله بالشكر وأن نخرّ له راكعين ساجدين  
فاfterشنا الأرض جنوداً وضباطاً نصلى صلاة الشكر يؤمّنا حسين الشافعي .  
وسالت مع ابتهالاتنا إلى الله دموع الفرحة . وكم انهمرت من قبل دموعنا  
بالألم ، والفرق كبير بين دمع ودمع ، دمع العبودية ودمع الخلاص .

## ٦ إجراءات وأحداث ما بعد ليلة الثورة

لقد كان همى حين شاركت فى هذه الحركة منذ أن بدأت إلى أن انتهت أن أبذل كل جهد فى إنجاحها ، ولم يدر بخلدى أن ثمة مطمعا وراءها فى اعتلاء كراسى الحكم أو المشاركة فى السياسة ، بل كنت أومن أننا نقوم بهذه الحركة لتخليص البلاد من شر استفحل فعجز الساسة عن تداركه وتلافيه ، حتى إذا ما أنجزنا مهمتنا عدنا إلى ثكناتنا وتركنا للبلاد حقها المشروع فى اختيار من تثق فيه بعد تلك التجربة الطويلة ليتولى أمرها فى جو لا ضغط فيه لملك طائش ولا لمستعمر جبار ، وإنما يُردّ الأمر فيه إلى الأمة لتقول كلمتها الفاصلة .

وأعترف أننا كنا فيما انتويناه قبل ونحن نعدّ لهذه الحركة أن يكون قصارانا وقف الملك عند حدّه وردّه عن طغيانه وتثبيت أركان الدستور وتمكين الشعب من حقوقه كاملة ، فلا يكون عدوان هنا أو هناك . كما كانت النية معقودة على تنفيذ الأهداف التى نادينا بها فى منشوراتنا والتى حدّدناها فيما بعد فى المبادئ الستة المعروفة . وإذا نحن — معشر الضباط الأحرار — بعد أن كلّل الله مسعانا فى يسر غير

مستوقع وانتهى الأمر بنا إلى هذه الغاية الحميدة نرى أن وجود الملك بات غير مأمون العاقبة، فما يدرينا لعل حركة مضادة تقع فتعيد الأمور سيرتها الأولى، ووجد جمال عبدالناصر أن الخطر الكامن وراء هذا كله هو في بقاء الملك. من أجل هذا رأى والفرصة مواتية إجبار الملك على التخلي عن العرش ليصفوا الجو صفاً لاشائبة فيه ولا رجعة معه إلى الوراء.

وفي منتصف ليلة ٢٤/٢٥ يولييه اتصل بي جمال عبدالناصر متعجلاً لقائي بمقر القيادة فتوجهت إليه لساعتي ليبلغني بما استقر عليه الرأي من خلع الملك، وإذا هو يعهد إلى ياعداد كتبية دبابات وإرسالها إلى الإسكندرية لتتولى هذه المهمة إلى جوار وحدات من الأسلحة الأخرى، فقلت له حشبننا خلع الملك وإبعاده دون إراقة دم كما تعاهدنا، فطمأنني إلى أن هذه هي نيته الشخصية وأنه حرص على أن تظل ثورتنا بيضاء. وقد رأيت ليلتها إرسال نصف كتبية من الآلاى الأول المدرع الذي كان على أهبة الاستعداد لهذا التحرك كما أسلفت بالقطار، والنصف الآخر فوق الناقلات على الطريق الصحراوي حتى إذا ما تدخلت القوات البريطانية لتحويل القطار عن مساره أمكن للنصف الآخر تأدية المهمة المنوطة به. وفي فجر يوم ٢٥ يولييه قام القطار عملاً بنصف قوة الدبابات من محطة العباسية العسكرية، وبعد ساعة كنت أشرف على عبور الناقلات حاملة الدبابات عند كوبرى الجلاء في طريقها إلى الإسكندرية. وقد وصلت الكتبية إلى الإسكندرية كاملة دون أن يعترضها معترض حيث تولى حسين الشافعى قيادتها مع كتبية من السيارات المدرعة. وقد تم هذا بعون الله حقاً إذ كان من الاستحالة بمكان تنفيذ هذه المهمة الخطيرة خلال تلك المهلة الوجيزة التي لم تتجاوز ساعات ست.

وبعد أن كُتب النجاح لحركة الجيش بأسابيع سألتني عبدالناصر أن أزوره في مقر قيادة الجيش بكوبرى القبة. وعندها عرض عليّ أن أنضم عضواً إلى مجلس قيادة الثورة، وكان التفكير قد بدأ في أن يكون كل سلاح من أسلحة الجيش للبريئة ممثلاً فيه. وإذا كنت من سلاح الفرسان لذاعرض عليّ أن أكون ممثلاً لهذا السلاح شأن ما كان من اختيار زكريا محيي الدين و يوسف صديق ممثلين لسلاح المشاة وعبدالمنعم أمين ممثلاً لسلاح المدفعية. وأعترف أن العرض كان مفاجأة تامة لى لم تدر قط بخلدى، فاعتذرت إليه لتؤى لأسباب أبديتها له، وأنها أنى

رأيت أن هذا قد يكون ثمننا لعمل أديته كان واجبا على أدائه دون نظر إلى جزاء ، وثانيها أن انضمامي لهذا المجلس سيصرفني عن متابعة المهام الملقاة على عاتقي في سلاح الفرسان و« الحركة » لم توّمن بعدُ والجيش البريطاني على مبعدة ساعات من القاهرة . وثالثها أنه مادام هناك من هو أقدم مني رتبة في سلاح الفرسان ممن شاركوا في الحركة مشاركة جادة حقّة وهو حسين الشافعي فأرى أنه أولى مني بهذا . وقد لمست كم طابت نفس عبد الناصر لهذا الموقف مني ووافقتني على رأيي ، وطلب اليّ أن أتولى بنفسى إبلاغ حسين الشافعي بهذا الاختيار ، فغادرته إلى حسين انهى إليه ما حدث .

وبعد ما يقرب من ربع قرن على تلك الواقعة وكنت أتذكر مع الصديق خالد محيي الدين أحداث بداية الثورة بمناسبة ظهور كتاب « قصة ثورة ٢٣ يولية » للأستاذ أحمد حمروش (٧) الذي قال فيه : « أنسى كنت من بين من يسعون للظفر بالمنصب » أن نفى خالد هذا الزعم مؤكدا الرواية التي ذكرتها . ثرى هل كان هناك منصب يُطمح إليه أعلى من منصب عضوفي مجلس قيادة الثورة الذي اعتذرت عن قبوله ؟ بل لقد سجل خالد لى شهادته عن هذه الواقعة بخط يده مستنداً إلى كتاب سلّمته إليه يداً بيد ، ثم أفصح لى عن أمر كنت أجهله قائلاً : « لقد آن أن أصارحك بما كتمته عنك طيلة هذه المدة إذ لم ترد مناسبة لذكره ، وهو أن جمال عبد الناصر قد حمد لك موقفك بإيثارك الأخ حسين الشافعي لعضوية مجلس الثورة . وقد اعترف لى بأنك قد رفعت عنه الحرج الذى كان يستشعره لأنه إذا ما ضمّك إلى المجلس يكون قد تخطى الأقدمية فضلاً عن دور حسين الهام أيضاً ليلة ٢٣ يولية ١٩٥٢ » .

وإلى القارئ نص رسالة خالد محيي الدين لى :

« أودّ أن أقرر أن جمال عبد الناصر حينما قرر توسيع مجلس قيادة الثورة كان يقدر أن دور ثروت عكاشة كان هاماً وتاريخياً ليلة ٢٣ يولية ، وكان تقديره بضرورة ضمّه لمجلس قيادة الثورة ، ولكنه كان أيضاً يعتبر دور حسين الشافعي هاماً وتاريخياً أيضاً ليلة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ . وقد عرض جمال عبد الناصر على ثروت عكاشة الانضمام لمجلس الثورة ولكن ثروت عكاشة اعتذر للأسباب التى أوردتها فى رسالته . ولكننى فى الوقت نفسه أذكر أن جمال عبد الناصر كان متردداً بين ثروت عكاشة وحسين الشافعي بسبب أقدمية حسين الشافعي ودوره الهام أيضاً كقائد لسلاح الفرسان ليلة



لثورة . وكان جمال عبد الناصر يبيت النية لإقناع ثروت عكاشة بالتنازل إذا أصر على قبول عضوية مجلس الثورة . ولكن ثروت عكاشة وقر عليه هذه المشقة بالاعتذار بفضيله تعيين حسين الشافعي بدلاً منه للسبب الذي ذكره في رسالته . وحيناً قابلت سيد الناصر بعد المقابلة مع ثروت عكاشة قال لى : ثروت ريتحنى من الحرج الاعتذار» .

وعلى أية حال فالحق إنى وإن لم أكن أدرى هذه الحقيقة إلا أن الذى أدريه هو أننى كنت صادقاً مع نفسى ومع ظروف الوطن حين اعتذرت عن عدم قبول عضوية المجلس للأسباب التى ذكرتها .

## ٧ رياسة مجلة التحرير

قامت الثورة في وقت كانت للصحافة فيه مدرستان أساسيتان ، إحداهما تتناول الأوضاع بالتحليل السياسي الجاد وتضم نخبة من شباب الصحفيين وقداماهم في عديد من الصحف والمجلات<sup>(٨)</sup> . أما المدرسة الثانية فكانت مبددة تسير على نهج الصحافة الأمريكية أوعلى نهج قريب منها ، معتمدة أساسا على الإثارة والإفصاح عن الأسرار الشخصية والتعليقات الخفيفة اللاذعة في أسلوب شائق ومهارة غيز منكورة ، وإن كنت أرى أنها لم تكن المدرسة الصحيحة في وقتها الصحيح ، نظرا لما كانت عليه الحياة السياسية في مصر آنذاك من مخاض أعقبه مولد الثورة .

في هذا الجو نشأت مدرسة صحفية وليدة لتكون تعبيرا عما يتطلبه الوطن من خلال تفكير الضباط الأحرار وأسلوبهم . وإنه وإن كان ثمة أوجه للقاء بين المدرسة الأولى وهذه المدرسة الوليدة ، إلا أن هذا اللقاء لم يتم في أغلب الأحيان مع المدرسة الثانية ، وقعت بينهما بطيعة الحال مصادمات ، وإذا كانت قد بدت ثمة مهادنة بينهما فلقد كانت هذه المهادنة مراوغة فحسب .

غير أنه كثيراً ماتضطر الثورات للعدول عما تكون قد رسمته قبل، فالظروف تتغير والسياسة قُلَّب قد تقتضى اليوم ما لم تقتضه أمس . من أجل هذا كانت استعانة بعض إخواني من رجال الثورة ببعض فرسان المدرسة الثانية لتكون أعلامها دُعَاتُهَا . وكنت أرى غير مارأوا، وأثبتت الأيام ومروور السنين صدق حدسى .

وكانت قيادة الثورة قد رأت في شهر سبتمبر ١٩٥٢ أن تصدر صحيفة باسمها ، إذ بدت لها الصحف كلها غير معبرة التعبير الصحيح عن جوهر الحركة ، وانتهى بها الأمر إلى إصدار مجلة التحرير التى أوكلت مهمة إظهارها إلى الأخ يوسف صديق ، وكان رحمه الله واضحاً صادقاً لا يخفى ميوله الماركسية ، غير أن القيادة لم تعر هذا اهتماماً في بداية الأمر . وحرصاً من يوسف صديق على أن تكون المجلة يسارية لحما ودما اختار اليوزباشى أحمد حمروش أحد ضباط المدفعية رئيساً للتحرير ، وكان هو بدوره ماركسى النزعة ، وإذا المجلة تبدو في نظر قيادة الثورة حمراء الصبغة وتصدر على غير الصورة التى كانت تنشدها ، الأمر الذى جعل جمال عبدالناصر يطلب إلى لقاءه بعد صدور أعداد ثلاثة من المجلة ، فلقيته وكان خالد محيى الدين حاضراً . وإذا هو يعرض على رئاسة تحرير المجلة متوسماً في القدرة على أداء هذه المهمة بحكم تجربتي في مجال الصحافة منذ عام ١٩٤٥ وحصولي على دبلوم الصحافة من كلية الآداب عام ١٩٥١ وإصداري كتباً أربعة قبل الثورة . وقد قبلت هذا التكليف بعد إصرار جمال عبدالناصر ، هذا إلى أعبائي التى كنت أحملها في سلاح الفرسان . ولم أزداعياً إلى إعادة النظر في هيئة تحرير المجلة بعد خروج أحمد حمروش لأنها كانت تضم باقية من الكتاب الوطنيين الشرفاء — وكان بعضهم خالصاً في نزعة اليسارية — تضم الأساتذة عبدالمنعم الصاوى رحمه الله وعبدالرحمن الشرقاوى ومصطفى بهجت بدوى وكمال الحناوى وسعد التائه وصلاح حافظ وسعد لبيب والفنانين عبدالسلام الشريف وحسن فؤاد رحمه الله وعبدالغنى أبوالعينين وجمال كامل وغيرهم . وقد كاشفتهم في أول لقاء بأن الهدف من هذه المجلة هو الالتزام النهج الوطنى ، وأنها ليست منبرا لليمين أو اليسار ، فمن شاء هذا فليتمضمض معنا في سلام ومن لم يشأ فله الحرية في أن يتخلى عن موقعه . كما أوضحت لهم أن من مهام المجلة كشف القناع عن العناصر المعادية للرأى العام ، والالتزام بما جاء بالمنشورات التى كان يصدرها الضباط الأحرار من

أهداف نصاً وروحاً ، وتغليب الجانب الوطنى والشعبى على كل جانب حتى ولو كان على حساب القوات المسلحة ، وانتصار للديمقراطية الحقيقية التى من أجلها قامت الثورة ، وكشف الستار عن العناصر المستغلة والمحتركة ، والدعوة إلى مبادئ العدالة الاجتماعية بمختلف الطرق وإلى الانتهاء من النظام الملكى كلية . وقد انزاح عن كاهلى عبء ثقیل حين استجاب الجميع مرحبين بهذا المسار ، وتعاهدنا جميعاً على المضى فى هذا الخط المرسوم . وأذكر أن الشاعر عبد الرحمن الشرفاوى كان قد نشر قصة بعنوان « الشاويش عبد الله » وأحتست السلطات أن فى هذه القصة مساساً بإخواننا السودانيين الذين يقال إن اللواء محمد نجيب ينتمى نسباً إليهم من قبل أمه فصدر أمر الحاكم العسكرى باعتقاله . وعزّ على هذا الموقف الذى رأيت أنه لا غبار فيه على الكاتب فيما كتب ، فذهبت إلى اللواء محمد نجيب فى صباح أحد أيام شهر يونيه ١٩٥٣ أوضح له رأيى ذاكرة أن مثل هذا قد وقع للأديب الفرنسى الشاعر لوى أراجون على قصيدة « الجبهة الحمراء » التى تخيل الادعاء حينذاك أن فيها حشواً على القتل ، ولكن القضاء مالبت أن برأ ساحته مستنداً فى هذا إلى حجة زعيم السورىالية الأديب أندريه بر يتون التى تُفصح عن أن كل مناميت إلى اللاشعور فلامؤاخذه عليه . وعندما اقتنع اللواء محمد نجيب بماسفته له من دليل أسرع فألقى أمر الاعتقال فى نفس اليوم .

وقد استلقت نظرى أن أحمد حمروش قد ذكر فى كتابه « قصة ثورة ٢٣ يولية » [صفحة ٢٨٩] أنه بعد خروجه من المجلة وحرصاً على سلامة العلاقات وعدم تدهورها : « طلب من كافة الزملاء أن يبقوا فى أماكنهم ويتعاونوا مع رئيس التحرير الجديد الذى كان قد حضر ومعه قائمة بفصل معظم المحررين باعتبارهم شيوعيين ، الأمر الذى اعترض عليه عبد المنعم الصاوى لأن ذلك يعنى انهاراً للمجلة الناجحة ، وأن جمال عبد الناصر قد ارتضى بقاءهم بعد مقابلة مع عبد المنعم الصاوى أوضح له فيها أن المجلة تسير على هدى منشورات الضباط الأحرار » .

ومن الجائز أن يكون أحمد حمروش قد تصرف من تلقاء ذاته طالباً من أسرة التحرير البقاء ، وإن كان كأى رئيس تحرير آخر معين لا يملك بقاء أحد أو تنحيته ، لأن القرار هنا ليس بيده . أما ما عدا ذلك مما أورده فلم يحدث . وحقيقة الأمر أن جمال عبد الناصر لم يفرض على أشخاصاً بعينهم ، كما لم يشر على

بالاستغناء عن أحد من المحررين . كذلك لم يكن في جعبتى حين قبلت تحمّل عبء رئاسة التحرير أسماء اقترحت على عبدالناصر فصلها ، بل كان الأمر مستروكا لى أتولاه على الوجه السوى الذى واجهته به المحررين بالأسلوب الذى أشرت إليه ، ولا إخال إلا أنهم يشهدون بصدق روايتى . أما ماجاء على لسان أحمد حمروش فى أحد كتبه من أن عبدالمنعم الصاوى قد قابل عبدالناصر وأقنعه ببقاء المحررين فهو عن يقين من شطحات الخيال ، فقد كان واحدا من المحررين ينتظر القرار وليس من الطبيعى أن يسعى إلى لقاء عبدالناصر دونهم جميعا . وبين يديّ خطاب من الأخ خالد محيى الدين ردّا على ماسجّله أحمد حمروش يؤثّق كل ماقلت . ومن فقرات هذا الخطاب تلك العبارة التى تشهد بحقيقة ما كان والتى تقول : «إن جمال عبدالناصر لم يقدم لك قائمة بأسماء محررين شيوعيين يجب فصلهم ، وإن كل ما ذكره هو أنه طلب إليك الحذر من سيطرة شيوعية كاملة على مجلة التحرير ، وأن تكون عينك مفتوحة لهذا الأمر ، وأنت مسئول أمامه عن سياسة المجلة ، والدليل على ذلك أنه لم يحدث فصل لأى محرر يسارى أو شيوعى أو غير ذلك طوال مدة رئاستك لتحرير المجلة » ، ثم انتهى خالد إلى أنه : «لا يعتقد أن جمال عبدالناصر قد قابل عبدالمنعم الصاوى بهذا الصدد » .

ويذكر أحمد حمروش فى كتابه أن القيادة حين افتأنت عليه ونحّته عن موقعه دون علم منه عينتنى بديلا عنه . وأجد من المناسب هنا أن أكشف عن الأسلوب الذى اتخذته حيال سلفى حين طُلب الّى أن أحلّ محله فى رئاسة تحرير المجلة بعد إقصائه ، فقد نشرت فى صدر العدد الرابع — وهو أول عدد صدر من المجلة وهى تحت إشرافى — كلمة رقيقة ودّعت فيها خير وداع أوفيته فيها حقه ولا تشير لاعتن قُرب ولا عن بُعدٍ إلى أن مغادرته لهذا العمل كانت إقصاء له . وقلت فى تبريرى — بصيغة الصديق المعتذر — أن ترك أحمد حمروش للمجلة كان لاستحالة الجمع بينها وبين التحاقه للدراسة بكلية أركان الحرب ، ورجوت بلسان المجلة أن يوافقنا بما تجود به قريحته فى الفينة بعد الفينة .

\*\*\*

واستمرت المجلة تصدر تباعا نصف شهرية ومن نجاح إلى نجاح ، فكان ما يوزّع منها يدل على رواجها رواجاً غير مألوف وقتذاك ، ولعل مرّد ذلك كان

إلى تلك الحرية التي أُتيحت لى كى أنشر ما أراه ما دمت لا أجنب القصد .  
ولعل هذا الذى مُنحته من حرية فى تحرير المجلة قد أثار رؤساء التحرير فى  
المجلات الأخرى ، وكم تمنيتُ أن يكون لهم أيضا مثل ما لى من حرية ،  
ولعل خوف القيادة من أن تزل الأقالام فتشوه وجه الثورة فى مستهلها هو الذى  
أملى هذا الوضع . وكان من بين من كتبوا للمجلة التحرير من خارج هيئتها  
الأساتذة عبدالرحمن عزام وطه حسين ويوسف السباعى وراشد البراوى  
وأحمد حسين وفكرى أباطه وجمال عبدالناصر وخالد محبى الدين وصلاح  
سالم ومصطفى محمود وأحمد كامل مرسى وغيرهم . وبلغ الأمر فى مقالة كتبها د . طه  
حسين للمجلة أنه كان يعيب على رجال الحركة تسميتهم ما قاموا به حركة ،  
وهى فى حقيقة الأمر ثورة لا حركة على نحو ما أسلفت فى صدر الكتاب .

كان طموح المجلة التعبير عن نبض الشعب بصدق وأمانة ، إيماننا منها بأن  
الصحافة فن وثقافة والتزام بقضايا الوطن والمواطن . وإذ كانت ثورة ٢٣ يوليه على  
حد تعبير مُفجّرها عبدالناصر<sup>(١)</sup> : « ثورة شعب بأكمله ، وهى لهذا امتداد لثورتى  
عرايى ١٨٨٢ والثورة الشعبية ١٩١٩ » ، [وفى هذا اعتراف من قائد الثورة بأن ثورة  
٢٣ يوليه لم تبدأ من فراغ وليس كما يدعى عليه البعض وهو فى ذمة الله أنه أنكر  
ذلك ] كان على المجلة أن تبشّر بغد مشرق لا ينفصم عن ماضى مصر المجيد .  
وتأكدت شعبية المجلة فى التصاقها بالدعوة إلى الديمقراطية وطرحها فى استفتاء  
شعبى على امتداد شهرين<sup>(٢)</sup> لموضوع إقرار الدستور الذى كانت لجنة من أهم  
رجال القانون والفكر والسياسة قد تشكّلت لوضعه تحت رئاسة على ماهر ،  
وأضمت شهورا فى صياغة مواده وبنوده . وقد حظى هذا الاستفتاء باهتمام كبير  
وبمشاركة من الشعب بكافة فئاته عن طريق تقديم مقترحات جادة تمسّ مشاكلة  
المباشرة ومصالحه الحقّة ، لاسيما وقد شاهدوا على صفحاتها صورة كل من محمد  
نجيب وجمال عبدالناصر وهما يملآن أوراق الاستفتاء مثل جميع المواطنين ،  
وانتصرت أغلبية ساحقة لهذا الدستور الذى لم يُكتب له الصدور . وتمخّض هذا  
الاستفتاء عن نتائج جليّة هى ضرورة حماية البرلمان من الحل ، والإبقاء على مجلس  
الشيوخ وخفض سن الترشيح إلى ٢٥ سنة ، وخفض سن الناخب إلى ١٨ سنة ،  
وخفض التأمين المالى للترشيح ، وحق الشعب فى حل البرلمان واقتراح القوانين

واقالة النواب ، ثم تحديد الإصلاحات التى يجب أن ينص عليها الدستور . وأفسحت المجلة صفحاتها لكتابات خالد محيى الدين عن الديمقراطية الاقتصادية وأحمد بهاء الدين عن الدستور الإدارى . وكان عبد الناصر يعرف ونعرف معه أن كتاباتنا عن الديمقراطية والدستور ستكون من وثائق الثورة يرجع إليها الباحثون والمؤرخون . ومع أن حل الأحزاب وإعلان فترة انتقال لثلاث سنوات كانا ضروريين لإحداث تغييرات اجتماعية حاسمة ، فلم ينقطع مع ذلك إيمانى بأننا سائرون فى النهاية نحو الديمقراطية ، مظلة الأمان لكل من الحاكم والمحكومين . وهو ما أعلنه فى افتتاحية لى بعنوان « نحن والديمقراطية »<sup>(١١)</sup> رُحِتْ أؤكد فيها أن رجال الثورة هم أكثر الناس إيماناً بالديمقراطية ، ولن يكونوا إلا كذلك إذ هم من أبناء هذا الشعب الذى يتطلع إلى الديمقراطية .

على أن مسيرة المجلة فى اتجاهها المتحرر قد أشعل غضب بعض الزملاء من أعضاء مجلس قيادة الثورة على وعلى المجلة ، فقد ظن هؤلاء فيما تنتهجه المجلة شططا وتحزرا يضاهى قبل الأوان ، عندما ذهبت المجلة الى أنه لن تكون ثمة حرية طليقة من كل المعوقات فى ظل الملكية ، وهو ما حفزنى إلى المتابعة بالغاء الملكية فى افتتاحية لى<sup>(١٢)</sup> بعنوان « أعلنوها جمهورية فوراً » مؤمناً بأن شعور المواطن بأن له صوتاً فى اختيار حاكمه وعزله يؤكد له شخصيته كعضو مؤثر فى المجتمع . وقد غضب اللواء محمد نجيب عندها لذلك وعدّ دعوتى خروجاً على المسيرة ، وإن لم تلبث الثورة غير قليل حتى ألغت الملكية وأعلنت قيام الجمهورية التى كان محمد نجيب أول من تولّى رياستها .

كذلك لعبت المجلة دوراً فى كشف أوضاع الريف التى تردت تحت سيطرة كبار ملاك الأرض وما حاق بأهله من أمراض اجتماعية تفوق فى جسامتها الأمراض العضوية . كما كشفت طغيان الاستعمار وتصدى المقاومة الشعبية لمعسكرات الاحتلال على شاطئ قناة السويس ، بل وحملت المجلة على الاستعمار وممارساته اللاإنسانية فى البلاد العربية المحتلة بالشمال الأفريقى ، وتوجنا هذه الحملة بإنذار عبد الناصر لبريطانيا معلنين « إما الجلاء وإما حرب العصابات » . وكانت المجلة سبّاقة فى المطالبة بتصنيع مصر فى مواكبة مع تحديد الملكية الزراعية فى مقالات لأستاذ اقتصادى مرموق هو الدكتور راشد البراوى بدأها بعنوان « نحو

سياسة صناعية رشيدة» ، كل ذلك مع حفز الشعب على المشاركة في النضال الاجتماعي والسياسي عبر تذكيته ببطولات أبنائه وبنماذج من بطولات إنسانية من مختلف شعوب العالم .

كانت هذه المجلة أول ما صدر من صحف عن الثورة في مستهل عهدها ، وكنت أحس أن عليها أمانة خاصة هي أن تعكس حقيقة أهداف الثورة للرأي العام وأن تعكس لرجال الثورة حقيقة إرادة الشعب المصري الذي قامت الثورة من أجله . وكان لابد للمجلة تصدر من أجل هذه الغاية أن تلتزم من الضوابط والحدود ما لم يجرب به العرف الصحفي في مجتمع ما قبل الثورة . ولعل أهم ما يجب الإشارة إليه في هذا المجال هو أن مجلة التحرير وضعت في اعتبارها ألا تفتح صفحاتها إلا للأقلام الوطنية مؤمنة بأن حس القراء المرهف كفيل بأن يحقق لهذه الأسماء الشهرة الكافية لانتشار المجلة . وقد أثبتت التجربة هذا بالفعل ، فكانت مجلة التحرير وهي لا تعتمد على الأسماء المشهورة وإنما على أسماء جديدة وجادة توزع رقيا قياسيا وقتها ، ولولا أن المطابع لم تتمكن من تلبية حاجات السوق لزاد توزيعها عما كانت عليه . وكان من سياسة المجلة أن تجارب الاحتكار في السياسة والاقتصاد على أي صورة يكون ، وعن طريق هذا المنهج حققت المجلة هدفا أساسيا هو كسب الرأي العام الذي وثق بها إلى حد كبير ، لكنها فقدت عطف بعض الكتاب التقليديين الذين كانت تعتمد عليهم كل صحيفة ناشئة ، كما فقدت عطف أصحاب المصالح والذين يتأثرون بهم بشكل مباشر أو غير مباشر . لكن مجلة التحرير لم تتأثر بهذه العقبات بل على العكس اعتبرت هذه العقبات دليلا على نجاحها في أداء رسالتها . مثل واحد جدير بالذكر في هذا المجال هو أن مجلة التحرير كانت تصدر يوم الأربعاء مرتين في الشهر ، وكان هذا هو يوم صدور مجلة قديمة راسخة في السوق هي مجلة آخر ساعة . وكانت الأخيرة توزع قبل صدور مجلة التحرير ما يقرب من سبعين ألف نسخة في الأسبوع فضلا عما كانت تتمتع به من مكانة في الحقلين السياسي والصحفي . وبعد صدور مجلة التحرير بفترة وجيزة هبط رقم توزيع آخر ساعة إلى ستة عشر ألف بل أربعة عشر ألف أحيانا ، وعجزت حتى في أيام الأربعاء التي لا تصدر فيها مجلة التحرير عن أن تعود إلى توزيعها القديم ، الأمر الذي أثار القلق في نفوس أصحابها وفي هيئة تحريرها ، وحاولت أن تستعيد ثقة



الجهامير بالدراسة والاحصاءات وتحليل أسباب الهبوط . وعندما فشلت جميع الوسائل لتستعيد هذه المجلة بعض مكانتها السابقة بدأ أصحاب الدار يسلكون سبيلاً آخر ، هو استعداد السلطة على مجلة التحرير تارة بتصويرها على أنها « نشرة حمراء » ، وتارة أخرى بتصويرها على أنها خرجت على أهداف الثورة دون أن يؤثر ذلك على نجاحها . وحين أصدرت المجلة بتاريخ ٣ يونيه ١٩٥٣ العدد ١٩ حاملاً تحقيقاً مفصلاً ومصوراً ومدعماً بالمستندات عن الصحافة بلونيهما المعادى للاستعمار والمسائر له تحت عنوان « لا تزيّفوا تاريخ الأبطال » استعدي البعض وزير الإرشاد القومي ، والراجح أنهم نجحوا في استمالته ربما لأن بعض المنطق السياسي وقتها كان ينادى باستغلال كافة العناصر في سبيل تحقيق بعض الأهداف القومية الكبرى ، وإن كنت ضد هذا التبرير لأن المعارك الوطنية لا يمكن أن تكسبها إلا العناصر الواضحة الهدف دون مهادنة أو تنازلات . على كل حال فما حدث بعد ذلك هو أن جمال عبدالناصر طلب إلّي أن أغير موعد صدور مجلة التحرير لتصدر يوم الثلاثاء بدلا من الأربعاء ، واعتذرت حتى النهاية عن تلبية هذه الرغبة التي أعلم مصدرها ، وأشهد أنه لم يعد مرة ثانية إلى الإلحاح في طلبه الأول . كان إيماني وقتذاك مستمداً من إيمان الثورة نفسها بنفسها ، فإن السنوات العسيرة التي قضيناها في عمل سرى متواصل ملئ بقلق لحدود له ، وإحساس بالإضطهاد وبالخطر المستخفي في ظلمة هذا العهد وبالتطلع إلى المستقبل المجهول والآمال الغامضة ، كل هذه العوامل التي دفعت إلى نجاح الثورة كانت شديدة الأثر في نفسي فرسيت فيها إصراراً شديداً وإيمانا بأن البقاء للأصلح وبأن ترك الأمر للمنافسة الشريرة من شأنه أن يكسب ثقة الناس بهيئة تحرير مجلة التحرير .

وظللت رئيساً للتحرير حتى عيد الثورة الأول في ٢٣ يولييه ١٩٥٣ ، وكان لابد لمجلة الثورة من أن تحدث الناس عن جانب من قصة الثورة الحقيقية ، خاصة بعد أن كتبت أقلام كثيرة عن هذه القصة روايات أغلبها غير صحيح أو مبالغ فيه . وأحسست أن من واجبي كفرد من وُكل إليهم عبء له شأنه في هذه الثورة أن أحدث الناس عن ذكرياتي ، فكتبت هذه القصة بكل ما أملك من أمانة وصدق وذاكرة ، ودعمت ذلك بالصور الزنكوغرافية لبعض وثائق تنفيذ الثورة . كتبت المقال بعنوان « هكذا قننا بالثورة » تحدثت فيه عما آداه سلاح الفرسان في

ليلة الثورة ، وهى الجزئية التى كنت أحد المنوطين بها وشاركت بنصيبى فيها ، لذا كنت معذورا إذا لم أتحدث عما لم يكن لى به علم حتى لا أظلم أو أجور . وكانت هذه الجزئية جلية لى ملما بها كل الإمام ، على حين كانت الجزئيات الأخرى منوطا بها غيرى وبعيدة شيئا ما عن بصرى وسمعى . وقبل مثل المجلة للطبع علمت أن أوامر وزير الإرشاد القومى قد صدرت بسحب المقالة ومنع نشرها ، فقابلت زكريا محيى الدين مدير المخابرات وقتذاك الذى حاول فى رفق أن يشيننى عن نشر المقال دون أن يفصح لى عن السبب . ولما سألتها عما إذا كانت هناك واقعة غير صحيحة فى المقال أجاب سلبا واقترح على أن أعرض الأمر على عبد الحكيم عامر الذى مالبث بعد أن اطلع على المقال أن أقر كل ما جاء به ووافقنى على نشره ، ثم فاجأنى بقوله إن صلاح سالم كان غاضبا لأن اسمه لم يرد بالمقال . ولما سألتها عما يمكن أن أضمنه مقالى عن دور صلاح سالم فى تلك الليلة فيما كتبت لم يحز جوابا ، وهكذا نُشر المقال . مرة أخرى لم يكن ذنبى أن الظروف وضعتنى فى مكان قيادى ليلة الثورة ، وأن أوامر تنفيذ الثورة فى سلاح الفرسان صدرت بخطى ، لكن يبدو أن ذلك لم يعجب بعض الذين تولوا مقاليد الأمور ، وإذا بوزير الإرشاد القومى يعقد يوم صدور العدد الذى حمل مقالى فى ٢٣ يولية ١٩٥٣ مؤتمراً صحفياً تحدث فيه عن مجلة التحرير ووصفها بأنها لم تعد تعبر عن رأى القوات المسلحة ولا عن رأى مجلس قيادة الثورة . وكان هذا الموقف منه بمثابة إعلان رسمى من الحكومة بسحب ثقتها من مجلة التحرير . وأيد هذا الموقف اجتماع مجلس الثورة الذى قرر أن تصدر المجلة عن دار التحرير وأن تخضع للرقابة<sup>(١)</sup> ، واتضح إذن أن المطلوب هو تغيير سياسة معينة أو تغيير أشخاص معينين يدينون بهذه السياسة . وكان على إما الرضوخ وتنفيذ هذين القرارين أو التخلّى عن مكانى لأن معنى تنفيذها هو أن أغير سياسة آمنت بسلامتها مقابل مجرد الاستمرار ، ولم يكن هذا هدفا يمكن أن أدين به لأنه سيحوّلنى من صاحب رأى وثائر إلى مهادن يسعى فى سبيل البقاء أيا كانت التنازلات التى يقبل بها . ولم يكن أمامى سوى التخلّى عن رئاسة مجلة التحرير على الفور مؤثرا ألا أتحمل مسؤولية تنفيذ هذين القرارين والمهادنة على غير أساس ، فقابلت جمال عبد الناصر فى نفس الليلة محتجا على هذا القرار الشاذ ، غير أنه استمهلنى دون أن يعطينى

إجابة شافية ، مما حدا بي إلى أن أقدم إليه استقالتي من رياسة مجلة التحرير  
كتابة .

ولقد أدهشني حقا ما اجتمع عليه رأى هيئة تحرير مجلة التحرير التي كانت  
تعمل معي ، فإذا الكثرة منهم يقدمون استقالاتهم ، وإذا المجلة أصبحت خالية من  
المحررين مما أوقع مجلس قيادة الثورة في مأزق ، وقصدتُ إلى دار الهلال التي كانت  
تطبع فيها المجلة واستوليتُ على الأصول التي كنا قد أعدناها للعدد التالي . ولم  
يلبث مجلس الثورة أن قرر في اجتماعه التالي تعييني ملحقا عسكريا بالخارج .  
ولما ناقشت هذا الأمر مع خالد محيي الدين عضو مجلس الثورة الذي كان لصلته  
الوطيدة بي مكلفا بأن ينقل عني وإلي قال لي على الفور أن عبد الحكيم عامر أبلغه  
أنه حجز لي منصب الملحق العسكري في برن ، كأنما كان الافتراض قد سبق بأني  
لن أقبل تنفيذ القرارين ، أو كأنما كان هناك قرار ثالث لم يُعلن بإقصائي إلى  
مكان ناء بعد أن أترك مجلة التحرير . على أية حال كان جوابي من غير لَف  
ولادوران أني رجل عسكري ملتزم بما يصدر إلى من أوامر لا يعنيني هذا المكان  
أوذاك .

ومن طريف ما يُذكر بصدد هذا الموضوع ما كتبه الزميل الفاضل مصطفى  
بهجت بدوى عام ١٩٧٧ بصحيفة الأهرام بمناسبة مرور ربع قرن على ظهور مجلة  
التحرير إذ يقول :

« وكانت المشكلة الحقيقية أنك تصدرين رسميا عن إدارة الشؤون العامة للقوات  
المسلحة ، ولكنك في واقع الأمر لست مجلة رسمية بل لك كيانات المستقل المتحرر !  
كانت المشكلة أن الجماهير تتصورك لسان حال الثورة ، ربما كنت على يسار الثورة !  
وعلى هذا الدرب سرت وسرنا لائلوى على شيء . وانضم إلينا بعد قليل الزميل ثروت  
عكاشة فأعطاك طاقة جديدة . وكشف عبد الناصر النقاب لأول مرة عن زعامته  
للثورة بن سطورك ، ثم كتب إليك مقالا ، ولما كانت « الدنيا دنيا » في ذلك الحين  
فقد أبيت أن يكون بغير مقابل كما أبيت أن تجزلي له العطاء فحصل على خمسة  
جنيهاً مخصوما منها التبعة ! وانطلقت فيك صيحة الدكتور طه حسين يندد باستخدام  
تعبير « الانقلاب » أو « الحركة المباركة » أو « النهضة » ويصرّ على أن يحمل  
٢٣ يولييه اسم « ثورة » ، وأهم من ذلك أن يمضى بروح الثورة ! . كيف استطعت أن  
تصدرى وأن تمضى في الصدور ! كيف نجحت واتسع انتشارك إلى درجة إثارة

« الغيرة » لدى مجلات زميلة أرسخ قدما وأطول عمرا ! لم يكن ذلك من أسرار المهنة وإنما كان « سرّ مصر الباتع » وانعكاسا « لقفرة الثورة » .... ثم جاء ٢٣ يولية ٥٣ واحتفلت مصر بالعيد الأول للثورة ، وصدر منك عدد خاص كان له مابعده ! هل تذكرين التحقيق الصحفى العسكرى الطويل الذى كتبه « ثروت عكاشة » فى صدرك بهذه المناسبة ، وأذاع مارآه من وجهة نظره تفاصيل قيام ثورة ٢٣ يولية . لقد رأت فور ذلك أن المسائل يجب أن تصبح أكثر إحكاما ، وأن يولييك مجلس قيادة الثورة اهتماما مباشراً . وصدر قرار بتعيين « ثروت عكاشة ملحقا عسكريا لمصر فى باريس » . وغضب ولم يكن يدرى وهو ينفث عن غضبه — وكان ذلك ممكنا ومتجاوزا عنه بين الزملاء حينذاك — ويهول إلى دار الهلال فيمزق أصول مواد أعدت لعددك التالى و« يستج » رصاصها .. لم يكن يدرى أن ذلك القرار كان يمثل ويطبع منحى التغيير الحاسم فى مجرى حياته ويفتح له آفاق المراكز العليا والدراسات العليا فى منابيحها ليصبح سفيراً ويحصل على الدكتوراه من فرنسا ويؤهل نفسه واستعداده الثقافى الذى أهله ليكون بعد ذلك وزيراً للثقافة .

ولقد خيّل إلى لأول وهلة أن الغرض من هذا كله هو إبعادى عن مجلة التحرير. إرضاء لصالح سالم ، ولكنى تبينت بعد أن الغرض الحقيقى كان هو إبعادى عن سلاح الفرسان لما كان يعلمه مجلس الثورة من منزلة لى فى قلوب ضباط السلاح ، ولما كان يخشاه البعض منهم إذ تصوّروا أنى قد أستعين يوما بهذا السلاح فى جولة من الجولات . ومما يؤكد ظتى أن مجلس الثورة قد أبعد خالد محيى الدين كذلك عن السلاح بعد عدة شهور . ولعل من أهمل إبعادى أيضاً ما أخذ على من توجيه مجلة التحرير تلك الوجهة المستقلة التى لم تطب للبعض كما سبق أن قلت . ولعل ما جاء بمقال الرئيس محمد نجيب فى العدد الصادر من صحيفة « الشرق الأوسط » فى ١٣ فبراير ١٩٨٢ ما يلقى ضوءا خاصا بى وبخالد محيى الدين على هذه الأحداث ، إذ يقول :

« أذكر فى مستهل شهور الثورة الأولى أننى وقعت فى خطأ جسم وسخيف فى نفس الوقت ... كانت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار قد ضمنتى إليها بعد نجاح الثورة وهذا أمر طبيعى ولا يعنى على الإطلاق أننى لم أكن على اتصال بهم قبل ليلة ٢٣ يوليو . فقد كنت حرصت أنا وجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين على ألا يتسرب اسمى كفائد للحركة السرية إلى الخلايا .. حتى يظل التنظيم محتفظا بقدرته على الضرب حتى لو وقعت بعض خلاياه فى شرك مخبرات

الحكومة . وكان من الطبيعي أيضا بعد نجاح الثورة أن أمارس اختصاصاتي كاملة كقائد لها ... ولكن شيئا فشيئا بدأت ألاحظ أنهم كثيراً ما يعقدون اجتماعاتهم بدون دعوتي . فإذا ما علمت بوسائل الخاصة بخبر انعقادهم وذهبت إليهم كفوا فجأة عن حوارهم والتفتوا نحوي في مودة يتساءلون عن اقتراحاتي بمجدول أعمال الاجتماع .. فإذا ما سألتهم عن السبب الأصلي في ذلك الاجتماع قالوا : أبدا والله العظيم .. دا احنا متقابلين بالصدفة علشان نشرب شاي !!

إلى هذا الحد وصل الاستهتار بي . ولكني لم أسئ الظن بهم ، وقدرت في نفسي أنها « حركات شباب » ، وقلت لنفسى إنه الفارق في السن بيننا واحتمال قلقهم من أن تسيطر عليهم شخصيتي ... وقدرت أن شابا هذه حساسيته يجب أن أكون حذرا جدا في التعامل معه حتى لا أستفز مشاعرهم ...

وقادني هذا الحذر كما قلت لك منذ قليل الى خطأ صاعق . خطأ ثقيل الدم ... لا أدري كيف وقعت فيه .. فقد حدث ذات يوم .. أن جاء من همس في أذني بأن خالد محيي الدين وثروت عكاشة غير راضين عن أسلوب عبد الناصر في « التكويش » - أى الهيمنة - على السلطة ، واستثارة بالتصرف في أمور الحكم ، الى حد انتزاعه تفويضه بالتصرف من زملائه أعضاء مجلس القيادة في حالة عدم انعقاد مجلسهم ... وكان معنى هذا التفويض جعلى شخصيا - أنا محمد نجيب - مجرد صفر على الشمال بأسلوب قانوني ومنطقي ، إذ كان جال قادراً على إملاء ما يريد ، بحجة تفويضه ، ما دام المجلس في حالة عدم انعقاد ...

واستطرد صاحب المهمة ، وهو شخصية هامة ما زالت على قيد الحياة ، فقال لي إن خالد وثروت يطلبان مني أن أعتمد عليها في شدة أزرى في الكبح من سلطات جمال عبد الناصر وحرية في الحركة ...

أقول الحق .. لعب الفار في عبي .

خفت أن يكون صاحب المهمة ، بالتعاون مع خالد محيي الدين وثروت عكاشة ، يستدرجوننى الى ما قد يفسر على أنه انقضا على مجلس الثورة ، وخيانة لتحالفنا جميعا .. ولم أكن قد نسيت بعد أننا كنا قد فعلنا نفس الشيء مع رشاد مهنا زميلنا الذى عيناه في مجلس الوصاية على العرش ثم عزلناه لما لاحظنا أنه بدأ يتصرف كحاكم وليس كناظر ... ثم دسنا عليه من سجل عليه تحريضا على الانقلاب .. وأخذناه بحرية تسجيله وأحلناه الى المحاكمة ..

ولم أنس أيضاً أن المجلس فعل نفس الشيء مع حسنى الدمهورى إذ دس عليه ضابطاً سجل عليه ما اعتبرناه تأمرًا ، وشكّلت محكمة من أعضاء المجلس لحاكمته برئاسة عبد الناصر قضت عليه بالإعدام . ورفضت التصديق على الحكم .

ولم أنس .. ولم أنس .. ولم أنس .. عشرات الحوادث المماثلة . وكلها كانت ذات « سيناريو » واحد : ضابط يتظاهر بالتذمر ... ويحرض ضابطاً آخر متذمراً فعلاً ، ويترك له قتل الجبل الذى يشق به نفسه بنفسه ...

خفت أن يكون من همس فى أذنى بمؤازرة خالد محبى الدين وثروت عكاشة ضالماً معها فى الإيقاع بى ... وخفت أن أسكت على هذه المهمة فأكون كمن « علم ولم يبلغ » ، والعلم بالجريمة مع عدم التبليغ عنها جريمة خطيرة فى العرف العسكرى تستوى تماماً مع التحريض ... ولذلك قررت أن أقطع الخط على هذا الدس ... وطلبت عقد مجلس الثورة ... وفجرت القصة كلها ، على أساس أن المجلس هو الذى دس على الهامس وخالد وثروت ...

واكتشفت من ردود الفعل عند أولادى الضباط أنهم كانوا يجهلون تماماً القصة كلها ... وأنتى قمت بل تورطت بالتبليغ عن خالد وثروت دون أن أدري ... وخسرت خالد وثروت ولوالى حين . وشاعت القصة كلها فأبعدت كثيراً من الضباط عنى .

كان خطأ استراتيجياً لم أسمع بأسخف منه فى حياتى » (١٥) .

وفى يقينى الآن أن بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة قد استقر فى أذهانهم منذ تلك اللحظة أن وجود كل منا - خالد محبى الدين وأنا - فى سلاح الفرسان يشكّل خطراً ينبغى التخلص منه ، لاختلاف وجهات نظرهم عن وجهات نظرنا حول شكل الحكم الذى يجب أن يُطبّق بعد نجاح الثورة ، ولعلمهم أيضاً قد توجّسوا خيفة من أن يتطور هذا الخلاف إلى استعمال العنف لفرض آرائنا على مجلس الثورة استناداً إلى قوة سلاح الفرسان . ولهذا ظلّوا يترقبون الفرصة إلى أن سنحت ، فإذا هم يجدونها فى مقالى الأخير بمجلة التحرير فاتخذوه ذريعة ليحملونى على تقديم استقالتي ، وذلك بإخضاع مجلة التحرير للرقابة وهم يعلمون حق العلم أنى لن أرضى هذا بحال . فقلقد تقبّلت رياستي لتحرير مجلة التحرير على شرط أن تكون حرة بعيدة عن الرقابة ، فلم أكن دون أحدهم شأنًا إن لم أزد ، كما أنه كان

لى وازع من ضخميرى يكفى لأن أكون واعيا للحفاظ على الثورة مهما وقع بين القائلين بها من خلافات فى رأى . ويؤيد هذا اليقين أنهم لم يكتفوا بتقديم استقالتي وإبعادى عن رئاسة تحرير المجلة بل رأوا فى وجودى بمصر بين إخوانى فى سلاح الفرسان ماقد يزعجهم ويثير قلقهم . لهذا قرر مجلس قيادة الثورة— على غير رضا منى— إبعادى عن مصر إلى الخارج .

وشاع وتضخم ما كان بينى وبين صلاح سالم من خلاف حول شئون مجلة التحرير الذى انتهى الأمر فيه إلى صدور أمر بنقلى إلى خارج مصر، وهوما أثار زملائى من ضباط سلاح الفرسان . وجاءتنى جماعة منهم يطلبون التى ألا أغادر البلد وألا أنفذ أمر النقل ، فقد عزّ عليهم أن يتدخل صلاح سالم وهومن خارج السلاح فى أمور تمس السلاح ، وعزّ عليهم أن يؤخذوا على غرة ويُنال من قائد من قاداته ، فاجتمعوا وناقشوا الأمر فيما بينهم ، وانتهوا إلى أنه إذا كنت قد أخطأت فلا تحاسب على خطئى ولا تحاكم عسكريا ، وأنهم سوف يرضخون لما تفسر عنه المحاكمة . أما أن أُنزع من مكاني دون إبداء أسباب فليس من كرامة السلاح أن يؤخذ رجاله عسفا .

وأذكر أن نفراً منهم حاولوا أن يقوموا بتصرف إيجابى ثائر تعبيراً عما يشعرون به نحوى ، فرددتهم إلى وعيهم ، حرصا منى على أن تمضى أمور الثورة فى سلام إلى أن تنتهى إلى غايتها التى ننشدها جميعا سواء كنت هنا أم هناك ، وقررت مغادرة القاهرة إلى الإسكندرية إلى حين . وإذا بأحد هؤلاء الضباط يُفصى بما دار لزميل له من غير الضباط الأحرار أخبّ أن يركب الموجة مستغلاً هذه المعلومة فانتقل إلى الإسكندرية على الفور لمقابلة جمال عبدالناصر يبلغه بما حدث فى السلاح . وإذا عبدالناصر يستدعى أحد ضباط سلاح الفرسان [ الملازم أحمد على المصرى ] بعد أن دلّه على محل إقامتى فى الإسكندرية ليتعرّف على نواياى . غير أن هذا الضابط الكريم عاد إلى عبدالناصر يبلغه بعد أن قابلنى بحقيقة موقفى ، وهو توجيه النصيح إلى الضباط بعدم التورط فى أية خطوة من شأنها الإساءة إلى الثورة .

وبعد هذا طلب ضباط الفرسان من مجلس قيادة الثورة أن يوفد إليهم أحد أعضائه لمناقشته فى أمرى . وكان حواراً بينهم وبينه سألوه فيه عن سبب خروجى من سلاح الفرسان رافضين بشدة أن أُنحى دون سبب أو أن يتدخل من ليس من

سلاح الفرسان في أمور السلاح . ولقد حاول عضو مجلس القيادة أن يبرّر هذه التنحية بأسباب لم يقتنع بها الضباط ، ومن الجائز أنه فيما صدر عنه كان مقيدا برأى مجلس الثورة . غير أن الضباط قالوا له فيما قالوا : إذا كان هذا هو نصيب الرجل الثاني في سلاح الفرسان فإذا سيكون نصيبهم هم بعد ذلك ؟ كانت الأمور في سلاح الفرسان تجري من سيء إلى أسوأ ، وأخذ الضباط يهدّدون ويتوعّدون ، فوجدت أن بقائى بمصر سيزيد الأمور بلبلة ، فاعتزمت الرحيل حرصا منى كما قلت على أن تمضى الأمور بسلام . وانتهت الأزمة بأن خلفت موقعى إلى منصبى الجديد ببرن تاركا سلاح الفرسان ومجلة التحرير ، مؤمنا بأن مجال العمل فى الخدمة العامة أوسع من أن يُحدّد بمكان بعينه أو وظيفة بذاتها ، وتمنيت لكل الزملاء الذين ألقيت على أكتافهم مسئولية العمل فى سبيل تحقيق أهداف الثورة كل نجاح وتوفيق . وكم من حدثٍ خطير يمرّ بالمرء كخطفة البصر يمتد أثره حياته كلها .

وإذ كنت قد غادرت الوطن فى شهر سبتمبر ١٩٥٣ أكون قد قضيت بمصر عاما واحداً بعد قيام الثورة . وقبل أن أمضى فى الحديث عما كان بعد هذا العام أحب أن أوجز الحديث عن ذلك العام الذى قضيته . فلقد واكبت خلاله تثبيت أقدام الثورة وذلك الصراع بينها وبين طبقة كبار الملاك ثم صدور قانون الإصلاح الزراعى وإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية وتطهير مؤسسات الدولة عامة وفرض الرقابة على الصحف ومطالبة الأحزاب بتطهير نفسها ، وإلغاء الرتب والألقاب . ثم ما كان من مواجهة بين الأحزاب السياسية والثورة فى ١٦ يناير ٥٣ انتهت بحلّ الأحزاب حماية للوحدة الوطنية وإلغاء الدستور وتشكيل لجنة من خمسين عضواً من عناصر مختلفة من رجال القانون وغيرهم من طوائف أخرى ، وإعلان فترة الانتقال لمدة سنوات ثلاث . ثم ما كان أخيراً من مفاوضات بين مصر وبريطانيا لتحقيق الاستقلال السياسى فى نفس الوقت الذى كان الفدائيون يواصلون فيه عملياتهم ضد القوات البريطانية بمنطقة القنال .

ولعل من بين تلك الأحداث التى عاصرتها حادثة سلاح المدفعية ومحاكمة بعض ضباطه الأحرار فى يناير ١٩٥٣ . وعندى أن هذه كانت البداية لتصديق الرأى القائل بأن الثورات تأكل أبناءها ، فلقد أنهى مجلس قيادة الثورة إلينا فى سلاح الفرسان وإلى غيرنا من أسلحة الجيش بأن ثمة انقلابا دبره سلاح المدفعية



بإيعاز من بعض ضباطه الأحرار . وكان طبيعياً ألا ينفذ سلاح الفرسان . أو غيره من الأسلحة إلى جانب سلاح المدفعية مخافة أن يجبر هذا إلى خلافات واسعة النطاق في صفوف الثورة . غير أنه بعدما اتضحت الحقيقة وبأن لنا جميعاً سرّ هذا الحدث ، وأنه كان مجرد اعتراض من ضباط المدفعية على انحراف قلة من أعضاء مجلس قيادة الثورة عن المسار والمطالبة بأن يكون ممثلو أسلحة الجيش في مجلس قيادة الثورة انتخاباً لا تعييناً ، لاسيما أن مجلس قيادة الثورة لم يتألف أول ماتألف بطريقة ديمقراطية بل كان أمر تشكيله إلى جمال عبدالناصر ، مما حدا بالألئنة هنا وهناك أن تشيع عن هذه القلة ما يشين ... وعندما اتضح لنا هذا كله ، كان لمانال هؤلاء الرفاق أسى كبيراً في نفوسنا وشاركناهم الإحساس ذاته . وجاء في إثر هذا اتهام مجلس قيادة الثورة للبكباشى حسنى الهمهورى على اعتراضه على ملحق ضباط المدفعية فإذا هو يُحال إلى المحاكمة ويحكم عليه بالإعدام ثم يخفف الحكم إلى السجن .

وعندى أن هذه الإجراءات العنيفة كانت من غير شك تُهدّد لتُذر خطيرة ستأتى بها الأيام من صراع بين القوى المختلفة فى الرأى ، إذ كان ثمة فريق ينادى بالديمقراطية وفريق آخر ينادى بالحكم المطلق . وكان مظهر هذا ما جدّ بعد من استقالة اللواء محمد نجيب فى ٢٣ فبراير ١٩٥٤ ، ثم أزمة الصراع على السلطة المعروفة باسم أزمة مارس ١٩٥٤ ، ثم حملة الاعتقالات لجماعة الإخوان المسلمين ، ثم مطالعة الشعب بمحاكم ثورية مختلفة الأسماء والأغراض ، إلى أن انتهى الأمر يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ بعزل الرئيس نجيب ، ثم ذلك القرار الذى صدر باعتقاله وهوّ من هوّ نبلا وشجاعة . هذا إلى أن هذا المسلك كان أمراً لا يجوز مثله بين رفقاء المسيرة والسلاح ، وكان من اليسير أن يعالج بغير ذلك الأسلوب القاسى . وشتان بين ما عومل به فاروق الملك المخلوع من إكرام وتبجيل يوم مغادرته البلاد فى السادس والعشرين من يوليه ١٩٥٢ وبين ما عومل به شريك جليل كان فى مقدمة الثائرين فى الرابع عشر من نوفمبر ١٩٥٤ . لقد انتقلت الثورة بعد نحو من عامين من طور إلى طور .

وكان هذا كله نتاج « السلطة الموزعة » التى كان يتناوبها أعضاء مجلس قيادة الثورة والتى صاحبت الثورة منذ مطلعها ، كما كان خاتمة للدور السياسى الذى

اضطلعت به « الطبقة الوسطى الكبيرة » بآمالها وتطلعاتها ، وكذا كان تغييرا لبعض أسس المجتمع المصرى على يد « الطبقة الوسطى الصغيرة » التى كان منها أغلب رجال الثورة . كذلك ظهرت من جديد فكرة « المستبد العادل » الذى

لا يعوق قراراته معوق ما ، وهى النظرية التى نادى بها توفيق الحكيم فى كتابه « عودة الروح » حين أشاد « بالزعيم المعبود » وترقب مصر له ، فسأيرت فكرة فكرة : فكرة الزعيم المعبود وفكرة مركزية السلطة ، لا سيما بعد ما أنهر الناس بما رأوا من تغيرات خاطفة قاطعة وإصلاحات جليلة جريئة ما كانوا يتوقعونها على تلك الصورة الحاسمة السريعة لولا تركّز السلطة فى يد واثقة .

وهمنى فى هذا المقام أن أشير إشارة عابرة إلى الدور الوطنى البطولى الذى قام به ضباط سلاح الفرسان الأحرار فى ليلة ٢٦/٢٧ فبراير ١٩٥٤ — وفى مقدمتهم الأخوة أحمد المصرى ومحمود حجازى وصبرى القاضى وأحمد حمودة وفاروق الأنصارى ورفاقهم الأعضاء — حين طالبوا بضرورة عودة الحياة الديمقراطية وتخلّى القيادة العسكرية عن السلطة ، وحاجتوا عبد الناصر فأقنعوه بقبول مطالبهم ووضعها موضع التنفيذ دون لجوء إلى القوة وكانت تحت أيديهم ، ومن ثم صدر قرار مجلس الثورة بتحقيق هذه المطالب . وأشهد هنا أن معرفتى الوثيقة بهؤلاء الرفاق الشرفاء سواء قبل الثورة أو ليلتها أو بعدها تحتم على أن أذكر لهم وطنيتهم الصادقة وشجاعتهم الأدبية وظهرهم النادر ونقاءهم الثورى ، وأن ما قاموا به كان عن اقتناع تام بالديمقراطية وليس كما يزعم البعض أنه نتيجة مخطط شيوعى أو تطلعا إلى اعتلاء السلطة كما يزعم البعض الآخر . وهم فيما فعلوا قد كشفوا لنا جميعا عن أن خروجهم فى ليلة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ وهم يحملون رءوسهم على أكفهم لتحقيق المبادئ الستة المعروفة ومن أهمها إقامة حياة ديمقراطية سليمة ، كانوا ليلة ٢٧ فبراير ١٩٥٤ صادقين مع أنفسهم لأنهم كانوا ينطلقون من نفس المنطلق البرىء . فلقد كان هذا رأى تيارا جارفا يسرى فى نفوس الضباط الأحرار فى سلاح الفرسان عن بكرة أبيهم منذ قيام الثورة حتى انتهوا إلى تلك النهاية المؤسفة التى لحقت بهم وضُرب بمطالبهم الوطنية عرض الحائط . وأقول إن مطالبهم لو كانت قد تحققت لتغير مسار الثورة إلى ما فيه خير الوطن وخير الثورة ، ولتنكبت

مصر ما تعشّرت فيه فيما بعد من كبوات ما كان أغناها عنها لو استمسك أعضاء مجلس قيادة الثورة بالقرارات الحكيمة التي عرضها عليهم الزعيم جمال عبدالناصر تلك الليلة بعد اقتناعه بصحة رأى تلك الصفوة من ضباط الفرسان ، ولم يذعنوا لرأى فريق آخر من الضباط من خارج مجلس الثورة كانوا يؤثرون الحكم

العسكري على الحكم الديمقراطي . إنى لأجل في إكبار موقف تلك النخبة من ضباط سلاح الفرسان في تلك الليلة المجيدة التي كم كنت أتمنى لو كنت حاضرها لأشاركهم شرف مانالوا فقد كنت وقتذاك ملحقا عسكريا بباريس . وكنت أرجو أن أسجل هنا مأثقل إلى سماعا غير أنى أوثر أن أترك ذلك لمن شارك مشاركة فعلية في هذا الحدث الوطنى حتى تكون الصورة صادقة واضحة . ولا يضير هؤلاء الضباط ما انتهوا إليه من هزيمة وإهدار لقضيتهم ، فحسبهم أنهم التزموا فيما قاموا به بمبادئ الشرف والفروسية . وعندى أنه بغد أن تخلص مجلس قيادة الثورة من هؤلاء الذين عارضوه من الضباط الأحرار في شتى أسلحة الجيش ، يكون بذلك قد قضى على من عمرت قلوبهم بالمعانى الطاهرة للثورة ، ولم يعد يسانده غير نذير من المخلصين وكثرة غالبية من الانتهازيين ذوى الأطماع الذاتية التى جرّت على مصر أهوالا ما كان أغناها عنها ، وهكذا مايكاد رهط من أصحاب المشاعر النبيلة يشعلون ثورة إنسانية حتى يقصّهم تيار الانتهازيين الجارف ... فإذا هم ضحاياها !

\* \* \*

ولن أنسى ماحييت نبل مشاعر إخوانى ضباط سلاح الفرسان الذى تجلّى ليلة خفّوا إلى وداعى بمطار القاهرة وأنا مسافر إلى سويسرا فى أحد أيام شهر سبتمبر ١٩٥٣ فى مظاهرة وديّة حافلة ، ولسوف يبقى أثر هذه اللقطة عميقا فى نفسى أذكرها لهم بكل تقدير وعرفان ، وما كان آلم لنفسى من هذا الفراق ، فراق الوطن دون مبرّر .

كانت تلك الواقعة نقطة تحول فى حياتى ، وكنت عندها فى الثانية والثلاثين من عمرى ، ولم أك صادفت فى تلك السنين التى خلّت مثل هذا

الذى وقع . لقد أحسستُ هزّةً تنفذ إلى أعماق وجداني ، إذ هالني أن يتخذ مني جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر هذا الموقف المستغرب منهما على طول ما كان بيننا من ترابط وثقة متبادلة ، وبخاصة وأنني لم أر خطأ في شيء فعلته أو تجاوزا في مقال كتبتّه . ومما ضاعف ألمي أن أحدا منهما لم يحاول أن يتصل بي قبل سفرى ليقول لى كلمة وداع تطيب بها نفسي وتمحو أثر ما كان . وعلى الرغم من أنني لم أكن وقتذاك على معرفة بكل الدوافع وراء قرار إقصائي إلى هذا الموقع البعيد ، فقد كنت أحس أن هناك سراّ تحرج الصديقان أن يصارحاني به ، أو أنه كان من الحكمة أن يخفياه عني فتسرّ بلا أمانى بالصمت ، ولعل وراء صمتهما أن يكون ثمة قرار على وشك أن يتخذ ويعلم الصديقان أنني لن أرحب به ، ولعله كان ضرورة لإرضاء جناح من الأجنحة أو لإحداث تغيير ما ، والقرارات السياسية لا يُنظر فيها إلى صلات أخرى من صداقات أو ودّ . وبهذا التصوّر لم تملك المرارة التي غشت روحي أن تمتد إلى مكانة هذين الصديقين في نفسي ، فلقد ظلت ثقتي بهما وبوطنيتهما لا تتزعزع ، كما أن الأيام قضت لى أن أغتنم هذه الفرصة فأفيد مما حولى إفادة لم أفدها من قبل ولا من بعد في مجالات شتى .

وقد كانت رحلتي هذه بداية سنوات خمس ظللت فيها بمنأى عن المشاركة في أحداث كبرى جرت في الوطن مما لم يُتَح لى أن أشهدها عن قرب فأسجل شهادة شخصية عنها . وهكذا لن أتعرض في هذا الكتاب لشيء مما حدث خلال هذه السنوات التي غبتها عن مصر ، إذ أنني أؤمن أن شهادة لها قيمتها ينبغي أن تكون صادرة عن علم قائم على المشاهدة أو المشاركة ، وإن كثرت سأعرض لأحداث في أوروبا عايشتها وكان لبعضها تأثير مباشر على مسيرة الوطن .

( ١ ) أنتمى لأسرة ذات أصول ريفية نزحت إلى القاهرة منذ مطلع القرن الحالى . وكان جدى لأبى عمدة لبلدة الطرفاية بالبدرشين ، وكان أبى ضابطا بالجيش حتى تقاعد برتبة اللواء ، كما كان جدى لأمى ضابطا بالجيش تقاعد برتبة أميرالاي .

( ٢ ) Major - General J . F . C . Fuller : *Machine Warfare . Eyre and Spottiswoode Publishers London 1941 .*

( ٣ ) Henry C . Link : *The Return to Religion . Macmillan Company . New York 1959 .*

( ٤ ) الفلسطينيون القدامى Philistines شعب وفد من كريت واحتل الجزء الجنوبي من فلسطين خلال القرن الثانى عشر قبل الميلاد . وظهر اسم الفلسطينيين لأول مرة فى الحوليات المصرية خلال موجة الغزو الثانية « لشعوب البحر » الذين حاولوا غزو مصر خلال السنة الثامنة من حكم رمسيس الثالث ( ١١٩٠ ق . م ) بعد أن اجتاحتها آسيا الصغرى وقبرص وسوريا ، فردهم المصريون على أعقابهم وتركوا لهم الترابط الساحلى لفلسطين يحتلونه . وكانت بلادهم تسمى فيلسطيا إلى أن أطلق اليونان على المنطقة اسم فلسطين . غير أن قدم المهاجرين من بنى اسرائيل الذين وفدوا على المنطقة بعد قرون عدة ما لبث أن أجبج الصراع بين الفلسطينيين والاسرائيليين .

( ٥ ) General Heinz Guderian : *Panzer Leader . Michael Joseph Limited , London 1952 .*

( ٦ ) من الإنصاف أنؤكد أن اللواء محمد نجيب لم يفض إلى شقيقه بأية معلومات عن الحركة أو عن الضباط الأحرار .

( ٧ ) وردت بهذا الكتاب وقائع غير دقيقة نشرتُ تصحيحا لها فى نهاية المذكرات .

( ٨ ) صحف المصرى والإخوان المسلمون ومصر الفتاة والجمهور المصرى وغيرها .

( ٩ ) العدد الثامن فى ٣١ ديسمبر ١٩٥٢ .

( ١٠ ) العدد السادس أول ديسمبر ١٩٥٢ والعدد السابع فى ١٧ ديسمبر ١٩٥٢ والعدد الحادى عشر فى ١١ فبراير ١٩٥٣ .

( ١١ ) العدد العاشر فى ٢٨ يناير ١٩٥٣ .

( ١٢ ) العدد الرابع عشر فى ٢٥ مارس ١٩٥٣ .

( ١٣ ) فى لحظة مصارحة بين زميلين ذكرلى للرحوم صلاح سالم أن بعض كبار الصحفيين بمؤسسة أخبار اليوم قد جاءوه شاكين المقال الذى ظهر بمجلة التحرير ، وأنهم عندما عرضوا عليه المقال مر عليه مروراً عابراً ثم طوَّح بالمجلة جانباً دون أن يعلق بشيء ، لأنه أدرك على الفور أن مقصدهم هو الوقعة بينى وبينه واقترع صراع هو فى الحقيقة غير قائم . ولم أغادر مجلسى معه حتى اقتنع بأن ما جاء بالمقال لا يعتر به الشك ولا يشوبه تزيف ، وأن ثمة أخطاء وقعت فى معركة القتال لم ينكرها المقال ، كما أن ثمة بطولات وأجساداً يحاول بعض الصحفيين طمسها .

( ١٤ ) جاء بصفحة ٢١٦ من كتاب اللواء محمد نجيب « كنت رئيساً لمصر » . المكتب المصرى الحديث . سبتمبر ١٩٨٤ مائه : « كان ثروت عكاشة قد كتب مقالا فى مجلة التحرير عن الخطة التى تفقدت فى ٢٣ يولية بمناسبة مرور العام الأول على الثورة ذكر فيه ما يعرفه عن الخطة ولم يذكر شيئاً عن صلاح سالم الذى كان وزيراً للإرشاد فى ذلك الوقت . واعتبر صلاح سالم ذلك تعريضا به وأصر على إخراج ثروت عكاشة من المجلة وهو الذى قام بدور بارز مع زملائه ضباط الفرسان فى الحركة . البعض منهم كان فى العريش . صلاح سالم وهما سالم ... الخ » .

( ١٥ ) سجل اللواء محمد نجيب هذه الواقعة أيضا فى كتابه « كنت رئيساً لمصر » بصفحتى ٢٠٨ و ٢٠٩ المكتب المصرى الحديث . سبتمبر ١٩٨٤ .



## الفصل الثاني

# تجربتي ملحقاً عسكرياً





# شهور في سويسرا

بدأت عملي ملحقا عسكريا بسفارتنا في برن بإنشاء أول مكتب للمحق  
عسكري بسويسرا، فإذا بي على عتبة فترة من أخصب فترات حياتي، جرى فيها  
أول لقاء بيني وبين أوروبا وأخذت أنعم بالتعرف على معالم ومشاهد سرعان  
ماصارت تمثل لي رصيذا ثرا من المعارف والذكريات، وغدت تلك المرحلة بمثابة  
البلمة للجرح الذي عانيت منه قبيل مغادرتي القاهرة.

وقد هيبأ جو مدينة برن وهدوؤها راحة لأعصابي. وهدأة لعقلي فعادت إلي  
سكينتي لاسيا بعد أن أخذت أتأسى بقول جبران خليل جبران ذلك الشاعر  
اللبناني المهاجر الذي فُتنت به منذ صباي: «إن الألم الذي يكُم هو أن يتفق  
السُّر الذي يحيط بإدراككم؛ فكما أن نواة الثمرة تتفق لتكشف قلبها للشمس،  
كذلك الألم لا مناص لكم من أن تجربوه. ولو استطعت أن تجعل قلبك يتהל دائما  
للمعجائب التي تتكشف لك كل يوم، لرأيت أن آلامك لا تقل روعة عن أفراحك،

ولرخصيت بالأطوار التى تستتاب قلبك كما ترضى دائما بالفصول تتعاقب على  
حقلك ، ولوقفت رابط الجأش ترقب شتاء أحزانك .

وما لبثت أن استغرقت إلى جانب عملى الجديد فى عالم الموسيقى وعُدت  
إلى تأملاتى الطويلة عن جبران ، الذى كانت أفكاره ونظراته فيما وراء الطبيعة  
تمنحانه سكينه نفسية فى وحدته بالمهجر ، فانكبت على مراجعة أعماله  
والارتشاف من مشاعره الرومانسية التى تشيع بالحسية والروحية معا عن  
المحبة ، حيث يختلط المفهوم الإلهى لديه اختلاطا شاعريا بالحب الجسدى  
فى تعاقب مع النغم الذى يصل إلى حد الغنائية وجيشان الوجدان . كان اللحن  
والنغم يملآن على وجدانى ولا ينفكان عنه ، كما كانا ملاذاً ألوذ به حين أخلو  
إلى نفسى ، وهكذا يظل اللحن والنغم مفزعا للناس جميعا يفرون إليه من  
الحياة المادية التى تغشاهم بأثقالها وهمومها . كانت الموسيقى تنسج لى  
بأنغامها الحانية عشا من الغبطة العلوية التى يحرم من الارتقاء إليها من ينساق  
فى غمار الحياة ويقع فى إسارها . ولعل أنغام ريتشارد فاغنر بما انطوت عليه  
من اتساق مُبهر ونشوة غامرة هى التى كانت تشارك فكر جبران فى بث  
السكينة فى روعى ، فتصطحبنى همسات فاغنر : « يا ليل الحب المدلهم ،  
اغمر جسدى ، واسكب فى وجدانى النسيان الأعظم » .

وأخذت أيامى فى سويسرا تنساب هادئة صافية ، وأنست كثيراً إلى سلوك  
القوم وأدبهم وأعرافهم ، ووجدت أسرة السفارة المصرية رقيقة الحاشية فأحاطتنى  
وذوى بالرعاية والترحيب . وبقدر ما كنت أخطو فى مدينة برن مثقلا بفكرة مسبقة  
عن الملل الذى سيطر على شأن معظم الأجانب المقيمين فيها ، كان هذا الطوق  
ينفك شيئا فشيئا لتحضننى راحة سكون ينفص عني هموم أحداث ثقال متعاقبة  
حملتها مع بدايات الثورة . ومضت الشهور الخمسة لى فيها وأنا أنعم بالتطلع إلى  
معالمها البارزة لاسيا نافوراتها البديعة وبواكيا الخفيضة السقوف فى طرقاتها  
الرئيسية ، وبيوتها المستمة البديعة العتيقة الطراز ، وساعتها الموسيقية الشهيرة  
المقامة منذ القرن السادس عشر فوق برج بوابة المدينة القديمة التى تشد أنظار المارة  
بشرقتها التى تنشق عن دمي تحملن فى أيديهن مطارق تدق مؤذنة بالأوقات .

وقد أتيت لي خلال إقامتي القصيرة بسويسرا أن أشارك شأن غيري من  
 المسلحين العسكريين في مناورتين حربيتين أفدتُ منها الكثير، وبخاصة في مجال  
 عملي الذي كان ينحصر في الإشراف على توريد الأسلحة المتعاقد عليها وتجريبها  
 وتدريبشون تدريب ضباطنا على استخدام هذه الأسلحة ومتابعة كل ما هو جديد  
 سواء في مجال تطور الأسلحة أو الفن العسكري . ولم يكدم شهران على وجودي  
 حتى لاحظتني القاهرة بضرورة الحصول على قدر معين من أجهزة وقطع غيار  
 لاغنى عنها لتشغيل أسلحة الدفاع الجوي الصاروخية ، فإذا بي ألقى  
 صغوبات هائلة أخطرها تحريم الحكومة الفيدرالية تصدير هذا النوع من  
 المعدات الحربي إلى الشرق الأوسط . وذهبت محاولتي في إيجاد مخرج  
 رسمي سُدى فقصدت زيورخ للقاء مدير الشركة المنتجة ،  
 وأحس الرجل ما وقع فيه من حرج يحول بينه وبين الاستجابة لطبي فدعاني إلى  
 العشاء ليلتها بقاعة الطعام في فندق ستورخن حيث كنت أقيم . ومنذ اللحظة  
 الأولى ساد جو من الفتور جعلني أتعجل مغادرة المكان ، وأغلب ظني أن نفس  
 الشعور كان يراود مضيفي ، وإن حاول كل منا التظاهر بغير ذلك . ومع اقتراب  
 منتصف الليل وتقدم الساقى إلينا بأقداح القهوة أخذت الموسيقى الخفيفة التي  
 كانت تتسلل إلى آذاننا من مكبرات الصوت المثبتة بالجدران على هيئة أذان آدمية  
 تنتقل إلى لحن جاد. مثير ، فإذا أنا أهتف دون أن أشعر: رَكْبَةُ الفالكيرات ! وإذا  
 الصمت الجاثم على مجلسنا ينقشع والحديث يمتد بيننا بغير حدود عن مؤلفات  
 ريتشارد فاغنر وجوستاف مالر وريتشارد شتراوس ، ويتكشف لنا تألف في  
 الذوق الموسيقي وإعجاب مشترك بنفس العباقرة ، وانتقل الحديث إلى مافي حوزة  
 كلينا من تسجيلات موسيقية أخذنا نقارن بينها إلى أن أطفأ السقا معظم الأضواء  
 لإشعارنا بأن موعد الإغلاق قد أوفى وأن لنا أن نصرف . وقبل أن يودعني دعاني  
 إلى تناول العشاء ليلة الأحد بداره في الجبل ، واتفقنا على أن يرسل لي سائقه  
 ليقودني إليه بعد ظهر اليوم التالي .

وكان أثناء حديثه عن مقتنياته الموسيقية قد أشار إلى عمل موسيقى مسجل  
 تسجيل نادراً (١) تصادف أنى كنت أفتنيه ، فاتصلت بزوجتي إثر مغادرتي  
 المطعم لإرسال هذا التسجيل بقطار الصباح مع ساعي المكتب ، وذهبت أحمله إليه

مساء اليوم ، فإذا بزوجته ترحب بى فى مستهل الأمسية بعزف مقطوعة لشوبر على  
القيولينه يصاحبها زوجها على البيانو. وحين أخذنا يستعرضان أمامى مجموعة  
تسجيلاتها أهديتها الأسطوانة الفريدة فأشرقت البهجة على وجهيهما وبادرا بإدارتها  
قبل تناول العشاء .

وبينما كنا على المائدة إذا بى أشرذ قليلا ، وقد خالجنى شعور بتأنيب الضمير  
لركونى إلى هذه الرفقة الممتعة فى الوقت الذى عجزت فيه عن تحقيق الهدف الذى  
جئت من أجله إلى زيورخ ، والذى تنتظر القاهرة تحقيقه بأسرع مايمكن ، حتى إذا  
لاحظ مضيفى شرودى تسأل عن سببه ، فأخفيتُ ماينفسى وحدثته عن أسفى  
على ضياع فرصة مشاهدة عرض أوبرا « فيديليو » الذى كان مقررا أن يقدمه  
هربرت فون كارايان مساء الاثنين التالى لنفاذ التذاكر كلها وعجز الفندق عن  
تدبير مقعد لى . فابتسم مضيفى قائلا وكأنما كشف بحدسه الصادق عما كان يحول  
بذهنى : لاأعتقد أن هذا سبب شروذك فأنا أدريه ، وموعدا صباح الغد كى  
نطرق هذا الموضوع وسنجد له يقينا حلاً يرضيك .

أحسست ساعتها بقلبى يقفز فرحا فى صدرى ، وحين ودّعنى عند الباب  
كانت زوجته قد غابت لحظة بهمسة منه وعادت بعدها بمظروف أسلمه لى  
قائلا : هاك تذكرك فى حفل « فيديليو » مساء الاثنين القادم ، وسيكون  
مجلسك إلى جوارى . غير أننى اعترضت لحرمانه زوجته من الاستمتاع بهذا  
الحفل ، لكنه طمأننى إلى أن زوجته ستحضر الحفل بصحبة صديقتها Her  
boy friend فقبلت العرض وشكرته مُخفيا دهشتى من عبارته .

وفى اليوم التالى أدركت سحر مثل هذه العلاقات الإنسانية وهويمس لى  
خلال زيارته لى بالفندق باستعداده لتدبير الأجهزة التى تريدها القاهرة بشرط  
أن أتكفل بتسليمها شخصيا من مقر الشركة بعد انتهاء العمل اليومى وأنقلها داخل  
عدد من الحقائق الدبلوماسية تتسع للكمية المطلوبة من الأجهزة ، على أن تتحمل  
السفارة مسؤولية نقلها والعبورها خارج الحدود .

وكم كنت سعيدا وأنا أشهد معه فى مساء الاثنين حفل الكونسير ، وقد أشار  
لى نحوزوجته بين مجموعة من المتفرجين فوق خشبة المسرح وراء الأوركسترا وهى

في صحبة صديقها . ونظرت فإذا هي مفاجأة لى أن يكون ذلك الصديق شيخا طاعنا في السن ذالحية كثة بيضاء ، وعرفت أنه الأستاذ الذى تدرس على يديه الكمان . وظهرفون كارايان ، وبعد انتهاء التصفيق المؤلف المصاحب لظهوره طلب من المشاهدين عدم مقاطعة الأداء بالتصفيق بين الفصول ، إذ سيؤدى الأوبرا متتابعة دون توقف ، ثم استدار موجهاً العازفين والمغنين . وعلمت فيما بعد من زوجة مضيفى أنه أغمض عينيه ولم يفرج بين جفنيه حتى فرغ من قيادة الأوبرا التى عُزفت بأداء السوليست والكورال لا الأداء الدرامى ، وكانت ليلة مأثورة لا تغيب ذكرها .

عدت على الفور إلى برن وأبرقت للقاهرة للإسراع بإرسال اثنتى عشرة حقيبة دبلوماسية فارغة كبيرة الحجم نسبيا على وجه السرعة ، وما لبثت أن وصلتني ، فاستفسرت عن مواعيد السفن التجارية المصرية التى تُبحر من جنوا أقرب ميناء لسويسرا إلى الإسكندرية . وعلى ضوء هذه المعلومات استأجرت سيارة صالون ضخمة تتسع للحقائب الإثنتى عشرة ، ورتبت موعد الاستلام من الشركة عند الغروب وتوجهت إلى المقر فى زيورخ فى الموعد المحدد حيث تسلمت الأجهزة وقطع الغيار من مندوب الشركة وعبأناها فى الحقائب التى أحكنا إغلاقها بالأقفال وختمنا عليها بالشمع الأحمر ، ثم انطلقت مسرعا صوب الحدود . وعند لوكارنو أزفت اللحظة الحرجة حين جاءنى رجال الشرطة والجمارك للاستفسار عن هويتى ومقصدى وما أحمل . غير أن تفحصهم لجواز سفرى الدبلوماسى كان كافيا كي يلقوا التى بالتحية ويسمحوا لى باجتياز الحدود ، فانطلقت إلى ميلانو ومنها إلى ميناء جنوا الذى بلغته مع خيوط الفجر الأولى حيث كانت إحدى سفن نقل البضائع لشركة الإسكندرية ومصر للملاحة [ لا أذكر إن كانت نجمة بورسعيد أم نجمة الإسكندرية ] على وشك الرحيل إلى الإسكندرية . فقابلت ربانها الإنجليزى وأطلعته على هويتى وأسلمته أمراً كتابيا بنقل تلك الحقائب الدبلوماسية إلى ميناء الإسكندرية لصالح وزارة الدفاع المصرية فأبى بقطرسة ، متعللاً بأنه غير مصرح له بنقل الأسلحة والذخائر والعتاد الحربى رغم جهودى ومحاولاتى بشتى الطرق والوسائل معه لكبح جموحه وصلفه . كان الوقت يقترب سريعا من لحظة إبحار السفينة وسيارتى ملأى بالأجهزة التى لا أستطيع العودة بها

إلى سويسرا ، فكان أمامى أحد حلّين : إما إرغام الرّبان الإنجليزى على قبول الشحنة وإما الاتصال بملحقنا المعسكرى فى روما [ اللواء أحمد حسن الفقى ] ليشغولى بمعرفته شحنها إلى مصر بالوسيلة المناسبة المتاحة له . وآثرت محاولة الوسيلة الأولى فى البداية حتى أضمن وصول الأجهزة إلى الوطن بأسرع وقت . فتوجهت إلى قنصلنا العام فى جنوا وكان وقتها الأستاذ مصطفى السعدنى ولم تكن لى معرفة سابقة به ، وشرحت له الموقف وطلبت منه مساعدتى فى إقناع الرّبان بنقل الشحنة ، فحاول بدوره دون جدوى . ولم يكن أمامى إلا أن أذكره بأن سلطته كقنصل عام لمصر تبيح له فى الظروف الاستثنائية عزل الرّبان على أن يتولى قيادة السفينة قائدها الثانى المصرى الجنسية ، وأنى على استعداد لتسليمه كتابا رسميا يؤكد فيه الظروف الاستثنائية التى يستند إليها تبريراً لهذا الإجراء . وقد أجبانى القنصل إلى طلبى وانتقل معى إلى الباخرة ليعلن الرّبان بعزله إذا لم يرضخ للأمر . وعندما أدرك الرّبان جدّية الموقف نزل عن عناده واستجاب لمطلبى ، وأُقلعت السفينة إلى الوطن تحمل الأجهزة المطلوبة . فأبرقت إلى القاهرة حتى تتسلم وزارة الدفاع الأجهزة وقطع الغيار المطلوبة للمدافع الصاروخية وقت وصول السفينة ، وامتلات نفسى رضا بنجاح ما بذلت من جهد ، ورأيت من حقى أن أكافىء نفسى بأجازة أنعم فيها بالخلوة فى مدينة البندقية أياما معدودات .. فغادرت السيارة المستأجرة لتعود أدراجها إلى زيورخ واستقلت القطار المتجه إلى فينيسيا .

وعلى كثرة ما شاهدت فى صباى وشبابى من أفلام أمريكية تدور أحداثها حول مدينة البندقية ، فإننى لم أعرف بخيالى جمال تلك المدينة الفريدة إلا من خلال عيون مصوّريها الخالدين أمثال كارياتشيو وجورجوني وفيرونيزي وكاناليتو وجواردى ممن سجلوا أهم معالم المدينة وأحداثها ، وقد ظل هذا وذاك لا يفارق مخيلتى إلى أن وطئت قدمى أرض المدينة العائمة التى أسرتنى ، وخلفتها دون أن أدري أن سيُكتب لى أن أزورها أكثر من خمس وعشرين مرة ، وأن سيرتبط جهدى بالإسهام فيما بعد لمدة عشر سنوات بمشروع إنقاذها الذى كنت أول من بادر بطرحه فى عام ١٩٧٧ على المجلس التنفيذى لمنظمة اليونسكو - الذى تشرفت بانتخابى عضوا به سنوات ثمان - عقب اجتياح فيضان مياه البحر الأدرياتي لها ، فكان أن تشكلت لجنة دولية

لإنقاذ مدينة البندقية ، وشرُفَتْ بانتخابي نائبا لرئيسها لمدة عشر سنوات كما سأبين فيما بعد .

ومن فينيسيا توجهت إلى روما حيث نزلت في ضيافة الزميل الكريم أحمد حسن الفقى ، وطففت خلال إقامتى القصيرة بها بأهم المعالم التاريخية والفنية للمدينة الخالدة . وخصصت أطول وقتى للعبرى ميكلانچلو الذى عشت طويلا أتابع إنجازاته المصورة والمنحوتة فى صفحات الكتب والمجلات حتى أتيج لى الآن أن أرى تمثال موسى الشهير بكنيسة القديس بطرس فى فينكولى ، ثم تمثال العذراء الآسية « بيتا » (٢) بكنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان ، وأنتهى الى مصلى سيستينا لأشهد أخيرا بعينى رأسى تصاوير سقفها التى هى أقرب إلى الإلهام الأسطورى ، فجرت طاقات ميكلانچلو للتعبير عن رؤاه الباطنة للعلاقات الإنسانية والمصير البشرى . واستعذبتُ العناء الذى سبق أن طالعتُ الكثير عن تكبد المشاهد له وهو يتابع رسوم السقف لاضطراره إلى ثنى عنقه إلى الخلف طويلا ليستكمل جوانب ملحة الخلق الشائخة . ذلك أننى لم أكُد أتأمل الرسوم حتى أحسستُ بعالم سحري يحتضن وجدانى بينا تناسب فى أذنى من بعيد أصداء الأورغن يعزف لنا قويا صاخبا لشارل مارى فيدور ، مايكاد يطرُق أذناى حتى اليوم إلّا ويثور فى أعماقى شريط هادر تتتابع فيه لوحات سقف مصلى سيستينا الآسرة . وغادرت روما بعد أن أحسست أنى قد أجزلت لنفسى العطاء بما ارتشفتة من رحيق فنى ، وعدت إلى مقرّ عملى ببرن دون أن أدري أن سيكون لى فيما بعد مقام طويل بين روائع الرومان وذرائعهم فى عصر النهضة .

وكنت بعد أن حصلت على دبلوم قسم الصحافة سنة ١٩٥١ من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول قد سجلت موضوع بحث للدكتوراة بنفس الكلية فى الثانى من أبريل ١٩٥٢ عن « الصحافة العسكرية فى مصر الحديثة : تاريخ وفن » بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده ، ثم مالبثت أن عدلت الموضوع فى الحادى والعشرين من أكتوبر ١٩٥٢ ليكون عن « تطور الصحافة المصرية من بداية الحياة النيابية فى مصر ١٩٢٣ — ١٩٥٢ » . وبعد وصولى إلى سويسرا تقدمت إلى جامعة فريبورج بشهادة من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول تُثبت أنى كنت ومازلت

مقيّداً بها للتحضير للدكتوراه . وكان سبب اختياري لهذه الجامعة هو أنها أقرب الجامعات الناطقة بالفرنسية إلى العاصمة السويسرية الناطقة بالألمانية التي أجهلها . وسجلت موضوعاً جديداً اخترته بنفسى هذه المرة عن « جبران خليل جبران » تحمس له أستاذى المشرف وكان قسا مستشرقاً ، ومضيت أواظب على التردد على الجامعة مرة كل أسبوع .

ولقد أتاح لى عملى العديد من الفرص لزيارة مناطق خلابة فى ذلك الفردوس السويسرى جعلنى أحسّ أننى أحيأ أجمل فترات عمرى سلاماً وطمأنينة نفس وهدوء بال ، حيث الثلوج تُغشى الأرض بغلاف أبيض يفيض نقاء وبراءة وكأن عليه مسحة من ضوء القمر . على أن أول مكان قصده فى أول عطلة نهاية أسبوع كان ضيعة « تريشين » المطلة على بحيرة لوسيرن حيث الدار البيضاء الواقعة فوق برزخ صغير والمنعزلة عن العالم تحيط بها أشجار الحور الباسقة لتحيلها إلى جنة ساحرة . اصطحبت أسرتى لزيارة « دار الهناء » حيث عاش موسيقاى الأثير ريتشارد فاغنر قرير العين راضى النفس فى كنف زوجته كوزيما التى أحبها وأحبته فأشرقت دارهما بضحكات أطفالهما إيزولده وإيكا وسيفريد . وفى هذه الدار بالذات فاجأها صبيحة عيد الميلاد عام ١٨٧٠ الذى كان نفسه عيد ميلادها الثالث والثلاثين حين أيقظها من نومها على أنغام « قصيدة سيفريد الرعوية » الشهيرة لتقرأ أبياتها الشعرية العذبة التى يناجيها فيها : « فى كنفك يتفجّر إبداعى ، وأحسّ سكونا واستقراراً حولى . أفكارك أفكار الهوى والتضحية ركنٌ إليها فنّى .. وجدتُ بصدرك بعد معارك أيامى مأوى الأبدى الهادئ ، بيتاً معطاء فى دنيا الأحلام ، تبعث فيه أمجاد بلادى الخالدة أبطال أساطير عاشت بين حنايانا ، ودوّت رنة فرحة معلنة أن رُزقنا مولوداً هو .... سيفريد » .

طُفت بأحشاء الدار أتحسّ البيانو الذى كان يجلس إليه لينح البشرية آثارا خالدة فى عالم النغم المتسامى ، وألج غرفة نومه متأملاً فراشه لعلّى ألتمس تلك الهواجس التى كان تخطف فى فؤاده وهو مضطجع ، ثم أطلّ من النافذة على البحيرة لأتملّى من المشهد الذى كان يلهمه ويزرع السكينة فى وجدانه ، وأجوس ببصرى فى غرفة الجلوس حيث كان يصلو أطفاله ويلهون ، ثم أهبط إلى الحديقة لأرتكز



على سورها متأملا هذا الملاذ السحري حيث عاش ردحا من الزمن أحد القلة  
الموهوبين من أبناء البشر. كانت هذه هي زيارتي الأولى إلى عالم فاجر الأسر،  
ومنذ يومها ونحن في خريف ١٩٥٣ رُحْتُ أطلع إلى أن أحجّ إلى بايروت بألمانيا  
الغربية التي باتت كعربة عشاق موسيقاه وإن لم تتح لى هذه الفرصة إلا في  
أغسطس ١٩٦٣ (٣).

كانت إقامتي في سويسرا هي المناسبة الأولى التي ألتقي فيها بحضور أوروبا  
عن غير طريق الكتاب والأسطوانة والفيلم ودار الأوبرا القاهرية. ويشاء حظي  
السعيد أن تبدأ دار أوبرا برن العتيقة عرض سلسلة « رباعية خاتم النبيلونجن »  
لريتشارد فاجر على مدى شهر في أعقاب وصولي إلى المدينة. أية صدفة تلك التي  
ساقها القدر لى والتي تجعلني أستهل اختلافي إلى دار الأوبرا العالمية بأحد  
إنجازات الموسيقى العظيم الذي كنت أولع به ؟

وفي مستهل عام ١٩٥٤ اتصل بي المشير عبد الحكيم عامر تليفونيا يعرض عليّ  
العمل ملحقاً عسكرياً في باريس ومدرّساً لأن ثمة مهام خاصة يريد إسنادها  
إليّ هناك. وقد قبلت هذا التكليف بعد تفكير لم يتجاوز أربعين ساعة.  
وفي أول فبراير استقلت القطار المتجه إلى باريس مصطحباً أسرتي إلى مقر عملي  
الجديد، نادماً من جهة على ترك الجوالحالم والسلام الشامل الذي طوّقني وطوّق  
أسرتي مدة خدمتي القصيرة بسويسرا، ومتوجساً مما ينتظرني في عاصمة النور التي  
كنت أعرف عنها قبل أن أصل إليها أنها — كما يقول الامبراطور جوليان —  
تستوعب كل شيء، وتستبيح كل شيء، حتى عبث الفلاسفة.

## ٢ سنوات في باريس

حللت بباريس وخواطرى محتشدة بما قرأته وسمعته عنها ، ولم أستطع أن أكبح جماح رغبتى فى التجوال فى طرقاتها وكلمات فيكتور هيجوتتواثب إلى سمعى : « إن باريس أشبه بإنجيل مكتوب بالأحجار ، لن تجد فيها قبة واحدة ولا داراً ولا طواراً إلا ويحمل رسالة حُب ووفاق أولاً همس لنا بعبرة أو نصيحة . إنها كتاب غريب مفتوح ... كلماته هى معالمها الخالدة وأضرحتها الشاخنة وآثارها الوافدة إليها من شتى أنحاء العالم . يستطيع البشر أن يتعلموا من صفحات هذا الكتاب القيم معنى السلام وأن يتحللوا وهم مكتوبون عليه من رواسب الضغينة ، وأن يجدوا فى سطورهم ما يؤجج إيمانهم وثقتهم . لقد حدث لباريس نفسها نفس التحول ، إذ كانت يوماً قرية من الطوب اللبن هى لوتيسيا ، ومع الزمن باتت مجراباً عالمياً للفكر والفن والجمال . وإذا هى اليوم قمة يزورها الجنس البشرى رمزا للتطور الإنسانى الخلاق » .

وأخذت أسائل نفسى : هل هذه هى باريس التى وصفها فيكتور هيجو أم تراها باتت شيئاً آخر ؟

اتخذت مسكني في باريس بالحى السادس عشر الذى يحتضنه نهر السين شمالا وغابة بولونى يمينا . وما وجدت حيا آخر في باريس ينعم بما نعم به هذا الحى ، فالهواء فيه عليل يلطفه ندى النهر وتنقيه أشجار الغابة . وما يكاد سكان هذا الحى يطلون يسارا من شرفات بيوتهم حتى تقع عيونهم على نهر السين بمياهه المتدفقة وجسوره المتعاقبة ؛ فإذا هذا ذاك يشكّان أروع منظر يجمع بين الماء والحجر . ثم ما يكادون يخطون يمينا بضخ خطوات حتى يجدوا أنفسهم فى غابة بولونى التى ترمز إلى ما للباريسيين من ولع بالطبيعة يلوذون بها هربا من صخب العاصمة لينشدوا العزلة والراحة ؛ ففيها الأشجار التى يتفياؤون ظلالها والصخور الخلابة والأحواض المائية المبتدعة تطفو على أسطح مياهها زهور الليلك ، والنافورات البديعة الصنع يهبط إليها الدُرج الرخامى المصقول ، والحدائق المختلفة تضم شتى أنواع الورود والزنبق والسوسن والتوليب .

وإذا كان هذا الحى السادس عشر قد خلا من الآثار المعمارية الشامخة التى تضمها أحياء باريس الأخرى ، فحسبه أنه كان على مرّ العصور منتجع رجالا كان لهم شأنهم فى التاريخ فنا وعلما وأدبا وسياسة ، إذ اختلف إليه مولير وراسين وبوالو الذين اتخذوا فيه بيوتا ريفية يلوذون بها حين ينشدون الراحة ، كما كان بونابرت ولعاً به وكذلك الأديب الرومانسى تيوفيل جوتييه ، وكان السكن الدائم لكل من پول قاليرى وأناتول فرانس .. قضيت فى هذا الحى أعواما ثلاثة أقيم بالدور العلوى لبيت فى شارع پول دُومير يطل على بُرج إيفل ونهر السين وميدان تروكاديرو وقصر شايو ، فحظيت بما لم أكن أطمع فيه ، ولا أدري كم من خطوات خطوتها متهيّبا فى طرقات ذلك الحى ، وذاكرتى نابضة بأسماء كبار الرجال الذين قطعوا هذه الطرقات من قبلى ، حتى لقد كان يخيل إليّ أحيانا أن أديم الأرض ما يزال يحتفظ مزهواً بصدى وقع أقدامهم ، فيقفز إلى ذهنى قول أبى العلاء : « خفف الوطء » حتى لا أزعج مكان خطوهم السابق .

وقد جئت فرنسا مؤمنا بما رسّبه فى أعماقى السويسريون من أنها ماتزال « مملكة » رغم اسم الجمهورية الذى تحمله . وأنّى لى ألاّ أصدق جيرانا لفرنسا لهم صيتهم المشهود من الحكمة والفطنة ، فقد كانوا يعدّون كل ما

سوى سويسرا دولة ملكية ، فعلى حين تتشكّل بلادهم من جملة أقاليم لكل منها استقلال ذاتي يحق له به إدارة شئونه بنفسه فلا يبقى للعاصمة إلا شئون الدولة العامة ، نجد فرنسا على النقيض من ذلك حيث القاعدة المركزية في باريس يجتمع إليها ويشع منها كل شيء . هكذا بقيت وحدة فرنسا على الرغم من زوال الملكية ، وأخذت باريس مكان فرساي ، وجمعت هي الأخرى بين مظاهر المدينة ومظاهر الأبهة الملكية ، فغدت ملتقى تيارات الفكر والرأى ومصدر القوى ومبعث الأضواء ومركز المال . فيها تستوى الأفكار ثم تطالع بها الوجود ، وفي بوتقتها تنصهر خيرة رجال فرنسا جميعا ، إليها يفدون وعنها ينتشرون . فباريس في عهدها الحديث هي باريس في عهدها القديم تضج حيوية مثلما كانت أيام الشاعر فيون والأديب رابليه ، وكل ما تضمّه وافد إليها من سائر أرجاء فرنسا : إكسبر روجي سرعان ما يحيا به العالم بأسره . ففيها المدارس الفكرية على اختلاف مراتبها ، وهي مهد الجمال الباهر والفن الآسر ، فيها يتقد ذكاء البشر وتنمو مواهبه وتوقظ مشاعره ، فإذا هي جميعها يؤلف بينها سحر باريس الفاتن . غير أن فرنسا تدفع لذلك ثمنا باهظا ، إذ غدت أشبه شيء بكوب من اللبن ، ولباريس وحدها تلك القشدة التي تعلو سطح الكوب ، فهي أشبه ما تكون بين أقاليم فرنسا بالشمس للبشر . وكما أصاب جوجول حين رأى أنه يكفي أن تنشق باريس سعوطا حتى تُصاب فرنسا كلها بالعطاس .

وكانت نقلتي من سويسرا إلى باريس نقلة من حياة هادئة رصينة الإيقاع لا تحس فيها صحبا ولا جلبة إلى بلد محمومة الإيقاع ، وهو ما كلّفني جهداً كبيراً في أن أطوّع نفسي لمسيرة الوضع الجديد . فكنت في سويسرا على سبيل المثال أقود سيارتي قيادة هادئة لا أبلغ بها مفترق طرق إلا تلبّثت أنظر يميناً ويسرة ، لعل عابراً قد أوشك أن يمرّ عبر ذلك المفترق ، فإذا ما صادفت عابراً أشرت إليه تأدّبا علّه يعبر قبلي فإذا هو يميني رافعا قبّعته شاكراً لفتتي ، ثم يأخذ في طريقه . وحين مضيت أنجح النهج نفسه في باريس إذا أنا بمن يستحثني من يميني ومن يساري ومن أمامي ومن خلفي أن أتعجّل ، فلا وقت لأحد هنا للترّيث . بل لقد حدث في مستهل عهدي بالمدينة أن سمعت ألفاظا نابية كانت تنصبّ عليّ صبا ، حتى من شرطى المرور الذي كان يلوح لي بعصاه البيضاء صائحاً بي : أسرع ، أسرع ، أنظن نفسك تتجول في نزهة ؟

وحين ضقتُ بألفاظ السباب التي كانت تنهال عليّ ولا أعي من معناها إلا النذر اليسير ، طلبت إلى أستاذي دانييل لالاند الذي كنت أستعين به لتقويم لغتي الفرنسية أن يُفصح لي صدره ليزيدني علما بمدلول ذاك السباب وعمّا يصحّ أن أتزوّد به من ردّ عليه . وكان رد الفعل الأول لأستاذي فرحة حقيقية لالتفاني إلى ظاهرة السباب الفرنسي ورغبتي في التعرف على أبعاده ومراميه . وأذهلني حين كشف لي عن أن « السباب » في اللغة الفرنسية هو موضوع دراسات جادة تتطلب الكثير من الوقت للإلمام بها وتبيين مغزاها ، مؤكداً أنه علم وفن وأسلوب ، فالسباب قد يكون كلمة وقد يكون جملة ، ومنه ما قد يكون معناه خاصا ومنه ما قد يكون معناه عاما . وكثيرا ما يكون السباب الذي يرمى به المرء غيره تنفيساً عن رغبة دفينّة في أعماق قائلها كما يقول فرويد في تفسيره للأحلام .

وقد يكون من الطريف أن نتوقف قليلا مع أستاذي وهو يستعرض في صبر وأناة ألوان السباب الفرنسي ، فقد يكون هذا السباب من النوع العام الذي يتناول نقیصة من نقائص الأسرة ، أو رذيلة من الرذائل يتدّب بها ، وقد يكون تلميحاً إلى خبيثة من الخبائث ، وقد يكون تصويراً للشخص على نحو يثير هزة الناس به ، أو يكون حملاً للمسبوب على فعل دنيء معيب ، وقد يكون رمزا أو كناية عن أمور فجّة أو مستحيلة أو مثيرة للحق ، أو مآثرات التوت أعناقها ببراعة ، أو تلاعبا ببيت شعري مشهور بمسخ أحد ألفاظه ، وقد يكون السباب تطاولا خفيف الظل على مُسلّمات دينية في عبارات تأخذ صياغة الكتاب المقدس . وقد يتعرّض السباب لموضع حسّاس من جسد الإنسان ، وما أوسع مفردات قاموسهم في هذا الباب الذي يكاد يكون موصولا بعلم تشريح الجسد الإنساني كله . حقا إن منهم من يغلف بعض الألفاظ الفاحشة بغلالة يكون ما تفضحه أكثر مما تخفيه ، ومنهم من يلّمح بالألفاظ دون إفصاح ، ولكنهم على هذا بكل ألوان السباب مولعون .

لم يكتف أستاذي الجليل بهذه الإطلالة السريعة بل زوّدني بقاموس لغة العامة Argot ، وبعدها حدّثني قائلا متخيلا نفسه فرجيل وهو يودّع دانتى حين خلفه عند باب الفردوس : « لا تنتظرن مني بعد اليوم مزيدا من الحوار والتوجيه ، فأساليك اليوم استقامت واستوت . وها أنت ذا تستطيع أن تجوب

طرقات باريس وحدك آمناً بعد أن جمعت في جُعبتك كل هذه السهام التي تردّ بها الصاع صاعين على من يتصدّى لك متطاولاً ، فلا تبدو كالغريب المتخبّط » . ويمرّ ربع قرن وإذا أنا أتلقّى في عام ١٩٧٩ طرداً من باريس ، ما إن فضضتُ أختامه حتى وجدت فيه قاموساً للسباب عند الفرنسيين <sup>(٤)</sup> يتضمّن ثلاثة آلاف وتسعمائة عبارة عن عبارات السباب الصريحة . ومع هذا القاموس عبارة إهداء رقيقة من أستاذي دانييل لالاند ، فكم كان وفيّاً بهذا الإهداء حين ذكرني بعد هذه الحقبة الطويلة .

على أن أستاذي قد حرص أيضاً في الخمسينات على أن يزودني بمعرفة أكثر عمقا بطباع الفرنسيين وأخلاقياتهم وعاداتهم وما تنطوي عليه لغتهم من أسرار وما في طبائهم مما يثير السخرية ، تلك الفلسفة الباسمة أو طريقة التفكير التي تشيع الفرحة وتضحك الآخرين دون أن يضحك مُطلقاً ، فاختار من بين ما اختار لمطالعتنا معا كتاب « مذكرات الرائد طومسون . استطلاع فرنسا والفرنسيين » ، ذلك الكتاب الممتلىء دعابة ومرحاً والذي ظل يلحّ على فكري حتى ترجمته إلى العربية بعد ذلك بعدة سنوات ، فظهرت طبعته الأولى عام ١٩٦٤ ، وهما ذى طبعته الثانية التي تكاد تكون ترجمة جديدة تخالف في الكثير الترجمة الأولى <sup>(٥)</sup> ، والتي آثرت لها عنوان « فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد طومسون » .

ولست أنكر أن باريس قد صدمتني في أيامي الأولى بذلك اللون الرمادي الذي يشيع في جوها ويخيّم عليها ، يستوى في هذا ما يغشى الأرصفة فيكاد يحجب الرؤية ويشيع في الجو وكأنه الضوء المطموس . هذا اللون الرمادي الطاغى في باريس هو أيضاً لون الجسور والمنتزهات والكنائس والقصور وواجهات المباني ، فترى الهواء الوَمد يكاد يستحيل ماءً ، غير أنّا سرعان ما نألف هذا الضباب ونستطيع رؤيته . فإذا أمطرت السماء لعبت بقطراته الريح فتحيله رذاذاً يبدو نجوماً متلاثلةً ، على أني بعد فترة قصيرة لم أعد أضيق بهذا اللون الرمادي بعدما تجلّى لي كيف ازدهر في ظلاله الفكر الوقاد وانتعش الذوق الرفيع ، فإذا هما يقدّمان القاريين لربّات الفنون ، ويضيفان المزيد الى كنز العلم والجمال .

والحق إن باريس تشغل في كيانى صورا متعدّدة تترى بعضها فى إثر بعض فى شريط طويل طول أعوام ثلاثين . منها ماقضيته مقيما بها ومنها ما عشته مختلفا إليها ، فأسرت قلبى وأمتعت عيني بما تحويه : طرقاتها الفسيحة البهجة ، ونهر السين تتهاذى على صفحته سفن الزهة كما تمخر مياهه الناقلات ، وجسور تمرّ فوقها الشاحنات العملاقة التى يتضاءل الناس إلى جانبها ، وصائدين بصنانيرهم إن لم يسعدهم الحظ بالأسمك لم يبخل عليهم بأحلام ذهبية ، وفنانين قد انتشروا هنا وهناك يصورون ويبدعون ، وأشجار هرمة على جانبيه تحنو على أهل باريس بظلال أغصانها الكثيفة وبالإصغاء إلى همهماتهم وكأنها ربّات الحكمة ، ومبانٍ متماثلة فى ارتفاعها ولونها ، ومداخل المصانع مشرّبة نحو السماء ، وأشجار الكستناء تومض بزهورها المتوهّجة على امتداد طريق الشانزليزيه حيث تتعاقب المقاهى بظلالها المتباينة الألوان وكأنها السفن الجانحة على ضفتى نهر بشرى من الجائلين ، يلتف بعضهم حول فرقة موسيقية كاملة أو حول عازف يشكّل من نفسه فريقا متكاملا : المصفقات على رأسه والطبلة على ظهره والعصى مشدودة فى ذراعيه والأجراس فى قدميه والأكورديون بين يديه والهارمونيكا بين شفتيه . على حين يطوف الشباب من الجنسين على المقاهى يقومون بما يُسرّون به عن الناس من حركات إيمائية وبهلوانية أو يعزفون على آلات موسيقية وكأنهم أهل الكُدّة الذين امتلأت مقامات الحريرى بأخبارهم ينشدون الشعر لقاء ما يأخذون . وكذا حال هؤلاء ، لا استجداء وإنما هو عطاء لقاء تسلية يفرّجون بها عن النظارة .

ثم ميدان الكونكورد بمصايحه الوهاجة ومسلّته المصرية تكاد تجمع بين فرحتها بالاحتفاء بها فى مستقرها الجديد وبين الأسى على فراقها زميلتها فى مهدها القديم ، وحشود المارة المسرعين وسيارات الأجرة تنهب الأرض نهباً بالشاق إلى حيث يبغفون ، ومتحابين جلسوا متعانقين على الأرائك المنتشرة على الأرصفة والحدائق ، ورائحة الحساء المألوفة تنبعث من حجرة البوّاب مع المساء ، والعجوز التى تؤجرك مقعدا بالحديقة ، وجندى الحرس الجمهورى بخوذته النحاسية وقد تدلّى منها ذيل جواد أحمر اللون أو أسوده ، والكتّبتى يفترش كتبه على رصيف السين ، ومتشردين

قد اضطجعوا على درجات سُلم سورالسين وزجاجات الخمر في أحضانهم ،  
وموسيقيين كفيفي البصر منتشرين في دهاير محطات المترو يتخذون جلسة  
الموسيقى الجليل ، يعزف أحدهم على الكمان وينفخ الآخر في المصفار ويضرب  
ثالث على الأكورديون ، بينما ينحنى المارة في تقدير ليضعوا دراهمهم في قبعة هذا  
الموسيقى الضريير أوداك إعجاباً وإشفافاً . ومونارتر تتبدى قرية سامقة وادعة

عطرة بأريج أشجارها ، يمتزج فيها طابع الريف بطابع الفن ، ويتوسطها ميدان  
الترتر ، يحتشد فيه الفنانون والعازفون والمصورون والرسمون والحواة  
والمشعوذون ، وتتجاوز مطاعمه العتيقة الطراز متلاصقة كأكوخ متساندة على  
رقعة تكاد تكون كمساحة الكف ضيقاً . وزوار الحى يأنسون بالاسترخاء تحت  
الظلات والأفق من فوقهم غائم لا يكاد يرقى إلى آذانهم أثرٌ من صخب  
باريس المحموم . وكنيسة القلب المقدس قمة ناصعة البياض تتوج التل ،  
يتضاءل سموخها كلما اقتربنا منها ، وينفرط قدرٌ من جلالها بتكالب باعة  
التحف الدينية التذكارية والمسايح حول مدخلها . وحى سان جرمان ده بريه  
[ وبريه تعنى الحقول والمروج ] الذى كان منذ القرن السابع عشر ملاذ  
الوافدين من الفنانين الأجانب ومقر إقامتهم - حيث يحق لهم بيع لوحاتهم  
دون الخضوع لتعسف سلطان نقابة المصورين الباريسيين لوقوعه خارج نطاق  
حدود مدينة باريس آنذاك يفصل بينهما نهر السين - والمدين بشهرته الحالية  
إلى جان بول سارتر وسيمون ده بوڤوار اللذين اجتذبا إليه المريدين من شتى  
أنحاء العالم ليظفروا برؤية الوجوديين . والحى اللاتينى الذى تشيع فيه  
الميادين المنمنمة المزدانة بتماثيل عمالقة الفكر والفن التى تمثل لرواد  
الجامعة المثل العليا فى صورها الحققة ، وقد يضيف إليها العابثون كلمات  
هائلة أو صوراً ساخرة ، كما قد يعن لأحدهم أن يضع فى إحدى يدي تماثل من  
تماثيل هؤلاء المفكرين الوقورين زجاجة خمر فارغة إمعاناً فى التندر ، والذى  
تكثر فيه الحوانيت بواجهاتها التى تحمل من أساليب الذوق أكثر مما تزخر به  
معاهد الفنون ، والذى تفيض فيه أضاير تجار اللوحات الفنية التى قد تنطوى  
على عمل فنى نادر مطوى عن الناس . وحدائق لوكسمبور الساحرة جنة  
الحى اللاتينى بمنحوتاتها المعبرة ونافوراتها الأسطورية ومسرح عرائسها  
حيث تمرح الطفولة وترتع . وحى مونپارناس كعبة الفنانين وأستاذة المدارس



الفنية المتعددة التي انتشرت في العالم كله منذ مطلع هذا القرن ، حيث يحتشد الناس في مقاهيه ومطاعمه يختلط دوى مناقشاتهم بصفق الصحن والملاعق وقرع الأكواب على الموائد وصيحات الرّواد على السقاة وجلبة الهرج والمرج بينما تتألق لوحات الفنانين الباريسيين بمطعم « لاكوبول » ، كما يكسو ورق الحائط المنمّق بالزهور جدران « الدّوم » ، وتنبسط اللوحات المصوّرة فوق الأرض أو على درجات السلم في « الروتوند » . ثم معابد التأمل والمعرفة والاسترواح ، متاحف الفن في باريس . متحف كلوني المجاور للسوربون يزهو بصور السيدة الفاتنة بين يدي حيوان الليكورن الخرافي الرشيقي على تلك النسجيات المرسّمة الثمينة من العصور الوسطى ، ومتحف الفنون الزخرفية بتنويعاته الفريدة من طُرز الأثاث ، ومتحف « جوده يوم » [ لعبة كرة الحائط ] الذي يضم لوحات المدرسة الانطباعية ، ومتحف كارنافاليه الذي يتناول تاريخ باريس ، ومتحف اللّجيون دونير [ جوقة الشرف ] حيث ترقد أوسمة العالم مع مخلّفات نابليون . ومن عجب أن يسخر الفرنسيون من وسام جوقة الشرف ويصفونه بأنه مجرد مجلجلة رنّانة جوفاء في الوقت الذي ينحنون فيه إجلالا أمام حاملى هذا الوسام ، بل ويسوسون به رجالاتهم . ومتحف الجيش بالأنفاليد يحوى كل ما ابتكره الإنسان من أجهزة وعتاد يقضى بها على أخيه الإنسان ، كما يضم ذلك الضريح الدائرى المهيّب الذى يتوسطه « النسر » [ بوناپرت ] فى تابوت من الجرانيت الأحمر ، وإلى جواره ابنه « النسر الصغير » فى تابوت من البرونز . ويقف الحرس بالمرصاد لأى طائف حول التابوت ، إذ لو نسى ولم ينزع قبعته أو لباس رأسه توقيراً لانهالوا عليه بشتى أنواع السباب والإهانة . ومتحف الإنسان بقصر شايبو يعرض لتاريخ البشرية بأسرها بدءاً بقوارب الإسكيمو وانتهاء بطبول السودان فضلاً عن جمجمة الفيلسوف ديكارت . ومتحف اللوفر خزانة الكنوز الفنية النفيسة ومعرض الفن العالمى الذى لا يبارى ، يضمّ روائع منها ما كان شراءً أو هدية أو غنيمة حرب .. ويزعم الخيلاء أن ذراعى تمثال فينوس من جزيرة ميلوس - فخر منحوتات اللوفر - قد فقدتا خلال العراك الذى نشب بين أهالى الجزيرة وبين البحارة الفرنسيين الذين حطّوا بتلك الجزيرة اليونانية فى عام ١٨٢٠ لانزاع هذه التحفة الخلافة . ثم المعارض الفنية المتجددة فى باريس

التي تشغل قاعات متحف الفن الحديث أو متحف الأورانجرى أو القصر الصغير أو الكبير ، فالنشاط الفنى فى باريس متصل ولا يفتر . وقُدس الأقداس : أوبرا باريس بمنصّة مسرحها التي تغور عمقا ، وبتناسق أعمدها الرخامية القرمزية والزرقاء مع نقوشها البرونزية المذهّبة وستائرهما الأرجوانية المسدلة وثرّيّاتها الضخمة المتألّق بلّورها ، وسلّمها الفسيح المهيّيب الذي يتسع لرشيقات باريس وزائرتها ليكشفن على امتداد درجه عن أناقتهن . هناك حيث الإخراج الأوبرالى الحافل والنغم الآسر والرقص الحالم والشدو الملائكى كانت دار الأوبرا - وماتزال - لى مزاراً أهرع إليه ما وطئت قدماى ثرى باريس . وقاعات جاقوو ليليل وقصر شايبو وغيرها التي لا تكاد تمضى أُمسية دون أن يَختلف إليها أعظم قادة الأوركسترا وأشهر

العازفين فى العالم بأسره . ومسرح الشاتليه العريق بأوبرياته الشهيرة التي لا يكفّ جيل منذ القرن التاسع عشر عن التزّيم بأنغامها وترديد ألحانها . ومسارح الجران بولفار بتمثيلياتها المرحّة الساخرة ، والباليه رويال حيث تعرض الكوميدي فرانسيز مسرحيات ريبيرتوارها الجليل الخالد .

وأخيرا وليس آخرا جزيرة سان لوى ، حورية السين ومأوى عشاق السكون والتأمل حين يضيقون بزحمة باريس وصخبها ، فاعرف مترو الأنفاق سبيله إليها ولا المواصلات العامة هى الأخرى تجسر على أن تجوس خلالها فتلجأ إلى الطواف حولها . وماتزلت مرة باريس إلا ونازعنى شوق إلى أن أنثنى إلى تلك الحورية أتبتّل فى محرابها وأنعم بمفاتنها وأتلبّث على ضفافها ، أمّ البصر عبر سور السين الحجري متطلعا إلى معالم باريس حديثها وعريقها . وما أكثر ما يخيّل إلى أننى أقرأ على جدران مبانيها سطوراً من ذكر ياتى الأثيرة وأستاف الأنسام المرتدة فتؤجج مشاعرى وتغوص عميقا خلال وجدانى الرافل فى نشوة السكون والطمأنينة وأريج ماض عبق .

تلك كانت انطباعتى عن باريس وإليك أيامى بها .

\* \* \*

أذهلنى فى بدء عملى بالسفارة فى باريس ذلك الاتهام الذى يشوّه عمل الملحق العسكرى بوصفه عين الثورة التى تخصى على أفراد الجالية المصرية بباريس سلوكهم وأقوالهم سواء كانوا من بين أعضاء السفارة أو من الطلبة الدارسين أو من الزوّار السائحين . وكان من الطبيعى أن يلقى من الجميع نظرة التوجس النابعة من تصورهم بانحصار وظيفته فى مراقبتهم والتجسس عليهم ثم كتابة التقارير عنهم . وأعترف أنى كنت شديد الضيق بنظرة المواطنين المصريين هذه إلى منصب الملحق العسكرى ، فقد كانت التوجيهات التى أصدرها لى القائد العام للقوات المسلحة للاضطلاع بمهمتى بباريس تنحصر فى تزويد القوات المسلحة بحاجاتها من الأسلحة والمعدات ، وإعداد التقارير عما يستجدّ فى فنون الحرب والقتال ، ومتابعة النشاط الاسرائيلى هناك ، ورعاية حركات التحرّر بالشمال الأفريقى . وكانت البعثات المصرية لشراء السلاح والمعدات العسكرية تجوب عندها أنحاء أوربا بما فى ذلك بريطانيا وفرنسا للتعاقد على شراء احتياجات القوات المسلحة . وكانت العقبات التى تصادفها عقبات سياسية فى المرتبة الأولى ، ومن هنا لم تعد مهمة الملحق العسكرى مهمة عسكرية بحتة بل أخذ يخالطها العمل السياسى يؤثر عليها ويتأثر بها ، وغدت المساومات تدور حول التنازلات ذات الطابع السياسى أكثر مما تدور حول الأثمان والنفقات .



ولا أظننى فى حاجة إلى أن أذكر القارئ بأن مهمة الملحق العسكرى فى أية سفارة هى مهمة مستقلة تقوم على جهوده هو ومن معه ، ولا صلة له فيما يمشى فيه بالسفارة ، إذ تبعيته خالصة للقيادة العامة للقوات المسلحة ، هذا إذا لم تكن ثمة أمور تتصل إلى حدّ ما بمهمة السفارة ، فيكون واجب الملحق العسكرى ألا يقضى فيها بأمر دون إخطار السفير بها . وإذا كان الأمر كما قلت لانفصال فيه للسياسة عن تلك المهام العسكرية وجدت نفسى قد أقحمت إقحاماً فى الميدان السياسى . ومن هنا رأيت أن أبدأ باستعراض الظروف السياسية التى واكبت مهمتى العسكرية نظراً لارتباطها الكلى والجزئى ببعضها البعض كما سيلبس القارئ .

كانت المعركة وقتذاك على أشدها بين قوات الاحتلال الفرنسي والوطنيين في مراكش ، فهرع قسم أفريقيا والشرق الأدنى بوزارة الخارجية الفرنسية بتوجيه الدعوة إلى موسى ديان رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي لاستطلاع رأيه والإفادة من خبرته الطويلة فيما أسموه « بالإرهاب العربي » فالتقى بالمسؤولين مرات ثلاثا . وأغلب الظن أنه هو الذى أوحى بأسلوب القمع الجديد الذى طبقته السلطات الفرنسية بمراكش صبيحة عيد الأضحى في ٤ أغسطس ١٩٥٤ ، يؤيد هذا الظن أن ديان استدعى أثناء وجوده بباريس الكولونيل هرخابي نائب مدير المخابرات الاسرائيلية ليضع خبرته تحت تصرف المسؤولين الفرنسيين . واعتقد أن هذه العلاقة كانت بداية طور جديد من التعاون الفرنسي الاسرائيلي كان أوضح نتائجه التصريح الرسمي الذى أعلنته فرنسا عقب توقيع الاتفاق المصري البريطاني بثمانية وأربعين ساعة ، بأن فرنسا تتعهد بحماية الحدود الاسرائيلية ، ثم تدقق الأعداد الضخمة من ضباط البحرية الاسرائيلية ليتلقوا تدريبهم بقاعدة طولون البحرية ، إلى أن تُوِّجت هذه العلاقة بمنح ديان وسام « اللجيون دونير » .



وسادت الصحافة الفرنسية عندها نغمة القلق على مستقبل فرنسا في منطقة الشرق الأوسط بعد توقيع الاتفاقية ، حتى كتبت مجلة إكسپرس الناطقة بلسان منديس فرانس رئيس الوزراء ووزير الخارجية « بأن على فرنسا أن تسرع الخطى قبل أن يفلت منها زمام الزعامة في الشرق الأوسط » ، وأغلب الظن أن المجلة تقصد غروب الاستعمار الفرنسي . وكانت وزارة الخارجية الفرنسية منقسمة على نفسها : فثمة تيار يؤمن بأن فرنسا « قوة إسلامية كبرى » - أى أنها تسيطر على أكبر عدد من المسلمين في العالم - ومن ثم ينبغي أن تبذل قصارى جهدها لتحسين جو العلاقات بين فرنسا والعالم العربي ، وتيار آخر يرى استخدام العنف ضد الوطنيين العرب لتثبيت أقدام الاستعمار الفرنسي ، وكان هو التيار الغالب في تلك الآونة .

ودأبت السلطات الفرنسية على ممارسة الضغط على السفارة المصرية بباريس لإيقاف هجوم صوت العرب عليها بعد أن افتتحت الثورة المصرية إذاعة صوت العرب في يولييه ١٩٥٣ بغرض تكتيل الشعوب العربية وتوجيهها ضد الاستعمار، وهو ما أثار القوى الاستعمارية الفرنسية إلى الحد الذي جعلني أثير مع جمال عبدالناصر في الثامن عشر من أغسطس ١٩٥٤ إمكان استغلال إذاعة صوت العرب لمساومة فرنسا في تحقيق أهدافنا الوطنية والعربية. غير أني أشرت في رسالتي هذه إلى ضرورة إسناد هذه الإذاعة إلى إدارة فنية أنضج خبرة وأكثر اتزاناً ودراية بمجريات الأمور من الجهاز المشرف عليها الذي له نهج يبعد به عن الأثر المنشود الذي نبغيه. وأوضحت له في نفس الرسالة تطور العلاقة بين فرنسا وإسرائيل تطوراً مريباً يحمل في طياته نوايا الغدر والعدوان، وبسطت بين يديه مجالات تحرّك متاحة في الآونة الراهنة، على رأسها الآمال الفرنسية المعقودة على مدّ أجل عقد قناة السويس الذي شارف على الانتهاء، وتشجيع السودان في إذاعتنا وصحافتنا على المطالبة بضم السودان الفرنسي إليه، وإعلان الأزهر من خلال هيئة كبار علمائه السلطان ابن عرفة - الذي عينه الفرنسيون - مارقا على الإسلام يهدّر دمه، وأن الحاكم المسلم الشرعي الوحيد هو سلطان مراكش المعزول مولاي محمد بن يوسف، وأن الجلاوى «باشا مراكش» - بقبوله تدخل اليهود ضد المسلمين في المغرب - خارج على الإسلام يهدّر دمه أيضاً، وأن تعلن مصر استعدادها للاعتراف بشرعية أية حكومة يرأسها زعيم وطني إسلامي مغربي يحمل راية الجهاد ضد المستعمر، وأن فرنسا قد بدأت المعركة الدينية ضد الإسلام حين أعلن جورج بيدو وزير خارجيتها الأسبق في سبتمبر ١٩٥٣ أن «الصليب لن ينحني أبداً أمام الهلال، فلنعلنها حرباً صليبية».. وقد ألمحت لعبدالناصر في نهاية رسالتي بموضوع «النشيد الوطني» الذي كانت محطات إذاعة المقاومة الفرنسية تذيعه إبان الاحتلال الألماني لفرنسا، واقترحت عليه استخدام لحنه بمصاحبة ترجمة عربية مناسبة لنذيعه بدورنا في مستهل إذاعات صوت العرب ونهاياتها، فقد كنت موقناً بما يحققه من أثر عميق لا في نفوس أهالي الشمال الأفريقي وحدهم بل وفي نفوس الفرنسيين أنفسهم الذين يرتبط النشيد في ذاكرتهم بمحنة الاحتلال التي عانوا ويلاتها،

وبهذا يرتد إليهم السلاح المعنوي الذي استخدموه ضد محتليهم الألمان . وقد أرفقت برسالتى الكراسى الموسيقية للنشيد مع نصّه بالفرنسية بعد أن ترجمته إلى العربية .

أَتَلَقَى السَّمْعَ يا صديقى  
إلى صوت الطبول يقرع من بعيد  
إلى صوت الوطن المكبوت يئن تحت وطأة القيود  
أَتَلَقَى السَّمْعَ يا صديقى  
إلى النعيب البغيض تنعق به الغربان المحلقة فوق السهول  
هَلُمُوا يا رفاق .. هَلُمُوا  
اصعدوا من جوف المناجم  
اهبطوا من فوق التلال  
ادلفوا من المخابىء يا رفاق  
إلى البنادق .. إلى المدافع .. إلى القنابل  
هَلُمُوا نقضى على القتلة  
بالرصاص .. بالخناجر  
لنتعجّل قتل المخربين  
ولنحرص على ما نحمل من بارود ثمين .  
نحن من نحطّم قضبان السجون  
المغلقة على رفاقنا  
تحنقنا الضغينة على القتلة  
ويدفعنا الجوع للقصاص  
هناك أمم تنعم بالأحلام  
فى دفء المخادع  
بينما نحن يارفيقى نمضى ،  
تغوص أقدامنا فى الدماء  
نَقْتَل ونُقْتَل .. ثم نموت  
كل منا يدرك ما يريد

كل منا يدرك ما يصنع  
وهو يمضي في الطريق  
أما أنت يا صديقي إذا ما سقطت  
فلسوف ينهض صديق آخر من بين الظلال  
ليأخذ مكانك  
وسوف يشهد الغد القريب  
الدماء الداكنة تجف فوق الطريق  
تحت الشمس الوهاجة المشرقة  
فانشدوا يا رفاق  
في ليلنا هذا  
فالحرية تصيح السمع  
أتلقي السمع يارفيقي  
إلى صوت الوطن المكبوت يئن تحت وطأة القيود  
أتلقي السمع يا صديقي  
إلى النعيب البغيض تنعق به الغربان المحلقة فوق السهول  
هلموا يارفاق .. هلموا ..  
ولم أدر للأسف شيئا عن مصير هذا الاقتراح .

\*\*\*

ومع تطور للأحداث السياسية تلقيت من جمال عبدالناصر بما يوحى باستعداده لبذل وساطته بين فرنسا والمغرب على أمل الوصول إلى حل عادل تجنباً لإراقة الدماء . وكان أن لقيت السيد فانسان مونتاي مدير مكتب كريستيان فوشيه وزير الشؤون المراكشيه والتونسية [ وكان من قبل ملحقا عسكريا بطهران ثم أستاذا بالكوليج ده فرانس ، وبعد أن اعتنق الإسلام تسمى باسم منصور مونتاي ، وهو الآن يشغل منصب سفير فرنسا في إندونيسيا ] ، فراح يؤكد لى بحكم مركزه واتصاله المباشر الوثيق بالوزير صدق نوايا فرنسا ورغبتها الأكيدة في حل القضية المراكشيه ، وأن حكومة منديس فرانس هى بحكم وضعها وتشكيلها وظروفها تكاد تكون الحكومة المثلى لحل هذه المشكلة بطريقة عادلة . ثم أفضى التى ببعض القرارات التى تم اتخاذها بين منديس فرانس وكريستيان فوشيه ، وتقضى بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين المراكشين الذين اعتقلوا منذ عام ١٩٥٢ ومن بينهم زعماء حزب الاستقلال ، كما أسرّ التى بأنه تقرر إطلاق سراح السلطان مولاى محمد بن يوسف على أن يعود إلى فرنسا لمباحثته فى أمر تنازله عن العرش لابنه الحسن ، وأن السلطان الحالى ابن عرفة سيتخلى بطبيعة الحال عن العرش على أن يتولى السلطة مؤقتا مجلس وصاية يرضى عنه المراكشيون .

أكد مونتاي أن فرنسا ستتخذ هذه الإجراءات لتهدئة رأى العام العربى والمراكشى ، ولخلق مناخ مناسب للمفاوضات بين فرنسا ومراكش ، ولتطلب من الأمم المتحدة منحها مهلة بضعة شهور تصل خلالها إلى حل للقضية كما وصلت من قبل إلى حلول بالنسبة لتونس والهند الصينية . ولما كنت أعلم أن الأستاذ الدكتور محمود عزمى قد تقدم للوساطة من قبل بين فرنسا ومراكش فقبول اقتراحه بعدم الاكتراث ، وذلك لشدة حساسية الفرنسيين عند ذكر كلمة الوساطة ، وهو الشئ الذى لمسته بنفسى ، اقترحت على الرئيس عبدالناصر فى خطاب لى مؤرخ فى السابع عشر من سبتمبر ١٩٥٤ أن يبعث برسالة إلى رئيس الحكومة منديس فرانس يكشفه فيها بأن الشعوب العربية تأمل فى إيجاد حل لقضية المغرب على يديه مثلما فعل من قبل فى مشكلة تونس والهند الصينية ، وأن مصر بحكم علاقتها الوثيقة بفرنسا على استعداد للتقدم بالمقترحات الفرنسية إلى الوطنيين المراكشين والتعاون على إقناعهم بهذه المقترحات إذا كانت تتضمن اتفاقا لا يقل عن الاتفاق



الفرنسي التونسي ، أى بمنح الاستقلال الداخلى ، إذ كان فى رأى أن هذا الأسلوب لايمس الشعور الفرنسى بمثل مايمس لوتقدمت مصر لفرنسا بشروط المراكشيين ، وبخاصة وأن فرنسا قد باتت أمام أمر واقع يفرض عليها إعلان استقلال مراكش استقلالا ذاتيا وعودة السلطان الشرعى .

وكان ثمة عدد من رجال الصحافة الفرنسيين التقدميين لم يكفوا عن المناداة بحقوق أهل الشمال الأفريقى ، وعدد آخر من المستشرقين والكتاب والأدباء الفرنسيين انبروا ينددون بأسلوب القمع والقهر والإرهاب ومن بينهم المستشرق الجليل ريجيس بلاشير الأستاذ بجامعة باريس الذى كتب مقالا فى صحيفة لوموند بعنوان « الفرصة الأخيرة » طالب فيه : « باتباع سياسة واقعية جديدة تحترم المعهود وتراعى مقتضيات الزمن ، وهوما يتطلب جرأة الذهن وحسن الابتكار، فمن الخطر مراوغة التاريخ أو التفاوضى عنه ، كما ينبغي الاعتراف فى شجاعة بأن الشعوب الواقعة تحت الوصاية تطمح فى الظفر بالاستقلال وهوشىء لا بد منه . كما لا مناص من إصلاح نظام الاتحاد الفرنسى الذى فرض على البلاد الواقعة وراء البحار الاندماج فيه دون رضا الشعوب . وكذا لا معدل عن احترام رغبة الشعوب فى شمال أفريقيا فى أن تصبح اللغة العربية الفصحى لغة تفكيرهم وقيهم وكتاباتهم . ودون إدراك ذلك كله وتغليب الحلول السليمة على المصالح الشخصية ستضيع آخر فرصة لنا فى الإبقاء على القيم الفرنسية » .

كذلك نشر المستشرق المرموق لوى ماسينيون مقالا بعنوان « فى سبيل إنقاذ المغرب » طالب فيه بإصدار عفو شامل عن سجناء المستعمرات الفرنسية ، وذكر فيه عدة حقائق دامغة جاء فيها :

« يظن البعض أن العفو يجب أن يسبقه بقاء السجناء مدة فى السجون حتى يناهم الوهن ، وهذه نظرية خاطئة ، فإن الإسلام رباط أقوى من القيود يجعل المسلمين متضامنين أيها وجدوا . لذلك فإن خطر الانفجار فى تونس وبخاصة فى مراكش فى تزايد مستمر ، وينبغى وقف دورة القمع والإرهاب المحزنة الجارية الآن فى أفريقيا الشمالية ، فقد عرفت فرنسا هذا الأسلوب أيام كان الألمان يقتلون الرهائن الفرنسيين . وليس هناك سوى إصدار عفو شامل شرعى وسيلة لتهدئة الخواطر بمعرفة الباي فى تونس غير أن فرنسا رفضت منحه هذا الحق . أما فى المغرب فلا يملك السلطان الصورى أية سلطة وهو حبيس أولئك العصاة الذين حملونا على ملء السجون

بالأبرياء. إن في مساعدة المبعدين والمعتقلين المغاربة خلاص فرنسا بل استرداداً لشرفها» .

وفي الخامس عشر من يناير ١٩٥٥ ظهر مقال خطير بمجلة « إكسبر س » بقلم الكاتب الكبير فرانسوا مورياك عضو الأكاديمية الفرنسية بعنوان « التعذيب » ، استهله بقوله مؤثني « إنني أكره القسوة كراهية شديدة بفطرتي وبعقلي لكونها على قمة الرذائل »

ولما كان المقال يصور مأساة ذات أثر شديد على القراء عن تعذيب الفرنسيين لعرب الشمال الأفرقي ، فقد بادرت بإرسال ترجمة للمقال إلى القاهرة مقترحا أن يكون مادة لبرامج إذاعة صوت العرب والصحافة المصرية . غير أن الأيام امتدت ولم أعرف بعد ماذا كان مصير اقتراحي . وهذا هو الحوار الذي دار بين الكاتب الجليل وبين قس فرنسي يعمل في إرسالية بمنطقة قسنطينة بالجزائر .

« يقول القس مبستغياي : أنت وحدك صاحب القول ، ولا قائل بعدك .

فعبست وأخذت أردد في نفسي : كم من مرة سمعت تلك المقالة « ولا قائل بعدك » ، ونخال من هم على غير رأسي أنني أنقاد هوى في نفسي يدفعني لأن أكون فارس هذا الميدان وحدي ، فإذا أنا أنفث زفرة عميقة وأقول : هل من دليل على ما تقول ؟ فلأسف ليس ثمة دليل بعد على أن هناك تعديبا .

فقال وهو ينظر إلي : لقد كان الدليل بين يدي وتحت بصري .

لقد تبينت نظرتي ، نظرة صديقي القس ، ولم تكن غير نظرة من رأوا بأعينهم ولا يدور بخلد هم أن يقولوا غير ما رأوا . إن زهور العالم جميعاً قد ذبلت بعد تلك المأساة . وهنا ألححت عليه مستجديا : ترى ما حيلتنا إذا لم نجد لهذا التعذيب الآثار البدالة عليه ؟

قال القس : ألا تعلم أنهم لم يكفوا عن استخدام السياط ، ثم ما كانوا يفعلونه من غمس الرؤوس في الماء الى حد الاختناق ، ثم التيار الكهربائي الذي كانوا يسلطونه تحت الإبط وبين الأفخاذ ، ثم الماء القذر الملوث الذي كانوا يصبونه في أفواه الرجال بالخرطوم . هذا كله كان يفعل بالمعتدين إلى أن يفقدوا الوعي .

قلت : هذا مالا يجوز أن يكون !

فقال صديقي : بل هو الحق بعينه ولا مريّة فيه . وهذا أشبه ما يكون بما كان يُعامل

به داميان [ شاب حاول اغتيال الملك لويس الخامس عشر ] والمركيزه برانفيليه  
[ مركيزة قتلت أبوها وزوجها بأن دسّت لهم السمّ في منتصف القرن الثامن عشر ] .

ويعضى القس قائلا : إن أنواع العذاب تلك مملايترك أثرا ، ثم ... لا تنسى أعناق  
الزجاجات التى تُدسّ فى أديبارهم .

فقطاطعته قائلا : إني أعلم ذلك ، فقد سبق لغيرك أن قصّ علىّ مثل ما تقول ،  
ولكن لماذا ، لماذا ؟

قال القس : الغرض من هذه الأساليب هو الحصول على اعتراف من جانب  
المشبهين [ ولست أدعى أنهم جميعاً أبرياء ] بأنهم اشتركوا اشتراكا مباشرا أو غير  
مباشر في الإرهاب ، والمطلوب منهم بصفة خاصة أن يشهدوا ضد إخوانهم . وإنى  
لأذكر أحدهم وقد انتهى به التعذيب إلى إفشاء أسماء إخوانه فكاد يجنّ بأسا وخزيا  
فيردّد باكيا « يا للعار لقد أسلمتهم » . تخيّل هذا التعذيب الذى يتخلّله تحقيق  
واستجواب يدوم ساعات طويلا وقد تُركوا بغير طعام . وهم لهذا يكونون أطوع  
ما يكونون للتوقيع على أى شىء .

قلت : وماقولك فى القضاة وأين كانوا ؟ [ لأن التحقيق فى القانون الفرنسى لا يتم  
إلا بمعرفة القاضي ] .

قال القس : قبل أن يُساق الضحايا إلى ساحة المحكمة كانوا قد أعيذوا ليقولوا  
مأيراد منهم . ولقد كانت زوجتى ترقب حالة من تلك الحالات فرأت شبانا ملطّخين  
بالدماء . وهم يساقون إلى ساحة العدالة .

قلت : ألم يكن ثمة محام إلى جانبهم ؟ غاية ظنى أن القانون يحتمّ هذا ؟  
قال صديقى : لم يكن هؤلاء المعبّون يُخطرون لابلوم ولا بالساعة . ثم كيف  
يتسنى أن يوقف المحامى بباب القاضي ساعات طويلا متصلة تبلغ الثمانية وأكثر ؟

قلت : وهل تملك الشرطة القدرة على أن تحجز شخصا لأكثر من أربع وعشرين  
ساعة دون إذن القاضي ؟

قال : إن المادة ١١٤ من قانون العقوبات تبيح الحجز التعسفى .

قلت : وكيف يتم الإثبات فى مثل هذه الحالة ؟

قال : هذا جدّ بسير .

قلت : ولماذا لم تشكوا ؟

قال : هل تظن أن المتهمين يكفون عن الشكوى ؟ كم من شكاوى تقدمنا بها لم يحقق في واحدة منها . هل سمعتهى ؟ لم يحقق فى واحدة منها . باللعابا الفرنسين [ يقصد الجزائريين ] فهم لا يملكون فى هذا الصدد أكثر مما يملكه الحميتون [ يقصد التونسيين والمغاربة ] .

فاعترضته قائلا : إنك لخطيء فإننى أذكر أن « رابطة فرنسا - المغرب » [ وكان مورياك أحد أعضائها ] قد توسطت فى أمر مولاي مرباح السكرتير العام لجناح من حزب « حركة فوز الحريات الديمقراطية » بالجزائر ، فاتضح بالبيتة لوزير الداخلية فرانسوا ميتيران [ رئيس الجمهورية الفرنسية وقت كتابة هذه السطور ] أن هذا المتهم لم يتعرض للتعذيب البتة .

قال : بلى ، ولكن وزير الداخلية سليم النية إذ قد خُدع فى هذا الأمر . وإنى أعرف القصة بخدايرها . فقد قُدِّم مولاي مرباح إلى القاضى فى الخامس من نوفمبر . وفى التاسع من نوفمبر فقط تمكن محاميه من الاتصال به ليستمع إلى قصة التعذيب الذى تعرض له . كان ظهره يسيل دما من جراحه البالغة . ولقد ذكر لى أحد الحراس هذا الأمر ، وما أظننى أكذبه ، ولكن تقرير الطبيب الشرعى للأسف كان على غير الحقيقة . وهذا التقرير أخذ وزير الداخلية .

قلت : أرايت ؟ إن الدليل القاطع سىظل دائما مفقودا

قال : لا ، فلدينا شهود لحالات كثيرة . إن زوجتى رأت الجراح بصدر عبد العزيز ، وأذن القاضى باستدعاء طبيب شرعى ، لكنه رفض أن يتم الفحص فى حضور أستاذ بكلية الطب بمدينة الجزائر . ويمكننى أن أقص عليك قصة « عداد على » عضو مجلس الجزائر البلدى ، فقد رآه الصحفيون والمحامون والقضاة الواقفون بالردهة وهو فى حالة ذهول وآثار الضرب واضحة فى وجهه وفى ساقه ، فاستدعى القاضى طبيبا فى الحال . والأعشاوى صديق مدام مونييه ودوميناك والأستاذ مندوز . كيف لنا أن نشك فى كلامه وروايته عن كل ما قاساه ؟

أذعن كلانا للصمت ، وبعد أن أخذ القس يسرح فى تفكير عميق قال : السجن فى حد ذاته ياله من عذاب !!! إنهم يتحدثون عن سجن وجده . ولوعرقت سجن تيزى - أوزو !!! واحد وسبعون سجينا فى غرفة طولها عشرة أمتار وعرضها كذلك ، حُرِّم عليهم الكلام ، حتى الصلاة . وقد دُسَّ فى صفوفهم سجناء عاديون لمراقبتهم . إنها المدرسة هملر !!! ياله من تراث !!!

ثم عاد الصمت بيننا وعادت الكلمة ترن في سمعي : « أنت وحدك ... آه لو علم الناس ... إنهم يصدقونك أنت » فhezزت رأسي - وقلت : كلا : إنهم سيغضبون لاضطرارهم لمشاهدة ماعقدوا النية على تجاهله ، إنهم يرتضون أن تقام المدنية على عيوب خفية : الدعارة ، تجارة الرقيق الأبيض ، بوليس الآداب ، السجون ، ملاجئ للمساكين ، كافة المآسى . وهم يعتبرون كل ذلك شرًا لا بد منه ، وويل لمن يتحدث عنها صراحة . كان السكان قديما بالمكسيك يضعون أشلاء آدمية في جدران الهياكل التي كانوا يقيمونها لعبادة للشمس .

قال : لكننا لسنا كهؤلاء .

قلت : كلا . كلا . فنحن الفرنسيون أبناء فرنسا تلك الدولة التي أدرك أبنائها على مرّ الأجيال مايراد من رسالة المسيح . فنحن فرنسا التي أعلنت حقوق الإنسان في وجه أوروبا التي لعب برأسها الخمر .

قال : نعم . وهذه هي فرنسا التي يعرفها هؤلاء الذين نعتبهم .

قلت : إذن إن هؤلاء الجلادين لن يمكنهم أن يتذرعوا بعذر في وسع الغزاة أن يتذرعوا به ، لأن فرنسا تغزو برساتها الإنسانية لا بقوتها الغاشمة . وهؤلاء الجلادون الذين يسلبونها شرفها يجردونها في الوقت ذاته من كل سلاح .

وهناك انتصب قائما ومدّ إلى يده واستطرد في صوت يعروه الخجل :

— هل قرأت كتابي عن أهالي مدغشقر؟  
فأومأت برأسي . لكنه ألح قائلا :

— إنني أحدثك عن أعضاء البرلمان الفرنسي في مدغشقر . إنهم أبرياء . أعلم ذلك ؟ إنهم في عذاب منذ سنوات . وإنني أعلم أن أحدهم على وشك الهلاك من الضعف والمرض . إنهم مسيحيون ، أخوتك !

فأجبت : نعم .... نعم .... ثم أوصلته إلى الباب .. وها أنذا وحيد كما كنت . فتحت مجلدا يضم أسطوانات لموسيقى موزار واخترت إحداها ، ولكنني عدت فعدلت . إن البشاعة التي استمعت إليها مازالت تشيع في جو الحجرة ، أما هذه الموسيقى السماوية فليست لي ، وشعرت كأنني رجل اشترك - رغما عنه - في جريمة ، ويفكر في تردد أن يسلم نفسه للعدالة .

وعلى هذا المنحوانتهى مورياك ، الكاتب الفرنسي العظيم من مقاله الذي

يُؤجج به مشاعر الفرنسيين ضد الظلم الواقع من جلادهم على من ينادون بالحرية والاستقلال .

\* \* \*

وفي السابع من نوفمبر ١٩٥٤ التقيت بكلود شيسون مدير مكتب رئيس الوزراء لشئون الشرق الأوسط [ وزير الخارجية الفرنسية وقت كتابة هذه السطور ] . وبطبيعة الحال دار الحوار بيننا حول موضوع الساعة وقتذاك ، أى توتر العلاقات بين بلدينا وحرص حكومة مصر على عدم تعارض علاقتنا الطيبة بفرنسا مع اهتمامنا الواضح بمصالح إخواننا في العروبة والإسلام ، فهى مشاعر متوارثة لا يجوز أن يلمومنا أحد عليها . ولكنه لم يخف ضيقه بصوت العرب ولا حماسه للرئيس منديس فرانس المتميز في نظره عن بقية الساسة الفرنسيين بحرية الميول والواقعية ، ولذلك فهو السياسى الوحيد الذى يمكنه معالجة مشاكل شمال أفريقيا بروح تبشر بالنجاح ، كما أن أعداء منديس فرانس ذوو قوة وبأس يحاولون جاهدين إسقاطه أو إفساد خططه بشتى الوسائل المتدنية ، ولذلك يستغلون حملة الإذاعات العربية المضادة له ولسياسة فرنسا للنيل منه . ومن ثم فإن أكبر مساعدة تسديها مصر له للمضى قدما في هذا السبيل هى الكف عن الهجوم المبني على الإثارة فحسب في إذاعتها والحرص على الالتزام بالحقائق وحدها . فخصوم منديس فرانس يرصدون هذه الإذاعات لاستغلال ما تنطوى عليه في حملاتهم الصحفية ودعايتهم البرلمانية لإحراج مركز رئيس الحكومة واضعاف حججه التى يسوقها لتبرير سياسة التفاوض مع العرب بدلا عن سياسة البطش على الرغم من كونه يهوديا . وكان لا معدل عن أن أذكره بأن الشعور بالتضامن العربى هو عامل تاريخى وسياسى وعقائدى لا يجوز لفرنسا أن تهمل شأنه . فأخذ ييسر لى منهج رئيس الوزراء في حل مشكلة شمال أفريقيا ، بمنح تونس الاستقلال الداخلى لتمشى ذلك مع أحكام الدستور دون أن يمك به العدو المشترك لمنديس فرانس وللعرب من طبقة المستعمرين [ الكولون Colons ] وهو فى حالة تلبس بخرق أحكام الدستور ؛ فإن عليه أن يستخدم حقوقه الدستورية على أوسع الصور دون الخروج عنها قيد أنملة مع سلك منفذ أمام طعنات المستعمرين ، وهو ما أدركه الحبيب بورقيبة فقبل مبدأ المفاوضة على هذا الأساس كخطوة تكتيكية إلى أن تتغير الظروف . كما أن اتحاد كلمة المغاربة واجتماعهم على مناقشة فرنسا ومفاوضتها على تنظيم نقل

السلطة إليهم مع توفير الضمانات الكافية بالنسبة للمصالح الفرنسية— كما هو الأمر مع تونس— سيحفظ دون شك الحكومة الفرنسية على الدخول معهم في المفاوضات . غير أن الحال ليس كذلك بكل أسف ، ولا حاجة لطبقة المستعمرين إلى الترتبص بالرئيس منديس فرانس والإطباق عليه حين يتجاوز سلطاته الدستورية ، إذ يكفيهم لعرقلة أى إجراء من جانب رئيس الوزراء أن يكشفوا عن أن مباحثة أى فريق من المغاربة يثير حفيظة فريق آخر، إذ لا إجماع على الإطلاق بين الفئات والأحزاب المغربية .

وما كاد يستقل إلى قضية الجزائر حتى بادرنى إلى لفت نظرى إلى أن الدستور الفرنسى ينص على أن الجزائر بولاياتها الثلاث جزء من التراب الفرنسى ، وأنها بلا جدال نعترف بالدستور الفرنسى بدليل قيام علاقات دبلوماسية بين الدولتين . ولذلك فإن فرنسا تعتبر تشجيع إذاعتنا للجزائريين على الثورة إنما هو تحريض سافر على انسلاخ أرض فرنسية من الدولة الفرنسية ، فهل ترانا نحيى لفرنسا مثلاً تحريض أهالى سيناء على الانسلاخ من الدولة المصرية .

وصارحنى بأن الرئيس منديس فرانس يدرك كل الإدراك أن لمصر وللدول العربية من ورائها أن تعلن اهتمامها بقضايا الشعوب العربية والإسلامية ، وأنه بطبيعة الحال لا يستطيع أن يعرب عن رأيه هذا جهاراً إلا أنه لا يرى مانعاً من إحاطة الزعامات العربية بصفة غير رسمية بما تنوى الحكومة الفرنسية اتخاذه من إجراءات تجاه قضايا الشمال الأفريقى قبل تطبيقها ، وبشرط الاقتصاد على الشخصيات الصديقة [ ولعلّه يقصد المؤثرة ] مثل الرئيس عبدالناصر ، كما أنه يعترم تنشيط التعاون الاقتصادى مع كافة الدول التى تهتم رأس المال الفرنسى وفي مقدمتها الدول العربية وإيران .

وقد أدركت خلال الحوار مدى صعوبة ذكر وساطة الرئيس عبدالناصر صراحة دون إشعار محدثى بأنه لا تدخّل من جانبنا ، وحاولت صياغة الفكرة والتعبير عنها فى صورة يمكن تقبّلها بأن أشدّت ببعد الرئيس عبدالناصر عن العنصرية والتعصب وبروحه التقدمية ويمدى ما يتمتع به من كلمة مسموعة فى مصر وخارجها وفى البلاد العربية والإسلامية ورغبته الصادقة فى التفاهم مع فرنسا على أساس تحقيق آمال الشعوب العربية فى الشمال الأفريقى ، بل واستعداد

ليس للوقوف موقف الانتظار حتى تتم مرحلة المفاوضات وإنما للمعاونة الفعلية والإسهام في إيجاد حل للمشكلة يقبله الجميع .

وفي الحق لم أجد في رده ما يوحى بالترحيب بما ألححت إليه ، بل لقد تخلّص بلباقة من التعليق عليه ، فلم يكن مبدأ الوساطة مقبولا ولا معقولا إلا بين فئة محدودة وعلى نطاق ضيق ، بينما كان الرأي العام الذي تشكّله وسائل الإعلام الواقعة تحت السيطرة الصهيونية يجعل كل من يفكر في مثل هذه الوساطة يتردد كثيرا قبل الموافقة عليها حتى لا يتهم بالخيانة . وفي نفس الوقت كانت السلطات الفرنسية على اتصال بالوطنيين المغاربة تفاوضهم لتحقيق هدنة تتيح لمنديس فرانس الوصول إلى صيغة لحل القضية المغربية . ولم يمض وقت طويل حتى دعاني جورج جورس — الوزير السابق وأحد أصدقاء منديس فرانس والمعروف عنه تعاطفه مع قضايا العرب أو على الأقل علمه بكنهها [ حيث عاش في مصر خلال الحرب العالمية الثانية واشتغل بالتدريس في مدارس اللبسيه وكان يشرف على البرنامج الفرنسي الموجه بالإذاعة المصرية ] — دعاني لزيارته في منزله ، ومضى يحدثني عن أهمية تهية المناخ الملائم حتى يستطيع رئيس الحكومة أن يكمل مساعيه لحل مشاكل الشمال الأفريقي بالنجاح ، ولذلك فهو يطلب وساطتي لترتيب موعد له لمقابلة عبدالناصر بالقاهرة ، فدبرت له هذا اللقاء في حينه .

\* \* \*

وخين حاول وزير المالية الفرنسية إدجار فور في إحدى جلسات مجلس الوزراء التأثير على زملائه لقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر، تصدّى منديس فرانس معارضا هذه الخطوة ومطالباً بمهلة حتى يوم ١٢ نوفمبر قبل اتخاذ مثل هذا القرار. وفي يوم ١٢ نوفمبر ١٩٥٤ صرّح منديس فرانس أثناء الاستجابات الخاصة بالجزائر في جلسة الجمعية الوطنية ، وبعد أن بسط الفارق بين موقف فرنسا من تونس والمغرب من ناحية وموقفها من الجزائر التي تعدّ جزءا من التراب الفرنسي من ناحية أخرى أنه ليس في وسع أي حكومة فرنسية أن تقبل تمزيق الوحدة التي تربط بينهما مما يجعل حكومته عاقدة العزم على قمع أي مقاومة في الجزائر إلى أن قال :

«إن بين أعمال الإرهاب في الجزائر وفي تونس نقطة مشتركة هي التشجيع الذي



تتلقاه من الخارج والذي يبلغ أحيانا حد الإثارة ، وما من أحد هنا يشك في القلق الشديد الذي يساورنا بسبب موقف الحكومة المصرية . فرغما عن مساعينا المتكررة استمرت إذاعات صوت العرب من القاهرة تحرض الأهالى على الثورة والقتل . وقد ترتب على ذلك أن العلاقات بيننا وبين مصر باتت لا تدعو إلى الارتياح بصورة جدية ، وإن كان الخلاف بيننا ينحصر في هذه المشكلة وحدها . وفي الوقت الذي نحاول فيه حكومتنا إيجاد حل كريم لمشاكل أفريقيا الشمالية تعمل الحكومة المصرية على تشجيع المستطرفين ، وهى بذلك تعرض نتيجة أعمالنا للفشل أو على أقل تقدير تعوقها . ولقد دأبت فرنسا في علاقاتها مع مصر على اتخاذ موقف سليم منها إن لم يكن وديا ، فالصدقة التى تربطنا بها ترجع لمائة وخمسين عاما ، واتخذت مظاهر مشرقة في الميدان الثقافى ، كما تعمل فرنسا في المجالين العلمى والصناعى على مساعدة مصر ، حتى لقد أوفدنا في الصيف الماضى بعثة مالية فرنسية إلى مصر لدراسة ظروف توظيف رؤوس أموال فرنسية في مشروع أسوان . وقد حان الوقت الذى يتعين فيه على الحكومة المصرية أن تقدر مسئوليتها لأننا لن نتردد إذا استمرت على موقفها في اتخاذ الإجراءات التى نعتبرها لازمة وناجعة . لكننا مازلنا نعتقد أنه من الممكن إزالة سوء التفاهم بمفاوضات صادقة نؤمن بها مصالحنا المشتركة .

\* \* \*

كانت فرنسا كما قدمتُ يتنازعها فريقان : التقدميون بزعامة منديس فرانس رئيس الوزراء والرجعيون بزعامة رينيه مايير نائب قسطنطينة بالجزائر ومدير بنك روتشيلد والناطق بلبنسان المستعمرين بشمال أفريقيا والمدافع عن أصحاب المصالح الاقتصادية في فرنسا ومن كبار الرأسماليين الذين تحتوهم المائتا أسرة المسيطرة على رأس المال الفرنسى كله . ويدعم هذا الفريق نشاط صهيونى واسع المدى تدبر خططه السفارة الاسرائيلية وتحرك خيوطه شخصيات يهودية عالمية تهدف إلى تأليب الرأى العام الفرنسى ضد مصر .

وكانت سياسة منديس فرانس قائمة على إمكانية التفاهم والتفاوض مع العرب دون اللجوء إلى العنف ، غير أن المستعمرين أصحاب المصالح الحقيقية كان لهم سند قوى داخل الجمعية الوطنية الفرنسية ، فانتهزوا فرصة الانتفاضات التى هبت في الجزائر حينذاك لإثارة الرأى العام الفرنسى ضد مصر وهجمات إذاعة صوت العرب ، والحق إن أثر الصحافة على الرأى العام كان بالغا حتى لقد

تلقى سفيرنا وقتئذ خطابي تهديد بالقتل . وانطلقت وسائل الإعلام والصحافة تحذّر من أن سياسة المهادنة والتساهل التي ينتهجها مندس فرانس قد أدت إلى الاستهانة بهيبة فرنسا ، وإلى اندلاع « الحركات الإزهاية لأول مرة بالجزائر ، وأن رئيس الوزراء إنما يصقّى الاتحاد الفرنسي ، وأن الأوان قدحان لإحلال رجل قوى آخر محله » . كذلك أدّى كبار موظفي الدولة من رجال الصف الثاني وأغلبهم يشايح رينيه ماير وجورج بيدو ، دوراً كبيراً في عرقلة جهود مندس فرانس وحجب كل مامن شأنه تيسير مهمته في شمال أفريقيا .

وقد أبلغت القاهرة في أكثر من رسالة بهذا الموقف ، مشيراً إلى أنه من الحكمة أن تقف مصر موقف المؤازرة لفريق التقدمين الساعى إلى حل قضايا الشمال الأفريقي عن طريق المفاوضات ما حَسُنَت نيّاته وثبت على وعوده بتحقيق الأمانى القومية بتونس ومراكش ضد فريق الرجعيين الذي تحتضنه إسرائيل لسناهضة العرب . وإذا كنت لم أنصح بإيقاف إذاعة صوت العرب إلا أنى كنت دائم الإلحاح على ضرورة إسناد أمره إلى متخصصين من الصفوة تدرك أبعاد كل كلمة تصدر عنها وما يترتب عليها من نتائج كانت تمسّ أحيانا مصالح وطنية هامة يأتى في مقدمتها إمداد قواتنا المسلحة بالسلاح الذى كانت قيادة القوات المسلحة دائمة الإلحاح على العمل على ضمان وصوله . وهو ما كان يضعنى في مركز حرج حين أطالب بالسلاح فيطالبونى هم بوقف الهجوم الإعلامى على فرنسا .

وفى الثامن عشر من نوفمبر ١٩٥٤ أرسلت إلى جمال عبد الناصر رئيس مجلس الوزراء تصوّرى لما ينبغي أن تكون عليه برامج إذاعات صوت العرب بحيث يكون بشأ موضوعياً . ينجح فى استقطاب العناصر المعتدلة من الفرنسيين الذين يأتى على رأسهم رئيس الوزراء الفرنسى نفسه . واقترحت لذلك فى البداية اقتراحين أساسيين : الأول هو إسناد مهمة توجيه الدعاية بالنسبة لقضايا الشمال الأفريقى إلى هيئة تضم عناصر من الخبراء المتخصصين فى الشؤون الأفريقية دبلوماسيين وإعلاميين فضلاً عن ممثل للقوات المسلحة لوزن الأمور والمصالح على أن تكون صلة رئيس هذه الهيئة برئيس مجلس الوزراء مباشرة . والاقتراح الثانى ألا يخلو البث من تذكير الفرنسيين ببطولات المقاومة أثناء الاحتلال الألمانى الذى لم يكن العهد به قد تبعد كثيراً ليستقر فى أذهانهم أن ما يقوم به التونسيون والمراكشيون المطالبون

بتحرير بلادهم من الوصاية الفرنسية هو اهتداء بنهج الفرنسيين في تعقبهم للغزاة الألمان لتطهير بلادهم من الاحتلال الأجنبي . هذا إلى ضرورة الاهتمام بالمفكرين الفرنسيين المؤيدين للحركة الوطنية في المغرب العربي وتقديم أحاديثهم وأفكارهم وتحركاتهم المؤيدة للعرب والإشادة الدائمة بهم ، فضلا عن تقديم الأبطال الوطنيين المغاربة المعروفين لدى الشعب الفرنسي من أمثال الأمير عبد الكريم الخطابي ليتحدث إلى الشعب الفرنسي عبر صوت العرب ، مع تذكير الفرنسيين بالدرس الذي تلقوه في الهند الصينية وبما يمكن أن تخسره فرنسا بعادتها للعرب لأنها تحارب في الحقيقة أمة تقدر بأربعمائة مليون مسلم يقصدون الحرية وتضمتهم روابط الأخوة والعقيدة . وقد كان للجزائر وضع خاص دون سواها في الاتحاد الفرنسي ، فبينما العلاقات بين فرنسا وكل من تونس ومراكش تضطلع بها عادة وزارة الخارجية الفرنسية إلى أن أفردت لها وزارة خاصة منذ تولي منديس فرانس الحكم ، تخضع العلاقات بين فرنسا والجزائر لوزارة الداخلية بوصفها دستوريا وقانونيا ودوليا جزءا من فرنسا لها نواب وشيوخ يمثلونها في البرلمان الفرنسي لا في « الاتحاد الفرنسي » كسائر الممتلكات الفرنسية ويتولى السلطة المدنية فيها مدنيون عاديون شأنها في ذلك شأن مقاطعات فرنسا الأوروبية . لهذا فقد اقترحت أن يطرح صوت العرب فكرة إجراء استفتاء للشعب في الجزائر لتقرير حق مصيره بموجب نصوص حقوق الإنسان الواردة بميثاق الأمم المتحدة ، مع ضرورة اهتمام المشرفين على هذا الركن بالدراسة المستفيضة للدستور الفرنسي والتشريع الجزائري واكتشاف نقاط الضعف والتناقض فيها من ناحية الوضع القانوني في الجزائر بما يتيح شق حملة موضوعية من هذا المنطلق لتكشف التعسف الذي تم به ضم هذه الأرض للدولة الفرنسية دون استشارة أهلها مع حرمانهم من الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون في فرنسا الأم التي تعدّهم في نفس الوقت من رعايلها المتساوين في الحقوق والواجبات . كذلك طلبت الالتفات إلى أن فرنسا التي تعد الجزائر جزءا منها لم تتورع عن الإتيان على الثقافة العربية واللغة العربية التي هي لغة أهل الجزائر ، وما ذلك إلا بغية استئصال الجذور العربية من نفوس القوم واعتزازهم بوطنهم . وكما كنت أود أن يتساءل صوت العرب عن سر احتجاج فرنسا علينا حين ننتقد الاستعمار الفرنسي بيننا تلتزم الصمت أمام

إذاعات أخرى مثل صوت أمريكا والإذاعة البريطانية وإذاعات الكتلة الشيوعية وخاصة راديو بودابست .

وقد اهتم جمال عبدالناصر بهذه الرسالة اهتماما خاصا دفعه إلى أن يرسل إلى السيد عبدالقادر حاتم رئيس مصلحة الاستعلامات وقتذاك الذى شرحت له فى إسهاب وجهات النظر التى ضمنتها رسالتى إلى رئيس الوزراء ، وأمضينا وقتا طويلا نبحث الوسائل والإجراءات الكفيلة بتحقيق ما كنت أرجو أن تسير عليه إذاعة صوت العرب فى قضايا الشمال الأفرىقى .

ثم مالبث الرئيس عبدالناصر أن استدعانى إلى القاهرة ، وبعد أن عرضت عليه الموقف حملنى رسالة شفوية إلى الرئيس منديس فرانس الذى تحدّد موعد لقائى به بمكتبه فى وزارة الخارجية فى السادس من ديسمبر ١٩٥٤ حيث قدمنى إليه السفير المصرى محمود صالح الفلكى كما تقضى به الأصول المرمية . وبدأت الحديث بالإشارة إلى التوتر الشديد الذى طرأ على العلاقات الفرنسية المصرية خلال الأسابيع القليلة الماضية ، موضحا أن جملة من الأصدقاء الفرنسيين والمصريين المؤمنين بأهمية التعاون التام بين بلدينا ، والذين يعرفون الصلة التى تربطنى بالرئيس عبدالناصر قد توقعوا منى أن أسهم بنصيب فى إزالة هذا التوتر ، وهو ما وجدتنى مدفوعا للقيام به لإيماني بفائدة المحافظة على الصداقة التقليدية بين الدولتين وبضرورة تنميتها ، ولإعجابى بشخصية منديس فرانس وطريقة تناوله للمشكلات الصعبة والمعقدة التى تواجهه منذ تولّيه رئاسة الحكومة . ومن ثم اتصلت بالرئيس عبدالناصر لأقفه على وجهه نظرى فدعانى للقائه بمصر وعهد التى بنقل رسالة شخصية شفوية منه إلى الرئيس منديس فرانس هى مزيج من التحية والتقدير له واهتمامه بالتصريحات التى أدلى بها بشأن الشمال الأفرىقى ، والتى يرى الرئيس عبدالناصر فيها نظرة جديدة لمشاكل شعوب هذه المنطقة وتمهيدا لعصر جديد ، وهو واثق أن إسرار الخطى فى هذا السبيل لا يمكن إلا أن يزيل أسباب سوء الفهم الحالى ، كما أنه قد قرر الاستجابة للرغبة التى نقلها له سفيرنا بإيقاف اللهجة العدائية العنيفة فى الإذاعة المصرية والتزامها بنقل المعلومات الموثوق بها والمناقشات الموضوعية الهادئة التى توفر مناخا ملائما يمكن من خلاله التوصل إلى حلول مناسبة . ثم أبلغته أمل الرئيس عبدالناصر فى تمكنه من وقف

إجراءات القمع العنيف في شمال أفريقيا التي تثير بلاشك حفيظة الشعوب العربية والإسلامية في أنحاء العالم ، فإن مواصلة هذه الإجراءات تعقد الوصول إلى حلول ، كما أنها تزيد من الضغوط الواقعة على الرئيس عبدالناصر ليس في مصر وحدها بل في الدول العربية والإسلامية بالمثل . وأوضحت له أنه يأمل في الوصول بالمفاوضات مع تونس إلى حل يكشف للعرب جميعا عن صدق نيته ، كما أنه يعتقد أن الطريق إلى ذلك قد يكون بعدم تغليب وجهات نظر الخبراء على الحس السياسي السديد الذي يتمتع به . وأضفت أن الرئيس يرغب في أن يقوم بعمل مساعد في قضية مراكنش ، وذلك ببذل محاولة جادة لتوحيد مختلف فصائل وأحزاب المراكشيين وهي كثيرة العدد ، وأنه يأمل أن وجهة النظر التي يدخرها الرئيس منديس فرانس لقضية الجزائر ستمحو أسباب السخط وتوفر السلام والرخاء . وفي النهاية أكدت لرئيس الوزراء أن مسعى عبدالناصر هو مسعى تلقائي تحدوه رغبة صادقة في التعاون مع فرنسا دون أن يكون هناك أى ضغط خارجي يدفعه إلى ذلك .

وقد استقبل منديس فرانس الرسالة استقبالا طيبا وعبر عن شكره للرئيس عبدالناصر ، وعن الإعجاب بشجاعته في معالجة الأمور وفي التغلب على المشاكل التي تصادفة ، ثم بدا سعيداً بتقدير الرئيس لسياسته وبقراره بتخفيف حملة إذاعة صوت العرب ، وأفاض في شرح نهجه لمعالجة مشاكل تونس ومراكش والجزائر بروح تعترف بطبيعة العصر وحق الشعوب في التطلع إلى مزيد من الحرية . وبعد أن أشاد بشخصية عبدالناصر التي دفعت بمصر إلى مكان الصدارة بين الدول العربية ودعمت مكانتها في العالم الخارجى عبر عن تشابه الدور الذى يقوم به في فرنسا بالدور الذى يقوم به عبدالناصر في مصر ، وهو ما جعله يطمع في مزيد من التعاون والعمل المشترك ، ثم علق على عبارة سياسة القمع العنيف التي وردت في رسالة الرئيس بأنه قد أعلن هدنة في تونس بمادفع المقاتلين إلى تسليم أسلحتهم في طمأنينة كبيرة ، وأنه لم يطالب أحداً بالإدلاء باسمه ولم يحاسب أحداً على ماضيه ولم يسأله عما ينتوى في المستقبل . كما أعلن عن عزمه على الإفراج التدريجي عن سجناء المقاتلين الجزائريين ، وكشف عن إفراجه عن الآلاف من المراكشيين الذين اعتقلتهم الشرطة دون محاكمة قانونية .

وقد قامت مصر بتمهدها في تخفيف لهجة إذاعة صوت العرب ، غير أنها كانت هدنة مؤقتة ، فسرعان ما انكشف التعاون والتنسيق بين جهازى إذاعة باريس وإذاعة تل أبيب وانفضح الاتفاق السرى بينهما ، فعادت إذاعة صوت العرب تندد بالسياسة الفرنسية في الشمال الأفريقى وإن تجتبت مهاجمة الشخصيات الفرنسية الرسمية . وتلقيت من القاهرة مايفيد أخذها بوجهة نظرى في تعذر قيام مصر بالوساطة بين فرنسا ومراكش نظرا لحساسية هذه الخطوة ، وإن ترك لى انتقاء اللحظة المناسبة لإعطاء القاهرة الإشارة لمعاودة المحاولة . ومع ذلك فقد كان على وأنا في موقعى بباريس أن أخفف بعبارات المجاملة والحوار الهادىء وقع حملات إذاعة القاهرة كلما اشتدت وطأة الهجوم على السياسة الفرنسية ، إذ كان ينبغى ألا تغيب عن بالى مصالحنا العسكرية من حيث تزويدنا بالذبابات وأسلحة المدفعية ، والاقتصادية كمساهمة بنوكهم في مشروع السد العالى وشرائهم القطن المصرى إلى غير ذلك .

\* \* \*

وفي السابع من ديسمبر ١٩٥٤ اتصل بى دان أفنى الملقب الصحفى بسفارة اسرائيل ملتحا في مقابلتى لإبلاغى رسالة هامة فالتقيت به مصطحبا معى المستشار حسن ماهر من أعضاء السفارة بأحد مقاهى الشانزليزيه . وانصب حديثه على أن حوادث الاعتداءات المصرية على الحدود في قطاع غزة قد زادت ، ثم تساءل إذا كنان يمكن أن يفهم من ذلك تغييرا في اتجاه الحكومة المصرية نحو اسرائيل . ومع أنى صابرحته بأننى لا أحتل منصبا يحولنى الرد على مثل هذا السؤال فهذه سياسة عليا لاشأن لى بها ، فقد سألتنى عن رأى الشخصى فقلت له : إن وقوع الحوادث على الحدود المشتركة أمر عادى ، وقد سبق لكم الاعتداء على حدودنا وحدود المملكة الأردنية ، فإن حدث من جانبنا شىء ما فثمة لجنة دولية للهدنة يمكن الاحتكام إليها في مثل هذه الأحوال .

وقد أدركت على الفور أن هذه المقدمة ليست بيت القصيد وإذا هويستطرد قائلا « إن الحكومة الاسرائيلية لا تبغى أن تضيف متاعب جديدة إلى المتاعب الحالية التى تواجهها الحكومة المصرية . ولذلك نأمل أن تتخذ الحكومة المصرية من الاجراءات داخليا وخارجيا مايساعد حكومة اسرائيل على المضى في سياسة التهدة التى تنتهجها » . ولما سألتها عما يقصد بالاجراءات الداخلية ، فسرها بعاملة

العناصر اليهودية في مصر معاملة عادلة ، فتساءلت عما إذا كان قد وصل إلى سمعه تصريح حاخام اليهود في مصر الذي أعلن فيه ارتياحه هو والجالية اليهودية في مصر للمعاملة السميحة التي يعاملون بها ، وهو دليل على أن ما يتخوف منه غير ذي موضوع ، ثم أضفت : أما إذا كنت ترمى إلى قضية معينة بالذات وهو ما تحوم حوله ، فهذه القضية مطروحة الآن بين يدي العدالة ولاسلطان لأحد على القضاء ، فلنندعها تأخذ مجراها [ وكنت أقصد طبعاً قضية المحرّبين الاسرائيليين الذين تم القبض عليهم في مصر متلبّسين ] . فقال وقد أسقط في يده : لا جدال في أن العدالة ينبغي أن تأخذ مجراها ، غير أن الحكومة الاسرائيلية تأمل أن تسير العدالة وفقاً للمبادئ الإنسانية الدولية كما تتمشى مع حالة « السلام » القائم .

ولم تكن هذه المقابلة إلا حلقة من حلقات الضغط التي كان يمارسها الإسرائيليون وقتذاك للحيلولة دون صدور حكم الإعدام المتوقع ضد بعض المتهمين في قضية الجواسيس الاسرائيليين . وقد كتبت إلى القاهرة في الثامن من ديسمبر ١٩٥٤ أبلغها بما دار من حديث وأوصى بعدم الرضوخ للتهديد أو الضغوط الخارجية ووضع الرأي العام الداخلي في الاعتبار الأول والأخير . وعلقت على هذا التهديد بما استنتجته من عزم اسرائيل على القيام في وقت قريب باعتداءات محسوبة على حدودنا وهو ما يتطلب الاستعداد لصد العدوان المرتقب بحزم [ قامت اسرائيل بغارتها على غزة في فبراير ١٩٥٥ ] ، كما أشرت إلى أن اسرائيل ستعبر كل قواها لتأليب الرأي العام العالمي ضدنا مثلما فعلت عند تنفيذ الحكم الصادر على روزنبرج وزوجته اللذين اتها بالجاسوسية في الولايات المتحدة الأمريكية . وتوقعت الاعتداء على قوارب الصيد المصرية وأوصيت بحراستها بقطع من الأسطول البحري . كما خالجنى إحساس بأن اسرائيل قد تلتق قضية جاسوسية لبعض العرب المقيمين في اسرائيل .

\* \* \*

وفي أول ديسمبر ١٩٥٥ تشكّلت حكومة جديدة برئاسة إدجار فور بعد أن فشل مندريس فرانس في الحصول على ثقة الأغلبية في الجمعية الوطنية . وظلت مشكلة الشمال الأفر يقى هنى شاغل الحياة السياسية في فرنسا . ومضت الحكومة في

التباحث مع جناح المحافظين اليمينيين بالجمعية الوطنية وخاصة مع المارشال «جوان» بقصد تطهير الإدارة الفرنسية في مراكش من غلاة الاستعماريين ، غير أن الجناح اليميني لم يقف مكتوف الأيدي حيال إبعاد الإداريين الفرنسيين المماليين له والذين يعمل بنصحتهم كل حاكم عام في المغرب ، فوق حجر عثرة في سبيل إقصائهم عن مناصبهم ، ومن ثم أخذت الحكومة الفرنسية تتعثر فيما بدأتها من إصلاحات في المغرب ، كان أولها تعيين «جرانقال» — وهو الزاسي يهودي اسمه الأصلي هيرش أونندورف — مقبلا عاما ظنا منها أنه رجلها المخلص . وبالرغم من أن هذا الحاكم الجديد كان يحظى بتعظيم ديجول ومنديس فرانس إلا أنه كان في واقع الأمر من أذئاب المارشال جوان .

وعرض جرانقال خطة جديدة اتفق عليها مع سفير الولايات المتحدة بفرنسا ، تقضي بأن تتخلى فرنسا عن الإدارة المباشرة بمراكش على أن تستعين بقوات الحلف الأطلسي لضرب الحركة الوطنية ، غير أن المارشال جوان مالبث هو وفريقه أن عارضوا هذه الخطة بشدة . وكان إدجار فور واضحاً في معارضته لعودة السلطان محمد بن يوسف إلى عرشه اعتقاداً منه أن ذلك سيضعف من هبة فرنسا ويقوى من شأن حزب الاستقلال ، فطرح فكرة خلق مجلس وصاية خاضع لفرنسا وحاول أن يستميل لها بعض الهيئات المغربية غير المتطرفة والتي لا تذهب في مطالبتها إلى حشد الاستقلال التام . وكان أن تصدى المارشال جوان لهذا النمط من الإصلاحات ، إذ هو — كما قدمت — وثيق الصلة بكبار أرباب الأعمال في أفريقيا الشمالية وبأوساط الجيش ، فأعرب جهرا عن معارضته بمقاطعة جلسات لجنة تنسيق شئون شمال أفريقيا ، وأصدر رئيس الوزراء بعدم موافقته على أية تنقلات بين رجال الإدارة بالمغرب ، ومنهضته لأي إصلاح مثل إنشاء مجلس الوصاية الذي تقترحه الحكومة مطالبا قبل الاشتراك في المناقشة البرلمانية حول الموقف في شمال أفريقيا بما يؤكد أن السلطان محمد بن يوسف لن يستبدل بالسلطان محمد بن عرفة . وكان أن تكتل من ورائه — حتى في هذه الخطوة الإصلاحية المتواضعة — جميع الاستعماريين ، وإذا بالمقيم العام «جرانقال» يعلن أثناء اجتماع عقده رجال الأعمال بمن يشكّلون الحلقة الاستعمارية بمراكش أنه مستعد للتصرف في الشئون المراكشية حسبما يحلوهم سواء رضيت الحكومة عن



تصرفاته أم لم ترض ، وقد كان هذا هو سلوك كل حاكم أسندت إليه أمور المغرب . ولم يكن إدجار فور بطبيعة الحال مستعدا لأن يعرض نفسه بسبب قضايا الشمال الأفريقي لما تعرض له سلفه منديس فرانس ، ولذا كان عليه أن يحسب حساب المارشال جوان ولا يُقدم على أية خطوة قبل أن ينال موافقته ويعطيه الضمانات التي يبتغيها . وأخذ المستعمرون يطالبون بتطبيق نفس أسلوب القمع المتبع بالجزائر في المغرب ، إلا أن رئيس الوزراء ظل مترددا خشية إندلاع الحرب الأهلية في الشمال الأفريقي بأسره .

\* \* \*

في صيف عام ١٩٥٥ طلب إليّ جمال عبدالناصر الحضور إلى مصر لألقاه ، وظننت أن الأمر هام فوصلت القاهرة عجلا حيث لقيته فأخذ يشرح لي الأوضاع في سلاح الفرسان وحاجته الشديدة إلى قائد جديد يعهد إليه به لأهمية هذا السلاح ، ووجدته يعرض عليّ تسلم هذا المنصب مع منحى ترقية استثنائية . وكانت هذه مفاجأة لي ، ومع ذلك فلم أتردد في الاعتذار لأنني كنت أعرف أن خيرة ضباط سلاح الفرسان الذين أدوا دوراً حاسماً في تنظيم الضباط الأحرار وفي المشاركة في أحداث الثورة ليلة ٢٣ يولييه قد أودعوا السجن . ولم أر ما يحملني على أن أتولى قيادة مجموعة أخرى من ضباط ليست لي بهم تلك الصلات التي كانت تربطني بمن قبلهم . وقد سألته بعدها : أو لم تكن أنت الذي اخترتني لأكون ملحقاً عسكرياً دون أن أطلب ذلك أو أسعى إليه ؟ قال : بلى . فأحببت أن أعرف رأيه فيما أقوم من عمل فإذا هو لا يتلبث في أن يشيد بما حققت . قلت : إذن فلأبق مكانى . وأرضته هذه الإجابة فسكت . وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث وكنت قد عزمت على أن أعاتبه فإذا هو يسبقني ويقول إنه عاتب عليّ . فلم أتركه يكمل حديثه وتساءلت : من منا يعاتب الآخر ؟ أنسيت أنك وعبدالحكيم أغفلتما توديعي ولو بمكالمة تليفونية لحظة خروجي من مصر إلى سويسرا ، وأحسست أنني مغضوب عليّ دون ذنب أو جريرة ، نفيم عتابك أنت ؟ .

وكنست عندما طالعتنى الصحف في مارس ١٩٥٤ عربية وأجنبية وأنا في باريس بخبر تعيين خالد محيى الدين رئيساً للحكومة في أعقاب أحداث سلاح الفرسان . قد اتصد به توا أهنته أولاً على تقلده هذا المنصب راجياً له التوفيق في

مهامه التى اضطلع بها . وكنت لمعرفتى الوطيدة بخالد أو من بأنه سيكون عند حسن ظن الناس به ، فلقد عهدته كما عهدته غيرى مؤمنا بقضية الديمقراطية . وكان مما جرى على لسانى وأنا أكلمه عبارات تنطوى على تطرف فى الحماس بألا يسمح لمن تساوره نفسه بالانتكاص . ولقد أحسّ خالد ما فى عباراتى من غلو يكاد يسيء إلى الآخرين ، وما أحبّ خالد لى أن أتورط بأكثر مما قلت فأخذ ينصت دون أن ينسب بكلمة وكأنه بهذا يحذرنى من الاسترسال ، ولا زال هذا الذى دار بيننا تليفونيا نتداوله أحيانا ونحن نسترجع الذكريات . وما أظن جمال عبد الناصر كان بعيداً عن هذا الحديث الذى دار بينى وبين خالد تليفونيا ، ودليل هذا أنه أخذ يعاتبنى فى هذا اللقاء . غير أنى ذهلت حين رأيته يعاتبنى كذلك على استقبالى لأخى خالد محبى الدين عند وصوله إلى مطار باريس وحفاوتى به عند خروجه مُبعداً بعد أزمة مارس ١٩٥٤ ، ولم أملك إلا أن قلت له : تصوّرياً أخى لو أن خالد قد تسلّم السلطة فعلاً تنفيذاً لقرار مجلس الثورة يوم ٢٧ فبراير ١٩٥٤ ، وأنت أنت الذى أتيت إلى باريس مُبعداً بدلا منه ، هل كنت تتصور إننى أستطيع إلا أن أهرع إليك وأستقبلك وأحتفى بك بنفس الحب والمودة ؟

فشاعت ابتسامة عريضة على وجهه وقال : لقد غلبت حجتك حجّتى .

\* \* \*

وما لبثت انتخابات ٢ يناير ١٩٥٦ أن أسفرت عن فوز الحزب الاشتراكى وتشكّلت الحكومة الجديدة برئاسة جى مولىه . وكانت آمال الشعب الفرنسى معقودة عليها للخلاص من مشاكل الشمال الأفريقى ، لاسيما أن دعاية الحزب كانت قائمة على التنديد بالحرب فى الجزائر . وكان الحزب الاشتراكى يتمتع بالأغلبية البرلمانية فى الجمعية الوطنية ، ومن ثم أصبحت يده أكثر انطلاقا من غيره من أحزاب الائتلاف . على أن الصحافة وأجهزة الإذاعة والتلفزيون دأبت على شن حملاتها على مصر فى نفس الوقف الذى أخذت الحكومة فيه تستجيب لمطالب اسرائيل بتزويدها بطائرات المستير الحربية . وبعد مرور أكثر من شهرين على تولي الحكومة الاشتراكية السلطة أبلغنى النائب الراديكالى جورج شاسيئى برغبة الميسوپير كوممان Commin نائب السكرتير العام للحزب الاشتراكى SFIO وعضو مجلس الشيوخ فى لقائى . وكان من الطبيعى أن يتطرق الحديث إلى الموقف

السياسى فى الشرق الأوسط وإلى السياسة الفرنسية فى الشمال الأفريقى . ولم أستطع أن أمنع نفسى من أن أعبر له عن دهشتى البالغة من تنكّر الحزب الاشتراكى للمبادئ التى نادى بها قبل الانتخابات لوضع حد للحرب فى الجزائر وتحقيق الحل السلمى لمشكلتها ، فلم ينكبر وجود عدد من أعضاء الحكومة الحالية من الموالين لاسرائيل وإن أكد أنهم بعيدون عن التأثير فى مجرى السياسة الخارجية الفرنسية ، كما اعترف بوجود بعض السياسيين الراغبين رغبة أكيدة فى مساعدة اسرائيل والذين يضرمون هدفاً بعيداً هو إشعال نار حرب صليبية ضد مصر ، وأنهم لا ينفكون يرددون أن السياسة العملية التى ينبغى اتباعها فى مواجهة مصر هى سياسة القوة ، بينما يمضى غلاة المتطرفين إلى أبعد من ذلك مطالبين بتسليح اسرائيل وتشجيعها على محاربة مصر والدول العربية حتى تستنزف جهودهم ، وهذا تتخلّص فرنسا نهائياً من التدخل المصرى فى الشمال الأفريقى . وعلى رأس المنادين بهذا الحل الأخير چاك سوستيل المقيم العام السابق بالجزائر الذى يعضده رأس مال ضخم جمعه المستعمرون ؛ وقوة إعلامية جبارة وضعها الصهاينة تحت يده . وعلّق محدثى على المنحى الأخير بأنه أسوأ الحلول فى نظر الحزب الاشتراكى الحاكم ، وأن الحكومة الحالية راغبة فى تحقيق صداقة فعلية مع مصر على أساس من التكافؤ ، ولا سيما وأن فرنسا تشارك مصر رأياً فى معادتها لحلف بغداد ، ثم إن الحكومة الفرنسية أخطرت اسرائيل بالألا تتوقع مساعدتها إذا أشعلت الحرب .

فأثارنى هذا القول ودفعنى إلى أن ألقت نظره إلى طائرات المستير التى تزود بها فرنسا اسرائيل ، فكأشفنى باستعدادهم لتزويدنا بما نريد منها ورجائى أن أعّد هذا وعداً رسمياً ، وبأن تسليح اسرائيل يتم تنفيذا لعقود قديمة من الحكومات السابقة لا مفر من تنفيذها . ثم عاد محدثى ثانية إلى موضوع الجزائر ليقول :

«إن الظروف تملئ علينا سياسة عملية واقعية ، وفى نفس الوقت نحن نؤمن بالتدرج وبالسياسة المدروسة . كما أن علينا ألا نفعل عن الأخطار البالغة التى يهددنا بها سوستيل وسياسته الرجعية المتطرفة . فهناك عدد من الجزائريين الفرنسيين يفكرون فى الاستقلال التام بالجزائر عن فرنسا ، تؤازرهم فى ذلك الولايات المتحدة الأمريكية . وتعتقد هذه الزمرة أن بوسعها بلوغ هدفها عن طريق الحرب الأهلية ، بينما نحن نريد مفاوضات حرة مع ممثلين حقيقيين للثوار ، كما نريد خلق ظروف تسمح

بإجراء انتخابات حرة . نحن نطلب إلى الثوار مناقشتنا ولا نطلب إليهم التسليم أو إلقاء سلاحهم مع إعطائهم الضمان بحماية أشخاصهم وممتلكاتهم والعفو العام عنهم . أما عن الأوروبيين الجزائريين ، فقد عقدنا العزم على اعتقال زعماء الحركة الفاشية بالجزائر ، وأستطيع التأكيد بأن عددهم ليس كبيرا ، وأن الأغلبية العظمى من الأوروبيين الجزائريين يشاركوننا رأينا . ثم إن السلطات الاستثنائية التي حصلنا عليها تتيح لنا شل حركة المعارضين الفرنسيين وإسكات صحافتهم . ولما كانت الإدارة في الجزائر في صف المستعمرين « الكولون » فقد شرعنا في التخلص من بعضهم منذ الآن . ولقد قررنا على أن نعرض على « الجمعية الوطنية » قريبا مشروع القانون الخاص « بالمجلس الموحد » مع إجراء انتخابات حرة والسماح بحرية القول والتعبير لمن يمثلون الشعب الجزائري الذين سيكونون الأغلبية بلا نزاع . ولقد كان قبول مبدأ « المجلس الموحد » من جانبنا خطوة كبرى ، خاصة إذا ما علمت مقدار الضغط الرجعي الواقع علينا . وعندها يمكن لممثلي الجزائر أن يتقدموا من خلال المجلس ببرنامج مدروس للاستقلال . وأستطيع أن أؤكد أنكم لن تجدوا في فرنسا حكومة أخرى مستعدة إلى الذهاب إلى ما اعتزمنا الذهاب إليه ، فإذا سقطت هذه الحكومة الاشتراكية فلن نخلقنا إلا حكومة راديكالية يمينية . والأمر الأخير الذي أود أن ألفت إليه أنظاركم هو مراعاة عامل الوقت ، فكل يوم يمر يقوى من مركز سوستيل والعسكريين والدعاية الصهيونية ويزيد الحقد والضغينة بين الطرفين . وأنا على أتم استعداد للانتقال إلى أي مكان تحدونه لمناقشة من ينتدبهم الثوار ، وذلك قصد الوصول إلى حل سلمى سريع .

وقد بادرت بإرسال برقية شفرية في نفس اليوم إلى القاهرة أوجزت فيها هذه المبادرة الفرنسية الرسمية طالبا عرضها على الرئيس عبدالناصر شخصيا ، وشفعتها بتقرير إلى الرئيس أوضح فيه العناصر الأساسية التي تدفعني إلى تأييد هذه المبادرة مما أتيح لي أن ألتقطه من وسائل الإعلام والصحافة ومن لقاءاتي برجال الفكر والسياسة في فرنسا . وقد تضمن تقريرى هذا توضيحا لما تقوم به أجهزة الإعلام الفرنسية إذاعة وصحافة من حملة ضارية ضد مصر متهمه قادتها بأنهم هم الذين يسعون للسيطرة على شمال أفريقيا منتهكين بذلك حقوق فرنسا التاريخية ومهددين دماء أبنائها القاطنين على أرض الجزائر ، وقيام فرنسا بجهد كبير من أجل اجتذاب بريطانيا وأمريكا إلى مساندتها عسكريا في حرها بالجزائر ، ووضعها ذلك المخطط الماكر لمنح الاستقلال لكل من تونس ومراكش للتفرغ التام

لضرب ثورة الجزائر، بالإضافة إلى ذلك التهديد المبطن الذى يلوح به بعض المسؤولين الرسميين باحتمال توقف فرنسا عن شراء القطن المصرى طويل التيلة بما قد يلحق بالاقتصاد المصرى خسارة فادحة .

\* \* \*

وكان لى فى باريس زميل كرم هو اللواء على أبو نوار الملحق العسكرى الأردنى ، عرفت فيه الرجولة والشهامة وحب الوطن والتفانى فى هذا الحب . وكان من الطبيعى بعد تلك الصلة التى انعقدت بينى وبينه أن نتجاذب أطراف الحديث عن الوطن العربى عامة ووطنينا خاصة ، أعنى مصر والأردن ، وكذا عن ذلك الخطر الجاثم فوق صدورنا ، أعنى اسرائيل . وإذا هو ذات يوم فى مستهل عام ١٩٥٥ يُنهى إلى أن جلالة الملك حسين فى باريس وأنه يريد أن يلتانى، وصحبنى إليه حيث لقيناه بفندق رافائيل . وحين استقربنا المقام دار الحديث حول الموقف الاستراتيجى للدول العربية وعن موقف الاستعمار البريطانى فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، وتطرق الحديث أيضا إلى ما كان يحول فى خواطرنا جميعا من أثر قيادة الجنرال جلوب للقوات الأردنية فى هزيمة العرب فى حرمهم الأولى مع الصهاينة وسياسته العسكرية المعوقة التى تحول دون المضى فى الأمور قُدما . وقبل أن أمضى راجعا دعانا الملك لتناول الغداء معه بمطعم « لودويان » مع الغد ، وكان لاشك يريد أن يتم الحديث الذى بدأناه ، وحين التقينا ثانية أحسستُ فيه حماسا متدفقا لا أكاد أجدر مايسعفينى فى وصفه .

وتمضى الأيام وإذا على أبونوار يُفضى إلى أنه معتمز الخلاص من القيادة البريطانية فى الأردن وتحرير وطنه من ربة السيطرة الاستعمارية ، كما صارحنى بأنه يقضى فى باريس فترة إبعاد عن الوطن أراد له الجنرال جلوب ، وكان هذا العزم منه مما أثار حماسى . وإذا أنا بعد هذا أشد إعجابا به حين كاشفنى بأنه قد بسط ماقده عقد العزم عليه لجلالة الملك حسين ونال منه موافقته وتأييده . وحين سألته هل أعددت لهذه الخطة الجسورة عُدتها أجابنى فى ثقة تامة أنه درس الموقف من جميع تفاصيله وأنه مطمئن كل الاطمئنان لنجاح خطته . ووددت لو أن مصر مدت يد العون لتلك المبادرة إذ المصلحة مشتركة ، وكان هذا يقتضى أن يكون ثمة

لقاء بين علي أبونوار وجهال عبدالناصر ، وأخذت بدوري أدبر لهذا اللقاء ، وقد رتب عبدالناصر بهذا اللقاء وحدد له موعدا . وما إن علمت هذا حتى فاتحت أخى علي أبونوار بأن عبدالناصر على استعداد للقاء فإذا هو الآخر يخفق اللقاء عبدالناصر سراً بالقاهرة . ودار بينهما في هذا اللقاء حديث طويل عرض فيه أبونوار على عبدالناصر رأيه بأن تكون مصر على استعداد للحيلولة بين إسرائيل وبين اعتداء على الأردن أو على الأقل أن تكون مستعدة لعون الجيش الأردني وذلك بتحريك قوات من الجيش المصري في سيناء بعد طرد جلوب والقيادة البريطانية . غير أن عبدالناصر رأى الترتيب حتى جلاء القوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس وإلا سوف تكون العواقب وخيمة على القوات المصرية إذا هي تصدت في هذه المرحلة للجيش البريطاني ، وقد لا يضمن تدخل العراق الذي كان عندها تحت حكم نوري السعيد وميوله البريطنانية معروفة ، وطلب عبدالناصر إليه أن يرجي هذه الخطة إلى حين .

وقد أرسل إلي عبدالناصر رسالة برقية عن تفاصيل هذه المقابلة ، وحين التقيت بعلي أبونوار بعد أن عاد إلى باريس عرف أنني على علم بما كان بينه وبين عبدالناصر ، وإذا هو يفتأ تخني بأنه خرج من هذا اللقاء أثقل همًا مما كان قبل . وأردت أن أروح عنه فنصحت أنه يعير حديث عبدالناصر إليه شيئاً من الاهتمام فما لاشك فيه أن عبدالناصر أدري بالعواقب كما أن له نظرة عامة شاملة تزن العوامل والظروف المحيطة ، فإذا هو يخيبنى أنه مع عبدالناصر رأياً لقلبا وأنه ماض فيما اعتزم ، ثم رجاني أن يكون هذا بيني وبينه سراً لا يُذاع ، وقد بررت له بوعدي .

ومالبت علي أبونوار أن ترك باريس إلى وطنه الأردن ، وهناك زاره الملحق العسكري المصري وسأله عما ينتويه ، لكنه لم يبح له بشيء . وإذا عبدالناصر بعدها يُفاجأ بطرد الأردن للجنرال جلوب القائد العسكري البريطاني في ٢٩ فبراير ١٩٥٦ ، وهو وإن لم يحط علماً بهذا الموعد إلا أنه كان قد سبق له العلم بأنه سيُطرد . ومما لاشك فيه أن طرد هذا القائد كان عملاً من الأعمال الوطنية الرائعة التي أزاحت عن كاهل الأردن النفوذ البريطاني المتسلط . وكانت مصر وسوريا والسعودية قد وعدت الأردن بدفع المعونة المالية التي كانت تتلقاها من بريطانيا وقدرها ١٢ مليون دينار حتى يمكنها أن تمضي في سياسة عربية مستقلة . غير أن

مصر لم تستطع توفير ما يخصها من العملة الصعبة خلال شهر أبريل ١٩٥٧ الذي ينهى معه التزام بريطانيا، وكذا طلبت سوريا التأجيل بضع شهور، وإذا أمريكا والسعودية يملحان بتقديم هذه المعونة نظير قبول الأردن لمبدأ أيزنهاور، فأصبح موقف على أبونوار قائدا للجيش حرجاً إزاء تخلف الدول العربية عن دفع المعونة في الوقت المناسب واضطر إلى الاستقالة ومغادرة وطنه.

وبينما كانت الأيام تتمرّدون ردّ واضح على المبادرة السلمية المعروضة علينا كانت الأحداث السياسية الداخلية والخارجية في فرنسا تضيق الخناق على الحكومة الاشتراكية حتى بات مركزها بالغ الحرج، وتأزمت مشكلة الجزائر بعد أن أخذت الأوساط الغربية تحث الحكومة الفرنسية على اتباع سياسة الكبت والقهر. فقد أدلى سفير الولايات المتحدة بفرنسا بتصريح يؤكد فيه تأييد حكومته للسياسة الفرنسية بالجزائر، وتلاه المتحدث الرسمي باسم الحكومة البريطانية ليعلن أن بلاده على اتفاق تام مع السياسة الفرنسية القاضي بضرب الحركات «الإرهابية» في الجزائر! وكانت بريطانيا قد تلقت لطمة تنحية الجنرال چون جلوب عن قيادة الجيش العربي في الأردن، ثم إذا بها تضيق ذرعاً بتلك الحركة التي تتزعّمها مصر لمناهضة الأحلاف العسكرية ولإسقاط حلف بغداد، وبما كانت تنتهجه مصر من نشاط سياسي يدعو إلى الحياد والتحرر، هذا إلى ما ارتكبته - في تصوّرها - من خروج على قيد التبعية في أمور التسليح بعقدها صفقة الأسلحة الشهيرة مع تشيكوسلوفاكيا. وفي سبيل معرفة ردّ مصر النهائي على المبادرة الفرنسية قام كريستيان بينو وزير الخارجية الفرنسية في شهر مارس بزيارة قصيرة لمصر لم تستغرق غير يوم واحد ناشد فيها الرئيس عبد الناصر مساعدة فرنسا في وضع حد لحرب الجزائر بوصفه على حد قوله «الأخ الأكبر» لهؤلاء الثوار دون أن يظفر بنتيجة حاسمة.

ومالبشت الأحزاب اليمينية الفرنسية التي تركت الحكم أن بدأت تتوجس خيفة من سياسة الحكومة الاشتراكية اليسارية فأخذت تضع في سبيلها العراقيل للحيلولة بينها وبين الوصول إلى الالتقاء ولومن بعيد مع مطالب الثوار الجزائريين، تؤيدها القوى العسكرية الرجعية. وأخذت تحاصر الحكومة الاشتراكية داخل مشكلة الجزائر حتى لا يتسنى لها التفرغ لتناول المشاكل الاقتصادية الداخلية وفق البرنامج الاشتراكي الذي يهدد مصالحهم الرأسمالية،

فسلّطوا الصحافة التي تسيطر عليها القوى الاستعمارية والصهيونية لاستفزاز الحكومة وشل حركتها ، كما سَخَرُوا الإذاعة والتلفزيون بشكل ملفت لبث أفكارهم ووجهة نظرهم للتأثير على الرأي العام الفرنسي . وتسَلَّلت معلومات أكيدة تفيد أن الجيش الفرنسي بزعماء المارشال جوان يدبر انقلابا يبعد به الحكومة الاشتراكية ويستبدل بها أخرى رجعية . وأمام هذا كله لجأت الحكومة إلى الجمعية الوطنية مطالبة بسلطات استثنائية تدعم بها مركزها المتأرجح وتحول دون مايمكن أن يدبره الرجعيون ضدها ، لاسيما بعد أن أعلن جى موليه ووزير خارجيته كريستان بينوع عن عزمهما زيارة موسكو ، وهوما ألهم شعور الأحزاب اليمينية ضد الحكومة التي أحاطت نفسها بسياس من السلطات الاستثنائية ، كما لم يتردد الحزب الشيوعي الفرنسي الذي يتمتع بعدد كبير من الأصوات في الجمعية الوطنية من التصويت لصالح الحكومة ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فأطلق مظاهرات شعبية تؤيد حكومة جى موليه الاشتراكية . ونجح اليمينيون في تحريك مندس فرانس وهو الراديكالي المبدأ إلى اختلاق الأزمات لإخراج الحكومة ظانا. إمكان عودته إلى رئاسة الوزارة إذا ماسقطت حكومة جى موليه غافلا عن أن أحزاب اليمين لن تسمح له بالعودة التي قد تتيح له إنهاء مشكلة الجزائر على نحو ماأنهى مشكلة تونس .

على أية حال نجح الرجعيون الذين لا يؤمنون بغير الحرب في التأثير على الرأي العام إذ صوّروا له مشكلة الجزائر على أنها قضية وطنية تستدعى من كل مواطن فرنسي التضحية بحياته في سبيلها ، وأصدروا صحيفة « الطان ده پارى » Temps de Paris ابتداء من ١٧ أبريل ١٩٥٦ برأس مال ضخّم لتساند حركة القمع ضد ثوار الجزائر.

وأمام هذه الظروف أخذت حكومة جى موليه تتراجع شيئا فشيئا عن الخط التقدمي الذي بشرت به قبل الانتخابات راضخة للضغط الرجعي التي جعلتها تعبد نفسها — برغم كل ماتمتع به من سلطات — لاحول لها ولا قوة أمام سلطان القوى الرجعية الطاغى وقدرتها على التلاعب بأفئدة الرأي العام كما يحلوها . وعُقد مؤتمر الحزب الاشتراكي بمدينة ليل في ٢٩ يونيو ، فإذا بجى موليه يكشف عن



دخيلة نفسه ويجهز بفرعه مما تسعى إليه الدول الإسلامية من وحدة ، مدعى أن :  
« خطر التحالف بين دول الكتلة العربية لا يقل خطرا عن تحالف دول الكتلة  
الجرمانية أو الصقلية ، وأن الشعب المصرى — وهو من الشعوب المحبة إلى النفس  
على الرغم مما يعانیه من بؤس — يعمل على تزعم كتلة جبارة من مئات الملايين من  
المسلمين ، وكل هذا حبا في العظمة » ، ثم يتهم الرئيس عبد الناصر بأنه يسعى إلى  
أن يكون بطل هذه الوحدة .

ولم يكن خافيا على أن الثورة المصرية تزود الثورة الجزائرية بالكثير من  
السلاح والعون إلى جانب الدعم السياسى والمعنوى الهام للثورة الجزائرية بقدر  
ما هو هام لثقل مصر في العالم العربى . غير أن هذه الميادرة الفرنسية للتفاوض مع  
الجزائريين كانت تحمل من الإغراء ما يجعلنا نأمل في تمكين الثورة الجزائرية من  
تحقيق الجانب الأكبر من أمانها بالمفاوضات السلمية وتدعيم موقف مصر السياسى  
في مواجهة إسرائيل ، العدو الرئيس للعرب والذي تؤمن جميعا أنه لا مفر لنا من  
مواجهته في معركة حاسمة هي معركة الموت أو الحياة ، وأنه كلما أمكننا حرمانه  
من منابع قوته وإبعاده عن حلفائه الذين يشدون أزره كلما تستنى لنا تجمع قوته .  
ولاشك أن فرنسا لم تكن لتقدم على تزويد إسرائيل بالأسلحة في ظل قيامنا بوساطة  
بينها وبين قادة الثورة الجزائرية في مفاوضات من شأنها رفع عبء الحرب  
الجزائرية الثقيل عن كاهل فرنسا حكومة وشعبا .

على أنى أمضيت وقتا طويلا في انتظار رد من القاهرة إلى أن استدعانى  
الرئيس عبد الناصر خلال شهر مايو للقاء معه ومع معاونيه لتدارس هذا الأمر من  
كل نواحيه . وفي هذا اللقاء عرفت ما لم يكن يتاح لى معرفته في باريس من  
النجاحات الكبيرة التى كان يحققها جيش التحرير الجزائرى . غير أن معرفتى  
بهذا زادتنى اقتناعا بصدق رغبة الحكومة الاشتراكية في مفاوضة الثوار الجزائريين  
وفي ضرورة قيامنا بالوساطة لهذه المفاوضات ، بل لقد كاشفنى الرئيس عبد الناصر  
بانقسام أعضاء مجلس قيادة الثورة حول مبادرة المفاوضات التى كنت قد بعثت بها  
إليه . وقد كان رأيه هو الوصول إلى تحرير الجزائر الكامل بأقل الخسائر الممكنة ،  
غير أن جهاز شئون الشمال الأفريقى بالمخابرات العامة وعلى رأسه السيدان فتحى  
الديب ومعاونه عزت سليمان كان لا يثق بمجدية عروض الحكومة الاشتراكية ، كما

كان يؤمن بأن مواصلة المعارك أجدى من بدء المفاوضات . وانتصر هذا الرأي واستغل الصهاينة إجحامنا عن التوسط لدى ثوار الجزائر بالتفاوض مع فرنسا فرصة مواتية للصيد في الماء العكر ضد مصر .

وفي هذه الأثناء كانت اسرائيل قد أدركت فشلها في تأمين نفسها باستخدام استراتيجية الغارات الانتقامية التي شنتها على غزة وخان يونس ثم العوجة والكونتيلة وخاصة بعد ما كان من مصر من تنظيم لحركة الفدائيين لكى ترد بها على تلك الغارات ، فضلا عن هياجها في أعقاب عقد مصر لصفقة السلاح مع الكتلة السوفييتية . ولعل هذا وذاك هو ما جرّ اسرائيل إلى الانتقال إلى استراتيجية شنّ حرب وقائية ، غير أنها كانت لا تثق في قيامها بهذه الحرب الوقائية وحدها ، بل كان لابد من أن تشرك معها في خوضها غيرها من أعداء مصر والعرب . ومضت اسرائيل توثق ما بينها وبين فرنسا مدّعية أنها أداها الفعالة في قلب الشرق الأوسط ، وإذا بصفقات سرية تعقد نتيجة لهذا تزوّد بها فرنسا اسرائيل بالأسلحة والعتاد الحربى على الرغم من الاتفاق الثلاثى الذى كان معقودا منذ عام ١٩٥٠ بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا ألا تزوّد واحدة منهم دول الشرق الأوسط ومن بينها اسرائيل بالسلاح إلا بعد موافقة الجميع . ولم يلبث أن انتهى إلى وقتذاك أن ثمة عزمًا من الحكومتين الفرنسية والانجليزية على انتهاز سنياسة موحدة تتسم بالشدة لكبح جماح مصر ، وتمت في هذا السبيل اتصالات بين لندن وباريس امتدت إلى تل أبيب لتدبر خطة تشنّ اسرائيل فيها هجوما على الأردن حتى تخفّ مصر وسوريا إلى نجدة الأردن فتتاح لبريطانيا وفرنسا ذريعة للتدخل عسكريا بوصفها طرفى الاتفاق الثلاثى ١٩٥٠ ، فيردّون الجيش المصرى على أعقابها ، ويدمرون أسلحته السوفييتية التى حصل عليها ولما تستوين يديه بعد ، ويفرضان على العرب الصلح مع اسرائيل لصالح الأخيرة ، وبهذا تتهيأ الفرصة من جديد أمام الأمبريالية للتوغل في منطقة الشرق الأوسط . وحين انتهى إلى هذا كله أرسلت به إلى القاهرة ، غير أن فرنسا وانجلترا قبل أن تقدما على هذه الخطوة بادلتا الولايات المتحدة الأمريكية الرأى فلم تقرّهما على ما انتويا ووئدت تلك الخطة في مهدها .

\* \* \*

وبناء على توجيهات من القاهرة قمت يوم ٢٣ يولييه ١٩٥٦ بزيارة السيد الحبيب بورقيبة بفندق الكونتنتال قبيل عودته إلى تونس . وشهد لقائي به وزيره البهاى الأدم ، وعرضت عليه رجاء الحكومة المصرية فى أن يسمح للزعيم صالح بن يوسف بالعودة إلى تونس والقيام بنشاطه فى المعارضة الشرعية توحيدا للصوف فى وقفها جهة واحدة أمام الاستعمار الفرنسى مذكرا إياه بأن جانبا من الحقوق التى نالها من فرنسا كانت نتيجة مباشرة لتشدّد بن يوسف فى مطالبه ، غير أنه أبدى استياء شديدا من هذا الاقتراح وأعرب عن استحالة تنفيذه حيث : « لا يمكن الجمع بين الصلاح والفساد » على حد تعبيره . وقد أذهلنى أن أتبين سوء حفيظة بورقيبة تجاه خصمه صالح بن يوسف بقدر ما استرعى انتباهى تغير اللهجة التى اعتدت سماعها منه فى سائر المقابلات التى جرت بيننا خلال وجوده بمنفاه وأثناء المفاوضات التونسية الفرنسية منذ أن كلفنى الرئيس عبدالناصر أن أتولى — إلى جوار عملى — مهمة المستشار العسكرى للوفد التونسى الذى كان يرأسه السيد المنجى سليم .

وسرعان ما تكشّف سر جفائه المفاجىء الذى احتدم ليأخذ بعد قليل شكل ثورة عنيفة ضد مقال ظهر فى مجلة آخر ساعة بقلم الصحفى سعد التائه يعرض صورا له تسجل يوما فى حياته منذ الصباح الباكر حتى ساعة إخلاذه الى النوم ، التفتت له بإذن منه بطبيعة الحال . وكان يمسك بالمجلة و يقرأ لى بصوت عال العبارات التى اشم منها سخرية به ، ثم راح يهدّد بأنه يستطيع مقابلة مثل هذا العمل المعدائى من مصر بمثله ، فحاولت أن أهديء خاطره موضّحا له أن تعليق كاتب بصحيفة مصرية لا يعنى على الإطلاق أنه رأى المصريين جميعا الذين يضمرون له كل إعجاب وتقدير ، وأمسكت حياء عن أن أذكره بما فعلته مصر فى سبيل القضية التونسية .

وقد بادرت بإبلاغ القاهرة بما جرى ، واقترحت رغم هذا ورغبة فى الإبقاء على صلابة العلاقة بيننا وبين الشعب التونسى دعوته لزيارة مصر أملا فى أن يزيل لقاءه بالرئيس عبدالناصر والترحيب الذى سيلقاه المارة التى استشعرها من الريبورتاج الصحفى الساخر ، ولربما يزحزحه وجوده بالقاهرة عن موقفه المتشدّد من صالح بن يوسف الذى مالبت أن اغتيل فيما بعد .

وبحسبى هنا أن أشير إلى ما كان من الأجهزة التى كان منوطا بها تقديم العون إلى الدول الشقيقة الناهضة المطالبة باستقلالها هنا وهناك . فلقد حُيِّل إلى بعض هؤلاء أنهم بما تقدمه مصر من عون سادة الموقف ، وأن لهم على من كانوا يتلقون منهم العون الكلمة المستجابة . وهو ما كان يعز على الأشقاء قبوله ، فمن واجب الأشقاء علينا أن نكون لهم عونا وقت الشدة ، أما أن نكون بما نقدم من عون الأمرين الناهين فهو مالا تجيزه الأخوة ، فلنا أن ننصح ونشير لا أن نُقحم أنفسنا فيما هو من أمورهم ولهم وحدهم . ولعل هذا وذاك كانا السبب فى ذلك النفور الذى وقع بيننا وبين بعض الأشقاء بدل أن يكون ثمة ود وإخاء .

\* \* \*

ومرة أخرى جاءنى المسيو جورج شاسينى موفدا من قبل المسيو بيير كومان نائب السكرتير العام للحزب الاشتراكى للقاءه فى التاسع عشر من يولييه ١٩٥٦ بمقر الحزب بباريس . وقد حرصت على أن أوضح للمسيو كومان فى مستهل المقابلة أننى جئت للقاءه بناء على رغبته التى أوضح لى الهدف منها ، وهى محاولة مساعدة الحكومة الفرنسية لعمل اتصال بالممثلين الحقيقيين لجهة التحرير الجزائرية بغية الوصول بأسرع وقت ممكن لوضع حد للحرب فى الجزائر . كما أوضحت له أنى لا أؤدى بفرنسا أى دور سياسى ولكن إذا كانت الحكومة الفرنسية تقدر أن مساهمتى الشخصية قد تعين قضية السلام كما فهمت من رسوله فإنى سأبذل قصارى جهدى فى سبيل هذا الهدف الإنسانى . وكان أن أبلغنى مسيو كومان أن حكومته راغبة فى مقابلة الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائرى وإن كانت لا تعرف مركز الشغل الحقيقى بينهم حتى الآن . أما المقترحات التى يتقدم بها إلى الجزائريين فهى الهدنة المكفولة بضمانات كاملة للطرفين ، والانتخابات الحرة والإدارة الذاتية ، والاعتراف بالشخصية الجزائرية ، على أن تشرف على الانتخابات لجنة مكونة من فرنسيين وجزائريين . فذكرته بأدنى المطالب التى تقبل بها جبهة التحرير الجزائرية وهى إدارة الانتخابات بواسطة لجان من دول محايدة تضمن سيرها فى المسار السليم لأنه لا يمكن أن تجرى انتخابات حرة فى ظل خمسمائة ألف مجند فرنسى على التراب الجزائرى ، والاعتراف من جانب الحكومة الفرنسية باستقلال الوطن الجزائرى قبل المفاوضة والإفراج عن الأسرى والمعتقلين .

ومع تقبله مبدأ إشراف دول محايدة على الانتخابات فقد أوضح استحالة إقدام حكومة فرنسية بالاعتراف باستقلال الوطن الجزائري خشية تعرضها للسقوط. القوي لتحديد الرأي العام الفرنسي وبخاصة بعد إرسال فرنسا خمسمائة ألف جندي إلى الجزائر، وإن أكد في نفس الوقت على أن مشكلة الاعتراف بالوطن الجزائري هي مسألة خاضعة للنمو والتطور وسيجرى عليها ما جرى لتونس ومراكش اللتين حصلتا على الاستقلال الذاتى في المفاوضات السابقة، وهما اليوم تطالبان بالاستقلال التام الذى لم يحدث اتفاق مسبق عليه.

وكان يرى أن على جبهة التحرير أن تدخل المفاوضات بلا شروط مسبقة، إذ لو فرض كل جانب شروطه قبل المفاوضات لما بقى شيء للتفاوض حوله. وأوضح لى رغبة الحزب الاشتراكي في وقف إطلاق النار بعد إقناع الرأي العام بالتفاوض مع الجزائريين. فأعربت له عن دهشتي لما يقول إذ أنه يتعارض مع تصريحات روبر لا كوست الوزير المقيم بالجزائر والمنشورة بالصحف والجازمة باستحالة إجراء مثل هذه المفاوضات. فبين لى أن تصريح لا كوست قد شوهته الصحافة إذ أن عبارته الحرفية تقول « لا يجب التمسك بفكرة التفاوض بأى ثمن »، ولم يكن يقصد بذلك إلا أنه ينبغي وضع شروط محددة للتفاوض بل ووضع ضمانات لكل الطرفين خلال هذه المفاوضات. ثم أكد لى أنه مكلف من قبل الرئيس جى موليه بالاتصال بالجزائريين المسؤولين بغرض التفاوض، وأنهم جميعا في الحزب الاشتراكي بما في ذلك لا كوست نفسه متفقون على إجراء المفاوضات، ومن ثم كانت الحملة لحشد الرأي العام تدريجيا لقبول مبدأ المفاوضة بعد أن تم إبعاد المحرضين. وانبرى يحثنى على تدبير لقاء بينه شخصيا وبين ممثلى الثورة الجزائرية لوضع أسس المفاوضات التى سوف يشترك فيها حينئذ خبراء الحكومة إلى جانبه. وقد ترك لى حرية تحديد لحظة اللقاء، فوعده ببذل قصارى جهدى.

وقد رأيت أن أرفق مع هذه المعلومات إلى الرئيس عبد الناصر النص الحرفي لقرارات المؤتمر الاشتراكي بخصوص الجزائر الذى عقد بمدينة ليل يومى ٢٩ و٣٠ يونيه ١٩٥٦، مقتنعا أن دراسة النص الكامل يعين على تمحيص الحقائق ومقارنة الوقائع، ومن ثم الخروج بقرار سليم. كما لفتُ النظر إلى بضع عبارات ظهرت سافرة لأول مرة على ألسنة المسؤولين الفرنسيين مثل:

- إقامة صلات أساسية وطيدة مع فرنسا على أساس مصلحة القطرين العليا [ وهذه أول مرة يأتي فيها ذكر الجزائر على أنها قطر آخر غير فرنسا ] .
- أن الحكومة مستعدة للترحيب بالاتصالات الرسمية المباشرة .
- لابد لاكتساب ثقة الجزائريين من إجراء تطهير في الجهاز الإداري بالجزائر .
- الحل الشامل للمسألة الجزائرية لا يمكن أن يكون إلا حلا سياسيا .
- تقوم بتنظيم الانتخابات لجنة مؤلفة من شخصيات غير مشكوك في نزاهتها ، يشرف عليها مندوبون عن الأحزاب السياسية الجزائرية والفرنسية .
- البحث عن حل سلمي يستقطب جميع الجزائريين الذين تعنيهم قضية السلام والعدالة والحرية بما فيهم تلك الطائفة من الثوار التي دفعها اليأس إلى الالتجاء بحسن نية إلى العنف بوصفه السبيل الكفيلة بتحقيق أمانها .

كنت مؤمنا بجدوى هذه المقابلة للجانب الجزائري لأسباب ثلاثة : أولا قيام اتصال رسمي مباشر بين الفرنسيين والجزائريين . وثانيا أن مثل هذا اللقاء سيكون بمثابة اعتراف رسمي أمام الرأي العام الفرنسي خاصة والرأي العام العالمي عامة بالكيان الفعلي لمثلثي شعب الجزائر مما ينفي الفكرة الشائعة بأنهم عصابات ثائرة في إقليم فرنسي ضد الحكومة المركزية . وثالثا أنه سواء كتب لهذه المقابلة النجاح أم الفشل فإنها على أية حال خطوة إلى الأمام لا يمكن لفرنسا الرجوع عنها . على أنى أوصيت في الوقت نفسه أن تتم هذه المقابلة بشرطين : أولهما أن تتحقق خلال فترة عطلة الجمعية الوطنية في شهرى أغسطس وسبتمبر ، وذلك حتى لا تتكرر مأساة مهاجمة النواب الرجعيين لحكومة منديس فرانس حين أوفدت الوزير چورچ جورس إلى مصر مما اضطرها إلى النكوص على أعقابها . إذ كنت أعتقد أنه إذا حدث أن أخرجت الحكومة أمام الرأي العام في غيبة البرلمان فإنها ستجد نفسها مضطرة رغما عنها إلى الوصول بأسرع وقت ممكن إلى حلٍ ما قبل دورة انعقاد البرلمان . والأمر الثاني أن يكون المبعوثون ممن تثق بهم مصر ثقة تامة ، أعني أن يكونوا من العناصر الأساسية في الكفاح . وكنت قد علمت من مسيو كومان أن ثمة مقابلة تمت أخيرا بينه وبين السيد محمد خيضر مندوب جبهة التحرير الوطنى بسويسرا ، كما ادعى مسيو چورچ شاسيني أن السيد خيضر طلب منه مبلغا من المال نظير إقناع بقية أعضاء الجبهة بقبول ماتعرضه الحكومة الفرنسية ،

ولار ييب أن الخبر يحتمل التكذيب أكثر مما يحتمل التصديق . فسألت محدثي عن قيمة المبلغ الذى طلبه السيد خيضر فذكر أنه يتراوح بين خمسة عشر وعشرين ألفا من الجنيهات ، فتساءلت عن سر تردد الحكومة الفرنسية فى إعطائه هذا المبلغ التافه فى سبيل وضع حد لحرب الجزائر بيننا تنفق يوميا مليارا من الفرنكات على استمرارها . ولم يحظ تساؤلى الساخر بأى تعليق من محدثي ، فلم أشك ساعتها فى أنها لم تكن غير مناورة مأكرة لتشكيكنا فى نزاهة بعض عناصر الثورة الجزائرية ، لاسيما وأن المسيو كومان كان أثناء مناقشته معى لا ينفك يضرب على وتيرة واحدة هى انقسام جبهة التحرير على نفسها وخصومتها مع حزب مسالى حاج . وهو ماتتخذه فرنسا تعلقة لاستحالة التفاهم مع مثل هذه الجبهة المفككة والحاجة إلى ممثلين حقيقيين للشعب الجزائرى لا يمكن فى رأيها تحديدهم إلا من خلال هذه الانتخابات التى يزعمون أنها يمكن أن تكون حرة فى ظل الاحتلال الفرنسى .

وقد بادرت بمناشدة الرئيس عبدالناصر العمل بكل ما يملك من قوة ونفوذ على جمع شمل جبهة التحرير الوطنى لتمثل الشعب الجزائرى المقاتل وحدة متماسكة . وسرعان ماوردتنى من القاهرة توجيهات بالاتصال ببولاي مرباح الأمين العام لحزب مسالى حاج أدعوه إلى لقاء الرئيس بمصر محاولا إقناعه بضرورة الانضمام إلى الجبهة لتوحيد الصفوف ولافتا نظره إلى أننا لم نحصل على استقلالنا بمصر إلا بعد أن طهرنا أنفسنا من الخلافات والمزايدات الحزبية والشخصية وظهرنا أمام العالم صفا واحدا تمثل فى مجلس قيادة الثورة الذى فاوض الإنجليز ممثلا لشعب مصر ، فى حين أن مصر بأحزابها المختلفة ظلت تفاوض المستعمر ريع قرن دون نتيجة لأن حجة المستعمر كانت على الدوام أن من يتصدون للتفاوض لا يمثلون الشعب كله ، ومن ثم فإن التفاوض معهم لا يجدى .

على أن القدر لم يمهلنا لإنجاح مسعى كان من المحتمل أن يغير مجرى الأحداث عما سارت فيه ، فقد اضطرت الظروف السياسية الدولية الرئيس جمال عبدالناصر إلى إعلان قراره التاريخى بتأميم شركة قناة السويس رداً على سحب الولايات المتحدة وبريطانيا تمويلها لمشروع السد العالى ، وذلك بعد أسبوع واحد من لقائى بالمسيو كومان ، فتواترت تلك المبادرة وسط ضجيج الغضب الحائق الذى تملكك حكومة فرنسا وجدت فيه ما يبررها لتوجيه رأى العام الفرنسى ضد حكومة مصر .

## ٣ شواغل عسكرية

ومنذ بداية عملي في باريس كانت جهودى الأساسية منصرفة إلى ترصد صفقات السلاح والمعدات الحربية لاسيما الطائرات التى يبتزها عدونا الرئيسى اسرائيل من فرنسا أولا بأول . وكانت مهمة عسيرة لأن هذه الصفقات كانت تتم خفية دون إعلان من أى من الطرفين حتى بات أقرب إلى الإعجاز الحصول على معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها غير مصادر العملاء المأجورين الذين يترددون على السفارات العربية لتزويدها بمعلومات أعدت على وجه اليقين فى المخبرات الفرنسية والإسرائيلية . هكذا وجدت نفسى أستهل عملى فى دولة تزدد العلاقات بيننا وبينها توترا يوما بعد يوم إزاء موقف الحكومة المصرية الواضح فى التنديد بالسياسة الاستعمارية الفرنسية فى الشمال الأفريقى ، وتعريضها الصريح لحركات التحرر فى كل من تونس والمغرب والجزائر . ولقد يسر الله لى الولوج إلى منافذ كانت شبه موصدة دونى انتهيت منها إلى ما أبغى من معلومات . وليست هذه الصفحات هى مجال بسط تفاصيل هذه المعلومات وإن كان الأمر يقتضى أن أسوق القليل مما لابس الحصول عليها .



وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا قد أصدروا في عام ١٩٥٠ «تصريحهم الثلاثي» الشهير لتحقيق التوازن في التسليح بين الدول العربية واسرائيل، وشكلت لجنة من الدول الثلاث لتنسيق مبيعاتها من الأسلحة لدول الشرق الأوسط بما فيها اسرائيل، بحيث لا تصدر أى منها أسلحة لأية دولة من دول الشرق الأوسط قبل موافقة هذه اللجنة. وكان التعاون بين السلطات الفرنسية واسرائيل على إخفاء أنباء ما يتم بينها من صفقات تاما، حتى زعمت السلطات الفرنسية أن صفقات طائرات المستيرء تُصنع لصالح السويد بينما كان من المعروف أن السويد نفسها تصنع الطائرات الحربية النفائة.

وكننت حريصا عند نقل المعلومات الخاصة بتسليح اسرائيل<sup>(٦)</sup> أن أؤكد لها من ثلاثة مصادر أو اثنين على الأقل. ولقد وُفقت بعد عناء وعراقل كانت تقام في طريقى إلى أن أقف على ما حاولت السلطات الفرنسية أن تُسدل عليه ستارا كشيئا حتى لا ينكشف لأحد، واستطعت أن أعرف عدد الطائرات من كل صفقة ومسار طيرانها حتى تصل إلى اسرائيل. وكننت أوبرق لتوى للمخابرات الحربية المصرية بهذه الخطوات، مطالباً بتقصى هذه المسيرة لتبين صدق المعلومات التى كانت تنتهى إلى، بأن يقوم ملحقنا العسكرى فى إيطاليا واليونان بتتبع مواعيد وصول هذه الطائرات عند هبوطها فى مطارى برينديزى وأثينا للتزود بالوقود قبل انتهائها إلى اسرائيل، هذا عدا مرة واحدة حين انتقلت صفقة طائرات المستيرء الأولى على ظهر السفن. ومما زادنى ثقة بما كان يُنقل إلى من معلومات أن تتبّع الزملاء من الملحقين لحركة هذه الطائرات كان يُثبت صحة ما أبعث به إلى مصر، وتحتفظ المخابرات الحربية المصرية فى أرشيفها إلى اليوم بكافة هذه المعلومات.

وكانت فرنسا تستخدم بيع الأسلحة بهدف الضغط من أجل تأييد سياستها أو تخفيف الهجوم عليها، فأطمعت سوريا فى تخفيض أثمان المعدات الحربية المُباعَة لها مع تسهيلات فى السداد والتقسيط مقابل تخفيف لهجة إذاعة دمشق فى معاداة سياسة فرنسا فى شمال أفريقيا. كذلك حاولت السلطات الفرنسية أن تقيم العقبات فى سبيل عقد بيع خمسين دبابة AMX زنة ١٣ طن لنا، وكذا مدافع ميدان عيار ٧٥ ملميمتر وتدرىب ضباطنا عليها، فلم نظفر بها إلا بعد جهود

مُضْمَنِيَّة ، وبعد أن هب أصحاب مصانع السلاح مدافعين عن مصالحهم الخاصة التي باتت مهددة نتيجة لسوء العلاقات مع مصر ، وأول مرة شرعوا ينتقدون قرار وقف تصدير الأسلحة لمصر ويشتبهون فيهم بالأرقام والإحصائيات ، ساخرين من الدوائر الحكومية الفرنسية التي زعمت أن البربر الذين هاجوا إحدى المستشفيات في المغرب إنما كانوا ينفذون توجيهات الخرفيين المنساقين لنداء صوت العرب من القاهرة بعد أن انبعثت الأناني في اليوم التالي للاعتداء من القاهرة مشجعة . ثم نساءلوا هل الدفاع عن أذربيجا الشمالية يتطلب من فرنسا التضحية ببركرها الثقافية والاقتصادية وخاصة في مصر . ونشروا مقالا بمجلة « أنترپريز » Entrepise في أول أكتوبر ١٩٥٥ ذكروا فيه أن الجيش المصري قد تعاقد مع فرنسا منذ عهد قريب لاستيراد مطالبات من المدفوعات وهي عقود في سبيلها إلى التنفيذ غير أن محاولة إيقافها تحمل في ملياتها المجازفة بالميزانية الفرنسية إذ قد بلغ الضمان الحكومي لهذه العملية ٩٠٪ من مجموع العتود البالغ قدرها ٧ مليارات من الفرنكات ، وسوف تتعرض الحكومة لمطالبة الشركات لتنفيذ هذا الضمان من ناحية ، كما أن إيقاف التنفيذ سوف يُنزل بالإنتاج الفرنسي للأسلحة ضربة قاسية من ناحية أخرى . ثم تسأل كاتب المقال لماذا لم تعترض الحكومة الفرنسية على إذاعات موسكو التي كان رئيس الوزراء ووزير خارجيته ينويان زيارتها عن قريب ، ولماذا لم تتخذ إجراءات من شأنها تهدئة إذاعة بوداپست أو حتى الحزب الشيوعي الجزائري ؟

ويشهد الله كم بذلت ما في وسعي لتذليل العقبات التي كانت تعترض هذه الصفقة ، ولم تكن ظاهرة تقاضي العمولات على كل صفقة من صفقات السلاح قد استفحلت بعد بين المسؤولين في الدولة على نحو ما استشرت تحت ستار سياسة تنويع مصادر السلاح التي ابتدعت في السبعينات . وإنني لأذكر يوم كان العدوان الثلاثي ، ونشبت الحرب بين فرنسا ومصر ، وانعزلت سفارتنا بباريس ، وضرب حولها الحصار ، وابتعد الأصدقاء عنا خشية بطش السلطات ، وإذا أنا حين دخلت بيتي أجد أجمل سلة زهور تلقيتها في حياتي من المسيو مواتيسبييه مدير شركة سوفما الحكومية التي باعنا الدبابات والمدافع ، ومعها بطاقة عليها هذه العبارة بخط يده : « إذا كنت لم أستطع الحضور في هذا اليوم العصيب لأشد على يدك مودعا فحسبي هذه الزهرات

تنوب عنى مُعربة عن تقديرى وإعجابى بخصم أعدّه من أشرف الخصوم». وأظن أن مثل هذه العبارة إن أفادت شيئا فهي تفيد أنى لم تزل بى قدمى ولم تمتد للعمولة يدى ، وإنى لأشكر الله على هذه وتلك . ولو كنت فعلتهما لكنت فى طوع يمين الفرنسيين يُشْهرون على رقبتي سيفاً مسلولا كى أفعل ما يشاءون وأمضى حيث يريدون ، ولما كنت موضع ثقة واحترام شخصيات فرنسية مرموقة تعاملت معها حين كنت مضطلعا بوصل ما انقطع من علاقات بيننا وبين فرنسا على نحو سيجىء تفصيله بعد .

\* \* \*

مالبث اسرائيل أن سارعت بشراء ١٧٥ مدفع ٧٥ مم و ١٢٠ دبابة AMX غير أنها طالبت بإضافة حلقة تحت برج الدبابة يبلغ سمكها ١٤ سم لضمان تشغيل المدفع بحرية فى كافة الاتجاهات ، ونفذت المصانع الفرنسية هذا التعديل رغم أن خبراء المدرعات الفرنسية رأوا أن تركيب هذه الحلقة من شأنه زيادة ارتفاع الدبابة الأمر الذى يتعارض مع أهم خواص هذه الدبابة بالذات وهى ميزة الانخفاض .

وللطائرة المستير ملابسات تحتاج إلى بعض الإيضاح ، فعندما توصل الفرنسيون إلى طراز مستير ٤ بادرت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تمويل إنتاج الدفعة الأولى من هذه الطائرات لحسابها ، ومن ثم توزيعها بمعرفتها على دول الحلف الأطلسى بمافيا فرنسا ، وكان قد تم الاتفاق على أن تصل الدفعة الأولى إلى مائتين وخمسة وعشرين طائرة ، على أن يكون للحكومة الفرنسية حق التصرف فيما يتم إنتاجه بعد ذلك . وبذلك تصبح أقل مهلة يمكن أن ترتبط بها الحكومة الفرنسية لبيع طائرات من هذا الطراز لدول أجنبية هى ثلاثة عشر شهرا قد يتسنى تخفيضها إلى تسعة شهور . وفى نهاية عام ١٩٥٥ كان بيع طائرات مستير ٤ إلى الدول العربية واسرائيل مايزال قيد البحث بوزارة الخارجية الفرنسية ، وقد تصرف من تلقاء ذاتى بأن سارعت بإدراج اسم مصر ضمن الدول المطالبة بشراء هذا النوع من الطائرات ، كما حادثت الأمير طلال سفير المملكة العربية السعودية فى أهمية تقدم حكومته بطلب مماثل لنا بشراء ثلاثين طائرة مستير ٤ ، وتبينت فى الحال حسن

تفهمه للموقف إذ استجاب على الفور إلى المبادرة بطلب هذه الصفقة لحكومته ،  
كذلك طالبت اسرائيل هي الأخرى بثلاثين طائرة .

وحين طلبت من السلطات الفرنسية وقتها بيانات وافية عن هذا الطراز من  
الطائرات اعتذرت بأن هذه البيانات ماتزال سرّية ولا يمكن تسليمها  
إلا للمشتري ، وطالما لم يتقرر بعد مبدأ البيع لدول الشرق الأوسط لذا يتعذر  
تزويدى بهذه المعلومات . وكانت الطائرة ميج ١٥ أفضل من المستير ٤ من حيث  
كفاءتها كطائرة اعتراضية ، إذ يمكنها الصعود إلى ارتفاع ١٢٠٠٠ قدم في فترة تصل  
من ٥ إلى ٦ ثوان بينما تحتاج المستير ٤ إلى عشر ثوان لبلوغ هذا الارتفاع ، غير أن  
الطائرة مستير ٤ تفوق الطائرة ميج ١٥ في واجبات المعاونة الأرضية لأنها أبطأ سرعة  
وأجود تسليحا إذ هي مزودة بمدفعين عيار ٣٠ مم وقاذفين صاروخين ، وتحمل  
قنبلتين .

على أننا فوجئنا في ٢٨ فبراير ١٩٥٦ بما يفيد أن الولايات المتحدة قد أذنت  
للسلطات الفرنسية بتسليم اثنتى عشرة طائرة من طراز مستير ٤ هبة من الحكومة  
الأمريكية لاسرائيل من الدفعة الأولى المنتجة للتوزيع على دول حلف الأطلسي  
دون انتظار لتسلم نصيبها مما سيُنتج فيما بعد . وقد بادرت بالتحقق من صحة هذا  
الخبر في ذات اليوم وتأكد لى صحته ، وأن ضابطا اسرائيليا يدعى كولونل جلادى  
قد أبرم اتفاقا نهائيا منذ أربع وعشرين ساعة على شحن الطائرات إلى اسرائيل عن  
طريق البحر ، مما يرجح أن الطيارين الإسرائيليين لم يسبق لهم أن تلقوا تدريبا  
على هذا الطراز من الطائرات ، على حين تم تسليم أربع وعشرين طائرة  
« أوراكان » إلى طيارين اسرائيليين قادوا الطائرات بأنفسهم إلى اسرائيل بعد أن  
تلقوا تدريبا على مدى بضعة شهور بمركز تدريب السلاح الجوى الفرنسى .

وكانت اسرائيل قد تقدمت كما أسلفت بطلب شراء ٣٠ طائرة مستير ٤ ، كما  
ألحّت منذ شهور على أن تستبدل بصفقة المستير ٢ السابق التعاقد عليها صفقة من  
مستير ٤ ، ومكث الطلب شهورا متأرجحا بين الرفض والقبول . فبينما كانت وزارة  
الدفاع الفرنسية — بصفة عامة — ورئيس أركان القوات المسلحة الجنرال جيوم —  
بصفة خاصة — ينتصرون لفكرة تسليم الطائرات المستير ٤ فورا إلى اسرائيل نكاية  
في مصر والمساعدات التي تقدمها لثوار شمال أفريقيا — وهو المجال الذى تعاني

منه القوات المسلحة الفرنسية - كانت الخارجية الفرنسية تناهض الفكرة بأمل الوصول إلى تفاهم فعلى مع الحكومة المصرية بصدد مسائل شمال أفريقيا ، وبحجة حفظ التوازن في التسليح بين كل من الدول العربية واسرائيل .

وإذا كانت هذه الصفقة قد تمت بهذا الأسلوب التعسفى الأمريكى بالاتفاق مع السلطات الفرنسية فثمة أسلحة ومعدات فرنسية أخرى قد أخذت طريقها سرا إلى إسرائيل ، فلقد كانت أمنية الجنرال جيوم التى لايفتأ يصرح بها فى كل مجال هى نشوب القتال بين مصر واسرائيل حتى تستنفد هذه الحرب جهود مصر وتصرفها عن الاشتغال بقضايا الشمال الأفريقى ، فتتأ الفرصة لجيوم وهو المسئول الأول عن سير القتال فى شمال أفرىقى للتخلص من عنصر فعال يساهم مساهمة مادية ومعنوية فى نضال الثوار .

ومنذ أوائل ١٩٥٦ لم أستبعد أن تقدم الحكومة الفرنسية على اتخاذ خطوات غير ودية ضد مصر خاصة بعد اشتداد أوار الحملة الصحفية الضارية المنظمة ضدنا ، والتى اشتدت وطأتها بشكل بارز ومتصاعد يكشف عن أنها حملة مدبرة وموعز بها تباركها السلطات الفرنسية وتمدها بكافة البيانات والوثائق مزودة بالصور . وهكذا تكالمت جهود العسكرين الفرنسيين ورجال الكولون [ المستعمرون ] الأقوياء واليمينيين المتطرفين والصهاينة بالنجاح بأن انضمت لهم آخر الأمر وزارة الخارجية الفرنسية التى ظلت تقاوم هذا الاتجاه طويلا إلى أن فقدت الأمل فى التفاهم مع مصر . وكان الهدف الذى ترمى إليه الحملة الصحفية هو بث روح الكراهية والحقد بين صفوف الرأى العام الفرنسى ضد مصر بصفة خاصة ، فتارة تظهر المقالات فى أهم الصحف وأقلام كبار الكتاب بعناوين مثيرة مثل : من يقتل أبناءنا فى شمال أفرىقى ؟ وتارة أخرى : لامناص من الانحياز لاسرائيل صديقنا الحقيقية والثأر من مصر عدوتنا اللدود ، وذلك بغية إشعال الروح الاستعمارية من جديد فى نفوس الشباب الفرنسى بعد أن كانت قد خمدت ، وتهيئة الرأى العام لاستقبال قرار التعبئة العامة وتجنيد الاحتياط لإرساله الى ميدان القتال بشمال أفرىقى ، فلم يكن الرأى العام من قبل متحمسا لإرسال أبنائه للقتال فى سبيل الجزائر ، ولكنه مالبت شيئا فشيئا أن بدأ يشعر بالضغينة

والكراهية نحو مصر وهو يقاتل يوما بعد يوم المقالات والأنباء المقصود بها إثارة حماسه وتأجيج غضبه للثأر من مصر والمصريين .

وكانت قد مضت شهور عشرة على تقديمي بطلب شراء طائرات مستير ٤ من شركة OFEMA ، وكان ذلك من قبيل سبر الأغوار إذ كنت أوقن أن هذا الطلب مرفوض سلفا . وبطبيعة الحال فإنني لم ألتق رداً ، فعدت الى السفير السعودي ألح عليه أن يجدد طلب حكومته بشراء ثلاثين طائرة مستير ٤ على الفور وتحريك هذا الطلب الذي لم يُبَسَّ فيه بحجة حفظ التوازن المزعوم بين الدول العربية واسرائيل . كما اتصلت بالسلطات الفرنسية لمعرفة رأيها في تسليم صفقة الطائرات الى المملكة العربية السعودية ، وأشرت على القاهرة ببذل الجهود الدبلوماسية لدى الحكومة السعودية للضغط على السلطات الأمريكية للموافقة على هذه الصفقة . وقد علمت فيما بعد أن السفير ماسيجلي سكرتير عام وزارة الخارجية الفرنسية المعروف بميله الإنجليز قد تصدّى لهذه الصفقة فأوقفها بإيعاز من الحكومة البريطانية . وكان الطيارون الاسرائيليون قد تسلموا اثنتى عشرة طائرة مستير ٤ في شهر فبراير ١٩٥٦ كما أسلفت وأقلعوا بها عن طريق برنديزي ، واتجه الاخصابليون الفرنسيون في الوقت نفسه الى اسرائيل لتدريب طيارها . كما كانت السلطات العسكرية الفرنسية تبذل عونا مباشرا وغير مباشر للاسرائيليين إضافة الى بنود العقود المبرمة بين الدولتين ، وبات النيل من مصر عسكريا وتحريض اسرائيل على شن هجوم على مصر خاصة والدول العربية عامة تخفيفا للضغط عنهم وتعويفا معنويا عما يلحق قواتهم من فشل وإحباط وخسائر في الجزائر ، بات هذا كله هدفا تكتيكيا جوهريا في إطار الاستراتيجية العامة للعسكريين الفرنسيين . وهكذا وجدت اسرائيل التي بادرت بعد تسلمها الصفقة الأولى من طائرات مستير ٤ بطلب دفعة ثانية من اثنتى عشر طائرة— أعقبها دفعة ثالثة ورابعة وخامسة على مدى الشهور الخمسة التالية— ترحيبا حارا داخل قيادات السلاح الجوي الفرنسي التي سارعت الى إعداد دفعة طائرات المستير الإثنتى عشرة الثانية توطئة لتسليمها لاسرائيل قبل صدور موافقة السلطات السياسية العليا ، بل انبرى العسكريون الفرنسيون يجبرون التعديلات التي طالبت بها اسرائيل في طائراتها مثل تركيب جهاز تمييز الصديق من العدو وبعض التعديلات في أجهزة الإضاءة .

وهكذا بينما كانت بعثة الطيران الهندية الموجودة بفرنسا منذ أكثر من سنة لشراء صفقة طائرات مستير ٤ من شركة مارسيل داسو المنتجة للطائرات OFEMA والممثلة للحكومة الفرنسية ، كانت البعثة الإسرائيلية تتعامل مباشرة مع وزارة الطيران الفرنسية وتستولى على طائراتها رأساً من حظائر السلاح الجوي الفرنسي .

وكان واجبي يقتضيني الحصول على مواصفات كافة الطائرات التي اغتنمتها إسرائيل من فرنسا بما فيها طراز مستير ٤ أ والتي كان محظوراً أن يُنشر شيء عنها . ولقد وفقني الله فحصلت على المواصفات التي أريدها من حيث الأبعاد والأوزان وأنواع المحركات واستهلاك الوقود والتسليح والسرعات والارتفاعات مع صورها من زوايا مختلفة سارعت بإرسالها للجهات المختصة في القاهرة .

\* \* \*

وفي شهر يونيه ١٩٥٦ استدعاني الرئيس عبدالناصر إلى القاهرة ليلغني أن الفترة الانشغالية التي امتدت من عام ١٩٥٤ لممارسة مجلس قيادة الثورة شئون الحكم قد انتهت ، وأنه بصدد إجراء تغييرات شتى في مجال الوظائف العامة بالدولة ، وأنه تقرر خروج الضباط الأحرار من خدمة القوات المسلحة إلى وظائف مدنية حتى لا يزعج بالجيش في السياسة ، وأنه على وشك أن يصدر قراراً بإنهاء خدمتي بالقوات المسلحة وتعييني بدرجة وكيل وزارة برئاسة الجمهورية على أن أستمري في مزاولة عملي ملحقاً عسكرياً بباريس حتى يتم نقلي في شهر سبتمبر إلى وزارة الخارجية وتعييني سفيراً بباريس وأضاف قائلاً : « إنني لم اتخذ هذه الخطوة تحت تأثير مشاعري العاطفية نحوك بل تقديراً للجهود الصادقة التي بذلتها أثناء خدمتك ملحقاً عسكرياً بباريس ، فقد كانت تقاريرك تضعني أمام صورة واضحة لجزريات الأمور بفرنسا بأسرع وأدق من تقارير المصادر الأخرى » .

ولما سألته كيف أمارس عملي ملحقاً عسكرياً بينما سأكون في عداد المدنيين ؟ رد بأنها مرحلة جد قصيرة لا تتجاوز ثلاثة شهور لن تسترعى الانتباه . وقيل أن أغادره استوفقني ليفضني إلى بأنه قد اتخذ قراراً بتأميم قناة السويس ، وأنه قد شكل لجنة من الخبراء لتزويده بكل ما من شأنه تحقيق هدفه ، لكنه لم يستقر بعد على رأي بصدد التوقيت تاركاً ذلك للظروف . وطلب مني أن أثبت من موقعي كل ما يحيط أو يرتبط أو يفيد في هذا الأمر البالغ الحساسية والخطورة . ثم أسلمني ملفاً احتشد

بعدد من الأسئلة الخاصة بقناة السويس طلب منى محاولة الإجابة عليها عقب وصولي ، على أن أرسل ما يقع لى من معلومات إليه شخصيا مستعجلا عودتى إلى مقر عملى .

وفى ٢٦ يوليه وجه جمال عبدالناصر ردًا على قرار فوستر دالاس برفض تمويل مشروع السد العالى وعلى تشكيكه فى سلامة الاقتصاد المصرى وحضه بقية الدول الغربية على الامتناع عن المشاركة فى المشروع ، لطمة داوية على صلف أمريكا وتطاوها بأن أعلن قراره التاريخى بتأميم قناة السويس ، وهو الحدث الذى كانت له أخطر النتائج لاعلى الشرق الأوسط فحسب بل وعلى كل بلاد العالم الثالث .

وغنى عن البيان أن أذكر القارىء بالشوة العارمة التى نشبت بفرنسا وبريطانيا إزاء هذه الخطوة البالغة الجسارة ، فن خطب نارية يلقيها الوزراء المسئولون وأصحاب النفوذ من كبار رجال المال وأقطاب الأحزاب اليمينية تعد بالويل والشبور ، إلى مقالات ملتهبة تحتشد بها الصحافة عن بكرة أبيها تكيل السباب والشتم لجمال عبدالناصر ، وتثير المشاعر ضده ، ومن أحاديث وأنباء بالاذاعة تلهب الأحاسيس وتغرس بذور الكراهية فى الرأى العام الفرنسى وتهينه لقبول ما تستخدمه الحكومة من إجراءات عنيفة ضد مصر ، إلى تحقيقات وأحاديث وأفلام تسجيلية بالتليفزيون ترسخ مع المساء ماثبت فى أذهان الناس أثناء النهار عن « الجريمة » التى ارتكبها عبدالناصر بتأميمه للقناة ، وشاع نداء سوستيل القديم « ابدأوا بناصر أولا » Au préalable Nasser

وكان طبيعيا أن يطنى الطابع العسكرى البحث على ما عده من مهام ، وبات لزاما على أن أسارع برصد تحركات القوات المسلحة الفرنسية ومناطق احتشادها واستقرأ أهدافها فضلا عن تتبع النشاط الاسرائيلى بفرنسا . كانت فترة عصيبة زاخرة بالعمل الدءوب ليل نهار فى بيئة شديدة العداء ورقابة بوليسية مكثفة ومضايقات رعناء وجو إعلامى استفزازى مثير ، كما تخوف بعض الأصدقاء والمعارف الفرنسيين من الاتصال بى خشية التنكيل بهم .

وقد شاء القدر أن أصاب بنزيف من الأنف ألزمنى فراش المرض فى المستشفى طوال أسبوعين كنت معرضا خلالها لإجراء عملية لرفع عظام الجمجمة



خلف الأذن اليمنى لولا مجيء طبيب مصرى هو الدكتور حسن صبرى الذى أرسله المشير عامر ليتولى علاجه . وكان قد تم إبلاغ القاهرة بخطورة حالتى بمبادرة من الأخ الصاغ عيسى سراج الدين [ السفير فيما بعد ] الذى كان يعمل مساعداً لى ، وظل طوال عامين يؤدي عمله إلى جوارى بستان وكفاءة جديرين بالتقدير . ولست أنسى مايتمتع به من خلق فاضل ووطنية صادقة وأخوة أعتز بها على الدوام . وقد ظل هذا الطبيب الكريم كبير الأمل فى القضاء على المرض بالمضادات الحيوية مخالفاً رأى فريق الأطباء الفرنسيين ، وتحقق بدأه وعنايته المخلصة ما كان يأمله ، ووجدتني أتعجل العودة إلى متابعة شحنات الطائرات الحربية والمعدات العسكرية الفرنسية إلى إسرائيل وتطورات الموقف الإعلامى والسياسى الفرنسى وإبلاغها للقاهرة أولاً بأول . ثم أضيف إلى هذا الوقوف على توزيع التشكيلات الفرنسية المحاربة سواء الموجود منها بفرنسا أو ألمانيا أو شمال أفريقيا ، وتحركات قوات المظلات الفرنسية التى وصلت إلى قبرص فى الرابع من سبتمبر ولحاق طائرات المستيرجأ بها بعد أسابيع ثلاثة . ولم يكن الحصول على مثل هذه المعلومات فى أجواء العداء المحيطة بنا بشكل دقيق بالأمر اليسير ، بل كان يتطلب جهداً شاقاً أتاح لى برعاية الله وعنايته أن أعقد صلات وثيقة مع ثلاثة مصادر كنت أحصل منها على تلك المعلومات قبل أن أبعث بها إلى القاهرة . وأحمد الله أنى وفقت إلى تسجيل كافة تحركات وحشد التشكيلات المحاربة الفرنسية من قوات برية وبحرية وجوية ، ولايتسع المجال بطبيعة الحال لنشرها هنا إذ لن تفيد القارئ فى كثير أو قليل (٧) . وقد مضى على هذه الأحداث ماينيف عن ربع قرن ، وأنا اليوم فى حلٍّ من أن أشير إلى بعض المصادر التى رجعت إليها لاستقاء هذه المعلومات دون الكشف عن أسماء الأشخاص ، إذ كان مرجعى الذى اعتمدت عليه فى ذلك صفوة من الملحقين العسكريين من ضباط دول الأحلاف الغربية ينتمون إلى جنسيات مختلفة كان لهم تعاطف مع قضيتنا ورأوا أن أقل عون يرضون به ضمايرهم هو إمدادى بما أطلب منهم استيضاحه ممايتيح لنا أن نتدارك موقفنا وألا نؤخذ على غرة .

وفى الشانى عشر من أكتوبر ١٩٥٦ أكّد لى بعض هؤلاء أيضاً أن ثمة اجتماعات مريية تم بين مسئولين فرنسيين وإسرائيليين منذ أوائل سبتمبر يُشتم

منها تدابير موجهة ضد مصر دون تفاصيل محدّدة أبلغت المخبرات الحربية بها في حينه . وقد جرى ذهني على الفور إلى ذلك اللقاء المطول الذي عقده جى موليه في مكتبه مع سفير إسرائيل وأعلن عنه قبل ذلك ببضعة أيام وتصدّرت أن له علاقة بتلك الاجتماعات . أما عن اجتماع جى موليه وسلوين لويد وبن جوريون الذي تم في ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦ في سيفر تمهيدا لتوقيع اتفاقية العدوان الثلاثي على مصر فلم أعلم به على الإطلاق .

ومنذ ذلك اليوم تزايد قلقي وأخذت أتوقع من الأنباء ما أدعوا الله ألا يقع . وكان لى صديق فرنسي يحتل منصبا حساسا ما أزال أحرص على كتمان اسمه مع أن مصر تدين له بالفضل في الوقوف على أكثر المعلومات خطرا وأهمية . وفي الحق إن هذا الصديق قد نفذ إلى قلبي منذ لقائي الأول به فتوثقت صلاتنا مع الأيام ، نتجاذب أطراف الحديث في موضوعات شتى من موضوعات الساعة لاسيما ما يمس السياسة . وكنت ألمس على الدوام تعاطفه مع حركات التحرر في الشمال الأفريقي وشجبه للبشوش الذي تمارسه القوات المسلحة الفرنسية ضد الوطنيين . ومع أنى كنت أسعد بهذا التعاطف إلا أنني التزمت جانب الحذر في مبدأ الأمر ، وشيئا فشيئا أخذت أعرض لبعض المعلومات التي كنت أحصل عليها وأصارحه بنجاستي إلى التثبت من صدقها ، فكان يز يدني عنها بيانا بكل ما عنده مما جعلني بعدئ أثق بما يقول . وكانت شخصيته تشدني وسط المناخ المعادي الذي أعيش فيه ، فلم تكن مودته وحدها هي موضع تقديري بل لقد كانت سجاياه كلها تشيع نبلا ورقة وإنسانية . وبقدر ما كانت ثقافته متنوعة وغزيرة كانت رؤيته السياسية ثاقبة إلى آماذ بعيدة . غير أن أكثر ما كان يتيح للقاءاتنا أن تمتد حتى بعد أن نفرغ من أحاديثنا المستفيضة هو أننا كنا على مشرب واحد في التذوق الموسيقي والأدبي ، وكان هذا رباطا إضافيا فوق روابط الاهتمامات السياسية والإنسانية . ولست أعتقد أن السنين مع تنابها سوف تُنسيني تلك الشخصية النادرة واتسام نظره الإنسانية بالشمول والنزاهة والتجرد إلى الحد الذي يجعله يُدين سياسة حكومته الباغية ضد شعب آخر مستضعف ولا يبغى من وراء رفع الظلم عنه أى مطعم . إنه الإيمان المطلق بالحرية أنى كانت وبالعدل حيث كان ، وهو هذا كان في رأيي يحتل الدّروة التي ينشدها كل إنسان متحضر .

وقد فاجأني يوم السبت ٢٧ أكتوبر حين اتصل بي مبكراً ليتفق معي على لقاء عاجل في صباح نفس اليوم على غير العادة وفي مكان قصي ، وهو ما جعلني أدرك خطورة ما سوف أستمع إليه من أخبار ، وقد كان لديه بالفعل الجديد والخطير. فقد حدثني أولاً عن الاتفاق السري بين بريطانيا وفرنسا على غزو مصر والذي كان المفروض أن يقع يوم ١٥ سبتمبر حسب ما كانت السلطة تستهدف الهجوم على الإسكندرية والتمهيد لذلك بتوجيه حملة ضربة رادار مركزة بالعاثيان على المطارات المصرية وإنزال قوة من جنود المظلات تسبق عملية الاقتحام للاستيلاء على رأس شاطئ حتى يتم تدفق الجنود والمعدات وباقي قوات الغزو ودعمها بالإنزال بمدافع وطائرات الأساطيل البريطانية والفرنسية ، على أن تختصر قوتها قاعدة للفرنسيين ومالطة للبريطانيين ، غير أن الجانب الفرنسي عاد فاعتذر عن الإنزال في الإسكندرية مفضلاً بورسعيد ، ملوحاً بضرورة إقحام إسرائيل في المعركة لزيادة عدد القوات المهاجمة حتى تصبح ١ : ٣ مما يزيد من فرص النجاح أمامهم ، فضلاً عن أن إشراك إسرائيل في الصراع يخلق ذريعة مقبولة للتدخل البريطاني الفرنسي أمام الرأي العام . ثم أردف أن هذه الخطة قد أُلغيت بعد أن أحس واضعوها أن شيئاً منها قد تسرب إلى مصر وأن القيادة المصرية قد أعدت العدة للتصدي لها ، واستبدلت بها خطة جديدة حرص على إبلاغها فور معرفته بها كانت على الوجه التالي : تم اتفاق جديد بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على قيام قواتهم المسلحة بعدوان منسق على مصر ، فتهاجم إسرائيل سيناء لتهيئ الذريعة وتحكم الشرك . وبعد فترة وجيزة تكفي لاستدراج الجيش المصري إلى سيناء ومحاصرته فيها توجد بريطانيا وفرنسا إنذاراً إلى مصر ، تعقبانه بتمهيد جوي مركزي يقوم به سلاح الجو البريطاني والفرنسي ، لتدمير المطارات الحربية والتحصينات والأهداف الحيوية والحشود والنوعد العسكرية والدفاعات الساحلية ، ويتلوها إنزال قوات الاقتحام ببورسعيد للاستيلاء على الهدف الرئيسي وهو قناة السويس . وأضاف أن الخطة قد تم التصديق عليها نهائياً كي تنفذ خلال الأيام القليلة التالية بموعد أفضاء الرابع من نوفمبر حتى تنتهي العملية قبل الانتخابات الأمريكية في ٦ نوفمبر ، وأن كل الاستعدادات قد اكتملت للتنفيذ .

وهكذا أتاح الله لي أن تساق إلى وأنا في عقر دارى تلك المعلومات الخطيرة .

ولم يكد ينتهى لقائى معه حتى خلوت إلى نفسى لأتخفّف من ذهولى لإقدام دولتين عظميين بالتواطؤ مع إسرائيل على مثل هذه الجريمة وأخذت أفكر فى أضمن طريق وأسرعه لإبلاغ الرئيس عبدالناصر بخطة العدوان التى غدت بين يدى كاملة حتى يتدارك الأمر قبل وقوعه . وقد تبين - فيما بعد - أن هذه الخطة بحذافيرها هى التى تم توقيعها فى سبتر يوم ٢٢ أكتوبر دون تعديل . فكرت فى أن أسارع بإبلاغ المخابرات الحربية بهذه الخطة ببرقية شفرية ، غير أن تحركاتى كانت تحت رقابة فرنسية مشددة فخشيت بعد أن تحلّ السلطات الفرنسية رموز الشفرة وكان هذا أمرا ميسورا وقتذاك أن تستدل على مصدر هذه المعلومات ولن تتورع عندها عن اغتياله أو محاكمته والدخول فى تعقيدات كنا فى غنى عنها ، فعدلت عن هذه الوسيلة . وكذلك استبعدت فكرة إرسالها بالحقيبة الدبلوماسية تجنباً للتفتيش الذى كنت أعلم أن أجهزة الأمن الفرنسية الواقعة لنا بالمرصاد تمارسه بضراوة ، فضلا عن خشيتى من أن يطول بها الوقت قبل أن تصل فى موعد مناسب . ومن ثم عقدت العزم على إرسالها مع رسول خاص يكون بعيدا عن شبهات سلطات الأمن الفرنسية وفى نفس الوقت أطمئن إلى أنه سينفّذ تعليماتى بكل دقة وأمانة . وقد وقع اختيارى على السيد عبدالرحمن صادق الملحق الصحفى بالسفارة المصرية بباريس ، فلقد كانت لى به صلات وطيدة تقوم على الثقة والتعاون الوثيق ، وكذا كانت صلة عبدالناصر به . وكنت أضمن فيه سعة الحيلة وأنه سوف لا يعوقه شىء عن لقاء الرئيس وتسليمه رسالتى . فدعوته إلى مكتبى على عجل ، وأحطته علما بخطورة المهمة التى رأيت إسنادها إليه ووجوب وقوف القيادة المصرية بأسرع ما يمكن على ما يحمله من معلومات شديدة الأهمية مما قد يعرضه لمخاطر بالغة ، فأصرّ مع ذلك على الاضطلاع بها .

وقد توخّيت أن تكون رسالتى إلى عبدالناصر شفوية تجنباً لأى احتمال مهما كان ضئيلا بأن تقع فى أيدي الأعداء . ثم اصطعبت عبدالرحمن صادق إلى منزلى حيث سجّلت المعلومات الواجب إبلاغها كتابة وطلبت منه استذكارها عن ظهر قلب مبينا أن مستقبل مصر يتوقف على كفاءة ذاكرته . وكلما أعادها على طلبت منه مزيدا من الاستذكار حتى إذا اطمأنت تماما إلى أنها قد رسخت فى ذهنه أحرقت أوراقى ، وطلبت إليه إبلاغ هذه الرسالة الهامة إلى عبدالناصر نفسه

لالشخص سواه . وقد رأيت أيضا أن أحمله رسالة مكتوبة بخط يدي إلى جمال عبدالناصر تتضمن تفاصيل لا تمثل الحقيقة لخطه عدوان نسجت خيوطها مما انتهى إلينا من خطط الهجوم المتعددة اللغاة على مصر والتي كانت معدة للتنفيذ منذ الأسبوع الثالث من سبتمبر، وذلك بهدف التعمية إذا حدث ووقعت في أيدي رجال الأمن الفرنسيين الذين كانوا يطوقون السفارة ورجالها بنطاق المراقبة الدقيقة ، وهو كفيل بإبعاد أذهانهم عن أننا ظفرنا بمعلومات عن الخطة الحقيقية ، هذا فضلا عن وصف المناخ السياسى الذى كانت تعيشه فرنسا وقتذاك ، وما كان من تعبئة النفوس ضد مصر وتهيتها للحرب . كما تعمدت أن يغادر الرسول فرنسا على أنه فى طريقه إلى بروكسل لا إلى مصر، فكلفت سكرتيرتى الفرنسية بحجز تذكرة سفر له إلى بروكسل ذهابا وإيابا على أن يغادر باريس صباح الأحد ٢٨ أكتوبر و يعود — نظريا — فى اليوم نفسه قبل الثامنة مساء . ولتغطية هذه الرحلة العاجلة والمفاجئة كلفت مساعدى الصباغ عيسى سراج الدين بإعداد حقيبة تحتوي على مصابيح رادار لتشغيل أجهزة المدفعية المضادة للطائرات كانت القاهرة فى ميسس الحاجة إليها ليحملها معه ، وكأن رحلته إلى بروكسل هى لتوصيل الحقيبة والعودة إلى باريس . وأترك لعبدالرحمن صادق أن يصف بنفسه رحلته فيقول :

« غادرت الفندق الذى كنت أسكنه فى اليوم التالى (الأحد ٢٨) تاركاً به كل متاعى وذلك تمويها دون أن أحمل حتى حقيبة صغيرة . وقصدت مطار لو بورجيه ، وأنا حمل فى يدي الحقيبة التى تحوى لمبات الرادار، وركبت الطائرة المتجهة إلى بروكسل فى الساعة الثامنة صباحا . وبوصولى إلى بروكسل وابتعاد الأخطار نسبيا ، بدأت رحلتى إلى القاهرة .

ولن اتحدث عن تفاصيل هذه الرحلة ، والمشاعر التى مرت بى خلالها وما قت به من استعادة الرسالة الشفوية فى ذهنى مرارا وتكرارا ، وتعجلى الزمن للوصول خاصة بعد أن أرغمتنى الحقيبة التى تحوى لمبات الرادار (٢٣ كيلو جراما) والتى ظللت أحملها مربوطة فى ذراعى، على البقاء جالسا الساعات الطويلة فى المطارات والطائرات دون أن أحرك ساقى ... يكفى أن أقول أن الرحلة استغرقت عشرين ساعة ونصف ، إذ وصلت القاهرة فى الرابعة والنصف من فجر يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

ذهبت إلى فندق الكونتنتال ، وأغلقت باب غرفتي جيدا ، ونمت حتى الساعة التاسعة ، ثم قصدت إلى إدارة المخابرات الحربية بكوبرى القبة ، حيث سلمت حقيبة لمبات الرادار إلى جمال الشناوى مدير قسم الملاحقين العسكريين ، فأعرب عن فرحة غامرة عندما علم بمحتوياتها ، وقال أنهم ينتظرون هذه اللمبات بفارغ الصبر ، إذ بدونها لم تكن المدفعية المضادة للطائرات لتعمل .

اتصلت بعد ذلك بسكرتارية الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، فعلمت أنه فى القنطرة ، وأنه سيكون ظهرا فى مكتبه فى مجلس الوزراء ، وهناك أبلغه رسالتى . وفى الواحدة والنصف أوبعدا بقليل ، يوم ٢٩ أكتوبر ، قابلت على صبرى ( مدير مكتب الرئيس الراحل فى ذلك الوقت ) فى الدور الثانى بمبنى مجلس الوزراء ، وسلمته الرسالة المكتوبة ، وذكرت أمامه الرسالة الشفوية . بدت عليه الدهشة ، ولكنه لم يفصح عن سبب دهشته ، هل لأنه لم يصدق ؟ لا أعلم . تركنى على صبرى فى مكتبه ، وطلب منى الانتظار . بعد وقت قصير استدعيت لمقابلة الرئيس الراحل عبد الناصر .

كان يقف فى منتصف حجرة مكتبه ، وفى يده الرسالة المكتوبة التى كنت سلمتها لعللى صبرى ، ولاحظت أنه متجهم ، كما لم أره متجها أبدا . صافحته ، وقلت « ازيك ياسيادة الرئيس ؟ » قال « الحمد لله .... ازيك أنت ؟ » وأضاف فورا « على قال لى ... إيه الموضوع ؟ » . ذكرت ما عندى ، واستمع بغير أن يتكلم ، حتى انتهيت من الكلام ، فقال : « منين جبتوه الكلام ده ؟ » . قلت « القائمقام ثروت عكاشه حصل على هذه المعلومات من مصدر داخل العملية نفسها ، ويؤكد جدا صحة معلوماته » . قال سيادته : « قول كده المعلومات دى تانى » .

كررت ما عندى ، وكان ينصت وهو يتطلع إلى الأرض أمام قدميه ، فلما توقفت ، علق سيادته بقوله : « مش معقول الكلام ده » . سألته : « لماذا يا سيادة الرئيس ؟ » . قال : « مش معقول ينزلوا ( برطانيا وفرنسا ) للدرجة دى » . قلت : إذا سيادتكم سمحت ، السياسة ليس فيها ثوابت ، وكل شىء جائز ، ورأى أنه من الأفضل أن نعرف ثم نتبين كذب هذه المعلومات ، من أن نتجاهلها ثم نثبت أنها صحيحة بعد فوات الأوان » .

غير الرئيس عبد الناصر الموضوع ، سألتنى « حترجع بريس امتى ؟ » قلت : أنا كنت ناوى أرجع الليلة دى ، لكن تعبنا جدا ، وسأعود غدا أو بعد غدا » . قال : « أشوفك قبل ماتسافر » ثم صافحنى وغادر المبنى .

وعند غروب ذلك اليوم ، عبرت القوات الاسرائيلية الحدود المصرية متوغلة في سيناء ، وبدأ تنفيذ خطه العدوان الثلاثي . إذ ذاك ، حمدت الله على أنني تمكنت من الوصول إلى القاهرة فجر ذلك اليوم ، وأننى لم أسوف في سفرى من باريس ، وأنه أمكن توفيق مواعيد الطائرات لإتمام الرحلة ، وأننى لم استسلم للإرهاق فأقطع الرحلة في إحدى البلاد للراحة بضع ساعات .

هذه كانت شهادة عبد الرحمن صادق الذى حمل المعلومات بنفسه إلى الرئيس عبدالناصر ، تلك المعلومات التى كشفت له منذ اللحظات الأولى عن أن العدوان الثلاثي يهدف بالفعل إلى إيقاع القوات المسلحة المصرية بين فكى الكماشة داخل سيناء لتدمير السلاح المصرى تدميراً كاملاً ولتشتيت شمل أفرادهِ .

\* \* \*

وأذكر بعد عودتى إلى مصر فور انتهاء العدوان الثلاثي أن بادرنى جمال عبدالناصر حين لقيتهُ بقوله ضاحكاً . « لقد نفذنا من ثقب إبرة بإذن الله » ، ثم أردف قائلاً : « الحق إنى لم أصدق فى مبدأ الأمر إمكان حدوث مثل هذا التواطؤ الثلاثي برغم ما أبلغتنى به ، إذ كان حدوث هذا من المستحيل فى تقديرى » .

حينئذ فقط أحسست براحة تشيع فى وجدانى حين رأيت أن جهدى فى منصب الملحق العسكرى كان له جدواه ، وكان هذا ختاماً للمرحلة العسكرية من حياتى رضيتُ به نفساً .

وأذكر كذلك أننى حين ذهبت إلى دار أخبار اليوم بعد هذا اللقاء بأيام لزيارة صديق لى هو الأستاذ السيد أبو النجا التقيتُ على باب المصعد صديقة مع الأستاذ محمد حسنين هيكل ، فإذا هو يرتبى فى حماس و يشد على يدي مشيداً بما بلغه على لسان الرئيس عبدالناصر من أمر خطة العدوان الثلاثي التى كنت قد أرسلتها إليه . ومرت الأعوام ، وإذا أنا أطلع فى صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٩٨٦ حلقة من كتاب « ملفات السويس » البالغ القيمة والأهمية للأستاذ هيكل جاء فيها : « أن التحرك العسكرى الإسرائيلى جاء مفاجئاً لعبد الناصر ، ولم يرسبها واضحاً يبرره فى هذا التوقيت بالذات » . ولفت نظرى كذلك ما جاء فى هذه الحلقة من أنه « من الغريب أن جمال عبدالناصر لم يتنبه إلى احتمال التواطؤ حتى بعد أن قرأ نص البيان الإسرائيلى عن نزول قوات إسرائيلية فى منطقة قرب قناة السويس ( عملية ممر

ميتلا) فقد راح يقرأ سطور هذا البيان وهو جالس في مكتب القائد العام للقوات المسلحة وبعيد قراءته ويتصل هيئة العمليات ثم يبدى استغرابه لإقحام اسم قناة السويس في البيان»، إلى أن يقول الكاتب «أما أن يتعاون الكل معا (يعنى الدول الثلاث) في خطة سرية على النحو الذى ظهر فيما بعد فهذا ما استبعده من أول لحظة وظل يستبعده لساعات طويلة». ثم يعود فيقول «وصباح ٣٠ أكتوبر كان جمال عبد الناصر لا يزال يستبعد احتمال التواطؤ إلى درجة أنه طلب منى أن أتوجه إلى السفير الأمريكى... والآن بدأ شبح التواطؤ ماثلا للعيان، ولكن عبد الناصر كان غير قادر على التصديق، ولعله لم يصدق تماما إلا عندما انتهت فترة الانذار في الساعة السادسة بعد الظهر بتوقيت القاهرة، وبدأت أول غارة للطائرات البريطانية على مطار ألماتة الملاصق لبيته».

والحقيقة أن الرئيس جمال عبد الناصر لم يُفاجأ؛ وقد أشرت إلى تفصيل هذا في صفحات سبقت من هذا الفصل، يقرأ القارئ فيها أنى كم أرسلت إليه برقيات ورسائل خاصة بهذا الموضوع، منها ما هو إلى عبد الناصر خاصة ومنها ما هو إلى الخبايا الحربية المصرية، وكان هذا بدءاً بالأيام الأولى من شهر يناير ١٩٥٦. وحملت هذه الرسائل والبرقيات ما يشير قطعاً إلى أن السياسيين والعسكريين من الفرنسيين باتوا يؤمنون الإيمان كله بأنه لا بد من ضرب مصر عسكرياً، كما باتوا يؤمنون بأنه لا بد من تحريض إسرائيل على شن هجوم على مصر، وأخذوا بالفعل يملئونهم بما هم في حاجة إليه من سلاح لازم لهذا الهجوم إمداداً يفوق الوصف، وزاد هذا الإمداد بعد تأميم القناة. وكذا يطالع القارئ في تلك الصفحات أنى كم بعثت إلى القاهرة بتفاصيل تحركات ومواقع حشد التشكيلات الحربية الفرنسية برية وجوية وبحرية استعداداً للهجوم يوماً بيوم منذ شهر أغسطس ١٩٥٦. وكذا يقرأ القارئ ما كان من أنباء عن الاجتماعات المريبة بين السلطات الفرنسية والإسرائيلية التى يحكون فيها مكيدة تهيب لعدوان ضد مصر على صورة منا. وكان آخر ما أرسلت إلى عبد الناصر خطة العدوان الثلاثى كاملة كما انتهت إلى ٢٧ أكتوبر ١٩٥٦. هذا إلى تقارير أخرى من الملحقين العسكريين المصريين في شتى أنحاء أوروبا تضمنها ملفات الخبايا الحربية التى تزخر بالكثير مما كنا نحب أن يرجع إليها المؤلف ليستأنس بما فيها كما استأنس بغيرها من ملفات أجنبية قبل أن ينتهى إلى ما انتهى إليه



واليوم تتوارد على ذاكرتى سنوات القلق التى عشتها أسير مهام منصبى العسكرى الأخير، وصور أولئك الأصدقاء المخلصين لمبادئ الحرية والعدالة من العسكريين والمدنيين الذين أمدوني بما لديهم من معلومات مفيدة لبلادى فى معركتها ضد الاستعمار الشرس والصهيونية التهازية . وكانت أكثر الصور إشراقا فى ذاكرتى صورة الصديق الفرنسى النبيل الذى أسرتلى بخطة العدوان . لقد ظلت صورته تلاحقنى شهرا بعد شهر، وخطر لى أن أقدم له مصر هدية تكون رمزا لاعتزافنا بصنيعه الجليل ، ترك لى جمال عبدالناصر الحرية التامة فى اختيارها ، وحادثته فى ذلك فكان رده حازما حاسما بل غاضبا أيضا إذ قال : « لوأنى تلقيت شيئا منك لكان معنى هذا أننى لم أكن أو من مبدأ أخدمه ، وأننى أخون وطنى من أجل مطمح شخصى » .

أما رسالة التعمية المكتوبة بخط يدى إلى عبدالناصر فقد أثبتتها هنا فى الحاشية (٨) كما هى مدونة فى النسخة التى احتفظت بها .

## ٤ باريس بعيداً عن السياسة والحرب

أتيت إلى باريس وأنا أحمل ضمن ما أحمل أملاً في تسجيل بحثي لنيل درجة الدكتوراه من جامعة باريس بعد سحب أوراقى من جامعة فريبورج بسويسرا ، غير أنى لم أتمكن من تسجيل الموضوع « جبران خليل جبران » لأن دارسا لبنانيا قد سبق وسجل هذا الموضوع ، ولوائح الجامعة لانتجيز تناول نفس الموضوع المسجل قبل مضي مدة معينة . وكانت هذه صدمة عنيفة لى ، أن أتخلى عن أديبى العربى الأثير خففها عنى الأستاذ ريجيس بلاشير حين قبل متفضلاً أن يكون مشرفاً على رسالتى ، وعرض على أن أتناول الأديب المؤرخ « ابن قتيبة الدينورى » ، حياته وما كان له من آثار فكرية ، هذا إلى تحقيق كتابه « المعارف » الذى كان يعد موسوعة جمعت كل ما يعنى الناس أن يعرفوه عن أسلافهم وما ينقل لهم من حديث ، ومعنى آخر كان لونا من ألوان الثقافات الذى حرص الناس خلال القرن الثالث الهجرى أن يعرفوه .

ولقد كنت مترددا ، إذ كيف لى أن أجمع بين شغفى بألوان الفن الذى تزخر به باريس وبين الأدب العتيق الذى تضمنه خزائن الكتب . لكن الأستاذ بلاشير

لم يتركنى وشأنى ، بل أخذ يدحض مايجول بذهنى ومايخطر ببالي حجة بعد حجة ، مبينا لى مالهذا العمل الذى اقترحه على من قيمة ، إذ كان فى رأيه إضافة نفيسة إلى الحقل الأدبى العربى . وكان مما ضمنى إلى رأيه فى النهاية مصارحته لى بأنه كان معتزما النهوض بهذا العمل قبل عرضه على وقوله لى : « لقد كان فى نيتى أن أنهض أنا بهذا الموضوع ، إذ هو مما يشغلنى . فإذا لم تكن راغبا فى أن تمضى فيه كما أشرت عليك تكون قد أتحت لى الفرصة فى أن أعود إلى ما كنت أنتويه » . ولم أتردد ساعتها فى القبول مقابل أن يترك لى حرية اختيار موضوع الرسالة الإضافية [ المكتملة ] للدكتوراه وكان « صدى مدرسة التصوير الانطباعية بفرنسا فى الموسيقى » ، فكان لى ما أردت ، وأقدمت على تسجيل رسالتى بالسوربون فى ٢٢ نوفمبر ١٩٥٤ واجتزت امتحان المعادلة فى ١٣ ديسمبر ١٩٥٥ على يدى الأستاذ برونشيج .

ولقد كان من توفيق الله أن قيض للإشراف على رسالتى الأستاذ بلاشير المستشرق الذائع الصيت الذى نقل معانى القرآن الكريم إلى الفرنسية وأستاذ السوربون الذى اشتهر عنه ميله القوى إلى العرب والذى حفل سجله بالكفاح المشرف ضد الاستعمار الفرنسى ، كما زخرت الصحف بمقالاته النارية ضد المارشال جوان حين عزل السلطان الشرعى للمغرب وضد وزير الخارجية الفرنسية وقتذاك جورج بيسدو . وقد رأيت فى هذا الرجل الفذ مثلا جديرا بالتقدير ، فكان بحسه السياسى النبيل يقف إلى جانب مواطنى شمال أفريقيا مدافعا عن حقوقهم المشروعة من خلال رابطة « فرنسا - المغرب » التى أسسها وضم إليها الكثير من المستشرقين والأدباء الأحرار من الفرنسيين ، من بينهم المستشرق الكبير لوى ماسينيون . ولم يكتف بهذا بل نراه فيما بعد ينشر المقالات المنتددة بالعدوان الثلاثى على مصر ، ويتكبد مشقة السفر - وهو شبه ضريح فى أواخر أيامه - إلى حيث يلقانى - وكانت العلاقات مقطوعة بين مصر وفرنسا - لتوجيه النصيح والتحذير من مكائد تدبر فى فرنسا ضد مصر . ولست أنسى ما حييت عونه العلمى الكبير لى ، فطوال المدة التى قضيتها بباريس كان يستقبلنى فى بيته ٧ شارع إميل دوكلو أمسية كاملة كل أسبوع يخلو فيها لى ، أتلقى عنه المعرفة التى يبذلها فى سخاء وتفان ، وأظفر بالتوجيه السديد لجرى رسالتى ، والمساعدة فى الحصول على

المراجع ، والنصح بما ينبغي الحصول عليه من مستنسخات مصوّرة للمخطوطات من شتى دور الكتب والمتاحف المنتشرة في أرجاء العالم ، لا يضمن على بوقت أو جهد متحملاً في صبر انقطاعي عن العمل في الحين بعد الحين لما كان يقوم في سبيلي من ظروف عمل معوقة . إن القدوة التي ضربها هذا الأستاذ الجليل بعلمه الغزير وتواضعه الجمل وخلقه النبيل وإيمانه برسالة الحق والعدل تجعلني أزهو لأن القدر شاء لي أن أتسلمذ لفترة ماعلى يديه ، وأنى كنت حتى لقي ربّه واحداً من أصدقائه المقرّبين رحمه الله رحمة واسعة .

وفي خلال ربيع ١٩٥٦ كانت رسالتى قد أوشكت على الانتهاء ، وأنهى التّى الأستاذ بلاشير أنه قد تحدّد شهر مايو ١٩٥٧ لمناقشتها . غير أن ظروف العدوان الشلاثى وقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا قد اضطرتنى إلى مغادرتها في ١٥ نوفمبر ١٩٥٦ وانقطعت صلتى خلال الشهور التي تلت هذا انقطاعاً تاماً بفرنسا ، وقد سادت العلاقات بيننا وبين فرنسا قطيعة لم تكن لتتيح لى أن أتردد على فرنسا لأناقش رسالتى . على أن صلتى بالأستاذ بلاشير لم تنقطع فتارة كنت ألقاه بأوروبا ، وتارة أخرى نتراسل إلى أن وصلتنى منه رسالة في الثالث من ديسمبر ١٩٥٨ كى أبعث إليه بنسخة مطبوعة بالآلة الكاتبة ليتمكن من تقديم تقريره إلى مدير جامعة باريس ليحصل على الإذن بطبع الرسالة التي يقضى قانون الجامعة بأن أقدم منها مائة نسخة ، ولم يلبث بعد أن وصلته بشهرين أن كتب التّى في ٧ فبراير ١٩٥٩ معبراً عن رضائه بما انتهت إليه في رسالتى ، وألحق في خطابيه الذى ضمّنه إذن الطبع ثبثاً بملاحظاته وتصويباته الأخيرة بخط يده ، والتّى استرشدت بها عند طبع الرسالة ، وحدّد لى يوم ٣٠ مارس ١٩٦٠ موعداً للمناقشة على أن أقضى على الأقل شهراً في باريس ، وطلب أن أكتب إليه برأى في ذلك ليتمكن من حجز قاعة المناقشة . وكنت وقتها وزيراً للثقافة والعلاقات بين فرنسا ومصر مقطوعة ، وكان الرئيس في دمشق فطرتُ إليه ولقيته على مائدة الإفطار في شهر رمضان عارضاً عليه هذه المشكلة . فلفتنى إلى أنه لم تجر العادة بأن يكون للوزراء أجازة تستغرق شهراً يتغيّبون فيه عن مناصبهم ، هذا إلى ما كان بيننا وبين فرنسا من موقف غاية في الحساسية . لكنه مع إصرارى وما أحسّه منى من إشار للحياة العلمية على منصبى الوزارى وافق على أن يمنحنى شهر مارس للسفر

إلى فرنسا لاستكمال الرسالة المكتملة والإعداد لمناقشة الرسالة الأصلية . والغريب أن موعد النقاش قد حان وأنا مصاب بنزلة شعبية حادة لم يكن أمامي إلا أن أحملها بين جنبي وأتحامل على نفسي والحمى تهتصرني ، وإذا بهذه المحنة تنقلب نعمة ، فقد أنزلت علي سكينه أعانتني على النقاش الهادئ .

قادتني قدماى صبيحة ذلك اليوم متحاملا على نفسي ويجيش صدري بمختلف المشاعر ما بين الرهبة والفرحة إلى أن دلفت إلى قاعة الفيلسوف لوى ليار Luis Liard التى تقع إلى يمين مدخل مبنى جامعة باريس والمخصصة لمناقشة رسائل الدكتوراه بالسوربون . راعتنى القاعة بحجمها المتوسط المعتدل وبجمعها بين المهابة والألفة ، وبدأت لى تحفة تليق بأهلى القصور من روعة ما تحلت به من زخارف منحوتة مذهبة وماغشى جدرانها وسقفها من لوحات مصورة على يد المصور فرانسوا شوميه . بهرتنى الزخارف المذهبة الكثيفة على الجدران والى طمسها مرور الأيام فاخترت منها ومضة التآلق . ولفتنى أول ما دخلت القاعة تلك الجوامات المذهبة التى تحمل صور عظماء القرن السابع عشر ، وكان أول ما جابهنى منها فى صدر القاعة صورة الكاردينال ده ريشيليو ، ومن حوله معاصروه الأدياء راسين وديكارت وبوسويه و پاسكال ، وعلى جانبى المدخل كورنى ومولير . حتى إذا ما استويتُ قاعدا واشأأت بصرى إلى السقف راعنى منظر رمزى لطال علم يرتدى روب الأساتذة الأسود وعلى كتفه وشاح أصفر مزدان بالفراء وقد بدا منهمكا بين أكداكس الكتب من حوله محملا بعينيه فى كتاب مفتوح ، ومن فوق رأسه ربات ثلاث مخلقات ، إحداهن ربّة التاريخ والثانية ربّة الفلسفة والثالثة ربّة العلوم ، وتهيمن على هذا الجمع كله ربّة الحقيقة فى أبهى وجلال ممسكة فى يدها بمرآة وقد سقطت بين يديها فى هاوية ، ربّة الجهل . وفى أعالى السماء يرفرف اثنان بضمان من ولذان الحب يحملان زنكا منقوش عليه « جامعة باريس » . وفوق لفافة تلتف حول هذا الزنك نجد بيتا من الشعر يقول : « إن الشباب يعيش أبدا على ذكرى الآباء والسعى فى سبيل الحقيقة » .

لم يكن عندها إلى جانبى ثمة مصرى واحد حاضرا يؤنس وحدتى إذ كانت العلاقات الدبلوماسية عندها مقطوعة بين مصر وفرنسا كما قدمت . ولقد دهشت حقا حين رأيت القاعة زاخرة بمجموع من الاسرائيليين ، ولعلمهم خفوا الى القاعة

ليشهدوا ماسيكون من أمر هذا الوزير المصرى ومناقشته . على أنى مع هذا وذاك لم أفقد إلى جانبى نفرأ من الأصدقاء الفرنسيين وبعض معارفى من منظمة اليونسكو. وبدأ المناقشة الأستاذ بلاشير لمدة ساعة ثم تلاه الأستاذ لآؤوست الذى استغرقت أسئلته ساعة أخرى ، وتلاهما الأستاذ بيلا الذى فاجأنى بقوله : « إذا كان زميلائى قد تملظفا بك قرابة الساعتين فقد آن الأوان كى أهزك هزاً غير رقيق » . وإذ كانت الحمى ماتزال تحوطنى بسياج السكينة فإنه لم ينبجج فى إثارتى بأسئلته المفاجئة على امتداد ساعة من الزمن كنت خلالها صافى الذهن فوقفتى الله الى صياغة الإجابات القوية .

وحين انتهت المناقشة اختلت هيئة المحكمين وعادت لتعلن رأيا مجمعة على منحى درجة الدكتوراة فى الأدب من جامعة باريس بمرتبة الشرف الأولى Très honorable . وكيم كنت سعيدا لحظتها ، فلقد عدت نفسى قد نلت أعظم ماصبوت إليه ، ولم أعد بعدها أشعر بهزة الحمى ، وأقبل على أصدقائى يهنئوننى ، وفوجئت عند خروجى من باب القاعة بوجود الأساتذة الثلاثة واقفين صفأ رافعين قبعاتهم تحية لى . وللمرة الأولى يخاطبنى الأستاذ بلاشير بوصفى وزيرا بعد أن انتهت فترة تلمذتى على يديه ويوجه إلى باسم مدير جامعة باريس دعوة لحضور الحفل الذى يقيمه تكريما لى .

\* \* \*

ولم تكن صلاتى بباريس مقصورة فى عالم السياسيين والعسكريين بل تعدتها إلى رجال الأدب والفن الذين تركوا أثرا عميقا فى نفسى وأثروا معارفى . وكان أقرب المقررين التى ممن صادقتهم مؤرخ الفن وعالم الجماليات الفيلسوف رينيه ويج عضو الأكاديمية الفرنسية والأستاذ بالكوليچ ده فرانس . وهو فيلسوفاً إلى جانب كونه إنساناً يؤمن بأن ثمة رابطة بين الإنسان والعالم المرئى وأنه إذا تعمق تلك الرابطة أمكنه أن يعي الفلسفة التى تنطوى عليها فنون التصوير والنحت . وتعد مؤلفاته من أعظم ما كُتب عن جماليات الفن وتاريخه ، وإن كانت مطالعتها شاقة عسيرة تتطلب جهداً ذهنياً كبيراً ، غير أنه وهو يقدم نفسه فى هذا الإطار لا يتعالى على الناس ولكنه يستهدف مخاطبة الجماهير عن طريق الرواد .

وتقوم فلسفة وياج على أن وظيفة الفن الرئيسية هي خلق الوسيط بين الكون والإنسان، فالفن يهيئ مكان اللقاء بين الواقع المادى الملموس والواقع الروحى المحسوس سواء عن طريق الفن الزخرفى الخالص الذى يحاكى الطبيعة، أو عن طريق الفن الإبداعى الخلاق الذى يسعى إلى تفسير الطبيعة. وأرى أنه صاحب نظرة تركيبية تكاملية ينظر إلى الموضوع من خلال ارتباطاته المختلفة بغيره من الموضوعات، وهو فى الوقت نفسه صاحب عقلية تحليلية تعنى بدراسة عناصر الموضوع وجزئياته الدقيقة. وإذا كان خطر التخصص المسرف يهدد عصرنا فإن رينيه وياج — دون إنكار منه لأهمية البحوث الفرعية الضرورية — يطمح فى أن تكون لصاحب العقلية التحليلية نظرة شاملة إلى « الكل ».

وإذا كانت لرينيه وياج حين يقف محاضراً القدرة على أن يحرك النقشة فى فكر مستمعيه فإنه يعرف أيضاً كيف يثير انتباههم ويحلق بهم خارج حدود موضوعه الأصلى عبر الأفكار الفلسفية والعلمية وتاريخ الأدب التى تغنى معارفهم وتزيدهم قدرة على فهم الفكرة الجمالية التى يناقشها. وإذا كان الفنان يرسم اللوحة وهى أولى الخطوات فى هذا الميدان، والناقد ينتقدها إن مدحاً أو قدحاً، فإن مؤرخ الفن يضيف الأهمية التاريخية على العمل الفنى فى نفاذة تامة وحياد مطلق، كما يحلل تأثير الأساتذة القدامى والمحدثين فى تكوين هذا العمل الفنى وتشكيله. ومهما كانت العقبات التى تصادف مؤرخ الفن فى محاولاته فلا مناص أمامه من الالتقاء « بالروح ». وهنا يجب أن تتوافر فى هذا المؤرخ كى يؤدى مهمته على أتم وجه صفات عالم النفس الذى استوعب الفن عن طريق خبرته بالتجانس بين الفن وعلوم النفس والجنس ووظائف الأعضاء والأحلام والحب والتصوف وجولات واسعة حول الزمان والمكان، كى يحدد الدوافع النفسية التى أدت بالفنان إلى أن يرسم مارسمه أو ينحت منحته، وهذا يساعد المتأمل المفتون على أن يكتشف بينا هو يتطلع إلى العمل الفنى الحالة الوجدانية التى كان يعانها الفنان وهو يُدعى لنا عمله الفنى، وهذا أيضاً تسرى فى الموسيقى والشعر والرقص تلك الوثبة الخلاقة التى يدعونا إليها برجسون والتى ترقى بنا إلى القمم وتحيطنا بالتأمل الأليف الذى يفتح للفكر والقلب أبواب « المعبد » أعنى « معبد

الجمال» . وهذا بالضبط هو ما اضطلع به مؤرخ الفن الفيلسوف «رينيه ويج»  
فنيغ وأجاد .

أما عن الجانب الإنساني فيه فقد كان جوادا سخيا لا يرضى بعلمه ولا ماله .  
عرفته منذ أن كان أمينا ثم مديرا بمتحف اللوفر إلى أن تقلد سيف أكاديمية  
الخالدين ، فلم تزد رفعة منزلته إلا تواضعا ودمائة وقربا من قلوب عارفيه .  
وما أشهرها كلمة كانت تجرى دوما على لسانه أن «لا فكاك بين الفن والأخلاق ،  
فهما المعقل الأخير الذى تفزع إليه القيم البشرية» . ولهذا انتهى إلى أن الفن هو  
أسمى المقتنيات ، فهو الذى يمضى بإرادتنا فى الحياة إذ يجعلها جديرة بأن نحياها .  
فالفن اليوم لا يبدو وسط ضخامة التاريخ واحة تنعم بالظلال والهدوء ومسلة  
لطيفة وشريطا جميلا تتزين به الحياة ، بل أصبح نشاطا رئيسيا للفكر ، ولم يعد  
هدفه محاكاة الطبيعة فحسب على نهج المصور الإغريقى زوكسيس الذى امتلأ  
نشوة وسعادة وهو يرقب الطير ينقر عناقيد العنب المصورة فى لوحته ، تخالها حقيقة  
لارسماء .

أما سحر حديثه فليس هو وحده مصدر ذبوع صيت هذا الفيلسوف وإنما لأنه فى  
نفس الوقت يقدم دائما إجابات لتلك التساؤلات العميقة التى يثيرها عصرنا  
الحالى . ففى هذا العصر — عصر الإنسان الموجه والآلة الموجهة والمصاروخ  
الموجه — فى هذا العصر الذى يواجه الإنسان فيه بالتحدى بأن تقدم الآلة يوشك  
أن يتغلب على قدرة الإنسان الذهنية — وهذا ما لا أقره فكل ما يستطيع الطابع  
الآلى أن يفوق فيه الطابع الإنسانى لن يتعدى فى رأى سرعة التنفيذ — أقول إنه  
فى هذا العصر تصبح ضرورة التمييز بين «الكم» وهى سمة الطابع الآلى وبين  
«الكيف» وهى سمة الطابع الإنسانى حتمية أكثر من أى وقت مضى .

ولطالما غبطت نفسى على ما ظفرت به من صداقة هذا الإنسان الجليل الذى  
جابت كلماته على متن الأثير العالم بأسره ورسخت مكانته فى عواصم الدنيا  
رسوخها فى باريس . وما أصدق ما يقال عنه من أن حديثه من عطاء السماء ، يشيع  
إلهاما يسرى فى أعماق الوجدان ، وتسبق الأيدى بالتصفيق له قبل أن تنبس به  
شفتاه . أما خصوصه — إن كان له خصوص — فغاية ما قالوه عما نسميه له سحرا :  
براعة ، فما من شك فى أن سحره يرقى عن أفهام الكثيرين .



وأقول في غير حرج إننى قد لقنت عنه الكثير فيما قرأت له وفي جلساتي إليه أو خلال جولاتي برفقته في المتاحف والقصور والكنائس ، فكم كشف لى بنظراته الثاقبة وإحساسه المرهف وعلمه الغزير وبيانه الجزل عما تكتنه الإبداعات الفنية من خفايا وعن عمق الروح التى تُملئ على الفنان مايقدم ، فهو حين يعطى من ذاته يعطى فى سخاء وبلا حدود . وفى سنة ١٩٦٨ اختارتنى منظمة اليونسكو نائبا لرئيس اللجنة الدولية لإنقاذ مدينة البندقية ، وكان رينيه وياج رئيسا لتلك اللجنة ، فكانت هى الأخرى فرصة مواتية لأحظى بلقائه أكثر من مرة كل عام ولأعمل معه على مدى عشر سنوات لمست خلالها كم كان وقيا للقضايا التى ينادى بها أويعتنقها أويتبناها ، ولألقن عنه ماينطوى عليه صدره من دراية مستفيضة بالفن والجمال لم يسبقه إليها غيره .

\* \* \*

وكان ثانى هؤلاء المقربين إلى الفيلسوف رينيه ماهيه ، وكان عندما عرفته يتولى منصب المدير المساعد لمنظمة اليونسكو بعد أن عاصر نشأتها وهى تنمو بين يديه وما هو معها الى أن أصبح فى الستينات مديرا لها ، وغدا الفصل بين شخصيته وبين شخصية المنظمة ضربا من المحال حتى بعد وفاته وإلى يومنا هذا . ذلك أنه لم يكن ينظر للمنظمة بوصفه عاملا بها بل كان ينظر إليها رسالة وهب نفسه لأدائها . وما كان يدور بخلد يوما أن الأيام ستورد دورتها وإذا أنا وإياه على رأس فريق اجتمع لهدف نبيل هو إنقاذ آثار النوبة ومن بينها معبد أبو سمبل ، وهو ما سأسط شيئا عنه فيما بعد .

وأضيف أن هذا الفيلسوف كان فى بدء حياته مدرسا للفلسفة وكان مما يصبو إليه القضاء على الأمية . وما فتى يردّد أمامى وأمام غيرى ما كان عليه جدّه وجدته لأمه من جهل بالكتابة وتعطش للمعرفة ، فكان لهذا كله أثره فيه إبان حياته حماسة ونشاطا . فقد كان يؤمن إيمانا غير محدود بأن فى قدرة الإنسانية أن تتغلب على ذاتيتها إذا ما سمت وارتقت فلكت أمرها . كان هذا الفيلسوف الكبير نقطة تحول وضاء فى تاريخ منظمة اليونسكو ، وذلك لإيمانه بأن استقلال الدول فى العصر الحديث يتجاوز الأوصاف التقليدية للسيادة ، فالاستقلال فى نظره هو

استقلال النمو القومي ، أى نمو الإنسان بالإنسان ومن أجل الإنسان ، وأن مفهوم النمو يتضمن التعاون الدولي ، وأن الإنسانية تسير نحو حضارة عالمية مدفوعة بقوة التقدم المضطرد للتكنولوجيا ، وبقوة الطموح الأخلاقي ، أى حاجة الإنسان إلى الإطلال على الإنسانية . لقد كان رينيه ماهيه رحمه الله فى كل ما بذل من جهد وقدم من فكر شديد الولاء للقيم التى آمن بها وحرص على أن تثبت وترسخ .

\* \* \*

وفى عام ١٩٦٥ لقيت أديب قرنسا الكبير أندريه مالرو فى أمسية تظل ذكراها دائما مصدر سعادة كبيرة لى ، وهو الأديب المثالى الملتزم والمثقف الذى يجمع بين القول والفعل . لقد دعانى وهو يومها وزير الدولة للثقافة إلى عرض بدار أوبرا باريس تعقبه مأدبة عشاء بمطعم « لاسير » . أما مطعم لاسير الأنيق فيتميز بتقليد فريد ، إذ تقدم لكل مختلف إليه « آنية » فضية صغيرة مسجل عليها رقمه تجعله يؤثر على غيره ممن يفدون إلى المطعم حين يزدحم بالزائرين . وعلى أنغام البيانو الهادئة يتناول المرء أشهى ألوان المطبخ الفرنسى . وفى الفينة بعد الفينة ينفرج سقف المطعم آليا لتغيير الهواء . وقد عن لى وأنا أشهد انفرج السقف وانكشف صفحة السماء عن نجومها المتألثة أن أسأل مضيفى أنى طرأت له فكرة تغيير زخارف سقف دار أوبرا باريس ، وكان هذا الموضوع وقتذاك الشغل الشاغل للمهتمين بالفتون وأموال الجمال ، فإذا هو يقول :

« كنت ذات ليلة فى دار الأوبرا ، وإذا أنا فى فترة الاستراحة أطلع إلى أعلى بحثا عما أمتنع به بصرى من زخارف تتألف مع ما أشرد فيه ، غير أنى لم أر إلا قنامة رسوم باهتة لا تتضح خطوطها ولا تميز ألوانها الرمادية الكابية . ولا أنكر أن شارل جارنييه [ مشيد هذه الأوبرا ] كان عبقرى فى إضفاء النسب المتسقة على ذلك المبنى الشامخ الأنيق ، إذ أسبغ الوحدة المتناغمة على شتى عناصره الثرية بزخارفها دون أن يهمل الجوانب العملية ، ولم يفته أن يستعين بمثالين يرقون إلى مستوى عبقريته يأتى على رأسهم المثال كاربو ، ولكن ما أدركه فى اختيار المثالين لم يدركه فى اختيار المصورين ، فقد كانت فرنسا فى ذلك الوقت [ نهاية عهد الامبراطورية الثانية ] يعجزها الممتازون من مصورى الجدران بعد وفاة ديلاكروا العظيم ، فاضطر جارنييه إلى أن يستعين على مضض بخبر من لم يلقنوا عنه ما يريد فلم يوفقوا ، إذ أطلقوا العنان لهواهم فجاءت تصاويرهم كما لاشك قد أدركت وفق قدراتهم المحدودة . ومن هنا

كان على أن أسد هذا النقص ، ومضيت أسائل نفسي ثرى من يستطيع الاضطلاع بهذا العبء ؟ فكّرت مليا فلم أجد خيرا من مارك شاجال ذى الدراية الواسعة والخبرة العميقة بشئون المسرح والأوبرا والباليه . وما شدنى إليه أنه كان لا يقف فى زخرفة المبانى العامة عند إضفاء مسحة عابرة على ما يصوّبل كان يميل إلى إضفاء ما يكسبها الخلود . هذا إلى أنه فنان يجمع بين ملكات متعددة من شعر وموسيقى وتصوير ، بل إنه لا يرسم إلا مستمعا إلى الألحان موسيقية ، كما ينظم بين الحين والحين أناشيد مرسلّة تجمع بين الغناء والإلقاء ، غير أنه يجد فى التصوير حياته التى تخفق مع أنفاسه » .

ومضى أندريه مالرو يكشف لى عن الحماسة التى استقبل بها شاجال اقتراحه بتصوير سقف الأوبرا وحرصه على إتمام العمل الذى أثار بعض النقاد الذين لم يرضهم استبدال السقف الجديد بالسقف الباروكى القديم . واسترسل مضيفى يشيد بفن شاجال قائلا « إنه يتميز فى تضاويره بابتداعه عالما يطفى عليه الخيال ، وتقوم بين عناصره علاقة تبعث الحيرة والإعجاب . فهو يرمى إلى تحريرنا من قيود الأفكار السالفة لأنه ينظر إلى موضوعاته نظرة تصوّفية توغل فيما بعد الحياة ، ويجمع بين عناصر تكوينه كلها من بشر وطير وحيوان ونبات وجماد وتاريخ ليبعد حلقات متصلة دون أن يتأثر بعوامل خارجية ، إذ منهجه ألا يساير القديم ، فهو ذاتى ... فكرة وإلهاما » .

ولست أنسى هذا اللقاء الممتع مع الوزير الجليل الذى قدم لى خلال عملى وأنا وزير للثقافة منذ عام ١٩٦٦ من العون الصادق ما كانت له آثاره القيمة فى أوجه النشاط بالوزارة على نحو ما سأحدث به فيما بعد . على أن حديثه عن مارك شاجال الروسى الأصل اليهودى العقيدة المهاجر إلى فرنسا زاد من إعجابى بهذا الفنان الذى كنت شديد الافتتان بمنجزاته الفنية لا أكاد أنصرف عنها حتى تعاودنى الرغبة إلى رؤيتها ثانية سواء ما كنت أشاهده منها من لوحات مصورة فى متحف الفن الحديث وغيره أو نسجيات مرسمة فى مصانع جوبلان أولوحة السقف التى أضافها لأوبرا باريس هدية عرفان فى كرم لا يارى للدولة التى آوته . وأخيرا بمناسظر الستائر الخمس لباليه « دافنس وكلويه » . وكم كنت مشوقا إلى أن أتعرف إليه ، وأخذت أتلمس لذلك الوسيلة إلى أن مكنتى الصديق رينيه ويج مما أبغى ، فالتقيت به للمرة الأولى على مأدبة عشاء بمنزل هذا

الصديق . وتلت هذه لقاءات أخرى حينما كان ينزل باريس ، كما زرته في داره ومرسمه بـقانس في جنوب فرنسا فتوثقت بيننا أواصر المعرفة .

ولقد لفتنى في باريس أن ربّات البيوت عندما يدعون ضيوفا إلى بيوتهن لتناول العشاء يحرصن على أن يستضفن زائرا مرموقا متحدثا . وعلى قدر ماتكون منزلة هذا المتحدث يكون قدر الوجبة إعدادا وتصنيفا وتلوينا . ومع أن تناول هذه الوجبات في حقيقتها لا يستوعب وقتا طويلا غير أنها تمتد عادة إلى وقت طويل بما يدور فيها من أحاديث متبادلة ، فإذا الحوار يغلب الطعام . وقد يتضاءل فيها عدد أصناف الطعام إلا أنها تحفل بشتى أصناف الحديث الذى يجرى فيها عامرا بالسخرية الباريسية اللاذعة ، ينطلق فيه المتحدثون دون قيد ، غير ملقين بالا لى يتناولونهم من الشخصيات بغمزاتهم ، فإذا هذا الجوال المرح يسود الحضور جملة وتفصيلا ، وهو ما كان يزيدينى ثقة في صدق قول ألفونس كار : « إن الباريسى الحق هو الذى تنم عنه خفة ظلّه التى تسرى في عروقه كما تسرى الصحة في عروق الإنسان السليم ، وإنه ليس من يحب الإقامة فيها بل هو من لا يستطيع فراقها » . وفي إحدى تلك المآدب عرّ لى أن أستزيد شاجال شيئا عن الفلسفة التى كانت وراء تصويره لسقف أوبرا باريس ، فضى يكشف لى عن « أن نظرته إلى لوحة السقف لم تكن باعتبارها وحدة زخرفية فحسب ، بل كانت نظرة موضوعية مستقلة شأنها شأن أية لوحة مكتملة أنجزها ، كما أراد أن تكون مناظر السقف على نحو مناظر الأوبرا والباليه قيمة وأهمية ، مع حرص على أن يكون ثمة ترابط بين الصور الرمزية للأوبرا والباليهات وبين مناظر معالم مدينة باريس . فلقد كانت قديما ثمة صعوبات تعرض للفنان في تصوير الزخارف الباروكية التى على علوشاهق ، إذ كان عليه أن يوهم المشاهد بأن ثمة حركة تصاعدية لا يبلغ مداها الطرف ، ولكنه أثر أن يطرّح هذا الأسلوب إلى ربط بصر المشاهد بالتكوينات المصورة على السقف مع إشاعة إضاءة غامرة » .

وفي لقاء آخر بعد أن كنت قد شاهدت باليه « دافنس وكلويه » للموسيقى موريس رافيل واللوحات الخمس التى رسمها مارك شاجال لتتسند مع بدء كل فصل من فصوله ، والتى وجدها تضيف جديدا إلى موسيقى رافيل . كنت قد فتنت بهذا العمل الفنى المتكامل فتنة تهيج بين جوانحى شعورا راسخا

لايزول مع الزمن ، بوقع أنغامها التى تُشبع الروح بانطلاقاتها الخفاقة تتخللها هذآت السكون ، ثم تعود صاحبة ماثجة . فوسيقى رافيل مع ما تنطوى عليه من رقة الإيماءات والرجفات عالمٌ فى الموسيقى متكامل يحظى منه كل مُشاهد برؤيته الموسيقية الخاصة ، وهو ما أحسسته قبل وأنا أعد العدة لرسالة الدكتوراة التكميلية عن أثر المصوّرين الانطباعيين الفرنسيين فى موسيقى موريس رافيل وكلود ديبوسى . أقول إن هذه الموسيقى كانت تتحدى محاولة أى فنان يرغب فى أن يفسرها تفسيراً تشكيميا ، إلى أن جاء شاجال فأدخل فى ستائر منظره المنبسطة لونا من التصوير الرقيق الرهيف يهيج مع المؤثرات الضوئية ، فيخيل للمرء أن ثمة ضوءا ينبعث من ثنايا اللوحات يُكسبها تألقا وإشراقا فى الظلام الدامس ، تتكشف معه الشخصوس المرسومة وكأنها تثب من أمكنتها لتشارك الشخصوس المتحركة على المسرح من الراقصين والرقصات

وقد جرتنى إعجابى الشديد بما رأيت من جمال آسر إلى أن أستوضحه عن سر المجذابه إلى فن الباليه الذى أسهم فيه بتشكيل مناظر عمليين شاعخين من قبل هما « طائر النار » و « طقوس الربيع » لسترافنسكى ، فضى يقول فى هزة المصور ونشوة العازف : « إنه كان دوما يرى فى الباليه نبضات خفاقة وعرا يعلو ويهبط مدأ وجزراً ، يحتضن الراقصين والراقصات ، فإذا هو مدفوع إلى لوحة يستنبط فيها تكوينات خاصة تتفق والعزف الموسيقى والميلودى » . فالتصوير عنده أشبه بما يكون بالموسيقى ، كل لمسة فرشاة فيه كأنها اختلاجة قوس على كمان ، تستوحى فى عزفها ما تُمليه عليها الذكريات . ثم إنه لم يكف عن أن يحقق عرضاً شاملاً ليس فيه فاصل بين الإطار والحركة ، أوبين المناظر الثابتة والأردية الراقصة ، أوبين العناصر الموسيقية والعناصر التشكيلية . فرداء الرقص فى نظره ليس مجرد ثوب ، بل هو يشارك الشخص فى أداء ما يؤديه ، وهو يُشيع اللون على جسد الراقص كما تحدد الخطوط هيكله ، بمعنى أن يحمل الراقص أو الراقصة فوق جسده شخصيته وشمائله . وفى الحق إن شاجال كان محتدم الرغبة فى صبغ لوحاته وثياب الرقص بجو من النضارة والشباب المتألق بما ينشره خلالها من لمسات حاملة مريحة ومضات غموض سحرى ، فضلاً عن قدرته المذهلة فى اختيار الألوان المنسجمة مع الأصوات ، واكتشاف سر العلاقة بين اللون والنغم . وهو ما جعلنى أهنس فى أذنه

ذات ليلة قائلا : « إن لوحاتك قد ارتبطت بموسيقى رافيل ارتباطا عضويا حتى لم يعد من الممكن فصل إحداها عن الأخرى ، وإن الاستماع إلى موسيقى دافنس وكلويه دون التأمل في لوحاتك ليبدو في نظري حرمانا لها من أحد عناصرها الرئيسة ، بل أحسبك قد احتويت إلى الأبد رافيل في إसार لوحاتك » .

واتصل بنا الحديث عن ألوانه التي توشك أن تنطق وحدها ، والتي تكاد الحسية فيها أن تطالعا منها ، فاستغرق في الضحك ووافقتني زوجته فالتين على ما ألمحتُ به . وهنا رأيتهما فرصة كي اقترح عليه — طالما أنه قادر على الوفاء بألوانه بمثل هذه الحسية الجياشة — أن يرسم مناظر أوبرا « تريستان وإيزولده » لثاجنر متنبأ له بأنها ستربط إلى الأبد بين حسية فاجنر الموسيقية المتجسدة في هذه الأوبرا الخالدة وبين حسية ألوانه الدافئة . وفي تردد قال وهو يتطلع إلى بعينه الزرقاوين الصافيتين ووجهه الصبوح وبشرته الغضة ، وهو في بذلته الداكنة الزرقاء وقيصره الأزرق الفاتح ورباط عنقه الأزرق الغامق : « لعلني أستطيع أن أنهض بهذا بعد أن أفرغ من رسوم مناظر أوبرا ( الناي السحري ) لموزار » .

وقد أحس شاجال ما به من افتتان بلوحات دافنس وكلويه فإذا هو يرسل لى في صبيحة اليوم التالي كتابه « صور شاجال المطبوعة على الحجر » Chagall Lithographe وإحدى « دراساته المصورة » التي أعدها لمشاهد هذا الباليه كتب عليها إهداء رقيقا مهره بتوقيعه فكانت من أعز ما اقتنيت واحتلت موضع الصدارة في داري ، ولا تنفك تثير في كل ما سرحت الطرف إليها شوقا إلى تصاوير شاجال البهجة ، تصاحبها رقصات المصمم فوكين ، على أنغام رافيل الأسرة ، لتشكّل جميعا قمة لتكامل الفنون .

وكانت لشاجال مع مصر لفطة كريمة إبان احتفالات وزارة الثقافة بالعيد الألفى لمدينة القاهرة عام ١٩٦٩ . كان فريق باليه أوبرا القاهرة يتدرب على تقديم باليه « دافنيس وكلويه » تحت إشراف الراقص والمخرج العالمي سيرج ليفار الذي قبل بإيفاده إلينا الوزير الأديب أندريه مالرو استجابة لرجائي ، فطلبت إلى شاجال حينئذ الإذن باستنساخ مناظر الستائر الخمس لهذا الباليه ، حرصا مني على ألا يفوت النظارة في مصر نشوة المتعة كاملة التي انتشيت بها أنا في

باريس عند مشاهدتى لهذا الباليه . فبادر بتلبية طلبى مشكورا ، وعُرض الباليه فى القاهرة فى ظل لوحات شاجال الشهيرة التى لاشك كانت ذخرا من ذخائر دار الأوبرا إلى أن التهمها حريق الأوبرا عام ١٩٧١ الذى أتى على كل غال ونفيس .

\* \* \*

كذلك كان بينى وبين المستشرق الأستاذ لوى ماسينيون أكثر من لقاء أخذنا فيها فى أحاديث مختلفة كان أكثرها يدور حول الفلسفة الإسلامية التى غنى بها طويلا وكانت له فيها دراسات مختلفة ونظرات لا تزال موضع اهتمام الدارسين ، وإن كانت له قبل أن يخوض فى هذه الدراسات الشرقية الإسلامية عنايته الخاصة بالدراسات الكلاسيكية القديمة ، الأمر الذى أثار فضولى فسألته فى أحد لقاءتنا لِمَ تركت هذا إلى ذاك ؟ وقد جرى هذا اللقاء على مائدة الغداء فى يوم لاينسى من أيام شهر نوفمبر وسط حدث أدبى له أهميته الخاصة ومذاقه الفريد بمطعم دروان Drouant المطل على ميدان جايون المنمنم والمختال بالنافورة التى تتوسطه ، فى موعد اجتماع عشرة أدباء من أكاديمية جوناكور حول مائدة الغداء السنوى الذى يعمد باليهو العلوى من المطعم ، حيث يجرى النقاش حول أفضل الأعمال الشعرية المتخيلة للظفر بجائزة « جوناكور » ، والذى يعقبه التصويت لتحديد العمل الفائز . وكان المطعم والمقاهى المحيطة تعجّ برجال الصحافة والإذاعة فيما يشبه المهرجان الأدبى . وإذا أنا أسمع منه ما أثار دهشتى وكان جديراً منى بالتنويه والتسجيل حين قال « لقد جذبنى الشرق إليه بماضيه الحافل بالديانات فإذا أنا غارق فيه إلى قة رأسى ، وإذا فلاسفة الإسلام ومتصوفوه يحظون جميعا بالقسط الأكبر من تفكيرى ، وإذا أنا بعد دراستى إياهم أنجذب نحو المنبع الأول الذى استقى منه هؤلاء الفلاسفة تصوفهم وفلسفتهم ، ألا وهو الدين الإسلامى الذى نزل وحناً على رسول المسلمين ، وإذا أنا جولة بعد جولة أكاد أشهر إسلامى وأنخلى عن مسيحيتى لما وجدت فى العقيدة الإسلامية من بُعد عن التجسيد والخلوص إلى معبود واحد لا شريك له فى ملكه لم يلد ولم يولد . هذا كله شدنى إلى الإسلام ، غير أن نوازع قديمة متوارثة أوقفتنى موقف التردد فلم أقدم ولم أحجم ، بقيت بين بين ، وإذا أنا آخر المطاف أعود إلى كاثوليكيّتى المتشددة وأغدو مسيحياً متطرفاً » .

\* \* \*

وكننت من قديم أهوى الاستماع إلى موسيقى الأورغن الدينية لجلالها ونفاذها إلى القلوب ، فمع « المقدمات الكورالية » الآسرة لباح كنت أجد نفسى أيضا مأخوذا بألحان أوليفييه ميسان الدينية ، وهو الأستاذ بكونسيرفاتوار باريس وعازف الأورغن بكنيسة « لا ترينيتيه » بباريس ، وهو لا يزال إلى اليوم يعزف بها متطوعا يرى ذلك واجبا دينيا عليه . وعُشاق هذا اللون من الموسيقى مدينون له بمقطوعاته المستوحاة من الإلهامات الدينية والتصوفية مثل « مولد السيد المسيح » و « العشاء الرباني » و « صعود المسيح » وغيرها ، تلك الألحان التى تحلق بالمرء إلى أسمى الأجواء الروحانية وتطهر الروح من أدرانها فتسموها إلى الشفافية غير ناظرين إلى المعتقد الدينى على اختلافه . لذلك ما كاد الحال يستقرى فى باريس حتى سعت إلى التعرف إلى هذه العبقرية الفذة فجمعنى به الصديق برنار أنطونيز زوج شقيقة الجنرال ديجول . ومنذ ذلك الحين جعلتُ أختلف على كنيسة « لا ترينيتيه » كلما سنحت الفرصة أيام الأحاد بعد الفراغ من القداس لأستمع إلى ميسان مسترسلا فى عزف ألحانه الأخاذة وارتجالاته العذبة على الأورغن ، ثم ألقاه أحيانا فى غرفته الخاصة التى اتخذها لراحته بالكنيسة تتبادل أطراف الحديث . وكننت أظن أنه يخص تأليفه الموسيقية للأورغن وحده ، وإذا هو يدعونى فى مارس ١٩٥٥ إلى قاعة مسرح « الشاتليه » حيث تُعزف سيمفونيته الشائعة « تورا نجايلا » التى وضعها فى عشرة أجزاء ، وإذا هو بعد ثلاثة عشر عاما يدعونى أيضا إلى دار أوبرا باريس حيث كان الاحتفال بتقديم هذه السيمفونية موسيقى مصاحبة لباليه يحمل الاسم نفسه ، فتجلى لى عمله هذا فى أروع صورة : موسيقى ميسان ورقصات رولان بيتى ومناظر المصور إرنست باكست ، فتآزرت الفنون جميعا وتآلفت فى تشكيل أسرة فنية تربط بينها أنبل الحوافز ، تتوثب نفوسهم حماسة ، ويتبادلون العون فيما بينهم فريقا متكاتفًا متناغما ، يدفعهم إلى هذا السمو إحساس عميق بجلال مايؤدون .

لقد علقنت روحى بموسيقى هذا العبقاق الذى تتلمذ على پول دوكا وتأثر بـ سيسزار فرانك وكلود ديوسى وتخرج على يديه بيير بوليز وستوكهاوزن ، وكننت فى حيرة من أمره ، كيف يجمع بين رومانسية فرانك وانطباعية ديوسى ثم يكاد ينتهى إلى الدوديكا فونية ؟ (١) . وحين أحسّ منى حيرتى كشف لى فى حصة



الأستاذ القدير عن منهجه بقوله : « إنى مع هذا الذى تراه من تأثر بغيرى لا أزال ممسكا باستقلالى محتفظا بذاتي ، إذ أسبغ على موسيقاى روحا غنية بالصور الخيالية الرهيفة . وعلى نحو ما يكون فى التجارب العملية أقوم بتجارب موسيقية أستخدم فيها إلى جانب الآلات التقليدية وسيطا إلكترونيا هو موجات مارتينو لإنشاد الألحان الرقيقة العذبة وإبراز التوججات الصوتية وتجسم أصداء الألحان » .

وحين كاشفته بما أتبيته فى موسيقاه من تنوع يجمع بين إيقاعات تَمَّتْ بصلته إلى أصول شرقية لاشك أفادها من تجواله فى الشرق ، وبين مقامات العصور الوسطى . كالترتيل الجريجورى المُرسَل ، وبين زقزقة الطيور المختلفة ، صارحنى بأنه أَلَفَ من عناصر هذا التنوع غنائية أملتأ ذاتيته كى تفصح عما يؤمن به من عقيدة راسخة فى محاولة لتقديم مايسميه هو « قوس القزح اللاهوتى » .

« ثم كان طريقى إلى لقاء الشاعر الكبير لوى أراجون عبر الإعجاب بفنه وبفن صديقه وزميله پول إيلوار . كانت بداية تقديرى لهما نابعة من دفاعهما عن قضايا الإنسان ، وقد شدتني إحدى قصائد إيلوار فجفزنى الإعجاب بها إلى ترجمتها ، وقد نشرت إحدى الصحف المصرية هذه الترجمة بعد أن أرسلتها إليها من باريس :

« على كِرَّاسات طفولتى وعلى القمطر وعلى الشجر وعلى الرمل وعلى  
الجليد أخطُ اسمك .

على جميع الصفحات المكتوبة وعلى جميع الصفحات البيضاء وعلى  
الأحجار والدماء والأوراق أو الرماد أخطُ اسمك .  
على الخيالات الذهبية وعلى أسلحة المحاربين وعلى تاج الملوك أخطُ  
اسمك .

على الأجمات والصحراوات وعلى الأعشاش وعلى الزهور البرية وعلى  
أصداء صباى أخطُ اسمك .

على غرائب الليالى وعلى رغيغ النهار الأبيض وعلى الفصول المتعاقبة  
أخطُ اسمك .

على غلالاتى الزرقاء كافة وعلى صفحات الغدير الراكد وقد انعكست عليه  
أشعة الشمس ، وعلى البحيرة التى يتأرجح على وجهها ضوء القمر الجياش  
أخطُ اسمك .

على الحقول وعلى الأفق وعلى أجنحة الطيور وعلى الطاحونة ذات  
الظلال أخطُ اسمك .

على كل بركة فجر وعلى البحر وعلى السفن وعلى الجبل العاتى أخطُ اسمك .  
على ركام السحاب وعلى عرق العاصفة وعلى المطر الغزير وعلى الرذاذ  
أخطُ اسمك .

على الأجسام البراقة وعلى نواقيس الألوان وعلى الحقيقة المجسمة أخطُ اسمك .  
على الدروب العامرة وعلى الطرق الممتدة وعلى الميادين الحافلة أخطُ  
اسمك .

على المصباح المضيء وعلى المصباح المعتم وعلى مساكنى التى اجتمع  
شمليها أخطُ اسمك .

على السقف المشدوخ نصفين وعلى مرآتى المشطورة وكذا غرفتى وعلى  
فراشى الخالى مثل الصدفة أخطُ اسمك .  
على جروى النهم الحنون وعلى أذنيه المنتصبين وعلى سيقانه المتخاذلة  
أخطُ اسمك .

على عتبة بابى وعلى كل ماهو مألوف ، وعلى لفحة النار المباركة أخطُ اسمك .  
على كل جسد مؤتلف وعلى جباه صحابى وعلى كل يد مبسوطة أخطُ اسمك .  
على لوح المفاجآت وعلى الشفاه التى لا تهدأ فلا تصمت مع الردى أخطُ اسمك .  
على ملاذاتى المنهارة وعلى مناراتى المعتمة وعلى جدران أشجاني أخطُ اسمك .  
على الفراق قسراً وعلى العزلة العارية وعلى خطى الموت أخطُ اسمك .  
على الصحة التى آبت وعلى المخاطر التى ولت وعلى الأمل حيث لا  
ذكرى أخطُ اسمك .

وبفضل كلمة واحدة أستهل حياتى من جديد .  
تفتحت عيناي على حبك وعشت لألهج باسمك .

أيتها الحرية .»

وكان أراجون قد بهرنى أول ما بهرنى فى قصائد من شعره استمعت إليها بصوت المطرب الفرنسى المعروف ليوفيريه الذى كان يسوقها فى ثوب من التلحين الجليل الساحريز يده جمالا ورقة ورونقا صوته الآسر . ولم ألبث أن اقتنيتُ بعض دواوينه التى ضمتها شعره وأدركتُ أن ثمة توافقا بين شعر أراجون وشعر زميله إيلوار . وكنت أعرف أنها من أقطاب المدرسة السورالية ، حتى بات يطيب لى أن أتتبع أوجه الشبه بين الشاعرين . وكم توقفت عند مناجاة أراجون لزوجته إلزا حتى وجدتني مدفوعا إلى ترجمة فقرات عديدة منها :

« اندفقت إليك كما يندفق النهر إلى البحيرة ،

متخطيا وهادئا ونجادا .

مخلفا ورائي ، من أجلك ، ما فى الوجود :

متع الصبا ورفاق الحياة .

كل هذا من أجل بهاء جلالك .

أنا ذلك الحجر الصلد الذى ألانه وطوك المتصل .

أنا ذلك المقعد الخالى المتلهف لوصولك .

وأنا زجاج هذه النافذة الملتصق بجبينك لترقبى ما وراءه .

وأنا تلك الميدة التى تعم الردهة وأنت تخطرين فيها .

وأنا تلك النفحة التى تشيع مع زفراك .

ما أتعسنى حين تنأين عني جانبا .

تعاسة مرآتك حين تتولّين عنها بوجهك .

وما أتوقنى إلى أن أفصح لك عما تكنه نفسى .

ما أنت إلا حياتى ، بك أحيا ما حييت .

إلزا

بك أظما وبك أرتوى .

فأنا مدين لك بكل نسمة من نسيمات الحياة .

بها أنتعش وأحيا .

، وهل ما أتعنى به إلا من وحيك .

وغاية ما أبتغى أن أكون كرمة تظلك

أو مرآة صافية تتجلى فيها طلعتك .

وحين خلق الله آدم كان اسمك أول كلمة أجزاها على لسانه ، أخذت تردده الألسنة وكأنه الشتاء يطوى تحته الورود ليطالع بها الربيع الحياة .

ما أجله من اسم لا أقوى على الإفصاح عنه ، يتعثر به لسانى إذ هو روحانى ، يعيا لفظ عن أن يحتويه وكأنه زهرة اليزفون قبل أن تتفتح عنها أكمامها ، فلا يحيط بها بصر ولا يستوعبها شم .

تشوّفت نفسى إلى التعرف على هذا الشاعر المبدع ، فسعيتُ إلى أن ألقاه إلى أن زرتة فى مسكنه حيث كان يقطن قريبا من شارع جر ينيل ، فرحب بى وعلامات البشر على وجهه الوردى وعيناه الزرقاوان تشعان بالبراءة وكأنى بين يدى طفل فى ظهره ولطفه . وجلسنا فى غرفة مكتبه الصغيرة وكانت تزينا لوحات شتى تصور زوجته إلزا ازدحمت بها جدران الغرفة ، تمثلها بعضها جالسة تتأمل وتمثلها أخرى منتصبّة شاردة العينين ، وثالثة مواجهة ورابعة بجانبه . ومن هذه اللوحات ما هو ملون ومنها ما هو أسود بالأقلام ، وتغزى هذه اللوحات لأكثر من فنان من الأصدقاء والمعجبين والمرئدين .

ولم يكن لى معه وأنا مشدود إلى تلك اللوحات التى تمثل إلزا غير أن يكون حديثى إليه عنها ، تلك الزوجة التى ملأت حياته ، فلم تكن معشوقته فحسب بل كانت أمله المنشود فيما تصبو إليه الإنسانية من تحوّل من الشقاء إلى النعيم ، كما كانت المرأة المناضلة التى أرست فى النفوس حب الإنسان لغيره مع حبه لذاته . ولم يكن هذا بالأمر الهين لو أن إلزا كانت امرأة تحظى بجمال الوجه فحسب ، بل كانت إلزا المنادية بالحب المجرد من الذاتية إلى الحب العام المطلق . ولقد أحسست بشيء من الخجل وأنا أحاول أن أثّر معه موضوع إلزا التى كان يشيع طيفها بالغرفة التى نجلس فيها والذى مافارق وجدانه وعقله وحسّه وهلة . وعلمى أنه أمدّ الناس من حوله بكل ما يخطر عنّا ببال ، ولم يعد ثمة مجال لمزيد ، وحسبتى إن طرقت هذا الباب كنت فيه كالمتطفل . لهذا رأيت أن أستهل الحوار بما أحسّه من توافق فى الخواطر بينه وبين إيلوار ، فإذا هو يفتح لى عن أنه وإياه ينطلقان عن رؤية واحدة يحدها فهمهما المشترك للعالم على أساس من الحب ، وإن كان إيلوار يتجنب الثثرة ويلتزم سحر القول مما يجعله أقرب إلى الفكرة المجردة التى تمثل الواقع خير تمثيل ، كما كان حريصا على أن يُلبس الفكرة الصافية ثوبا من الخيال الحالم . ومع ذلك حرص أراجون على أن يكشف لى عن عدم تشابههما ،

وهو الأمر الذى يتجلى فى تجسيد إيلوار للمعانى المجردة حتى ليُنزل غير العاقل منزلة العاقل ، وفى جنوحه هو— أى أراجون— إلى الاستعارة فى تصوير شعوره نحو إلزا .

وأخذت أستفسر منه عن مبلغ صحة مازعه أندريه بر يتون من أن تحوله من السور يالية إلى الشيوعية جاء مع ثورة من ثورات الانفعال والغضب حين دخل عليهم فى أحد اجتماعاتهم الفنان المصور السور يالى سلفادور دالى مرتديا الغريب الشاذ من الثياب وقد تلطخت سترته باللبن المهراق ، فما كان منه إلا أن صاح فى وجهه قائلاً : إن هذا الذى سكبته على سترتك من لبن يكفى لسد جوع أطفال أسرة يوما بأكمله ؟ فهمس إلى مبتسما :

«إن هذه قد تكون القشة التى قصمت ظهر البعير كما تقولون فى المثل العربى» إذ أنه كان مع عدد من السور يالين قد أخذوا يضيقون بامتطاء صهوتى جوادين فى آن واحد : السور يالية والشيوعية . وعبثا حاولوا التوفيق بين مفهوم هذا ومفهوم تلك . فعلى حين كانت السور يالية تنشد أول ماتنشد حرية الفرد متدرجة فى ذلك إلى حرية العالم بأسره ، كانوا هم يؤمنون الإيمان كله بأن هذه الحرية العامة لا وجود لها إلا فى الخيال ، ولم يكن فى وسعهم الإيمان بوجود هذه الحرية إلا يوم يلمسونها بأيديهم فى واقع الحياة ، فما يدور فى الأذهان من فردوس أرضى وهم من الأوهام .

وحين أخذت عيناى تطوفان بصفوف الكتب فى مكتبته تناهى التى صوته وهو يحذثنى عن أن متعته الكبرى تكمن فى مطالعة الكتاب الذى يسمو بخياله فيجعله ينفصل عن عالم الوجود إلى عالم الغيب فإذا هو فى شبه سبات ، فليس ثمة لذة تفوق عنده تلك التى يحسّ فيها بغشية يفقد فيها وعيه إثر عبارة من تلك التى تجعل الذهن يشّت أوقصة من تلك القصص التى تأخذ بمجامع القلوب . وعندما هممت بالانصراف قدمت له نموذجاً لنفرتيتى من الخزف قائلاً : « لعل فى وضع وجهه نفرتيتى المشرق إلى جانب صورة إلزا بوجهها الوضاء الذى يطالعنا على الجدران مايشير إلى عرفان مصر لإلزا ولك بما قدمنا للإنسانية من أدب رائع وفن مأثور» . فحركت عبارتى من نفسه مشاعر طيبة ، وإذا هو يهرع إلى مكتبته ويستخرج من أحد أدراجه كتابه « مجنون إلزا» و يقدمه إلى بعد أن مهره بكلمة إهداء رقيقة .

## ٥ الفترة بين عملي ملحقاً عسكرياً وسفيراً

(ديسمبر ١٩٥٦ - أكتوبر ١٩٥٧)

فرض العدوان الثلاثي على مصر إغلاق سفارتنا بباريس وقطع جميع علاقاتنا السياسية والاقتصادية والثقافية مع فرنسا ، فعدتُ إلى مصر على أول باخرة تغادر أوروبا بعد العدوان قاصدة إلى الإسكندرية التي وصلتُها في الأيام الأولى من شهر ديسمبر ١٩٥٦ . وقد كان من الطبيعي أن أتصل فور عودتي بالرئيس عبدالناصر فإذا أنا أحس في صوته رنة الترحيب بلقائي ، على أن أتناول الغداء وأسرّتي معه باستراحة القناطر الخيرية في يوم الجمعة التالي ، وكان مما قاله لي : « لقد كنت صادق التقدير حين بعثت لي بتقريرك عن خطة العدوان قبل وقوعه ، وإن كنت لم آخذ بتقديرك أول الأمر إذ كان يخالف كل حساباتي وتوقعاتي . ومع وقوع العدوان فقد كتب الله لنا النجاة فنفذنا من ثقب إبرة » .

والحق إن لقاءنا الأسرى والذي شاركنا فيه كذلك الأخ خالد محيي الدين كان لقاء ممتعا وشائقا ، فقد تبادلنا فيه انطباعاتنا عن العلاقات والمواقف الدولية

خلال العدوان وبعده ، وقد كان بقائى خلال العدوان لعدة أسابيع فى باريس وروما قد زوّدنى بالكثير من المعلومات والأسرار والهمسات والاتصالات ، فبسّطُ كل ذلك أمام الرئيس فى دقة تتيح لنا أن نتبين مسيرة الخطوط الشديدة التشابك والكثيرة العُقد . ولم يفتنى فى نهاية اليوم الحافل بالنقاش أن أترك للرئيس تقريراً كنت قد أعدته خلال عودتى بالسفينة عن الحيات السويسرى الذى عرفت عنه الكثير خلال الشهور التى أمضيته ملحقا عسكرياً فى سويسرا قبل انتقالى إلى فرنسا . فقد صوّرت لى أحداث هذا العدوان الغادر المفاجيء على بلادنا التى لم تكن تطمح فى أكثر من تحقيق استقلالها أن نمط الحيات السويسرى يمكن أن يكون المأمن لبلادنا من أى تدخل شرقى أو غربى ، على أن نفرغ لبناء بلادنا من الداخل أولاً ، وليس هذا بالأمر الهين فهو يحتاج منا إلى جهد كبير ، إذ علينا أن نسمو بالمواطن المصرى إلى المستوى اللائق به فى الوجود ، فإذا ما تحقق لنا هذا كان من اليسير علينا أن نبدأ جولتنا الثانية فى الخارج ونحن عندها على مستوى الأقوياء . وقد أحسست على الفور من تعبيرات وجهه ومن أنصاف الجمل التى تتمم بها عدم ترحيبه بهذا النوع من الحيات لبلادنا الملتحمة الجذور مع المنطقة العربية والمجموعة الإسلامية والقارة الأفريقية ، وأدركت أنه لن يكون لتقريرى عن الحيات السويسرى أى صدى فى نفسه حيث كان يرى أن صيغة الحيات الإيجابى هى أكثر الصيغ ملاءمة لمصر ، التى لا تستطيع أن تنكمش خلف جدران حياء سلبى خامد منذ أن قُدّر لها أن تقود حركة النضال والتحرير والتقدم الفكرى والسياسى والاجتماعى متصدرة موكب العالم الثالث كله . وما أدرى من كان منا على حق .

\*\*\*

عدت من أوربا بعد غيبة تُنيف على أعوام ثلاثة لأشهد تطورات جذرية فى كافة المجالات تقرّيباً . فكان تأميم قناة السويس والتصدى للعدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ تعبيرا عن بلوغ عهد الناصر طورا جديدا من أطوار نضجه السياسى ونفاذ فكره الاجتماعى نحو آفاق أبعد . ومع ما كان له من صفة الزعامة على النطاق المصرى والعربى وتآلقه كرجل دولة على النطاق العالمى أخذ يسير بخطى حثيثة على نظام مركزية السلطة الذى جمع الخيوط كلها فى يديه ، مظرحا جانبا

الديمقراطية الليبرالية التي تستند إلى ترك الثروة في أيدي القلة مع إعطاء حرية سياسية واسعة تسمح بتعدد الأحزاب، وتبادلها كراسي الحكم، وأخذاً بالديمقراطية الاجتماعية القائمة على جعل الثروة في خدمة الأغلبية مع الحد من الحريات

السياسية. ومن هنا كان اختياره لشكل الاتحاد القومي إطاراً تلتقى فيه كافة طبقات الأمة لا يفتى عنه إلا أعداء الثورة والمربطة مصالحهم بمصالح الاستعمار. وقد طرح عبد الناصر هذا في صيغة تحالف قوى الشعب العاملة في مواجهة دكتاتورية البروليتاريا الماركسية التي رفضها في وضوح وحسم، وهو ما تجلّى في تغيير البناء الاجتماعي؛ حيث صعدت إلى السطح طبقات بنما هوت إلى القاع طبقات أخرى. وغت طبقة العمال نموا هائلاً مع حركة التصنيع وإزاحة طبقة كبار الرأسماليين، وتحرّر الفلاحون فأصبحوا سادة الأرض التي كانوا يفلحونها بعد سقوط طبقة كبار ملاك الأرض على أثر تطبيق قانون الإصلاح الزراعي. ثم كان أن عتمت الثورة مجانية التعليم، فبعد أن كانت مقصورة على التعليم الابتدائي والثانوي عهد طه حسين في حكومة الوفد أصبحت تشمل الجامعة أيضاً، وبهذا أتاحت الفرصة للجسم الغفير من أبناء مصر الذين كانوا يرون الالتحاق بالجامعة حلماً من الأحلام، فإذا هم في عهد الثورة يرون ذلك حقيقة وأصبحوا اليوم هم من يسيدهم مقاليد الأمور في شتى المواقع. وغدت جامعة الأزهر شأنها شأن الجامعات الأخرى يُدرس فيها ما يدرس هناك، وكان الهدف من هذا

التطوير ألاّ يجمد رجل الدين عند علوم دينية بعينها لا يعدوها، إذ تقتضي الحياة الحضارية التي نعيشها أن يضمّ رجل الدين إلى علومه الدينية العلوم الدنيوية، فما أشدّ الصلة الآن بين الاثنين، وما أقدر رجل الدين بإمامه بالعلوم الدنيوية أن يجابه شبهات الحياة التي تشغل على أبناء هذا العصر خواطرهم. فكما في المسيحية رجال جمعوا بين الدينيّات والعلوم الدنيوية مثل يسكال الذي جمع إلى علمه الديني الدراسات الفلسفية، وكان على رأس فلاسفة عصره، ومثل بوسويه الذي كان له باع الطويل في الأدب فترك لنا من المؤلفات الأدبية الكثير، وكذا تيار ده شاردان الذي غدا في عصرنا فيلسوفا رائداً من رواد علم الحفريات، فثمة مثلهم في الإسلام كثرة جمعوا هم الآخرون بين الدينيّات والعلوم الدنيوية، فلقد جمع ابن سينا إلى العلوم الدينية علوم الطب والفلسفة والمنطق والطبيعة، وكذلك الغزالي الذي جمع



إلى علومه الدينية العلوم الفلسفية والتصوفية . غير أن الأمور للأسف لم تمض كما رجونا . ولقد كفلت الدولة للمرأة كافة الحقوق حتى تصبح على قدم المساواة مع الرجل ، وكادت البيئة الجغرافية كذلك أن تشهد تغيراً جذرياً بالشروع فى تحويل مجرى النيل وتكوين بحيرة هائلة من مياهه بعد تشييد السد العالى الذى يتيح للأرض الزراعية أن تنعم بالرئى الدائم فى مختلف أنحاء البلاد ، كما أرسى الدولة قواعد العمل من أجل تنمية اقتصادية حقيقية .

غير أن ما أثار فى نفسى شيئاً من الأسى ، أننى لمست لتوى مع امتداد العمران الجديد بداية التدهور فى الذوق العام الذى كان سمة مميزة لمدنتنا الرئيسية لا فى مجال المعمار وحده بل فى إحساس الأفراد بالجمال . وحين انكفأت على نفسى متأملاً أدركت أن مردّ ذلك إلى ما جدّ على العمارة من تجنّ - والعمارة هى بكل المقاييس فن وإنتاج ثقافى حضارى - تجلّى أول ما تجلّى فى المباني العامة ، فإذا هى تستحيل إلى مبان وظيفية فحسب تخضع لمقتضيات اقتصادية بحتة لا يُلاحظ فيها فن المعمار بأصوله الجمالية والتقليدية ، وتسود فيها المبادئ التى تفرض إنجاز أكبر عدد من المباني بأقل تكلفة فى أقصر وقت ممكن ، أى تغليب مبدأ الكم على الكيف مما يكون معه تنازلات جوهرية من حيث اللمسات الجمالية فى تلك المباني العامة التى هى بمثابة أنموذج يحتذى الأهالى فى مبانيهم الخاصة ، فإذا فن العمارة يفقد سماته الجمالية فى الناحية العامة والناحية الخاصة ويغدو على نمط يفقد الذوق والجمال . وهكذا كان الحال مع فن تخطيط المدن ، هذا إذا ما استثنينا ما تم على يد رجل عسكرى تولى لفترة محدودة وزارة الشؤون البلدية والقروية هو عبداللطيف البغدادي ، فلازلنا إلى اليوم ننظر بإجلال إلى مشروعه العظيم الذى أنجزه وهو شق كورنيش النيل متحدّياً كل الصعوبات مهما جلّت ، ومنها اقتطاع جزء من السفارة البريطانية ، وكان لهذه السفارة ما لها قبل ذاك من شأن . وهذا المشروع إن دلّ على شىء فإنما يدل على ما كان يستمتع به هذا الوزير المستنير من سعة خيال وذوق جمالى وإرادة نافذة . وإذا شئنا أن نوازن بين هذا المشروع وبين غيره مما جاء بعده على أيدي وزراء مدنيين مختصين فى الهندسة والعمارة والتخطيط وجدنا البون واسعا ، فلقد كان همُّ البعض سرعة الإنجاز ومن ثم تغليب الكم على الكيف ، فإذا القاهرة تصير إلى ما صارت عليه الآن من فقدان لملامح الجمال جُملة . وما حدث

للقاهرة حدث مثله أو أكثر في الإسكندرية وغيرها من المدن . هذا إلى انبثاق طبقات كانت حبيسة فانطلقت إلى الوجود وأصبح لها من الأمر شيء ، ولم تكن من قبل على صلة بالحضارة ، فإذا هي تشارك في فرض ذوقها . وقد كان هذا طبيعياً بعد أن انحازت الثورة إلى الأغلبية المهضومة الحق في التزود بالثقافة الرفيعة . وهذا هو الثمن الفادح الذي غالباً ما تدفعه الثورات (١٠) .

وثمة ظاهرة أخرى طالعتني مع عودتي إلى الوطن هي التفاف الناس جميعاً حول جمال عبدالناصر وإسلام أمورهم كلها إليه وتركهم الزمام بين يديه حين رأوه قد وُفق في تأمين قناة السويس وخرج بأمنه سالمة من عدوان مدبر ، وقد خطأ بهم خطوة واسعة إلى المجد ، مؤمّلين أنه سوف يقودهم نحو ما يصبون إليه ويرجونه ، ويطمعون فيه .

أما الظاهرة التي جزعت لها كل الجزع فهي تحوّل الدولة إلى ما يشبه الإقطاعيات التي يقف على رأس كل منها عدد من رجال القوات المسلحة سواء في أجهزة المخابرات أو الأمن أو رئاسة الجمهورية أو التنظيم السياسي إلى غير ذلك . وأغلب هؤلاء وأولئك لم يكونوا من الضباط الذين قاموا بالثورة ، بل كان أكثرهم من الانتهازيين الذين ارتدوا قميصها ليتسللوا فيفسدوا على الثورة أهدافها ويقتنصوا ما يمكنهم اقتناصه من مكاسب . عندها قرّ في وجداني تشاؤم ثقيل ينبىء بأوخم العواقب ، وتزايدت معه خشيتي من أن تكون هذه هي بداية النهاية . ولسوف يؤرقني انبثاث هذا العدد الكبير من العسكريين في معظم أجهزة الدولة لسنوات عدّة ، وسوف أعود للحديث عن هذا بعد .



وانحصر عملى بغداد ذلك — وكنت منذ عودتى من فرنسا ملحقا برئاسة الجمهورية — فى القيام بين وقت وآخر بمهام سياسية خارج الوطن كانت كل منها تستغرق نحو أسبوعين وتكرر بمعدل مرة كل شهرين تقريبا .

وكان العدوان الثلاثى على مصر قد أحدث وضعاً جديداً أخذت معه القوى الكبرى تعيد حساباتها . فقد خرج عبدالناصر من العدوان مدعوماً بتأييد واسع من الشعوب العربية وشعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بوصفه رمزا للتحرب من التبعية الاستعمارية وللاستقلال الوطنى . وعلى الرغم من أن أمريكا كانت تعلن مناصرتها للشعوب المطالبة بحق تقرير المصير، غير أن الموقف قد تكشف عن وجود دافع خفى وراء هذا التأييد العلنى لحرية الشعوب ، وهو الرغبة فى ضرب الاستعمارين البريطانى والفرنسى لأخذ مكانها . وحين تبين لأمريكا إصرار عبدالناصر على التأميم الشامل لشركة قناة السويس ووضعها تحت إدارة مصرية خالصة دون امتيازات لأية دولة أجنبية بدأت أمريكا تفكر فى التخلص من عبدالناصر نفسه بعد أن رأت فيه خطراً يهدد مصالحها الاقتصادية ويعرقل خططها الاستراتيجية فى المنطقة .

ولم تكن بريطانيا وفرنسا بالطبع أقل حنقا من أمريكا على عبدالناصر ، وإذ ثبت للغرب استحالة اغتياله داخل بلاده — كما سبق أن ذكرت — اتجهت النية إلى محاولة اغتياله إذا ما أقدم على الخروج من مصر . وقد بلغتنى بالفعل من أكثر من مصدر أنباء عن محاولات للتخلص من الرئيس أبلغت عنها فى الحال ، وأوصيت بالحذر الشديد فى اختيار الدول التى يقصدها الرئيس فقد كانت المخابرات البريطانية والأمريكية له بالمرصاد ، كما أن أجهزة الأمن الفرنسية كانت تؤمن بأن أفضل وسيلة لإنهاء حرب الجزائر لصالح فرنسا هى التخلص من عبدالناصر باغتياله أو التآمر عليه ورُصدت لذلك مبالغ غير محدودة .



وبعد أن كانت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط تقوم على ما أسمته «احتضان الملوك الصغار» تنبّهت خلال الأزمة الأردنية إلى أن هذه السياسة قصيرة النظر وأن اكتساح الوعي الشعبي لهؤلاء الملوك أمر مفروغ منه. ومن ثم اتفقت الدول الغربية الثلاث على ضرورة أن تؤل الزعامة إلى يد أخرى غير جمال عبد الناصر، غير أن الخلاف بينها ظل قائما حول شخص الزعيم الجديد. كانت أمريكا تدرك مدى شعبية عبد الناصر ومدى رفعة منزلته في العالم العربي، خاصة بعد العدوان الثلاثي وقوة مركزه بين دول الكتلة الآسيوية والأفريقية. ولذلك فقد بدأت تفقد الأمل في الاستفادة منه في تحقيق سياساتها نهائيا، وركنت إلى تقوية مكانة الملك سعود ومحاولة إحلاله زعيما روحيا للعالم الإسلامي والعرب. وفي نفس الوقت رأت الحبيب بورقيبة الرجل الذي ترجوه إذ كان أحد قادة الحركات التحررية التقدمية والنظم الجمهورية التي تتطلع إليها أغلب الشعوب العربية التي ذاقّت مرارة الاستعمار. وبتعصيد هاتين الشخصيتين تحيّل للولايات المتحدة الأمريكية أنها ستضمن السيطرة على منطقة الشرق الأوسط على أساس أن الملك سعود هو رجل اليوم وأن بورقيبة هو رجل الغد.

وعلى حين كانت بريطانيا تعمل جاهدة على تقوية حلف بغداد بضم الولايات المتحدة إليه، وعلى تحقيق مشروع الهلال الخصيب وعزل مصر والسعودية ثم فض النزاع بين العرب وإسرائيل على يد رجلها الأمين نوري السعيد، كانت فرنسا تدرك مدى تدهور نفوذها وسمعتها في منطقة الشرق الأوسط باستثناء لبنان. وكانت سياستها قبل العدوان تقوم على الاتفاق مع سوريا على معارضة مشروع الهلال الخصيب البريطاني والمضي في مساندتها التقليدية للبنان والتفاهم مع مصر على معارضة الهلال الخصيب مؤمنة أنها قد ضمنت في صفها مصر عن طريق المساعدات الفنية والثقافية والاقتصادية. غير أن هذه السياسة مالبثت أن انهارت بعد العدوان الثلاثي فاتجهت فرنسا نحو محاولة استدراج دول غرب أوروبا لإنشاء سوق مشتركة على أن تضع فرنسا ممتلكاتها تحت تصرف الاقتصاد الأوروبي لتضمن بذلك ربط اقتصاد الدول الست المشتركة بالسوق إلى عجلة السياسة الفرنسية الاستعمارية أملا في أن تهب إلى جانبها للذود عن مصالحها، غير أن ألمانيا الغربية أجهضت الاقتراح بمعارضتها الشديدة له إذ وجدته يسوقها إلى موقف

عدائى من الدول الأفريقية والعربية التى هى أحد أسواق ألمانيا . ووقع اختيار فرنسا على الحبيب بورقيبة لتؤهله ليكون زعيما للعالم العربى والإسلامى بدلا من جمال عبد الناصر .

ومن المفارقات الغربية فى تلك الآونة بالذات أن بدأت حدة شعور الرأى العام الفرنسى تخفّ ضد عبد الناصر الذى كانت الصحف الفرنسية تشير إليه بـ « الديكتاتور ناصر » و« الكولونيل الصغير » و« ديكتاتور الورق المقوّى » إلى غير ذلك من الأوصاف التى تفصح عن الكراهية التى يضرّونها له تحت تأثير موجّهى الإعلام والإذاعة والتلفزيون الواقعيين تحت النفوذ الصهيونى ، وشيئا فشيئا بدأ الرأى العام الفرنسى يظهر إعجابه بالزعيم الذى صمد أمام قوى ثلاث ، منها قوتان عظميان ، وينتصر عليها فى كافة المعارك السياسية التى خاضها ضد الدول التى اعتدت عليه . كانت الصحافة الفرنسية من قبل تعزف على وترين : أحدهما أن عبد الناصر ديكتاتور على غرار هتلر وموسوليني ، وهو الوتر الذى كان يختفى وراءه اليهود لما يجلبه عليهم ذلك من عطف الرأى العام العالمى لزعمهم أنهم عُدّوا ونُكِّلَ بهم واستشهدوا على يد هتلر . أما الوتر الثانى فهو أن عبد الناصر شيوعى ، وهو الوتر الذى كانت تمسك به جماعة غلاة المتطرفين بزعامة روبير لا كوست ، وذلك لاجتذاب الولايات المتحدة نحوه بضرِب عبد الناصر « الشيوعى » الذى يتزعم مؤازرة حركة تحرير الجزائر حتى لا تقع الجزائر ومن وزائها الشمال الأفريقى كله فى قبضة الشيوعية . غير أن تطور الأحداث جعل بعض وسائل الإعلام الفرنسية تسبغ على جمال عبد الناصر كنيات غير التى اعتادتها ، فباتت تلقبه للمرة الأولى برئيس الجمهورية المصرية أو الرئيس ناصر بل وبناصر المعتدل ، وبالحاجز المنيع ضد الخطر الشيوعى . ومضت الصحف التى دأبت على توجيه السباب إليه بسبب وبدون سبب تصفه بأنه الرجل الوحيد الذى تقع على كتفيه مسئولية التوازن فى الشرق الأوسط ، وتعلن أن من حسن الحظ وجود الرئيس عبد الناصر فى هذه المنطقة كى يصدّ خطر الشيوعية فهو الوحيد القادر على التصدى لها .

وفى أواخر مايو ١٩٥٧ اتصل بنى الأستاذ ريجيس بلاشير غميد بمعهد الدراسات الإسلامية والشرقية بجامعة السوربون طالبا مقابلتى حيثما أشاء ، فاتفقنا

على اللقاء بمدينة برن وحضر في الموعد بصحبة السيدة قرينته إذ كان بصره قد ضُغِفَ إلى حد كبير. واستهل حديثه بقول : إنى أستحي أن أكون فرنسيا إزاء مافعلته فرنسا بكم ، ولكن أناشدكم ألا تعتقدوا أن فرنسا هى جى موليه و بينو ، فقد آن لهذه الحفنة من « الذئب » أن تتوارى ويحل محلهم من يقدرون مصلحة فرنسا ، وأبلغنى أنه يحمل التى تحيات السفير بيير مايار نائب رئيس قسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الفرنسية ، فأدركت أنه موفد من قبله . وكنت أقدر هذا الدبلوماسى الفرنسى حق قدره منذ كنت ملحقا عسكريا بباريس ، وما أكثر ما لجأت إليه فى أمور تخص مصر فوجدت منه حسن التفهم ما أمكن .

واستطرد الأستاذ بلاشير فى الحديث عن مشكلة الجزائر وأنه بات من الواجب وضع حد لتلك المجازر فى أقرب وقت ، إلى أن انتقل إلى بيت القصيد وهو استئناف العلاقات مع مصر وبخاصة العلاقات الثقافية التى لا يجوز فى رأيه أن تتعرض لتقلبات الظروف السياسية الى أن تسأل عن مصير البعثة العلمانية الفرنسية بمصر . وكانت إجابتى هى الصراحة التامة المشوبة بالود الذى أكنه له ، فأوضحت أن مصر على غير استعداد لاتخاذ أية خطوة تقارب من فرنسا ما لم تخط فرنسا الخطوة الأولى ، فلم تكن مصر هى المعتدية فضلا عن شعور خيبة الأمل والمرارة الذى يحسه الشعب المصرى تجاه فرنسا ، فقاطعتنى على الفور موضعا : « تجاه حكومة فرنسا لا الشعب الفرنسى » ، وصارحنى بأنه يعتقد أن نفى فرنسا يدها عن اسرائيل يمكن أن يمثل الخطوة الودية الأولى التى يجد فيها المسؤولون المصريون مدخلا الى التفاهم حول إعادة العلاقات . ثم عرج على موضوع استئناف البعثة العلمانية الفرنسية بمصر لنشاطها ، فوعده صادقا أن أبذل قصارى جهدى وأنى سأتكفل بموالة هذه المسألة بمجرد عودتى إلى مصر ، على أنى رجوته نظير ذلك أن يقدم إسهما ما يعضد به جهودى ، فوعد بأنه على استعداد لتلبية أية رغبة لى فى هذا السبيل حتى من قبل أن أعرض عليه تفاصيلها . فطلبت إليه أن يعقد مؤتمرا يضم النخبة الممتازة من رجال العلم والفكر فى فرنسا للتبديد بسياسة الحكومات الفرنسية حيال الجزائر والعالم العربى ومصر ، وشجب سياسة فرنسا الممالئة لاسرائيل ، فوعد بأنه سيدعو ما لا يقل عن المائة من أساتذة جامعة باريس لإصدار هذه القرارات ، وبرّ الرجل الفاضل بوعده ، وانعقد هذا المؤتمر فى باريس

في ٢ يونيو ١٩٥٧ ، وصدرت القرارات غير بعيد عما اقترحته عليه . كما ناشدته أيضا النزول إلى الميدان بنفسه لنشر المقالات الموقعة بإمضائه في الصحف الفرنسية الجادة فيما يشبه الحملة الصحفية فوعد بذلك ، بل أضاف أنه سيبحث غيره من الأساتذة على المساهمة معه . وما أسرع ما أخذت تتتابع هذه المقالات في صحف لوموند وفرانس أو بزرقاتير وديمانش ماتان ، كان على رأسها مقال شهير بتوقيعه في صحيفة لوموند يوم ٨ يونيو ١٩٥٧ بعنوان : « رسالتنا في الشرق الأوسط » Notre Vocation Proche Orientale . واتصل بي من جديد خلال شهر ديسمبر تليفونيا لمقابلي حيث حددت له موعدا في الثامن عشر من نفس الشهر بمدينة جنيف ، فجاء بصحبة الأستاذ مارسيل فور مدير البعثة العلمانية الفرنسية ، وأبلغني أنه موفد من قبل السفير داريدان رئيس قسم الشرق الأوسط بالخارجية الفرنسية لإجراء حوار بين البلدين لاسيا وأن الاتجاه إلى التفاهم مع مصر قد أخذ يقوى من جديد في وزارة الخارجية الفرنسية ، وهو ما أقنع كريستيان بينو نفسه بضرورة تغيير السياسة الفرنسية تجاه مصر والعالم العربي . وانتقل بعد ذلك إلى عرض مطالب فرنسا الثقافية في مذكرة تفصيلية مع التأكيد بأن فرنسا على استعداد لقبول مبدأ تعويض مصر عن خسائر العدوان على أن يطلق عليها اسما غير « تعويضات الحرب » ، فليس ثمة حكومة تجرؤ على التقدم إلى البرلمان الذي وافق على حملة السويس بأغلبية الأصوات لتطالب بالموافقة على دفع تعويضات لمصر . ومضى يؤكد لي أن الطبقة المثقفة في فرنسا باتت تضج من الأخطاء التي ارتكبتها حكومة جى لموليه ضد العرب إذ كانت أكبر خسارة لحقت فرنسا في نظرهم هي فقدان جهود أجيال عديدة من أعمدة الفكر الفرنسي : ولذلك فإن استمالة هذه الطبقة بواسطة في رأيه - بإظهار استعدادنا لملاقاة فرنسا في بعض مطالبها الثقافية إنما يقوى شوكتها ويحفزها على المضي في تأييدها لمصر والعرب .

أما ما أدهشني حقا في هذا اللقاء فهو الانطباع لدى الخارجية الفرنسية وقتذاك برغبة مصر المتعجلة في عودة العلاقات ظنا منهم بسوء وضعنا الاقتصادي إلى الحد الذي دفعهم إلى اختيار المسؤولويه سفير فرنسا في مراكش ليكون أول سفير لفرنسا بالقاهرة بمجرد استئناف التمثيل السياسى بين الدولتين . وعندما أدركت أن هذه الصورة هي الانطباع المترسب في أذهان المسؤولين الفرنسيين -

ولست أدري من أين جاءهم هذا الانطباع - وجدت نفسى مضطرا لأن أفسر لهما موقفنا بكل وضوح مبينا لهما أن المباحثات التى كانت تجرى وقتذاك ذات طابع اقتصادى وثقافى بحث وبعيدة كل البعد عن أية أهداف سياسية . ولكى أكون بالغ الوضوح استطدت أقول : « إن الأوان لم يؤن بعد للتحديث فى أمور عودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، فالهوة التى تفصلنا عن فرنسا عميقة وذات شطرين . ولو افترضنا أن المحادثات الجارية ستمخض عن نتائج إيجابية فى كلا الحقلين الاقتصادى والثقافى - وهذا أمر غير مستبعد - وحتى إذا افترضنا أننا توصلنا إلى حل لموضوع التعويضات عن خسائر الحرب وتعويض مساهمى شركة قناة السويس ، فإن هذا لن يؤدي إلى استئناف العلاقات الدبلوماسية لوجود مشاكل أخرى لا تقل أهمية عن هاتين إن لم تزد ، تأتى فى مقدمتها قضية الجزائر . فلا يخفى عليكم أننا مع الجزائريين قلبا وقالباً ونأمل حل هذه القضية على أساس عادل . وثمة مشكلة أخرى شديدة الارتباط بالأولى وهى احتضان فرنسا « للعدو الرئيسى » للعرب وهو إسرائيل ، فالعون الفرنسى العسكرى والثقافى والاقتصادى بل والسياسى فى المحيط الدولى لإسرائيل هو استفزاز صارخ لشعور العرب والمسلمين . ولست فى حاجة إلى تكرار أنكم قد آثرتم هذا الاتجاه نكاية فى مصر نظرا لموقفها الذى لن تحيد عنه فى التأييد المعنوى للوطنيين الجزائريين . ولذلك فإنه من المحال - فى نظرى - استئناف العلاقات الدبلوماسية معكم قبل نقض صداقتكم الحميمة لإسرائيل » .

وفى النهاية وعدا بأنها سينقلان هذه الصورة بأمانة فى الغد عند اجتماعهما المحدد بالسيدين داريدان ومايار من قسم الشرق الأوسط بالخارجية الفرنسية والسيد ريبيرول رئيس العلاقات الثقافية بالخارجية الفرنسية .

\* \* \*

وكان الصحفى الفرنسى روبر بارا من بين الصحفيين الفرنسيين التقدميين يعمل بمجلة فرانس أو بزرقاتير ومجلة التيموانياچ كريتيان ، وكانت صداقته للعرب ولقضاياهم صريحة واضحة تجلّت فى كل مايكتب وخاصة فى قضية الجزائر التى وقف فيها بوضوح موقفا معاديا لموقف حكومته ، فقد كان مؤيدا لاستقلال الشعوب على طول الخط . ومع ثقتى فى أنه لم يكن عدوا للسامية إلا أنه كان على



وجه اليقين عدوا للصهيونية . وقد بدأت صلتى به وقت أن كنت ملحقا عسكريا بسفارة مصر في باريس ، وكانت صلة قوية قائمة على التفاهم التام وتنسيق جهودنا المشتركة في خدمة القضية العربية . ولقد برهن في كافة الظروف على تمسكه بمبادئه ومناصرته للقضايا العادلة مهما لقي في سبيل ذلك من عنت ، وهو ما عمق الثقة بيننا . وكان قد ألف كتابا مثيرا عن الشرق الأوسط أعرب فيه عن رأيه في التوسع الصهيوني معتبرا اسرائيل دولة رجعية ومتها إياها بخرق القانون الدولي ومنتقدا وضع الأقلية العربية في اسرائيل ومناصرا قضية اللاجئين .

وقد حدث أن التقيت وأنا في بيته ذات ليلة في مستهل عام ١٩٥٦ بـ جوزيف جولدن جولان الذي عرفت أنه مواطن اسرائيلي يعمل مستشارا للشئون العربية لـ ناحوم جولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي . وكان من الطبيعي أن يدور الحديث بيننا عن قضية الحرب والسلام في منطقة الشرق الأوسط ، وإذا هو ينكاشفني بإيمانه بإمكان إقرار السلام بين العرب واليهود ، وأن هذا ما ينادى به رئيسه جولدمان ، وذلك باستبعاد الحلول العسكرية في الصراع الدائر بالمنطقة ، وبطبيعة الحال نقلت فحوى هذا اللقاء إلى القاهرة . وفي ربيع عام ١٩٥٧ بعث روبر بارا مع زوجته الصحفية دنيس بارا التي وصلت مصر بناء على دعوة وجهتها لها برسالة يستعيد فيها ذكرى اللقاء الذي جرى بمنزله مع جوزيف جولدن ، وأعرب عن أمله في أن أقبل الالتقاء به من جديد في أي مكان بأوروبا للاستماع إلى وجهة نظره لـ ناحوم جولدمان فيما يتصل بإحلال السلام بين العرب واسرائيل ، موجها نظري إلى أن جولدن يضع بطبيعة الحال مصلحة اسرائيل فوق كل اعتبار ، وأن لقائى به إنما هو بهدف الوقوف على أية أفكار إيجابية قد تفيد القضية ، فإن ما سمعته شخصيا من جولدمان أقنعه بمجدوى إجراء مثل هذا الاتصال بي .

وإذ كنت وما أزال لا يخالجنى أى شك في إخلاص بارا وصدق طويته نقلت الصورة إلى الرئيس عبدالناصر الذي أمهلنى أياما ريثما يصل إلى قرار ، أبلغنى بعدها بموافقته على إجراء هذا اللقاء لاستطلاع ما عندهم وتعرف موقفهم جليا دون أن التزم معه بشيء ، ولا سيما أنى لم أكن عندها أشغل منصب رجل مشول في الحكومة يتكلم باسمها . ولم يغب عن بالى لحظة واحدة أن هذا الاتصال ليست

له طبيعة سياسية، بل كان عملاً يدخل في نطاق الخدمة السرية المشروعة لتبادل وجهات النظر لنستطيع التعرف على ما يدور في المحيط الإسرائيلي مما قد يفيد الدولة فائدة ما، فلقد قرّر في الأذهان حينذاك أن الصلح مع إسرائيل أمر مستحيل.

والتقيت بجولدن في جنيف خلال شهر إبريل ١٩٥٧ فإذا هو يبادرني مؤكداً أن إخلاصه لمبدأ السلام الذي ينادى به رئيسه هو الدافع إلى هذا اللقاء، وأن ناحوم جولدمان غير مستريح إلى تصرفات الحكومة الإسرائيلية بقيادة بن جوريون، وأنه يرى أن الوقت قد حان لتدخله الشخصي، ولهذا فهو يقترح اللقاء بالرئيس عبد الناصر في مصر مذكراً إياي بأن جنسيته أمريكية ورغم عقيدته الدينية اليهودية. وخلاصة ما أفضى به إلى أن خطة التقسيم وفق قرار الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ يمكن الانطلاق منها لوضع خطة عملية قابلة للتنفيذ، وأن جولدمان على أتم الاستعداد لتكريس نفوذه السياسي وإمكاناته المادية وقدراته السيكلوجية على الإقناع رهن الوصول إلى حل إنساني لمشكلة اللاجئين، على أن يتم ذلك تدريجياً حسب خطة تنال موافقة الرئيس ورضاء الرأي العام العربي. واقترح تزويد جولدمان بتصرييح مروريّتيح له مغادرة المطار إلى حيث تتم المقابلة ثم العودة إلى المطار دون أن يثير التفات أحد، فقد كان بودّ جولدمان أن يثبت لبن جوريون أنه باستطاعته تحقيق هدف يعجز هو عن تحقيقه، فهو يتطلع إلى أن يقدم للرئيس عبد الناصر أفكاراً بقاء بشأن الحل الشامل للصراع الدائر في المنطقة، وأن مشكلة الحدود ليست بالصعوبة التي يعتقدونها البعض. كما كان جولدمان يحمل اقتراحات وبدائل تتجاوز مشاكل الحدود والخلافات المعروفة، وتعدّ خطوة واسعة نحو السلام ونحو تهئية حياة أكثر أهالاً. كما أخذ يبسط لي كيف أنهم سيعتدون الموارد المالية اللازمة لحل مشكلة اللاجئين مهما بلغ حجمها لتكون في متناولهم سباعة يصلون معنا إلى اتفاق، وأنهم سيعتدون الرأي العام العالمي لتقبل هذا الحل ومساندته.

وحرص على إبلاغني أن جولدمان سيلتقي مع الرئيس نهرو بلندن في أواخر شهر يونيه للوقوف على رأيه بشأن المذكرة التي تقدّم له بها منذ شهر حول انضمام إسرائيل إلى دول الحياد الإيجابي. ولذلك فهو يقترح أن يكون لقاءه بالرئيس

عبد الناصر يوم ٢ أو ٣ يولييه ١٩٥٧ إن كان ذلك مناسبا ، مع تأكيده على أن موضوع هذا اللقاء سيبقى سرا خفيا حتى على نهرو نفسه . وأخذ يحاول اجتذابي إلى وجهة نظره بطمأننتي بأن جيل الشباب الإسرائيلي تواق إلى السلام وإلى الإحساس بعدم تهديد حياته ومستقبل أبنائه بعد أن ضاق ذُرعا بعقدة الإحساس بالحصار الذي يعيش تحت وطأته ، فهو مايكاد يقطع بسيارته عشرة كيلومترات حتى ترده الحدود شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وأنه قد آن الأوان لتنحية الجيل القديم ، غير أن المأساة هي أن أفراد هذا الجيل القديم ليسوا ملوثين في نظر الجيل الجديد بالفساد الذي كان يغشى زمرة الملك فاروق ، وإن كانوا يحملون وزر الخطأ في وجهة نظرهم وإيمانهم في ذات الوقت بأنها الحق المطلق ، بل لقد زعم بأن الشباب يهتمونهم بالجمود وقصر النظر .

وقد أبلغت الرئيس عبد الناصر بما دار بيننا من حوار بما في ذلك رغبة ناحوم جولدمان في لقائه ، ولكنه طلب التي أن أرجى الأمر إلى حين ولا أبت فيه بكلمة قاطعة . وفي هذه الأثناء لم يتوقف جولدمن عن ملاحقتي برسائله وبرقيات مبلّخة في لقاء جديد يجمعني به ، فأذن لي الرئيس ولقيته مرة ثانية بجنيف في ١٦ سبتمبر ١٩٥٧ حيث أنهى التي خبر لقاء ناحوم جولدمان بعدد من زعماء الثورة الجزائرية للوصول إلى تفاهم يحمي مصالح الرعايا اليهود بالجزائر ، وأن هذا اللقاء قد أحنق روبر لاكوست المقيم العام بالجزائر الذي عاب على جولدمان هذه اللقاءات التي تكشف عن عدم ثقته بمستقبل الحكم الفرنسي بالجزائر ، وأنه ردّ عليه بأن فرنسا لن تستطيع أن تنصب ثلاثة رشاشات لحماية كل يهودي في الجزائر . وفهمت على الفور سرّ تعمّده إبلاغني بذلك ليكشف لي عن أن موقف جولدمان هو موقف مبدئي يطبّقه في كل مكان يلتقي فيه العرب باليهود لضمان إشاعة جو من الوُدّ والتفاهم بين الجانبين بدل العداوة والتقاتل . بل لقد كاشفني أيضا بأنه قد جرى استجوابه هو شخصيا بواسطة بوليس أمن الدولة الفرنسي لعقده لقاءات مع بعض الشباب الجزائري المثقف في باريس ، ثم أسلمني رساله من الصحفي بارا ينعي لي فيها مآل الحريات الشخصية في فرنسا على أيدي السلطات الحاكمة إلى الحد الذي يتنبأ معه بقرب وقوع كارثة في فرنسا . ثم انتقل إلى توضيح السبب الذي من أجله طلب تحديد هذا اللقاء قائلا أنه تقابل في إسرائيل مؤخرا مع موسى ديان

الذى تربطه به صلة مدرسية وأسرية منذ الصبا الباكر، وهو اللقاء الذى اعترف له فيه ديان بأن معركة سيناء كانت مخيبة لآمال الجيش الاسرائيلى رغم كل مازودته به من خبرة، وأن على اسرائيل بعد أن استنفدت قدراتها العسكرية عبثاً أن تبحث عن وسيلة أخرى غير عسكرية لتحقيق أغراضها. فلما سأله عن رأيه فى محاولة الاتفاق مع العراق أعاد عليه تلك القصة الشائعة بأنه منذ أكثر من أربعة آلاف سنة والعراق تنافس مصر بحكم وضعها الجغرافى فى المنطقة بينما كانت دولة الحيثيين فى نزاع مع كليهما حتى رأت أن السبيل إلى سلامتها هو تزويج ابنة ملكهم من رمسيس الثانى فرعون مصر، وهو ما يوحى بأن تعاليم التوراة تقضى بالاتفاق مع مصر لا مع العراق. وقد شاء جولدن أن يعرف منه الأسس التى يمكن أن يقوم عليها التفاهم مع مصر، غير أن ديان كان يرى أن هذه تفاصيل وأن مبدأ التفاهم هو الشيء الجوهرى بالنسبة لإسرائيل إذ ليس لهم مخرج سواه. واستطرد جولدن قائلاً إنه ارتأى أن يتبين موقف ديان من اتهام مصر والدول العربية لإسرائيل بأنها أداة للاستعمار ومغلب لأمرىكا فى قلب هذه المنطقة الحساسة وعن مدى استعدادها لإعلان انتمائها إلى كتلة الحياض الإيجابية التى يتزعمها نهرو وتيتو وعبد الناصر والتى تتبع سياسة لاشرقية ولاغربية وتنبثق من نفس المنبع الذى نهل منه شعوب المنطقة. ومضى الحوار بينهما طويلاً حتى صرح ديان باقتناعه بالفكرة ولكنه تساءل إن كان العرب سيسمحون لإسرائيل فى هذه الحالة بالوجود. فأجابه جولدن بأن ذلك يتوقف على حل مشكلتى اللاجئين والحدود اللتين يرى فيها ديان مجرد تفصيلات، بينما كان ناحوم جولدمان يراهما لب المشكلة. فعرض ديان على جولدن تقريراً سرياً مقدماً من هيئة الكويكرز للإغاثة [والكويكرز نجلة پروتستانتية خاصة عُرفت فى مصر باسم جمعية الأصدقاء] عن موقف اللاجئين الفلسطينيين خلاصته أن خمسين فى المائة من اللاجئين يرفضون العودة إلى اسرائيل بله الوجود حتى فى قطاع غزة، وأن الأغلبية تؤثر استيطان لبنان وسوريا والنزوح إلى مصر بعد تعويضهم تعويضاً مناسباً. فسأله جولدن عما إذا كان فى مقدور اسرائيل تدبير هذه التعويضات فأجابه قائلاً: سل رئيسك [يعنى ناحوم جولدمان رئيس المؤتمر اليهودى العالمى].

وأردف جولدن يكرر لى من جديد أهمية مركز جولدمان بالنسبة للشروع فى

أية تسوية من حيث قوة نفوذه ، مذكراً أن دولاراً من كل ثلاثة دولارات تنفقها إسرائيل مصدرة جولدمان ، والدولار الثاني مصدرة أديناور الواقع تحت التأثير الشديد لجولدمان ، والدولار الثالث من إسرائيل نفسها ، بالإضافة إلى القروض التي تصلها من كافة أنحاء العالم . ثم انتقل جولدن إلى الحديث عن مشكلة الحدود التي رأى ديان إمكان تسويتها بصورة يقبلها الطرفان . وعندها سأله جولدن عما يكون موقفه لرفضت الحكومة والكنيسة تنفيذ فكرة إقرار الحدود الجديدة ، فلم يخف ديان عليه استعداداه لفرض تسويته عن طريق القوة . فصمت جولدن لأنه على حد تعبيره لم يكن خافياً عليه أن هيئة أركان حرب الجيش الإسرائيلي تعتبر سلطة ثلاثة داخل الدولة وفي إمكانها فرض رأيها وقت اللزوم .

ومضى جولدن يروي لى أن مردخاي بنتوف وزير التنمية — وهو من الجناح اليساري وليس على وفاق مع بن جوريون وحزبه ، وكان ضد حملة سيناء معترضاً بأن النتائج السياسية التي ستترتب عليها لن تكون في صالح إسرائيل — قد وافقه بحماس على فكرة التزام إسرائيل سياسة الحياد الإيجابي في سبيل الوصول إلى سلام دائم مع الجيران العرب ، وأن ناحوم جولدمان قد اطمأن باله إلى أنه يتبع النهج السليم بعد أن كان يعتبر الفكرة في أعقاب مؤتمر بر يوني فكرة مثالية أكثر منها واقعية .

ومع أنى قد وجدت فيما عرض على جولدن أفكاراً جذيرة بنقلها إلى القاهرة فقد أحببت أن أستوثق من رأيه في قيمة أى صلح تعقده إسرائيل مع حكومة عربية غير وطنية أو تسير في فلك الاستعمار بالمقارنة بالصلح مع مصر ، إذ كنت أعلم سر لقاءات تدور بين ممثلين إسرائيليين ومبعوثين من بعض الدول العربية في عواصم الغرب ، فقال إن الإسرائيليين يوقنون بأن أى اتفاق مع دولة عربية غير كاملة الاستقلال هو ضياع وقت ، وأن التفاهم مع مصر هو الهدف الأكبر ، علماً بأن المباحثات التي دارت بروما وأنقره وواشنطن مع ممثلي بعض الدول العربية لم تسفر عن أية نتيجة ، بل إن السلطات الإسرائيلية لم تحس بالارتياح أمام تلك المباحثات التي كانوا يعلمون سلفاً مصيرها . واستفسرت منه عن سر الضجة المباشرة حول سوريا ، فأوضح لي برغبة العراق في الحصول على ميناء في البحر المتوسط وأن ٥٠ % من هذه الضجة قد افتعلته العراق ، وأن القومية في سوريا حادة

متأججة ولكن ينقصها السياسيون المحنكون الذين كان بوسعهم تحقيق كل مايريدون دون إثارة هذه الضجة . ثم استوضحته سرّ هذه المفارقة عن حشد الجيش الإسرائيلي على حدود سوريا في نفس الوقت الذي تشدّق فيه إسرائيل بالحديث عن السلام ، وفي ذات الوقت يطلب لقائي . فأخذ يؤكد لي ألا نصيب لهذا الزعم من الصحة ، لأن الجيش الاسرائيلي يتشكّل من أربعة مجموعات يربط أولها بمنطقة بيت لحم وثانيتها بطبريا وثالثتها بالمنطقة الواقعة بين تل أبيب والقدس ورابعها عند بير سبع ، وأن ما يحدث هو تبادل المناطق بين هذه المجموعات كل بضعة شهور فضلاً عن أن قائد كل مجموعة يقوم بإعلان تعبئة للمدنيين بمجرد استلامه قيادة المنطقة كنوع من التدريب . ثم أضاف : لا أكتفك أن الحكومة الاسرائيلية قد استهدفت لضغط من الحكومة الأمر يكيه لإجراء تحركات معينة على الحدود السورية غير أنها لم تستجب لذلك . فإذا علمت في الوقت نفسه أن موسى ديان متغيب في جنوب أفريقيا وأن بن جوريون في أجازته السنوية وأن جولدا ماير في نيويورك وأن أشكول وزير المالية في باريس وأن وزير التجارة في زيورخ لأدركت أن الموقف غير متوتر البتة ، وإلا لصار جمع شمل أعضاء الوزارة على الفور . وقد أثاره حديثي عن الحلف الفرنسي الاسرائيلي فتساءل باندفاع : كيف ترفض اسرائيل طائرات وأسلحة تأتيها بالمجان بينما كانت تدفع من قبل أضعاف أثمانها عن طريق التهريب والتسليم غير المباشر ؟ كيف يتسنى لها أن ترفض فرصة تتيحها فرنسا للحصول على كل ماتبعيه دون ثمن نكاية في مصر نظراً لموقفها من القضية الجزائرية ؟ لو كنتم في موقفها لما ترددتم لحظة في قبولها . أما عن التحالف فأؤكد لك أنه لا تحالف هناك البتة . صدّق أولاً تصدّق فهذه هي الحقيقة . لقد عرضت فرنسا بالفعل عقد هذه المحالفة عن طريق چاك سوستيل حاكم الجزائر السابق الذي قام بزيارة لاسرائيل في شهر أغسطس مع جملة من البرلمانيين الفرنسيين ، والغرض من هذه المحالفة هو المحافظة على هيبة فرنسا في منطقة الشرق الأوسط ، فما زالت انجلترا تتمتع بنفوذها في العراق نتيجة حلف بغداد ، وأمريكا لها ما لها من نفوذ في بعض دول المنطقة ، وليس غير فرنسا وحدها هي غير المشملة في هذه الناحية . لذلك اقترحت هذه المحالفة نظيرمة طريق من ميناء إيلات إلى المرفأ الجديد المزمع إنشاؤه بين تل أبيب وغره على أن يكون

للحكومة الفرنسية حق استغلاله مدة خمسين عاما ينتقل بعدها إلى ملكية الحكومة الإسرائيلية . وقد اعتذر بن جوريون عن قبول هذا الاقتراح وعرض أن تقوم فرنسا بمدة اسرائيل بقرض تنفق منه على المشروع على أن يُعطى الفرنسيون حق استخدام الطريق بالمجان سدادا للقرض مدة عشرين عاما ، ولقد توقفت المحادثات عند هذا الحد ، فضلا عن أن جمهرة كبيرة من المسؤولين الاسرائيليين لا تبغى ربط اقتصاد اسرائيل الناهض باقتصاد فرنسا المنهار [ وقتذاك ] .

وقد انتهيت معه إلى مكاشفته بعدم إمكان أخذ مقترحاته مأخذ الجد لاسيما وقد كانت لنا في باريس مقابلة قبل العدوان الاسرائيلي بشهور لم يكف أثناءها عن الزعم بأن اسرائيل تتوق إلى عودة السلام إلى ربوع المنطقة ثم لم نلبث حتى فوجئنا بالعدوان الثلاثي الذي كانت اسرائيل أحد أطرافه ، فن أبن تنبع الثقة بمجدية مقترحاته عن الحياد الإيجابي . فانبرى يؤكد لى أن ناحوم جولدمان لم يكن يدرى شيئا عن هذا العدوان ، وأنه قد عبر عن سخطه بالامتناع عن زيارة اسرائيل مدة سبعة شهور بعد العدوان وذلك لإيمانه بعدم جدوى الوسائل العسكرية في حل المشكلات القائمة .

كما كاشفته أيضا بأن تنفيذ مثل هذه السياسة التي يقترحها يقتضى إقناع الرأي العام العربي بالوثوق بإمكان التعامل معهم ، وكذا تساءلت عما إذا كان في إمكان مثل هذه السلطة الجديدة أن تدين العدوان على مصر وتدين السياسة التي أملت ، وتتعهد بدفع تعويضات لمصر عن الخسائر التي لحقتها أثناء العدوان وأن تشجب سياسة فرنسا في قضية الجزائر . فأجابني بأن أمله في تغيير حكومة بن جوريون هو السبيل لقيام حكومة جديدة تجدد نفسها في وضع يسمح لها بإدانة العدوان على مصر ، فضلا عن أن عناصر اسرائيلية كثيرة تدين هذا العدوان . أما عن التعويضات فقد قرر أنه بحكم منصبه في المؤتمر وصلته الوثيقة بناحوم جولدمان لا يجد أن هناك مبلغا مهما كانت قيمته يقف عقبة في سبيل إقرار السلام بين اسرائيل والدول العربية ، فأمر التعويضات يهون أمام الهدف الكبير المنشود ، ثم اقترح إدراج هذا الموضوع على رأس قائمة جدول أعمال أية مباحثات بين الجانبين . أما عن موقف اسرائيل من سياسة فرنسا بالجزائر فيتجلى — حسب

قال — فيما أعلنه دافيد كوهين رئيس الوفد الإسرائيلي في المؤتمر البرلماني المنعقد في لندن أخيراً مما ترتب عليه أن تعرضت الخارجية الإسرائيلية لمساءلة من الحكومة الفرنسية عن موقفها من السياسة الفرنسية في الجزائر. وتناول جولدن في معرض حديثه فكرة جعل مدينة القدس مدينة مسيحية مبيّناً أنها فكرة مرفوضة سلفاً لأنها ستتبع القاتنيكان في هذه الحالة ، وقد لا يستبعد وجود قوات أجنبية بدعوة من القاتنيكان قد تؤثر على مجرى الأمور في المنطقة . ثم مضى يشرح تصور جولدمان بأن تعتبر القدس مركزاً للهيئة الإدارية التي ستشرف على كتلة الحياض الإيجابية بمنطقة الشرق الأوسط في حالة التوصل إلى تسوية دائمة بين الطرفين .

وفي نهاية اللقاء ذكرني من جديد باستعداد ناحوم جولدمان لمقابلة الرئيس عبدالناصر في أي مكان يختاره وبأية شروط مع ضمان السرية التامة ، فأوضحت له تعذر ذلك في الظروف الحالية وأنه قد يمكن إرسال مندوب من قبل الرئيس للقاء جولدمان لومخضبت دراسة هذه المقترحات عن نتيجة إيجابية .

\* \* \*

وبعد أربعة أشهر من لقائي بالرئيس في القناطر قصدت دار الأوبرا لمشاهدة عرض أوبريت «يا ليل ياعين» . وهناك التقيت به فطلب إلى أن أزوره في منزله في اليوم التالي ليبادلني الرأي في شؤون العمل . وفي لقائي به مضى يشرح لي أسلوب العمل في مكتبه برئاسة الجمهورية ، مبيّناً أنه قد أسند إدارة الشؤون السياسية في مكتبه إلى السيد علي صبرى ، وأنه بات في ميسس الحاجة إلى إنشاء مكتب مقابل لشئون الرأي العام ، وأنه قد وقع اختياره على لإدارة هذا المكتب الذى سيكون — على حد قوله — موازياً للمكتب الذى يديره علي صبرى . وقد وجدتني أرحب ساعتها عن رضا ، وأعده أن أقدم له خلال أيام قليلة تصورى لتشكيل هذا المكتب ومنهجه في العمل لتوجيه الرأي العام توجيهاً وطنياً يتحرر من السطحية والانتهازية والتشويه ولا يستند إلى أباطيل ، فقد كان حماسى لفكرة هذا المكتب الذى سينقل انطباعات الرأي العام وردود فعله واتجاهاته إلى الرئيس قد استأثر بها اهتمامى . وعكفت على إعداد مشروع تشكيل المكتب واختيار الأفراد المتعاونين معى ، والذين حصرتهم في البداية في ثلاثة أشخاص تمتلىء نفسى ثقة



بجذيتهم وإخلاصهم ، على أن يكونوا قنوات ثلاث تحفر مجراها داخل الرأي العام وتستقي من منبعه الآراء والأفكار، الأفعال وردود الأفعال . ولم تمض أيام قليلة حتى كان تقريري معدًا بتفاصيل وافية حملته إلى سكرتير الرئيس الخاص وتركته لتوصيله إليه . وبقيت أنتظر دعوة الرئيس للمناقشة ، وأعترف أنه حتى هذه اللحظة لم يخطر في ذهني تساؤل عن السرف في تحرك الرئيس نحو تشكيل مكتب للرأي العام بكل إدارته إلتي . صحيح أنه حادثني عن رغبته في أن يعرف أصدق صورة عن مشاعر الجماهير من بسطاء الناس الذين يعمل من أجلهم ، وأنه يتمكن لو استطاع أن يلمس بيديه نبضهم ويعرف آثار ما يتخذ من قرارات على حياتهم وكيفية استقبالهم للأحداث الجارية ، غير أن خيالي لم يكن قد ذهب بعد إلى تصور أن الرئيس يدرك أن ثمة أسوارا بدأت تُضرب حوله ، وأنه بات في حاجة إلى شخص أو أشخاص يشق فيهم لينقلوا إليه بأمانة مشاعر أفراد الشعب في مختلف المواقع والأغواء وبكافة فئاته وطبقاته . ولعل عبد الناصر قد أدرك حقا كل هذا الذي أدركته ، أولعله شاء أن تتعدد التقارير أمام عينيه فيفيد من مغايرتها لبعضها البعض ويصل إلى ما هو أصدق . ومهما يكن قد جال بفكره فقد طال انتظاري لمعرفة ما استقر عليه رأيه . غير أن الفسحة حين تراخت إلى شهور رأيت أن أشغل نفسي بمحاولة تعلّم العزف على البيانو، فقد كانت أمنية قديمة ، وكثيرا ما خلت نفسي في شطحات أحلام يقظتي أيام الصبا أن أغدو عازف بيانو يُشار إليه بالبنان ، ولكن مجريات الأمور سلكت بي مسلكا آخر انتهى بي إلى احتضان مدفع يطلّ من برج دبابه في سلاح الفرسان .

وإذ وجدتني في هذا الوقت قد تخففت من أعباء العمل الرسمي فقد رأيتها فرصة مواتية لبدء ترجمة أعمال جبران خليل جبران . غير أنني لم أكد أصل بكتاب « النبي » إلى منتهاه حتى لاحقني العمل الرسمي بما أخذني بعيدا عن أعمال جبران الباقية ، بل لقد مضى ما يقرب من عامين حتى سنحت لي فرصة كتابة مقدمة وافية لكتاب « النبي » قبل دفعه إلى المطبعة . وقد كان إقبال القراء على هذا الكتاب الذي أعيد طبعه سبع مرات حتى كتابة هذه السطور حافزا لي على ألا أقلت فرصة يتاح لي فيها فراغ دون ترجمة عمل آخر لجبران . والواقع أن إعجابي بجبران قد بدأ منذ الصبا ، بل إنني لم أكد أقرأ

أول كتاب له حتى وجدتني أسيرا له مرتبطا بفكره وشاعريته ورومانسيته ، فلا يُوجّه إلى سؤال عن سر تعلّقى بجبران إلا وقفزت إلى ذهني مقولة الشاعر الفرنسي بودلير حين سُئل عن سر اختياره إدجار آلان پو لترجمة مؤلفاته فقال : « لأننا متشابهان متقاربان . لقد فتنني منذ صفحاته الأولى التي قرأتها له فلم أعثر بينها على الموضوعات التي كانت تراودني فحسب ، بل لقد عثرت بالمثل على العبارات التي كانت تجول بخاطري وكان أسبق مني إلى تسجيلها » .

ولقد عرفت جبران كائنا عربيا قبل أن أعرفه كائنا باللغة الإنجليزية ، وله في كليهما أسلوبه المميّز الخاص به الذي تأثّر فيه بقراءاته في الكتب الدينية الهندية والمسيحية وبخاصة التوراة والإنجيل ، وفي كتب المتصوفة المسلمين وبخاصة تائية ابن الفارض الكبرى التي مجّدها ومؤلفات الغزالي وابن عربي والحسين بن منصور الحلاج . فقد وجد في هذه الكتب جميعا أسلوب النبي الذي يعظ بالموجز من روائع الكلم ، ويجنح إلى الحكمة المنطوية على مغزى نبيل أوسر جميل في أسلوب أقرب إلى الشعر المنثور ، حتى أضحت النزعة الصوفية دين جبران وعقيدته وأصبح هو نبيّها الداعي إليها ، وإذا كانت نزعته عنقا بين المسلم والمسيحي ، فهي كذلك عناق بين الدين والحياة .

وأعترف أن مؤلفات جبران التي عاشرت رومانسيته المحلّة ماينيف عن أربعين عاما امتزجت فيها بحسّي وجداني قد أخذت تلحّ عليّ أن أنقل إلى العربية ما كتبه جبران بالإنجليزية حتى أحسست أن واجب الوفاء نحو هذا الشاعر العظيم يقتضي أن أقدم على هذا العمل الجليل الذي أعلم مدى صعوبته . فأدب جبران مظهر من مظاهر صراعه مع الألفاظ التي استعملها أدوات للتعبير عما يريد ، معنيّا بأن يكون الأساس في التعبير سيطرة المعنى على الصور اللفظية . ومن ثم لم تكن ترجمة جبران أمرا سهلا ولا هيّنا ، فترجمته الحرفية تُسقط معانيه في جُرب مغلق ، وأكاد أجزم بأنه لم ينكفء على ترجمة جبران إلا من كان به مفتونا افتنانا شديدا جعله يُهرع إلى ترجمته بمحض إرادته دون أن يعهد إليه أحد بإنجازها . ولعل هذا شرط لازم لترجم جبران حتى يتجاوب معه بحسّه وجدانه وخياله . ذلك أن النقل من لغة إلى لغة يشبه من بعض جوانبه نقل سائل له قيمته من وعاء إلى آخر ، وهو ما يتطلب قدرا كبيرا من الحكمة والتدقيق حتى لا تضيع في عملية النقل

أدنى قطرة قد تُفقد الأصل بعض روعته . والألفاظ منها ما هو محدد المعنى كالمعارف وأسماء الأعلام التي لا تخرج عما وُضعت له ، وهى عُدة رجال العلوم الذين يعنون عند اختيار اللفظ بأن يقفوا عند المعنى المراد وحده دون شبهة فى الإيحاء بقصد مُعَمَّى آخر . ومن الألفاظ ما ينطوى على معانٍ متشابكة ، وتلك هى طلبة الشعراء ، فهم لا يقصدون عادة إلى معنى مباشر ، بل كثيراً ما يهيمنون بالألفاظ تاركين لقراءتهم أن يستشفوا ما يرمون إليه من استبطان ما يكتبون . وهكذا يجد المترجم نفسه قبل أن يعثر على اللفظ المعبر أمام مدلولات ينفى أن يطيل الإنصات إلى صدى الشعر فى أعماقه قبل أن يستقر على واحد من مدلولات شتى تتصارع فى وجدانه . ولعل أفضل من يقوم بترجمة الشعر هو من يملك الإحساس بمدلولات الألفاظ فى اللغتين التى ينقل من إحداها إلى الأخرى . فإن افتقاد هذا الحس كفىيل بأن تكون الترجمة باهتة لا تخلف أثراً فى وجدان من يطالعها . وإذا حرص المترجم على إيضاح المعنى بإفاضة كاملة فى البيان يتعدى الإيجاز اللفظى فى الأصل ، غامر بالباس الترجمة ثوباً فضفاضاً تخبّ فيه بدلاً من التأنق به .

وكان أن انتهيت بعد هذه الالتفاتات المتهببة إلى أن أقصد طريقاً وسطاً ، فلا تشغلنى العناية بإيضاح المعنى عن العناية باللفظ ، حريصاً كل الحرص على أن تنعكس فيما أصوغ روح جبران النابضة فى شعره دون إحلال بمعنى أوتزيد فى لفظ . وذلك ما أخذت به نفسى فى الترجمة بالحفاظ بقدر الإمكان على روح الشاعر المؤلف وطابعه . وقد يبدو لمن لم يعتد أسلوب جبران الرومانسى أن الترجمة قد خرجت فى غير مكان عن دلالة الأصيلة ، وليس ذلك إلا نتيجة تصريف اعتقد أن للمترجم أن يتيخه لنفسه ، بالخروج عن الإيحاء المباشر للفظ بنقطة الحفاظ على دقائق المعنى ، فما أكثر ما تنسى الترجمة الحرفية إلى مبنى الشعر ومعناه . ونبى جبران — كما لا يغيب على القارئ — ليس أحداً سواه . وقد يكون فى هذا اعتداد بالنفس يبلغ مرتبة الغرور ، غير أننا نعرف أنه ما من فنان إلا يتولاه نوع من الغرور لفترة من الوقت قد تقصر أو تطول . وليس الأمر بالنسبة لجبران إلا انعكاساً طبيعياً لحياته ، فكثيراً ما رأى نفسه أقوى من حوله من الذين لا يدركون تميزه ولا يقدرونه حق قدره ، فأعطى نفسه ماضى الناس عليه به . بل لعله بالغ فى العطاء تحدياً لهم أولفتاً على الأقل لأنظارهم . وإذا كان الكثير منا يحبّ الفنان الأصيل أحياناً

لأنه يتعذّب مثلنا ويقاسى لوعة الحنين كما نقاسيها ، ويلتاع في الغربة كما نلتاع ، وينزف دمه لضراوة الأيام كما ينزف دمنا ، وإذا كانت بعض أعمال الفن الجريحة تعشّش في أعماقنا لأنها تمنحنا راحة تغنينا عن البكاء بصوت عال ، فإن كتابات جبران تعطينا لأول وهلة هذا النوع من المواساة قبل أن تأخذنا في رحلة من التأمل العميق لأسرار الوجود .

\* \* \*

وذات صباح في شهر أكتوبر ١٩٥٧ أبلغني السيد سامي شرف سكرتير الرئيس للمعلومات بصدد قرار الرئيس بتعييني مستشارا برئاسة الجمهورية . وفي المساء أُلِّمْتُ بزواجتي حالة استدعت نقلها إلى المستشفى لإجراء جراحة عاجلة بناء على استشارة طبيب صديق . وبعد أن انتهت الجراحة واطمأن صديقي على حالها أسرّ لي أنه علم من أحد كبار المسؤولين برئاسة الجمهورية [ ذكر لي اسمه ومما أدهشني أن صلتى به كانت طيبة ] أنه والمجموعة التابعة له لا يرحّبون بوجودي بينهم ، بمقولة أن طبيعتي تختلف عن طبيعتهم ، وأن علاقتي الوثيقة بعبد الناصر تسمح لي بنقل وجهة نظري إليه مباشرة دون حجاب وهو ما يفضيهم . مجمل القول أنه لن يكون هناك انسجام بيني وبينهم على أية صورة . وأضاف الصديق أنه يتوقع لى أن أجد من المعوقات والمضايقات ما قد يوقننى في الحرج وقد يؤثر على علاقتي بعبد الناصر نفسه ، ويبيّن لي أن هذا الحديث قد بلغه في الصباح ، واحترار كيف ينقله اللى ومتى ، غير أن القدر قدرّتب هذا اللقاء دون سعى من أحد .

والحق إنى حزننت وملاً الأسى قلبى ، إذ ما كنّا ونحن نعدّ للثورة نتخيّل أن تكون ثمة مطامع في غرض من أغراض الدنيا ولاجاه لسلطان . وكان عجيبى أن هؤلاء الذين رأيناهم أخيراً حول جمال عبد الناصر لم يكن أحد منهم من رجال الثورة الذين قاموا بها معه ، ولكنها سُنّة الحياة يغرّسها الغارس ويجنيها غيره بعد أن يمهد لهذا الجنى بكثير من الدسّ والكيد . أدركت فعوى النصيحة ولم يغب عن علمى ما تذخر به حاشية الحكام من مكائد ودسائس ، فأليت على نفسى ألا أتورط في تولّى منصب من مناصبها . وفي اليوم التالى وكان يوم الجمعة قصدت القناطر الخيرية للقاء عبد الناصر فبادرنى بتهنئتي بالمنصب الجديد ، منصب المستشار

برئاسة الجمهورية ، فإذا أنا أردت عليه بعبارة موجزة مما أدهشه ، فأخذ يسألني عن جليّة الأمر ، فقلت : « أحسن كما لو كنت قد قصدت القطار المتجه إلى الإسكندرية فإذا بي أكتشف أنه متجه إلى الإسماعيلية » .

فأجابني : وما يمنعك من أن تتركه في أقرب محطة لتلحق بقطارك ؟ فقلت له : إذا كانت تلك نصيحتك فذلك ما أحاول أن أفعله .

فابتسم وقال : كن صريحا معي وقل ما في نفسك .

فقصصت عليه ما سمعته . وقد حاول أن يعرف اسم الصديق الذي نقل إليّ هذا ليطمئن إلى سلامة المصدر وبالتالي إلى صحة الخبر ، فاعتذرت عن أن أبوح باسمه ، وقلت إنه وعدّ قطعه على نفسه وأقسمت عليه ، فقال ما زحاً : « قلّ وضُئْ ثلاثة أيام » . ثم أخذ يهوّن على نفسه الأمر قائلاً : ومن ممّا من نفس طبيعة الآخرين ؟ إن لكل فرد تكوينه الذاتي ، وهذه رفقة عمل ، ولعل من واجب كل منا أن يبذل جهداً ليتآلف مع الآخرين حتى تواصل السفين مسيرتها .

فقلت : أنت تعرف أكثر من غيرك طبيعتي ، وتعرف رغبتى في أن أكون إلى جانبك ، والمشكلة تنحصر في أنه قد ثبت لى أن المسألة لا تعدو صراعات على السلطة ، وهو ما لا أحب أن يقع بين العاملين في مكتبك ، فلم لا أوفر عليهم وعلى نفسي هذا الجهد الضائع ونذخر طاقاتنا لصراع أجدى أن نخوضه معا ؟

قال : لا أكتملك أنى فكرت طويلاً في أن أسند إليك رئاسة المخابرات العامة ، ولكنى رأيت بعد إنعام الفكر أن هذا العمل لا يوائم طبيعتك . ثم سألتني وقد اكتسى وجهه بمسحة من التجهم : أى مكان إذن تريد أن تعمل فيه ؟ اختر ماشئت ، وسأفعل كل ما فى استطاعتى لتحقيقه .

فقلت مداعباً : إن ما أريده يخرج كما أعلم عن حدود قدراتك .

والفتت الّتي وفى وجهه دهشة لم تلبث أن خلفت مكانها لابتسامة عريضة وهو يقول : إنها هواياتك الفنية ... ثانية !

وأجبتة : أجل . ما أزال أتمنى أن أكون عازف بيانو مرموقا . ولو خُيِّرَت أن أختط حياتى من جديد لما فعلت غير ذلك ، ولما دخلت الكلية الحربية ... ومضيت أسترسل فى الحديث ، فقاطعنى قائلا : ولكنك دخلت الكلية الحربية وكنت ضابطا كفوًا وشاركت فى حرب قومية واشتركت فى صنع ثورة من حقك أن تكون فى صفوف قادتها ، ومن حقها عليك أن تساهم فى دعمها .

ثم اقترح على أن أستأنس برأى المشير عامر ريثما يفكر هو فى الأمر من جديد .

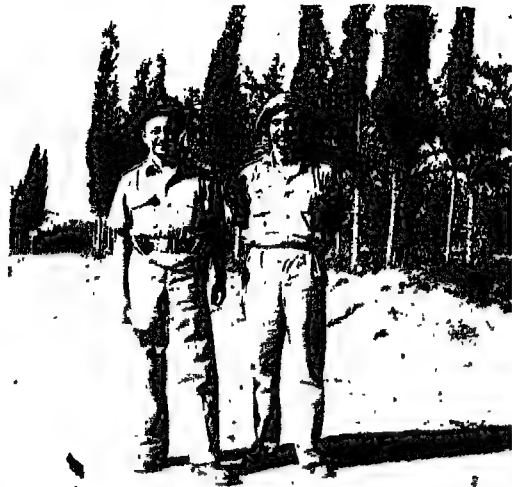
توجهت لتوى إلى عبد الحكيم عامر فوجدته لفرط دهشتى يؤيد رأى تماما ، وأضاف قائلا : صديقك هذا رجل مخلص وأمين ، فإن تلك المجموعة لن ترحب بك ، ولن تدعك تعمل فى هدوء أو وئام ، وسوف تحاول الإساءة إليك وإقصاءك منها كلفها الأمر . فلتترك هذا الموضوع لى .

أحسستُ كأن عبئا ثقيلا قد انزاح عن صدرى ، فعدت إلى المستشفى حيث كانت ترقد زوجتى ، وكان تحسّن صحتها عاملا جديدا فى تهدئة خاطرى . وبدأت أنسى هذه الواقعة الأليمة شيئا فشيئا ، ولم يمر أسبوع حتى فوجئت بصدور قرار لرئيس الجمهورية بتعيينى سفيراً لمصر فى روما ، ومُنحت مع هذا التعيين وساما ، فقد جرت العادة بأن يُمنح بعض السفراء مع تعيينهم أوسمة . غير أن الرئيس حين عُرض عليه هذا القرار لإمضائه أبى إلا أن يكون منحى هذا الوسام لخدماتى السابقة لا بمناسبة تعيينى سفيراً فشجب العبارة التقليدية « بمناسبة تعيينه سفيراً لمصر فى إيطاليا » وكتب بخط يده « بمناسبة الخدمات التى أداها قبل نقله إلى وزارة الخارجية » .

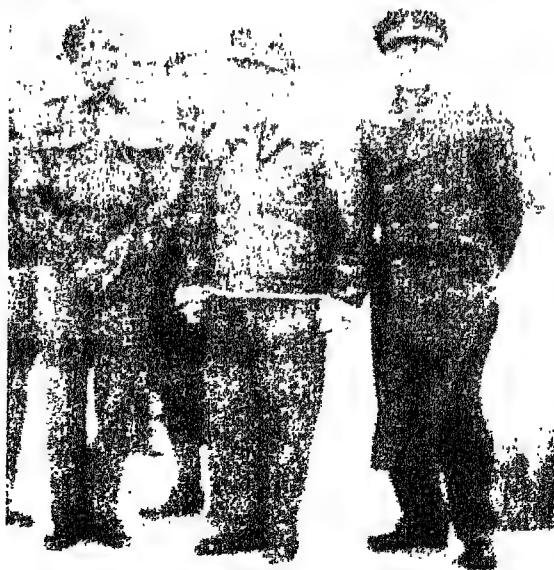


مع وجيه خليل وجمال عبدالناصر وعبدالحكيم  
عامر . أسدود بفلسطين أثناء الهدنة الأولى ١٩٤٨ .

مع اللواء أحمد فؤاد صادق قائد القوات المصرية  
بفلسطين واللواء محمد ابو رابية قائد المعاونة  
الجوية والبكباشى سيد جاد بمقر القيادة العامة  
برفح ١٩٤٨ .



مع الشهيد البطل محمد وجيه خليل ، رجل يولع بالشموخ  
أنى وُجد وينعم بالبطولات حيث تكون . المجدل بفلسطين  
١٩٤٨



يعمل في الدار ١١ الوحيات  
جميع استناد الكون (موسم)

١٢٠٠

①

المرحلة الأولى

النتائج

توجد عبارات في كتاب + فذلك من الدرس وليس أنشد  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه

في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه

في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه

في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه

في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه  
في كتابه من عبارات من كتابه من كتابه من كتابه

الخطوة العامة للثورة بخط عبد الحكيم عامر وإضافات زكريا محيي الدين وتحقيقات جمال عبدالناصر



(ن)

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند  
۳. نشره به نقش الجانیه بشاره ضابط

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند  
۳. نشره به نقش الجانیه بشاره ضابط

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند

۱۰۰۰ الفهرست المصنف - المجلد الثاني : داره الهند

عليه جانه له بقية بحمد الله والحمد لله  
رب العالمين آمين  
التمه إلى الزمان

[illegible][illegible]

الحمد لله الذي هدانا لهذا  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
المراد من قوله تعالى  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
المراد من قوله تعالى  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله  
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

171

ملاحظات	تاريخ	ملاحظات
ملاحظات	1/1	ملاحظات
ملاحظات	2/2	ملاحظات
ملاحظات	3/3	ملاحظات
ملاحظات	4/4	ملاحظات
ملاحظات	5/5	ملاحظات
ملاحظات	6/6	ملاحظات
ملاحظات	7/7	ملاحظات
ملاحظات	8/8	ملاحظات
ملاحظات	9/9	ملاحظات
ملاحظات	10/10	ملاحظات

[illegible]

٢٠  
⊕

إشنة - إدراية

مستلزمات الخدمات

العرف - نزلاء المسج

ان كد - مدقنة المدفئة والدودة

هذه هي  
مجموعة  
الخدمات  
التي  
تقدم

فصل ملحق \*

سيأخذ الزائريين

إلى نفس المكان

كل شيء من أجلهم

تعليمات عمليات حرب - رقم ٣  
(دار الإذاعة)

القائد : مدني  
القوات : ترويت سيارت مدني ، عربة مدعة مفرط  
جميع الأفراد مسلحين  
بالأسلحة  
الواجب : يقدم قائد القوة نفسه لقائد العملية  
سعت ٤٠

دار الإذاعة بناسخ شريف جوار ببل  
الاصلي  
ملحوظة : تستند مع هذه القوة  
أخرى من المشاة هي المستولة  
مع إحتلال المداخل والأعمال  
المتحركة  
يا جميع السيارت المدعة : منع أي  
مدخل من حواشي البوليس أو غيرهم  
من الأضراس

استند إدارية : يعرف لكل فرد تعليمات طوارئ  
لغة موحدة  
المواصلات البرازيلية : تفتح المواصلات إبتداء  
من سعت ٤٠  
إلى يبلغ تطور الموقف كل  
بمئة عشر دقيقة حتى لا قدر  
أولاً أخر

أ ب ج  
١٢٣

صفحة من  
التعليمات الحربية  
الخطة الفرسان بخط  
كاتب هذه السطور



لقاء مع اللواء محمد نجيب .



مع حسين الشافعي و خالد محيي الدين .



اللواء محمد نجيب يملأ استمارة  
استفتاء مجلة التحرير عن الدستور





مع الفتيين في إحدى مراحل تجربة مدفع  
صاروخي عديم الارتداد

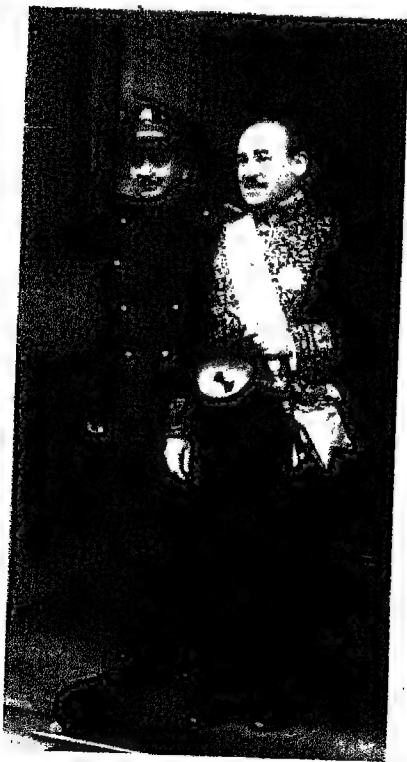




مع اللواء على أبو نوار في  
اعقاب طرد الجنرال جلوب

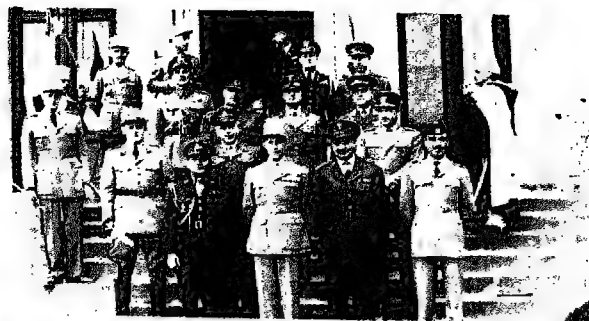
كاتب هذه السطور يضع باقة زهور  
على قبر الجندي المجهول تحت  
قوس النصر بميدان الإتوال  
بباريس .

مع السفير المصري حسن زكي  
بوزارة الخارجية السويسرية ببرن





الحبيب بورقيبه يهنئ الملحق العسكرى المصرى  
بباريس بعيد الثورة فى ٢٦ يوليه ١٩٥٤



مع مجموعة من الملحقين العسكريين  
فى زيارة لمدرسة الفرسان بسومور



مع الملحق العسكرى الامريكى والبريطانى  
فى زيارة مدرسة المدرعات الفرنسية





مع الأستاذ ريجيس بلاشير



مع مدير المخابرات الحربية الفرنسي



مع الملحق العسكري السوفييتي

رينيه ويج الأستاذ بالكوليج ده فرانس



أندريه مالرو وزير الشؤون الثقافية الفرنسي



رينيه ماهيه مدير عام منظمة اليونسكو

الاديب لوى أراجون



المستشرق لوى ماسينيون





دراسة مصورة لإحدى لوحات بalthه  
دافنس وكلويه . مهدة من الفنان مارك  
شاجال لكاتب هذه السطور



المؤلف الموسيقى اوليفيه ميسيان



الفنان مارك شاجال

اندرية مالرو والفنان مارك  
شاجال تحت سقف الاوبرا  
الجديد .





في الطريق الى تقديم اوراق اعتمادى سفيرا

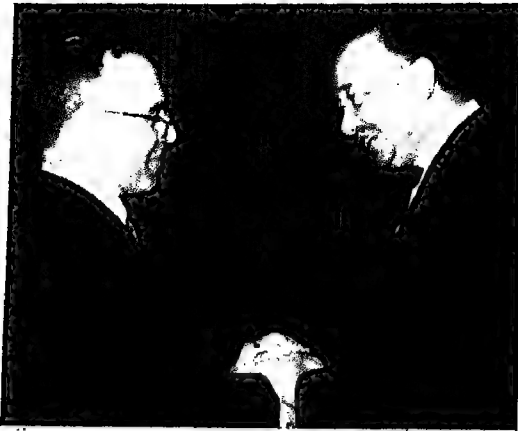


مع الرئيس جرونكى رئيس الجمهورية  
الإيطالية بعد تقديم اوراق اعتمادى سفيرا

مع أعضاء السفارة المصرية بروما







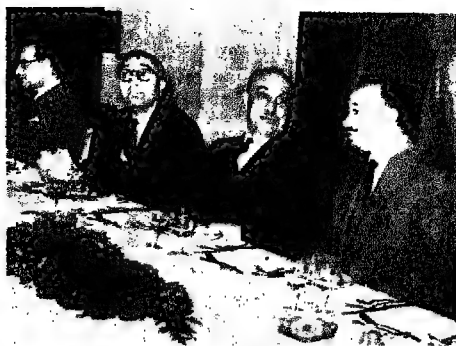
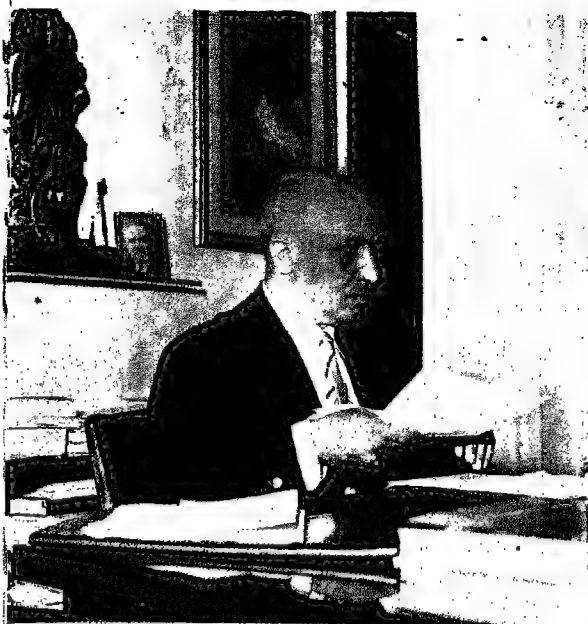
مع السنيور لاپيرا عمدة فلورنسا



مع الرفيق كوزيريف سفير الاتحاد السوفييتي بروما

في استقبال الرئيس جرونكي بالجناح المصري في معرض البينالي بمدينة البندقية





في حفل تكريم بالقاهرة للرئيس فانفاني

امنتورني فانفاني رئيس وزراء إيطاليا  
وزير الخارجية

*Gr. i. mython asipuri, coadit  
vireghe!  
Banan, 11. XI. 14. Kpudni*

في رفقة الرئيس فانفاني اثناء زيارته للقاهرة







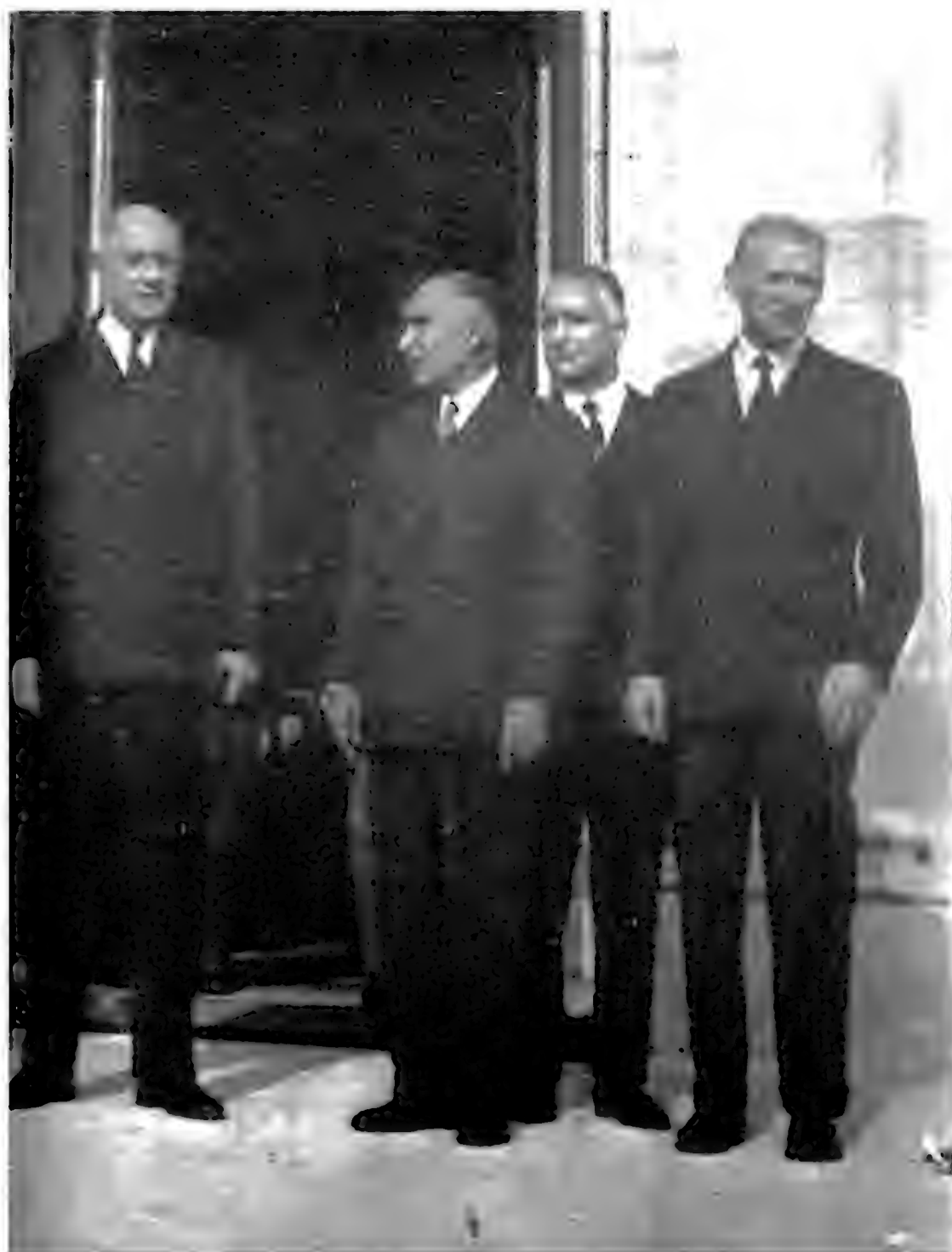
المسيو كوف ده مورقيل وزير الخارجية الفرنسي



المسيو لوى جوكس وزير شئون الإصلاح الإداري الفرنسي

كاتب هذه السطور يلقي خطابا بمقر جمعية الصداقة  
الفرنسية المصرية بباريس .. بصحبة المشير عامر ( أكتوبر  
١٩٦٥ )







مع الرئيس شارل ديغول والمشير عامر  
والمسيو بومبيدو رئيس الوزراء الفرنسي  
والدكتور محمود فوزي والمسيو ميسر وزير  
الدفاع والمسيو كوفته مورقيل والمسيو رو  
سفير فرنسا بالقاهرة بقصر الإليزيه



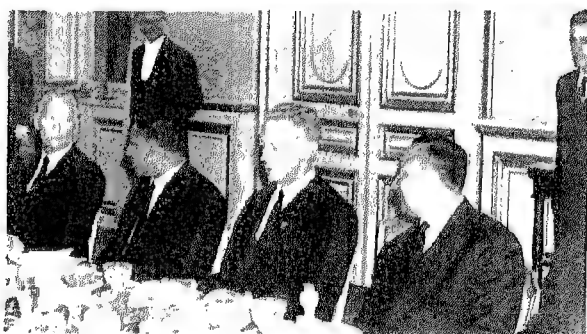
مع المشير عامر عقب حفل الباليه بدار أوبرا باريس ، وفي توديعه مدير الأوبرا إيمانويل بونفيل .

مع المشير عامر في لقائه مع الطلبة والمبعوثين المصريين في فرنسا



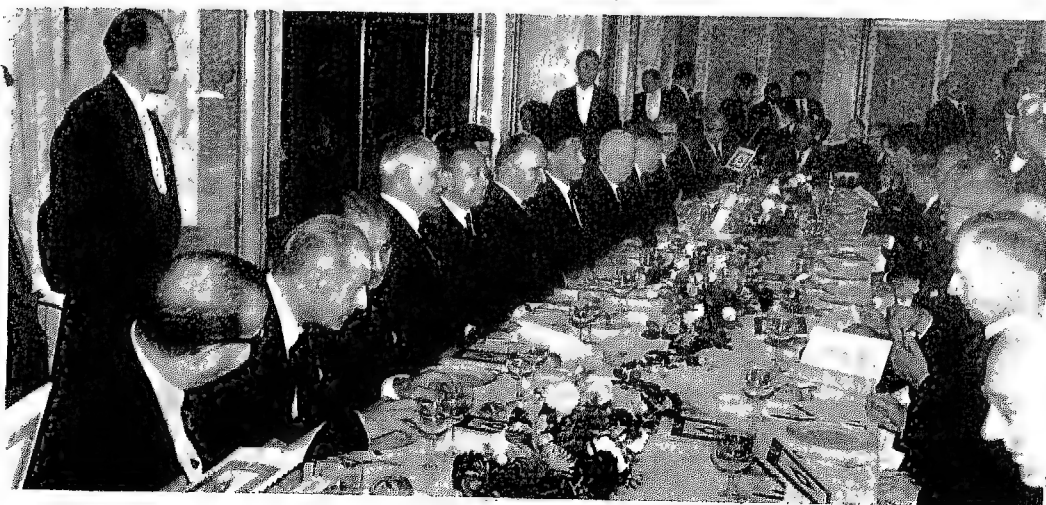


السفير بيير مايلار سكرتير  
عام جهاز الدفاع القومى  
الفرنسى



مع المشير عامر والمسيو ميسمر وزير الدفاع  
الفرنسى على مأدبة الغداء التى اقامها المسيو  
كوف ده مورفيل وزير الخارجية الفرنسى تكريما  
للمشير بالكاى دورساي مقر وزارة الخارجية  
الفرنسية .

فى حفل العشاء الذى اقامه المشير عامر بفندق كريون قبل مغادرته باريس . ويبدو فى الصورة مع المشير الرئيس  
جورج پومپيدو والوزير لوى چوكس وكاتب هذه السطور والوزير جاستون بالقسكى والسفير احمد حسن الفقى  
و ( الوزير ) چيسكار ديستان وغيرهم .





الأستاذ الأديب  
الفنان يحيى حقى



الدكتور حسين فوزى صاحب  
عطاء ثقافى رفيع



الدكتور لويس عوض  
الأستاذ والصديق



الأستاذ الكبير فتحى رضوان



- (١) هي كرنفال الحيوانات لكاتبى سان مائىس قيادة ليوبولد ستوكوشكى وأشعار أوجييد تاش وتلاوة لويل كزارد .
- (٢) Pieta مشهد الأسى الذى يتضمن العذراء مريم مع جثمان المسيح بعد إنزاله من على الصليب .
- (٣) انظر « الحج إلى بايروت » من كتابى « ريتشارد فاجنر . دراسة نقدية » صفحة ٦٨٩ إلى ٧٣٤ . دار الوطن العربى بيروت ١٩٧٥ .

(٤) Edouard Robert: Dictionnaire des Injures de la langue française. Les 3900 Gros Mots, Tchou, éditeur. Paris 1979.

Pierre Daninos: Les Carnets du Major Thompson. Decouverte de la France et des Français.

- (٥) بيير دانيوس : مذكرات الرائد طومسون . استطلاع فرنسا والفرنسيين ترجمة د . ثروت عكاشة . الطبعة الأولى : الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤ . الطبعة الثانية ١٩٨٩ : دار الهلال بعنوان « فرنسا والفرنسيون على لسان الرائد طومسون » .

(٦) تعاقبت اسرائيل مع فرنسا في نوفمبر ١٩٥٤ على شراء ١٥ « طائرة مستير ٢ » وبدأ تسليم الدفعة الأولى منها المكونة من أربع طائرات في منتصف عام ١٩٥٥ . كما تسلمت اسرائيل في نفس العام ٢٦ « مدفع عيار ١٥٥ مم » وتم التساقد على ثمانية مدافع أخرى من نفس الطراز، ومائة وخمسة وسبعين « مدفع عيار ٧٥ مم » ، فضلا عن عشرين مدفع من نفس الطراز للاستخدام ضد الدبابات وإثنى عشر ألف طلقة عيار ٧٥ مم . وابتداء من فبراير ١٩٥٦ مضت فرنسا تمة اسرائيل بدفعة إردفعة من طائرات « مستير ٤ » بلغت ستين طائرة على الرغم من أن العقد الموقع في سبتمبر ١٩٥٥ كان ينص على خمسة عشرة طائرة فقط .

وفي الرابع من أكتوبر من نفس العام تسلمت اسرائيل عشر طائرات من طراز « أورايجان » على دفعتين كل منها ست طائرات فضلا عن اثنتى عشر طائرة أخرى في نوفمبر، وثلاثين « دبابة AMX » في نهاية العام . وكذا تم التعاقد في عام ١٩٥٦ على تسعين دبابة أخرى من نفس الطراز تسلمت اسرائيل بعضها في غضون شهرى يناير وفبراير ١٩٥٦ .

(٧) تحتفظ ادارة المخابرات الحربية بملف كامل لتقاريرى وبرقياتى عن هذا الموضوع وغيره . انظر بصفة خاصة تقرير معلومات ٢٣٦٨/أ/١ تزيع التشكيلات المحاربة الفرنسية بتاريخ ١٩٥٦/٩/٢٨ ، ومعلومات ٢٣٦٥/أ/١ بتاريخ ١٩٥٦/٩/٢٧ ومعلومات ٢٣٦٦/أ/١ بتاريخ ١٩٥٦/٩/٢٨ فضلا عن البرقيات الشفوية .

(٨) باريس في ٢٧ أكتوبر ١٩٥٦ .

أخي السيد الرئيس

تحية وسلاما وبعد فأرجو أن تكون في أحسن صحة رغم الأعباء الجسيمة الملقاة على عاتقك ، تلك الأعباء التي لم يقدّر لغيرك تحملها من قبل ، كتب الله لك التوفيق في كل خطوة تخطوها ، والفوز في كل ما تضطلع به . قد بلغتني معلومات أراها على جانب كبير من الأهمية منذ يومين وأثرت التريث قبل إرسالها حتى أحاول التحقق من صحتها . فقد علمت من مصدر هام عودني أن يزودني بأخبار تثبت صحتها ، ولو أن المستيريا المسيطرة على فرنسا حاليا قد طوّرت الرأي العام لدرجة أصبح معها يصفق اليوم لما كان يبصق عليه بالأمس . أقول ولأنه قد يكون من الجائز أن نفس هذه المستيريا قد أصابت مصدري إلا أنه نظرا لخطورة الموضوع آثرت أن أبلغك به بأسرع وقت حتى تأخذ أهبتك في وقت مبكر إزاء دسائس الاستعمار إذا صدقت ، وحتى تثبط هذه النوايا بحسن سياستك وتصريفك للأمور . وبينما أنا أسوق إليك هذا الخبر أتمنى في قرارة نفسي صادقا أن يكون الخبر مدسوسا لانصيب له من الصحة . وفي مثل هذا الوسط الأوربي الذي أعيش فيه حيث تسبق الأحداث تفكير الإنسان أصبح من المحال أن أتردد لحظة في أن أرسل من المعلومات ما يشتري منطقيا مع مجريات الأمور ، فنحن لن نخسر شيئا إذا ما علمنا نيا كاذبا واحتظنا له ولكننا سنكسب الكثير فيما لو ثبتت صحته . قال مصدري إن ثمة اتفاقا حديثا بين إنجلترا وفرنسا تنازلت فيه الأخيرة عن كافة نفوذها في منطقة الشرق الأوسط لإنجلترا على أن تعضد الأخيرة فرنسا في استعادة نفوذها القديم بالشمال الأفريقي . أما مادعا هاتين الدولتين الاستعماريتين إلى هذا الاتفاق فهو ضمان انشغال أمريكا في انتخاباتها وانشغال روسيا في متاعبها مع الدول الدائرة في فلكها مما يتيح لفرنسا وإنجلترا انتهاز الفرصة للعمل منفردتين دون تدخل من أمريكا أو روسيا . وستبدأ العملية بمشكلات تخلفها إنجلترا في الأردن تستمع أن تتدخل فيها الجيوش العراقية مستفزة مصر وسوريا ، فإذا تدخلت الأخيرتان غزت إنجلترا الأردن ومصر . وفي نفس هذه اللحظة تعزز القوات الفرنسية الموجودة بتونس ومراكش مراكزها ووجودها بصورة فعالة . وبعد التخلص من الحكام والعناصر المناهضة للإستعمار في هذه البلاد تنهض عراق نوري السعيد مطالبة الدولتين الفرنسية والبريطانية بسحب جيوشها من كافة الدول العربية حتى تكسبها بريطانيا صفة الزعامة . ومن هنا كانت العراق هي حجر الزاوية في المشروع فهي آخر معقل للإستعمار في الشرق العربي ومنها يريد الإستعمار اللوثوب من جديد ، وبعد ذلك تنزع العراق حركة الصلح مع إسرائيل . وتبنى الخطة على السرعة الفائقة وضرورة الانتهاء من تحقيق أهدافها قبل أن تفيق أمريكا من انتخاباتها وخلال متاعب الاتحاد السوفييتي في شرق أوروبا . ولا جدال في أن إسرائيل ستلعب دورا ضمن هذه الخطة ، وتؤكد المحادثات الإنجليزية والفرنسية أن روسيا لن تتدخل فيما إذا حدث إعتداء مسلح من العرب على الدول العربية ، كما أن أمريكا ستفاجأ بالأمر الواقع وستجد نفسها مرغمّة على التسليم به . وبمعنى آخر أن هدف الخطة الإنجليزية — الفرنسية هو جعل الحرب محلية في منطقة الشرق الأوسط وإنهاؤها بأقصى سرعة .

ولست أعتقد أن النبأ جديد عليك فافتىء الغرب يهدد بالحرب من ٢٦ يولية الماضي ولكني



أعتقد الآن أنهم يتطلعون فعلا إلى تنفيذ هذه الخطة . ولكن ما الذى يدفعنى إلى مثل هذا الاعتقاد ؟ لابد لى أعكس هذا الشعور من أن أرسم لك صورة واضحة لما يجرى هنا من تصرفات يمكن على ضوءها الخروج بنتيجة بناءة ، فالأحداث الآن أصبحت سريرة متلاحقة تسبق فكر الإنسان ، وتدفعه إلى أن يلهث وراءها .

وقد علمت من مصدر آخر لا يقل أهمية أن الحكومة الفرنسية منهمكة الآن في إعداد كتاب أبيض عن موضوع الباخرة أتوس تضمنه وثائق وإثباتات مستقاة من المستندات المصبوطة مع زعماء الجزائر . أما الغرض الأساسى من هذا الكتاب فهو البرهنة على أن شمة خطرا يهدد السلام العالمى ، وأن مصدر هذا الخطر هو مصر ، أعنى دكتاتورها على حد تعبيرهم ، ولقد جرت عادة المستعمرين على تزوير الحقائق وتشويه الواقع . هذا من جهة بينما يحشد الفرنسيون كل ما فى جعبتهم للحصول من مجلس الأمن عند عرض قضية الآتوس على إدانة مصر وإتهامها بالتدخل العسكرى المسلح فى حرب الجزائر غير مكثرين بالفتوى الروسى ، وذلك أيضا لإتخاذ الموضوع ذريعة يعبئون بها الرأى العام الفرنسى ويستجلبون بها عطف الرأى العام العالمى عليهم . أرجو أن يكون وقتك قد اتسع لمطالعة خطاب جى موليه الأخير بالجمعية الوطنية الذى نال على أثره ثقة الأغلبية — ولا تأخذنى فأحيانا يضطر المرء إلى الإتيان بأمور تشمئز منها النفس — أقول لعلك لاحظت لهجة التحدى التى تكسوها النعمة الحربية فى كل مقال . وإذا أضفت إلى ذلك أن جميع الصحف [ فيما عدا الشيوعية وصحيفتى اكسپرس وفرنس أبزرفاتير ] تنفخ فى نفير الحرب وتلهب الشعور العام ، وتبذر بذور الحقد والضغينة ضد العرب والمسلمين ، وتبث الرأى العام لخطوة وشيكة أن تتخذها الحكومة الحالية التى يهيمن عليها ويسيرها أصحاب المصالح الاستعمارية وعملاؤهم المرتشون من قادة الجيش ، ولا غرو فقد خلا الجو للحكومة تفعل ماتشاء بعد أن نالت تلك الأغلبية الساحقة فى تاريخ الديمقراطية !

إن فرنسا مهد الحريات أصبحت بحق مقبرة الحريات ، فهى الآن دولة بوليسية يتحكم فيها الإرهاب ويسيظروا عليها دكتاتور بغيض ثقيل الظل يسنده مال ونفوذ الرجعيين . لست أكتب لك هذا الكلام وأنا فى برجى العاجى بل أكتب إليك إنعكاس الوضع الحقيقى فى فرنسا . فرجل الشارع والرجل المثقف كلاهما نافر من سياسة حكومته ناظم عليها ولكنه يرتعد خوف أن يصيبه ضرر من السطوة البوليسية الواسعة النطاق التى يمارسها قيومدير الخدمة السرية حتى أن مندس فرانس نفسه بات يخشى على نفسه ، فانطلق مذبذبا فى خطبته المزيلة التى لم يكن يتوقعها منه أحد فى البرلمان خاصة بعد النقد اللاذع الذى وجهه إلى سياسة الحكومة منذ عشرة أيام فى مؤتمر الحزب الراديكالى . لقد أثر السلامة خشية اتهامه بالخيانة ومحاكمته ... نعم محاكمته ، فهو أمر ميسور الآن فى فرنسا . إن أقوى دليل على أن الرأى العام لا يتفق والحكومة أن نسبة من تقدموا بأصواتهم فى الانتخابات الأخيرة لم تتجاوز ٥٨ ٪ من مجموع الناخبين . وإذا أضفنا إلى الخطب النارية الملهبة التى يلقيها الزعماء السياسيون ضارين على نفعة الأجماع التقليدية للتاريخ الفرنسى وضرورة استعادة فرنسا لسطوتها السابقة ، وإلى المقالات الدنيئة المأجورة التى لا تكف صحيفه صباح مساء عن كتابتها ضد شخصك وضد العروبة ، أقول إذا أضفنا إلى ذلك ما سمعته مثلا بالألمس فى أنباء النشرة الإخبارية بالإذاعة الفرنسية لأول مرة ولمدة ثلاث دقائق : نواح وبكاء أراميل وأمهات القتلى الفرنسيين فى مكناس بمراكش أثناء الصلاة على أرواحهم فى الكنيسة ! ليس الغرض من إذاعة هذا البكاء هو مجرد سرد خبر بل هو محاولة متعمدة لإثارة عواطف الفرنسيين وتآليهم ضد العرب المتوحشين ! هو تهينة وتعبئة للشعور القومى لشيء ماتوشك الحكومة الحالية أن تتخذه ، فهم يستغلون هنا كل حادث يقع لتوجيهه فى صالح سياستهم لأنهم يعلمون أن الرأى العام الفرنسى لن يستسيغ مقتل صفار الموظفين الفرنسيين فى مراكش بل

سيمعطف عليهم . والحق لقد كان الأجرى والأجدي النيل من كبار الفرنسيين وزعمائهم في الشمال الأفريقي فهم المحرك الحقيقي وراء كافة المصائب الواقعة الآن .

إن هدف فرنسا وبريطانيا من التثبيت بضرورة تدويل إدارة القناة ليس هو حرية الملاحة إلى غيرها من الاعتبارات المرددة بل هو التخلص من شخصك ، فإما أن يرفض عبد الناصر ذلك فيُغمره بالقوة ، وإما أن يقبل فتضيق هيبة بين المصريين والعرب على حد سواء . هذه هي النوايا ولا أظنها خافية عليك ، وثمة فارق كبير بين النوايا وبين تنفيذها ، فدون ذلك عوامل عديدة عليهم تذليلها قبل الإقدام على مايريدون . ومرة أخرى أعود فأقول إن العراق تحت حكم نوري السعيد سيكون هو منبع الشر ومركز القلق للعالم العربي حتى يستريح هذا العالم من مكائد نوري السعيد ، كما أن اليقظة التامة والحكمة الكاملة مطلوبتان منا الآن تجاه الأردن الشقيق .

وخشاما فلكي أكون أمينا في الصورة التي نقلتها لكم عن الموقف في فرنسا أود أود أن أبين أنه ولو أن الموقف الحكومي يبدو قاتنا ومينوسا منه ولا يمكن تغييره إلا بجمجمة ، إلا أن ثمة فريقا من الفرنسيين الأحرار يجاهد الآن لتأليب الرأي داخل الحزب الاشتراكي ضد سياسة موليه . وعلى رأس هذا الفريق دو بريه ودفريه كما سبق أن ذكرت لكم ، كما يواصل بعض الشرفاء جهودا صادقة في هذا السبيل سأوافيكم بها . ولعل أحد المعاول التي يراد بها زعزعة الثقة بالحكومة الحالية وإحراجها إصرار النائب دو بريه الاشتراكي على البت في قانون التعليم الديني المستقضى La loi Berangé حيث سيختلف حتما بين مع الاشتراكيين لأول مرة مما قد يززع مكانة الحكومة الحالية المكروهة في كل مكان إلا من أعضاء البرلمان طيحا الذين يفيدون إما فائدة من عضويتهم . وإذا قلت لك أن الإثراء الفاحش الذي يناله أعضاء البرلمان مدة عضويتهم يفوق بكثير ماعهدها في برلمانا فلست مبالغا .

وفي النهاية أرجو أن تصلني توجيهاتكم فيما قد يساعدني على القيام بواجبي لتحقيق سياستكم لصالح الوطن والسلام عليكم ورحمة الله .

(٩) الدوديكا فونية هي مذهب من مذاهب التأليف الموسيقي يستمد اسمه من رقم ١٢ باليونانية إشارة إلى الإثني عشر نصف بعد التي تكون السلم الموسيقي . ويستخدم هذا المذهب أنصاف الدرجات هذه في ترتيبات نغمية متناثرة ، كما ينبد المقامات والتألف الصوتي . ويصوره بعض النقاد بقولهم إنه « مجموعة من المركبات الهارمونية الصارخة والصغير الحاد وصيرير الآلات النحاسية المسعورة بلا هدنة أو راحة للأذن . [ معجم المصطلحات الثقافية ، لكاتب هذه السطور . مؤسسة لونجمان ] .

(١٠) وماثورة كرومويل بالبحر عام ١٦٤٠ بمعية عن الأذهان ، فلقد أتت على العديد من التحف واللوحات المصورة والتأثيل بالكنائس . وكذا الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، فلقد هدمت العديد من الكنائس ذات البدائع الفنية الخالدة . تشهد على ذلك كاتدرائية سان دني أولى الكنائس القوطية بباريس ومثوى ملوك فرنسا ، إذ نبشت الثورة قبورهم ودمرت مافي الكنيسة من تحف فنية . ويشهد على ذلك أيضا ماتبقى من كنيسة المادلين الرومانسكية بقريلاي بعد تخريبها . وينضم إلى هذا وذاك ما حوكته الثورة الفرنسية من كنائس إلى أماكن اجتماع بعد أن جردتها من طابعها الديني . كذلك اضطهدت الثورة عددا كبيرا من الكتاب والفنانين على رأسهم المصور فراجونار الذي رأت الثورة أن تصاويره لا تواكب نهجها ، فاستجار بالمصور دافيد إذ كان ذا حظوة عند رجال الثورة ، غير أنه أي دافيد - مالميت أن شايع الدهماء في أذواقهم وسابهم بتصميم أزياء الثورة الفرنسية مستوحاة قليلا من الأزياء الرومانية وكثيرا من ثياب السابلة والفوغاء ولاسيما من ثياب رقصة الكارمانبول الوثيقة الصلة بالثورة . على حين اضطهدت الثورة الروسية في ١٩١٧ البارزين من الأدباء والفنانين فهاجر منهم من هاجر وفر من استطاع الفرار ، كما اتهمت رختانينوف وشوستاكوفتش وغيرها بأن موسيقاهم رجعية على نمط الموسيقى البورجوازية ، إلى غير ذلك من أمثلة عديدة عن سيطرة أذواق دنيا على دنيا الجماليات ، وإن كانت النواضع في كل مثال من هذه الأمثلة مختلفة متباينة ، غير أن النظرة السوية مالميت أن عادات تأخذ مجراها في طريق التقدم والإبداع بعد فترات الانتقال التي تفاوتت مددها .

## الفصل الثالث

# تجربتي سفيراً



## ١ سفير لذي الكورينا الى (١)

فى يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٥٧ أقلعت بى وبأسرتى الطائرة الفاىكونت المصرية إلى روما ، وحين اقتربنا أخذت تهبط محلقة فوق الشاطيء جنوبى روما ، وما كادت تصل فوق أطراف « المدينة الخالدة » حتى استدارت ببطء ، فترأى أمامى مسرح الكولوزيوم البىضاوى ومن ورائه الفورم الرومانى ، وعلى مقربة منه مبنى البانثيون الدائرى ، ثم النصب التذكارى للملك فكتور عمانويل الثانى محرر إيطاليا وموحدّها برخامه الناصع البياض . وما كادت الطائرة تنتهى من دورتها الكاسحة حتى لاح اللون الموحل لنهر التيبير وخضرة حدائق بورجيزى ، وأخيرا ميدان القديس بطرس يحدّه بهو أعمدة المثل برنينى وتتوسطه قبة البازيليكا التى صممها ميكلانچلو . عندها راودتنى هواجس مختلفة .. ترى ماذا سيكون مصير سياستنا مع إيطاليا ؟ وكم تمنيت أن يسدّد الله خطانا .

وقد استقبلنى أعضاء السفارة فى المطار استقبالا ودّيا كريماً ، ثم انطلقت بى السيارة إلى « فيلا ساقويا » الواقعة على « فيا سالاريا » أى « طريق الملح » أقدم الطرق الرومانية الذى اختطته قوافل التجار منذ فجر التاريخ

لتحمل الملح من مدائن البحر التيراني إلى مدائن شاطيء البحر الأدرياتي ، وكان كذلك الطريق الذي تدفقت منه جيوش الغال الغازية ثم القوط لينزلوا الهزيمة بروما . وهو أيضا الطريق الذي شهد غير بعيد من موقع « فيلا ساقويا » أحداث تلك الأسطورة الممتعة التي تروى لنا قصة اختطاف الرومان لنساء قبيلة السابين على يد رومولوس ، والتي ظلت طويلا مصدر إلهام للأدباء والفنانين .

وحين وجدتني في الصباح أدخل مكتبي وتصافح عيناى معالم هذه القاعة التاريخية وجدت ذكريات أحداث كبرى تتقاطر على مخيلتي ، فقد كانت « فيلا ساقويا » التي اتخذت منها مصر سفارة لها مقر الملك فيكتور عمانويل الثالث آخر ملوك إيطاليا . وفي القاعة نفسها التي باتت مكتبا لى استدعى الملك « الدوتشي » موسوليني يوم ٢٤ يولييه ١٩٤٣ بعد عودته من لقاء مع هتلر والحرب العالمية تدمر أوروبا بأسرها ليحمله مسؤولية المصير الحزين الذي أخذت إيطاليا تشقى بمرارته ، وليرسله إلى المعتقل بعدما صارحه بأنه غدا أبغض إنسان للشعب الإيطالي . كان التاريخ كله بحقائقه وأساطيره ينسج من حولى خيمة جديدة تظلنى داخل هذا القصر المتميز بجمال لا تعرفه إلا قصور تادرا .

ولقد غميت سفيراً لبلادي لدى الجمهورية الإيطالية في أعقاب العدوان الثلاثي وما خلفه ذلك الاعتداء الغاشم من اضطراب وخلل في السياسة الدولية ، وكنت مدركاً كل الإدراك موقف بلادي وحساسية علاقتها بالكتلة الشرقية والموقف العدائي الذي اتخذته الكتلة الغربية نحونا . كما أن سياسة الحياد الإيجابي التي اعتنقناها ، وكذا ظهور القومية العربية بما تبعها فيما بعد من وحدة بين مصر وسوريا ، وثورة الجزائر وظهور الكتلة الأفريقية والعداء المتأصل بين إسرائيل والعرب عامة ومصر خاصة ، ثم احتلال القوات الأمريكية للبنان والقوات البريطانية للأردن ، كل ذلك جعلني أشعر بجسامة المسؤولية وبأن مهمتي شاقة مضنية . ومع إحساسي هذا إلا أنه قد غمرني قدر كبير من الارتياح أن يكون عملي الجديد في هذا البلد القريب منا وشعبه غير الغريب عنا على الجانب الآخر من البحر المتوسط الذي ربط بين مصر وإيطاليا منذ ما قبل الميلاد بروابط سياسية

واجتماعية واقتصادية ، وكانت مصر تحتشد بجالية إيطالية كبيرة شاركت في الحياة العامة يتكلم الكثيرون منهم اللغة العربية بلهجة مصرية ، وقد أتيح لى فى صباى أن أصادق عددا منهم فى رمل الإسكندرية شذتنى إليهم أغانيهم وخفة ظلمهم ودعاباتهم المرحية .

وعاوننى فى عملى بالسفارة نخبة ممتازة من الدبلوماسيين كانوا على خلق جم ومران واسع وكفاية مقدورة ، أذكر منهم المستشار النابه والصادق الوفى حسن ماهر ثم الأساتذة محمود رمزى وكمال علما وسميح زايد ومصطفى فهمى ونبيل العربى ، وقد تقلدوا جميعهم بعد مراکز السفراء . كما أخص بالذكر المستشار العسكرى اللواء عمر شكيب والمستشار الصحفى عبدالرحمن صادق ، ثم المستشار الثقافى الفنان صلاح كامل الذى كان إليه الفضل فى إنشاء أكاديمية روما الجديدة إلى أن كُتبت لها الوجود ، والتي تعد الآن بكل المقاييس من مفاخر مصر فى الخارج .

ومنذ وصولى إلى روما أخذ زملائى فى السلك السياسى يحذروننى من أن إيطاليا على النقيض من روسيا ، فبينما تبدو الحياة فى موسكو وكأنها محجة لا يستشف المرء من ورائها شيئا فإنها مع ذلك مجلوة للجميع . وعلى حين أن الأمور فى روما علانية لاسرية فيها والناس جميعا أحرار يتكلمون بما يشاءون وكأنك تلقن عنهم كل شيء ، ومع ذلك فثمة خفايا تغيب عن الأفهام .

كان على أن أحصر جهدى ونشاطى فى تعزيز العلاقات الطيبة بين مصر وإيطاليا وتوطيدها ، وأن أسعى لحل المشاكل الجانبية التى قد تشوب هذه العلاقات . وعندما قدمت أوراق اعتمادى إلى الرئيس جرونكى رئيس الجمهورية فى ٩ نوفمبر ١٩٥٧ أبدى لى رغبته فى تجديد دعوة الرئيس عبدالناصر لزيارة إيطاليا زيارة رسمية ، كما وجهت له الدعوة الرسمية التى كلفنى الرئيس عبدالناصر بتقديمها له قبلها على الفور واعدة بتحديد موعدها بعد عودته من زيارة تركيا التى كانت قد تقررت من قبل .

وقد دأب سياسيو الغرب على اتخاذ قراراتهم إزاء مشاكل الشرق الأوسط دون تشاور مع زعمائه ودون التفاهم مع المسؤولين به وحتى دون النظر إلى ماتخلفه

تلك القرارات على مشاعر الشعوب وآمالها ، خاصة وهم يجهلون حقائق القضايا وأسبابها الجذرية . ومن ثم ارتكب الكثير من بينهم أخطاء تسببت في اتساع هوة الخلاف وزيادة تعقيد المشاكل وخلق المتاعب . وعلى حين كان الأمر يكون والغرب يُحلّون لأنفسهم التعامل سياسيا واقتصاديا وثقافيا مع الاتحاد السوفييتي كانوا يحرمون مثل هذا التعامل على دول الشرق الأوسط ، فما تكاد دولة من دول هذه المنطقة تتخذ موقفا سياسيا أو اقتصاديا في مصلحتها و يراه الغرب خارجا عن خططه التي خططها لنفسه حتى تعتبر مثل هذا الموقف معاديا للغرب وانحيازا لغيرهم . على أنى لا أنكر أن بضعة من الساسة الأمريكيين والأوربيين كانوا يدينون بآراء وأفكار تتمشى مع تطور العالم وتحقيق آمال الشعوب المستقلة حديثا ورغباتها ، غير أنه للأسف الشديد لم يكن لهذه القلة المحدودة المتزنة صوت مسموع وسط ضجيج سياسة التعصب والتعالي وحب السيطرة والأهواء الشخصية .

\* \* \*

ولم يكفد المقام ينستقربى في روما حتى أحسست أن لدى عملاهما لأمع أعضاء الحكومة الإيطالية وحدها بل ومع الرأي العام الإيطالى الذى ضلّته وسائل الدعاية الصهيونية والغربية . وكنت أعتقد أن أول من سأحاول تحسين علاقتنا بهم هم الإيطاليون ، فإذا بى أجد لقاءاتى الأولى تبدأ بمندوبين من إنجلترا وفرنسا وأنهم يبحثون معى تحسين العلاقات أيضا . وكانت مفاجأة لى أن أرى كل ممثلى الدول الغربية من السفراء والصحفيين يردّون نفس النغمة و يلوكون نفس. الاتهام بأن مصر واقعة تحت النفوذ السوفييتي . وأنها تتجه صوب الشيوعية ، وكان على أن أتحدث إليهم طويلا كى أوضح لهم حقيقة الأمور . والغريب أنه فى كل لقاء كان ينتهى الموقف باقتناع حقيقى بأن جمال عبدالناصر لم يكن شيوعيا ، وأنه جاد فى سياسته نحو الحياد الايجابى ، وأنه اضطر اضطرارا بعد تغلّى الغرب عنه إلى أن يطلب من الكتلة الشرقية سلاحا يزود به جيشه الذى كان يقف فى مواجهة صريحة ضد جيش اسرائيل المدقم بالترسانة الغربية تدعيا يمثل أضعاف أضعاف قدراتنا العسكرية ، بل لقد كان الجميع يدركون أيضا و يعترفون — بمجرد أن أشير إليهم بذلك — بعزم اسرائيل على العدوان من أجل توسيع رقعتها وحدودها إلى أبعد مما تقف عنده .



وهكذا كان لقائى الأول مع مستر روبرت واطسن مدير الإدارة الأفريقية بالخارجية البريطانية الذى استقبلته بمكتبى بناء على طلبه فى الرابع والعشرين من نوفمبر ١٩٥٧. كان مطلبه واضحاً وصريحاً أن تعيد مصر علاقاتها مع بريطانيا بطريقة متدرجة لا تثير ثائرة المتزمتين والذين لا يزالون يذكرون مرارة المعركة التى حدثت إبان العدوان الثلاثى على مصر. كما أنه مسّ قضية الجاسوسين الإنجليزيين سوينبرن وزارب مساً رقيقاً يعبر عن تقدير الحكومة البريطانية لأن مصر أطلقت سراحهما مع تأكيده أن ليس فى ذلك شرط ولا ارتباط بين قضيتها وبين قضية إعادة العلاقات. وكان من المنطقى أن تأخذ الخطوة الأولى شكل العلاقات الاقتصادية، وهو أمر طبيعى إذ أن تبادل العلاقات الاقتصادية من شأنه أن يقيم جسراً من التفاهم الذى يمكن أن يعمق الوفاق بين الدولتين. على أنى حرصت على تذكيره بأن أحداث عدوان العام الماضى ماتزال ماثلة فى الأذهان، وأن المصلحة تقتضى السير فى سبيل إعادة العلاقات، وأننى أتصور أن يبدأ الأمر إذا نجحت كافة المباحثات الاقتصادية بين الطرفين بتمثيل تجارى وقنصرلى لرعاية المصالح المالية والتجارية والفردية، يتبعه فى المستقبل تمثيل دبلوماسى مبسّط كإسناد السفارتين إلى قائمين بالأعمال. واقترح محدثى أن يُمنع المشرف على التمثيل التجارى والقنصرلى صلاحية تمكّنه من الاضطلاع بإجراء اتصالات لبحث موضوع إعادة العلاقات الدبلوماسية، وضرب مثلاً لذلك بما اتبعته بريطانيا بالنسبة للصين الشعبية. ورأى أن يشرح لى فى شىء من الإسهاب التطور الذى طرأ على الرأى العام البريطانى وفى ككل من حزبى المحافظين والعمال، ثم عاد إلى التأكيد بأن الأذهان الآن أصبحت مهيأة لعهد جديد بعد التخلّى نهائياً عن مفهوم الاستعمار، وأن هذا من شأنه إزالة كل شك يكون لدى مصر، كما أن من شأنه أن يمهّد لجويسمخ بتحقيق التعاون السلمى المفيد لامع مصر فقط وإنما مع العالم العربى والشرق الأوسط. ورجانى فى ختام الحديث أن تُتاح له الفرصة أثناء وجوده فى روما لينتقل إلى وزارة الخارجية البريطانية صدى هذا اللقاء لدى المسئولين فى مصر.

وقد أبلغت القاهرة بمضمون هذه المقابلة، وبعد أقل من أسبوعين جاءنى رد وزارة الخارجية الذى نقلته إلى المستر واطسن بمكتبى فى السادس من ديسمبر بموافقة

الحكومة المصرية على إقامة تمثيل تجارى وتمثيل قنصلى وتمثيل محدود عقب توقيع الاتفاق المالى بين مصر وبريطانيا ، وبموافقتها كذلك على العفو عن الجاسوسين البريطانيين على أن يتم ذلك بعد أن تكون العلاقات بين البلدين قد غدت عادية مادام ذلك ليس شرطا لتحسنها . فأعرب مستر واطسن عن شكره معتبراً موافقة السلطات المصرية على المسعى البريطانى فاتحة خير أكيدة للعلاقات بين البلدين . وقد عرجنا فى الحديث إلى القضايا العربية وبخاصة قضية الجزائر، فمضى يؤكد لى اختلاف وجهة نظر برطانيا عن وجهة النظر الفرنسية مبيناً أن دول حلف الأطلسى لا تجاهر بالآراء المتعارضة حرصاً على إبقاء العلاقات الطيبة فيما بينها . ثم انتقل إلى القول بأن وجود قائم بالأعمال مصرى فى لندن سيتيح الفرصة لينقل للحكومة البريطانية وجهة نظر مصر، كما أن وزير الخارجية البريطانى يبحث الآن اختيار قائم بالأعمال بالنيابة من بين اثنين أو ثلاثة من دبلوماسى الخارجية البريطانى على أساس اختيار عنصر لم يسبق له التورط فى السياسة الاستعمارية البريطانية وليس له ماضى فى مصر أو فى منطقة الشرق الأوسط .

\* \* \*

وحين بدأت الحوار مع السياسيين الإيطاليين وجدت أن الكثرة من بينهم يجهلون حقيقة قضية فلسطين ولا يرون فيها إلا أنها قضية لاجئين . وحتى سفير الولايات المتحدة الأمريكية لدى إيطاليا وقتذاك السفير زلرباخ — وهو يهودى الأصل — لم يكن إمامه بالقضية يتعدى بضع معلومات استقاها من الصحف شوّهت الكثير من تقديره للأمور والتزامه جانب الحق ، إذ كان يعتقد أن مصر لا تكف عن التحرش بإسرائيل ، وأنه بينما تسعى إسرائيل وراء الصلح وإقرار السلام ترفضه مصر، عاكساً بذلك حقيقة الأمور وواقع الأحداث مما دفعنى إلى أن أوضح له بالحجة الدور العدوانى الذى تقوم به إسرائيل فى المنطقة ، وأردفت ذلك بأن أرسلت إليه فى ٣ يناير ١٩٥٨ مقتطفات من التصريحات العلنية التى أدلى بها الرئيس عبدالناصر فى سبيل السلام ، فإذا به يُفضى إلى ذات يوم أنه ضد إنشاء دولة إسرائيل على أسس دينية ، وأن الدين بالنسبة له أمر ثانوى فله ابن متزوج من كاثوليكية وحفيد عُمد كاثوليكية منذ شهور .

وقد كشفت لى دعوة الرئيس عبدالناصر لزيارة إيطاليا عن خفايا السياسة  
الأمريكية البريطانية في جلف شمال الأطلسي والتي اتسمت كلها بالتخوف  
والأنانية وحب السيطرة وعدم الثقة بين الأعضاء المتحالفين . وكان السنيوربيلا  
وزير خارجية إيطاليا قد طلب منى عند مقابلتي له في السادس عشر من نوفمبر  
١٩٥٧ بعد عودته من تركيا التعاون معه كي تتم زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا  
ببجاح تام . وأبلغني اهتمام الوفد الإيطالي أثناء زيارته لتركيا بمشكلة تحرش  
الأتراك بحرس الحدود السورية ، وأنه إذا تفاقمت الحال هناك فإن النتائج ستكون  
من الخطورة بحيث لا يمكن التكهن بمداها ، واعترف لى بأن الوفد الإيطالي قد أكد  
لأصدقائه الأتراك أنه ليس لدى السوريين أية نية للاعتداء عليهم كما أنهم تأكدوا  
أن ليس لدى الأتراك نية للاعتداء على سوريا . ومن ناحيتي أوضحت له أنى  
كعربي مسلم أؤكد أن ليس ثمة خصومة بين سوريا ومصر من جهة وتركيا من  
جانب آخر ، وأن هذه الخصومة مفتعلة اصطنعتها الكتلتان الشرقية والغربية اللتان  
اتخذتا سوريا مسرحا للحرب الباردة بينهما ، أما عدونا الحقيقي فهو إسرائيل . فعلى  
بأنهم قد تناولوا في تركيا مسألة إسرائيل بالبحث ووجدوا أنه لا مفر من إيجاد حل  
يعالج مشاكل ثلاث : مشكلة اللاجئين ومشكلة الحدود وضمانات ضد التوسع  
الإسرائيلي . فتساءلت ولماذا لم نسمع صدى لهذه الأفكار في اجتماعات الحلف  
الأطلسي بينا إيطاليا وتركيا عضوان به ؟ فراغ السنيوربيلا من الإجابة وأخذ يوجه  
أسئلة غير مباشرة يحاول بها أن يطمئن إذا ما كانت مصر تتجه في طريق الشيوعية ،  
وأرحته بقولي أننا دولة مستقلة تبغى صداقة الجميع ، وأن الرئيس عبدالناصر قد  
أدلى منذ قريب بتصريح للتليفزيون الأمريكى بأنه على استعداد لزيارة  
واشنطن إذا كان في رحلته كسب للسلام . وهنا ألمح لى عن مشروعه [ الذى لم  
يُقدّر له أن يتحقق ] عن إنشاء منظمة اقتصادية اجتماعية مثالية تضم دول البحر  
المتوسط لاماكان للشيوعيين فيها . ثم سألتني عن رأيي فقلت إنها فكرة وجية إذا لم  
تكن لها أية صفة عسكرية ، فأردف بأنها فكرة « يوتوبية » حقا ، غير أن ما كنا  
نعتبره يوتوبيا بالأمس قد يصبح واقعا في الغد ، ولن يكون لهذه المنظمة أى طابع  
عسكري أو ترتبط بأى حلف من الأحلاف ، بل كل مانبغيه هو إزالة أسباب  
التنافر والتخفيف منه .

وتطرقْتُ إلى موضوع الجزائر مستفسرا عن رأيه الشخصي فاعتذر عن الإدلاء برأيه مكتفيا بإظهار أسفه على الأسلوب الذي كانت فرنسا تُحكّم به وقتذاك .  
 وحين علّقت بأن حرب الجزائر تستنزف موارد الحلف الأطلسي ، قال إن المشكلة قانونية ، ثم مالبت أن اتخذت طابعا عنصريا واستطرد قائلا : ألا ترى أن الوقت قد حان كي تقوم إيطاليا بدور فعال بين مصر والغرب ؟ قلت ومن تقصد ؟ قال : الولايات المتحدة . فأوضحت له أننا على استعداد لمزيد الصداقة للجميع بما في ذلك الولايات المتحدة . وتبيّن لي أن الظاهرة الجديدة التي طرأت على السياسة الخارجية الإيطالية ترمى إلى الوساطة : وساطة بين تركيا والعرب ، وبين العرب وإسرائيل وبين مصر والغرب ثم بين الكتلة الأنجلوسكونية وفرنسا .

وفي مقابلة لي مع سنيور روسي لونغى سكرتير عام وزارة الخارجية الإيطالية استفسر مني عن سبب زيارة وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة المصرية لموسكو مبديا تخوفه من توقيع معاهدة عسكرية بين مصر وروسيا ، فأوضحت له أن هدف الزيارة هو عقد صفقة أسلحة متواضعة لا تقاس إلى جانب الهبات الضخمة التي تنال على إسرائيل من كل حذب وصوب وخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الغربية ، ثم تساءلت بعورى لماذا لا تثير الهبات والمعونات السخية لإسرائيل مثل هذا التخوف أو الاعتراض بين الدول الغربية ؟ وأكدت له أن الزعم بتوقيع معاهدة عسكرية مع موسكو هو تحجّن من الصحف الغربية الموعز إليها لتعكير الجو وإثارة الشكوك حولنا ، فإن سياستنا المعلنة الواضحة هي الحياد الإيجابي ، وأنه بقدر ما نحصل على معونة من الشرق بقدر ما نرتحب بها من الغرب ، وأنه لا يغيب عن باله ما استهدفت له مصر من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا من سحب وعدهم بتمويل مشروع السد العالي وما اضبطرنا إليه من تأميم شركة قناة السويس ، فقد كنا — ونحن في حالة دفاع عن النفس — في حاجة إلى أن نتقبل المعونة حتى من الشيطان على حدّ الاصطلاح الذي استعرناه من الغرب ، وكانت معونة السوفييت كريمة غير مشروطة . وفي نهاية اللقاء برّر تساؤله بأن العلاقة بينهم وبين السوفييت هي مسألة حياة أو موت ، وأن الصراع آت لا ريب فيه . وغادرته وأنا مؤمن بأن محدثي دبلوماسي مشبع بالأفكار الغربية العتيقة لا يتزحزح عنها . وعلى أثر عودة وزير الخارجية سنيور بيلا والوفد المرافق له من

الولايات المتحدة التقيت في التاسع من ديسمبر ١٩٥٧ بالسفير ماجستيراتي مدير عام الشؤون السياسية بالخارجية الإيطالية الذي أشاد بموقف مصر في الأمم المتحدة من قضية الجزائر راجيا - كصديق لمصر على حد تعبيره - أن يكون موقفنا في المؤتمر الآسيوي الأفريقي بنفس الروح . فأكدت له أنه بقدر ما نلقى من الغرب من التأييد غير المشروط بقدر ما يعاوننا ذلك على تعزيز حيادنا والالتفات بكل طاقاتنا إلى الإنشاء والتعمير . وعرج سنيور ماجستيراتي بعد ذلك على مشروع بيلا ليُجمل مضمونه بأنه يربط بين تدهور علاقات دول الشرق الأوسط المستمر مع الغرب بسبب الأخطاء الفاحشة التي ارتكبتها بعض الدول الغربية وبين الديون المستحقة على الدول الغربية التي سترت إلى الولايات المتحدة .

وفي أثناء دعوة أقامها لي مركز العلاقات الإيطالية العربية في الثالث عشر من شهر فبراير ١٩٥٨ فاتحني الوزير المفوض سترانيو مساعد المدير العام للشؤون السياسية متسائلا عن موعد زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا مشيرا إلى أن الرئيس جرونكي يؤثر أن تتم هذه الزيارة في شهر يونيو أو يوليو ١٩٥٨ ، فأجبتة بعد أن شرحت له ظروفنا أن التزامات الرئيس عبدالناصر تدعوه إلى تفضيل شهر سبتمبر . وكانت ثمة فكرة أن يزور الرئيس جرونكي لبنان فأوعزت إلى الوزير سترانيو بأن زيارة الدول العربية لا تبدأ إلا بالقاهرة . وقد أعرب لي عن تأييد حكومته للوحدة بين مصر وسوريا ، وأنها تتطلع إلى وحدة ماثلة بين الأردن والعراق ، فقلت أن مصر لاشك تبارك مثل هذه الخطوة إذا تمت .

وقد أدهشني حين أثار موضوع إسرائيل باعتقاده أن حل مشكلة اللاجئين هو نهاية المشكلة الفلسطينية ، فصوّبت له معلوماته بأن مشكلة فلسطين لها في نظرنا أوجه متعددة لا بد من إيجاد حل لها جميعا ، فإلى جانب ما يدعوه مشكلة اللاجئين ونعمته نحن مشكلة شعب بأكمله هناك مشكلة ضرورة إيقاف الهجرة إلى إسرائيل لوقف التوسع الاسرائيلي ، ومشكلة الحدود بينها وبين البلاد العربية المجاورة . وأوضحته له عندما لمست قلقه بالنسبة للتنفيذ الشيوعي في سوريا أن الوحدة قد أكدت تمسكنا بالحياد الإيجابي ، وأنه قد تم حل الحزب الشيوعي السوري في أعقاب الوحدة مباشرة بالرغم من علاقتنا الطيبة مع الاتحاد السوفيتي في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة .

وفي لقاء لى مع السفير ماجستراتى مدير عام الشؤون السياسية بوزارة الخارجية أبلغنى أن إيطاليا ستكون من أولى الدول التى ستعترف بدولة الوحدة الجديدة، وأنهم لا يأخذون بالرأى القائل بأن الوحدة بين مصر وسوريا هى مناورة غايتها تحقيق مصالح السوفييت ولكنهم يأخذون بالرأى القائل بأن هذه الوحدة من شأنها إبعاد خطر التسلل السوفييتى فى الشرق الأوسط .

وعلى الرغم من ذلك كله فإن النتيجة التى توصلت إليها وقتذاك بالنسبة لموقف إيطاليا هو تخوفها من أن يودى انتشار الاتحاد بين دول عربية أخرى إلى الإخلال بالتوازن الدولى فى حوض البحر المتوسط الذى يشغل العرب ساحله الجنوبي المواجه لأوربا، مما يهدد استقرار مراكز الغرب وقواعده العسكرية، كما أن من شأنه إضعاف مكانة إيطاليا، وذلك برغم أن إيطاليا كانت تؤمن بأن الخطأ الذى يقع فيه الغرب دائما هو النظر إلى مشاكل الشرق العربى فى ضوء الصراع بين الكتلتين الغربية والشرقية .

والجدير بالذكر أن سفير الهند فى روما كان دائم الملاحظة لى لمعرفة ما سيأخذ به ملكا السعودية والأردن وغيرهما، إذ كان يخشى أن تتطور هذه الوحدة إلى اتحاد يضم الدول الإسلامية، الأمر الذى يشكّل فى رأيه خطرا على بلاده، على حين كان سفير الباكستان لا يكف عن التلميح إلى ضرورة انفساح الوحدة العربية لتتعدو واتحادا بين الدول الإسلامية فى المستقبل، بينما اعترف لى سفير لبنان الأستاذ جوزيف بونخاطر أن وقع الوحدة على لبنان لم يكن هينا، وأن أشد المعادين لها هو رئيس الجمهورية وقتذاك كميل شمعون .

وفي حفل عشاء خلال شهر يناير ١٩٥٨ التقيت بالسناتور بيلا فأتار معى من جديد مشروعه لإنشاء منظمة اقتصادية لبلاد حوض البحر المتوسط الذى كان قد سبق وحدثنى عنه معترفا أنه يحتل الكثير من تفكيره وجهده، مشيرا إلى أن مشروعه يهدف إلى تنمية البلاد التى ماتزال فى طور التقدم بحوض البحر المتوسط وعلى رأسها بطبيعة الحال جنوب إيطاليا فالبلاد العربية فدول الشرق الأوسط، على أن يكون المخطط فنيا مجردا من الشبهات السياسية كيلا يثير نفوس هذه الشعوب وهو اجسها، فلا تكون المساعدات مرتبطة بشروط سياسية أو عسكرية

لمصالح الغرب . وفي الوقت الذى ألمح فيه إلى ضرورة الحد من توسع النفوذ السوفييتى وامتداده إلى شمال أفريقيا ، انبرى يؤكد أن هدفه بعيد عن إشراف منظمة حلف الأطلسى التى لاشأن لها قط بهذه المساعدات لما عساه قد ينجم عن مقاومة الدول التى ستحظى بها أونفورها منها ، لذا كان يرى أن يُعهد بالإشراف على هذا المشروع إلى منظمة الإنعاش الاقتصادية الأوروبية أو إلى منظمة جديدة تُنشأ لهذه الغاية . وقد تبين لى أن الحكومة الإيطالية تتوخى من هذا البرنامج مصالح شتى أهمها أن تحظى حركة الإنعاش والتعمير والتصنيع الجارية فى المناطق المتخلفة من جنوب إيطاليا بنصيب وافر من هذه المساعدات ، وأن تربط السياسة الإيطالية - الرامية إلى النهوض بالمستوى الاجتماعى والاقتصادى لإقليم الجنوب - بالعالم العربى وبالأخص شمال أفريقيا التى سيجد فيها سوقا طبيعية لتصريف منتجاته . أضف إلى ذلك تعزيز النفوذ السياسى الإيطالى فى حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط لحاقا بالولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفييتى الذين يتجاهلون شأنها فى هذه المنطقة ، وأخيرا تعزيز برنامج التوسع التجارى والفنى والنفطى الإيطالى وفقا لسياسة المهندس إنريكو ماتتئى رئيس منظمة البترول الإيطالية « إينى » ، تلك السياسة التى كانت تحظى بالتأييد المطلق من الرئيس جرونكى .

على أن هذا المشروع الذى ظل يراود صاحبه بالحاح كان مايزال مجرد « أفكار » قوبلت باهتمام محدود فى العالم الغربى ، كما كان يحتاج إلى بحث عوامل كثيرة كتوفير المال لأداء المعونات المقترحة ، الأمر الذى يتطلب الحصول على موافقة الدول الأوروبية التى ترى أن مصالحها لا تبرر من جانبها المساهمة فى المشروع أو التى تعارض فى تنفيذه رغبة منها فى قصر اهتمامها على ما هو أجدى لها فى الوقت الحاضر . وقد اقترح بيلا لتمويل مشروعه بجميع الموارد المالية الأمريكية والأوروبية ، فعلى حين تتمثل الموارد الأمريكية فى المبالغ المجتمعة من سداد قروض مشروع مارشال التى كان سيبدأ تدفقها على الخزنة الأمريكية فى مستهل عام ١٩٥٨ ، كان على كل دولة أوروبية من التى ستقوم بتسديد هذه القروض أن تدفع معونة إضافية لا تتجاوز ٢٠ ٪ من قيمة المبلغ المسدد لأمرىكا . أما الدول الأوروبية التى لم تتلق معونة بمقتضى مشروع مارشال فتدفع معونات مباشرة

للمسندوق ، هذا فضلا عن مساهمة رؤوس الأموال الخاصة لاستثمارها في المشروعات التي ستقام . وعلى الرغم من أن وزير الخارجية الإيطالي قد خانهُ التوفيق في اختيار الوقت المناسب لعرض فكرته المحببة إلى قلبه أثناء زيارته للولايات المتحدة ثم على الدول الأعضاء في الحلف الأطلسي خلال شهر ديسمبر ١٩٥٧ ، إلا أنه في الحق كان مشابهاً ذهاباً ورجوعاً إلى ما جاءت نتيجة الانتخابات النيابية التالية في صالح حزبه وعاد فتولّى شؤون وزارة الخارجية مرة ثانية .

وخلال شهرين يناير ١٩٥٨ استشرت حملة الدعاية ضد مصر في الصحف الإيطالية ، تتناول تارة على شخصية عبدالناصر متهمه إياه بالطموخ والديكتاتورية ومنافسة الملك سعود والرئيس بورقيبة ، كما تعدّه أداة للاتحاد السوفييتي في العالم العربي وحوض البحر المتوسط ، وتحمل تارة أخرى على نظامه نفسه ، فهو في نظرها وليد ثورة عرضية مفتعلة منحرفة عن مجرى التطورات التاريخية القومية ، وترميه أحيانا بأنه نظام إسلامي متعصب أوفاشستي أوماركسي وأحيانا بأنه نظام مهتجن بلامذهب . وتذهب الحملة إلى حد وصف السياسة المصرية بأنها ذات برنامج توسعي في البلاد العربية وخاصة في المناطق الغنية بالبتروال والتي تريد تحويلها إلى مجال حيوي للشعب المصري الفقير المُعْدَم ، وأن أهداف السياسة المصرية هي التستّر بعباءة القومية العربية لإخفاء هذه المطامع وشن حملات مضادة لأمريكا والغرب لتضليل الرأي العام المصري وصرفه عن التفكير في سوء الأحوال الداخلية . وفي الوقت نفسه تسخر الصحافة الإيطالية من الشعب المصري فتصفه بأنه خليط من الفلاحين الأميين الفقراء تعصف بهم الأمراض ويتكاثرون كالأرانب ويتمرغون في الطين كالتماسيح ، وأنه شعب لا قيمة له سهل الانقياد لأي نظام والخضوع لأية قيادة ، مستغرق في التعصب الديني وكرهية الأجانب ، ليست له رسالة روحية في العالم المعاصر . وترى أن الهوة سحيقة بين الحكام والمحكومين ، وتعدّ هذه ظاهرة تاريخية في مصر منذ القدم . ثم تتناول على زعامة مصر للعالم العربي بتجسيم زعامة إيطاليا على حوض البحر المتوسط عامة والعالم العربي المطلّ عليه خاصة ، وكذلك بالتهويل في شأن زعامة العراق والسلطان محمد الخامس والملك سعود والحبيب بورقيبة بل ولبنان للعالم العربي . والمؤسف أن



الرأى العام الإيطالى بوجه عام قليل الإلمام بالعالم الخارجى لاسيا بالشرق ، سريع المتأثر بما تنشره الصحافة والإذاعة ، يميل إلى التعميم فيتخيل الأقطار الأفريقية كلها كالحبشة التى كانت قبل الحرب العالمية الثانية فى قبضتهم ، والأمم العربية كلها كليبيا التى كانت إحدى مستعمراتهم . وهو مع إعجابه بمصر الفرعونية إلا أن صورتها تهتز بمجرد اعتبارها ضمن الأمم العربية الإسلامية ، ذلك أن كتب التاريخ المتداولة فى المدارس والجامعات الإيطالية عن مصر القديمة دقيقة ومشرقة ، على العكس مما تتضمنه عن العرب والإسلام من تشويه .

ولاعجب أن وقعت أجهزة الصحافة والإذاعة والتلفزيون الإيطالية فى قبضة المؤسسات المرتبطة بإسرائيل إلى حد أن باتت يقظة العالم الإسلامى تقلق الفاتيكان وتشكل فى نظرة خطراً على العالم المسيحى وعلى حركة التبشير المسيحية فى أفريقيا التى بدأت بدورها تتأثر بالإسلام . وقد اقترحت وقتها على القاهرة إنشاء مؤسسة دعاية متشعبة الأطراف تمتد إلى الصحافة والإذاعة بحيث لا تقتصر على روما وحدها بل يكون لها مراكز فى البلاد الإيطالية الهامة لمقاومة الاتجاهات الشائنة والعرضية المحركة للسياسة والدعاية الإيطالية والغربية ، وذلك لإبراز ضخامة وخطورة الكتلة الأفريقية الآسيوية من الناحية الدولية سياسياً واقتصادياً ، والترويج لسياسة الحياد الإيجابى والتعاون مع العناصر الإيطالية المؤيدة لهذه السياسة ، وأشارت إلى قصور المطبوعات والنشرات التى تصدرها مصلحة الاستعلامات عن التأثير على عقلية الشعوب الأجنبية الموجهة إليها ومقاومة أهداف الدعاية الاستعمارية والإسرائيلية المنظمة والدائبة ضد مصر ، فضلاً عن انحصارها فى فئة قليلة من الإيطاليين فلا تحدث أثراً ملحوظاً فى الرأى العام مادامت لا تصل إلى وسائل الدعاية الفعالة كالصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما والمحاضرات العامة .

ومن جانبى أدليت بمحدثين صحفيين مختلفين إلى وكالتى أنباء أنسا وريپوبليكا أذيعا بالراديو فى التاسع من يناير ١٩٥٨ ، ونُشرا بصحف « الهوپولو » لسان حال الحزب الديمقراطى المسيحى ، و« لافوتشى ريبوبليكانا » لسان حال الحزب الجمهورى « والچورنالى ديثاليا » وهى صحيفة مسائية مستقلة ، حاولت فيها الإجابة على شتى الأسئلة التى كانت تدور حول سياسة الحياد الإيجابى التى

التمزتها مصر، وشائعة وقوع مصر في قبضة السوفييت ، وأسباب توتر العلاقات بين مصر والغرب ، وعن العلاقات الاقتصادية بين مصر وإيطاليا وخاصة البترولية منها ، وعن جهود الحكومة في رفع مستوى المعيشة بمصر. ولم تكدمر بضعة أسابيع حتى أدليت بمحدث آخر إلى التليفزيون الإيطالي ، أوضحت فيه الكثير من الأمور الملتبسة على أذهان الرأي العام ، وخاصة تلك التي توجهها الدعاية المضادة وتنفيخ فيها .

وكننت قد انتهزت فرصة تعيين السينور رُوسى لُونجى سكرتير عام وزارة الخارجية سفيراً لدولته في باريس وأقيمت بالسفارة حفل عشاء في الثامن والعشرين من يناير ١٩٥٨ تكريماً له ، وقد حضرها عدد من كبار رجال الخارجية الإيطالية من بينهم السينور فولكى الوكيل البرلماني لوزارة الخارجية وعدد من الزملاء الدبلوماسيين . وقد أبدى روسى لُونجى اهتماماً متزايداً بالأنباء الواردة عن الاتحاد الوشيك بين سوريا ومصر ، ومضى يستوضح منى عن تعداد الدولتين وعن الصورة التى سيتحقق بها الاتحاد وعن موعد إعلانه وعن تفاصيل أخرى لمست فيها أن شيئاً من القلق يساوره ، فطمأنته بأن الاتحاد يتم بناء على رغبة الدولتين ، وأن الكلمة الفاصلة سيقولها الشعبان في استفتاء سيُجرى بشأن هذه الوحدة ، وأن الاتحاد سيبقى مفتوحاً لكل بلد عربى آخر يرغب في الانضمام إليه ، وأكدت له أن مصر تترىث شيئاً قبل الاستجابة إلى رغبة سوريا الملحة في التعجيل بإتمام الاتحاد ، وأنها لا تسعى وراء مصلحة خاصة وإنما نلتى رغبة عارمة للأمة العربية لاسيما أن نصيب مصر من أعباء هذا الاتحاد سيفوق بكثير نصيب سوريا منها . وإذا هو الآخر يبدى خشيته من احتمال تسرب التيارات الشيوعية التى يعتقد الغرب بتغلغلها في سوريا إلى مصر بعد الاتحاد بين الدولتين ، فطمأنته بأن الاتحاد من شأنه إضعاف النفوذ الشيوعى على عكس مايتوقع .

وبعد أسابيع من هذا اللقاء وقعت مصر وسوريا اتفاق الوحدة بينهما في ٢٢ فبراير ١٩٥٨ رغم انتكاس الحركة العربية التحررية في الأردن ، ووجود عقبات كثيرة أهمها بُعد الثقة بين البلدين ووجود اسرائيل بينهما ، واختلاف الوضع الاقتصادى مع انقسام سوريا نفسها إلى ثلاث وحدات اقتصادية متباينة ، ثم طبيعة المجتمع السياسى السورى المستندة إلى أحزاب قامت على أكتاف المصالح

الشخصية لبعض الإقطاعيين وكبار التجار. والحق إن معرفتي بهذه الحقائق التي لا أعتقد أنها كانت خافية على جمال عبدالناصر قد شكّلت لى جملة من المخاوف ولم أتردد فى أن أسطرها فى رسالة شخصية بعثت بها إلى الرئيس ، وقد كان هذا ديدنى معه ، لا أخفى عنه شيئاً من أحاسيسى ما استطعت .

وكان ثمة وفد برلمانى مصرى يزور سوريا لقيته الجماهير هناك بحماس شديد ، وإذا الأحداث تتتابع تتابع السيل الجارف . فلقد كان السوريون يدركون الآثار السيئة لتلك الخلافات التى تقوم بين أحزابهم ورجالاتهم . فعلى حين كان رئيس الجمهورية تتنازعه التيارات الداخلية كان حزب الشعب فزعا من توغل النفوذ السوفييتى ، وكان حزب البعث يرى أنه لا مناص من مناهضة الحزب الشيوعى السورى ، وكان الجيش تتنازعه هو الآخر تيارات مختلفة إلى اليمين وإلى اليسار ، فضلا عما كان بين أجهزة الأمن المتعددة من صراعات عنيفة . هذا إلى خطر داهم تحيّن ما بين طوائف الشعب من خلاف ، فإذا تركيا تحشد حشودها على حدودهم ، ومن وراء تلك الحشود الأسطول الأمريكى السادس . ومن هنا اجتمعت فكرتهم على أنه لا خلاص لهم إلا فى أن يمدوا أيديهم إلى مصر تجمع بينهم وبينها وحدة قوية متينة ، وكانت الوحدة لها أصولها القديمة الممتدة على مدى العصور . ولقد تلقت مصر هذه الدعوة إلى الوحدة فى مبدأ الأمر بأناة وتريث ، إذ كانت ترى أنه لا بد من أن يسبق هذه الوحدة إعداد وتنسيق حتى إذا ما قامت نهضت على أسس قوية ثابتة . وعلى الرغم من هذا فقد خشيت مصر إن هى أبت الوحدة اليوم لتلك الأسباب ، قد يفسرها إخواننا السوريون بأنها محاولة للإفلات منها ، هذا إلى ما كانت تخشاه مصر من أن هذا الحماس قد ينقلب إلى ضده حين ترفض مصر الوحدة . ومن أجل هذا كان لا معدل لعبدالناصر من أن يقبل الوحدة على الوجه الذى رأوه ، غير أنه لم ينس أن يحتاط للأمر فيجعل مقاليد الأمور فى يده مع فترة الانتقال حتى يأمن ما قد يكون من خطر مُداهم من الداخل أو من الخارج .

ولقد اعتاد الغرب على مناهضة كل حركة للتحرر من نفوذ الاستعمار ، وجعل وسيلته إلى ذلك اتهامها بالشيوعية ، ومن بين هذه الدول مصر التى استطاعت أن تخلع عن عنقها ربة الاستعمار ، وإذا هى بعد هذا التحرر تمضى

قدما في سبيل النهوض ، فتؤم قناة السويس ثم تضع يدها في يد سوريا لتقوم وحدة بين الدولتين تكون لها قوتها وهيمنتها على مرور النفط من الخليج الفارسي إلى حوض البحر المتوسط . هذا إلى أن تلك الوحدة الجزئية كانت الخطوة الأولى إلى وحدة عامة بين الدول العربية التي لوتمت لكان لها في المنطقة شأنها المهيبة .

وما من شك في أن قيام هذه الوحدة المصرية السورية قد زلزل عروشاً عربية كثيرة في الشرق العربي : ولقد أحس ملوك العرب هذا الخطر الداهم ، وكان ملك الأردن أسرع ملوك العرب حينذاك مناهضة لتلك الوحدة ، فإذا هويدعو إلى قيام وحدة بين العراق والأردن في ظل الراية الهاشمية . كما لانسى أن الغرب جُبل منذ القدم على مناهضة كل دعوة إلى القومية العربية التي كانت قبل حُلها يراود النفوس ، وحين أصبح هذا الحلم أقرب إلى أن يكون واقعا إذا الدول الغربية تقف له بالمرصاد ، على الرغم من علمها علم اليقين بأن قيام تلك الوحدة بين الدول العربية هو السد المنيع ضد تسرب الشيوعية إلى الشرق العربي .

وكانت الصحيفة الأمريكية « ديلي أميركان » التي تصدر في روما قد نشرت في السابع والعشرين من يناير ١٩٥٨ مقالا افتتاحيا بعنوان « اختيار ناصر » Nasser's Choice هاجم السياسة المصرية ، وهو ما استحثني إلى الرد عليه نظرا لسعة انتشار هذه الصحيفة بين الهيئات الدبلوماسية والجاليات الأجنبية في إيطاليا كما يطالعهها على مدار السنة ما يقرب من مليون سائح أمريكي ، فضلا عن أن للصحيفة علاقة وثيقة بمكتب الاستعلامات الأمريكي بروما ، كما كان هذا المقال أول هجوم صريح من قبل الجريدة على السياسة المصرية منذ شهر نوفمبر ١٩٥٧ حين اشتراها مالك جديد هولاندون ثورن الذي كان قد زارني بمقر السفارة ، وهو رجل معتدل لديه استعداد طيب للحوار والاعتناع دون تعصب . ومنذ ذلك الحين غيّرت الصحيفة من أسلوبها العدائي نحونا حتى جاء هذا المقال طعنا في السياسة المصرية جملة وتفصيلا في الوقت الذي أصبحت فيه الوحدة بين مصر وسوريا وشيكة ، فرأيت أن أرد على المقال بخطاب مفتوح إلى رئيس التحرير الذي نشره في مكان بارز في صدر العدد الصادر في الثاني من فبراير ، كما رجوت القائم بأعمال السفارة السورية في روما بالرد على ما جاء في المقال المذكور فيما يخص سوريا .

كانت الوحدة من حيث توقيتها وصورتها مفاجأة للجميع ، أعنى الكتلتين الشرقية والغربية ، وهو ما يفسر الحذر الذى التزمه ممثلو الكتلتين ، فلم يتعد ترحيب الدوائر الغربية بالوحدة أملها فى أن يتحقق بسببها وقف تسرب الشيوعية إلى سوريا . ومن الناحية الأخرى لم يتعد ترحيب الدوائر الشرقية بها إلا بالقدر الذى يحقق أملها فى منع الغرب من استعادة نفوذه فى سوريا . على أن هذه الوحدة أثبتت للعالم أن سياستنا الفعلية هى الحياد ، وأنها لانسعى إلا إلى تحقيق مصالحنا لا مصالح الغير . كما اهتمت الدوائر الدبلوماسية بهذه الوحدة اهتماما شديدا باعتبارها تجربة غير مسبوقة فى ميدان القانون الدولى والسياسة الدولية ، فلم يسبق فى أى زمن مضى أن اتحدت إرادة دولتين سلميًا ومحض إرادة شعبيها .

ولتحدد سياسة إيطاليا تجاهنا فى تلك الآونة كان ينبغي التمييز بين السياسة الخارجية الإيطالية بوصفها مشروعات حزبية برلمانية وبين الدبلوماسية التى تباشرها وزارة الخارجية كوظيفة ، وبين الجهود التى يبذلها رئيس الجمهورية فى الميدان السياسى والاقتصادى بالتعاون مع النائب المهندس إنريكو ماتى رئيس منظمة البترول الإيطالية « إينى » والسناطور ألدو فاشتى رئيس مؤسسة الإنعاش الصناعى « إيرى » وبين الشفوذ الأجنبى الأمريكى والبريطانى والفرنسى واليابوى ، فكافة هذه التيارات القومية المتضاربة المتنافرة المتجاذبة فيما بينها تجعل السياسة الخارجية الإيطالية تجاه الشرق الأوسط غامضة غاية فى التعقيد والتذبذب بلا اتجاهات ثابتة المعالم . فالتيار الحزبى البرلمانى يتصف بتعدد الآراء فى السياسة الحزبية حتى فى داخل الحزب الواحد ، فعلى حين تتردد أغلب تيارات أحزاب اليمين بين التمسك بالحلف الأطلسى وبين ترجيح كفة أوروبا الصغرى مع استبعاد الأنجلوساكسون تأثرا بالنظرية الفرنسية ، وبين العمل فى إطار أوروبا الغربية بما فى ذلك بريطانيا واستبعاد أمريكا ، والنظر إلى قضايا الشرق الأوسط فى ضوء هذه الاتجاهات فحسب ، تدعو أحزاب اليسار إلى حياد إيطاليا والتعاضد السلمى . وبينما يرى رئيس الجمهورية الإيطالية أن منصبه ليس شكليا كما كان الحال فى فرنسا بل إن له اختصاصات واسعة يخولها له الدستور ، يرّد عليه خصومه فى الحزب المسيحى الديمقراطى وحزب الأحرار بأنه يتعسف فى فهم الدستور ويتجاوز اختصاصاته ويتدخل فى أمور لم يقدم عليها سلفه « إيناودى » . فكانت

سياسة جروونكى الخارجية تقوم على اتخاذ سياسة خارجية استقلالية لا تتأثر بالنفوذ الأجنبي وبالأخص الأمريكى وأن تكون مستوحاة من إيطاليا وإمكانياتها ومركزها في البحر المتوسط ، والسعى إلى سياسة شبه حيادية والتعامل مع الكتلتين الشرقية والغربية مع مقاومة الشيوعية في الداخل ، والتوسع الاقتصادى الإيطالى في الميدان البترولى والصناعى والتجارى في الشرق الأوسط ، ومقاومة الاحتكار الأمريكى البريطانى ، والتعاطف مع استقلال شعوب المنطقة والنهوض بمستواها الاقتصادى والاجتماعى وتأييد الوحدة العربية . وكان يباشر هذه السياسة كما قدمت عن طريق المؤسسات الحكومية المستقلة التى تصطدم مصالحها بمقاومة الولايات المتحدة والاحتكارات الأمريكية والبريطانية .

وكان للولايات المتحدة نفوذ قوى في تيارى اليمين والوسط بالحزب الديمقراطى المسيحى وفي الحزب الاشتراكى الديمقراطى الذى يتلقى مساعدات مالية همة من الثرى الأمريكى الإيطالى الأصل « أنطونينى » . كما كان لإنجلترا نفوذ قوى في حزب الأحرار والحزب الملكى الوطنى وبين طبقة النبلاء والماسونية وأقطاب وزارة الخارجية المنحدرين من عائلات نبيلة . وكذلك كان لفرنسا نفوذ قوى في الدوائر الثقافية والفاتيكان والحزب الجمهورى ، في حين كانت إسبانيا تقدم مساعدات قيمة للحركة الاجتماعية الإيطالية « الفاشية » وتمارس وسطها نفوذا قويا . وكانت للكنيسة سيطرة غير مباشرة على الحياة الإيطالية وبخاصة عن طريق الحزب الديمقراطى المسيحى ، وإن كانت تصادف معارضة من الأحزاب العلمانية [ الأحرار والجمهورى والاشتراكى الديمقراطى ] وكذلك من الحزبين الشيوعى والاشتراكى .

وقد تبين لى أنه ماتكاد المشروعات الحزبية البرلمانية للسياسة الخارجية تنتقل إلى وزارة الخارجية حتى تتخذ طابعا غامضا مرنا ، ومرّة ذلك إلى تعذر الثبات على خطط محدّدة نظرا لتضارب وجهات النظر الحزبية وقلقها . ولذا تتسم سياسة الوزارة بالغموض والمرونة وعدم التورط في أى نزاع والوقوف بقدر ماتستطيع موقف الوسيط الساعى إلى التوفيق بين المتنازعين ، فهى تارة تعلن استعدادها للتوفيق بين العرب وإسرائيل وتارة بين فرنسا وبلاد شمال أفريقيا ، وتارة تعرب عن شعور المودة لمصر وسوريا واليمن ودول حلف بغداد وغيرها ، وتتوخى عدم الالتزام

بتعهدات صريحة كما تميل إلى اتخاذ المواقف والتصريحات التي تحتل كل تأويل وتبرير وتفسير.

ولم يكن إعلان الوحدة بين مصر وسوريا مفاجأة للحكومة الإيطالية ، فقد باتت كما سبق أن بيّنت تتوقع ذلك منذ وقت بعيد ، غير أنها كانت تنظر بعين الحذر إلى توسع الجمهورية العربية المتحدة واحتوائها لدول عربية أخرى في المستقبل ، إذ كانت تخشى الإخلال بالتوازن الدولي في حوض البحر المتوسط الذى يشغل العرب ساحله المواجه لأوروبا الممتد من جبل طارق إلى الإسكندورة بما قد يضعف مكانة إيطاليا . على أن الدوائر الرسمية الإيطالية باتت مقتنعة تماما بأن نظام الحكم المصرى وقتذاك له من القوة ما يحول في الحاضر والمستقبل دون انتشار الشيوعية في مصر وسوريا ، وأنه من الخطأ النظر إلى مشاكل العالم العربى بالمعايير الغربية التى تقيس المسائل في ضوء الصراع والتوازن بين الكتلتين الغربية والشيوعية . فإن هذا التعميم إن صدق على أوروبا فإنه لا يصدق على العالم العربى الذى تعود خصومته للغرب إلى مساندته المطلقة لإسرائيل وإلى توجس العرب من عودة المطامع الاستعمارية ، ثم إلى نعرات داخلية وطنية ودينية وأحقاد قديمة ومعضلات اقتصادية واجتماعية ليس لها دخل بالصراع المذهبى .

كما غدت هذه الدوائر مقتنعة بأن ولاية الأمور في مصر وسوريا لم يكونوا أداة للسياسة السوفييتية ولا يتلقون التوجيهات من حكومة موسكو ، ولكن سياسة الحياد الإيجابى والتعايش السلمى والتعامل مع الكتلة السوفييتية التى تجرى عليها مصر وسوريا واليمن وأغلب البلاد الأفريقية والآسيوية تفسد على الغرب خططه السياسية والاستراتيجية والاقتصادية . في شمالى أفريقيا والشرق الأوسط وتهدد مسالك البحر المتوسط والبحر الأحمر ومضايقها ، فهى من ثم متوائمة — بصفة غير مباشرة — مع السياسة السوفييتية . كذلك كانت الحكومة الإيطالية متخوفة من التهديد الدائم لاستقرار المراكز الغربية في المنطقة ، ومن تعرض القواعد الجوية الأمريكية في مراكش وقاعدة بيزرته في تونس والقاعدة الأمريكية في ولاية طرابلس الغرب والقاعدة البريطانية في برقة وقواعد الشرق الأوسط البريطانية في عدن وكينيا للانهيار ، فضلاً عن تعرض الخطوط الدفاعية الإيطالية الأمامية للغزو ، إذ أن إيطاليا هى البلد الغربى الوحيد الذى يكاد يلامس الساحل

الأفريقي . هذا إلى اعتقاد السلطات الإيطالية كذلك بأن السياسة الروسية ترمى إلى القيام بخطوتين في حوض البحر المتوسط سعيا منها إلى مناهضة النفوذ الغربى ، أولاهما : استمالة وتأييد البلاد العربية الساخطة على الغرب وتوسيع نطاق التبادل الاقتصادى معها توطئة لتنشيط خطوط الملاحة السوفييتية في حوض البحر المتوسط ، وثانيتهما : إثارة مشكلة حرية الملاحة عبر مضيق الدردنيل من جانب وتعزى قاعدة الغواصات والصواريخ في ألبانيا المهددة لإيطاليا في الأدرى من جانب آخر ، يضاف إلى كل ذلك حتمية نزوح الجاليات الإيطالية الكثيفة المزدهرة في البلاد العربية وتهديد مصالحها وأعمالها وما يستتبع عودة جماعاتها إلى بلادها من زيادة عدد المتعطلين حيث البطالة مشكلة المشاكل في إيطاليا ، لا اعتقاد الحكومة بأن الحركات الاستقلالية والقومية العربية تكون دوما مقرونة بالتأميم والتخلص من الأجانب ، وأن مصر باتت قدوة لسائر البلاد العربية في هذا المجال . ولم يكن يفوتنا أن محاولات الحكومة الإيطالية وقتذاك للتقرب من الدول العربية في نفس الوقت الذى تحافظ فيه على الارتباط التام بالدول الغربية وأحلافها إنما هى وسيلة لتنفيذها إلى أسواق الدول العربية ودول الشرق الأوسط . ومع أنه لم يرغب عن أذهاننا ارتباط إيطاليا بالسياسة الغربية وإمكان خضوعها الكامل للضغط الغربى فقد حرصنا على توثيق علاقتنا بها عبر التعاون الاقتصادى .

\* \* \*

وخلال شهر فبراير تلقيت رسالة من جوجولدن يلخ فيها على لقائى فاستقبلته بمكتبى بالسفارة ، وقد اتخذت المقابلة طابعا غربيا ، إذ استهل حديثه بتهنئى بقيام الجمهورية العربية المتحدة معلقا بأنها تعد في الحق الثورة الثانية بعد ثورة عام ١٩٥٢ ، وأنه قد آن الأوان لسوريا أن تحظى بلون من الاستقرار . وبعد استعراض عام للأحداث الدولية عرج خلاله على صعوبة الحياة حاليا في باريس تحت وطأة النظام البوليسى الصارم مما اضطره إلى أن يطلب من رئيسه جولدمان تغيير مقر عمله من باريس إلى روما ، استأذنى في طرق الموضوع الذى اعترف أنه جاء من أجله بصراحة فقال : الآن وقد ظهرت الجمهورية العربية المتحدة إلى الوجود ، يبدو جليا أن حدودا مشتركة ينبغى أن تربط بين طرفيها ، وأن الفريسة



الأولى ستكون الأردن بطبيعة الحال ، أما الفريسة الثانية فهي بلاشك اسرائيل ، ولذلك فإن الخطر الذى تخشاه الأخيرة هو اللحظة التى تقوم فيها الجمهورية العربية المتحدة أو العراق أو السعودية بالتهام الأردن وتوزيعها بينهم . ساعتها لن تستطيع حكومة فى اسرائيل أن توقف جنود بن جوريون المتحمسين عن التقدم لاحتلال الضفة الغربية من الأردن ، وذلك حماية لوطنهم وتأميناً لمراكز دفاعهم على الحدود بالاستناد إلى سلسلة الجبال شرقى نهر الأردن كحاجز طبيعى ضد أى هجوم من الدول العربية فى المستقبل . وبطبيعة الحال لن تعوز اسرائيل وسيلة تتذرع بها ، فحسبها أن « الوضع القائم » قد تغير فى المنطقة كلها ، ومن ثم ستكون فى حِلٍّ من تعديل حدودها بما يوفر لها الأمن والسلامة .

فسألته : أكان هذا رأيك وحدك الذى تعبّره عن فكر جولدمان أم هو رأى السلطات الإسرائيلية ، فعلمى أنك ورئيسك معنيان — كما تقول لى — بإحلال السلام ، أما عن السلطة الإسرائيلية فعلمى أنها دائبة على استخدام التهديد والوعيد . فأجابنى بأنه إنما كان يناقش هذا الاحتمال وخطورته على المحاولات السلمية التى يبذلها مع رئيسه ليجد حلاً يمكن بواسطته تجنّب المخطور ، ومن ثم أشار عليه جولدمان بمقابلتى للتشاور والتفكير سوياً بصوت عال ، وليؤكد لى مرة أخرى استعداد جولدمان لمقابلة المسؤولين المصريين للحيلولة دون قيام الجمهورية العربية المتحدة بالخطوة التى لا مفر من قيامها بها ، ولتفادى رد الفعل المتوقع من جانب اسرائيل .

وسألته عما إذا كان القائد الإسرائيلى الذى يزعم القيام بهذه المغامرة قد أحسن تقدير حساباته وما قد يترتب عليها من مخاطر بالنسبة لجيشه وعن مدى احتمالات اتساع نطاق القتال . فأجاب بأن الحرب تبدأ عادة دون أن نعرف نتائجها ، ثم أردف بأساً وكأنه يحلم : أتعرف ماذا اقترحت على جولدمان كحل لهذه المشكلة التى نندفع صوبها ؟ لقد أشرت بأن نمنح الجمهورية العربية المتحدة ممراً يربط بين إقليمها الشمالى والجنوبى عبر اسرائيل ، وبذلك نوفر عليكم وعلى أنفسنا متاعب لاحتلالها . ترى هل يمكن لرئيس وزراء اسرائيل أن يتقدم بمثل هذا الاقتراح للجمهورية العربية المتحدة دليلاً على صدق النية ، وماذا سيكون صدق مثل هذا الاقتراح لديكم ؟

وغادرنى جولدن على أمل أن يجد لدى في زيارة قادمة إجابة أو اقتراحا لوسيلة  
ما لتجنب الوقوع في مثل هذا المأزق الذى افترض احتمال وقوعه .

\* \* \*

وكنت قد تلقيت في يوم ١٨ فبراير ١٩٥٨ مطروفا بالبريد العادى يحمل  
الشارة الرسمية لإسرائيل ، وإذا به رسالة من سفير إسرائيل إليا هوساسون هذه  
ترجمتها :

سرى وشخصى  
سيادة السفير

على الرغم من أنى لم أشرف بمعرفتك ومن عدم قيام علاقات دبلوماسية بكل  
أسف بين بلدينا ، فإنى أبادربأن أسمح لنفسى أن أتوجه إليكم بكل صراحة  
وإخلاص بصفة شخصية وسرية كى أبلغكم أنه في مساء الاثنين ١٠ فبراير ١٩٥٨  
أعلنت إذاعة القاهرة الناطقة بالعبرية بأنه : « عندما تم وحدة الدول العربية ستجد  
إسرائيل نفسها بين خيارين ، فلما أن تعيش معزولة تحت وطأة الضغط الذى  
يتهددها ، وإما أن تندرج ضمن هذه الوحدة . ونحن نعتقد أن مثل هذا الانضمام  
يمكن مع استطاعة اليهود في هذه الحالة الاحتفاظ باستقلالهم الداخلى مستمتعين  
بحريتهم التامة ويتابعون التعاون ضمن الوحدة العربية بكل ماتحمله كلمة التعاون من  
معنى وفي كل المجالات . وهكذا يكتب الختام للصراع العربى الاسرائيلى . هذا هو  
الحل المناسب للقضية الفلسطينية من خلال احتواء إسرائيل في الوحدة العربية  
احتواء تاما أى التعاون داخل الوحدة من أجل صالح الشعب كله .

ومع اقتناعى اليوم كما كنت مقتنعا بالأمس بأن الطريق لم يُغلق بعد أمام حل  
مُرض بين إسرائيل والدول العربية عامة وبين إسرائيل ومصر خاصة ، فإنه من الأهمية  
الكبرى بالنسبة لى أن أعلم من شخصية مسئولة مخولة مثل سيادتكم إذا ما كان  
النص الذى أذيع باللغة العبرية في الإذاعة المصرية يمثل بحق تفكيراً جدياً من جانب  
قادة مصر ، وإذا ما كان يعبر عملياً عن إمكانية مناقشة هذا الموضوع جدياً مع ممثلين  
رسميين لإسرائيل . فإذا اتضحت لى هذه النقاط فإنى على استعداد لاتخاذ المبادأة  
بالرجوع إلى رئيس الوزراء السيد دافيد بن جوريون ووزيرة الخارجية السيدة جولدا  
مائير اللذين يولياني ثقتها التامة لأطلب منها في سرية تامة دراسة النص المذاع من  
راديو القاهرة ، وألا يعدونه مجرد بث بغرض الدعاية البهتة .

وأحب أن أؤكد لسيادتكم أن نواياي الطيبة ورغبتى الشديدة في رؤية السلام والاستقرار يفرغان على منطقة الشرق الأوسط هما العاملان الوحيدان اللذان حفزاني إلى الكتابة إليكم متحملا منذ هذه اللحظة فصاعدا كل ما يترتب على هذه الخطوة من جانبي من مسئولية شخصية . وإنني في الوقت نفسه أرحب بلقائكم في سرية مطلقة في اليوم والساعة والمكان الذي تحدّدونه كي ألتقى الإيضاحات اللازمة نحو هذا الموضوع ، ولا أخفى عليكم مدى سعادتي إذا ما استجبت بقبول اقتراحي . وإن رقم تليفوني الخاص في المنزل هو ٨٥٩١١٧ وأنسب الأوقات للاتصال بى شخصيا ما بين الثامنة والتاسعة صباحا ... وتفضلوا بقبول فائق التقدير.

وحين استفسرت من القاهرة عن حقيقة هذا الموضوع اتضح أنها مبادرة شخصية من المذيع نابعة من تلقاء نفسه دون أن تكون انعكاسا لفكر القيادة المصرية ، وهو ما أسفر عن إنشاء مراقبة للبرنامج العبرى لتوجيهه بعناية ودقة ، ومن ناحيتي لم أرايدعوا إلى الرد على السفير.

وبعد حوالي شهر طلب جوجولدن مقابلتي لأمر هام فحدّدت له صباح الاثنين ٢٤ مارس موعدا للزيارة بمقر السفارة ، فبادرنى بقوله إنه قادم لتوه من إسرائيل لإبلاغى بأنها ستشهد تغييرات واسعة عقب الانتخابات القادمة التى سستتمخض عن نتائج توجّه السياسة الإسرائيلية العامة اتجاها إيجابيا يواكب تطور الأمور في الشرق الأوسط ، وأن ناحوم جولدمان - الذى ما يزال موجودا بإسرائيل - قد حوّل الاتصال بى ليسألنى كيف الخروج من الموقف الراهن . ثم استطرد قائلا إنه بمضى الوقت تبين لإسرائيل أن الحاكم الوحيد الجدير بالاحترام في الدول العربية كلها هو الرئيس جمال عبدالناصر ، وإن هذا التقدير ليس لمجرد المجاملة بل هو حقيقة ملموسة في كافة الدوائر الإسرائيلية ، فالعراق يحكمه نظام مضطرب والأردن دولة مفتعلة والسعودية تغط في غياهب العصور الوسطى ، أما الوحدة النامية بين مصر وسوريا فتعبر عن تطور جديد يجدر بإسرائيل إدراكه والتفاهم معه . وهناك أمر من اثنين : إما أن الرئيس عبدالناصر ينوى القضاء على إسرائيل ولسنا نعتقد أنه يُضمر هذه النية ، وإما أنه سيصل في النهاية إلى تفاهم واقعى مع إسرائيل . فإذا كان الأمر الأول فلا فائدة تُرجى من مثل هذه المناقشة . أما إذا كان الأمر الثانى فإن ناحوم جولدمان مستعد للقاءه في أى مكان ، وأنه

يقترح فتح المسارين الحدود السورية ومصر عبر إسرائيل نظير السماح للسفن الإسرائيلية بعبور قناة السويس ، على أن تكون هذه المقابلة فاتحة لمناقشات مجدية بصدد المشكلات القائمة ولتصوّر حلول عملية مرضية للطرفين .

وكان تعليقى على هذا العرض بأن فكرة المرتبدو عبثية ، فن غير المعقول قبولنا مرمى تحت رحمة الإسرائيليين من بدايته إلى نهايته . فأسرع قائلا إن فكرة الممر ليست هى الحل النهائى المقترح ولكنها مجرد نقطة بداية نستطيع على ضوءها اختيار حلول كثيرة . واستطرد يشرح كيف أن شخصية جولدمان تعد الشخصية الأولى فى العالم اليهودى ، وأنه الشخص الوحيد الذى انتخب بالإجماع ليكون رئيسا لكل من المؤتمر اليهودى العالمى والمنظمة الصهيونية العالمية ، نظرا لمكانته الدولية المرموقة ، وكيف أنه سيتقدم فى اللحظة المناسبة [ قبيل الانتخابات المزمعة بعد بضعة شهور ] لاتخاذ خطوات فعالة نحو استتباب السلام . ومضى يؤكد أن مركز جولدمان فى إسرائيل بات قويا خاصة بعد أن تمكن من زعزعة قداسة زعامة بن جوريون ، وأنه صرح منذ أيام قليلة فى اجتماع عام بأن إسرائيل لم يخلقها بن جوريون كما أننا لن نسمح له بأن يهدمها . وألمح فى حديثه إلى أن السلطات الإسرائيلية قد أرضاها منح مصر لغزة نوعا من الإدارة الذاتية لا يشكل كيانا كاملا لدولة تسترتب عليه عواقب أخرى ، وأن هذا الإجراء جاء مهدئا للخواطر . وختم حديثه بالعودة إلى موضوع الحياد الذى أثاره معى فى عام ١٩٥٧ والذى أشار إليه جولدمان فى مذكرته إلى نهر .

وحين سألته كيف يحققون هذا الحياد واقتصادهم كله قائم على الإعانات الأمر يكتسب والتعويضات الألمانية ، جاء رده بعيدا عن الإقناع إذ قال : إن عدد يهود العالم يبلغ ١١ مليونا منهم ٤ ملايين فى روسيا و٤ ملايين فى الولايات المتحدة ، ومن ثم فإن الوضع الطبيعى لإسرائيل هو ألا تنحاز لأى معسكر بل أن تبقى فى الوسط .

\* \* \*

وكان لإعلان نبأ زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا وقع كبير فى مختلف الأوساط . وكانت الحكومة الإيطالية والرئيس جرونكى يتلهفون على أن تتم هذه الزيارة فى شهر يونيه ١٩٥٨ أو يوليه على الأكثر بينما كانت القاهرة تفضل شهر

سبتمبر. وعلى حين كانت عامة الشعب الإيطالية ترحّب بالزيارة كان المعارضون للزيارة من المتعصبين لحلف الأطلسي والرجعيين وكبار الرأسماليين المرتبطين بمصالح شخصية مع فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة. وفي حديث مع سنيور فولكي وكيل وزارة الخارجية البرلماني أبلغني أن سفير فرنسا قد جاءه محتجا على هذه الزيارة المرتقبة وأنه ردّ عليه بقوله : « دعونا نتنفس بعض الشيء » .

كذلك كانت بريطانيا والولايات المتحدة معاديتين لهذه الزيارة ، وقد علمت أن هوهلر الوزير المفوض بالسفارة البريطانية قد سعى لدى السفير الأمريكي زلرباخ ليعمل على تعويق هذه الزيارة بتأليب الصحافة الإيطالية والعالمية ضد هذه الزيارة للتأثير على الرأي العام . وسرعان ما ظهرت الحملة الصحفية المدبّرة ضد زيارة الرئيس عبد الناصر لإيطاليا التي استمر أوارها خلال شهر فبراير ١٩٥٨ ، فرأيت أن ألتقي بسكرتير عام وزارة الخارجية السفير ألساندريني في ٢٥ فبراير ١٩٥٨ ، وحين أعربت له عن ضيقنا بالحملة التي شنتها بعض الأوساط حول إعلان نبا الزيارة مضى يهوّن من قلقي مفسّرا الحملة بأنها أحد مظاهر المعركة الانتخابية القادمة ، ومن ثمّ يمكن اعتبارها مسألة داخلية لا تلبث أن تهدأ سرّيعا .

وكانت صحيفة « الميساجيرو » من أبرز مهاجمي الزيارة ، وكان هذا طبيعيا نظرا للعلاقة الوثيقة بين أصحابها وكبار رجال المال والصناعة في فرنسا . كما كانت صحيفة « الكورييري ديلا سيرا » لسان حال الصناعات الكبرى في شمال إيطاليا تخشى السياسة التحرّرية التي تدعوها مصر لاعتقادها بأنها ستسُدّ الطريق أمام طموحاتها الاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط . وعلى حين رأت أحزاب اليسار أن هذه الزيارة تعدّ عهدا جديدا تتحول فيه سياسة إيطاليا عن الارتباط المطلق بحلف الأطلسي ، رأت أحزاب اليمين والوسط فيها التواء خطيرا في سياسة الحكومة الإيطالية تجاه الغرب ينال من تضامن دُوله .

وفي الثالث والعشرين من فبراير اجتمع وزير الخارجية الإيطالي بزعماء شُعَب الحزب الديمقراطي المسيحي بمدينة « ببيلا » وألقى خطابا أوضح فيه موقف الحكومة الرسمي من الزيارة وعلاقة إيطاليا بالعالم العربي والدول الغربية ، فقال إن أوهام الشيوعيين تثير فيه السخرية لأن سياسة إيطاليا الخارجية لن تتحول قيد

شعرة عن حلف الأطلسي والاتحاد الأوروبي ، وإن ما تُبديه إيطاليا في الوقت نفسه نحو العرب من اهتمام وصداقة لا يخفى وراءه أية خدعة ، لأن سياسة إيطاليا نحو الدول العربية جزء مكمل لسياسة إيطاليا الثابتة تجاه الحلف الأطلسي ووحدة أوروبا ، وتهدف إلى التعاون مع الشعوب الحديثة الاستقلال التي تتطلع إلى المشاركة في الحياة الدولية وتجاهد لتثبيت دعائم استقلالها وزيادة قدرتها على الدفاع عن نفسها تجاه ما يهددها من أخطار الاستعمار السوفييتي ، وإن زيارة الرئيس عبدالناصر تدخل في هذا الإطار. ثم إن سعى إيطاليا نحو صداقة العالم العربي لن يكون على حساب صداقتها بالعالم الغربي بل إنها تتطلع إلى هذه الصداقة لصالح الغرب ، وكذا لن تكون هذه الصداقة إعراضاً عن إسرائيل ، فحلّ مشكلة الشرق الأوسط الدقيقة رهناً بالتعاون الصادق بين الحكومات الغربية والعربية . كما أوضح أن زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا لا تعنى اقتصر الحكومة الإيطالية على صداقة دولة عربية واحدة بل إنها تهدف إلى صداقة العرب جميعاً . وذَكَرَ التوزير الإيطالي مستمعيه بأن عشرات الألوف من الإيطاليين يعيشون في مصر وأن علاقات إيطاليا مع مصر تقوم على أساس من الصداقة التقليدية التي توثقت عراها منذ زمن بعيد ، ولدى إيطاليا الرغبة في رعايتها وتقويتها ، وهي بذلك تكون قد راعت مصالح العالم الغربي أيضاً . وهكذا استهدف حديث وزير الخارجية إزالة مخاوف أعضاء الحزب المتمسكين بأهداف السياسة الأطلسية وطمأنتهم إلى أن اتباع سياسة أطلسية لا يتنافى مع إنشاء صداقات مع العرب ، كما أكد للغرب في مجموعه تقديره لإسرائيل وللكتل المختلفة القائمة في منطقة الشرق الأوسط ، ما ينتمي منها لحلف بغداد وما ينعم منها برعاية الولايات المتحدة أو بريطانيا ، كما طمأن الكتلة التحررية الحيادية إلى أن إيطاليا لا ترى مصلحة في اتباعها سياسة استعمارية تقوم على التفرقة بين الشعوب .

وفي حفل استقبال بدار السفارة الروسية في الثاني والعشرين من فبراير ١٩٥٨ بادرني السفير كوزيريف بمجرد مصافحتي بالسؤال عن صحة النبأ الخاص بزيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا . وأجبت بـأن الزيارة قد تحدد لها شهر يونيه أو يوليه ، فإذا به يسألني عن سر حملات الصحف على فكرة الدعوة ، ثم انتقل إلى الإفصاح عن هدفه من السؤال وهو ما إذا كانت إيطاليا ستقوم بتقريب وجهات

النظر بين مصر من جهة وبين بريطانيا وفرنسا من جهة أخرى ، وعما إذا كان الهدف من الزيارة هو استدراجنا إلى الأحلاف الغربية ، وبطبيعة الحال بددت له مخافة حتى لا يكون ثمة لبس .

والغريب أن الصحافة المصرية لم تحرك ساكنا بالاحتجاج على ما أثارته الصحافة الإيطالية ضد زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا ، ولا الإذاعة المصرية هي الأخرى ، الأمر الذى جعل السلطات الإيطالية تظن أن هذا الأمر لا يعنينا بقليل أو كثير . هذا إلى أن هذا السكوت قد يفسر بأنه من قبيل الضعف والاستكانة ، لاسيما أننا لم نكن المُطالبين بتوجيه الدعوة إلى الرئيس ، بل هي الحكومة الإيطالية التى كانت تتطلع إلى اكتساب مركز خاص فى الشرق الأوسط والبحر المتوسط ، ثم محاولة جذب سياستنا نحو الغرب . وعلى الرغم من دفاع السلطات الرسمية على لسان وزير الخارجية الإيطالية عن دعوتها للرئيس عبدالناصر ، فلقد كان هذا الدفاع تبريرا حزبيا فحسب ، على حين لم يحمل دفاع سكرتير عام وزارة الخارجية صفة العلانية ولم يكن فى الإمكان نشر ما ورد على لسانه أمامي علنا . وقد تبين بعد أن ما شئ من هجوم حول هذه الدعوة فى إيطاليا كان لنا لاعتينا وإن بدا هذا مما يستغربه القارىء ، ودليل على هذا أمران أولهما أنها اضطرت وزير الخارجية إلى كشف أوراقه فاعترف رسميا بأن الغرض الأساسى منها هو بدء سياسة مرسومة لاجتذاب الرئيس عبدالناصر إلى المعسكر الغربى ، وثانيهما أنها أتاحت لنا مزيدا من حرية التصرف ، بمعنى أنه إذا كلنت مصلحتنا فى المستقبل القريب تستلزم العدول عن الزيارة أمكن لنا التذرع بالحملة التى شنت علينا لإلغائها أو تأجيلها . واقترحت على القاهرة إذا كانت النية متجهة إلى إتمام الزيارة بالبدء فى حملة صحفية محدودة من دمشق تردها صحافة القاهرة مع تشديدها وتوسيع نطاقها فى المستقبل إذا تغيرت الظروف ودعت إلى العدول عن الزيارة . أما إذا كانت المصلحة تقضى بالعدول عن الزيارة فيحسن تنظيم حملة واسعة شديدة اللهجة تبدأ من القاهرة ثم تردها دمشق ، عل أن يعالج هذا الأمر بحيث لا تُقطع الجسور بيننا وبين إيطاليا لا تقديرا منى للاعتبارات السياسية فحسب ، بل وللاعتبارات الاقتصادية بين الدولتين وهى أهم الاعتبارات .

وقد رأيت تسجيل احتجاجي رسميا على تلك الحملة الصحفية فانتهزت فرصة ظهور مقال بمجلة « جنتي » بقلم سكرتير عام حزب الأحرار ضد الزيارة ، ومقال آخر بصحيفة « كوريري ديلاناسيونى » تناول صاحبه على شخص الرئيس ، فقصدت السنيور فولكى وكيل وزارة الخارجية البرلماني في ١٤ مارس وقدمت له احتجاجي على الحملة بأسرها فأبدى أسفه الشديد متذعرا بأن نفس الكاتب قد هاجم الحكومة الإيطالية ورئيس الجمهورية . ثم تطرق الحديث إلى موعد الزيارة وعلاقته بموعد الانتخابات التشريعية فحددها باليوم الثامن من يونيه ذاكرا أنهم بحاجة إلى ثلاثة أسابيع حتى يقف البرلمان الجديد على قدميه ويتم تشكيل حكومة مستقرة ، ولذلك فهو يعتقد أن الزيارة لن تتم قبل منتصف يوليو . وهنا ذكرت أنه بأن اختيار الفترة ما بين يونيه ويوليه كان اقتراحا إيطاليا قبلناه نزولا على رغبتهم . أما الأمر كما يقول فلماذا لا نرجى الزيارة إلى الخريف ؟ فوجد بإبلاغ الرئيس جرونكى بذلك على أن أعود لزيارته بعد أسبوع لإخطاري بالنتيجة .

وكانت قد وصلتني خلال شهر مارس معلومات من مصدر فرنسي موثوق به أن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا قد انعقدت نيتهم على الخلاص من الرئيس عبدالناصر بأية وسيلة وبأى ثمن لإنقاذ موقفهم في الشرق الأوسط وأن أموالا ضخمة قد رُصدت لهذا الغرض . وقد عقدت اجتماعا لأعضاء السفارة تداولنا خلاله الرأي بصدد تحقيق هذه الزيارة أو العدول عنها إزاء كافة الظروف المحيطة والأخطار المترتبة بالرئيس ، وأسفر الاجتماع الذى استغرق وقتا طويلا عن أن الزيارة مخاطرة أكيدة تقابلها فوائد مادية غير أكيدة أو محدودة أو مقرونة بشروط فى أغلب الظن ودون أى تكافؤ ، وكانت نتيجة الاجتماع التوصية بالعدول عن الزيارة أو على الأقل الإرجاء والتسويق . وبطبيعة الحال أوضحت للقاهرة كل الظروف المحيطة ، وما استقر عليه رأى السفارة .

وحين أبلغنى السنيور فولكى أن الرئيس جرونكى قد حدد موعد الانتخابات في ٢٥ مايو ، وأن الموعد المناسب للزيارة يكون بين أول يوليه ومنتصفه بادرت بإبلاغ القاهرة بذلك ، موصيا بإرجاء الزيارة إلى الخريف حتى تتم فى ظروف مواتية بعيدا عن جو الانتخابات المشتعل والمناقشات البرلمانية الصاخبة ، وبعد أن تكون الحكومة الإيطالية الجديدة قد استقرت فى مقاعدها .



وكان إعلان زيارة الرئيس لإيطاليا قد حفز جايار رئيس وزراء فرنسا إلى طرح مشروع ميثاق القطاع الغربي لحوض البحر المتوسط ، فقد حُتِل إليه أن الرئيس عبد الناصر قد وقع اختياره عن قصد على هذه الفترة بالذات للإعراب عن قبوله الدعوة الموجهة إليه منذ أواخر عام ١٩٥٥ نظرا للأزمة الدقيقة التي كانت تجتازها فرنسا في تونس خاصة وفي شمال أفريقيا بوجه عام ، وأن الحكومة الإيطالية قد اختارت هذه الفترة بالذات على أثر استبعادها من مساعي التوفيق التي بذلتها في بداية الأزمة الفرنسية التونسية وتفضيل المساعي الحميدة الإنجليزية الأمر يكية عليها ، كما أنها سارعت إلى الاعتراف فورا بالجمهورية العربية المتحدة عقب الاستفتاء ، وكان من بين الأساليب الأمر يكية لمقاومة الزيارة أن رُوِّجت عنها تفسيرات لامل لها سخرت منها الدوائر الإيطالية الموالية لفرنسا ، ومؤداها أن العلاقات مع الاتحاد السوفييتي أخذت تثير قلق الرئيس عبد الناصر فبادر إلى الحد من تهافت بعض الأقطاب السوريين على موسكو بالشروع في تأسيس الجمهورية العربية المتحدة كي تصبح بمقوماتها الوطنية العربية درعا واقيا يحول دون توغل النفوذ السوفييتي في مصر وسوريا ، وأن تعزيز الصداقة المصرية الإيطالية بزيارة الرئيس عبد الناصر لإيطاليا يعدّ تمهيدا منه للتقرب إلى الغرب وحفظا للتوازن بين الشرق والغرب الذي يمليه الحياد الإيجابي ، وأن من دلائل هذا التقرب ميل مصر إلى استئناف مفاوضات التعويضات بين مصر وبريطانيا ، وبين مصر وحملة أسهم شركة قناة السويس السابقة في مدينة روما ، وهو ما يدل على أن مصر تعدّ إيطاليا بيئة صالحة لاستعادة العلاقات الطيبة مع الغرب . وردّت الدوائر الفرنسية على هذا التعليل بأنه يتناقض تماما مع الاتفاقين الهامين اللذين وقعا بين الاتحاد السوفييتي وكل من مصر وسوريا قبل اتحادهما ، وأن اختيار روما لإجراء المباحثات تم بموافقة المصريين والبريطانيين لأسباب لاصلة لها إطلاقا بالغرب أوبنسعى مصر للتقرب إليه . أما الغرض من زيارة الرئيس عبد الناصر لإيطاليا في نظر تلك الدوائر [ كما جاء في مشروع جايار للبحر المتوسط ] فينحصر في أن الجمهورية العربية المتحدة التي أصبحت تسيطر على أنابيب البترول العراقي والسعودي الممتدة إلى البحر المتوسط ، تتجه نيتها إلى تأمين أنابيب البترول السورية بالإضافة إلى قناة السويس المؤتممة ، وأن تأمين خطوط نقل البترول والملاحة

البحرية يُعدّ تمهيدا لتأمين مصادر البترول العربية والقيام بضغط اقتصادى على لبنان باعتباره المعبر البحرى المؤدى للمصادر والواردات والأسلحة الغربية إلى العراق والأردن والمملكة السعودية والتحرر من الإقطاع البترولى المتجسم فى شركات « الكارتل » وملوك وأمراء بلاد النفط العربية .

أما الأسباب التى دعت الرئيس عبدالناصر إلى التقرب من إيطاليا دون سائر البلاد الغربية فى نظر هذه الدوائر فهى أن إيطاليا ساخطة لاستبعادها من جميع مصادر البترول فى الشرق الأوسط ولما صادفته من مقاومة مؤسسات الكارتل [ الاحتكارية ] الدولية الأمريكية والبريطانية والفرنسية والهولندية ، كما أن منظمة الزيوت الإيطالية الحكومية المستقلة « إينى » لم توفق إلا فى مصر حيث كانت تستثمر من آبار البترول المصرية نحو ١٥٠ ألف طن شهريا ، أى بمتوسط مليونى طن سنويا قابلة للزيادة المطردة فضلا عن عمليات التنقيب فى مناطق سيناء ، وتنقل نحو نصف نتاج البترول المصرى الخام إلى إيطاليا لتكريره فى معاملها ، على حين أن الاتفاق المبرم بين منظمة « إينى » الإيطالية ومؤسسة الزيوت القومية الإيرانية للبحث عن البترول واستثماره فى مناطق حرة لم يكن قد أدى بعد إلى نتائج ملموسة إذ كان البحث ما يزال جاريا بين صعاب فنية وسياسية ومنافسات شركات الكارتل القوية . وأما عن ليبيا فقد رفضت الحكومة الليبية تحت ضغط الشركات الأمريكية والبريطانية إبرام اتفاق مع الفريق الإيطالى « إينى - أجيب » . ولما كانت الاقتصاديات الإيطالية قائمة على البترول ، فإن تدفقه على إيطاليا كان مرهونا بالإرادة السياسية المتحكمة فى منابع الزيوت وطرق نقلها ، فلم يكن ثمة مناص للسيااسة الإيطالية من أن تماثلها صونا للمصالح ، وإذا أدركت دوائر منظمة « إينى » أن الرئيس عبدالناصر أصبح المهيم من الحقيقى على مقاليد البترول العربى ومصيره بحكم موقع الجمهورية العربية المتحدة ، التقت سياسة البلدين البترولية لمقاومة شركات الكارتل الدولية الاحتكارية والتحرر من الإقطاع البترولى ، وإن لم تكن إيطاليا تنظر بعين الرضا إلى دخول اليابان فى ميدان البترول وإلى توسعها الاقتصادى فى الشرق العربى . ومصر خاصة .

ومن الناحية الاستراتيجية كانت الدوائر الفرنسية ترى أن الجمهورية العربية المتحدة مقبلة على سياسة بحرية جديدة تُملئها الأوضاع والمصالح الحيوية والدفاعية الجديدة ، فالملاحه عبر البحر المتوسط من الإسكندرية إلى اللاذقية تعد وسيلة المواصلات العملية الوحيدة بين الإقليمين المصرى والسورى ، كما أن الملاحة عبر البحر الأحمر بين مضيق باب المندب وقناة السويس هى الطريق إلى اليمن ، وهذان الأمران يدفعان حكومة الجمهورية العربية المتحدة إلى الاتجاه نحو سياسة جديدة لحوض البحر الأبيض والبحر الأحمر المكمل له ، لأن هذا القطاع البحرى ذاته يعد بمثابة خطها الدفاعى ، فضلا عن أنه سبيل البترول العربى إلى الغرب والمنفذ للمصادرات والواردات الغربية . ومن ثم كان تأميم قناة السويس فى نظرهم هو المرحلة الأولى لهذه السياسة البحرية العربية الجديدة التى من شأنها — بحكم وضعها — التحكم فى اقتصاديات الغرب . وهكذا تغدو إسرائيل التى هى رأس الجسر للدول الغربية المتعهددة بحمايتها ، والممتدة على شواطئ البحر المتوسط والمعرضة للطريقين البحرى والبرى بين مصر وسوريا ثغرة فى الجبهة العربية وعقبة بين شطرى الجمهورية الجديدة . ولذلك فلا معدل عن أن تنقلب المعركة القادمة بين الجمهورية المتحدة وإسرائيل من برية إلى بحرية . كما أن مصر تعتمد فى سياستها البحرية الجديدة على مايمتد بها الاتحاد السوفييتى والكتلة الشرقية من الغواصات ، وعلى تحركات قطع من الأسطول الروسى فى البحر المتوسط ، واتجاه روسيا إلى تنظيم خطوط ملاحتها مع الجمهورية المتحدة فى البحر المتوسط لتتصرف منتجاتها والحصول على المواد الأولية كالقطن ، فضلا عن أن قوات الأمن الدولية التابعة للأمم المتحدة المربطة بين مصر وإسرائيل إنما هى قوات برية لاجمريّة وقيامها على الحدود يحمى مصر برّيا . لذلك كان الرد الفرنسى على مساعدة مصر لجبهة التحرير الجزائرية هو التعاون العسكرى والبحرى مع إسرائيل ، فاشتركت قافلة من الطرادات الإسرائيلية مع قطع بحرية وأسراب جوية فرنسية فى مناورات إسرائيلية فرنسية بمياه طولون للتدريب على حماية القوافل البحرية والوقاية من الغواصات [ وقد أشارت إلى ذلك صحيفة « جيروسالم پوست » فى ٣ يناير سنة ١٩٥٨ وصحيفة « لوموند » فى ٥ و ٦ يناير ١٩٥٨ ] وأكدت المصادر الفرنسية والإسرائيلية أن سفنا وقطعا حربية وأفواجا من جنود

البحرية الاسرائيلية قد قضت فترة بمركز التدريب على مقاومة الغواصات بالقاعدة البحرية الفرنسية في طولون، كما أن بعثة عسكرية اسرائيلية تابعة لسلاح المدرعات مؤلفة من ثلاثين ضابطا وصف ضابط وبعض الجنود قضت فترة تدريب على استعمال الدبابات والأسلحة الفرنسية في معسكرات القوات الفرنسية المراقبة في ألمانيا الغربية [ وقد أشارت إلى ذلك صحيفة « ذى چو يش كرونیکل » في ١٤/٢/١٩٥٨ ].

وفي لقاء لي في ٢٦ مارس مع سكرتير عام وزارة الخارجية بمناسبة قرب سفرى إلى القاهرة أبلغنى أنه استعرض مع وزير الخارجية المواعيد اللاحقة لفترة الانتخابات، وتبين أنه يتعذر تأليف حكومة قبل مضى أربعين يوما من إجراء الانتخابات، وهذا لن تكون الزيارة ممكنة قبل نهاية يولية، فكاشفته بأننا كنا أبعد نظرا حين اقترحنا في البداية أن تتم الزيارة في مستهل الخريف. وعند وصولى إلى القاهرة أدليت بتصريح لندوب وكالة أنسا الإيطالية للأبناء بتأجيل موعد الزيارة أدركت معه الحكومة الإيطالية أنها أساءت إلى نفسها نتيجة ترددها، فلاهى حصلت على امتنان القاهرة ولاهى تداركت لوم المعارضين في إيطاليا لمبدأ الزيارة. وقد رأت بعض دوائر سياسية أن التذرع بأن التأجيل تم نتيجة إعلان نأ زيارة جمال عبدالناصر لموسكو لم يكن هذا سوى تلمس لتبرير قرار غير موفق في خد ذاته، ومع ذلك لم ينقطع أمل المسئولين في إيطاليا في أن تتم الزيارة في الظروف الملائمة في نظرهم.

وفي الثامن عشر من أبريل قمت بتقديم أوراق اعتمادى الجديدة بوصفى سفيرا للجمهورية العربية المتحدة إلى السنيور بيلا وزير الخارجية وانتزعت الفرصة لإثارة بعض الموضوعات. فقلت: إننى أبلغت الرئيس برغبة الحكومة الإيطالية في تأجيل الزيارة بمناسبة الانتخابات المقبلة والتطورات البرلمانية المنتظر أن تترتب عليها، وحرصت على أن أوضح أنه عندما قبل الرئيس الموعد الذى سبق تحديده بواسطة السلطات الإيطالية إنما كان يعبر عما يشعر به من تقدير وإعجاب نحو الرئيس جرونكى. ثم أيدفت قائلا إنه من المستحسن والأمر كذلك أن يُترك تحديد موعد الزيارة للتفاهم عليه مع الحكومة المقبلة التى أتمنى أن يكون هو أحد أركانها، فأتمنى على قولى بأنه من الأفضل أن يتم الاتفاق على تحديد الموعد مع

الحكومة الجديدة المتمتعة بثقة البرلمان . وكذا كاشفته بضيقنا من اشتداد تلك الحملات الصحفية الموجهة ضد سياسة الجمهورية العربية المتحدة والتي ذهب بعضها إلى مهاجمة الرئيس شخصياً ، وقلت إنه ينبغي على الحكومة أن تعمل جاهدة على إيجاد الجو المناسب لاستقبال الرئيس حفاظاً على الأثر المرجو من الزيارة . فانبرى يؤكد لى أن ما شعرنا نحن به من مرارة بسبب تلك الحملات هو نفس الشعور الذى شعرت به الحكومة الإيطالية ، ولكنه يعتقد أن حكومة جديدة يؤيدها البرلمان فى خطواتها نحو الدعوة لن تتعرض إلى المهاجمة بطبيعة الحال .

وانتقلت إلى الكشف عن اختلال الميزان التجارى بين البلدين فى السنة الأخيرة ، فبعد أن كان مجموع التبادل المتكافئ بينهما يبلغ حوالى عشرين مليوناً من الجنيهات انخفض إلى نحو النصف ، كما انخفضت بصفة خاصة واردات إيطاليا من مصر الأمر الذى نشأ عنه رصيد كبير لصالح إيطاليا ، وأنه إذا لم تُبذل محاولة جديّة فعالة لإنعاش التبادل التجارى وإعادة التوازن فى المبادلات فلن نستطيع الحصول على الليرة المتعددة الأطراف المطلوبة لتسديد قيمة المنتجات التى نستوردها من إيطاليا ، وهذا من شأنه أن يعرض المبادلات إلى مزيد من الانكماش . وذكرته بأن دولتنا تمضى نحو التصنيع فى خطوات حثيثة وأن رغبة الجهات المسئولة فى القاهرة تتجه إلى الاستعانة بالخبرة الإيطالية قبل غيرها من دول الغرب . فأجاب أن المشكلة فى نظره تنحصر كلها فى كونها مسألة أسعار بالنسبة للتجار من الأفراد وأنه يخشى عدم جدوى تدخل الحكومة فى أمور تتعلق بمصالحهم الذاتية ، ثم أضاف بأنه سيحاول القيام بالمساعدة اللازمة لهذا الغرض لدى الجهات المختصة .

على أنه ينبغي أن أذكر أيضاً أنه كانت هناك أصوات صديقة تجد بين الفينة والفينة طريقها فى الصحافة لتكشف سرّ عدا إنجلترا وفرنسا لمصر بعد التقدم الكبير فى أعمال البحث عن البترول فى أراضيها وإنشاء معامل التكرير بها ، وهما الدولتان اللتان تسعيان للإبقاء على سيطرتها على بترول الشرق الأوسط ، بالإضافة إلى تعميق العلاقات الاقتصادية بين مصر وإيطاليا والمتمثلة فى إشراك الإيطاليين فى حركة التعمير والإنشاء التى قامت فى مصر .

أما موقف السنيور جرونكى رئيس الجمهورية فكان نابضا دائما بالحماسة ،  
و حين لقيته يوم ٣١ مايو بقصر الكويرينالى خلال حفل الاستقبال العام لأعضاء  
السلك السياسى بمناسبة عيد إيطاليا الوطنى فى الثانى من يونيه حدثنى عن  
ارتياحه إلى ما حققه السنيور پتشاى العضو المنتدب لمجلس إدارة مؤسسة « إيتالو  
كونسولت » أثناء زيارته الأخيرة للقاهرة من خطوات إيجابية فى سبيل تنمية  
التبادل التجارى بين البلدين ، وكان الرئيس الإيטالى هو الذى أوفده لهذا  
الغرض . وإذ أعربت له عن رجائى فى أن تكون هذه بداية للطريق الذى تنمو فيه  
العلاقات بين الدولتين صارحنى بأنه يأمل فى أن تتعدى العلاقات هذا الحد وأن  
تتخذ صورة ودية مشبعة بروح التعاون ، ثم أضاف فى النهاية أن لابد وأن نكون قد  
أدركنا المناخ الذى كانت تجتازه إيطاليا خلال فترة الانتخابات والظروف  
النفسيّة الشى أحاطت بها ، وأغلب الظن أنه كان يشير بذلك إشارة عابرة إلى  
موضوع زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا .

وكان وراء هذه الزيارة سرّ لم أتبيّنه على حقيقته ، ولم تكن بحوزتى سوى  
المعلومات التى تجرى على ألسنة المسئولين وغيرهم ، وهذا أمر لا يُعوّل عليه كثيرا  
عند من يشغل بالدبلوماسية . غير أن الأقدار شاءت أن أقع بعد أسابيع قليلة على  
وثائق سرية ثلاثة فيها بيان ماضل غامضا على طيلة تلك الشهور الماضية ، تجلّى  
منها أن الرئيس جرونكى وبعض رجال الصناعة من الإيطاليين البعيدين عن  
الارتباطات الاقتصادية بالولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا كانوا راغبين  
فى أن تتم الزيارة لاعتقادهم بأن ذلك يتفق ومصالح بلادهم فى الشرق الأوسط  
وإن تعارض ذلك مع السياسة الأمريكية . ودليل ذلك أن الرئيس جرونكى هو  
الذى اقترح على زيارة الرئيس عبدالناصر يوم تقديم أوراق اعتمادى فى ٩ نوفمبر  
١٩٥٧ ، ثم إن الوزير سترانيو هو الذى طلب التّ فى ١٣ فبراير ٥٨ أن أسعى  
جهدى لكى تتم الزيارة بين منتصف شهر يونيه ومنتصف شهر يوليه .

وكانت الدوائر الأمريكية على علم تام بأمر الزيارة وبالخطوات التى كانت  
تتخذها وزارة الخارجية الإيطالية بشأنها منذ البداية ، حتى إذا قت فى ١٨ فبراير  
بإبلاغ السلطات الإيطالية بقبول الدعوة من حيث المبدأ أرسل السفير الأمريكى

خطابا شخصيا إلى بيللا أرفق به مذكرة بطلب تأجيل الزيارة أو إلغاؤها . ولم يرض الرئيس جروونكى عن الأسلوب الذى قُدمت به المذكرة إذ لم تُتبع فيه القواعد الدبلوماسية المرعية ، وطلب إبلاغ السفير الأمريكى أن هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى تقبل فيها الحكومة الإيطالية مذكرات أو طلبات بمثل هذه الصورة . بل لقد طلب جروونكى من الوزير بيللا أن يطالب السفير زلرباخ بالتماس عذر لتدخله فى أمر الزيارة ببيان يصدره من السفارة الأمريكية إن لم يجتهد الزيارة فعلى الأقل لا يسبى اعتراضا أمريكيا عليها . وكان جروونكى يرمى بذلك إلى كسب الوقت وإحراج السفارة الأمريكية ووضعها أمام الأمر الواقع بأن يظهر للرأى العام وللصحافة الموالية لأمر يكا والغرب أن زيارة عبدالناصر أمر متفق عليه وأنها تتم برضاء الغرب ، ثم إعطاء وزارة الخارجية الفرصة لإفهام الدوائر المختلفة أن الزيارة فى حكم الأمر المحقق . وقد قامت وزارة الخارجية الإيطالية فعلا وعلى غير العادة بإصدار عدة تصريحات تدور حول هذا المعنى .

وقد وافق زلرباخ على إصدار بيان من سفارته بشأن الزيارة وأبلغ بيللا السفير ماسيمو ماچستراتى مدير عام الشؤون السياسية بالوزارة رسالة يستحثه فيها على المضى فيما سبق أن أحاطه به علما عن زيارة الرئيس عبدالناصر وأرفق برسائله خطاب زلرباخ الذى يقبل فيه إصدار بيان من سفارته ، وأبلغه أن رئاسة الجمهورية إذ لا ترى بأسا من تأجيل الزيارة إلا أنها ترى أن السفير لم يراع فى مذكرته الشكاوى الشكلية الواجبة ، وأنه قد اتخذ اللازم لإفهام زلرباخ أن رئاسة الجمهورية لا ترحب ولن تقبل تبليغا أو طلبات تُقدم على هذا النحو ، وأن الأحوال ستتغير من تلقاء نفسها نظرا لأن أمامهم الوقت الكافى لتحقيق أهدافهم . واتضح من هذه الرسالة أن بيللا قد أذن لماچستراتى بتنفيذ خطة الزيارة التى تتعارض مع طلبات زلرباخ ، وأن هذا الأخير قد أرسل إليه خطابا يقبل بموجبه إصدار بيان من سفارته بشأن الزيارة ، وأن رئاسة الجمهورية تعترض على مذكرة زلرباخ من الناحية الشكلية بالرغم من تظاهرها بقبولها موضوعا ، وأن بيللا بدوره أبلغ زلرباخ رغبة الرئيس جروونكى وطلباته ، وأن وزارة الخارجية تعمل على كسب الوقت . وكان أن أصدرت السفارة الأمريكية فى ٢٦ فبراير تصريحا ماثما تقول فيه : « إن حكومة الولايات المتحدة لاحظت باهتمام أن أول زيارة سيقوم بها الرئيس

عبد الناصر إلى الغرب ستم في إيطاليا ، وهى من الدول التى تعد من أوفى حلفائها ولها خبرة طويلة في مكافحة الشيوعية ، وأن الولايات المتحدة لترجو أن تسفر هذه الزيارة عن نتائج مرضية » .

وبالرغم من ذلك كله تلقى السفير الأمريكى تعليمات صريحة وقاطعة من حكومته بإيقاف الزيارة أو تأجيلها بأى شكل من الأشكال . ولم تتردد السفارة البريطانية في حفز السفارة الأمريكية على تجميع عملائها في الصحف المحلية والعالمية من أجل تأليب الرأى العام ضد هذه الزيارة . على أن الخارجية الإيطالية — والحق يقال — قد تصدت لهذه الحملات الصحفية منذ بدايتها ، غير أن الحملة اتخذت صورة جادة مع انضمام شخصيات لها قيمتها السياسية مثل مالا جودى وبتشاردى من وزراء حزب الأحرار السابقين بعد اتفاق السفارتين البريطانية والأمريكية معها على عرقلة الزيارة .

وفي الثامن من مارس أرسل السفير ألساندرينى سكرتير عام وزارة الخارجية تعليماته — التى وجدت طريقها إلى السفارة المصرية — إلى بروزيو ماتيو السفير الإيطالى في واشنطن ، يبلغه فيها أنه لا يرى أى مانع من مباحثة دالاس حول تاريخ زيارة عبد الناصر ليروما موضحا أن إيطاليا تقبل الاقتراح الأمريكى بتأجيل الزيارة . ثم أردف قائلا : « لست في حاجة إلى الإفصاح — فهذا أمر تعلمه بنفسك — بأن هذا القبول لا يلزم إيطاليا بإلغاء الزيارة ، فإن تحديد موعدها سيتم وفقا لمصلحتنا ، فهذا يتمشى مع الوعد الذى قطعتة الولايات المتحدة على نفسها في سنة ١٩٥٦ بأن تُترك لإيطاليا الحرية في منطقة الشرق الأوسط لا تباع السيادة التى تتفق ومصالحها ، كما أوصيك بأن يكون حديثك مع دالاس بالنسبة لاتجاهات السياسة الخارجية مصطبغا بالطابع الأطلسى والأوربى الخالص » .

وكان الوكيل البرلمانى لوزارة الخارجية قد أدلى في ٤ مايو بتصريح أثناء اجتماع انتخابى بناء على تكليف من الرئيس جرونكى قال فيه : « إننا مع إعلان ولائنا للحلف الغربى لانستطيع إغفال النظر بعين الاعتبار لذلك الواقع الذى ينبثق في منطقة هى أقرب المناطق إلينا تحت ضغط الوعى القومى وبدافع من الوطنية الحادة في بعض دول البحر المتوسط » . وقد علمت فيما بعد من السنيور



فولكى أن هذه العبارة قد أملاها عليه الرئيس جرونكى قبل يومين من إعلانها ، وأن المقصود بها الإشارة إلى مصر والجزائر بصورة غير مباشرة . فهل كان هذا مجرد إظهار لشعور خفى للرئيس جرونكى واقتناعه بضرورة اتباع إيطاليا لسياسة ذاتية بمنطقة الشرق الأوسط ؟ أم أن هذا يدخل فى نطاق حملة غربية واسعة ومنظمة لتعطيل عقد أى اتفاق مع روسيا أثناء زيارة الرئيس عبدالناصر لموسكو؟ أم أن جرونكى قدّر أن هناك احتمالا كبيرا لحدوث تفاهم عميق بين الجمهورية العربية المتحدة وروسيا فحرص على أن يتخذ بصورة أو بأخرى موقفا ذاتيا لإيطاليا فى مواجهة سياسة غربية تتسم بالخطأ أو بسوء النية ؟ وثمة مظهر آخر ينم عن اتجاه الرئيس جرونكى ومبلغ رغبته فى تحقيق أمنيته ، فقد زارنى فى ٢٩ مايو السنيور فورنارى سفير إيطاليا فى مصر قبل عودته إلى القاهرة وتحدث إلى فى الموعد الذى يمكن أن تتم فيه الزيارة ، فأوضحت له أن الزيارة رهن بظروف كثيرة وخاصة بتلك التى تتعلق ببرنامج النشاط الشخصى لرئيس الجمهورية ، وأنه يحسن انتظار قيام حكومة تستند إلى أغلبية مستقرة لتوفير أسباب النجاح المرجو من مثل هذه الزيارة .

ومن هذا اتضح أن زيارة الرئيس عبدالناصر لإيطاليا قد لقيت من العالم الغربى تقديرا خاصا باعتبار أنها حدث سياسى له ما بعده بالنسبة له بوجه عام ومنطقة البحر المتوسط بوجه خاص ، وأن إيطاليا لم تعد تشك فى أن القومية العربية باتت حقيقة آخذة فى النمو والاشتداد ، وأن مبعثها القاهرة وأن عمادها شخصية عبدالناصر ، وأن هذه القومية لم تعد رهنا بمشيئة الغير . كما ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن جرونكى المؤيد من جماعته كان يرغب فى رغبة أكيدة فى تحرير السياسة الإيطالية بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط سعيا وراء مصلحة وطنه ، وأنه حصل من الولايات المتحدة منذ عام ١٩٥٦ على مبدأ الاعتراف بالمصالح الخاصة لإيطاليا فى هذه المنطقة . كذلك تبين أن قيام الجمهورية العربية المتحدة وازدياد قوتها واتساع إمكانياتها والحادية التى تشدّ بها العالم العربى نحوها قد جعلت الغرب يعيد النظر إليها متخوفا من عواقب اتجاهاتها ، الأمر الذى أدى إلى تعطيل المبادرة الإيطالية رغم النية الصادقة فى ضرورة تحقيقها . لقد كانت إيطاليا أضعف من أن تتخلص من قيودها الغربية المرهقة ، ومع ذلك فإنها لم تيأس من العودة إلى بدء سياسة

ذاتية . تُرى هل كان الفتور الذى قوبل به مشروع بيلا للشرق الأوسط مظهرا من مظاهر الضغط الغربى على إيطاليا للكف عن المضى فى سياسة ذاتية ؟

وهكذا إتضح أن الاعتبارات الداخلية والانتخابية كان لها أثرها فى البداية ، وهو الأمر الذى يثبتته الدفاع الذى أبدته وزارة الخارجية مرارا عن الزيارة . غير أن الكف عن الدفاع عنها تارة بالتزام الصمت وتارة بإقتراح التأجيل يدل دلالة أكيدة على أن سيطرة الرئيس جرونكى على وزارة الخارجية لم تكن سيطرة تامة .

\* \* \*

وفى يوم ٣١ مايو جاءنى جوجولدن بمقر السفارة بعد أن حددت له موعدا بناء على طلبه وبعد حديث مستفيض استعرض فيه موقف الجمهورية العربية المتحدة تجاه إسرائيل ، ومشيرا إلى أن إسرائيل كانت تلعب لعبة الكتلتين فى المنطقة وإلى رغبة السواد الأعظم من شباب إسرائيل فى استتباب الأمن والسلام تطرق إلى أن الشهور الستة السابقة قد سلخها ناحوم جولدمان فى إسرائيل لمعارضة سياسة بن جور يون القائمة على أنه لا أمل فى سلام مع الدول العربية ، وأنه نخب إلى حد كبير فى الحشد من شوكة بن جور يون وسطوته التى يعتمد فى بسطها على نظام بوليسى إرهابى . ثم استطرد يقول إن سبب زيارته لى هو سؤالى عما إذا كان قادة الجمهورية العربية ينوون حقا أويضمرون الوصول إلى حل سلمى مع إسرائيل ؟ وفى هذه الحالة تكون الفرصة مواتية لأصحاب فكرة السلام وعلى رأسهم ناحوم جولدمان أن يتخذوا خطوات إيجابية فى هذا السبيل . ولما سألته عما يقصد بالخطوات الإيجابية قال : إن ناحوم جولدمان يسأل هذا السؤال الذى طرحه حتى إذا تلقى ردا بالإيجاب فإنه على استعداد للتنازل عن جنسيته الأمريكية وخوض معركة الانتخابات القادمة ضد بن جور يون جامعا المعارضة حوله مناديا بسياسة جديدة مع الدول العربية يجرى معها فى الوقت نفسه إعداد الرأى العام العربى ، وأنه فى سبيل ذلك على استعداد لمقابلة الرئيس كما سبق أن طلب عدة مرات . أما إذا لم يكن لدى سلطات الجمهورية العربية أية نية نحو الوصول إلى حل مشر مع إسرائيل فهو لا يرى محلا كى يخوض المعركة الانتخابية القادمة التى ستجرى فى بحر ثمانية شهور والتى اختارها بن جور يون هذا الوقت بالذات [ أعنى مرور عشر

سنوات على ميلاد اسرائيل [ لأن الحالة الاقتصادية لن تصل في العام القادم— وهو الموعد الذي كان مقررا للانتخابات — إلى ما وصلت إليه اليوم من « رخاء » حيث أن التعويضات الألمانية قد أوشكت على الانتهاء . وحرص محدثي على أن يذكر لى أن جولدمان هو الشخص الذى أرغم بن جور يون على قبول انسحاب القوات الإسرائيلية من غزة — رغم برقيات أيزنهاور المتواصلة له — مهددا بقطع الإعانة التى يتلقاها من يهود امريكا .

وعندما وعدته بعرض الأمر على القاهرة رجائى الإسراع بإخطاره بالنتيجة حيث أن الوقت قد أزف والمهلة التى يستطيع جولدمان استغلالها لوضع كل ثقله فى المعركة الانتخابية جد قصيرة .

وعاد جولدن فى يوم ٢٥ يونيه ليبلغنى أن ناحوم جولدمان سيصل إلى إيطاليا بعد بضعة أيام للعلاج فى مونتكاتيني لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم أبدى قلقه لأن جولدمان حائر بين حلول ثلاثة : أن يتدخل بنفسه فى المعركة السياسية الداخلية فى اسرائيل ضد بن جور يون سياسته ، وكان قد التقى فى لندن بلفيف من أحزاب اليسار الاسرائيلى لحثه على تكوين تحالف بينه وبينهم لخوض المعركة الانتخابية فى عيد الفصح ضد بن جور يون ، أو أن يعمل على تنسيق سياسته مع سياسة بن جور يون الذى أوفد إليه شيلوخ [ الذى وقّع اتفاقية رودس ] لاستمالة نحو العمل على تنسيق هذه السياسة إذا مارأى اقتحام المعترك السياسى ، أو أن يتبع نصيحة « الوكالة اليهودية العالمية » التى ترى أن يبتعد عن الزّج بنفسه فى محيط السياسة الإسرائيلية وأن يظل بمنأى عن الخلافات الداخلية المحلية ولايتخلى عن صفته العامة أو عن جنسيته الأمريكية . وانتهى إلى أن اختيار جولدمان لأحد الحلول الثلاثة يتوقف على القرار الذى ستتخذه مصر بصدد السؤال الذى طرحه فى المقابلة السابقة ، وهو هل مصر مستعدة لتشجيعه على خوض المعركة السياسية للقضاء على سياسة بن جور يون ومحاولة الوصول إلى سياسة تفاهم مع جيران اسرائيل العرب ، وإذا كان الرد بالإيجاب فهو على استعداد لمقابلة ممثل مصر لمعرفة ما استقر عليه الرأى خلال مدة علاجه بمونتكاتيني ؟

\* \* \*

وفي الرابع والعشرين من يولييه صدرت مجلة « إكسپريس » الفرنسية تتضمن حديثاً لى أجراه معى مراسلها بروما فى مقر السفارة رأيت إثباته فى الحاشية (٢) .

وكان السنيور أمينتورى فانفانى سكرتير عام الحزب الديمقراطى المسيحى قد أقدم على تنفيذ مناورة لحل مجلس الشيوخ فى غير موعده القانونى برغم المعارضة الشديدة التى شنتها أحزاب المعارضة . وكان فانفانى أقوى شخصية فى الحزب وله بعض ميول يسارية فى إطار حزبه جعلته مقرباً من الطبقات العاملة المتديّنة . وكان يطمح فى أن يحصل الحزب على أغلبية تمكنه من الانفراد بالحكم على أن يتولى بنفسه رئاسة الوزارة ، غير أن نتيجة الانتخابات لم تحقق له هذا الأمل وغدا الحزب الديمقراطى المسيحى فى حاجة إلى تأييد أحزاب الوسط الصغرى لتكوين أغلبية برلمانية . وكانت شخصية فانفانى شخصية إيجابية تختلف عن شخصية سلفه الرئيس زولى السلبية ، وكان عليه أن ينتهى إلى حل لقيام تآلف بين حزبه وبين بعض أحزاب الوسط بشرط أن ترضى الشخصيات اليمينية فى حزبه عن هذا الائتلاف الذى توزع فيه المناصب الوزارية بالتراضى ، كما كان عليه إيجاد نوع من التوافق بين سياسة الوزارة الجديدة واتجاهات الرئيس جرونكى السياسية .

وخلال شهر يولييه نشبت أزمة لبنان فحرصتُ على أن تصدر السفارة نشرة صحفية باللغتين الإنجليزية والإيطالية منذ بدء الأزمة توضح حقائق الأزمة رداً على المقالات المعادية فى الصحافة الإيطالية ، وتوزع على كافة الأوساط الصحفية والرسمية والدبلوماسية بروما ، كما أرسلت نسخاً منها إلى قنصلياتنا فى ميلانو وتريستا ونابلى وچنوا لتوزعها فى مناطق اختصاصها . وقد اضطلع بهذه المهمة الشاقة الدقيقة بقدرة فائقة وحاسة بالغة المستشار الصحفى بالسفارة السيد عبد الرحمن صادق . وكنت قد طلبت من الرئيس عبد الناصر موافاتى ببرقيات يومية وافية عن الموقف المصرى إزاء هذا الأزمة ، فأصدر تعليماته إلى السيد حسين ذوالفقار صبرى مستشاره للسياسة الخارجية [ نائب وزير الخارجية فيما بعد ] بأن يمد سائر السفارات المصرية بالخارج ببرقيات يومية عن الموقف أولاً بأول ، وكان للدور الذى أداه هذا الرجل القدير ومساعدته الدكتور مراد غالب [ سفير مصر فى موسكو ووزير الخارجية فيما بعد ] أكبر الأثر فى جعل النشرة الصحفية للسفارة

مطلوبة ومقروعة . كذلك أدليتُ بحديث صحفي أوضح فيه الحقائق ، وكان موقف سفير لبنان منا موقفا متعاطفا فالترم الصمت إزاء ما جاء في نشراتنا الإعلامية وتصرّحاتنا للصحافة .

والتقيت بالسفير ألساندريني في العاشر من يولية وأوضحت له أن سياستنا منذ نشوب هذه الأزمة كانت ومازالت تقوم على المحافظة على استقلال لبنان واحترام حياده. بين التيارات المختلفة في الشرق الأوسط متفقين في ذلك مع السياسة الإيطالية القائمة على ضرورة احترام استقلال لبنان وأن حل الأزمة يجب أن يكون في نطاق الأمم المتحدة ، ثم استطردت شارحا أهمية السلام بالنسبة لدول البحر المتوسط وعلى رأسها إيطاليا . كما عرضت لتقرير همرشولد وكيف أقام الدليل على أن نوايانا الحسنة كانت مطروحة سلفا لإيماننا بأنه لا بد للحق من أن يظهر واضحا ، وأعربت له عن دهشتي من إعلان حكومتى لندن وواشنطن عدم ارتياحهما للتقرير ، وعلّقت بأن هذا عبثٌ بالعالم وبالسلام لأهواء استعمارية للحكومة البريطانية ونزوات شخصية لدالاس . ثم سألتها عما إذا كانت إيطاليا ستستمر في اتباع نفس السياسة غير المتحيزة بشأن لبنان والتي نوهت بها لدى حكومتى ، فانبرى يؤكد أن إيطاليا لن تخرج عن هذه السياسة ، وأضاف أنه يود أن يوضح لى أن حكومته لعبت دورا كبيرا في تهدئة حليفتها وحملها على التزام الروية ، وكرر أن المساعى التي بذلتها إيطاليا لدى حلف الأطلسي وواشنطن ولندن كان لها وزن كبير مما يثبت مبلغ صداقة إيطاليا لنا . ثم استطرد يؤكد أنه لن يقع أى تدخل عسكري إلا إذا حدث تدخل من جهة أخرى . فقاطعتة قائلا : وممن ؟ قال : « صحيح ومن ؟ لكننى أؤكد لك من جديد أنه لن يقع تدخل » وأضاف أن الولايات المتحدة أدركت في النهاية أن المسألة داخلية وأنها مجرد « عناد » من شمعون وأنه إذا تطرف شمعون في سياسته دون موافقة الولايات المتحدة فإنها ستتخلى عنه ، وأن شهاب سيلعب دورا في صالح أمريكا .

وكشفت له العلاقة بين مجلة « تايم » والخارجية الأمريكية ومدى ما لحقنا من افتراء من جراء الحملة الكاذبة للتشهير بنا ولتضليل الرأي العام العالمى وأن كل ما رُمينا به كان باطلا كما أثبتته تقرير همرشولد ، وأضفت أن العادة جرت بأن

تُكّال الاتهامات لنا ، بل وأن نستهدف للعدوان ثم يثبت للعالم وللتاريخ فيما بعد زيلف الآخرين ، ثم رجوته أن يقيس أى اتهام لنا فى المستقبل بمقياس الماضى ، فأؤمن على حديشى قائلاً إنه يكفيننا أن تقرير همرشولد قد أنصفنا . ثم تناولت سياسة دالاس موضحاً كيف أنها تعرض العالم دائماً لخطر الحرب وأنها لا تسير على مبادئ وإنما طبقاً لأهواء شخصية أساسها الضغينة والحقد . ورغماً من أنه بدا على محدثى أنه ضائق شيئاً بما أقول ، فقد استرسلت ولم أشأ التوقف إلى أن انتهيت مما كنت أريد إسماعه له . وفى النهاية أكدت له حرصنا على احترام التوازن الثقليدى للبنان ، فانبهرى يؤكد أن المعلومات التى لديه تثبت له أن الجمهورية العربية المتحدة حريصة فعلاً على هذا ، وسألنى عن رأينا فى الجنرال شهاب فقلت له إننى أعلم أن المعارضة وكذلك كافة الأوساط اللبنانية الأخرى تكن له كل احترام .

وتقدم فانفانى فى التاسع من يوليو ببرنامج حكومته إلى مجلسى البرلمان ، وكان قد احتفظ لنفسه بوزارة الخارجية بالإضافة إلى الرئاسة ، ولم يدخل الوزارة بيلاً الذى عُرِضت عليه وزارة الدفاع فرفضها . وبصفة عامة كان بزنامج الحكومة الإيطالية الجديدة جريئاً وواقعياً إذا قيس ببرامج الحكومات السابقة فى ميدانى السياسة الاقتصادية والاجتماعية ، كما احتوى على قدر من الاتجاه نحو سياسة إيطالية فى منطقة البحر المتوسط ، إن لم تكن مستقلة فهى على الأقل نشطة . وبطبيعة الحال اعترضت فانفانى عقبتان تقليديتان أولاً قلة الموارد المالية المتاحة لتنفيذ مشروعاته الطموحة ، وثانيهما احتياج التنفيذ إلى آجال طويلة لا تتجاوز متوسط أعمار الحكومات الإيطالية فحسب بل ومدة عضوية البرلمان نفسه .

وفى الخامس والعشرين من يوليو قابلت الرئيس فانفانى قبيل سفره إلى الولايات المتحدة للقاء أيزنهاور ودالاس بيومين بناء على طلبه . وبعد أن أعربت له عن تقدير حكومتنا للجهود التى بذلتها الحكومة الإيطالية أثناء الأزمة اللبنانية لصون السلام ، وأضفت من ناحيتى أن الدبلوماسية الإيطالية فى الشرق الأوسط تستحق الثناء على إدراكها حقيقة الحالة وتصويرها لحكومتها تصويراً صحيحاً ، ارتاح لذلك وطلب منى إبلاغ المسؤولين بمبتنائه . ثم أفصح عن رغبته فى استيضاح

بعض مايريد استيفضاحه عن الشرق الأوسط قبل رحلته إلى أمريكا ، ومضى يسألني عن حيادنا الإيجابي ، فحدثته حديثا مستفيضا عن دوره في منطقة الشرق الأوسط وأنه بات عقيدتنا ، فلا هو أداة يستخدمها الغير ولا هو تحدد للغير ، بل إن الشعب العربي يسبغى التعايش السلمى مع الكل ملتزما بقيمه محترما لجميع العقائد مصمما على الدفاع عن نفسه عند الضرورة . وأضفت أن الشرق العربى يرفض أن يغدومسرحا تتطاحن فيه الأطماع بعد أن بات وحدة لا تقبل التجزئة أو التفرقة أو أن يكون موضعا لاقتسام الدول الكبرى له كمناطق نفوذ لابين الدول الغربية ولا بين المعسكرين الشرقى والغربى ، وأن العودة إلى مثل هذه السياسة العتيقة ليست في مصلحتنا ولا في مصلحة إيطاليا . وأضفت أن إقرار سياسة مافى الشرق الأوسط أو بالنسبة له ينبغى أن تحوز موافقتنا ورضانا لأننا لن نقبل سياسة الأمر الواقع ، فنسلام المنطقة يهمننا نحن أولا قبل أن يهم غيرنا لأنها المنطقة التى نحيا فيها ، وكاشفته بأن سياسة الحياد الإيجابى لا تنحصر داخل مصر والعراق بعد أن أصبحت عقيدة راسخة لدى الأمة العربية . فالعامل المهم في الشرق الأوسط هو الشعوب لا الأفراد ، فإذا كان الغرب يستطيب شخصية ملك من ملوك المنطقة فلن يغير هذا من مستقبل المنطقة ، فقديما كان ملك نابلى الذى يحظى بتأييد القوى الكبرى شخصية جذابة لطيفة غير أن هذا لم يحل دون قيام الوحدة الإيطالية .

وحين أراد فانفانى أن يعرف إذا كان لبنان معدودا ضمن هذا النطاق قلت بأنى لا أستطيع الرد على هذا السؤال رسميا ولكنى أعتقد بصفة شخصية أن إسباغ نوع من الحياد على غرار النهج السويسرى على لبنان قد يكون حلا وسطا مقبولا . وألح إلى تركيا فصارحته بالأشأن لنا بتركيا طالما لأشأن لها بنا ، فالعنصر العرقى مختلف والآمال متباينة ، وفى رأى أنه إذا رأأت الكتلتان المتصارعتان تحييد تركيا بالمثل فقد تزول بذلك وإلى حد كبير بعض العوامل المقلقة للسلام في الشرق الأوسط ، وأعتقد أننا نرحب بمثل هذه الخطوة إذا تمت . وقد تحاشيت عامدا في إجابتي أن أمتس بلادا عربية أخرى كالسودان وليبيا والمغرب العربى . وعندما عرج في النهاية إلى إسرائيل قلت إن الوقت قد حان لكى تدرك إيطاليا حقيقة موقفها كدولة عربية مُقحمة على المنطقة ، وأردفت ذلك بتذكيره بتصريحات عبد الناصر التى أعلن فيها منذ سنتين بمؤتمر باندونج استعداداه لحل منازعاته مع

الغير حلا سلميًا عادلا على ضوء قرارات الأمم المتحدة . ومن الجائز لو أدرك الإسرائيليون حقيقة موقفهم في قلب المنطقة العربية لسارعوا إلى نشدان سلام عادل ولا سيما أننا نريد لحيانا الإيجابي أن تضمنه الكتلتان والأمم المتحدة . وبعد أن انتهى الرئيس فانفاني من جولته بالشرق الأوسط انتقل بالحديث إلى علاقتنا بالاتحاد السوفيتي شارحاً أن الصحافة الشيوعية تعمل دائماً على تصويرنا بمظهر الأداة التي تحركها موسكو . وضرب لي مثلاً النداء الذي وجهته نقابات العمال العربية إلى الحزب الشيوعي الإيطالي لمناصرة قضيتنا ، ثم أضاف أن هذا قد أساء إلينا كثيراً .

قلت : ليس لي علم بمثل هذا النداء ، وإذا كان قد صدر فعلاً فأرجو تفسيره من الناحية السيكولوجية لا من الناحية السياسية . فالطبعي والمعقول أن الانسان إذا كان موضعاً لتهديد أو لاعتداء فإنه يقبل المساعدة من الغير وإن أتت من الشيطان .

قال ضاحكاً : ولكنكم تضعون أنصاف الشياطين الذين يريدون مساعدتكم في مركز حرج .

واستطردت قائلاً : إنما هي التصرفات الغاشمة التي تصدر عن بعض دول الغرب فتدفعنا دفعا نحو هذا الطريق ، وأكرر أن هذا التصرف من جانبنا نفساني وطبيعي . وأنتم تعلمون علم اليقين أننا لسنا شيوعيين وأننا لا نريد أن نكون كذلك ، ولكنها الدعاية المضللة التي ترسم موقفنا على هذه الصورة مدفوعة بالنفوذ الصهيوني والاستعماري أو مأجورة له .

قال : إنني أعلم هذا شخصياً ، ولكن المهم أن يعرف ذلك الرئيس أيزنهاور ، فأرجو أن تبليغ الرئيس عبدالناصر أن بين الدول الأطلسية دولاً لم تتخذ موقفاً معادياً للجمهورية العربية ومن بين تلك الدول أمريكا نفسها ، ولك أن تصدق ذلك أولاً تصدقه ، والأيام القليلة القادمة تحمل في طياتها مفاتيح المستقبل ، وفي يد الرئيس عبدالناصر مفتاح هام للغاية في سبيل السلام لو استطاع أن يستخدمه لكانت في ذلك فائدة كبرى ، وأعني بذلك أن يؤكد للولايات المتحدة أن ليس هناك بعد أي اغياز من جانبه نحو السوفييت ، وليس من الضروري أن يكون مثل



هذا التأكيد فى رسالة علنية بل يكفى أن يقدم البرهان على ذلك للرئيس أيزنهاور  
أوعلى أى مستوى يريد دون حاجة إلى إعلان هذا البرهان حتى لايسىء ذلك  
إلى مركزكم لدى السوفييت ، ثم أردف قائلا : إن السلام ياعزىزى يأتى عن  
طريق واشنطن .

قلت له : أكرر أننا لسنا شيوعيين والأمر يكون يعلمون ذلك حق العلم ،  
ولكن هناك نوعين من الضغط علينا ، ولقد طالما مددنا يدا لمصادقة الغرب  
وبخاصة لأمريكا غير أن النفوذ الصهيونى وضغط الدول الاستعمارية يحولان  
دون الوصول إلى علاقات طيبة مع الولايات المتحدة ، يضاف إلى ذلك الضغينة  
الشخصية التى يضمها دالاس لرئيسنا . فرد قائلا : أعتقد أن مصلحة السلام  
ستتجاوز الاعتبارات الشخصية ، ولقد كانت عقيدتى دائما أن أكبر خطأ ارتكبه  
الغرب هو سحب تمويل مشروع السد العالى ، وأضاف : إن الصهيونيين الذين  
يؤججون النار لن يجدوا جوا ممهدا لهم كما تظنون . وأود أنؤكد لك أنه إذا كان  
الرئيس عبدالناصر يعتقد أن الولايات المتحدة انتهت إلى اتخاذ موقف عدائى من  
الجمهورية العربية المتحدة فلن يكون اعتقاده هذا صوابا . وأحب أنؤكد لك  
أيضا أن الحياة فى ظل الشيوعية ليست جنة ، أخذ مثلا لذلك نهرو قبل حوادث المجر  
فى سنة ١٩٥٦ وبعدها فكم تغير فكره وتطور ، ودليل ذلك جوابه على دعوة  
خروتشوف الأخيرة ، فقد علّق قبوله لها على قبول الدول الأخرى المعنية بما كان له  
أثر ومغزى كبير لدى الغرب .

وهنا رأيت أن أستعرض أمامه تطور العلاقات بيننا وبين الولايات المتحدة  
منذ البداية بوضوح شديد ، وما إن فرغت حتى سألتنى : يهمنى قبل أن أبارح  
إيطاليا أن أعرف هل أنتم على استعداد للعودة إلى علاقات طيبة مع الغرب ؟  
قلت : بكل تأكيد ، وطالما عملنا فى هذا السبيل دون جدوى ، لكن سياستنا  
ستكون دائما سياسة الاستقلال والحياد الإيجابى . نحن نريد أن نبسط يدا  
للجميع غربا وشرقا على السواء ، فإذا لقيت أمانينا الاحترام فلا مجال للقلق من  
جانبيكم أو من جانب غيركم .

قال : أرجو ألا تذهب هذه الأمانى إلى حد استدعاء القوات السوفيتية إلى الشرق الأوسط . قلت : هذا لم يحدث في الماضى ولن يحدث إلا إذا وقع علينا عدوان ، وأظنك توافقنى على أن عملا مثل هذا يكون أمرا طبيعيا .

فإذا هوي فاجئنى قائلا : إذا دعت الحاجة ، هل لى أن أعلم اذا كانت الجمهورية العربية المتحدة ستكون فى صف « قوات الحرية » ؟

قلت : إذا كنت تقصد تحالفا عسكريا مع ماتسميه قوات الحرية فهذا لن يكون ، وليس فى نيتنا إطلاقا أن ندخل فى مثل هذا التحالف لأنه يتعارض مع سياسة الحياد التى نعتنقها ، أما إذا كنت تقصد حالة وقوع هجوم سوفيتى مثلا علينا فلاشك أننا لن نرفض مساعدتكم لنا . قال : لم أذكر إطلاقا كلمة « ميثاق عسكرى » ولا أقصد ذلك أبدا .

وقد اتضح لى عندها أن أخشى ما يخشاه الغرب — بما فيه إيطاليا — هو وصول قوات سوفيتية إلى الشرق الأوسط ، كما تبين أن فانفانى يتوق إلى أن تلعب إيطاليا دورا يقوم فيه بدور رائد وهو أن يمثل الغرب لدينا وفى الوقت نفسه يحمل وجهة نظرنا لساثر الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة التى يؤمن بها إيمانا مطلقا .

وقد أوضح لى أن محادثاته فى واشنطن ستتناول مسائل الشرق الأوسط وأنه ينوى أن يبرز للمسؤولين الأمر يكيين أن تلك المسائل لا تُحل بالقوة ، وأن لابد لهم من التزام الواقعية ومواجهة الحقائق التاريخية الطبيعية التى مظهرها القومية العربية بأسلوب عملى يقوم على أسس من الصداقة والتعاون ، لأن هذه هى الفرصة الأخيرة المتاحة للغرب لتغيير سياسته تجاه العرب دون وضع هذه المنطقة تحت النفوذ السياسى لدولة أخرى . كما تعمد أن يشير إلى أنه سيحاول إقناع المسؤولين الأمر يكيين بضرورة الإسراع بالاعتراف بالجمهورية العراقية الجديدة بعد الثورة التى قضت على الملكية فى ١٤ يولييه ١٩٥٨ ، وإن كان أمر الاعتراف فى رأيه مفروغا منه إلا أن الإسراع به أمر واجب على الغرب .

وفى حفل عشاء ضيق أقمته للدكتور إنريكو ماتتى مدير مؤسسة إينى للبتروى والدكتور پتشاى عضو مجلس الإدارة المنتدب لشركة إيتالكونسلت الوثيقى

الارتباط اقتصاديا بنا نقل الى الأول أن فانفاني قد أبلغ محدثيه الأمريكيين أن ٩٠٪ من البترول الذي تستهلكه إيطاليا مستورد من الشرق الأوسط وأنها على غير استعداد للتضحية بمصالحها باتباع سياسة يكون من شأنها أن تضطر إلى شراء الوقود اللازم لها من أمريكا بسعر مرتفع يجعل تكاليف الإنتاج فيها باهظة .

وكننت قد فوجئت بعد ظهر يوم لقائي بالرئيس فانفاني برسول موفد من قبل الرئيس جرونكي يبلغني فيه رغبته في الوقوف على الحديث الذي دار بيني وبين الرئيس فانفاني صباح اليوم ، فشعرت بحرج شديد وأجملت في كلمات مقتضبة أنني قد أفضت في شرح سياسة الحياد الإيجابي ، كما أجبت على بعض الأسئلة التي استوضحني إياها رئيس الحكومة ، وأني قد أعربت عن شكر حكومتني على موقف الحكومة الإيطالية إزاء أزمة لبنان . فبادرني الرسول متسائلا : ألم يرد ذكر الرئيس جرونكي على لسان الرئيس فانفاني في معرض الحديث عن الجهود المبذولة في سبيل السلام ؟ فأثار سؤاله في نفسي شيئا من الحرج ، وكانت إجابتي له لا تنفي ولا تؤكد . واتضح لي أن رئيس الوزراء لا يكشف كل أوراقه لرئيس الجمهورية وأن ثمة جفوة بينهما مردها من غير شك إلى أنه عندما أجريت الانتخابات لرياسة الجمهورية لم يكن فانفاني راضيا عن ترشيح جرونكي رغم كونه عضوا في الحزب الديمقراطي المسيحي ، ذلك الحزب الذي ينتمي كل منهما إليه والذي يتمتع فانفاني داخل جهازه بسلطة تكاد تكون مطلقة بوصفه سكرتيرا عاما له . وقد قاوم فانفاني ترشيح جرونكي بمناورات واضحة وعلنية داخل المؤتمر لاستبعاد اسمه ولم يكن من الأسماء التي تقدم بها الحزب أول الأمر ، وكان جرونكي وقتذاك رئيسا لمجلس النواب ، كما عمد فانفاني إلى ترشيح السنيور « ميرزاجورا » رئيس مجلس الشيوخ وأصدر التعليمات لحزبه بانتخابه وعدم تأييد جرونكي .

غير أن جرونكي كان في إدارته لجلسات مجلس النواب موضع تقدير الأحزاب جميعها لسلوكه مسلكا سليما في غير ماتحيز لحزبه ، ولذلك كانت ميول الحزبين الاشتراكي والشيوعي متجهة إلى تعظيمه في منصب رئيس الجمهورية لقدرته على التخلص عن صبغته الحزبية ، وهو الشرط الضروري فيمن يشغل هذا المنصب . وقد كان من الطبيعي أن يظل الخلاف بينهما متقدرا وإن كان قد استخفى تحت

الرماد السطحى . على أنه وإن كان فانفانى رجلا قويا فقد كان جرونكى كذلك شخصية قوية ولا تنقصه الشجاعة الأدبية ، كما كانت له آراء سياسية يعمل على الدعوة لها بل وفرضها عند اللزوم . وأهم تلك الآراء الشخصية بالنسبة لنا موقفه من البعالم العربى والبحر المتوسط ورغبته فى إحلال سياسة إيطالية إلى حد ما محل تلك السياسة التى تقتضى من إيطاليا الانسحاق راضخة للسياسة التى ترسمها واشنطن أولندن أوباريس وترغم إيطاليا على قبولها وتنفيذها . ولذلك كان يلجأ إلى إسناد الحكومة إلى شخصيات ضعيفة لا تصعب السيطرة عليها مثل زولى رئيس الوزراء قبل فانفانى ليتسنى له الإعراب عن آرائه السياسية ووضعها موضع التنفيذ .

وفى الخامس عشر من يولييه بلغنى من مصدر مسئول فى الحكومة الإيطالية لايرقى إليه الشك أن بريطانيا مصممة على التدخل العسكرى فى الشرق الأوسط للتخلص من الرئيس عبدالناصر بأى ثمن ولوأنهم قد لا يوجهون الضربة إليه مباشرة ، وأن غزوا بريطانيا للأردن سيقع يوم ١٧ يولييه مع عملية إنزال فى كل من طبرق وعدن ، وأن الأسطول البريطانى موزع فى مياه الخليج الفارسى ، وأكبد لى المصدر أن الإنجليز يدبرون انقلابا أو اعتداء على اليمن يوم ٢٢ يولييه ، كما يحتمل أن يمتد هجومهم إلى سوريا لاستدراج الرئيس عبدالناصر إلى التدخل فى القتال ، وأن لندن رفضت اقتراحات كل من واشنطن وتل أبيب للاشتراك فى عملية الأردن وآثرت الانفراد بحرية التصرف ، وأضاف مصدرى أن المحادثات البريطانية تعتقد أن مساعدة الاتحاد السوفييتى لعبدالناصر سوف تكون مشروطة هذه المرة ، وهى تعول كثيرا على رفض عبدالناصر للشروط السوفييتية .

وبعد عودة فانفانى من الولايات المتحدة التقيت به فى مكتبه بوزارة الخارجية فى الخامس من أغسطس ، وقد بادرنى بذكر أن شرح مفهوم القومية العربية باعتبارها حدثا تاريخيا طبيعيا كان من بين أهداف زيارته ، وأن الوقت قد حان لوضع نهاية لمعاداة القومية العربية ، بل ينبغى استمالتها نحو الغرب قبل أن تجد نفسها مسوقة إلى الارتباط بالكتلة السوفييتية ، وأن الرئيس عبدالناصر هو الزعيم العربى الأوحى الذى ينبغى على الغرب حاليا أن يتعامل معه للوصول إلى حل مناسب ، وأنه لم يعد هناك مفر من إقرار نوع من المعونة الاقتصادية تقدم إلى دول

الشرق الأوسط في نطاق الأمم المتحدة مع إشراك الدول العربية نفسها في هذه المعونة ، ولوصفة رمزية إذا لزم الأمر ، وأن الغرض من تقديم المعونة على هذا النحو هو الرغبة في استبعاد فكرة أنها مقدمة من دولة معينة ، وقد يتم تمويل هذا بإنشاء صندوق خاص بهذه المعونة . فأنبريت أُعبر عن التقدير لجهوده في سبيل السلام ؛ فإذا هويرد مزهوا بأنه يُقال إنه يعمل لخدمة العرب وأنه لا ينكر ذلك لأن فيه خدمة لقضية عادلة . وأضاف قائلاً : لقد نصحتهم في لندن وواشنطن بضرورة الاعتراف بالنظام العراقي الجديد قبل أن يضطروهم خروتشوف إلى ذلك ، فوافقتني أيزنهاور في الحال . أما البريطانيون فكانوا يقدرّون ألا يتم اعترافهم قبل ١٥ أغسطس . كما أنه طرح بعض الأفكار التي توحى للمسؤولين في الولايات المتحدة وبريطانيا بالطريقة المُثلى — في نظره — للوصول إلى الهدوء والاستقرار في منطقة الشرق الأوسط . وأضاف أن الموقف في كل من لندن وواشنطن قليل للزحزجة والتحريك ، وإن كان ما يزال غير واضح ، فالمهم هو إيجاد نقطة بداية لتحريك معادلات تنتهي إلى إقرار السلام في المنطقة ، ثم هويرجونى أن أعرض تلك الأفكار على الرئيس عبدالناصر شخصياً وأعود إليه برأيه في مقترحاته حتى ولولم يكن رأيه سافراً .

واستطرد فانفانى قائلاً : كنت قد أشرت عليك بأن تبذر من الرئيس عبدالناصر بادرة تبرهن بصورة ماللأمر يكيين بأن ليست لكم أية نيات عدوانية . فسألته نحو من ؟ قال نحو السودان وليبيا . فأبدت له دهشة لمثل هذه الادعاءات التي تدعو للسخرية وتكشف عن تحبّط أجهزة المخابرات الأمر يكية ، فهي تختلق الروايات اختلاقاً ثم ماتلبث أن تصدقها وتبنى عليها سياسة قد تطيح بالسلام العالمى في أى وقت . وهنا ألمح إلى أن معلومات قد وصلتهم اليوم من الخرطوم بأن ثمة مؤامرة تدبّر في الأيام الأخيرة لقلب نظام الحكم لصالح الرئيس عبدالناصر ، فوجهت نظره في الحال إلى البلاغ الرسمى الذى أصدره الوزير المفوض للسودان في روما الذى نفى فيه بصورة قاطعة وجود أية مؤامرة من أى نوع في السودان .

وعاد يكرر لى : عليكم أن تثبتوا أنكم غير شيوعيين مثلاً أثبت زعماء العراق مؤخراً أنهم ليسوا شيوعيين . فذكرته بأننا كنا منذ عشرة أيام فقط متهمين بتدبير ثورة العراق ، وبأننا نحرك زعماء تلك الثورة إلى أن ثبت لكم أنها كانت حركة وطنية

منبشقة من الشعب العراقي ذاته . ثم أردفت قائلاً : لاجابة بى أن أنفى الزعم بأننا شيوعيون لسبين : أولها أننا لو كنا شيوعيين فلا داعى إلى إخفاء ذلك وأقصر الطرق هو أن نعلن هذا وننضم للكتلة الشيوعية ، والثانى أننى أترك هذا الحكم لسفيركم بالقاهرة فهو فى مركز يتيح له الدراية بالأمور على حقيقتها ولا أظن إلا أنه قد أبلغها لكم بأمانة .

ثم مضى يؤكدلى « أن لدى الرئيس أيزنهاور استعداداً طيباً نحوكم ، لكن دالاس كما سبق أن ذكرت لى يحقد عليكم لأنه يعتقد أنه ساعدكم فى الماضى خلال العدوان الثلاثى دون أن ينال عرفانكم ، إذ قابلتم الخدمة التى أداها لكم بالجحود . ولقد اعترف لى أنه كان وقتذاك على فراش الموت ، وأنه كان يكفيه فخراً أن يسجل على قبره : « هنا يرقد الرجل الذى أنقذ مصر من العدوان » . ولكنى أقول إن ذلك لايعنى أنه ميثوس منه ، ولذلك ينبغى أن تجرى عملية الإقناع بصفة شخصية بين عبد الناصر وأيزنهاور . وواصل فانفانى حديثه شارحاً كيف يتصور الوصول إلى إقرار السلام فى الشرق الأوسط ، فىرى بادىء ذى بدء أن تتفق الدول العربية فيما بينها على ألا تتدخل إحداها فى الشؤون الداخلية لدولة أخرى وكذا على ضمان الحدود ، ثم يتعهد المعسكران الغربى والشرقى باحترام استقلال دول الشرق الأوسط وعدم التدخل فى شئونها . وأخيراً يتقرر تنظيم المعونة للشرق الأوسط مع إشراك الدول العربية فى إدارة تلك المعونة .

فسألته : أى حدود نضمها واسرائيل رابضة بيننا ، وهل تشير إلى ضمان حدود اسرائيل ؟ إن حدود اسرائيل موضع مطالبة من جانبنا وكانت موضعاً لحكم أصدرته الأمم المتحدة ولم ينفذ . فإذا به يقول : أقصد عدم التدخل فى شئون اسرائيل الداخلية .

وإذ تبين لى أن دراية الرئيس فانفانى بمسألة فلسطين محدودة فقد عرضت بعد ذلك على مدير مكتبه مانزىنى أن أقدم مذكرة وافية عن حقيقة الموقف فى فلسطين ملمحاً له أن هذه المسألة تبدو غامضة بعض الشيء فى نظر المسؤولين فى إيطاليا ، فرحب بالفكرة على ألا تصاغ فى قالب رسمى وإنما على أنها معلومات فحسب .

• ثم سألت فانفانى : وهل سيكون لتركيا واسرائيل مثلاً نصيب من المعونة الاقتصادية ؟ فقال : إن استبعاد تركيا يزيل الكثير من المتاعب ، أما اسرائيل فأعتقد أنها ستنال جزءاً منها ، فإن اسرائيل حقيقة قائمة . أقول لك هذا كما قلت لهم في واشنطن ولندن وبون أيضاً إن الجمهورية العربية المتحدة حقيقة قائمة ، كما قلت كذلك إن روسيا السوفيتية حقيقة قائمة . وقد قلت لهم إن الموقف في العالم العربى اليوم أفضل مما كان عليه منذ سنتين وإن لدى العرب استعداداً طيباً لإجراء تسوية إلا أنهم ليسوا على استعداد للتخلي عن كل شىء ، فلا بد من ضمانات تبعث الطمأنينة في نفوسهم .

فسألته : هل الغرض حقا هو مساعدة الدول العربية اقتصاديا أم إنعاش إسرائيل ؟ فأجاب بأن إصراره على ضرورة إشراك الدول العربية في إدارة المعونة إنما كان لضمان التوزيع العادل . فأوضحت له أن عقد مثل هذا الاتفاق الذى حدثنى عنه أمر يصعب إتمامه ونحن موضع تهديد مسلح ضرب علينا من كل جانب في البحر وفي ليبيا ولبنان والأردن واسرائيل وعدن والخليج العربى . ففى كل هذه المواقع يجرى تكوين قوات ضاربة وتُحشد الحشود ولا يمكن أن يكون لها غرض إلا الاستعداد للعدوان علينا أو التهديد بالعدوان . ثم سألته : بماذا تفسر استمرار تدفق القوات الأمريكية إلى لبنان وقد تم حل مشكلته أو كاد ؟ فقال مراوغاً إن حلفاءه أكدوا له استعدادهم لسحب قواتهم في أقرب فرصة بمجرد استتباب الحالة .

وفي نهاية اللقاء ذكر لى أنه أثناء مقابلته لرئيس الجمهورية في اليوم السابق أظهر له استياءه من بعض الاجراءات التى اتخذت - على حد قوله - ضد بعض الإيطاليين في مصر ، وأضاف قائلاً إن الصداقة تدعونا للنظر في أمر هؤلاء . فقلت إذا كنت تقصد الصداقة الإيطالية العربية فهى حقيقة قائمة ، إلا أن أخشى ما أخشاه أن يكون هؤلاء من اليهود الذين هاجروا برغبتهم وإرادتهم ، أو من الفئة التى أبحرت مع الأسطول الفرنسى أو البريطانى من بورسعيد في نهاية عام ١٩٥٦ دون علم السلطات المصرية أو الاستئذان منها . فهذه مسألة أعلمها جيداً ، والقانون صريح وواضح كل الوضوح في مثل هذه الأحوال ، فأجابنى بما يكشف عن أنه لا يدرك الكثير عن تفاصيل القضية .

وعند توديعي وكنت قد أحطته علما بعزمي على السفر إلى مصر للقاء الرئيس قال لي : لقد كلفت مكتبي بإعداد مذكرة شخصية لك تضم كل مقترحاتنا التي تصلح أساسا للمحادثات المستقبلية . وإذا تراءى للرئيس عبد الناصر رأى أو تعديل أو إضافة تجعلها مقبولة لديه فأرجو أن تحملها إلى لدى عودتك وسوف نقدم ما يراه من مقترحات على أنها مقترحات إيطالية ، وذلك لأسباب سيكولوجية بحتة ، إذ أن الأمريكيين والبريطانيين يبدون حذرا شديدا نحو الآراء العربية .

ولما حضر مانزيني لمقابلتي بعد ظهر نفس اليوم بادرنى بقوله إن الرئيس فانفاني يرجو الحذر من أن تتسرب تفاصيل مقابلاته لي للصحافة ولا لوزارة الخارجية التي يكتفي بإحاطتها علما بأحاديثه معي بصورة مقتضبة للغاية ، حتى أن السفير فورناري مع كونه موضع رضاء الرئيس فانفاني لا علم له بما يدور أثناءها . كما رجاني باسم الرئيس فانفاني أن نحيط الاتصالات الجارية في روما بالسرية التامة حرصا على سمعته وسمعة بلاده في حالة ما إذا أدت الظروف إلى فشلها . ثم أبلغني أن جولد ماير حضرت إلى روما وأبدت رغبتها في مقابلة فانفاني واستعدادها لانتظاره هنا لحين عودته من باريس وإن كان يعتقد أن شيئا بناءا لن يتم أثناء لقائه بها .

ومضيت أستوضحه بعض التفاصيل لأستكمل بها عرضي للمسائل على الرئيس . فقلت له : إنكم تطلبون منا تقديم عربون يثبت للغرب صدق نوايانا على أننا نسعى نحو الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط ، وعلى هذا ومع أننا نحرص دائما على عدم الإخلال بالسلام أو الاستقرار فالمطلوب منا الارتباط بالتزامات معينة دون أن يكون غيرنا قد ارتبط بالتزامات مماثلة . فأجاب بأن الأنجلو-أمريكيين سيرتبطون بالتزام مماثل .

فتساءلت عما إذا كان المطلوب أن تلتزم الدول العربية فيما بينها باحترام الحدود والكف عن التدخل في شئون بعضها البعض على أن تتعهد الدول العظمى بعد ذلك باحترام الوضع القائم في الشرق الأوسط ، أي أن تتم العملية على مرحلتين وفي دائرتين مختلفتين . وإذا كان الأمر سيمضي على هذا النحو فلن يكون مقبولا منا ، فقد سبق لنا رفض التصريح الثلاثي الذي أعلنته مشتركة فيما بينها



كل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، ولسنا على استعداد لأن يتقرر مصيرنا دون أخذ رأينا . قال : إلى جانب الاتفاق بين الدول العربية فيما بينها فإنها ستشترك أيضا في اتفاق الدول الكبرى ، وبذلك لن يكون موضعاً لاتفاق الغير عليها ولن يُفرض عليها شيء .

وعندها صارحته بأنه يحق لنا أن نشك في نوايا الغرب نحونا ، فنحن نعيش في جو من التهديد العسكري الشامل ونشهد حصاراً يُضرب حولنا في كل مكان ، فالرئيس فانفاني لم يتحدث بالأمس إلا عن ليبيا وعن السودان ، وقد خرجت من لديه وأمام عيني خريطة وضع لي فيها أن المقصود بهذا قطع صلاتنا الخارجية ، فعلى حدودنا الشرقية اسرائيل ، وبذلك انقطعت صلاتنا المباشرة بالدول العربية في الشرق ، فهل نحن مطالبون بقطع صلاتنا بالمغرب العربي ثم بقلب أفريقيا في ليبيا والسودان ، وبمعنى آخر هل يسعى الغرب إلى محاصرتنا ؟ إذا كانت هذه هي النية فإنني أؤكد لك ألا نتيجة لها غير الفشل ، فلا أطمع لنا لا غرباً ولا جنوباً ولا في أي اتجاه آخر . إنما للطبيعة أحكام فالنيل يصب من قلب أفريقيا في البحر المتوسط ، ولم تكن الحدود قط حائلاً دون إسماع صوتنا للمغرب الأقصى ، فحالة العزل فاشلة سلفاً لا محالة ، ونحن لا نطمع في الغير ولكننا لا نقبل أن نتخذ الأراضي المجاورة لنا قواعد للهجوم علينا أو للتهديد به ، فالاستقرار لا يتم بالتهديد وإنما بالتراضي على المسألة الفعلية . فلابد من إزالة القواعد العسكرية من حولنا ، ولا أقصد لبنان والأردن فالأمر بالنسبة لنا مفروغ منه ، وإنما أقصد التهديد الدائم من ليبيا ومن السودان ومن عدن ومن الخليج العربي ومن قبرص .

وإذا هو يعترض على إثارة المسألة القبرصية التي تنطوي على متاعب شائكة فبادرته بقولي إن أنصاف الحلول لا تُجدي ، فإذا كان للغرب شكوك نحونا فلدينا شكوك أكثر نحوه . والمهم في نظري هو القضاء على أزمة الثقة المتبادلة والا وقفنا في منتصف الطريق دون الوصول إلى الاستقرار المنشود . بل إنني أرى أن إبطال التهديد من كل مكان لابد وأن يشمل إبطال التحالف الدائم بين فرنسا واسرائيل ، لاسيما وقد بلغنا أن هناك حشداً بحرياً فرنسياً في مياه اسرائيل وأن قوات فرنسية أنزلت إلى البر معززة بوحدات من المدفعية الثقيلة شوهدت في طريق عكا - طبرية . فاعترف بأنه يعلم أن الصحف الاسرائيلية قد نشرت أنه من

المتوقع تعزيز التحالف بين فرنسا واسرائيل لكنه لاعلم له بماسفته من أنباء ، وأنه سيتوجه في الغد إلى باريس مع الرئيس فانفاني وسيحاول التأكد من صحة هذه المعلومات التي لاشك تدعو للقلق إن كانت صحيحة وتزيد من تعقيد الموقف بمنطقة الشرق الأوسط .

وفي اليوم نفسه زارني رسول موفد من قبل الرئيس جرونكي ليسألني عما دار في مقابلاتي لفانفاني ، فذكرت له أنني أعربت عن تقديرنا للجهود الدبلوماسية الإيطالية ، وأن فانفاني قد أشار في حديثه معي إلى بعض النواحي المتعلقة برحلته إلى واشنطن في اقتضاب . وبادرت به بقولي إن اسم الرئيس جرونكي قد جاء على لسان فانفاني ، فبدأ على الرسول الارتياح ثم سألني : وماذا قال عنه ؟ قلت : لقد أبلغني أن الرئيس جرونكي أبدى استياءه من بعض التصرفات التي تمت في مصر إزاء بعض الرعايا الإيطاليين ، فإذا ارتياحه ينقلب دهشة واستنكارا وهو يعد ببحث الأمر على الفور . ثم أضاف أنه يعتقد أن هذا الموضوع لم يصدر عن رئاسة الجمهورية وإنما عن وزارة الخارجية . فقلت له : إنه قد سلمني مذكرة بذلك ، ولك أن تطلع عليها إذا شئت . ثم أطلعت عليها .

هكذا أصبح واضحاً أن مايقوم به فانفاني هو المضي في نفس الاتجاه الذي كانت تسعى إليه السياسة الإيطالية من قبل ، تلك السياسة التي نادى بها جرونكي وحاول پیلا تنفيذها في حذر مشوب بالضعف ، زادت منه الأحداث الدولية التي طغت على العالم الأطلسي في خريف ١٩٥٧ بسبب نجاح الاتحاد السوفييتي في أكتوبر ١٩٥٧ في إطلاق صاروخه إلى الفضاء الخارجي ، بينما تصدّرت التطورات الجارية في الشرق الأوسط وقتذاك محور التفكير السياسي والاستراتيجي في العالم . وعلى حين كان پیلا يسعى بمشروعه إلى تحقيق مصلحة اقتصادية لبلاده ولسائر الدول الأوروبية يجني من ورائها مزايا سياسية ترمي إلى إيجاد ظروف يأمل معها أن يدير الشرق العربي وجهه شطر الغرب ، عكّس فانفاني ترتيب المشروع مع تغير الغرض منها لظروف لاحيلة له فيها . فقد تغيرت الأوضاع في الشرق الأوسط بتأثير هبة القومية العربية ، ومن ثم غدت الأولوية معقودة للجانب السياسي من المشروع ، ولم يعد الجانب الاقتصادي منها يظفر

إلّا بأهمية نسبية بعد أن انتهى أمل الغرب في استقطاب الشرق العربي إلى معسكره .

وإلى جانب هذه الاعتبارات العامة فثمة اعتبارات شخصية كان لها أيضا تأثيرها في النهج الجديد الذى مضت تتبعه السياسة الإيطالية . فقد كان بيلا خادما مطيعا لرئيس الجمهورية ، كما أنه يمثل جناح الرأسمالية داخل الحزب الديمقراطى المسيحى . هذا إلى أنه شخصية مسالمة يقيم في الداخل أكبر وزن للرئيس جرونكى ، ولا يُقدم في الخارج على ما قد يكتدّر علاقاته بالدول الأوروبية أو بالولايات المتحدة وبريطانيا . وقد حمّله ضعفه هذا على عرض فكرته تلك على أمريكا أولا ، ولما قبلت بفتور انكمش عليها ، ثم عاد فأساء بإخراجها مرة أخرى في ظروف كانت الدول الأطلسية عنها في شغلٍ شاغل فأهملتها ، كما أساء بعرضها في اجتماع الحلف الأطلسى بباريس . وهو ما يكفى وحده لإثارة الشك حول المشروع لدى الدول المقصودة به . على حين كان فانفانى قويا طموحا لا يخشى معارضة جرونكى ، ولذلك حفزته عوامل المنافسة بينها إلى محاولة النجاح حيث فشل سلفه ، وإلى الوصول إلى أبعد مما كان يرجوه جرونكى ، وكان إلى جانب هذا من الجناح الأيسر للحزب ، فليس لرأس المال المرتبط بفرنسا أو بريطانيا تأثير كبير عليه ، كما كان ذا همّة وحماة لا تتوفّران لبيلا . ومع ذلك لزم الحرص بعد أن لمس فشل بيلا لدى الأمريكين فلم يتقدم إليهم بما يمكن أن يسمى مشروعا وإنما اكتفى بالإيحاء بأفكاره . ثم إن ثمة فارقا جوهريا آخر في أسلوب الرجلين ، فبينما لم ير بيلا استشارتنا قبل أن يتقدم بمشروعه ، لم يكتف فانفانى باستشارتنا فحسب بل تبسّى آراءنا إلى حدّ ما . وهكذا على حين كان بيلا قانعا باستمالة الغرب فحسب إلى مشروعه لجأ فانفانى إلى استمالة الغرب والشرق العربى معا إليه . وبينما كان بيلا يرجو أن يغدو مفوض الغرب كان فانفانى يرجو أن يصبح وسيطا بين الشرق العربى والغرب في عقد صفقة بينها . وكان في الأسلوب الذى انتهجه فانفانى مصلحة لنا ، ومن ثم بات واجبا تشجيعه على المضى فيه أو على الأقل لانعمل على تثبيت عزمته حتى تتحرّر السياسة الإيطالية بعض الشيء من السيطرة الشنائية التى تفرضها الولايات المتحدة وبريطانيا على كافة أعضاء الحلف الأطلسى . ولمصلحتنا في ذلك وجهان : وجه خاص أومحلى في النطاق الإيطالى :

ووجه عام يتعلق بمبدأ أساسى وهو العمل على إبطال الأحلاف وهو ما يقتضى بذل الجهد لإضعافها .

على أن مهمة فانفانى فى واشنطن لم تصادف النجاح الذى كان يأمله ، الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه أمامنا للتنديد بسياسة دالاس لديه على الرغم من ولائه لأمرىكا . كما أن إحساسه بالإحباط حمله على مضاعفة سعيه لدينا ، وهو ما يفسر إلحاحه فى حثنا على تبليغ أيزنهاور رسالة مطمئنة ، فلو تكلم بسعاه معنا بالنجاح لاستعاد مكانته فى واشنطن ودرأ عن نفسه خطر منافسة خصمه « شلبا » له بين دوائر الخارجية الأمريكية . وهكذا باتت ضغينة دالاس ضد مصر تخدما لأول مرة فى الجبهة الإيطالية المحلية إذ قرأها ظروفًا تكتيكية مواتية ، ولكل موقف سلبى وجه إيجابى على المرء أن يدركه فيستغله لصالحه .

وعلى ضوء المعلومات التى توفرت لى ، وما مسته من اتجاه نحو الوصول إلى حلول جزئية ومؤقتة للمشاكل تحقيقا للاستقرار فى الشرق الأوسط بث مؤمنا أن مصلحتنا تكمن فى مواجهة تلك المشاكل لا بوصفها جزئيات وإنما باعتبارها عناصر مختلفة لمشكلة واحدة هى تحرر الشرق الأوسط العربى وتيسير أسباب الاتحاد بين شعوبه . وخرجت من حديثى الذى بسطت فيه الموقف للرئيس عبدالناصر عند لقائى به فى برج العرب بأن لنا المصلحة كل المصلحة فى الحفاظ على مواصلة الحوار مع الحكومة الإيطالية ، كما أن المصلحة تقتضى منا التباطؤ مع الحرص على عدم تشبيط عزيمة محدثينا أو إثارة اليأس فى نفوسهم ، وأن يظل الاتصال غير علنى ، فهذا من شأنه أن يزيل لدى الجانب الآخر أى تعنت أو تصلب مبعثه الكبرياء ، وأن نتمسك بأن تكون الحلول شاملة ، وألا نصحى بأى قدر من مصالح أخوتنا الفلسطينيين أو الجزائريين ، وما على الغرب إلا المعاونة فى إعداد حلول عملية عادلة لمشكلتى فلسطين والجزائر كنتيجة لاعترافه بالقومية العربية ، وأن حياد لبنان يجب أن يكون قبل كل شئ لخدمة المصالح العربية لا عقبة فى سبيلها ، وألا يتم اتفاق قهراً أو من خلف ظهورنا ، فلا التزام علينا إلا فيما اشتركنا بأنفسنا فى إقراره . هذا إلى أن إقرار السلام يقتضى كنتيجة له إبطال حلف بغداد بالنسبة لكافة الدول العربية . وأخيرا أنه لتقرير معونة اقتصادية على أسس عادلة ينبغى التمسك بقدر الإمكان بتوزيعها على أساس تعداد السكان . واقترحت فى

النهاية دعوة فانفاني إلى القاهرة فوافق الرئيس على أن أقوم بتوجيه الدعوة إليه لدى عودتي إلى روما كما أئيد جهودى فى متابعة هذه السياسة ، وحملنى هديتين رمزيتين إلى كل من الرئيس جرونكى والرئيس فانفاني .

وفى الثالث من أغسطس التقيت بأحد كبار المسؤولين الإيطاليين على مائدة العشاء ووجدته على غير عادته مكتئبا حزينا إلى أن أفضى التى بأنهم تلقوا من سفرائهم فى واشنطن ولندن مايفيد بأن الأمر يكتنح يمدعون الإيطاليين ، وأنهم يقلدون المشروعات الإيطالية الخاصة بالشرق الأوسط تقليدا أعمى ، وأنه قد آن الأوان لإعادة النظر فى النتائج التى وصلوا إليها فى مباحثاتهم مع دالاس إلى أن اندفع يقول ساخطا « لن نخسر شيئا لوبدأنا سياسة أكثر تحمرا فالأفق بين الحلفاء أمر مشكوك فيه » . كما أبلغنى أن ثمة اتصالات أمريكية تجري مع الرؤساء الجدد فى عراق ما بعد الثورة فى محاولة للتقرب منهم ، كما أن إيطاليا تحاول اتباع سياسة حيادية إزاء القومية العربية عربونا للتفاهم الودى مع عبدالناصر رغما عن نية الأمريكيين المعقودة على عدم سحب قواتهم من لبنان فى الوقت الحاضر .

وفى هذا مايفسر ما أبلغنى به فانفاني من أنه اكتفى بالإيجاء ببعض الآراء المفيدة إلى الأمريكيين ، ولكنه لم يكن يتوقع — على حد قول محدثى — أن يسطوا عليها ويقدموها على أنها مشروع منسوب إليهم ، الأمر الذى يثبت وجود خلاف مستتر بين إيطاليا والولايات المتحدة ، فنذ شهور قليلة أيضا أحبط دالاس مشروع الوز يرييلا بشأن الشرق الأوسط ، و ينم هذا الخلاف عن سياسة أمريكية ثابتة مبعثها الأنانية . والإيطاليون قوم عاطفيون سريعوا الإحساس بجرح كرامتهم وإن دعتم حاجتهم لأمر يكا إلى السكوت فليس معنى ذلك أنهم قد نسوا الإهانة . وواقع الأمر أن بريطانيا والولايات المتحدة يشكلان سلطة ثنائية « دير يكتوار » خاصة داخل حلف الأطلسى لا تقبل حقوقا أو مصالح غربية فى الشرق الأوسط سوى ما كانت خاصة بها ، فبعد أن نجحت فى استبعاد فرنسا التفتت نحو إيطاليا محاولة قطع الطريق عليها .

وفى التاسع من أغسطس ١٩٥٨ كان ثمة لقاء بين السنيور فانفاني وجولداماير ، وقد قدر الله للسفارة المصرية أن تقع على ما كان بينها فإذا

أنا بين يدي وثيقة سرية إيطالية لما دار بينهما من حديث وهذا نصه الحرفي بعد ترجمته :

«بعد أن شكرت جولداماير الحكومة الإيطالية على إتاحة الفرصة لها لتبادل الرأي في المسائل الهامة الجارية قالت : إن إسرائيل لا تعارض إطلاقاً في قيام القومية العربية السليمة التي لا تشوبها شائبة ، فللعرب إذا أحبوا أن يتحدوا فيما بينهم فهذا شأنهم ، ولا تمناع إسرائيل في الحركة الاتحادية بين العرب إذا تم هذا الاتحاد طبقاً لرغبة الشعوب نفسها وكان تلقائياً غير موجه من دولة أوليس بإيعاز من شخص معين أو بفعله . لذلك ينبغي على الغرب أن يفرق بين القومية العربية التي تتمثل فيها الأمنى العربية المشروعة وبين « الناصرية » التي تتمثل فيها أطماع شخصية ورغبة في التوسع والسيطرة على الغير . وإذا استمر الغرب في الخلط بين هذين الأمرين ظل احتمال وقوع حرب عامة قائماً . وقد كشف الرئيس عبد الناصر عن نواياه في كتاب له ضمته فلسفة الثورة وآراءه السياسية على نحو ما فعل هتلر تماماً ، ولكن الغرب لم يصدق عبد الناصر ولم يأخذ كتابه بصورة جدية ، وكان الغرب في هذا مخطئاً خطأ كبيراً لأن عبد الناصر بنفسه هو الخطر ، لا بسبب قوته أو إمكانياته وإنما بسبب أخيه الأكبر خروتشوف وقوة روسيا السوفيتية .

وقالت جولداماير إن إسرائيل تتوق للسلام ولا تبغى سواه لأنها مقتنعة بأنها لن تكسب شيئاً من الحرب ، إلا أن لديها أسباباً تجعلها على أن الاتحاد السوفيتي يريد أن يتخلص منها . فإسرائيل وتركيا هما الدولتان الوحيدتان من دول الشرق الأوسط اللتان لا يمكن غزوهما من الداخل لأن إسرائيل دولة ديمقراطية حقاً تسقط فيها الحكومات داخل البرلمان لا نتيجة ثورة أو حركة داخلية .

وأضافت جولداماير قائلة إن الشرق الأوسط لم يفقد بعد كله ، فإن لبنان قد أنقذ في اللحظة الأخيرة بفضل الولايات المتحدة ، وكذلك الأردن بفضل البريطانيين ، ولكن إلى متى ؟ وما الذي يحدث في الأردن بعد خروج البريطانيين منه ؟ والإجابة على ذلك سهلة فيكفي أن ننظر إلى ما حدث في العراق . ومناسبة العراق تجدر الإشارة إلى إيران وضعف الحالة فيها الأمر الذي يجعلها بدورها سهلة السقوط .

وقالت : إن الرئيس عبد الناصر وإن كان قد كشف عن سياسته الفعلية في الشرق الأوسط إلا أنه لم يبدأ بعد فصلاً آخر من فصول أطماعه ، ألا وهو سياسته الأفريقية . وكلنا يعلم محاولاته في السودان التي أوقفها يقظة رئيس الحكومة السودانية الذي أظهر شجاعة وحزماً ، وكلنا يعلم كذلك مخاوف الحبشة منه . وهذه

كلّهما مظاهر لسياسة عامة خطيرة بالنسبة لنا جميعا ستشتد وطأتها علينا إذا أخطأ الغرب في إدراك مآذاهما ، وعماد السياسة « المصرية » والدعاية « المصرية » البعثات التعليمية والمدرسون .

ثم انتقلت جولدا ماير بالحديث إلى نقطة أخرى فقالت : لا الغرب ولا روسيا يريدان الحرب ، وفي ذلك — على ما يبدو — أسس صالحة للوصول إلى اتفاق بين الكتلتين . غير أنه لا يمكن عقد اتفاق بصورة مجدية إلا اذا وضع الغرب شرطا أساسيا له يكون واضحا كل الوضوح : بأن يقول الغرب للاتحاد السوفيتي إذا أقدمتم على المساس بدولة من دول الشرق الأوسط تدخلنا على الفور ، والمطلوب بذلك هو أن لا يترك لروسيا مجالا للشك في جدية تحذير الغرب لها ، وفي نفس الوقت توفير الضمانات لدول الشرق الأوسط التي مازالت حرة . ثم إن حلا نهائيا وواقعا إذا ما وقع سيكون تحقيقه أمرا شاقا وطويلا ، وإن أفضل الحلول في نظري أن تتبع مع إسرائيل سياسة البذل والعطاء لتأمينها وتمكينها من الدفاع عن أراضيها الأمر الذي ستضطر إليه اضطرابا ، ولذلك فإنني أرى الحل في منح إسرائيل الضفة الأخرى من الأردن مع شريط مواز لها من الأرض .

وأردفت قائلة : إن الغرب قد ارتكب فيما مضى أخطاء كثيرة في إدراك نفسية شعوب الشرق الأوسط وبالتالي في التعاون معها ، فكانت تلك الأخطاء من الأسباب التي أدت إلى تفاقم الحالة في المنطقة . ويبدو أن الغرب لم يكتسب خبرة في هذا الميدان ، فلنأخذ مثلا المعونة الاقتصادية التي هي حديث اليوم ، فالمفروض إذا كان الغرب قد اتعظ بأخطائه السابقة أن يبدأ بتقديم المعونة إلى الدول الحرة ثم إلى الدول التي مازالت فيها بقية من الحرية . وأخيرا — وأخيرا فقط — إلى الدول الواقعة تحت نفوذ الناصرية التي يؤمل في تحريرها ، غير أن الظاهر أن الاتجاه عكسي ، وهو أمر يدعو للأسف .

وانتقلت جولدا ماير بعد ذلك إلى الحديث عن النظام الجديد في العراق فقالت : إن القائلين بالأمر فيه حاليا لن يفصحوا عن اتجاهاتهم الحقيقية بحال من الأحوال ، ولن يكشفوا عن سياستهم ولن يتحدثوا عن استعدادهم للتعاون مع الاتحاد السوفيتي ، كما أنهم لن يظهروا مدى تعاونهم الحقيقي مع الناصرية ، بل يحتم عليهم المنطق أن يتظاهروا بأنهم لا يعادون الغرب ولا يسرعوا إلى إعلان خروجهم من حلف بغداد ، وذلك لسبب بسيط هو أنهم لن يشربوا البترول الذي ينتجه العراق ، فهم لذلك في حاجة ماسة إلى تصديره للغرب ، إلا أن ما تضمره الصدور لا يحتاج إلى

إفصاح . وعلى الغرب أن يتخذ حذره لآى احتمال ، ويكفىنى دليلا على ذلك الاستقبال الشعبى الحماسى الذى استُقبل به السفير السوفىيتى فى بغداد عند وصوله إليها .

وقد أجاب الرئيس فانفانى على جولداماير فقال :

إنه استمع إليها فى اهتمام بالغ فيما سردته عن الأحوال العامة فى منطقة الشرق الأوسط وقال إنه يعلم ، بل والعالم كله يعلم ، أن اسرائيل حقيقة قائمة فى تلك المنطقة التى تكثر فيها الظروف التى يحتمل معها وقوع نزاع بين اسرائيل والعرب . ثم نهبها إلى أن نزاعا مثل هذا لن ينحصر بين الطرفين فيكون نزاعا محليا ، إنما يغلب على الظن أنه سوف يتفاقم ويتطور إلى حرب عامة تُستدرج إليها الدول العظمى ، وأوضح لها أن إيطاليا دولة تحب السلام وتعلم أنها لن تكسب شيئا من الحرب ، وقال إنه شخصا قام فى سنة ١٩٥٦ بزيارة واشنطن لدعوة الولايات المتحدة للعمل على صون السلام ، وأن الواجب فى الحروب ألا يشرع المرء فيها إذا لم يكن مستعدا للمضى بها حتى النهاية ، وأضاف أنه نصح بعدم البدء فى حرب وقتئذ لاينتظرها أن تسير إلى نهاية الشوط ولكن أحدا لم يستمع إليه ، فقد كانت بريطانيا تأمل فى اندلاع ثورة داخلية فى مصر ، وكان الدرس بعد ذلك قاسيا ولكنه لايجلو من فائدة لواعترفت به الدول .

وقال فانفانى : إنه كان من الممكن مثلا عدم الذهاب إلى لبنان أو الأردن ، فعلى المرء أن يفكر فى الخروج من هناك قبل أن يشرع فى الدخول . وكان الواجب أن توضع للانسحاب خطة لا تقل دقة عن خطة الدخول ، وإلا فإن المنطق يدنا على أن الانسحاب من الشرق الأوسط لن يكون إلا بئس بدفع له ، وهذه هى المرة الأولى التى يحدث فيها أن يكون الغرب فى موقف يسمح له بطلب شيء من الروس ، وكل الشواهد تدل على أن الثمن المطلوب أداؤه هو الوصول إلى حل سياسى للموقف العام فى الشرق الأوسط .

ثم استطرد فانفانى فقال : لقد جرى حديث حول اجتماع الأقطاب ، ورأت فرنسا مثلا أن تؤيد ضرورة عقد مثل هذا الاجتماع . وكانت فى ذلك مجازفات عديدة : فبالنسبة لفرنسا قد تثار مسألة الجزائر ، وبالنسبة للأجلاسكسونيين قد تثار مسألة ألمانيا وتوحيدها ، وبالنسبة للحلفاء جميعا قد يعمد خروثشوف إلى استدراجهم إلى اجتماع كان المفروض أن تُنظر فيه مشاكل الشرق الأوسط فيياهم بطرح كافة المشاكل القائمة بين الشرق والغرب ويكون هو بطبيعة الحال مستعدا تمام الاستعداد للاجتماع بينما يكون الحلفاء على غير استعداد له .



وقال فانفاني : إن روسيا قد حاولت اقتحام الغرب عبر برلين ، ولما لم تتمكن من ذلك فطنت إلى إمكان الالتفاف من جنوب أوروبا عبر الشرق الأوسط . والواقع أن لروسيا وجودا فعليا في الشرق الأوسط ، ولذلك لا يمكن الاعتقاد بأن المقصود من عمليات إنزال الجنود في لبنان أو الأردن هو منع الروس من دخول المنطقة فهم موجودون فعلا فيها . وعلى ذلك لا يمكن تفسير العمليات العسكرية إلا أنها لمنع اتساع النفوذ أو المصالح الروسية ، ولا وسيلة للحيلولة دون المتاعب في الشرق الأوسط إلا بالعمل المشترك في نطاق الأمم المتحدة وفي هذا النطاق وحده ، مع الاكتفاء بمناقشة المسائل المتعلقة بالشرق الأوسط دون غيرها . وإذا أردنا كشف السياسة الروسية على حقيقتها فينبغي أن نطلب من روسيا أن لا تقحم المسألة التركية ضمن المناقشات وأن تقبل على العكس إدخال المسألة الاسرائيلية .

وأضاف فانفاني قائلا : من الواضح أن الحلول الممكنة بالنسبة للبنان والأردن لا يمكن إلا أن تكون حلا مؤقتة ، وإن كان من الممكن فصل المسألة اللبنانية — إلى حد ما — عن سائر المسائل في الشرق الأوسط ، غير أن تشبيه لبنان بسويسرا يُعتبر خطأ كبيرا في تقدير الأمور ، فينبغي أن لا نخلط بين شجر الأرز وشجر الصنوبر . أما الأردن فلا يُتصور أن يكون الحل بالنسبة له إلا حلا مؤقتا اللهم إلا إذا أمكن الوصول إلى حل المشكلة العامة للشرق الأوسط أولا وكذلك مشكلة العلاقات بين العرب واسرائيل .

وهذه المشكلة الأخيرة لها أوجه ثلاثة : أولها مشكلة اللاجئين ، ثم مسألة العلاقات بين إسرائيل والأردن وأخيرا المسألة العامة المتعلقة بعلاقات اسرائيل بسائر الدول العربية . ولا يمكن اعتبار اتفاقية الهدنة حلا حقيقيا للمشكلة ، فالحل الحقيقي أكثر تعقيدا ويمكن الوصول إليه بعقد اتفاق بين دول الشرق الأوسط تلزم بمقتضاه بعدم التدخل في شئون بعضها البعض . ثم عقد اتفاق بين الدول الخارجة عن منطقة الشرق الأوسط التي لها مصالح مباشرة فيها ينص على نفس الالتزامات وتكون روسيا ضمن أطراف هذا الاتفاق .

هذا من الناحية السياسية ، ويأتي بعد ذلك حل اقتصادي يتم باتفاق الدول المنصوص عليها في الاتفاقات لتكوين صندوق مشترك يستخدم لإنعاش الحياة الاقتصادية في المنطقة بشراء المنتجات وتصديرها ، وتوظيف رؤوس أموال واستثمارها لآجال طويلة ، وإيجاد عمل للاجئين الفلسطينيين لتحسين أحوالهم اقتصاديا واجتماعيا ، على أن يكون من حق الإدارة المشرفة على الصندوق المشترك أن توقف المعونة عن الدولة أو الدول التي تخل بشرط من شروط الاتفاقات السابق ذكرها .

وأضاف فانفانى أن هذا في نظره أسلم الحلول لأنه يقوم على اعتبارات إنسانية ومنطقية . ثم استطرد قائلاً إن إيطاليا هي الأخرى تعدّ القومية العربية حقيقة تاريخية قاعمة ، وأنه من العبث التفكير في وقفها أو القضاء عليها بل إن هذا يكون متناقفاً مع أبسط أصول السياسة ، فالحركات التي من هذا النوع لا تقاوم ومن الأفضل عدم التعرض لها حتى لا تتفجر فتخرج عن تطورها الطبيعي .

وختم فانفانى حديثه بأنه أخذ حذره مما عبرت عنه جولدا ماير بالناصرية ، إلا أنه يرى من الواجب مساعدة القومية العربية لأسباب كثيرة : منها سلب روسيا ما تدعيه من أنها الصديق الأوحى للقومية العربية . وقال إن ديجول وأديناور وفاه على ذلك ويشاركانه هذا الرأي ، وأن هذا ما قاله لسفير الجمهورية العربية المتحدة بروما الموجود الآن في القاهرة ، وأنه أوضح له أن إسرائيل حقيقة كسائر الحقائق القائمة في الشرق الأوسط .

ثم استأنفت جولدا ماير الحديث فسردت في اقتضاب تاريخ المسألة الفلسطينية ، وكيف أن قرارات الأمم المتحدة كانت لدولة عربية لم تر الوجود ، وأن الدول العربية هي التي عرقلت كل شيء بإسراعها إلى محاربة إسرائيل وأنها خسرت الحرب فتغيرت الأوضاع بالتالى ، بل إن الخطاب الذى ألقاه إيدن في « جيلدهول » في خريف سنة ١٩٥٥ عن إمكان الوصول إلى حل وسط يحمل إسرائيل على تعديل حدودها أصبح غير ذي موضوع ، فقد تحركت الأمور بل تغيرت تغييراً شاملاً بما لم يعد معه محل في الرجوع إلى اقتراح إيدن .

وقالت جولدا ماير إنها توافق على ما ذكره الرئيس فانفانى عن الضمانات ، لكنها تساءلت عما يحدث إذا سقط الأردن صريعاً للناصرية ؟ وبادرت إلى القول بأن إسرائيل في هذه الحالة ستضطر على الرغم منها إلى الإسراع لاحتلال القدس القديمة للوصول إلى ضفاف نهر الأردن لحماية نفسها إزاء الخطر الداهم الذى سيهددها من كافة حدودها ، وعقبت بأنه يمكن تهيئة نظام دولى بالنسبة للقدس القديمة .

وقالت جولدا ماير أن إسرائيل لا يمكنها استيعاب جزء من اللاجئين العرب فلديها مايكفيها من الأقلية العربية ، وكل ما يمكنها عمله هو قبول عشرة آلاف لاجئ لهم أقارب داخل إسرائيل ، ولم تستبعد في نهاية الأمر إمكان إعادة النظر في مسألة الحدود .

وفي نهاية اللقاء طلبت جولدا ماير بطريقة غير مباشرة العمل على تسهيل تنفيذ بعض العقود المبرمة لتوريد بعض الأسلحة الخفيفة لإسرائيل ، فأجابها الرئيس فانغاني أنه يعلم أن هذه العقود تسير في مجراها الطبيعي .

وقد تبين لي من هذا اللقاء أن المحادثات كانت مجرد استطلاع آراء الحكومة الإيطالية وإثبات إسرائيل لوجودها حيث باتت شديدة القلق من جراء انتشار القومية العربية ونجاحها ، كما أن إسرائيل قد أحست بأن الدول العظمى تتأهب للتفاهم مع العرب وترى أنها أصبحت في عزلة لا تطمئن إليها . وفي تعليقي على هذا اللقاء أوضحت للقاهرة أن إسرائيل قد أسقطت في يدها ، وأنها لم تعد تعارض القومية العربية بعد اقتناع العالم بها ، ولكنها تعتمد إلى بلبلة الأفكار بإثارة مائذعيه من أن الناصرية مبدأ تختفى وراءه أطماع مصرية صرفة .

و يبدو أن إسرائيل قد استعدت لليوم الذي تتحرر فيه الشعوب العربية في الشرق الأوسط وتتحد ، وأنها تشعر بأن ليس في مقدورها مواجهة ذلك الموقف . ولذلك عمدت إلى تحويل مخاوف الحكومات الغربية إلى الميدان الأفريقي بمفتريات عن السياسة الناصرية في تلك القارة ، لاسيما أن الدول الأوروبية تنظر إلى أفريقيًا بأنها المجال الوحيد الذي يسمح لهذه الدول بالوقوف على قدميها بين العملاق السوفييتي والعملاق الأمريكي . كما أن إسرائيل تحاول أن تظهر أمام الغرب بأنها الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي يمكنهم الاعتماد عليها وأن الاتحاد السوفييتي يعمل جاهدا على إزالتها من الوجود . كما أن الحديث عن ضعف إيران واحتمال اجتياح حركة قومية لها ، يُقصد به أن يبقى الغرب على الحلف المركزي بل ويعمل على تقويته . وتحاول إسرائيل زيادة مخاوف الغرب نحو القومية العربية بطريق غير مباشر بعدما لمست من اقتناع الغرب بها ، وذلك بإثارة الشكوك حول موقف المسؤولين عن النظام الجديد في العراق ، كما تحاول منع المعونة الاقتصادية عنا أو تقليلها قدر الإمكان .

وتطلب إسرائيل ضمان الدول الغربية لكيانها وحدودها ، بل إنها تطلب إقرار مبدأ حق الغرب في التدخل إذا بلغ تقارب روسيا من إحدى الدول العربية حداً يشغل تهديدا لها . وتستعد إسرائيل لابتلاع الأجزاء العربية الباقية من أرض فلسطين وتأمل في سكوت الدول على ذلك بتدويل المدينة القديمة في القدس .

ولا تخرج إسرائيل على موقفها السابق من مشكلة اللاجئين ، وكان واضحاً أن فانفاني يحذر صادقا إسرائيل من القيام بأية مخاطرة تكون نتيجتها حرب عامة . وكذا كانت إيطاليا تعتقد أن إنزال الجنود في لبنان والأردن من الأخطاء التي يجب تداركها ، وأنه لا يمكن إسباغ نظام حيادي تام على لبنان ، وأن استمرار الأردن على ما هو عليه أمر مستحيل ، كما تعمل إيطاليا للوصول إلى إنهاء النزاع بين العرب وإسرائيل ، وتعتقد أن عدول إسرائيل عن تشدداتها من شأنه أن يسهل حل المشكلة حلانهايا .

ولقد أكدت هذه الوثيقة أن ما أفضى إلى به الرئيس فانفاني بشأن الشرق الأوسط في مقابلي السابقة له يطابق في مجموعة ماقاله لجولداماير ، وهو ما زادني ثقة في أمانة الرجل . وفي أعقاب إرسال هذه الوثيقة المصحوبة بتعليقاتي إلى رئيس الجمهورية واصلتني رسالة خطية عاجلة من السيد حسين ذوالفقار صبري المستشار السياسي لرئيس الجمهورية هذا نصها :

«إننا هنا جميعا نشكرك على هذا المجهود الرائع ، ولكن نرجو أن تلاحظ عدم إرسال مثل هذه المعلومات إلى الخارجية لأننا لانضمن محافظتها على سريتها التامة فتفقد مصدرا من أهم مصادرك . نرجو أن تُفصر إرسال هذه المعلومات إلينا في الرئاسة التي والى «على» فقط مع خالص تحياتي وشديك فإن نشاطك مدهل ومرير وربنا يقول يا بطل .»

و كنت فور عودتي من القاهرة قد أرسلت هدية الرئيس عبدالناصر الرمزية إلى الرئيس جرونكي ، فأوفد إلى في الحال مستشاره السياسي الوزير شيبيكوشا كرا هذه اللفتة التي أراد رئيسنا أن يعرب بها للرئيس جرونكي عن شعوره الطيب نحو شخصه وعن تقديره للخدمات التي تؤديها الحكومة الإيطالية بإرشاده الحكيم لقضية السلام وتفهمها الواعي للقومية العربية الناهضة وحرصها على احترامها والتعاون معها .

وقد أثار الوزير شيبيكو موضوع الرعايا الإيطاليين وأبدى شيئا من القلق بالنسبة لمستقبلهم . فقلت له إن الرئيس فانفاني كان قد سلمني قبل سفرى إلى القاهرة مذكرة ضمنها بعض المسائل المعلقة بيننا وبينكم ، وقد عدت إلى روما بحلول أعتقد أنها استدعو الرئيس فانفاني إلى الارتياح لأنها حلول عملية . أما

المسائل التي من شأنها أن تمس أمن الدولة فلها وضع خاص ، وسأشرح للرئيس فانفاني الذي سأقابله بعد أقل من ساعة أننا استجبنا إلى معظم طلباته بتقديم حلول عملية روعيت فيها مصالحنا ومصالحكم . فأبدى ارتياحه لما سمعه ، وكرر الإعراب عن شكر الرئيس جرونكي وتحيته الرئيس عبدالناصر ، وقال أنه لولا أن الرئيس جرونكي مسافر بعد أربعة أيام لزيارة البرازيل زيارة رسمية لكان قد استقبلني على الفور لإبلاغى بنفسه ما كلفه به اليوم وأنه يود أن يرانى عقب عودته من رحلته .

كذلك استقبلني السنيور فانفاني بمكتبه يوم ٣٠ أغسطس حيث أعرب عن تقديره لتصريح كنت قد أدليت به عند عودتي إلى روما وقصدت به تهيئة جو عام من التفاهم الودى وقال أنه يستبشر به خيرا ، كما أعرب عن امتنانه للهدية الرمزية التي أرسلها اليه الرئيس عبدالناصر ، فشكرته وقلت :

إن الرئيس تلقى رسالتك ببالغ الاهتمام وقد كلفنى أن أحمل إليك تحيته وأن أعرب لك عن شعوره الودى وكذلك عن تقديره للخدمات التي أدتها الحكومة الإيطالية لقضية السلام . وهو يؤكد لكم على لسانى الأهمية الكبرى التي يعلقها عليكم شخصيا لى يستقر السلام فى كل مكان وبنوع خاص فى الشرق الأوسط والبحر المتوسط ، وفى رأيه أن فى وسع إيطاليا الصديقة أن تقوم بدورها فى هذه المنطقة من العالم التي تجمعنا وإياكم ، وأنه يرحب بالاجتماع بكم فى مصر لتبادل وجهات النظر معكم ولبحث التعاون الممكن بين البلدين على أسس ودية راسخة ، وقد لاحظ الرئيس بارتياح مساهمة السياسة الإيطالية الناجحة فى تهدئة الحالة الدولية ، وفى تقديره أن إيطاليا القريبة من العالم العربى والتي تربطها بالجمهورية العربية المتحدة صداقة تقليدية والتي اتسمت سياستها بطابع الواقعية يمكنها أن تؤدى دورا إيجابيا ممتازا لإشاعة روح التفاهم . وأن الرئيس يود أن يبين لكم أن التيارات الكبرى التي تحتاج العالم العربى اليوم إنما هى صادرة من ضمير الأمة العربية نفسها ، وهى ظاهرة تلقائية وإجماعية وصميمة ، تعبر عن أمانى هذه الأمة وتستجيب لحاجتها ، وليس هناك اعتبار يسمح بإرجاع تلك الظاهرة إلى شخص معين باعتبارها ملكا له .

إلى أن قلت : إن الرئيس يعلق أهمية كبرى على الروح التي يتم بها التعاون مع العالم العربي أيا كان مجال هذا التعاون ، وإن كان يخشى إذا وكلت إيطاليا إلى الغير تقديم أفكارها السياسية الحكيمة أن يسيء هذا الغير صنعنا نتيجة لشعور عدائي أونيه سيئة . ويرغب الرئيس في أن يقوم تعاون مباشر بين الجمهوريه العربيه المتحدة وإيطاليا في ميادين كثيرة وبخاصة الفنية والاقتصادية منها . كما أنه يأمل أن تتراحوا إلى الردود على المسائل الواردة في مذكرتكم المؤرخة في الخامس من أغسطس ، ويود في النهاية أن يؤكد لكم مرة أخرى مبلغ تعلقه بالسلام ، و يرى بهذه المناسبة أن استمرار بقاء القوات الأمريكية في لبنان من شأنه أن يثير مضاعفات نحن جميعا في غنى عنها .

ثم سلمته المذكرة المتضمنة ردنا بالنسبة للمسائل التي ترغب إيطاليا في تصفيتها ، وكان الرئيس عبدالناصر قد استجاب لكافة المطالب التي طرحها فانفاني . وكانت ملامح الغبطة تفيض على وجهه وهو يطالع المذكرة التي كان لها أثر بالغ في نفسه ، وكلما انتهى إلى شيء يرتاح إليه هز رأسه منتشيا . وبعد أن فرغ من قراءتها سألتني هل أوافق على إصدار بيان رسمي يُعرب عن ارتياحه لما جاء في تلك المذكرة فأجبتة موافقا . وإذا هو يسألني إذا كنت أمانع في ذكر الدعوة الموجهة إليه أيضا ، وإذا رأيت مدى تأثيره وافقته على اقتراحه إمعانا في إرضائه ، فاستدعى مائز نيني مدير مكتبه وأمله البيان ثم سألتني رأيي فيما أملاه فأبدت ارتياحي إليه .

وقد شكر لي توجيه الدعوة إليه لزيارة مصر وسألني عما إذا كان هناك تاريخ محدد لإتمامها ، فأجبتة بأنها دعوة مفتوحة يمكن الاتفاق سوا على تحديد الموعد المناسب لها ، فوعد باستشارة الرئيس جروني في هذا الصدد وإخطاري باقتراحه في ظرف أسبوع . ثم بادرنى لأول مرة منذ توليه السلطة بالسؤال عن الموعد الذي أراه مناسباً لدعوة الرئيس عبدالناصر لزيارة إيطاليا ، فقلت إنه يحسن الاستفهام عن ذلك منه شخصيا عند لقائه به فهو من يستطيع أن يحدد الوقت المناسب لها وحتى لا يحدث أي لبس في المستقبل مثل ما حدث في الماضي . وحين سألتني عن أنسب الأوقات في تقديري لهذه الزيارة اقترحت شهر مارس أو أبريل في ربيع عام ١٩٥٩ . فسألني : ألا يمكن تقديم الموعد عن ذلك ؟ فقلت إن الأمر يتوقف

على الالتزامات التى يرتبط بها الرئيس ، فإذا هو يادرنى بقوله : سأخطر مجلس الوزراء فى أول اجتماع بأمر هذه الزيارة . وأردف أنه يرجو أن أتصل به فى ظرف أسبوع لمعاودة الحديث فى أمر زيارته للقاهرة وزيارة الرئيس لإيطاليا .

ثم سألتى عن مصير العرض الذى كانت شركة فيات قد تقدمت به . فقلت له إننى تحدثت بشأنه مع المسؤولين فى القاهرة ، وأضفت أن فى وسعه أن يلمس من رؤساء الشركة نفسها مدى التعاون الذى تقدمه لهم . قال إنه يعرف ذلك تماما لكنه يتوق إلى أن تنال الشركة هذه الفرصة فى القاهرة ، فوعده بالتوصية من جديد .

وفى النهاية أبلغنى الرئيس فانفانى بأن السنيور راندولفو باتشاردى — من زعماء الحزب الجمهورى — سيقوم برحلة استطلاعية إلى الشرق الأوسط ، وأنه يود المرور بالقاهرة ختاماً لرحلته . فاعترضت قائلاً : إن الحملات المسمومة التى شتها باتشاردى علينا فى مناسبات كثيرة مازالت عالقة بأذهان كافة المسؤولين لدينا وإننى أعتقد أن ذهابه إلى القاهرة قد لا يفيد . قال إنه هو الذى أوعز شخصياً لباتشاردى بهذه الرحلة عساه يتفهم الموقف على حقيقته ، والشواهد تدل على استعداده لتغيير آرائه . وأضاف أنه أرسل معه أحد رجاله الموثوق بهم لمصاحبته والتأثير عليه وهو أحد رجال السلك السياسى الإيطالى واسمه « كارلو ماركيورى » ثم ألح على راجيا أن أصم على إنجاح محاولته وكسب الرجل إلى ناحيتنا قائلاً إنه واثق من أنه إذا لقي عبد الناصر فهو كفيل بأن يحوله عن رأيه فضلاً عن أنه قد هبأه لهذه المهمة . وعاد فكرر أن مهمة ماركيورى تنحصر فى ملازمة باتشاردى والتأثير عليه ، وأنه يرجع أن تبدأ الرحلة فى ٦ سبتمبر لينتهى إلى القاهرة حوالى ٢٠ سبتمبر .

وإذ كان فانفانى رجلاً شديد الحساسية فقد كانت للفتة عبد الناصر أحسن الوقع فى نفسه إذ أحس أنه موضع تقدير الرئيس وثقته ، وبهذا يكون قد نجح بفضل قدرته السياسية حيث فشل غيره . والواقع أن الفرحة التى هزت الرئيس فانفانى أمامى لا يفسرها من حيث مبلغها ماسلمته من حلول لبعض المسائل المعلقة بيننا وإنما يفسرها النجاح الذى صادفه بدعوة الرئيس عبد الناصر له إذ كان ذلك مما يرفع من شأنه ويقوى مركزه بالنسبة لأنصاره ومنافسيه وحلفائه ومعارضيه على

السواء ، فضلا عن أنها أعادت شيئا من التوازن بينه وبين الرئيس جرونكى إذ كان التنافس الخفى بينها شديدا . فإذا كان جرونكى سينور البرازيل في القريب العاجل و يستقبل شاه إيران بعد بضعة أسابيع فإن زيارة فانفانى إلى القاهرة تفوقها من الناحية السياسية كما أنها تثبت لـحلفائه الغربيين أن الأسلوب الذى تتبعه إيطاليا يلقى منا التأييد .

كذلك كان فانفانى يشعر أن الزمن قد يقف حائلا دون تحقيق أهدافه بعد أن رأى المفاوضات المالية بين مصر وفرنسا لتصفية الموقف الناجم عن العدوان الثلاثى قد انتهت إلى حلّ ، وأن المفاوضات مع بريطانيا كادت هى الأخرى أن تتم بنجاح فبات يتوجس خيفة من أن هذا وذلك قد يضعف من شأن إيطاليا مع مصر . وكانت حكومة فانفانى المقبلة من الناحية السياسية الداخلية ومن حيث التوازن بين الأحزاب على دورة محتشدة بالعمل ، ولما كانت المعارضة قوية والأغلبية التى حصلت عليها الحكومة عند طرح الثقة بها لم تتجاوز ثمانية أصوات فقد كان الاحتفاظ بالأصوات التى نالتها واكتساب غيرها من الأصوات المعارضة أو المستنعة أمرا بالغ الأهمية . ولذلك كان تحقيق زيارة ناجحة إلى القاهرة يقوى من مركزه داخل البرلمان ، وهذا ما يفسر إلحاحه فى قبولنا دعوة باتشاردى للقاهرة رغم علمه بمدى إساءته لنا فى تصريحاته ومقالاته السابقة .

\* \* \*

وفى الحادى عشر من سبتمبر جاءنى جوجولدن ليصارحنى بان ناحوم جولدمان بات يرى الأوان قد آن لاتخاذ خطوة إيجابية نحو إدماج اسرائيل ضمن المنطقة العربية حتى تتبدد كل المخاوف والمشاكل بين الجانبين ويسود المنطقة استقرار وسلام تامان . وبسط لى كيف يتم هذا الإدماج من خلال تنفيذ قرارات الأمم المتحدة عام ٤٧ ، ١٩٤٩ وهو ما يهدف فى خياله للذوبان الأردن داخل الضفة الغربية مكونة دولة فلسطين التى تضم كافة اللاجئين مع الاتفاق على حدود مشتركة بين هذه الدولة ومصر على أن يقوم الاتفاق بينهما على رسم الحدود الفاصلة ، وتحمل اسرائيل دفع التعويضات والآثار المترتبة على إنشاء الدولة على هذا النحو . وقد بدا لى الحديث غريبا منه فى الوقت الذى لم تكف فيه اسرائيل عن استفزازنا بتكديس المزيد من السلاح كما تشير إلى ذلك الصفقات الأخيرة



المعقودة مع كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا . ومضى يبرّر لى هذه الصفقات بقوله إن الخوف أسوأ ناصح ، إذ كثيرا ما تتركب الأخطاء تحت تأثير ضغط ، ثم أسرّ لى بأن هاركاى مدير المخابرات الاسرائيلية قد أفضى إليه هو ورفاقه من الضباط الشبان بأنهم باتوا لا يثقون البتة فى سياسى اسرائيل القدامى لسحدرين من يهود الجيتو ، وأنه وأقرانه يضعون ثقتهم فى جيل الشباب أى لجيش ، ومن ثم فهم يشجعون على إشاعة التوتر تحت تأثير الخوف فتكون لهم بذلك ربيعة لبقاء الجيش فى حالة تأهب متصل ، وهكذا يصبح تكديس الأسلحة فى نظر الرأى العام الإسرائيلى كله ضرورة لا غنى عنها . ثم ألح إلى برم ناحوم جولدمان بن جور يون واتهامه له بعدم تفهمه لعقلية العرب وعدم إيمانه بالسلام معهم وأنه يحلم أن يحقق قبل موته حلم اسرائيل القوية المستقلة التى يلعب اسمه فى تاريخها دورا مقدسا ، مما اتضح معه عمق الصراع القائم بين جولدمان وجماعته وبين بن جور يون وأنصاره ، وأن المنافسة الشديدة بينها قائمة على اختلاف فى مفهومها لكيفية بقاء دولة اسرائيل وترسيخ قواعدها . وأخذت أستمع إلى تصوّره للخطوة الأولى التى يمكن أن تقرب بين العرب واسرائيل والتى تتمثل فى قيام دولة عربية هامة كبرى بإعلان تصريح يزيل مخاوف الشعب اليهودى ويجعله يقتنع على الفور بعدم جدوى تبديد أمواله فى شراء السلاح وتكديسه تمهيدا للدخول فى معارك يفقد فيها أرواح الكثير من أبنائه . وإذا هولفرط دهشتى يعرض بالشعب الإيطالى الذى لمس تحسّن العلاقات بينه وبيننا . وقد جعلته دهشتى هذه يتراجع قليلا ليؤكد لى أن يهود العالم لن يقفوا حجر عثرة دون قيام تفاهم بين مصر والغرب ، وكأنما يبغي إقناعى بقوة تأثير اليهود على نطاق العالم كله وامتداد نفوذهم فى مختلف المجالات ، وهو ما أكده بصراحة حين راح يحدثنى عن وقوع أديناور مستشار ألمانيا الغربية تحت تأثير جولدمان .

وعاد إلى ذكر أن ناحوم جولدمان هو الذى أرغم بن جور يون على تنفيذ قرار الأمم المتحدة بسحب القوات الاسرائيلية من غزة فى أعقاب العدوان . ومضى يؤكد لى أن بن جور يون يعتمد فى حكم اسرائيل على نظام بوليسى إرهابى حفزه إلى التعجيل بإجراء الانتخابات العامة فى اسرائيل فى موعد مبكر خلال عام ١٩٥٨ بدلا من العام التالى قبل أن تتوقف التعويضات الألمانية وتنتهى معها

حالة الرخاء المصطنع وتسقط إسرائيل في وهدة الأوضاع الاقتصادية المتدهورة . ولهذا فإن جولدمان يرغب في أن يلعب دورا فعالا في السياسة الاسرائيلية ، وأنه قد قضى بالفعل الشهور الستة الأخيرة في اسرائيل مناهضا سياسة بن جوريون المبنية على استبعاد قيام السلام مع الدول العربية . وبناء على ذلك يرى جولدمان أنه إذا كان لدى مصر وهي الدولة ذات التأثير الحاسم في الموقف العربى استعداد لتقبل قيام السلام والاستقرار فهو أيضا على استعداد لأن يقوم بخطوة إيجابية في هذا المجال تتمثل في تنازله الفوري عن جنسيته الأمريكية والتقدم لخوض معركة الانتخابات القادمة ضد بن جوريون على أساس المناداة بسياسة جديدة تجاه الدول العربية ، ولكنه يشترط في مقابل ذلك أن تقوم مصر بإعداد الرأى العام العربى لخطوة إقرار السلام مع اسرائيل .

وأشار جولدن من جديد إلى استعداد جولدمان لمقابلة الرئيس عبدالناصر أينما وحسبما يرى ، وكان جولدمان قد أعرب علنا عن هذا الاتجاه في حديث أدلى به إلى مجلة إكسپرس الفرنسية (مايو ١٩٥٨ ) بمناسبة العيد العاشر لقيام اسرائيل تتضح منه آراؤه وأهدافه والدوافع التى تحركه . وقد حرصت على توجيه أنظار القباهرة إلى هذا الحديث للوقوف على آراء جولدمان التفصيلية عند تقديرها للموقف . فقد صرح بأن اسرائيل تمثل عنصرا غريبا على المنطقة ، وأن وضعها سيظل غير طبيعى إلا إذا أصبحت جزءاً لا يتجزأ من كيان الشرق الأوسط ، وهو الأمر الذى لن يتم دون قبول الدول العربية له . كما حذر بأن الوقت في صالح العرب ، متنبأ بعدم احتمال نشوب صراع مسلح بين العرب واسرائيل خلال السنوات الثلاث التالية ، ومشيرا إلى أن الإمكانيات العربية تتجاوز إمكانيات اسرائيل بكثير . غير أنه ألمح إلى أنه في حالة هجوم الدول العربية على اسرائيل فإن الولايات المتحدة الأمريكية لن تقف مكتوفة الأيدى نظرا لوجود الجالية اليهودية بها والتي يبلغ تعدادها خمسة ملايين ونصف مليون ، فضلا عن تعاطف الأوساط النقيبسية والشفافية والدينية الأمريكية مع اسرائيل ، فكلتا الدولتين تتكون من مواطنين مهاجرين من بلادهم الأصلية تحت وطأة الاضطهاد الدينى ، وكلتاهما نشأت وترعرعت على أيدي الرقاد الذين قضوا على السكان الأصليين . على أنى لم أستبعد من خاطرى أن يكون هناك سبب آخر لم يعلنه جولدمان وهو اعتماد

الولايات المتحدة على اسرائيل كركيزة لها في الحرب الباردة الدائرة بينها وبين الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط .

كذلك أشار جولدلمان في حديثه إلى أن تنازع الكتلتين العربيتين التقدمية والرجعية هو في واقع الأمر أحد منطاهر الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، وأنه كلما طال أمد هذه الحرب الباردة فإن موقف السوفييت سيزداد قوة لأن الولايات المتحدة تعتمد صراحة وعلانية على حفنة من الإقطاعيين العرب في حين أنها تهمل شأن الشعوب العربية نفسها . ولهذا فإن استمرار النزاع بين الكتلتين العربيتين يحفزهما إلى التعتت في موقفها تجاه اسرائيل حتى لا تعطى إحداهما للكتلة المضادة فرصة النيل منها والتشهير بها . ومن ثم فهو يشجع كل ما من شأنه قيام هدنة بين الكتلتين العربيتين ، ففي ذلك ما يفضى إلى تخفيف غلواء عداوة كل منهما لاسرائيل .

ويخرج جولدلمان من تحليله بأنه يمكن بلوغ هذا الهدف إذا وافقت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على استبعاد الشرق الأوسط من لعبة الحرب الباردة ، بأن تستفق الدولتان على سبيل المثال على إصدار ضمان مشترك لحماية حدود دول المنطقة على غرار التصريح الثلاثي الذي صدر عن دول الغرب عام ١٩٥٠ . ولكنه يعترف في الوقت نفسه بتعذر قبول الولايات المتحدة لهذا الحل لأنه ينطوى على اعتراف ضمنى بشرعية النفوذ السوفييتي في الشرق الأوسط مما يعد نصرا دبلوماسيا يحرزه الاتحاد السوفييتي . ولذا اقترح أن تقتصر الخطوة الأولى على اتفاق الدولتين العظميين على وقف تصدير الأسلحة إلى الشرق الأوسط ، الأمر الذي يمهّد في نظره لتحديد المنطقة بما فيها اسرائيل . لكنه في الوقت ذاته يشير إلى أن اتجاه اسرائيل إلى الحياد هو أقصى ما يمكن أن تتخذه ، لأنها لا يمكنها الانحياز إلى الكتلة الشيوعية في ميدان السياسة الخارجية لاعتمادها الكلى على يهود الغرب ولطبيعتها الديمقراطية ، ثم مضى يوضح أن اليهودية الأمر يكية لن تغفر لاسرائيل اتخاذها موقفا معاديا للكتلة الغربية لوحدث ذلك ، ولكنها ربما تسامحت إذا رأت أن اتجاه اسرائيل نحو الحياد يمهّد لإقرار السلام مع العرب في المنطقة . وينتهى جولدلمان إلى تبرير هذا الاتجاه بقوله أنه حتى بن جوريون نفسه قد يرحب بأى ضمان روسي من شأنه استقرار الأوضاع في الشرق الأوسط .

وفي أعقاب الحديث سارع جولدن إلى إبلاغى بأن ناحوم جولدمان يرجو إذا كان الرئيس عبد الناصر يوافق على أن يعتبر الأفكار التى أدلى بها فى حديثه إلى مجلة إكسپرس أساسا يمكن البناء عليه عند أول لقاء فإنه يتعهد من جانبه بالحصول من الإسرائيليين على قبول مبدأ المباحثات ، وذلك فى سرية مطلقة .

وكان طبيعيا أن ترفض القاهرة أى اقتراح يحرم قواتها المسلحة من الحصول على السلاح اللازم لها بعد أن ثبت لها من قبل خلال حملة فلسطين ١٩٤٨ استحالة التزام إسرائيل بتنفيذ أى اتفاق ودأبها على اجتلاب السلاح من أى مكان بواسطة المنظمات الصهيونية فى الدول الغربية سرا ودون أدنى توقف . أما عن بقية العرض المقدم من جولدمان فقد رأت القاهرة فيه أنه بالرغم من جرأته الكبرى إلا أنه يجازف بتحدى رأى العام الغربى ، كما أرجعت مبادئه إلى اقتراب موعد انقطاع المعونات الألمانية وبرم بعض أثرياء اليهود الأمريكين بالإعانات المتواصلة لإسرائيل دون ظهور بادرة لاستقرار إسرائيل الاقتصادى ، فضلا عن تبلور مخاوف بعض الهيئات المسيحية وبعض دوائر الصناعة الأمريكية المتحررة من الضغوط اليهودية وتزايد النفوذ الصهيونى فى كافة نواحي النشاط الاقتصادى والحزبى والإعلامى والدعائى مما يهدد بإخضاع السياسة الأمريكية خضوعا تاما للمصالح الصهيونية ، وكان جيمس فورستال وزير حربية الولايات المتحدة . السابق أول من دق ناقوس الخطر محذرا من فداحة هذا النفوذ . ولعل هذا هو ما حفز ناحوم جولدمان إلى تصور أن الحل الوحيد القادر على انتشال إسرائيل من احتمالات تخلصى أمريكا عنها هو المسارعة بسبق الأحداث والاتجاه بسياسة إسرائيل إلى الحياد الذى قد يثير ثائرة الغالبية من يهود أمريكا وإن لم يوقف سيل الموارد تماما . ولعله أيضا قد أدرك أن الفترة القادمة ستكون فترة عصيبة بالنسبة لإسرائيل مما حدا به إلى الإلحاح على التوصل إلى هدنة أو شبه هدنة مع الدول العربية ، وذلك بواسطة عروضه المخدرة ، فضلا عن إمكانية استغلال المناادة بسياسة الحياد للحصول على تسهيلات سوقية قد تفتح باب الهجرة ليهود شرق أوروبا . ومن يدرى لعله قد لوج للاتحاد السوفيتى بإمكانية التسلل بنفوذه إلى إسرائيل ، وكان هذا هو الخطر الوحيد الذى يهدد مشروع جولدمان بتحويل إسرائيل إلى قاعدة شيوعية فينقلب عليه الوضع شخصيا بسيطرة الحزب الشيوعى

على الحكم في اسرائيل . على أن جولدمان لاشك قد أقام موازينه على ضوء إمكان تحول اسرائيل إلى ناحية الغرب مدية أخرى بعد تداعى القومية العربية ، فلقد ظلت الدول العربية مستغرقة في سبات عميق على مدى طويل فإذا باغتصاب فلسطين يحفز إلى يقظة القومية العربية .

وفي هذه الأثناء تأرجحت الآراء في القاهرة بين مؤيد لمواصلة هذه اللقاءات بحذر شديد لأنها تلقى ضوءا على اتجاهات الصهيونية الخفية ، وبين معارض لها خاصة وأنى سفير معتمد ، وأنه إذا كان لابد من مواصلة هذه اللقاءات فلتكن على يد غيرى أو جهاز آخر ، وهذا انتهت صلتى بهذا الموضوع نهائيا .

\* \* \*

وفي الفترة ما بين ٣ و٦ أكتوبر انعقد في مدينة فلورنسا مؤتمر البحر المتوسط<sup>(٣)</sup> الذى نظمه عمدة فلورنسا السابق البروفسور جورجيو لاپيرا أستاذ القانون الدولى وأحد الأعضاء البارزين بالحزب الديمقراطى المسيحى والصدى الشخصى للرئيس جرونكى والرئيس فانفانى . غير أن المحرك الحقيقى وراء هذا المؤتمر كان المؤتمر الصهيونى العالمى من خلال هيئة تحرير مجلة « دراسات حوض البحر المتوسط » Etudes Méditerranéennes والتى كان يمثلها فى روما چو جولدن جولان وكانت أغلبية المشتركين فى المؤتمر من الحزبين الاشتراكيين الفرنسى والاسرائيلى للمترابطين ترابطا وثيقا بالإضافة إلى بعض العناصر الاشتراكية المغربية والتوسية . ومنذ البداية جرت المحاولة لصيغ المؤتمر بصيغة لقاء غير رسمى بين العرب والاسرائيليين ، وقد اختفى دور الحكومة الاسرائيلية إذ جاءت المبادرة من ناحوم جولدمان .

ومن الناحية الإيطالية كان المؤتمر يخدم هدفين فإقليم توسكانيا الذى تمثل فلورنسا عاصمته كان معقلا من معاقل الحزب الديمقراطى المسيحى السياسية القوية ويلعب دورا هاما فى الانتخابات الإيطالية ، وكانت الأنشطة الدولية للسلام جزءا من برنامج الحزب خلال معركته ضد الحزب الشيوعى . ومن ثم ظفر المؤتمر بتأييد قوى من الفاتيكان الذى أراد مع الحزب تحقيق سمعة لفلورنسا على أنها مركز عالمى لحركة السلام على غرار جنيف . فضلا عن هذا كانت سياسة

الرئيس فانفاني تتجه كما قدمت إلى أن يلعب دورا هاما في حوض البحر المتوسط باعشا من جديد أحد مطاعم موسوليني بتكوين نوع من الاتحاد بين دول البحر المتوسط تحت رعاية إيطاليا . وقد اعترضت هذا المؤتمر عقبتان أولاها العلاقات المتوترة بين العرب والغرب وتمثلها الحرب الفرنسية الجزائرية ، والثانية الأزمة العربية الاسرائيلية . وقد مثل الجمهورية العربية المتحدة في هذا المؤتمر المرحوم السفير عدلى أندراوس والمرحوم الشاعر الفنان جورج حنين والأستاذ عادل ثابت الذين اجتمعوا بهم في مقر السفارة للاتفاق على الخطوط الرئيسية التي يتبعها الوفد قبل أن انتقل معها إلى فلورنسا كمراقب . وكان الوفد المغربي برئاسة ولي العهد مولاي حسن [ الملك الحسن الآن ] واضح التعاطف مع اسرائيل لدرجة أنه كان على وشك الاعتراف بالوفد الاسرائيلي لولا إصرارى الشخصى على ضرورة انسحاب الوفد الاسرائيلي الرسمى حتى يأخذ المؤتمر طابعه غير الرسمى ، وإصرارى كذلك على حضور الوفد الجزائرى الذى استبعد في يوم الافتتاح حتى اضطر بدوره الوفد الفرنسى إلى الانسحاب من المؤتمر . والظاهرة المحيرة التي استلقت نظرى وقتذاك هى التعاطف المغالى فيه من جانب الأمير المغربى نحو الاسرائيليين حتى أنه ذهب إلى أبعد من ذلك فوجه الدعوة إلى جميع الحاضرين بما فيهم الاسرائيليين إلى حضور المؤتمر الذى سيعقد في مدينة فاس ، بينما كان سلوكه تجاه الوفد المصرى يتسم بالكثير من الفتور .

ومر المؤتمر بثلاث مراحل : مرحلة الافتتاح الرسمى ثم مرحلة انسحاب الوفد الاسرائيلي الرسمى الذى أثار بعض الاضطراب في المؤتمر ولعله كان سبب وقوع البروفسور لايرا فريسة للمرض ، ثم المرحلة الأخيرة حين ظهر الاسرائيليون فجأة بعد أن ألقت كافة الوفود العربية كلماتها ، وذلك للإيجاء بأنهم قد تبادلوا الرأى مع أعضاء الوفود العربية .

وعلى الرغم من محاولات اسرائيل أن تضى على المؤتمر طابع تبادل الرأى بين العرب واسرائيل فإنهم لم يبلغوا مرادهم ، وكان وفد مصر سواء الأستاذ عدلى أندراوس أو جورج حنين أم عادل ثابت على أعلى مستوى في تمثيله لبلاده ، فقد أظهر الجمهورية العربية بمظهر ثقافى رفيع لا يقوم على التعصب والتطرف وبين أن المقومية العربية تنبثق من المبادئ المسيحية واليهودية الأمر الذى استقطب

تعاطف عدد كبير من الكاثوليك والمسيحيين الحاضرين وأثار حفيظة الاسرائيليين ، خاصة عندما أشار الوفد إلى أن اسرائيل هي ثمرة سياسة القوى الأوربية وأنها مادية النشأة متناقضة مع مبادئ المسيحية واليهودية . على أن علال الفاسى — من المغرب — ألقى خطابا تضمن دون داع حق اسرائيل في قيام وطن لهم ولكن ليس بفلسطين ، فاستغل الاسرائيليون خطابه دليلا على أن العرب على استعداد للتفاوض بشأن اللاجئين الفلسطينيين ، غير أن وفد مصر انبرى معارضا مبدأ نشوء أوطان تقوم على العقيدة الدينية أو النعرة العنصرية .

ولم يكد المؤتمر ينتهى من أعماله حتى وجدتني في حاجة ملحة إلى البقاء قليلا بفلورنسا لأستمتع بما تضمنه من جمال فأسرح الطرف في مبانها التي جمعت بينها الوحدة المعمارية المتسقة والتي بدت شائعة رشيقة تطوى في ثناياها تاريخا حافلا بعشق الفن والعنف والمجون معا . وتميزت من بينها هنا وهناك قصور جليلة المعالم تُضفى على المدينة هبة وجلالا ينمّان عن شفافية وحسية في آن واحد ، وسواء صافية صفاء تلك الزهور الزرقاء التي كعم المدينة وهى تلف بزرقها بروجها الرمادية الشاخصة وقباها الحمراء الجائمة برداء أزرق وكأنها لوحة من تصميم فنانها الراهب فرا أنجيليكو . رحتُ أتأمل هذا الخليط المتنافر بين الماضى والحاضر الذى لا تضيق به فلورنسا التى لا يقف دون امتدادها حدود ، حيث يتسع الوادى على ضفتى نهر الأرنو الذى يشقها للعرمان ، وتتطامن التلال على جانبيه ترحب بكل بناء يقام على أنقاض الماضى ، وتُخلّى أزقة العصور الوسطى المتلوية مكانها للطرق الحديثة المستقيمة . وعلى الرغم من هذه الأبهة التى جاءت مع هذا العرمان فإن العين لا تزال تُؤثر تلك الميادين العتيقة مثل ميدان كنسية الدومو بمبنى معموديته وبرج أجراسه ، وميدان السّثيور يا [ السيادة ] بما يضم من مبان ذات تصميمات خالدة مثل بالاتزو فيكيو [ القصر العتيق ] ، ورواق بيجالو ، ورواق حاملى الرّماح [ لانزى ] الذى كان ميكلانجلوتوق إلى أن يمدّه ليلتلف حول الميدان كله ، ومتحف أوفتزي الزاخر بأروع مصورات عصر النهضة الفلورنسية ، فإذا تلك المباني الحديثة التى أقيمت إلى جوارها مما تتخطاه العين وتزدر به ، وإذا العين مع اعتيادها تلك الأخطا من المناظر قديمها وحديثها لا تزال عالقة بالتشال العظيم لداود الذى نحتة ميكلانجلو ويقوم شاحنا على باب « القصر العتيق » وإلى

جواره تمشال هرقل الذى نحتة دونا تلوو. وكذا لاتضيق العين بازدهام رواق لانزى بالمنحوتات ، إذحسبها منها تمثال چوديث وفى يدها السكين تذبح بها هولوفرنيس من نحت دُوناتللو العظيم ، أوتمثال البطل پيرسيوس الشديد البأس من نحت بِنُفُثُوثُو، كما يسترعيها سور القصر العتيق — رمز العنف والبطش وإراقة الدماء — الذى شُيِّد ملاذا أم الجيوش العادية . و يلفت الانتباه أيضا تمثال بارتولوميو كوليونى للفنان الخالد فيروكيو وهو يمتطى صهوة جواده وسط الميدان ، كما يجتذبه الطوار الذى أقيم عليه نصب نحاسى يحمل وجه « سافونارولا » إشارة إلى الموضوع الذى أُحرق فيه هذا الراهب الدومينيكانى لجرأته على رفع صوته فى وجه البابا اعتراضا على الفسق والمجون والعودة إلى الروح الوثنية .

افتترشتُ عتبة كنيسة الدومو الشهيرة أسترجع مشاهد المهرجانات التى كانت تجتاز طرقات المدينة بمهرجتها فى أقنعتهم المختلفة وثيابهم المتنوعة رافعين المشاعل ، وأتمشَل عروض المركبات بمنصاتها تجوب الشوارع بين تهليل المواطنين وهتافاتهم ، تلك المركبات التى وضع تصميماتها أعظم فنانيهم مُشبعين عليها كل ما يملكون من مواهب فنية مثلما كانوا يفعلون فى لوحاتهم وتماثيلهم . وأخذت أُنَحِّيل مسيرة تلك المركبات التى كان بعضها يحكى أشهر الأساطير اليونانية ، وينظم أشعارها لورنزو العظيم نفسه واصفا رونق الشباب بفتوته العاجلة العابرة موصيا باقتناصها بقوله المأثور « ما أجمل الشباب ، ثم ما أبعد عن الأسى ، ولكن ما أسرعنا فى وأد متعاته . دع الناعمين به الآن لاهين فى بهجتهم ، فغدا سيولّى الشباب أذاره » .

وما إن يتخطى الزائر المدينة وتقع عينه على الريف التوسكانى بخُضرته وبتشابك كرومه على سفوح تلال كيانتى وبرياه الزمادية المحتشدة بأشجار الزيتون ومواكب شجر الصنوبر وهوىطلّ عليها من تل فيوز يلى حتى يُلْفَته ذلك عن التطلّع إلى ماسواه مما تضمّه المدينة ذاتها التى ما تلبث أن تتبدى له بوجهها السافر حين يطلّ عليها من تل سان ميئاتو وهى تجارى الوادى المتحوّى لنهر الأرنو، فتتجلّى له سقوف مبانيها المنحوتة من الجبل وكأنها صخور مترامصة تتخللها صفوف القرميد الأحمر، وتبرز من ثنائياها أبراج من رخام ، من بينها « القصر العتيق » والسقف المشتمن لمعمودية كتدرائية الدومو الذى ابتدعته عبقرية برونليسكى .



وسرعان ما تتقع عين العابر لرواق « حاملى الرماح » على الجسر العتيق « بونت فيكيو » بأقواسه وعقوده الخلابية ، حتى إذا انتهى إلى الجسر نفسه أبصر حوانيت صائغى الحللى ذات الشهرة الذائعة متراصة متلاصقة بعددها الذى يبلغ اثنين وعشرين حانوتا وقد انسدت عليها سُدل خُضر فتبدو بها وكأنها أعشاش الطير .

هكذا بدت لى فلورنسا أول مرة فى ثوبها القرمزى الذهبى وقد اضطجعت على مهد أخضر ، وتلاقت سماؤها بتلالها فى انسجام رهيف . بدت لى مدينة لطيفة صارمة فى آن واحد تجمع بين بشر الكبرياء ووجوم الحزن ، نارية اللون وكأنها شفق الشمس مع المغيب ، تنبعث منها خيوط دقيقة من دخان ماتلبث أن تتعقد حول بُرج الجراس وكأنها ترمز إلى أن مخرقة « سافونارولا » لا تزال متقدمة .

\* \* \*

وفى الثمانى . من سبتمبر التقيت بالسفير ألساندرينى سكرتير عام وزارة الخارجية الإيطالية . سى أن الرئيس فانفانى كان يتوقع إتمام زيارته للقاهرة فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر لكنه بعرض الأمر على مجلس الوزراء فى جلسة أمس رأى أنه مضطر إلى إرجاء زيارته بضعة أيام لاستقبال شاه إيران خلال زيارته لإيطاليا فى الفترة ما بين ٩ ، ١٣ أكتوبر المقبل ، وهو ما يجعله يقترح على الرئيس عبدالناصر أن تم زيارته للقاهرة فى أيام ١٦ ، ١٧ ، ١٨ أكتوبر . وكشف لى عن الأثر الذى أحدثته دعوة الرئيس جمال لفانفانى واهتمام الجانب الإيطالى بلقاء الرئيسين ورغبتهم فى توفير الأسباب لنجاحه وانكبابهم على دراسة الموضوعات والمسائل الجزئية المتعددة حتى تصبح جاهزة للموافقة أثناء الاجتماع . وقد حصر ألساندرينى الموضوعات التى يطمع رئيس وزراء إيطاليا فى الاتفاق عليها ، وعاد للحديث عن بعض الموضوعات ومن بينها ما جرى حسمه كموضوع الأموال المسموح للإيطاليين الذين هاجروا من مصر بنقلها . وكانت الحكومة الإيطالية قد أبدت رغبتها فى تعديل الحد الأعلى المعمول به ورفعته من ٢٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ جنيه . وقد وافقت القاهرة كحل عملى على أن يُفتح حساب خاص بالنسبة لتحويلات أرضة الإيطاليين الذين يغادرون مصر وعلى أن يسوى رصيد هذا الحساب بصنادرات مصرية ، وفى هذه الحالة لا يكون هناك ما يحول دون رفع

الحد الأعلى للمبلغ المسموح بنقله بحيث يصبح ٧٠٠٠ جنيه لكل أسرة أسوة بما  
اتبع مع السويسريين . وأبلغنى ألساندرينى ارتياحهم إلى هذا الحل .

ثم كان موضوع شركات الفوسفات الإيطالية فى القصير التى تلقى بعض  
المصاعب لعدم منحها مساحات إضافية للاستغلال وعدم السماح للفنيين  
الإيطاليين بها بتحويل مدخراتهم إلى إيطاليا . وكنت قد عدت من القاهرة  
بالموافقة على زيادة مناطق الاستغلال بشرط أن ينحصر للمصريين ٢٥ ٪ من  
الزيادة الجديدة فى رأس المال مع السماح للفنيين الإيطاليين بتحويل مدخراتهم  
إلى إيطاليا بمعدل ٢٠٠٠ جنيه لكل أسرة . وأذكر أنى عندما أبلغت الرئيس  
فانفانى بهذا الحل قال لى على الفور أنه فى مقابل هذه الروح الودية لايمانع فى أن  
يكون اشتراك المصريين بواقع ٥٠ ٪ من رأس المال الجديد . كما عرج ألساندرينى  
ثانية على موضوع شركة « فيات » التى كان الرئيس فانفانى قد حدثنى أثناء  
مقابلتى له فى ٣٠ أغسطس عن اهتمامه بالعرض المقدم منها لإقامة مصنع  
للسيارات فى مصر إذ كانوا يخشون منافسة الشركات الأجنبية الأخرى وخاصة  
شركة مرسيدس الألمانية . فقد كانت إمكانيات ألمانيا المالية أوفر من الإمكانيات  
الإيطالية ، كما أن نصيب الصناعة الألمانية فى الجمهورية العربية المتحدة كبير إلى  
الحد الذى جعله يسمح إلى أن المصلحة تدعو فى بعض الأحيان إلى تجنب وضع  
الببيض كله فى سلة واحدة . وأضاف السفير أن الرئيس فانفانى قد كلف وزير  
المالية بالعمل على مد الضمان المقدم من الحكومة الإيطالية لمؤسسة فيات وجعله  
سبع سنوات بدلا من ست ، وأن الجهات الفنية المختصة تقوم الآن بدراسة التوجيه  
الصادر من الرئيس فانفانى . وقد أوضحت له أن السلطات المصرية ليس لديها  
مانع من قبول المشروع من الناحية السياسية ومن الناحية الفنية ، غير أن المسألة لها  
جانب لا يمكن إغفاله ، هو أن العروض الألمانية قد تكون أوفق لنا من الناحية  
المالية ، وأنه ينبغى والأمر كذلك أن تعمل مؤسسة فيات على تعديل عرضها بما  
يشجعنا على قبوله بارتياح . وأبلغته فى النهاية أننا بدورنا بصدد إعداد المسائل التى  
نرى تقديمها من جانبنا إلى السلطات الإيطالية لدراستها والعمل على تلاقى  
وجهات النظر فيها .

وقد اتضح لى أن المسائل التى حدثنى عنها ألساندرينى وسبق لفانفانى أن أثارها أثناء مقابلتى له فيها دلالة واضحة على أنه - إلى جانب خدمة المصالح الإيطالية - يريد استغلال الموقف لمواجهة مقتضيات السياسة الداخلية الإيطالية . كما أن حرص الجانب الايطالى على الانتهاء من إعداد الاتفاقات المطلوب توقيعها قد دفعنى إلى الاعتقاد بأن فانفانى يود أن يتفرغ أثناء زيارته القاهرة واجتماعه بالرئيس لتبادل الآراء فى مسائل سياسية ، وهو وإن كان لم يُفصح عن شيء منها إلا أنه لم يكن من العسير إدراكها . وخلال هذه الآونة شهدت السفارة المصرية بروما توافد عدد غفير من كبار رجال الصناعة والاقتصاد أبدوا الرغبة فى التعاون معنا والمشاركة فى عدد من مشروعاتنا الكبرى ، وقد صمّنت اقتراحاتهم رسائلنى إلى القاهرة لتوى .

وفى ٢٤ سبتمبر التقيت من جديد بالسفير ألساندرينى لوضع الخطوط النهائية لزيارة الرئيس فانفانى للقاهرة ، فأكد لى الأهمية التى يعلقونها عليها وأوصى بالعمل على إنجازها ، كما ألمح لى بسعادة الرئيس فانفانى وهو الرجل العاطفى بحرارة الاستقبال التى يلقى بها المصريون ضيوفهم وتمنى لوتضمن برنامج الزيارة مقابلة الجالية الإيطالية . ثم استطرد فقال إن الرئيس فانفانى يعترم السفر بطائرة عادية يوم ١٥ أكتوبر مساء ، وفى نهاية إقامته فى القاهرة يسافر يوم ١٨ أكتوبر إلى الإسكندرية حيث يقضى بها ليلته ، وفى ١٩ أكتوبر يسافر بالسيارة إلى العلمين لافتتاح النصب التذكارى الذى يضم رفات الجنود الإيطاليين وكذلك النصب الذى يضم القتلى المسلمين ، واقترح السفير ألساندرينى أن تكون حكومة الجمهورية العربية ممثلة فى الاحتفال وأن يحضره أحد رجال الدين المسلمين ، أما عن الجانب الإيطالى فسيمثله فريق يضم ممثلى أسر القتلى والمحاربين القدماء وممثل لوزارة الحرب بالإضافة إلى رجال الصحافة والإذاعة ، على أن يصل هؤلاء جميعا إلى القاهرة بطائرة حربية خاصة من روما .

وحين سألته هل أعَدَّ الجانب الإيطالى جدولا للأعمال التى تبحث فى الاجتماع ؟ قال لا وقد أسلمنا لكم الرئيس فانفانى تحتفلون به كما يروق لكم . وتحذونه فيما تبغون .

قلت دعنى أكشف لك بصفة شخصية عن إحساس يقلقنى أبحتُ لنفسى مفاحتك فيه بدافع من الصداقة التى تربط بيننا ، وسألته عن حقيقة ما يُشاع عن زيارة الرئيس فانفانى لاسرائيل ، قائلا إنى أخشى أن يكون قبولها وخاصة الإعلان عنها فى هذه الفترة بالذات مما قد يؤثر بعض الشئ فى زيارة القاهرة ويحيط سياستكم الجديدة إزاء العالم العربى بالريبة . فرد بأن الدعوة لزيارة اسرائيل قد وجهت إلينا قبل دعوتكم ، وقد تحاشى فانفانى الرد عليها وترك السفير الاسرائيلى مدة طويلة فى حيرة ، ومع ذلك فلم يكن من المستطاع رفضها وإن كان موعدها لم يُحدّد بعد . ثم أردف قائلا : وإنى أقترح أن يسأل الرئيس عبدالناصر ضيفه عن تلك الزيارة . وعاد يؤكد لى أن ذهاب فانفانى إلى القاهرة أمر فى غاية الأهمية وأن أملهم كبير فى نجاح الزيارة .

وفى نهاية اللقاء أسلمته مذكرة ضمّنتها المسائل المعلقة بيننا وبينهم ، وكذلك بعض الأمور التى من شأنها توثيق العلاقات الاقتصادية والثقافية بين بلدنا . واتفقنا على أن نعود إلى الاجتماع سويا بحضور مدير الإدارة الاقتصادية بالوزارة لمناقشة ردّهم على المذكرة ولتحديد الأهداف العملية من لقاء الرئيس فانفانى بالرئيس عبدالناصر . ورغم أن ما ذكره لى ألساندرينى عن زيارة فانفانى لاسرائيل لم يقنعنى ، إلا أننى كنت موقنا أنها لن تقلل من أهمية زيارة فانفانى للقاهرة على الإطلاق بل إنها تقتضى من جانبنا مضاعفة جهودنا لاستمالته قدر الإمكان إلى صفّنا .

وقبيل مغادرتى روما بعد انتهاء مهمتى كسفير، دُعيت فى الرابع والعشرين من نوفمبر ٥٨ للقاء الرئيس جرونكى الذى أعرب عن أسفه لانتهاء مهمتى الدبلوماسية وأبدى ارتياحه لجهودى فى سبيل تعزيز العلاقة بين الدولتين فشكرته على لفتته باستقبالى قبل رحيلى ، وأعربت له عن امتنان مصر لمبادرته الشجاعة التى بدأت تشمر ثمارها نحو إيجاد أحسن الظروف لتوثيق العلاقات الإيطالية المصرية . وقد عبر لى عن إيمانه بأنه مع مرور الأيام سيتخلى الكثيرون عن عدائهم لنا وأكد أنه سيبذل كل الجهود الممكنة ليحمل الدول الصديقة على التعاون مع مصر لمواجهة احتياجاتها المختلفة وخاصة مايتعلق منها برفع مستوى المعيشة رغم وجود عقبة فى سبيل ذلك وهى عدم ثقة الغرب فى روسيا التى تمارس نشاطا

يجعل مهمته باللغة الصعوبة . ثم إذا به يفاجئني بأن الرئيس خروتشوف قد أدلى بتصريح منذ بضعة أيام يعارض فيه قيام صلة تعاون اقتصادي بين الغرب ودول الشرق الأوسط ، على أنه استدرك مقدرا أن مصر ليست في وضع يمكنها من رفض معونة الكتلة الشيوعية ، وإن كانت هذه المساعدة قد خلقت اليوم حالة من القلق يحسن إزالته ، وأن الاتصالات التي يقوم بها الرئيس فانفاني قريباً في مصر وكذلك ما سيعترب عليها من زيادة الصلة بين البلدين ستكون بلاشك ذات قيمة كبيرة . ثم أوضح لي إدراكه للصعوبة التي تعترض مصر بتحويل مبلغ مليارين من الليرات الإيطالية نتيجة إعادة شراء الفوسفات بالقصير ، ولذلك اقترح استغلال هذا المبلغ في مشروعات مصرية للزراعة والري .

وكذا أقام الرئيس فانفاني حفلاً بقبلاً « ماداما » تكريماً لي قبل سفري قلندي خلالهما وسام الصليب الأكبر بدرجة فارس .

كانت إيطاليا خلال هذه الفترة قد أنهت سياستها المرحلية الأولى التي قامت على أساس تضييد جراحها واستعادة اعتبارها كدولة مهزومة بين الدول الغربية ، وغدت تتطلع للدخول في مرحلة جديدة تثبت فيها شخصيتها الإيطالية ، غير أن الاعتبار العامة التي تربط بين دول الغرب الأطلسي بالإضافة إلى قوة الرأسمالية اليهودية لم تفقد تأثيرها على السياسة الإيطالية ، ولذلك كان رفض دعوة إسرائيل لفانفاني يعني إحراجاً كبيراً للسلطات الإيطالية . لكنني كنت ألاحظ أن الفكر الإيطالي كثيراً ما يتخذ سبلاً غير واضحة المعالم ، ولذا كنت أرى أنه لا يجوز أن يشنينا شيء عن الماضي في سياستنا فلا نثبط العزائم ولا نشجع الأطماع وإنما نلتقي مع غيرنا حيث نريد وفي الوقت الذي نراه مناسباً لمصالحنا . وكان حرص فانفاني على المطالبة ببقاء الجالية الإيطالية واصطحابه معه عدداً من الصحفيين والمذيعين في نظري مظهراً من مظاهر المنافسة بينه وبين الرئيس جرونكي الذي أبدى أثناء زيارته الرسمية للبرازيل اهتماماً مبالغاً فيه بالجالية الإيطالية هناك وتحدث مزهواً بذلك عند عودته إلى روما .

وبعد الاتفاق على موعد زيارة الرئيس فانفاني طرأت ظروف اقتضت تأجيلها إلى ٨ يناير ١٩٥٩ حين كنت قد خلفته منصبى سفيراً . وبرغم الجهود

التي بذلتها في سبيل الإعداد لهذه الزيارة فقد أعلنت رئاسة الجمهورية عن تشكيل الوفد المصري للمفاوضات دون أن يتضمن اسمي ، فعجبتُ لهذا التعمد في إبعادي . وفي حفل العشاء الساهر الذي أقامه الرئيس عبدالناصر لضيفه فانفاني بقصر عابدين انتظر الوزراء — وأنا من بينهم — وكبار رجال الدولة في قاعة الاستقبال طويلا وصول الرئيسين ووفدى المباحثات بعد أن طالت جلسة المفاوضات في القاعة المجاورة . وإذا بالمرحوم الدكتور محمود فوزي يخرج قبل الوفد يسأل عني ويبلغني أن الرئيس فانفاني ظل يردد اسمي طوال الجلسة متسائلا عني ، وأنه ما من موضوع طرقة إلا وعلق عليه بأن اتفاقا قد تم بينه وبينى على كذا وكذا ، بل صرح لى بأنه ألمح من طرف خفي دهشته من عدم وجودي . وأعترف أنه كان لهذا الحديث وقع طيب في نفسي خفف من حدة أسفى على تعمد استبعادى من وفد المفاوضات الذى كنت أعتقد أن من الطبيعى أن أشارك فيه إذ كنت المُمعد لهذه المفاوضات ، هذا إلى معرفتى العميقة بموضوعاتها وبأعضائه الإيطاليين ، لاسيما ولم يكن قد عُيِّن لسفارة روما سفير بعد . وبعد هنية انفتح الباب على مصراعيه وتقدم جمال عبدالناصر يصحبه أمينورى فانفاني الذى سرعان ما اتجه نحوى فاتحا ذراعيه ليحتضننى أمام الجميع قائلا : « وأخيراً صديقى عكاشة » وكأنه بهذا الترحيب يبدي دهشته بأن أكون مُبعدا عن وفد المفاوضات . فتطلع الرئيس عبدالناصر نحوى قائلا : « ماذا فعلت بهذا الرجل ، حتى أنه لم ين عن ذكر اسمك في كل صغيرة وكبيرة تناولناها ؟ كم أودّ أن تصحبه في جميع جولاته إلى أن يغادر مصر » . وكأن عبدالناصر أراد بهذا أن يرضينى أولا عما سلف من إبعادي ، ثم ليضمن لضيفه صحبة من يأنس إليه .

وإن قلتُ شيئا عن هذا الاستبعاد الذى ما أشك أنه كان من فعل أحد كبار المسؤولين برئاسة الجمهورية ، وكان إليه اختيار وفد المفاوضات ، إن ذكرت هذا فلا أذكره لشخصي أبعدتُ أم لم أبعد ، وإنما أذكره لأعطى دليلا على ما كانت الأمور تُدار به لوفد الأهواء ، ولا يخالجنى شك في أن الأمر لو كان لعبدالناصر في هذا الموقف لما زلتُ هذه الزلة .

## ٢ رُومًا بَعِيدًا عَنِ السِّيَاسَةِ

على أنى كنت إلى جانب العمل الشاق المضنى والعثرات التى أرادها لنا  
 المتأوتون أنعم أحيانا بمتعة لا نهاية لها أمام ما تمتلىء به جنبات روما من  
 روائع فنية خالدة ، فقد كنت أجد بين الفينة والفينة فى عروضها الموسيقية  
 والأوبرالية ما يزيح عني آثار الإرهاق ويروى وجداني الظامىء دائما الى  
 الموسيقى التى اجتذبتنى منذ صباى ، وبقيت طوال عمري ملاذ نفسى كلما  
 حزبنى أمر أو نزلت بى ضائقة أو وقعت أسير محنة نفسية عصبية . كانت بين  
 يدي مائدة تضم أشهى ألوان الفنون وأنا وسط تلك البلاد التى تطوى جناحيها  
 على حضارات ثلاث لاتقل إحداها عن الأخرى جمالا ورفعة : ضمت أول  
 ماضمت حضارة الإيتروسك المنبع الأول الذى ارتشف منه الفن الرومانى  
 قطرات الرى الأولى ، فأخذت تدب فيه الحياة بفضلها الى أن عثر على غذائه  
 الحقيقى فى فن اليونان الباذخ الثراء . وانطلقت أطوف هنا وهناك بين  
 تاركوينيا وتشيرقيترى فى توسكانيا حيث مقابر الإيتروسك التى تعد بحق  
 وكأنها مدن للموتى تألفت جدرانها بلوحات تعكس بتكويناتها وإيقاعاتها  
 صورا واقعية مثيرة لحياة أولئك القوم الذين لم يشغل بال مفكريهم وفنانيهم

شيء - شأنا نحن قديما - مثل فكرة الموت والعالم الأخرى حتى دارت حياتهم في هذا النطاق النابض بالسحر والغموض . فقد ازدهرت هذه الحضارة في وسط إيطاليا بفضل اتصاله الحضارى بالمستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا وصقلية « ما جئنا جريتشيا » ، فلم تنفض يدها منها إلى أن بسط الرومان نفوذهم على المنطقة بأسرها ، غير أن الإيتروسك أسبغوا لونا جديدا على الأساطير اليونانية إذ صبغوها بالحدة والعنف وتَفَشَّى فيها التعبير عن الكوارث التي تحيط بالبشر ، وانشغلوا بالحياة التي تستقبل الإنسان بعد موته فأغفلوا تجميل المدن والدور بينما عنوا بمشواهم الأخير الذى صُوِّرت على جدرانها مشاهد المآدب الحافلة بالمرح وأنغام عازفى القيثارة ونافخى المزمار لتشيع السعادة فى طيف المتوفى حين يرى صورة الموائد الزاخرة بألوان الطعام ، كما تعيده مشاهد الصيد والقنص ومباريات ألعاب القوى إلى المباهج التي استمتع بها أثناء حياته . والفن الإيتروسكى برغم انطوائه على بعض التناقضات الجلية وتعرُّضه لبعض الكبوات فن متميز جذاب وإن لم يتجه اتجاه اليونان فى نحت تماثيل الشخوص . ولعل اختيارهم الحجر الهش مادة لنحتهم كان إليه اندثار آثار رائعة كتلك التي خلَّدها اليونانيون الذين اختاروا الرخام الصلد لتشكيل تماثيلهم ، بينما خلف الإيتروسك لوحات رائعة من النحت البارز بمادتي الطين المحروق والبرونز تميزت بقدرة خارقة على التعبير ، احتوى معظمها متحف فيلا جوليا . الشهير الذى يقع على بعد خمس دقائق من فيلا ساقويا مقر السفارة المصرية بروما .

وزائر روما يقف مذهولا أمام نجاح الرومان فى فرض نظامهم الإمبراطورى السياسى وقوانينه بالقوة ، لكنه يقف فى إعجاب بالغ أمام اتساع إشعاعهم الروحى فى الماضى والحاضر ونفاذه إلى مناطق شاسعة بفضل ما كان ينبض به من ألوان الثقافة والفكر . ولو أننا سمحنا لخيالنا بتصور عالم لم تظهر فيه روما ، لاستطعنا أن نقدر تقديرا صحيحا ما قامت به هذه الإمبراطورية من جهد عظيم فى تاريخ الفكر الإنسانى حيث تألقت البلاغة الرومانية حين كانت الخطابة من مستلزمات الحياة العامة ، وما أصدق قول تاسيتوس : « ليس الرضا الذى يشيعه فن الخطابة فى نفوسنا بهجة عابرة تملأ كل حياتنا بل كل ساعة من ساعات نهارنا » .



كانت فرصة باهرة أن أعيش في ظل هذه الذكريات وأحيائها ، فبدأت أتعرف على أدباء الرومان ، فما أحببت أن أقتحم قصورهم ومعابدهم دون أن أكون على علم بشيء مما كان يدور بين جدرانها وجناتها . على أن فكرى مرّ مروراً عابراً بالبعض وعلق هواى ببعض آخر ، فقرأت لفرجيل إنبادته ، وهى وإن لم تبلغ صميم قلبى فإننى لم أنكر على ناظمها شاعريته . وأنعمت النظر فيما سطره أوثيد فى كتابه « التحوّلات » [ ميتامورفوزس ] فأسرني وعشقتة ، وانكفأت أقرأ كل ماكتب . وما إن فرغت من مهامى الرسمية فى أوائل السبعينات حتى خلوت إلى نفسى ونقلت كتابه الخالد « التحوّلات أو مسخ الكائنات » إلى العربية وأتبعته برائعته الساخرة الخفيفة الظلّ « فن الهوى » [ آرس أماتوريا ] . وهذه الترجمة وتلك ظهرتا فى طبعات ثلاث .

وقرأت للوكر يشيؤس لأكتشف شاعراً فليسوفاً وقيق. الوجدان جسوراً فى الكشف عن الخرافات التى تتضمنها العقيدة الدينية السائدة فى عصره ، والتى لم يلبث أن نبذها متعلّقاً بفلسفة أبيقور التى أنقذته من حيرته وأنس إلى ما فيها من إرادة متحررة ومن شاعرية لا تعترف إلا بالآلهة فكهة مسالمة لا تفرض على العالم سلطاناً ولا تطلب من البشر عبودية ، فأعاد صياغة أفكار أبيقور الجافة فى قالب شعري رقيق وميسور الفهم حتى يستميل القارئ إلى الغوص فى أعماقها الفلسفية ، كما يفعل الطبيب حين يخلط الدواء المرّ بقليل من العسل يغرى به المرضى على تناوله ، ولم يلبث أن أخرجها فى قصيدة طويلة بديعة سماها « فى طبيعة الأشياء » De Rerum Natura استمالتنى ، فشرعت فى نقلها إلى العربية ، وأرجو أن أتمكن من الفراغ منها عما قريب .

وشغلنى شغفا الأديب پترونيوس المرفه الحس الذى احتكم إليه الناس فى كل ما هو جميل أنيق ، حتى كتبه نبيرون « بقاضى الذوق » ، وهو صاحب كتاب « ساتير يكون » [ الذى أخرجه فليلينى تحفه سينمائية فريده فى تاريخ السينما العالمية ] . وملك على زمام نفسه موقف پترونيوس حين أمر نبيرون بإعدامه ، فأثر أن يموت منتحراً ، واستدعى طبيباً قطع شريان ريسغه وجلس إلى جواره ودمه ينزف من جسده المتهاوى . وفى نفس الوقت أخذ يملأ على كاتبه رسالته الشهيرة : الساخرة إلى الامبراطور ، والتى ما إن وصلت إليه حتى كانت صفعة هوى بها .

پترونيوس على وجهه قبل أن يفارق الكاتب الحياة ، استهأها بقوله : «أى نيرون . امبراطور الرومان وسيد العالم وكبير الكهنة . ليكون نبأ موتى حين يبلغك خيبة أمل لك لأننى أعلم كم كنت تتوق إلى الظفر بهذه المتعة ، متعة إزهاق روحى على يدك ، فأن يولد المرء فى عهدك فذلك خطل فى التوقيت ، أما أن يموت فى عهدك فتلك فرحة الخلاص . قد أغفر لك قتلك لزوجتك ولأقمك ، وحرقت لمدينتنا روما المحبوبة ، وأغراقك لبلادنا الجميلة برائحة جرائمك النتنة ؛ ولكن شيئاً واحداً لا أستطيع غفرانه : هو الملل الذى يصاحبنى حيناً أستمع لأشعارك وأغانيك التافهة وتمثيلاتك السوقية . التزم بمواهبك الفريدة يانيرون فى شغفك بالقتل ودس السم وارتكاب الخيانات وإشاعة الرعب . افتك برعاياك يامولاي ؛ ولكنى وأنا ألفظ آخر أنفاسى أناشدك وأتوسل إليك ألا تدنس رحاب الفن بمؤلفاتك . وداعا . ولكن حذار أن تقترب جريمة تأليف موسيقى أخرى . افتك بشعبك ماشئت ، ولكن إياك أن تفسد سأمه كما أثرت سأم صديقك حتى لا بالموت . المرحوم جايوس پترونيوس » .

ولقد نشأ الفن الرومانى نتيجة التقاء الروح الرومانية بفنون الإغريق لقاء عنيفا أدى إلى وقوع هذا الفن الوليد فى حبال التلفيق وحمله لطابع مهبجن واضح المعالم حتى لم يعد الفن الرومانى يحمل أى معنى من معانى الأصالة الخالصة التى تميز بها الفن اليونانى الذى مضى يستلهمه ويستهدى خطاه و يقتفى آثاره محاولاً أن يضع أجمل عناصره إلى جانب أجمل العناصر التى اكتشفها فى غيره من الفنون وأن يخلق من هذه الأشأت المختلفة الاتجاهات والعصور أعمالاً موحدة . ومع ذلك فالرومان من أكثر شعوب العالم ولعاً بالبناء ، تشهد على ذلك أطلال آثارهم التى بلغت من الروعة والعظمة ما أتاح لها إلهاب الخيال ، فلقد أسهموا فى فن العمارة إسهاماً تاريخياً طوّر البناء للملازمة أغراض الحياة العامة ، فاستحدثوا نقلة واضحة بالتحول من البناء الدينى إلى مشروعات الهندسة المدنية ، حتى قال مهندسهم العتيق فرونتينوس مزهوا : « من ذا الذى يجروء على أن يرفع الأهرام العقيمة ومنجزات الإغريق العديمة النفع إلى مصاف قناطرنا العملاقة التى تزود دورنا بالمياه وحماماتنا الفسيحة التى تطهر أبداننا ؟ » . وبلغ تطورهم التكنولوجى إلى حد الارتقاء بأبنيتهم إلى ستة طوابق ، واستحدثت تصميمات رائعة للمباني من الداخل لتلبية احتياجات تزايد السكان بإفساح فراغات كبيرة داخل الوحدات المعمارية ثم استخدمهم اللامحدود للإمكانات الكامنة فى العقود لتحقيق

الأهداف الساسقة . وكان تميز الرومان بالنزعة التنظيمية في المجالين السياسى والاجتماعى هو الذى حدا بهم إلى تجميع الآلهة معا فى مكان موحد هو الهانثيون ، إذ خالوا آلهة الأولمپ وكأنهم مجلس شيوخ أعلى يشرع للمسائل الكونية والأحداث الخارقة التى تفوق قدرة شيوخ الرومان وأباطرتهم .

وما أكثر ماتجولت فى ساحة الفورم ، الذى كان فى أول عهده منطقة مقدسة عامرة بالمعابد والنصب التذكارية ، وتحول فى عهد الجمهورية مركزا تجاريا ودينيا وسياسيا يشقه الطريق المقدس «قياسا كرا» ، مُظِلِّقا العنان لخيالى يطوف مع تلك المواكب الحافلة التى كانت تجتازه إلى معبد چوپيتر كبير الآلهة ، ومواكب الجيوش الظافرة والجنازات الكبرى مارة أمام المنصة المخصصة لخطب الرثاء . ومُتمثِّلا المآدب العامة التى كان يقيمها الأباطرة لجماهير العامة احتفالا بانتصار وطنى أو حداداً على فقيده عظيم . وحينما كنت أتلبث بالساحة المتاخمة لمجلس الشيوخ التى أضفت بمرور الزمن على الفورم طابعه السياسى حيث كان يعتلى السياسيون المنصة المقامة به يخطبون ، وحيث كان شيشرون يلقي خطبه الماثورة التى حقق بسحر منطقها وبلاغتها الجزلة النجاح الذى ظفربه فى ميدان السياسة متساميا عن المفهوم التقليدى للبلاغة ومفتدا الاعتراضات الأفلاطونية التى كانت تعدّ الخطابة فنا مظهريا فارتقتى بها إلى أن جعلها أخصب تعبير إنسانى ، وكذا كاتوا الذى اعتاد أن يختم كل خطبة من خطبة بعبارة الماثورة *Delenda est Carthago* « ولندمرن قرطاجه تدميرا » . وما أكثر ما استرخيت مستندا إلى قاعده عمود متداع بينا يطوف خيالى وسط رواد هذا الفورم العتيق ، فيصوّرلى المتقاضين والمحامين والشهود ، والصيارفة والمرابين والسماسرة ، وبحرك فى نفسى السخرية من المتسكّعين والطفيليين والمدّعين والمقسمين بالأيمان الكاذبة والثرائين والمحمورين ومروّجى الشائعات والفصائح والمجرمين وقطاع الطرق وقراء الطالع والراقصين والمهرجين والمشعوذين حيث كانوا يحتشدون وراء معبد كاستور ، وإذا أنا أسترجع قصيدة الشاعر كاتوللوس التى تعكس ما كان يعيش فيه من رغبة وانغماس فى العربة والمجون وهو يناجى عشيقته لزيبا بين أزقة الفورم متغنيا :

« فلنعش ولنكن حياتنا غراما . أى لزيبا حبيبتي ..  
ولنهمل أقوال الشيوخ العتاة الذين ينكرون علينا هذا الغرام

لئن كانت الشموس بعد ماتغيب تعود للحياة من جديد  
فنحن حين ينقضى نهارنا الممتع القصير  
بضمنا نعاس ليل سرمدى  
فلتعطنى إذن ألف قبلة ... واتبعها بمائة  
ثم لنعدها ألف قبلة جديدة .. وبعدها مائة أخرى  
حتى إذا بلغت قبلاتنا التى رشفناها سويا آلاف مؤلفة ،  
فلنمزق قوائم الإحصاء .  
كى لاندري مقدار ما نلناه من قبلات ،  
وكى لاينور حسد الحاسدين  
إذا ما فطنوا إلى عدد ماتبادلناه من قُبَل «

ما أروع هذه المناجاة التى لم تقتصر فى اجتذاب معاصرى روعتها على  
كاتوللوس ولزبيا وحدهما ، فلقد تلقفها فى أربعينات هذا القرن المؤلف الموسيقى  
الألمانى الفريد فى أسلوبه كارل أورف الدعوب على استلهاهم روائع الأدب  
القديم ، وضمتها هى وأغلب قصائد كاتوللوس رائعته الموسيقىتين « انتصار  
أفروديتى » و « أغانى كاتوللوس » فاستنبط لهما ألحانا تكشف عن أسلوبه المبتكر  
فى التأليف الموسيقى مرتقيا بالإيقاع إلى أعلى المراتب بوصفه الوسيط الأمثل بين  
الغريزة والفكر جاعلا اللحن مساعدا للإيقاع . ويشاء لى الحظ أن استمع إلى  
هذين الإنجازين الموسيقيين بالإضافة إلى قصيدته « الأغانى البورانية » فى حفلين  
متتالين على مدى ليلتين بمدينة روما ، حين وفد المؤلف ليقود بنفسه أوركسترا  
الإذاعة الإيطالية والكورال « راي » ، ثم أن أظفربشرف التعرف إليه شخصيا  
عن طريق المؤلف الموسيقى الإيطالى الشهير رنزو روسيللىنى صهر أحد أصدقائى  
الإيطاليين الذين عاشوا معظم حياتهم بمصر ، الأمر الذى حفزنى بعد أقل من عشر  
سنوات إلى دعوته إلى القاهرة حين كنت وزيرا للثقافة فى أكتوبر ١٩٦٦ لحضور  
عزف مقطوعته الشهيرة « كارمينا بورانا » بواسطة أوركسترا القاهرة السيمفونى  
وكورال أوبرا القاهرة بقيادة المايسترو التشيكى أوتوكار تريليك ، فلبى الدعوة  
مشكورا .

ها أنذا أغادر الفورم على الرغم منى بعد أن جُست بين أطلاله أزود حواسى  
بذكرياته ، ثم وقفت هنيهة فى تلك البقعة التى اغتيل فيها يوليوس قيصر وقد وثب  
٣٣٤

إلى ذاكرتى قول ألفريد ده فينى : « استمتع ما استطعت بمالن تراه مرتين »  
وعبرت الطريق من حول قوس نصر سبتيموس سثيروس [ ساويريس ] أحد  
المعالم البارزة عند مدخل الفورم ، وهو ذلك الابتكار الرومانى الذى أضاف إلى  
أداء البناء لوظيفته لمسة جمالية فريدة لألج مسرح الكولوزيوم المهيبة ذا الطوابق  
الثلاثة والذى يتسع فى وقت واحد لخمسين ألف متفرج يستمتعون بمشاهدة  
مباريات الجلادين الدموية بين الرجال وبعضهم البعض وبين الوحوش  
الضارية . ألا ما أصدق شوپنهاور حين قال عذرا : « إن الإنسان هو وحده بين  
الحيوانات الذى ينشد من وراء إيلامه لغيره مجرد الإيلام » .

قبعْتُ فى ركن قصى أتمثل الأرواح التى أهدرت عبثا وشهداء المسيحية  
الذين قضوا نحبهم بين أنياب الأسود الفتاكة ولطومات أظلافهم ليقدموا لذرائعهم  
أروع المُثُل على التضحية والفداء فى سبيل العقيدة التى آمنوا بها ، وذكرت فى  
شجن قصيدة بايرون عن المجالد المحتضر فى ديوانه « تشايلد هارولد » :

« تلمح عيناى مجالداً يتهاوى  
تسند يده جبهته النابضة بطولة  
ارتضى لقاء الموت ، لكنه يغالب الاحتضار .. علّه يهزمه  
وتثقل رأسه رويدا رويدا .  
من الجرح المحمرّ الغائر فى جنبه ينزف فى بطء دما  
كرذاذ يسبق دفق المطر العاصف  
ها هى ذى الحلبة تنداح حواليه ... تدور ،  
ويعاجله الموت  
وهتاف الحمقى تمجيذا للمنتصر البائس لم يخمد بعد  
يسمعه غير مبال ، فلقد رحل الروح بعيدا  
لم يعبأ بحياة ضاعت أو جائزة أفلتت  
لا شئ بعالمنا يُشغل فكره  
غير الكوخ الهزيل على شط الدانوب  
حيث يعيش صغاره البرابرة يلهون  
فى داسيا [ رومانيا ] مع أمهم المنتظرة عودته  
بيننا أبوهم .. قد ذُبِح هناك بعيدا  
بيضج الفرح بحفل روماني مع دمه  
النازف تنسكب شتى ذكرياته » .

بيناً أبوهم .... قد ذُبح هناك بعيداً  
ليضحج الفرج بحفل روماني  
مع دمه النازف تنسكب شتى ذكرياته .

وكم كان يحلولى بين الحين والحين الاختلاف إلى المطعم الذى بُنى حديثاً فوق الأطلال الباقية من ساحة [ فورم ] تراچان على غرار الطراز المعماري الروماني أتمثل فيه الماضي مطلقاً على عمود تراچان التذكاري الملتف حول سطحه شريط حلزوني صاعد من النقوش البارزة من قاعدته إلى قمته تصور مراحل حملات الامبراطور الظافرة على أعدائه . وهو العمود الذى على غراره أقام نابليون عموده الشهير بميدان فندوم في باريس مع فارق واحد بينها هو أن شريط نقوشه البارزة قد صُبت من البرونز المتخلف عن المدافع التى غنمها بوناپرت من الجيوش الهروسية والنمساوية المهزومة ، على نحو ما صُبت المثال الإغريقي فيدياس درع تمثال الربة أثينا پروماخوس [ أثينا المحاربة ] من الدروع البرونزية التى كان يحملها أعداء بلاده من الفرس المهزومين .

ولاريب أن الرومان قد أسرفوا في الصنعة الزخرفية وغالوا في النحت البارز المتأنق القائم على الزخارف النباتية ذات التوريقات وتفرعات الزهور حتى غدا تاج العمود الكورنثي بإفراط زخارفه هو النمط الأثير لدى الرومان ، كما يتجلى هذا التأنيق لزاثر روما بأوضح مظاهره في مذبح السلام « آراپاتشيس أوجسطينا » الذى شيده أوكتافىوس أول الأباطرة المعروف باسم قيصر أوغسطس تعبيراً عن الاستقرار السياسى في عهده ، فازدان بالنقوش البارزة التى تمثل الأحداث السياسية الكبرى ومواقب التضحية والفداء الدينية . ومع تأملاتنا لتلك اللوحات الرائعة بهذا المذبح نسموعلى ذواتنا فتهدا سورة انفعالاتنا ، ونسعد كما يقول عالم الجماليات الشهير جورج سانتيانا — يادراك خير لانسعى إلى امتلاكه ، فلا يعود المرء ينظر إلى ينبوع الماء نظرة الظامى ، ولا يتطلع إلى امرأة جميلة تطلع الشهوانى الشبق . كذلك لا يكاد زاثر روما ينتقل من مكان إلى مكان أو من موقع إلى آخر حتى يطالع أحد التماثيل النصفية الرومانية « الهورتريهات » التى احتلت مكانة خاصة في حياة الرومان ، سياسية وطبقية قبل أن تكون فنية ، تتميز كلها

بالواقعية الدقيقة المولعة بتسجيل تجاعيد البشرة وكأنها معالم جغرافية ، و ينحصر اهتمامها بالملامح التفصيلية أكثر منه بالهيئة العامة .

وإذا كانت الحضارة اليونانية لم تضع بين أيدينا حتى اليوم أية لوحة مصورة من تلك التى أنجزها كبار الفنانين اليونانيين والتى تحدث عن روعتها الأقدمون بتقدير وإعجاب قبل أن تنسدل عليها سُتر النسيان فإن لوحات التصوير المنجزة فى روما ومدن إقليم كامبانيا خلال القرن الأول قبل الميلاد تزودنا بمحville لاحصر لها من الموضوعات الوثيقة الصلة بالحياة اليومية لأهل كامبانيا كما تمثلت على جدران الدور والقصور فى الريف والحضر . وإذا كان مابقى منها فى روما بالغ الندرة فإن بركان فيزوف الذى دفن تحت رماد حَمَمِه مدن پومپى وهرقلانيوم وستابيه أثناء فورانه المدمر عام ٧٩ ميلادية قد أخفى تحت أنقاضها كنزا زاخرا بالتصاوير القديمة يتيح لعشاق التصوير تتبع الدورة التى خطاها هذا الفن مايقرب من قرنين وإذا به ينتهى فجأة فى تلك السنة الفاجعة ، فلم يبق لنا من آثار هذه المدن الثلاث ومن لوحات جدران الدور فى پومپى إلا ما احتفظ لنا به متحف نابلى القومى بعيدا عن انتفاضات فيزوف .

وهل يستطيع زائر لروما أن يمرّ بها دون أن يأسره طراز « الباروك » الذى كانت روما أكثر من غيرها من بلدان أوربا تميّزا به ، فبدت كنائسها وقصورها وحدائقها وناפורاتها وميادينها على أيدي الخالدين برنينى وبورومينى وداكورتونا وغيرهم فى مسحة من الجمال اللافت المتألق أملاها شغف الإيطاليين بما يثير ويُبهر ، تشيع فيه الألوان وتزدحم الصور ، يطوى ذلك كله طابع مسرحى آسر ، ولا عجب فقد كان الإيطاليون يؤمنون بأن المظهر هو خير ما يعبر عن الواقع . ومن أجل هذا خلقوا تلك الروائع الفنية التى عنوا فيها بالضخامة والفخامة وبما هو مذهل خادع بهيج وبما لا يخطر على بال ، فجاءت مبانيهم على شاكلة ما كانت عليه كنائسهم من أبهة وبراعة وإفراط فى العناية بالتفاصيل والإيماءات الناطقة ، كما حفلت منحوتاتهم بالقديسين وعليهم عباءاتهم الفضفاضة وقسمات وجوههم تفصح عن ضيقهم بما يملأ العالم من شرور . ولقد كانت الكنيسة بحق هى التى تبنت طراز الباروك لتناهض حركة الإصلاح الدينى اللوثرية وتؤيد انتصارها عليها ، فدفعت

الفنانين إلى استخدام التقنية الفنية في جراحة لم تعهد من قبل ، وإلى العناية بالتفاصيل الزخرفية لكي يجمعوا العالم على الإيمان بتميز الكنيسة الكاثوليكية وسموها على كل شيء . وهكذا كانت كنيسة القديس بطرس في روما ، حيث من العسير على الزائر أن يحصر لفتات عينيه في اتجاه واحد ، فألوان رخامها المتنوعة الزاهية ، ومعمارها البالغ التعقيد ، واختلاف زخارفها المنمقة ، وسحر أنغامها الموسيقية العلوية التي تتردد بين جنباتها ، وجاذبية لوحاتها المصوّرة المشدودة إلى جدرانها ، وتماثيلها الآسرة التي تزدهم بها ، وتلك الحشود المتدفقة من الزائرين ، هذا كله مما يصرف المرء عن أن يعنى بشيء دون شيء ، حتى ليكاد يخالها بما جمعت وحشدت مسرحا للفنون لا مكانا مخصصا للعبادة . ولعل عذر من شادوها على هذا الحال هو أنهم شاءوا أن يجذبوا إليها أنظار المتعبدين ليضمّوا إلى خشوع العبادة روعة الفن التي يعزى جلالها إلى جلال بانيها ، وبهذا تُثبت الكنيسة أنها أسمى مما عداها وإن لم أرها ترقى إلى مستوى الكاتدرائيات القوطية ، ولعل مردّ العظمة التي أسبغت عليها إلى أنها قائمة في مقر السلطة البابوية ، إلى جانب ما تنطوى عليه من انفساح تؤكده أعمدة الفنان برنيني الملتفة بالرحبة المنبسطة أمام الكنيسة ، والتي بدت أشبه بذراعين تحتضنان المختلفين إلى الكنيسة ، وكأنها شباك بطرس الرسول تضمّ في طياتها من يتصيّدون من المؤمنين الجدد .

وماتزال روما تحتفظ بشواحنها من الفن الباروكي تنتشر في أرجائها حتى لتكاد تشكّل مجموعها مدينة متميزة داخل روما ، وبات من الشائع أن يطلق الناس عليها اسم « روما الباروكية » Roma Barocca إشارة إلى تلك الآثار الجليلة البالغة الروعة والرقّة الآسرة التي تمسّ القلوب ببقائها تؤدي دورها الذي أنشئت من أجله أودورا مماثلا حتى يومنا هذا ، فلم تدخل بعد متحف التاريخ لينغلق عليها ، بل إنها تشهد كل يوم المئات من الزائرين والدارسين والمتأملين وعشاق الفن والجمال ، ثم إن منها الكنائس التي ماتزال تعجّ بالمصلّين إلى جانب الزوّار . وقد يصعب على المرء الذي عايشها مثلما عايشتها أن يغفل من أسرها أو أن يخمد في صدره الحنين إلى شدّ الرّحال إليها والاستمتاع بقضاء لحظات في ظلال



جمالها المستدفق ، وإن كانت الأيام العديدة لا تكفى لإشباع نهم عاشق الفن في زيارة كل ما تنتظم من منشآت وتضمّن من منجزات فنية رائعة .

وكم كنت أراح إلى أن أقضى الوقت فيما بين غدائي وموعد بدء العمل بعد الظهر مطوّفا في حدائق فيلا بورجيزي اللصيقة بمقر السفارة أومتجولا في حارة مارجوتا بين معارض الفنانين ومراسمهم ، أوجالسا في مقهى من مقاهي ميدان نافونا أتطلع دون ملل يوما بعد يوم إلى منحوتات برنيني الخالدة لنافورة الأنهار الأربعة : النيل رمز أفريقيا والجانيج رمز آسيا والدانوب رمز أوروبا ويوپلاتا رمز العالم الجديد ، وقد توسّطت الميدان الضيق الممتد ، بما ينطوي عليه تصميمها من فيض غزير لا يخضع لأى قاعدة ، ومع ذلك فليس ثمة ما يوحى بتحلّله من كل التزام . أرنو إلى تمثال النيل وقد أخفى وجهه بحجاب مشيرا إلى بقائه — آنذاك — مجهول المنابع ، وقد انتصبت إلى جواره نخلة مصرية انحنى جذعها قليلا بفعل الريح ، وإلى تمثال ريوپلاتا بأنفه الأفطس والنقود المبعثرة من حوله وتحته إشارة إلى بدائية القارة الأمريكية وراثتها ، وإلى تمثال الدانوب وقد رقت ملامحه عن ملامح سائر الأنهار إشارة إلى أوروبا المتحضرة .

وفي فترة ماتراعى لى أن أقضى اللحظات التى أخلو فيها من عملى في مزاولة التسجّيل السينمائي متتبعا خطى الموسيقار الإيطالى أوتورينو ريسيجي في قصيده السيمفونى عن « أشجار الصنوبر في روما » وعن « نافورات روما » ، وهو من حاكى بأنغامه مواطن أشجار الصنوبر بالمدينة الخالدة ، بادئا بصنوبريات حدائق بورجيزي حيث يرح الأطفال في ظلالها ، ومثليا بصنوبريات سراديب الموتى الراقدين في أمن وسلام فخلّد ذكراهم بلحنه الشعائرى الجليل ، ومنتملا إلى تل چانيوكولى حيث يغرد العندليب فوق أغصان الصنوبر ، ومنتميا بصنوبريات طريق آبيا القديم حيث يطالعنا بلحن حربى يعلو شيئا فشيئا يمثل جيوش الامبراطورية الرومانية وهى تدب على الأرض في طريقها إلى مبنى الكابيتول مصوبة رماحها إلى السماء .

كذلك يلفت زائر روما ماتزخر به ميادينها وأركانها من مشاهد الفوارات المائية حيث تنبثق المياه من نافوراتها الباروكية الرائعة ، التى يُعزى تصميم أغلبها إلى

الفنان برنينى مصمم نافورة التريتون بميدان باربرينى و نافورة الأنهار الأربع بميدان ناغونا . و ما من شك فى أن الموسيقى ريسيجى قد أخذ هو الآخر بمشهد هذه النافورات وتأثر بها فسجلها فى قصيده السيمفونى عن نافورات روما ، بادئا بنافورة قالى جوليا وقد تخيل قطيعا من الأغنام يدب حولها وقد طواه ضباب الفجر ، ثم نافورة التريتون حيث تنهض شخصوها الأسطورية : حوريات الناياد وآلهة التريتون من غفوتها صباحا متوثبة معركة تحت رذاذ المياه المتناثرة وراقصة فى صخب مع غمرة دفق المياه ، ثم دلف إلى نافورة تريشى وقت الظهيرة فإذا العين تقع على مركبة الإله نيتون تجرها الجياد البحرية ، منتها بنافورة فيلا مديتشى ساعة الغسق والطيور تشدو مع حفيف تساقط أوراق الشجر وأجراس الكنائس تدق مؤذنة بالغروب . لقد دفعنى شغفى بهذا كله إلى أن أشغل فترات فراغى بتسجيل ترجمة سينمائية لما تقع عليه العين من هذا الجمال الطبيعى الخلاب ، وتلك الروعة المضافة على المنحوتات الرخامية وما تتلقفه الأذن من أنغام أسرة شجية ، إلى أن حظيت فى النهاية بشرى يضم هذه الروائع جميعا أرجع إليه الفينة بعد الفينة لأستعيد تلك الذكريات الحلوة التى تنعش فى وجدانى ماضيا محببا قضيته بين تلك الربوع .

وعبثا يحاول المرء أن يحصى تلك الآيات الجميلة فى هذه المدينة الخالدة عدا ، فلايكاد يجتاز طريقا أو يعبر ميدانا أو يختلف إلى حديقة أو يمر بنافورة أو يتطلع إلى إحدى الواجهات المعمارية أو يتردد على كنيسة أو ينحدر إلى زقاق حتى يرى نفسه أمام جمال لافت مع كل نظرة يلقيها . وما أظن عمر الزائر كله يمتد لكى يظفر برؤية جميع ما تضمنه روما من كنوز فنية خالدة ، وما أظن زيارة واحدة بل زيارات تكفى للإحاطة بهذا كله ، بل لابد من مثابة ومتابعة تلهث معها الأنفاس لكى تحتوى هذا كله . وما أصدق ألفرد ده موسيه حين قال : « مع أن إيطاليا هى أكثر بلاد العالم احتشادا بالمنجزات الفنية ، فهى بين بلاد العالم كلها أقلها احتياجا لمثل هذه الكنوز ، فقد وهبها الله طبيعة سخية تنبض بشتى صنوف الجمال وساء ساحرة يتيح صفاؤها لابتهالات المبهتلين البلوغ إلى رب السماء دون حجاب » .

## إطلالة من روما على فرنسا وقضية الجزائر

حين أذكر اللحظة التي أسند فيها إلى الرئيس عبد الناصر منصب سفير مصر في روما في خريف ١٩٥٧ وكانت أوروبا الغربية ما تزال تقف منا موقف العداء ، والعلاقات الدبلوماسية مقطوعة بيننا وبين بريطانيا وفرنسا ، وأجهزة الإعلام والصحافة واقعة تحت تأثير خصومنا الغربيين واسرائيل ، أذكر أن توجيهاته لى قبيل سفرى انحصرت فى أمرين : أولها إخراج إيطاليا سياسيا من وكر العداء الذى أقامه حولنا الغرب واجتذابها للتعاون الاقتصادى معنا ، وثانيها العمل كنقطة مراقبة خارجية للشئون الفرنسية وتزويده أولا بأول بكل ما يدور بها مما له علاقة بنا ولاسيا ما يؤثر منها على قضية الجزائر وما يتصل باسرائيل . وقد أتاح لى عبد الناصر ثقة منه بى أن أكون غير مقتيد فيما أمضيه من أمور .

ولم تكند تنقضى بضعة شهور على وجودى بروما سفيراً حتى تلقيت من اللواء محمد على عبد الكريم مدير المخابرات الحربية خطاباً فى الرابع من يناير ١٩٥٨ يقول :

« أنت تعرف طبعاً أن فرنسا وأخبارها تكاد تكون محبوبة عنا فى الوقت الذى أصبحت فيه مورد اسرائيل الأساسى للأسلحة والدبابات والطائرات . لقد كنا

سعداء بالمعلومات التي كنت تمدنا بها عندما كنت في باريس والتي انقطعت تماها بعد نقلك . ولو أنى أعرف وأقدر مقدار الأعباء التي يملها عليك منصبك كسفير، ولكنى أطمع في أن تجد اتصالاتك ببعض مصادرك القديمة في فرنسا للحصول على ما كنا نحصل عليه في الماضي من معلومات»

كما تلقيت في التاسع عشر من يناير ١٩٥٨ رسالة من مساعد مدير المخابرات العامة هذا نصها :

«إن المعلومات التي أرسلتها إلى وزارة الخارجية عن فرنسا قد تمت دراستها واتضح أنها مفيدة ، وانا إذ نبليغ سيادتكم الشكر نرجو زيادة الإيضاح عن إمكانيات هذه المصادر ومدى صلات كل منهم . كما نأمل أن يستمر اتصال سيادتكم بهؤلاء ومدافنتنا أولا بأول بأنبائهم مع تعليق سيادتكم على هذه الأنباء إن أمكن »  
وانى أكشف هنا عن هذه الخطابات لا لسىء يرجع لذاتى ، فلقد كنت حين لبّيت هذا الرجاء وذاك لا تبعية لى بالمخابرات الحربية أو المخابرات العامة ، ولكننا كلنا أمام تلبية الواجب مهما اختلفت وظائفنا لا نستطيع أن نتخلف عن أداء ما يُطلب منا .

ومن المعلوم أن مصر قد بنّت فضية تحرير الشمال الأفريقى بصفة عامة وقبضية الجزائر منذ نشأتها بصفة خاصة . وكان من واجبي التعاون مع الأخوة الجزائريين لأقصى حد ففتحت لهم صدرى وأبواب السفارة .

وقد دأبت الحكومة الفرنسية والمستوطنون الفرنسيون على بذور الفرقة والفتنة بين زعماء المناضلين ، مما دفع قيادة الثورة الجزائرية إلى الحكم بإعدام الكثير من هؤلاء بوصفهم خونة حتى شاعت الدعاية الخاطئة بأن الزعماء الجزائريين يقتلون بعضهم بعضا ، بينما الحقيقة أنهم كانوا يعدمون من يتأكد لهم أنه من الخونة السلبين المنساقين وراء المغريات الفرنسية . ولن أنسى الحزن والأسى العميق الذى أصابنى لحظة علمتُ في مستهل شهر ديسمبر ١٩٥٧ بالنبا المحزن الخاص بانحياز محمد بليونس القائد الجزائرى بقواته إلى صفوف الجزائريين الموالين لفرنسا ، فقد كانت تلك الخيانة في نظرى تعدل هزيمة ضخمة للروح المعنوية لدى الوطنيين الجزائريين ، كما كانت نجاحا لفرنسا باستمالتها عددا من المناضلين وتحريضهم ضد قادتهم .

وكنت قد اقترحت على القاهرة في مستهل ١٩٥٧ إنشاء رابطة صداقة مصرية فرنسية ، غير أن الفكرة لم تلق القبول وقتها باعتبار أنها مرفوضة من الرأي العام ، وعدت أثر هذا الموضوع من جديد في فبراير ١٩٥٨ على أن تقتصر عضوية هذه الرابطة في البداية على الفرنسيين الذين سيقومون بإلقاء المحاضرات ومد الرأي العام الفرنسي بكل ما من شأنه عبور الهوة السحيقة التي تفصله عن الحقائق ، على أن تضم رجال الفكر الفرنسيين ممن يهتمون بصفة مباشرة بمصر بحكم ثقافتهم كعلماء الآثار والاجتماع والمستشرقين ، ومن رجال الاقتصاد كأصحاب مصانع النسيج التي تستخدم القطن طويل التيلة ، والمصدرين الذين تربطهم بمصر علاقات تجارية ، ومن رجال السياسة على اختلاف ميولهم الحزبية من اليمين واليسار . وقد أعددت قائمة بالأسماء المزمع الاتصال بها للانضمام إلى الرابطة ، وكان بعضهم قد أرسل لى بالفعل معربا عن حماسه للانضمام ، ولم تشمل القائمة شخصيات يسارية — وإن كانت هذه الشخصيات بطبيعتها منحازة إلى صفنا — إلا أنني آثرت عدم دعوتها إلى الاشتراك كي لا تصطبغ الرابطة بلون سياسي معين ، فضلا عن أن جملة من أعضاء حزب اليسار الجديد كانوا من اليهود الفرنسيين .

ولم تكن الصحافة الفرنسية في تلك الآونة تنشر عن مصر إلا كل ما يسيء إليها باستثناء الصحف اليسارية ، بينما كان الصحفيون الراغبون في المدفاع عن وجهة نظر مصر وعن قضية تدعيم الروابط بينها وبين فرنسا — رغم قلتها — لا يملكون الوسائل المادية لتحقيق أهدافهم . ومن ثم كان من الضروري القيام بحملة دعائية لصالحنا بنشر المقالات الموضحة لوجهة نظرنا في الصحف الفرنسية ، فاقترحت على السلطات المصرية الموافقة على تبادل المراسلين الصحفيين وبدأت هذه الخطوة على استحياء ، غير أنه كانت ثمة صعوبة بالنسبة للمراسلين المصريين ، وذلك بسبب تحاملهم الطبيعي على فرنسا مما أثار هياج القراء الفرنسيين ، لاسيما بعد أن فشلت المحاولة التي قامت بها مجلة « فرانس أو بزرقاتير » عندما عيّنت لها مراسلا مصرية في القاهرة أثار القراء الفرنسيين بمقالاته الاستفزازية . ولذا ألححت على ضرورة توعية المراسلين المصريين بطبيعة العقلية الفرنسية وحثهم على اتباع أسلوب معتدل متزن يجتذب القارئ الفرنسي ويشده إليه ، وطلبت إبلاغى بأسماء من يقع

عليهم الاختيار للاتصال بمجلتي فرانس أوبزرفاتير والإكسپرس الفرنسيين .  
وتحقيقاً لهذا الهدف أخذت على عاتقي إصدار نشرة فرنسية عن السفارة  
المصرية بروما تولاهما المستشار الصحفى إلى جانب النشرة الصادرة  
بالإيطالية مرتين كل أسبوع لإرسالها إلى الصحفيين الفرنسيين الذين يهتمهم  
الوقوف على مجريات الأمور بمصر من آن لآخر» عملت على أن أزودها بين  
الفينة والفينة بالإضافة إلى الأنباء بأبحاث مستفيضة فى بعض النواحي  
السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، الأمر الذى جعلنى دائم الإلحاح  
على القاهرة على ضرورة وضعى دواما وأولا بأول فى الصورة العامة . ونتيجة  
لهذه الجهود والاتصالات ظهر فى أول مارس ١٩٥٨ عدد خاص عن مصر فى  
مجلة L' Horizon التى يطالعها المثقفون والصفوة الممتازة وترجم إلى  
ثلاث عشرة لغة كتب فيه جملة من المفكرين الفرنسيين المهتمين بشئون  
مصر والشرق الأوسط ، وكنت قد أرسلت إلى رئاسة الجمهورية بالقاهرة عددا  
من التساؤلات التى لا تفتأ الأوساط السياسية فى فرنسا ترددها وتلقيتُ  
الإجابات الوافية عنها وأرسلتها الى الصديق پيير كوت رئيس تحرير تلك  
المجلة ووزير الطيران الأسبق وعضو مجلس الشيوخ . وكنت قد وجهت  
الدعوة إليه لزيارة مصر ولبى الدعوة ثم مرّ على بروما فى طريق عودته  
ليحدثنى عن رحلته وأثرها فى نفسه ، وتقدم بعدها بتقرير مُفصّل يتضمن وجهة  
نظره إلى وزارة الخارجية الفرنسية . وأعقبت هذه الدعوة بأخرى إلى الأستاذ  
أندريه فيليب الوزير الاشتراكى السابق ومؤلف كتاب « الاشتراكية التى  
خانوها » Le Socialisme Trahi الذى كنت قد أرسلته إلى القاهرة قبل ذلك  
وقامت مصلحة الاستعلامات بترجمته دون الحصول على إذن المؤلف ، غير أنه  
مع استيائه من هذا المسلك قبل الدعوة لتكون فى منتصف فبراير ١٩٥٩ ،  
وكنت وقتها قد خلفت روما وعينت وزيرا للثقافة والإرشاد القومى وحرصت  
على الاحتفاء به بما يليق بمكانته العلمية والسياسية . كذلك سعت إلى  
التعريف برئيس تحرير مجلة Réalités الفرنسية اليمينية العالمية الشهرة  
والمشهود لها بالرزانة والجديّة ، وتظهر لها طبعة إنجليزية فى نفس الوقت فى  
العالم الأنجلو ـ ساكسونى ، وسعدت باستقباله فى مكتبى بالسفارة حيث دار  
بيننا حديث طويل حاولت من خلاله أن أضئ الجوانب المعتمدة التى كانت  
تخيّم على ذهنه حول مصر وسياستها ، فإذا هو

ينشر في مجلته — في الوقت ذاته الذى ظهر فيه عدد مجلة « الأفق » عن مصر — مقالا شديد الأهمية بعنوان « في سبيل سياسة فرنسية في الشرق الاوسط » يدعوفيه كاتبه إلى أنه ينبغي إعادة العلاقات مع ناصر بالرغم من حرب السويس ومن الباخرة آتوس ومن إذاعة القاهرة ومن عباس فرحات ومن ناصر نفسه . وأنه ينبغي أن يتوفر لإعادة العلاقات عوامل جديدة وأسباب قوية . وهذه العوامل والأسباب قائمة ولكن بشروط .... وعرض المقال تحليلا ممتازا للدور الذى يلعبه الرئيس عبدالناصر الذى يتصف بالاتزان والموضوعية التامة في مصر وفي المنطقة العربية ، وانتهى بأن مبررات إقامة علاقات دبلوماسية مع مصر لها وجاهاها ، فإنه فضلا عن أواصر التبادل التجارى بين البلدين فلقد ظهر عامل جوهرى جديد هو الصراع الطويل العنيد الذى بدأه ناصر ضد الاتحاد السوفيتى دون أن ينضم إلى الغرب . والمفارقة المحيطة بناصر هو أنه يحارب في جبهتين : يحارب ضد التدخل السوفيتى وضد الغرب الذى لم يفهمه و يواصل الحرب ضده ، وهى حرب لا يستفيد منها سوى الروس ، ولهذا « فن الخطأ الجسم أن يستمر الغرب في اعتباره عدوا له . إن السبب الجوهري بالنسبة لفرنسا هو مصالحها المهددة في هذه المنطقة التى يتزايد اتساعها تحت قيادة القاهرة . إنها المصالح المادية والمعنوية التى سوف يكون من المؤسف التضححية بها في الوقت الذى يمكن فيه بعثها من جديد ثم تدعيمها » . على أن المقال قد اختتم للأسف بالعبارة التقليدية المنادية بضرورة استبعاد مناقشة سياسة فرنسا مع كل من الجزائر واسرائيل .

وكننت قد تعرفت إلى هنرى كوريل مع مطلع عام ١٩٥٨ بمدينة جنيف ، وقدم لى عددا من الشيوعيين المصريين المقيمين بأوربا كانت فاتحة تعاون صادق في خدمة المصلحة الوطنية . وقد اتفقت معهم على الاضطلاع بترجمة كتاب « الهدنة المشتعلة » Violent Truce إلى الفرنسية لقاء أجر رمزى لما اشتمل عليه من معلومات تثير القارىء عما كان لإسرائيل من أعمال عدوانية وقاموا بنشره وتوزيعه وإهدائه إلى بعض الشخصيات الفرنسية ذات التأثير مثل جان بول سارتر وبيير كوت وإمانويل داستيه وغيرهم ، كما نشرنا بعض مقتطفات منه في المجلات الفرنسية . وقد طلب منى هؤلاء الأصدقاء نقل مبلغ مايقابل ٤ مليون جنيه مصرى بالفرنكات السويسرية لحساب جبهة التحرير الجزائرية من سويسرا

إلى روما وتسليمها إلى السفير التونسي بروما لنقلها بمعرفته إلى تونس . وكان هذا المبلغ هو حصيلة المساهمات التي يدفعها الجزائريون بفرنسا شهريا تدعيا للنضال الوطنى بواقع ١٦٠٠ فرنكا شهريا عن كل جزائرى ، وقد بادرت بالاستجابة لمطلبهم وعهدت إلى الملحق الجوى بالقيام بهذه العملية بمجرد تحديد موعد التسليم فى مقر وفدنا الدائم لدى الأمم المتحدة بجنيف . وأشهد أنه طوال تلك السنين كان كوريل مثلألا للتعاون الأمين سواء من حيث المعلومات السياسية المفيدة التى زودنى بها أو من حيث الاتصالات الجادة التى كان يحاول بها أن يخدم قضية تطبيع العلاقات بين مصر وفرنسا . وأعترف لوجه الحق أنه قام بمدّ جبهة التحرير بالجزائر بمساعدات فعالة وكان تأييده للمجاهدين الجزائريين بغير حدود فى الوقت الذى كانت تطاردهم فيه جميع أجهزة الدولة الفرنسية ، كما كنت ألس ولاءه الشديد لمصر فى أكثر المواقف حرجا . وتحملنى تجربتى معه طوال أعوام عشرة على تقدير سلوكه وحنكته السياسية وعلى العرفان بخدماته الصادقة لمصر . ولم أخف عن الرئيس عبد الناصر جهوده ومساعداته حتى أنى رجوته فيما بعد أن يرّد إليه جنسيته المصرية لقاء خدماته ، وأيّدت مطلبى بتسجيل كل ما أذاه فى مذكرة وافية إلى رئيس الجمهورية فى ٢٢ أبريل ١٩٦١ ، وهو ما حفزه إلى الموافقة على مسعاى ، غير أن الأيام مرّت دون أن تلقى هذه الموافقة هوى لدى الأجهزة المختصة .

وفى يناير ١٩٥٨ عكفت على إعداد تقرير ضاف عما يلزم مصر أن تأخذ به فى علاقاتها مع فرنسا ، وكان هذا عن تكليف لى من رئيس الجمهورية ، انتهت فيه بعد استعراض كافة العوامل المؤثرة على السياسة الفرنسية فى خطوطها العريضة لوقت طويل إلى حقائق ثابتة لا بد لنا من مراعاتها فى التعامل معها .

والحقيقة الأولى بطء تطور الفكر السياسى الفرنسى وقتذاك وخضوعه للعواطف والنزوات العصبية لا للروية والحكمة فى تصرف الأمور تصرفا سليما على ضوء المصالح الحقيقية .

والحقيقة الثانية وقوع التوجيه الفعلى للسياسة الفرنسية لا فى قبضة رجال الحكم المسئولين بل فى متناول مجموعة غير مسئولة لا تمثل مصالح وطنية خالصة



وإنما تسعى إلى خدمة مصالحها الخاصة ، من أمثال المستعمرين الفرنسيين في الجزائر ورجال الصناعة والبنوك واليهود .

والحقيقة الثالثة أن القضية الكبرى بالنسبة لفرنسا هي الجزائر ، وهو ما يعنى ضرورة مقاومة القومية العربية بكل وسيلة .

والحقيقة الرابعة اندماج مصالح فرنسا مع مصالح إسرائيل في الشرق الأوسط .

والحقيقة الخامسة تفتّح آفاق جديدة واسعة لرأس المال الفرنسى في الصحراء الأفريقية قد تستوعب إمكاناته كلها أو الجزء الأكبر منها .

وارتأيت على ضوء هذه الحقائق أنه ينبغي أن يكون لنا وجود فعال فى فرنسا حتى نكون على أهبة الاستعداد والمواجهة وانتزاع ما يمكن الظفر به من مكاسب ، غير أن علينا أن نخطو متمهلين وعلى حذر فى إعادة علاقاتنا مع فرنسا بادئين باستئناف العلاقات الثقافية والتجارية مقتنعين أول فرصة ملائمة تتاح لنا ، على أن نبادر بالتحرك من أجل كسب الرأى العام الفرنسى وبخاصة صفوة المفكرين وقادة الرأى ليقوموا بدورهم فى تنوير الرأى العام وكسبه إلى جانب قضيتنا ، وهو عمل جدير بما يُبذل فيه من جهد مهما استغرق من زمن ، لأن استئناف علاقات سياسية مع فرنسا قبل تصفية الأحقاد لن يفيد قضيتنا بقدر ما يفيدها استقطاب جملة من أصحاب الفكر ذوى التأثير فى الناس ، وهو ما كنا قد حققنا فيه بعض الخطوات الإيجابية بالفعل . كما أشرت - عن إيمان صادق واقتناع تام - إلى حكمة التريث شيئا فى إعادة العلاقات السياسية مع فرنسا حتى تتسنى تهيئة الظروف المواتية لاستئنافها على أسس جديدة لا تشوبها خلافات جوهرية تكون سببا فى تدهورها . أما تقدير الوقت المناسب لإعادتها فهو رهن بظروفنا وظروف فرنسا ، وبحلّ المشكلات الكبرى بيننا وبينها ، وهو ما يتطلب ؛ أولا : كفّ فرنسا عن تأييد إسرائيل بالصورة السافرة التى تمضى عليها الآن ، وعن عرقلة السلام فى الشرق الأوسط بإثارة المشكلات فيه . ثانيا : احترامها لحقوق الشعب الجزائرى بالاعتراف له فى البداية بشخصية مستقلة بالصورة التى لا تحول دون حصوله على الاستقلال فى المستقبل . ثالثا : احترامها لحيادنا الإيجابى الذى ينبغى أن يشمل منطقة الشرق الأوسط . رابعا : استغلال عامل المنافسة وشعور فرنسا المرهف بمركبّ النقص إزاء حليفاتها الغربية ، إذ أنها تعيش على ذكرى أنها كانت

دولة عظمى ذات يوم ، وتعتقد أن الأيام تُنبئ باستعادة مكانتها الأولى ، وهي لذلك لن تقبل البقاء بمنأى عن ميدان حيوى من الميادين الدولية بينما تنشط فيه دول تنافسها فى مجالى السياسة والاقتصاد . خامسا : استغلال عامل المنافسة الاقتصادية بتشجيع كل من إيطاليا وألمانيا على المزيد من المساهمة فى مشروعاتنا الاقتصادية لاسيما أن تلكما الدولتين هما الشريكان الجديدان لفرنسا فى استغلال مصادر الثروة فى أفريقيا

\* \* \*

وخلال عام ١٩٥٨ أقدمت الحكومة الفرنسية على جريمة رهيبة . كانت قرية سيدي يوسف التونسية الواقعة على حدودها مع الجزائر تضم إلى سكانها مخيمات يأوى إليها اللاجئين من الجزائر ، فقام سلاح الجو الفرنسى بالجزائر بشن غارة على القرية بما فيها المخيمات ، فإذا هذه الغارة الغاشمة تنجلى عن تدمير تام للقرية وإبادة لسكانها ومعهم اللاجئين الجزائريون ، ولم تبق هذه الغارة ولم تَدْرُ ولم ينبج من ويلات شيب ولا ولدان . وقد هزّت هذه المأساة الكبرى ضمير العالم أجمع واستنكرها الكل ، وهزّت فيما هزّت الأمم المتحدة فإذا هى تصدر قرارا تدين فيه هذه المجزرة الرهيبة وتقضى فيه على حُجّة الفرنسيين التى ادّعوا فيها أن لهم الحق فى تعقب الثائرين أتى كانوا وفى ظل أى دولة وُجدوا ، الأمر الذى أدى إلى احتجاج تونس . وكما أدانت الأمم المتحدة هذه الفعلة أدانها أيضا الكتاب الأحرار من الفرنسيين ، وكان على رأسهم الشاعر لوى أراجون الذى ضمّن أحد دواوينه عبارات تشير إلى هذه المأساة وتم عن استنكاره واستهجانه لما حدث لهؤلاء الأبرياء ، وإذا هو يقول قوله المأثور « هل للخجل سبيل إلى نفوسكم وهل ضلّ عنكم معناه ؟ إذا كنتم تعرفون للخجل معنى ، فأحرى بكم أن تَضْمَنُوا بيت شعر فرنسى قرية ساقية سيدي يوسف ، ولسوف تكون كالحنجر فى صدوركم » .

وعندما تدخل الأنجلو أمريكان للوساطة بين فرنسا والجزائر ارتطمت هذه الوساطة بصعاب جمة مما حدا بأيزنهاور إلى توجيه رسالة إلى جايار رئيس وزراء فرنسا يدعوه فيه إلى إظهار مزيد من التفاهم مع تونس ، الأمر الذى فجّر الأزمة التى كانت تتوقعها أحزاب اليمين من جهة والعسكريون المقيمون فى الجزائر من جهة أخرى ، فشنوا حملة معادية ضد أمريكا معلنين أن أى سياسى فرنسى يقترح

حلا بالتساهل مع الجزائريين يُعدّ خائناً . وحين أعلن جايبار أن أى حل إيجابى للمشكلة الجزائرية يقتضى مبدأ المفاوضة مع ممثلى الشعب الجزائرى رفضت الجمعية الوطنية منحه الثقة ، وشدّد الجيش الفرنسى قبضته على الجزائري ولم يُعر التفاتاً تعليمات حكومة باريس ، وخرج الجنرال ديجول من معتزله ليعلن فى خطاب عام أنه على استعداد تام لتولّى السلطة متجاهلاً الهيئات الرسمية للدولة ورجائها ، وقد فُسر خطابه بأنه موافقة ضمنية على تمرّد الجيش الفرنسى فى الجزائر . وأعلنت الجمعية الوطنية حالة الطوارئ ، وطالب ديجول بسلطات استثنائية تفوضها له الجمعية الوطنية مما اعتبره الحزب الاشتراكى تجاهلاً من ديجول للدستور . واتهم الحزب الشيوعى ديجول بأنه الرأس المدبّر لتمرّد الجيش فى الجزائر ، وأضربت بعض المنظمات العمالية عن العمل لمدة ثلاث ساعات أثناء عقد ديجول لمؤتمره الصحفى الذى طالب فيه بالسلطات الاستثنائية .

وباتت فرنسا تخوض فى الجزائر غمار حرب أهلية لتتفادى قيام حرب أهلية فى أراضيها ، وأصبح هناك خوف من أن يتسع التمرد على السلطة المركزية ليشمل جزيرة كورسيكا ، كما لم يعد مستبعداً أن يسعى عملاء التمرد إلى السيطرة على أجزاء متفرقة من الاتحاد الفرنسى . وكان الأسطول وجنود المظلات فى خدمة المتمرّدين ، وهو ما جعل رئيس الجمهورية الفرنسية — وهو عنوان الشرعية الجمهورية — يلجأ بعجزه ، وأنه لم يبق أمامه لمعالجة الحالة المتردية إلا تكليف ديجول بتولى الحكم ، إذا لزم الأمر . وهكذا غيّرت هذه الأحداث من اتجاه المشكلة الجزائرية بعد أن أصبح انفصال الجزائر أمراً محققاً ولم تعد الإدارة المحلية فى الجزائر تقبل أن تفرض فرنسا عليها القرارات ، وبدأت تشعر أنها وحدها التى ينبغى أن تتحكم فى مصيرها ، وأخذ أوربيّو الجزائر يتظاهرون بالتقرب من أهل الجزائر المسلمين ورغبتهم فى العيش معهم على قدم المساواة ، ولوأنهم لم يجدوا بين أيديهم وسيلة لإغراء الجزائريين المسلمين سوى دعوتهم للدخول فى الجنسية الفرنسية . وبذل المتمرّدون جهودهم لحمل الرأى العام الدولى على الاقتناع بأن الشعب الجزائرى متضامن معهم مستخدمين لذلك وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وسينما فى محاولة لإقناع العالم بأن العرب والفرنسيين يسرون يداً واحدة فى حين أنهم لم يعطوا العرب فى لجان « الخلاص العام » Salut Publique إلا ١٣

مقعدا من بين ٧٢. وتفاقت الأزمة وأخذ يسود الاعتقاد بأن ديجول هو المحلّص الوحيد من هذا الانقسام الذى يفصل الحكومة عن أداة سيطرتها ، وهى الجيش الذى تمرّد عليها .

وقد خرجت من دراسة هذه الأوضاع فى فرنسا بالنتائج التالية :

أولاً : أن فرنسا لا تملك تغيير موقفها إزاء الجزائر بصورة عملية ، فلا الحكومة الشرعية فى باريس فى مركز يسمح لها بالاعتراف بحقوق الشعب الجزائرى ، ولا اللجنة الثلاثية الثورية بمخاطبة عن تمسكها بأن الجزائر فرنسية .

ثانياً : كان لوقوع أحداث لبنان ونزول القوات الأمريكية على أرضه فى نفس الوقت الذى نشبت فيه الأزمة الفرنسية أثر ضار بالقضية الوطنية الجزائرية ، إذ شجعت الدوائر الفرنسية فكرة السلطات الأمريكية بالتدخل لمساعدة الحكومة اللبنانية ضد المعارضين لها وطالبت بتطبيق المبدأ ذاته على الجزائر .

ثالثاً : كان لذكر موضوع الجزائر ضمن البلاغ الرسمى الصادر فى أعقاب زيارة الرئيس عبد الناصر لموسكو ، وبالتالي لدخول الاتحاد السوفيتى طرفا فيه ، كان لذلك أثره على القضية الجزائرية لدى دول حلف الأطلسى التى كانت مترددة فى تأييد فرنسا بدرجات متفاوتة ، فشرعت فى تغيير موقفها لاعتقادها بأن الجزائر قد أصبحت ميدانا هاما يحاول الشيوعيون النفوذ إليه لتطويق حلف الأطلسى من الجنوب ، وأن الموقف لم يعد يسمح بمجاراة العواطف أو الاستمساك بالمبادئ الإنسانية ، بل إن الظروف باتت تحتم على دول الحلف الوقوف صفا واحدا مع فرنسا . وقد استغلت الصحافة والدبلوماسية الفرنسيتان البيان المصرى السوفيتى إلى أبعد مدى لتأليب رأى العام والحكومات فى الغرب على حركة البعث العربى واتهمتها بأنها تلعب لعبة موسكو ، وهو ما كان له أثر كبير فى ارتداد البعض عن التعاطف مع حركة الوطنيين الجزائريين .

رابعاً : أخذ الثقل النسبى لفرنسا داخل النطاق الأوروبى والأطلسى فى التضاؤل بينما أخذت قيمة كل من ألمانيا الغربية وإيطاليا فى الوقت ذاته فى الازدياد .

خامساً : كان من أغراض توثيق التعاون بين فرنسا وإيطاليا وألمانيا الوصول إلى نوع من التوازن داخل حلف الأطلسى ومواجهة السيطرة الأنجلوسكسونية عليه ، لاسيما أن بريطانيا كانت تسعى إلى جذب إيطاليا إليها لوقف النفوذ الألمانى الآخذ فى الازدياد عند حدّه .

سادسا : كان مايجرى في فرنسا وقتذاك من شأنه أن يشل الجهاز الدفاعي الأطلسي لفترة من الزمن ، الأمر الذي لم يُتخذ يُستبعد معه أن يزداد تدخل حلف الأطلسي في المشاكل ذات الصبغة الدولية التي يتعرض لها أعضاؤه لتفادي تكرار نشوء حالات مماثلة ، حتى بات من المتوقع أن تتوحد نظرة الدول الأعضاء في الحلف بالنسبة لبعض مشاكل معينة في المناطق التي تصطدم فيها السياسة الغربية بالسياسة السوفييتية .

سابعا : إلى أن يتم للولايات المتحدة أن تنشئ في أراضيها قواعد للصواريخ عابرة القارات فسوف تشتد حاجتها إلى القواعد المحيطة والمطوقة للكتلة الشرقية .

ثامنا : إن علاقات فرنسا بحلفائها من حلف الأطلسي قد يصيبها شيء من التوتر بسبب شخصية ديغول العنيدة المعترزة بنفسها .

وفي الخامس والعشرين من يونيو ١٩٥٨ نمت إلى معلومات عن استعدادات تُدبر لتدخل عسكري غربي في سوريا والأردن يستهدف القضاء على الوحدة المصرية السورية وتدعيم النفوذ الغربي في منطقة الشرق الأوسط . وقد أبرقت على الفور بهذه المعلومات ، غير أنني مالبت أن تلقيت مكالمات هاتفية من صديق جليل هو وزير الدفاع السابق بيير كوت عضو مجلس الشيوخ الفرنسي يصّر على ضرورة مقابلي بسويسرا لأمر عاجل ، فلقيت في نفس الليلة حيث أكد لي ما كان قد بلغني قبل من معلومات ، وأضاف أن تصريح كوف ده موريل وزير الخارجية الفرنسية الأخير الخاص باشتراك فرنسا في أي تدخل عسكري غربي إنما هو لإرضاء العسكريين الفرنسيين الذين يمارسون الضغط عليه ، على أن الإنجليز والأمريكان غير متحمسين لاشتراك الفرنسيين إذ تقوم خططهم على أن يقوم العراق والأردن بهجوم سوريا في ستر مظلة جوية عربية إسبا وأنجلو أمريكية فعلا ، الأمر الذي يصيب العملية بصبغة عربية محلية للحيلولة دون تدخل الاتحاد السوفييتي الذي لن يجد مايسوغ تدخله مادام القتال يدور بين العرب بعضهم البعض . وحذر من أن الخطة مبنية أساسا على المفاجأة والسرعة لتصفية سوريا في ثلاثة أيام ، وتنصيب حكومة موالية قبل أن تتمكن مصر من تعبئة الرأي العام العالمي ضدهم متداركين ماوقعوا فيه من تباطؤ في عملية السويس . وذكر أن الطائرات على أهبة الاستعداد فوق حاملات الطائرات الراسية بجزيرة قبرص لتحول دون أية إمدادات من مصر عبر البحر المتوسط ، على حين ترابط الطائرات في الأردن

والعراق واسرائيل لتحول هي الأخرى دون وصول أية إمدادات برّية . وقد تحجب الوزير كوت مشقة المجيء بهذه السرعة الخاطفة تقديرا منه لخطورة الموقف ، وأوصى بالإسراع بطلب انعقاد مجلس الأمن لفصح الخطة المبيّنة وإحراج الأمم المتحدة بطلب وضع مراقبيها على الحدود العراقية السورية ، وضرورة التباحث مع الاتحاد السوفييتى لاتخاذ موقف يحذّر الأنجلوأمريكان من المغامرة ، فضلا عن إبلاغ الولايات المتحدة رسميا بتصميم الشعبين المصرى والسورى على المقاومة والتصدي ، وانتهى إلى ضرورة استخدام الإذاعة والصحافة العربية لتحذير الرأى العام العراقى والأردنى وتنويره إزاء مغامرة حكومتيه .

وفى شهر يولييه من نفس العام نشرت صحيفة لوموند أن لفيفا من أساتذة الجامعة ورجال الفكر السياسى الفرنسيين قد أنابوا عنهم ثلاثة أساتذة من كل فرع من العلوم لتقديم مذكرة إلى كوف ده مورفيل وزير الخارجية فى حكومة الرئيس دييجول مطالبين بضرورة العمل على إعادة العلاقات الثقافية بين فرنسا ومصر على أوسع نطاق ، وكان أغلب الأساتذة أعضاء فى رابطة الصداقة الفرنسية المصرية التى جرى التفكير فى إنشائها كما أسلفت منذ بضعة شهور .

وكلما مرّت الأيام زدت اقتناعا بأن ماسبق لى أن انتهيت إليه فى تقديرى للموقف الذى قدمته فى السابع عشر من يناير ١٩٥٨ بالنسبة لمستقبل علاقاتنا مع فرنسا مازال صحيحا وقائما ، لأن الاعتبارات التى بنيّت عليها رأى بضرورة عدم الإسراع فى استئناف تلك العلاقات مازالت فى نظرى ماثلة بل غدت حقيقة واقعة . وكان أن أرسلت إلى الرئيس عبدالناصر فى الحادى عشر من أغسطس ١٩٥٨ مذكرة بيّنت له فيها أنى مدرك تماما أن الحالة التى عليها تلك العلاقات غير طبيعية ، فالمفروض قيام تلك العلاقات بين الدول ، وأن انقطاعها هو الاستثناء ، كما أنى مدرك أن استئناف العلاقات مع فرنسا من شأنه أن يسمح بإجراء المبادلات الاقتصادية معها بصورة أوسع مما هو عليه الآن ، الأمر الذى يساعد على إنعاش الحالة الاقتصادية لدينا ، ولكن مع تقديرى لهذه الاعتبارات الهامة فإزالت أرى أن ثمة اعتبارات جوهرية تدعو إلى التريث قبل استئناف العلاقات السياسية مع فرنسا ، بعضها اعتبارات خارجية والأخرى داخلية . أما عن الاعتبارات الخارجية فقد أوضحت أن الأسباب الفعلية التى حملت فرنسا

على ارتكاب أخطاء جنونية متوارة في حقنا مازالت قائمة ، فالعداء السافر الذي كانت تواجهنا به فرنسا لم تخف حدثه ، والأسلحة الفرنسية ماتزال تتدفق بلا انقطاع على إسرائيل ، والتعاون الوثيق بين جهاز المخابرات الاسرائيلية وجهاز المخابرات الفرنسية قائم على قدم وساق بل إن الصلة بين القيادتين لا تقف عند حد تبادل المعلومات بينهما ، فتحن على وجه اليقين إزاء تحالف فعلى لا يجعل من فرنسا خصما من خصومنا فحسب بل عدوا لنا رابضة قواته على أبوابنا . هذا من ناحية اسرائيل وكونها سببا جوهريا من أسباب القطيعة بيننا وبين فرنسا إلا أن هناك سببا جوهريا آخر يهدد لا محالة علاقاتنا مع فرنسا في المستقبل إذا ما ظل قائما وأعنى به مشكلة الجزائر . فلقد أثبتت الرأي العام الأوربي منذ التمرد الذي قام به الجيش الفرنسي والمتطرفون من الرجعيين الفرنسيين في ١٣ مايو ١٩٥٨ مشكلة الجزائر العربية بعد أن طوته مناورة ديجول وأنصاره التي ادعت أن الشعب المسلم العربي في الجزائر قد اكتسب فعلا حقه في المساواة توطئة لاكتسابه حقه في الحرية بينما الحقيقة تخالف ذلك ، كما غدت أنباء التطورات الدستورية والداخلية في فرنسا هي الطاغية على سواها في الوقت الذي تزداد فيه القوات الفرنسية بظشا بالمحاربين الوطنيين في الجزائر تحت ستار من الكتمان المنظم . ولما كانت معركة التحرير في الجزائر وتأييدنا لها سببا مباشرا لاشتراك فرنسا في العدوان الثلاثي الذي تعرضنا له في نهاية ١٩٥٦ ، لذلك لن تحجم فرنسا إذا ما انتصرت فيها قوى الرجعية الفاشية المائلة لاسرائيل عن ركوب رأسها من جديد ، يحفزها إلى ذلك ثقتها بأن الولايات المتحدة لن تعرقل هذه المرة مغامراتها العدوانية .

وهذه كلها اعتبارات خارجية من شأنها أن تفسد علاقاتنا مع فرنسا ، ولما كانت الأسباب تؤدي عادة إلى نفس النتائج فلا مصلحة لنا أوعلى الأقل لا مصلحة عاجلة لنا في استئناف علاقات سرعان ما تكون مهددة بالانقطاع من جديد إذا ماتقلب الرجعيون عن طريق انقلاب يؤيده الجيش . وأضفت إلى هذه الاعتبارات الخارجية اعتبارات داخلية فرنسية لا تشجع على التعجيل باستئناف العلاقات العربية الفرنسية ، ذلك أن تولى ديجول رئاسة الحكومة لم يثب مشاكل فرنسا الداخلية ولم يُكسبها استقرارا سياسيا أو نفسيا بعد ، وما زال الناس حائرين في تكييف المستقبل قلقين على مصير الحريات ، فثمة تباران يتنازعان تأييد

ديجول : تيار يرى فيه زعيما قادرا على قيادة فرنسا لاستعادة المجد والطمأنينة بتوفير أسباب العمل والاستقرار وإعادة الحريات العامة ، بل وبسطها إلى الأقاليم الواقعة خارج فرنسا الأوربية ، وهو ما يعنى تصورهم أن السياسة التى ينتهوها للجزائر من شأنها أن تعيد السلام إلى تلك الأرض المرتوية بدماء الشهداء . أما التيار الثانى فهو تيار الرجعيين المتزمتين الذين اتخذوا من ديجول فى مبدأ الأمر رمزاً لهم ، ولم يكذب ينجح فى أن يكتسب شيئاً من الاستقلال فى قراراته حتى انقلبوا عليه وشرعوا فى الإعداد للقيام بحركة انقلابية بمساعدة عقداً الجيش تستهدف إقصاء ديجول وتولية سوستيل اليهودى المتفرنس والمغالى فى رجعيته مكانه ، فإذا فاز ذلك الفريق الذى يُدارى تمرده ويستعد لوضع الشعب الفرنسى أمام الأمر الواقع تلاشت بالتالى الآمال فى استقرار الحالة فى الجزائر العربية وازدادت الحالة سوءاً واشتد القهر والبطش . ومن ثم فلا مصلحة لنا فى التعتل باستئناف العلاقات العربية الفرنسية مع حكومة أو نظام مهتد بثورة إذا كُتِب لها النجاح أطاحت به .

هذه الاعتبارات مجمعة هى التى دعتنى إلى التوصية بالتريث قبل الإقدام على خطوة استئناف العلاقات السياسية مع فرنسا إلى أن ينجلي الموقف خلال شهر أكتوبر ، وعندها يمكننا تقدير موقفنا على ضوء عوامل ثابتة تسمح باتخاذ القرار الذى يحقق مصالحنا . وبطبيعة الحال لا يحول هذا التريث دون قيامنا بانتهاز الفرصة فيما يجرى من لقاءات لمحاولة إقناع الجانب الفرنسى بأهمية تخليه عن تقديم الدعم العسكرى لاسرائيل وبضرورة الاعتراف بحق الشعب الجزائرى فى الاستقلال .

وفى مستهل شهر سبتمبر اتصل بى أحد معارفى الفرنسيين من باريس ليبلغنى رغبة وزارة الخارجية الفرنسية فى إيفاد الوزير المفوض جيليه مدير مكتب وزير الخارجية كوف ديه مورفيل للقائى وبحث مستقبل العلاقات بين البلدين . وبعد أن حصلت على موافقة القاهرة أخذت أعد لهذا اللقاء الذى استغرق طيلة نهار ١٧ سبتمبر ١٩٥٨ حيث أجرينا استعراضاً كاملاً للموقف لم يقطع قيامنا لتناول طعام الغداء بالسفارة ، وانصب الحوار الأول على سلسلة المباحثات المصرية الفرنسية لتطبيع العلاقات بينها . وقد أوضحت للوزير جيليه أنه ليس هناك ما يحول دون قبول مبدأ استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر وفرنسا ، غير أن



هناك مسائل لا بد من حُسابها حتى تقوم العلاقات على أساس وطيء أجلتها في أن القومية العربية تعبير طبيعي عن شعور قومي عميق الجذور لدى كافة الشعوب العربية ، وأن سياسة الجمهورية العربية المتحدة هي الحياد الإيجابي بين الكتلتين الشرقية والغربية ، ومن ثم فالتوقع من الحكومة الفرنسية احترام تلك السياسة ، كما أنه من المتوقع منها أيضا أن تقدم لنا الضمانات الكافية بإيقاف توريد الأسلحة لإسرائيل التي لن تستخدم إلا ضدنا ، هذا إلى العمل من جانب الحكومة الفرنسية — ولا سيما بعد تشريعها الصحفية الأخيرة — على تنوير الرأي العام الفرنسي بحقيقة الموقف في الشرق الأوسط دون تحيز للجانب الإسرائيلي .

وقد تجنبت الخوض في موضوع الجزائر في مستهل اللقاء إلى أن طرقة هو مؤكدا اعتراف كوث ده مورفيل بالقومية العربية وتسليمه بها حقيقة قائمة ، وكذلك الحال بالنسبة لسياسة الحياد الإيجابي ، معلقا بأن التنافس بين الكتلتين سبب من الأسباب الجوهرية للتوتر الملحوظ في منطقة الشرق الأوسط . أما عن الضمانات التي نطالب بها لإيقاف توريد الأسلحة الفرنسية إلى إسرائيل فقد أصر على أن الأمر لم يعد كما كان فيما مضى إلى حد أن جولدا مائير لم تصادف حين حضرت إلى باريس ما كانت تطمع فيه من ترحيب أو استجابة لطلبات الأسلحة التي قدمتها ، وذلك لأن الأوساط السياسية التي كان تحرك السياسة في الماضي من وراء الستار بتأثير اليهود أمثال سيوستيل قد توارت أو كادت ولم يبق منها إلا القليل . وحين أعدت عليه السؤال عن الضمانات التي تستطيع فرنسا تقديمها بالنسبة لإيقاف إمداد إسرائيل بالأسلحة والمعدات ، وكذا بالنسبة لتدريب العسكريين الإسرائيليين عليها أخذ يُطمئني إلى أنه من غير المعقول أن يُقدم ديجول — وهو شخصا صاحب فكرة هذا اللقاء بيننا — على سياسة تفاهم مع الدول العربية دون أن يدخل في تبقيده أن هذا من شأنه تعديل سياسته إزاء إسرائيل . وإذا هو يقترح في النهاية إفاد أحد الدبلوماسيين من كل من الجانبين بدرجة مستشار يعاونه خمسة أفراد أو ستة لمباشرة عودة العلاقات بين البلدين توطئة لتبادل السفراء فيما بعد . كما أشار إلى أن الصحافة الفرنسية قد خففت كثيرا من لهجة عدائها نحونا في الفترة الأخيرة . على أنه أبدى قلقه من موضوعين كان أولهما هو موضوع الاتفاق الثقافي المقود بين فرنسا ومصر إذ أن مدير البعثة العلمانية

الفرنسية عاد من زيارته للقاهرة وقد انطبع لديه شعور بأن السلطات غير متحمسة لوضعه موضع التنفيذ . وكان تعليقى على هذا هو تعجل مدير البعثة العلمانية فى سفره إلى القاهرة خلال شهر أغسطس ، وهو شهر الأجازات الذى لايسهل فيه عادة الوصول إلى قرارات حاسمة ، هذا فضلا عن أن وزير التربية والتعليم كان فى مهمة بسوريا . ثم إنه طالب باستلام المدارس الفرنسية قبل شهر أكتوبر ، وهو أمر عصى على التحقيق من الوجهة العملية لقصر المدة المتاحة من جهة ، ولأن السنة الدراسية قد أوشكت على البدء من جهة أخرى . وأضفت أنى حرصت على أن أوضح لمدير البعثة العلمانية بنفسى عند لقائى به فى القاهرة مؤخرا أن الحكومة المصرية ترحب بقبول مدارس فرنسية وبصفة خاصة مدرسة للإدارة وأخرى للتدريب المهنى العالى الكفاءة ومدرسة للترجمة ، كما أوضحت له أن توقيع الاتفاق لم يكن ليتم لولا تدخل الرئيس عبدالناصر شخصيا وتصديده لتخطى كافة الصعاب القائمة .

وأخيرا كان موضوعه الختامى هو الجزائر ، وكنت شديد الوضوح حين صارحته بأننا لا نستطيع أن نتخلى عن إخواننا الجزائريين ، وأن استقلال الجزائر هو الصيغة الوحيدة المقبولة منا . أما المزايا التى تستطيع حكومة الجزائر منحها لفرنسا سواء أكانت اقتصادية أم فنية فهذا متروك للجزائريين أنفسهم لتسويته معهم ، فلديهم من النضج السياسى ما يؤهلهم للاضطلاع بمثل مشاكلهم بأنفسهم . ثم إن مصر على غير استعداد للقيام بأية وساطة ولكنها مستعدة لإقناع الجزائريين بقبول الحد الأدنى دون مغالاة ، إن كان بينهم من يغالى .

ثم مالبثت أن ألمح بالأسلوب الدبلوماسى إلى أنه يحدث أحيانا أن تعمل أجهزة المخابرات منفردة فتأتى بتصرفات لا تعلم بها الحكومات ، وضرب لذلك مثلا عملية القبض على بن بللا ورفاقه مؤكدا أنها تمت دون علم الحكومة الفرنسية القائمة وقتذاك ، وعلى نفس النهج ضبظت السلطات الفرنسية منذ أيام باخرة مصرية تحمل سلاحا إلى الجزائر ترافقها غواصة لحمايتها . وحين أنكرت علمى بهذا الموضوع وكنت صادقا لم يلبخ عليه . كذاك ألمح إلى إزدیاد لهجة صوت العرب حلة وعنفاء هذه الأيام ، كما صارحنى بعدم إمكانهم التفاوض مع جبهة التحرير

الوطنية، وبرغبتهم في إجراء انتخابات في مبدأ الأمر تجرى المفاوضة بعدها مع ممثلي الشعب الجزائري المنتخبين .

فكشفت له عن دهشتي من إغماض عيونهم عن الحقائق ، إذ أن جبهة التحرير الوطنية هي الهيئة التي تمثل الشعب الجزائري تمثيلا صادقا ، وأنهم إذا كانوا ينشدون حقاً وضع حد لهذه الحرب فلا مناص لهم من التزام الواقعية والتفاهم معها تجنباً للمزيد من إراقة الدماء والإنفاق . فأوضح لي عدم رفضهم التفاهم مع جبهة التحرير غير أنهم يرون أن هذه الجبهة ليست الهيئة الوحيدة في الجزائر، وأن الوقت غير مناسب الآن لإجراء هذا التفاهم ، فهناك الجيش وهناك البورجوازية الصغيرة من الفرنسيين في الجزائر، وهؤلاء وأولئك يعارضون بشدة إجراء أي حوار مع جبهة التحرير، حيث البورجوازية الصغيرة في نظره أقوى من كبار الأثرياء . ولذلك يجد ديجول حريصاً على ألا يصدر عنه في أحاديثه أوتصريحاًته أي دليل إيجابي عن رؤيته لمستقبل الجزائر، لأنه لوفعل الآن لسقط لتوه ، حيث لا يستطيع أن يرضى لأحزاب اليمين ولا أحزاب اليسار، وسيمضي على هذا المنوال شديد الجذر إلى أن يتمكن من القبض بيديه على زمام جهاز الحكم تماماً .

وحين أعود بهذا كرتي إلى تلك الأيام الزاخرة بالنشاط الواسع الذي اقتضته الظروف القائمة وقتذاك أتبيّن مدى اتساع الجبهة التي كان عليّ أن أعمل فيها وقوة السيارات المتضاربة المحيطة ومبلغ شراسة المواقف المعادية التي كانت تواجهنا . وما من شك في أن التجارب التي مرّت بي خلال تلك المرحلة قد أكسبتني خبرة ودراية أعاننتني فيما بعد عوناً بالغاً . وعندما بلغت مهمتي في روما نهايتها كان الله قد وفقني إلى تحقيق قدر لا بأس به من المهام التي أوكلها إلي الرئيس عبد الناصر حين أسند إليّ منصب سفير مصر في روما باعتمادها نقطة ملاحظة أمامية تُطلّ على العالم الغربي ، كما أسهمت في إزالة الكثير من الشكوك المتراكمة بالنسبة لسياستنا ومواقفنا مما جعل في الإمكان العودة شيئاً فشيئاً وفي خلال سنوات قليلة إلى تطبيع العلاقات المصرية بالدول الأوروبية الغربية وخاصة فرنسا وبريطانيا .

\* \* \*

(١) أحد تلال روما السبعة ويضم قصر الرئاسة .

(٢) سؤال : قد تؤدي بنا الأحداث الحالية إلى نزاع عالمي ، والغريون مصممون على الدفاع عن مصالحهم البترولية منها كلفهم الأمر ، وهم لا يعتقدون أن في الإمكان التفاهم مع شرق أوسط شملته الناصرية . فهل هم على خطأ ؟

جواب : إنه من المؤسف - إن لم يكن من المؤلم - أن يصل بنا الأمر إلى الحديث في استسلام عن نزاع عالمي في حين أن ميثاق الأمم المتحدة يوفر أكثر من وسيلة لحل المنازعات حلا سلميا ، ثم إن مصالح الغرب البترولية لا تعدو تأمين مرور البترول في أمان إلى الدول المستوردة له ، والغرب مصلحة مشتركة مع تلك الدول في عدم تعطيل استغلال ونقل هذه المادة الأولية الثمينة بالنسبة للجميع ، أما أن يصل الأمر إلى ضرورة احتلال الدول العربية أو إقامة حكومات هزلية فيها فلا شك أنك تتفق معي في أن هذا لا يُعتبر الحل المثالي لتأمين حماية مصالح الدول المستوردة للبترول ، بل إنني أذهب في القول إلى أن ذلك من شأنه التسبب في التهديد الذي يحاولون تجنبه . إن التدخل أو الإحتلال بات من الأمور غير المقبولة في الوقت الذي لم تعد هناك حاجة إلى إثبات أن حماية الأهداف العسكرية والصناعية أصبحت أمرا مستحيلا ، والمنطق يفرض علينا أن نضع عصر الصواريخ حدا لفكرة أصبحت غير ذات موضوع . ولا يوجد في الوقت الحالي أي دليل على وقوع تهديد من جانب العرب على بترول الشرق الأوسط وقد صرحت بهذا حكومة الجمهورية العراقية . ونحن نحقق لنا أن نشته في أن كل هذا إنما هو ذريعة تبني بها بعض الدول الغربية الاستمرار في أحلامها محاولة بأساليب عتيقة أن تتمسك بأهداف ماض لا عودة له .

وهذا هو مركز الخطأ السياسي الذي يميح كل سياسة تتب مع العالم العربي في المستقبل ، فإن الشرق الأوسط العربي يرغب قبل كل شيء أن يكون عربيا وأن يظل كذلك ، كما أنه يرغب أن يكون متحدا مستقلا يحظى باحترام الغير . وما تسمونه « بالناصرية » ليس سوى يقظة الوعي القومي ونهضته . ولماذا لا يُقبل معنا ما كان مقبولا من غيرنا ؟ إن القومية العربية خالصة من أية شائبة أجنبية وهي منبثة من أعماق شعوب العالم العربي .

وإذا فرضنا - وهو افتراض غير سليم - أن القومية العربية من عمل رجل واحد لكان علينا أن نبحث عن القوى التي دفعت هذا الرجل إلى هذا المسلك وعن حركات التحرير السابقة عليه ؟ ثم إن القومية العربية ظاهرة تاريخية لا يمكن أن يثنيا تهديد أو يحبطها مدفع ، غير أن بعض الدول الغربية لم تترك الحقيقة التاريخية إلا نوعاً واحداً من الاهتمام ، ألا وهو محاولة تحطيمها . ألا ترى معي أن الوقت قد حان للالتجاء إلى أساليب أخرى ؟ وأن من الخطورة عدم إدراك الحقيقة ، أما إدراكها ثم مواصلة سلوك بتجاهلها فهذا هو الخطأ بعينه ، إن من التفاهة أن نعارض التاريخ ، ولا حل لكم ولنا إلا بإقامة السياسة على أساس الحقيقة الواقعة .

ومع ذلك فهناك عناصر للتفاهم لها قيمتها إلا أن الغرب يرفضها لأنها تنطوي في نظره على عيب واحد هو أنها تقتضي الاعتراف بكرامة العربي وعزته باعتباره إنساناً ، فالغرب لا يرضيه إلا أن يكون العربي تابعاً مُستقيداً عليه التزامات ينبغي أن يخضع لها ، أما إذا استمسك بالمساواة والحريّة - وهي المبادئ التي تشغلت بها الحضارة الغربية باعتبارها عقيدة عالمية فإنه يُرمى حينئذ بالتطاوع وتلصق به كل العيوب . لقد بسطنا يد الصداقة فقوبلنا بالتجاهل ، لأن الغرب كثيراً ما يعقد اتفاقاته على أساس السيطرة ، بينما نحن نعني باتفاقنا أن نحيا حياة كريمة نظفر بالاحترام .

تبدو الوحدة العربية ذريعة لتوسّع يراه خصومكم شبيهاً بالتوسع المطرد والسالتي . وإنكم لذلك تلجأون إلى ابتزاز المنافع من الغربيين بتهديد مصالحهم وبإثارة القلاقل الداخلية في بلاد الشرق الأوسط ؟

إن تفسير مظاهر تحمّ العالم العربي كله على هذا النحو هو تفسير بعيد كل البعد عن الحقيقة ، فلك المظاهر تتميز أولاً باتجاه إلى التحرير ثم باتجاه إلى التقارب التلقائي بين الشعوب العربية الأخرى . فلا يمكن اعتبار هذا توسعاً على الإطلاق ، فالتوسع هو الانتقال تدريجياً من إقليم إلى إقليم آخر ، أى أنه حركة تخرج من وسط الدائرة متجهة خارج محيطها والأمير ليس كذلك ، فالظاهرة التي نحن بصدها ظاهرة عكسية ، فما يحدث هو أن الجماعات المقيمة داخل محيط الدائرة تتجه إلى الترابط في عالم هي جزء منه . وتلك الجماعات إذ تحاول ضم الصفوف تحرّحو مركز مشترك هو مركز الجاذبية ، وكون هذا المركز في القاهرة لا يغير من الأمر شيئاً ، فلو كان في مكان آخر غير القاهرة لما حال ذلك دون حدوث ما حدث . وهذا هو الاستكمال التاريخي والطبيعي لتطور الأمة العربية .

إن قوميتنا عربية أساساً ، وهي ليست أداة تحركها أيدي البعض وليست تحريكاً للبعض الآخر ، ولذلك فهي ليست في حاجة إلى الالتجاء إلى ابتزاز المنافع أو إثارة القلاقل ، وأعود هنا فأكرّر أن القومية العربية حركة مزدوجة للتحرير والاتحاد ، وهي تسير إلى استكمال أسبابها بدافع من العوامل التاريخية والطبيعية ، وهي ظاهرة حقيقية ليست مصطنعة أو زائفة ، ولن يقف في سبيلها أحد أو يحولها عن أهدافها قوة حتى تستكمل نموها كما سبق أن تم ذلك لإيطاليا على سبيل المثال .

أما عن الحصول على منافع بالصورة التي تذكرها فإننا نفضل أن نستعمل اصطلاحاً آخر اتفق عليه العالم هو « التنمية » ، فنحن دولة نحاول أن تجلب إليها رؤوس الأموال ، وكانت سويسرا وهي بلد محايد أولى الدول التي مدّت لنا يد المساعدة ، وعقدت إيطاليا الصديقة معنا صفقات لتوريد الحبوب بشحن آجل ، وفتحت ألمانيا الفيدرالية لنا أسواقاً اعتماداً كبيراً . وهناك في القاهرة - كما تعلم - بعثة يابانية تقوم بدراسة برنامج لتحويل المشروعات الصناعية والمدنية . وعلاوة على ما تقدم هل لي أن أذكرك بأن اتصالاتنا الأولى لإقامة السد العالي تمت مع فنيين فرنسيين ، وأن تصميمات المشروع قام بها مهندسون من مدينة جرينوبل ؟ وهل تعلم أن وفداً يضم ممثلي البنوك الفرنسية الكبرى زار مصر عام ١٩٥٥ لدراسة الأسس التي يقوم عليها تمويل ذلك المشروع ؟ وقد أوفدنا في عام ١٩٥٥ خمس بعثات اقتصادية للخارج قامت ثلاث منها بزيارة أوروبا الغربية ، وواحدة بزيارة آسيا ، والأخيرة بزيارة روسيا . فإذا علمت أن دولة أخرى قد فتحت لنا اعتماداً ، فلماذا لا تنسب هذا العمل ببساطة إلى جهودنا بدلاً من أن تنسب إلى مائدته ، وما هو الضغط الذي يمكن أن نمارسه على دول كالإيران وسويسرا وإيطاليا وألمانيا الفيدرالية ؟ وهل تمتدّد أنه كان من السهل علينا أن نعيد بناء اقتصادنا ونخرّجنا من خاوية بسبب السياسة الأجنبية التي سبقت ثورتنا وأعجزت ميزلتنا التجارية بينما كان الغربيون ينظرون إلينا في شماعة ونحن نواجه أزمةنا المالية بعد أن أوصدوا في وجوهنا كافة الأبواب أملأهم في أن يشترونا بأبخس الأثمان .

ودعنى أسألك بدورى كيف تصف طلب فرنسا للمساعدات المالية بعد الحرب . ولماذا قام رؤساؤها بزيارة روسيا ؟ وبماذا تفسر رحلة مسيو مونيه الأخيرة إلى أمريكا ؟ وكيف تسمى القرض الألماني ؟ هذا رغم أن فرنسا لا تنقصها رؤوس الأموال لافى الداخل ولا فى الخارج . ثم كيف حققت مشروعاتكم الكبرى ؟ وما هو مشروع مارشال ؟

سؤال : ماهى فى نظركم مسئوليتكم فى الأزمتين العراقية والبنانية ، فقد قيل أن جماعة من السوريين كانت موجودة فى كلا البلدين ؟

جواب : ما أسرعكم فى توجيه الاتهامات إلينا وإدانتنا . لقد سبق أن بينت لك طبيعة القومية العربية ومداهها ، فما حدث فى العراق وما حدث فى لبنان ليس إلا ظاهرة داخلية بحته من كافة الوجوه ، علاوة على أنه ثورة ضد الاستبداد ، فلم يكن اللبنانيون أو العراقيون فى حاجة إلى توجيه من جانبنا ، وغاية ما فى الأمر أن المشل الذى قدمناه قد هيا أذ هائلا لم يكن قد فاتها إدراك مطالب شعبها وحاجاته . وأود أن أضيف هنا أن الغرب [ أو على الأصح بعض الدول الغربية ] لم يدرك بعد أن القومية العربية هى حركة شعبية ، ومن ثم فإن الأفراد الذين اعتادت سياسة تلك الدول الاعتماد عليهم فى تسيير الأمور داخل بعض البلاد العربية قد فقدوا قيمتهم إلى حد كبير .

وعلى ذلك يمكننى أن أقول إن تلك الدول الغربية اتبعت فى الشرق الأوسط سياسة إقطاعية فى مشربها ومظهرها على السواء ، فكانت تمنح زيدا أو عمروا من الناس سلطة يستحيل على أى منهم مباشرتها خارج مكتبه إلا تحت حماية الحراب . فهؤلاء الأفراد وهؤلاء الحكام المزيليون وهؤلاء الخونة لا يمثلون بأية حال شعورهم ، وهم على أقصى تقدير يمثلون مصالح بعيدة عن مصالح شعورهم . ومثل هؤلاء لا يخدمون مصالح أصدقائهم أو حبايئهم الغربيين لأنهم يوقعونهم فى الخطأ . ومن هنا ، ومهما بدا ذلك غربيا ، يمكن اعتبارهم العامل الأساسى فى التآكل السريع الذى تتعرض له أسس السياسة الغربية فى الشرق الأوسط ، فلم يعد هناك عمل لمثل هؤلاء فى عالم أصبحوا خارجين عليه .

سؤال : هل من المنتظر أن توطد زيارة الرئيس عبد الناصر الأخيرة لموسكو الروابط بين الجمهوربة العربية المتحدة والاتحاد السوفيتى ؟ وهل لانتخسى ذلك شخصيا ؟ وما رأيك فى الشيوعية كحل سياسى داخلى ؟

جواب : إن الرئيس عبد الناصر قد حدد منذ زمن بعيد سياسته وأعلنها بوضوح . فقد سبق له أن أعرب أثناء زيارته الأولى لموسكو عن عرفانه بجميل شعب وقف إلى جانبنا بصورة إيجابية فى ظروف حرجية من حياتنا ، كما أنه عاد فأكد على الملاجوه سياسته . ومنذ أيام بعد عودته من زيارة سريرة لموسكو عاد فكرر تأكيديه بعدم التخلي عن سياسته وهى السياسة التى أجمعت عليها الأمة العربية والتى تعبر بها عن رغبته فى أن تكون عربية قبل كل شىء وأن نمج حياة سلمية فى انسجام مع الجميع ، ألا وهى سياسة الحياد الإيجابى ، وقد وقعت الأمة العربية بأجمعها وراء عبد الناصر ومن حوله لتحقيق تلك الأمانى المشروعة . ونحن نعتقد أننا بهذه الطريقة نحافظ على حقوقنا ونؤمن مستقبلنا دون الإجحاف بحقوق الغير المشروعة . إن رئيسنا قد مذهب للجميع مبتدئا بالغرب ، لقد عرض صداقته على من يود صداقتنا ، كما أنه أكد أننا لن نذعن للتهديد فنحن لانتخسى الدفاع عن حقوقنا إذا تعرضت للاعتداء عليها . إن الغرب — وأقصد بذلك غربا معينا — لم يعرض علينا فى غالب الأحيان إلا عداؤه لنا واحتمال تبعيته له تبعية مستترة — وقد قول رفضنا لذلك على أنه تمرد من جانبنا ثم عوملنا على هذا الأساس .

وأخيرا أراك قد أثرت فقطا تتعلق بالسياسة الداخلية وأفضل أن أقول لك فوراً أننا لانتأثر إلا بجدادنا التى تنسبعت من تاريخنا الطويل والتى تفى بمحاجاتنا الذاتية ، وإن النظام الداخلى لدينا رهن بظروفنا الداخلية وبإرادتنا وشأنه فى ذلك شأن كافة الأنظمة الداخلية لدى الجميع ، فلكل شعب أن يتبع بالنسبة لنفسه النظام الذى تقتضيه مصالحه الذاتية ويوافق طباعه .

سؤال : يبدو للبعض أنكم فى شمال أفريقيا حيث تواجه فرنسا مشاكل كبيرة تتخذون سياسة أسوأ الغروض ، وأنكم حسب ما يزعم المراكشيون تعاونون المعارضة ضد حزب الاستقلال ، كما أنكم على حد قول التونسيين تعضدون « صالح بن يوسف » ، وأخيرا فإن جبهة التحرير الوطنية فى الجزائر تهتمكم بأنكم اخترتم التعاون مع « الأمين دباغين » وهو أكثر الزعاء تطرفا . أليس فى ذلك رفض من جانبكم لكافة العلاقات التى يمكن لأفريقيا الشمالية أن تقيمها مع العرب والتى بدأت بإقامتها فعلا مع فرنسا ؟

جواب : إن أحداث أفريقيا الشمالية تثير بالغ اهتمامنا بطبيعة الحال ، كما أن كفاح إخواننا في الجزائر كان لابد من أن يحرك شعورنا . ونحن نرجو لهم أن ينالوا حقوقهم المشروعة في أقرب فرصة ، ولا نفضل أحدا دون أحد من المواطنين الذين يكافحون جميعا في سبيل قضية شريفة مثل قضيتهم ، فهم أحرار في تدبير أمور مستقبل وطنهم وهم يعلمون من تلقاء أنفسهم السبيل المؤدية إلى ذلك . وإننا لاندخر وسعا في تشجيع فرنسا على أن توفق سرعيا إلى أن تجد سبيلها إلى تعديل الحلول وأكثرها شرعية للاعتراف بحق الجزائريين في تقرير مصيرهم ، وعجدها اعترافها بهذا الحق فإننا نحترم إرادة الشعب الجزائري بكافة طوائفه سواء قرر الارتباط بفرنسا أو بالمغرب أو بالدول العربية .

(٣) عقد هذا المؤتمر دورته الأولى سنة ١٩٥٢ تحت اسم مؤتمر فلورنسا الثقافي واشتركت فيه ٣٢ دولة ، وتناول بالبحث موضوعات تتصل بجمهورية الحضارة المسيحية والسلام المسيحي . ثم زاد عدد الدول الأعضاء في دورة سنة ١٩٥٣ ليصل إلى ٤٢ دولة وأطلق عليه اسم مؤتمر الحضارة المسيحية والسلام . وزاد عدد الدول الأعضاء شيئا فشيئا حتى بلغ ٦٠ دولة في الدورة الخامسة التي عقدت سنة ١٩٥٦ . ولما كان الاشتراك في هذا المؤتمر منذ بدايته موزعا بين دول أوروبا وأمريكا وآسيا ، ولما كانت الموضوعات التي تناولها بالبحث تنسج بطابع ديني مسيحي ، ولما كانت هناك دول إسلامية مشتركة فيه نتيجة لسمي رئيسه ومنظمه السنور جوردجيو لاپيرا ، فقد باتت ثمة رغبة في توجيه المؤتمر وجهة إنسانية أشمل ، أو على الأقل وجهة دينية عامة لا تقتصر على المسيحية فحسب ، كما اعتبر المؤتمر أحد الجهود الرامية إلى مناهضة الشيوعية . وقد اشتركت مصر في هذا المؤتمر بصورة غير رسمية في دورته الثانية عام ١٩٥٢ وكان مندوبا فيه هو الدكتور طه حسين الذي ثابر على المساهمة في أعمال المؤتمر وكان يرغب في كل دورة محاضرة يدافع فيها عن الإسلام بوجه خاص والشرق بوجه عام بوضوح أثر الإسلام في الحضارة الإنسانية والسلام . أما إسرائيل فلم تشترك في المؤتمر اشتراكا جديا إلا سنة ١٩٥٦ حيث ألقى مندوبا خطبا يحمل دعاية سافرة لإسرائيل . ومن المعروف أن إسرائيل دأبت منذ ولادتها على الاشتراك في جميع المؤتمرات الدولية التي ترى فيها مزايا دعائية لها ولولم تكن فيها فائدة مباشرة لمصالحها ، ومن المؤكد أن اشتراكها في مؤتمر فلورنسا بدأ بنفس الروح ولنفس الغرض ، ثم ضاعفت اهتمامها بهذا المؤتمر عندما رأت اضطراب زيادة عدد الدول المشتركة فيه .





## الفصل الرابع

# عودة العلاقات مع فرنسا



بعد أن وليت وزارة الثقافة سألتني الرئيس عبدالناصر أن أصل ما بيني وبين من كانت لي بهم صلة من الفرنسيين ، ثم سألتني ثانية في شهر أبريل ١٩٥٩ أن أجمل له موقف العلاقات المصرية الفرنسية ورأى الشخصى فيه . فكتبت إليه ذلك تفصيلا موضحا حرص فرنسا على تطبيع علاقاتها بعد توقيع الاتفاق بين مصر وبريطانيا ، وقيامها بإجراء مفاوضات سرية شبه رسمية بين مبعوثي ديجول من ناحية وبين بورقيبة ومحمد الخامس والحكومة الجزائرية من ناحية أخرى ، تهدف إلى حل مشكلة الجزائر وخلق « اتحاد شمال أفريقيا » تحت قيادة عربية جديدة خاضعة لمشئنة فرنسا خاصة والغرب عامة في نطاق المجموعة الفرنسية Communauté française ، هذا مع بقاء الخطر المنبعث من باريس الذي يتزايد على مرّ الأيام المتمثل في دعاية إسرائيل المضادة ونشاطها الذي امتد عن طريقها إلى شمال أفريقيا وغيرها من الدول . وكان فيما ذكرته له أنه بات لا معدل عن أن يكون لنا مشرف اقتصادي يقيم في فرنسا إذ أن إهمال ذلك له ضرره باقتصاديات مصر ، وأن فرنسا قد شرعت بالفعل في تمويل بعض المشروعات الجارية تنفيذها ، وهى الأعمال الكهربائية المتصلة بخزان أسوان ومصانع

السماذ . كما ذكرت له مانال محصولنا الرئيسى من القطن منذ العدوان الثلاثى حتى منتصف عام ١٩٥٧ من خسائر بعد أن فقد أحد عملائه الرئيسيين خلال هذه الفترة وهو فرنسا . ولما كانت فرنسا هى أولى دول العالم المستوردة للقطن — إذ يبلغ ما كانت تستورده حوالى ٩٠ ألف بالة من الأقطان الطويلة الثيلة وحوالى ٩٠٠ ألف بالة من الأقطان المتوسطة والقصيرة الثيلة — فقد لجأت إلى بغض الدول الأخرى مثل السودان لسد حاجتها منه ، ولكنها كانت فى نفس الوقت تسعى إلى الحصول على القطن المصرى حيثما وجد فى الأسواق العالمية ولكن بخطوات وثيدة .

كما أوضحت أنه منذ قيام الجمهورية التونسية وبورقية يحاول جاهدًا تكوين اتحاد بين دول شمال أفريقيا تحت قيادته ، فتواطأ مع الاستعمار الغربى بصفة عامة والاستعمار الفرنسى بصفة خاصة لإخراج مشروعه إلى حيز التنفيذ ، إذ كان يخشى أن تنال الجزائر استقلالها بتأييد الجمهورية العربية المتحدة فتغدو دولة لها شأنها تقف إلى جانبه على قدم المساواة فتبتله . ومن أجل ذلك أخذ يهاجم الجمهورية العربية المتحدة معرضًا بها ، ويعمل لخلق المشاكل التى من شأنها أن تفرق الصف العربى ، فخرج على الجامعة العربية ثم لم يكد يعود إلى حظيرتها حتى بدأ يتعاون مع بعض الفرنسيين وعناصر من جبهة التحرير أخذت تُجرى مفاوضات تهدف إلى نقل مقر الجبهة إلى تونس ، وهو ما فجر صراعًا داخل جبهة التحرير ودفع الحكومة التونسية إلى الضيق بوجود أى تنظيم من تنظيمات جبهة التحرير على أرضها . وفى الوقت الذى كان بورقية يسعى فيه إلى إيجاد مخرج سلمى مع فرنسا تزايد تأجيج الصراع داخل جبهة التحرير بفعل الهجوم الشديد الذى شنته عباس فرحات ضد مكتبى الجبهة فى دمشق وبيروت اللذين يعملان على تصعيد كفاح التحرير . وقد اقترح بورقية على فرنسا الاتفاق معه على مخطط لضرب الجبهة يتمثل فى أن تتقدم فرنسا رسميا بعرض على الجزائر ين للدخول فى المجموعة الفرنسية ، كما صرح بأن ديجول هو الوحيد الذى يستطيع إنهاء الحرب فى المغرب ممهدًا بذلك الطريق للقاء يجمع بينه وبين محمد الخامس وديجول . وفى الوقت الذى كان فيه بورقية يهين نفسه للتقريب بين وجهتى النظر الفرنسية والتونسية بشأن المشكلة الجزائرية مشيدا بأهمية التعاون الفنى الفرنسى التونسى ، عمل من جهة أخرى على تدعيم مركزه فحصل على كمية عن الأسلحة

التشييكوسلوفاكية ، خاصة الدبابات التي وصلت إلى ميناء جابس لعرضها في الاحتفال بعيد الاستقلال . كما عرض في شهر فبراير ١٩٥٩ على فرنسا مشروع تدعيم السلام في أفريقيا الشمالية الذي يقضى بأن تتسلم فرنسا قاعدة « بيزرته » الاستراتيجية التونسية بشرط أن تبدأ المفاوضات لإيجاد تسوية سلمية للمشكلة الجزائرية على أساس الاعتراف باستقلال الجزائر .

كذلك كان يساور محمد الخامس الأمل في الاتفاق مع فرنسا على تسوية مشاكـل أفريقيا الشمالية ، الأمر الذي حفز الدوائر القربية من ديجول إلى التصريح بأنه لن يرفض أى عرض يتقدم به ملك مراکش في هذا الصدد ، إلا أن أوساط الجيش والحزب الوطنى الجمهورى الفرنسى بزعامـة سوستيل أصرت على معارضة سياسة محمد الخامس لاسيما مشروعه الخاص [ الاعتراف باستقلال الجزائر على أن ترتبط بفرنسا على غرار النظام المتبع في مدغشقر ] وطالبوه بأن تظل مراکش على الدوام في منطقة الفرنك لحل مشاكله الاقتصادية الداخلية ، وأن يُبقى اتفاقياته الاقتصادية والسياسية خاضعة لإشراف فرنسا .

وفي الوقت نفسه مضت اسرائيل تستغل الظروف المحيطة لـكى تنفرد بـبـتـ دعايتها في فرنسا ، فسخرت العديد من الصحف الفرنسية لتشويه الحقائق واختلاق الروايات المسيئة للجمهورية العربية المتحدة وقادتها . وانتقلت الدعاية الاسرائيلية عن طريق فرنسا إلى بعض الدول عامة وشمال أفريقيا خاصة لـكى تزعزع ثقتها في الجمهورية العربية المتحدة حتى أخذت بعض هذه الدول تتحدث عن « الاستعمار المصرى » و « الاستعمار الناصرى » . وإذ نجحت اسرائيل في الحصول على مساعدات مالية وأدبية وعسكرية وثقافية فرنسية وغير فرنسية تعينها على مواصلة الحياة وعلى الاستمرار في التحريض ضدنا ، بات لامناص من اتخاذ الاجراءات العملية الكفيلة للحيلولة دون استمرارها في استغلال فرنسا إلى هذا الحد ووقف هذا التيار المعادى الجارف . ولذا اقترحت أن نتخذ خطوة إيجابية مماثلة لما اتخذته فرنسا ، أعنى عودة التمثيل التجارى والثقافى وإن لزم الأمر القنصلى ، حتى نستطيع تعويض ما فقدناه خلال فترة الغياب الطويل السابقة وأن نواجه الأخطار المنبعثة من باريس وراء لواء اسرائيل ضد القومية العربية .

كذلك أوضحت أنه كان ثمة اتجاهان داخل الحكومة الفرنسية بصدد علاقاتها مع العالم العربى بصفة عامة ومع مصر بصفة خاصة ، أولهما يقوده دبويه رئيس الوزراء وهو يهودى متنصر ومعه سوستيل ، ويقضى بمعارضة كل تقرب من مصر وبالحرص على تدعيم العلاقات مع اسرائيل . والمثل الواضح على ذلك هو تلك المساعدة الضخمة التى قدمها دبويه وسوستيل للتحالف الفرنسى الاسرائيلى حيث تم جمع الفاشيين فى حزب حيروت والفاشيين المفرنسين تحت لواء منظمة واحدة ، وذهبا فى تأييدهما لاسرائيل إلى حد الاتفاق على مساندة حزب حيروت فى معركته الانتخابية . فضلا عن ذلك كانت ثمة منظمة فرنسية اسرائيلية أخرى تجمع بين الاشتراكيين فى الدولتين . أما الاتجاه الثانى فيقوده ديجول وكوف ده مورفيل ولوى چوكس سكرتير عام وزارة الخارجية ، ويقضى بتأييد قيام تفاهم بين فرنسا والدول العربية وتأييد الحل السلمى للمشكلة الجزائرية على أساس حصول الجزائر على استقلالها بالتدريج وخلال فترة قصيرة ، كما يؤيد هذا الاتجاه التفاهم مع مصر . وقد بدالى أنه ينبغى على السياسة المصرية أن تضع فى اعتبارها هذين الاتجاهين عند دراستها للموضوعات المتصلة بفرنسا حتى لا تتعامل مع فرنسا حكومة فحسب ، بل أن نستغل هذا الخلاف القائم بين اتجاه ديجول واتجاه سوستيل . كذلك أشرت بأنه لا بد أن تنهج التصريحات الرسمية وأجهزة الإعلام المصرية نهجا آخر غير ذلك النهج الذى اعتدنا انتهاجه وهو إما الخصومة المطلقة وإما الصفاء المطلق ، وطالبت بنهاجة تصريحات دبويه وسوستيل حينما يقدم ديجول رأيا إيجابيا يعارضهما نرحب به ونبدى تقديرنا له .

وإذ كنت أومن بالدور الفعال الذى تلعبه الاتصالات الشخصية فقد عاودت الكثرة لإنشاء « رابطة مصر — فرنسا » تضم حوالى أربعين من كبار رجال الفكر والعلم بفرنسا ممن كنت قد عرضت أساءهم فى غضون العام الماضى على رئيس الجمهورية فنلت موافقته على تشجيع قيام هذه الرابطة لتتناهض الدعاية المعادية التى كانت تبذلها الجمعيات الفرنسية الاسرائيلية وقتذاك . وبما زادنى تشبثا بهذه الرابطة ما كانت تثيره الجمعيات الفرنسية الاسرائيلية من عقبات أمام إنشاء « رابطة مصر — فرنسا » . وقد رأيت أن أرسل إلى كبار أعضاء هذه الرابطة رسائل أشجعهم فيها على المضى فى رسالتهم ، واعداء إياهم بأنه حالما يتم تنظيم هذه

الرابطة بفرنسا وتبدأ في ممارسة نشاطها فإننا سوف نبادر بتنظيم رابطة مماثلة في القاهرة . كذلك ألححت إلى مواصلة سياسة تبادل الزيارات بين الشخصيات الفرنسية ومصر ، واستأذنت في توجيه الدعوة إلى كل من الرئيس إدجار فور وقرينته والي جان پول سارتر وموريس دو فيرچيه رئيس تحرير صحيفة لوموند .

وانتهيت من تقدير الموقف إلى أن تحقيق مصالحنا يقتضى منا أن نبدأ فوراً بتبادل التمثيل التجاري والثقافي تمهيدا لقيام التمثيل القنصلي . ولقد كان مما ملأني رضا أن الرئيس عبد الناصر وافق على توصياتي بعد أن قرأها وبادلني فيها الرأي .

وكان الجنرال كاترو قد اقترح لقائي في شهر فبراير ١٩٥٩ في سويسرا للقيام بمحاولة جدية لوضع حدٍّ للجمود في علاقات فرنسا ومصر ، وأرجأت الأمور بعض الوقت حتى يستقرَّ الرأي على السياسة التي ستُتبع في هذا الصدد . وكان كاترو أحد المقربين إلى ديغول ، وقد عُرف بتعاطفه مع العرب حتى أطلقوا عليه في فرنسا اسم مُصنِّق الاستعمار ، إذ كان هو الذي ضيق استعمار فرنسا لسوريا ولبنان . ولذلك لفتني ما جاء في الكتاب القيم « ملقات السويس » للأستاذ محمد حسين هيكال إذ يقول :

« وكان وزير الدفاع وقتئذ هو الجنرال كاترو الذي كان من قبل مقياً فرنسياً عامناً في سوريا ولبنان . وقام الجنرال كاترو باستقبال ( شيمون ) بيريز والترحيب به بنفسه وكان الترحيب حاراً . ذكر أنه لا يستطيع أن ينسى دور الفيلق اليهودي في دخول الحلفاء وبينهم فرنسا الحرة إلى سوريا ولبنان سنة ١٩٤١ ، ثم قال لبيريز لقد حاربنا جنباً إلى جنب في الماضي ، والآن فنحن نواجه نفس الأعداء . وفي أغسطس ١٩٥٤ وقع كاترو و بيريز صفقة سرية تتضمن إمداد إسرائيل بسربين من المقاتلات من طراز أوراجون وكذلك شبكة رادار وبعض المعدات الأخرى .. إلى آخره » (١) .

واحساقاً للحق فإن الجنرال كاترو لم يتقلد في حياته منصباً وزارياً ومن ثم لم يكن وزيراً للدفاع عام ١٩٥٤ بل كان يشغل وقتذاك منصب المستشار الأكبر لجوقة الشرف (٢) وظل في هذا المنصب الرفيع إلى أن جاء جى موليه إلى الحكم عام ١٩٥٦ فعينه مقياً عاماً بالجزائر لتصفية الوضع فيها ، غير أن الفرنسيين المقيمين

بالجزائر شتوا عليه حملة شعواء وجد رئيس الحكومة نفسه إزاءها مضطرا إلى سحب وتعيين روبير لاكوست مكانه . وأغلب الظن أن اسم الجنرال كاترو قد التبس على الأستاذ المؤلف مع اسم الجنرال كونيغ ، وكان هو وزير الدفاع الذى تعاقد مع بيريز<sup>(٣)</sup> ، اذ كان رئيسا لأركان حرب الفرقة الأولى من قوات فرنسا الحرة التى اشتركت بقيادة الجنرال كاترو مع القوات البريطانية فى غزو سوريا ولبنان فى ٨ يونيو ١٩٤١<sup>(٤)</sup> .

وقد عاد الجنرال كاترو فحدد موعدا آخر لمقابلتى فى الرابع من مايو، ولكنه حينها ذهب إلى وزير الخارجية يستأذنه فوجيء بكوف ده مورفيل يُبلغه أنه يؤثر أن يتم بحث هذا الموضوع بينه شخصا وبينى ، وأنه قد تحدد الحادى عشر من شهر مايو للمقائى فى سويسرا ، كما تم الاتفاق على نقاط جدول الأعمال

وعلى أن تناقش أية مسألة مادام الغرض من المقابلة هو العمل على استئناف العلاقات بين بلدينا . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الاجتماع ليحول دون لقائى بالجنرال كاترو يوم ٤ مايو حتى لا يحسّ غضاظة . وحين عرضت الأمر على الرئيس عبدالناصر أشار بإتمام هذه المقابلات بعد أن زدنى بوجهات نظره .

وفى مساء ١١ مايو ١٩٥٩ وفى الموعد المتفق عليه سلفا ، بدأت محادثاتى مع المسيو كوف ده مورفيل وزير خارجية فرنسا ، وكان قد اصطحب معه مدير مكتبه المسيو بيليتيه Pelletier . وقد استهل الوزير الفرنسى الحديث بالسؤال عن تطور مشروع السد العالى ، فبسطت له تفاصيل الوضع وقتذاك كما أكّدت له قرب بدء التنفيذ الفعلى . ثم انتقل إلى الحديث عن العلاقات المصرية الفرنسية فذكر أنها كانت تقوم دوما على أساس من الصداقة التقليدية ، ورددت عليه بأننا لانضمم أى عداة للشعب الفرنسى ، وأن الرئيس جمال عبدالناصر يرى أن واجبنا اليوم هو أن نسعى سويا إلى التخلص من آثار الماضى .

وحول المسألة الجزائرية لم أنكر أنه منذ أن قامت الثورة فى الجزائر ونحن نمد لها يد العون ، ولكن نسبة ماتقدمه مصر من عون لا يُقاس بإمكانيات فرنسا وما يقدمه لها حلفاؤها من عون . إلا أننا فى الوقت الذى كنا نتقدم فيه بهذا العون ، كنا نحاول على الدوام — فى ظل الأوضاع السياسية الفرنسية السابقة التى شاءت أن



تلقي علينا بكل اللوم — كنا نحاول أن نضع حداً لإراقة الدماء ، والدليل على ذلك هو مطالبة الرئيس عبدالناصر للمسويينوزير الخارجية الفرنسية وقتذاك بالبحث عن وسيلة كريمة لحقن الدماء ، وكنت أنا بين الذين اضطلعوا بهذا العبء الساعى إلى السلام ، هذا إلى محادثاتى مع مسيو بيير كومان السكرتير المساعد للحزب الاشتراكى ، وظلت هذه المحاولات جارية إلى أن تم تأميم قناة السويس وكان العدوان . وهكذا لم نكن نشجع إسالة الدماء بل على العكس بذلنا جهوداً صادقة لحقنها والوصول إلى حل للمشكلة بين الحكومة الفرنسية والحكومة الجزائرية المؤقتة بكامل هيئتها أى باشتراك رئيسها ونائبيه أحمد بن بللا وكرم بلقاسم حتى يمكن الوصول إلى اتفاق بين الطرفين يضمن تدعيم السلام فى كل أنحاء الجزائر . وهنا رد الوزير الفرنسى قائلاً إنه وإن كان لا يعترف بالحكومة الجزائرية إلا أنه يعترف بوجود جبهة التحرير الجزائرية التى لا يمكن أن يعتبرها ممثلة لجميع المجاهدين الجزائريين ، حيث يوجد هناك بالفعل من يجاهدون فى الجزائر دون أن يكونوا منضمين تحت لواء جبهة التحرير الجزائرية . ثم حدثنى عن نوايا الحكومة الفرنسية لإعلان إيقاف إطلاق النار وإجراء انتخابات جديدة فى الجزائر يبدأ بعدها التفاوض مع من يمثلون الشعب بجميع هيئاته ، مع تأكيده على حرص فرنسا على إنهاء حرب الجزائر بأسرع مما نتخيل ، إذ فى هذا مصلحة لفرنسا وللشعب الجزائرى ، غير أنه لم يحدد تاريخاً يتم فيه وقف إطلاق النار فى الجزائر .

فأوضحت له أن تأييدنا للجزائر هو واجب يفرضه التضامن بين الأخوة انطلاقاً من إيماننا بحق الشعوب فى تقرير مصيرها كما جاء فى ميثاق الأمم المتحدة ، فبالننا بشعب عربى شقيق . وأضفت أننا نفهم أن العراق الذى يرصد مليونين من الجنيهات لتأييد الجزائر — وهو أمر يظفر بتقديرنا — يهاجمنا عبر إذاعة بغداد وصحافته لتوقيعنا لاتفاق المالى الثقافى مع فرنسا ، ولكننا لانفهم أن تقوم إذاعة باريس وصحافة فرنسا بمواصلة التهجم علينا ، كما لانفهم مساندة فرنسا لبعض المصريين فى إقامة محطة إذاعة سرية على أرض فرنسية ، فهذا أمر لا يخدم اتجاه حسن النوايا الذى يتطلع إليه كلانا . وأوضحنا له أن مطالبتنا بوقف هذه الإذاعات لا يعنى اعتراضنا على انتقادنا علانية من راديو باريس إذا كان ثمة مبرر لذلك ، أعنى من الإذاعة الحكومية وليس من الإذاعة السرية . ثم تساءلت

عن موقف الصحافة الفرنسية العدائي من مصر ، حيث نرى صحافة فرنسا مسخرة لخدمة أغراض تل أبيب ، وليس غير اسرائيل وحدها التي تستفيد من هذا العداء . ورد على وزير الخارجية الرد الدبلوماسي المألوف بأنه لا يعلم شيئا عن وجود مثل هذه المحطة السرية في فرنسا ، ثم وعد ببحث هذا الموضوع في باريس وإبلاغ في القاهرة بنتيجة مسعاه . وعقب قائلا : وما رأيك في صوت العرب ؟ أعتقد أن ضرره أشد من ضرر المحطة السرية التي تتحدث عنها فهو يمتد إلى العالم كله . أما عن موقف الصحافة الفرنسية فأرى أن حملاتها ضدكم قد حققت إلى حد بعيد .

وتحدثت بعد ذلك عن اسرائيل بوصفها العامل الذي سيؤدي بالعلاقات التقليدية بين فرنسا والدول العربية إلى الدمار . ولم أكن أرمي من وراء حديثي مطالبة فرنسا بالوقوف إلى جانب العرب ضد اسرائيل بل مجرد أن تشجع فرنسا في اتباع السياسة التي تؤدي بها إلى الحياد بين الطرفين ، مثال ذلك الكف عن العون العسكري سواء من ناحية التدريب أو المعدات ، إذ ينبغي أن نقدم للرأي العام العربي سنداً قوياً يبرر عودة العلاقات مع فرنسا ويجعله يؤمن بأن تحسن العلاقات أمر مفيد له ، وإلا فلا أمل وراء هذا الجهد الذي نبذله طالما بقي تأثير تل أبيب على باريس بمثل هذا العنفوان ، وظلت السياسة الخاطئة التي تنتهجها فرنسا لمقاومة القومية العربية تزعم أن لنا أطماعاً بذاتها .

ورد وزير الخارجية الفرنسية موضحاً موقف فرنسا من اسرائيل في نقاط ثلاث : أولها أنه قد تم تسليم آخر صفقة من طائرات سوپر ميستير إلى اسرائيل بمقتضى عقد أبرم مؤخراً ، وليست هناك نية لتجديد هذه العقود . وثانيها أنه لا يعلم شيئاً عن الفئتين الاسرائيليين بفرنسا أو المدربين الفرنسيين باسرائيل . وثالثها اعتزام فرنسا التعامل مع الجمهورية العربية المتحدة بمثل تعاملها مع اسرائيل في المستقبل ، وذلك على أساس عدم التفضيل بينها .

ثم أشار وزير الخارجية النقطة الرابعة من جدول أعمال المباحثات فسأل عما إذا كان الرئيس عبدالناصر مستعداً لإعادة العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ؟ فأجبت بأننا نفضل التدرج في عودتها ، وذلك بالبدء بعودة التمثيل الرسمي الثقافي والتجاري فوراً مع التوسع في الاتفاقات الثقافية والتجارية ، بدعوة شركات

فرنسية للاشتراك في مشروع السنوات الخمس ، وبتشجيع فتح مدارس التدريب المهني ومواصلة إرسال طلبة البعثات . كما كاشفته بأننا نرى في وعود الجنرال ديغول بقرب الوصول إلى حل لقضية الجزائر موقفا يشجعنا على التعهد بإرسال بعثة دبلوماسية إلى باريس يرأسها قائم بالأعمال فور إعلان إيقاف النار تمهيدا للمفاوضات مع جبهة التحرير الجزائرية ، أما إذا لم يمكن تحقيق وقف إطلاق النار قبل نهاية عام ١٩٥٩ ففي هذه الحالة يحسن أن تقتصر على تبادل التمثيل القنصلي فحسب .

وقد تعجل وزير الخارجية الفرنسية الشروع في تنفيذ الشق الأول وهو إرسال البعثة التجارية والثقافية ذات الكيان الدبلوماسي ، بالإضافة إلى بعثة المساعي الحميدة حتى تنتهي من مهمتها مع البدء بالتمثيل القنصلي قبل نهاية ١٩٥٩ على أن تكون كلا الهيئتين مزودتين بإمكانية إرسال السفارة ، في حين أن حكومته لا تضع شروطا سياسية على إرسال بعثة دبلوماسية مصرية إلى باريس وعلى رأسها قائم بالأعمال ، وتساءل لو أمكن إرسال ملحقين ثقافيين وتجاريين إلى دمشق ، فأوضحت له تعذر ذلك في الوقت الحالي ، وأنه يحسن ترك هذا الموضوع حتى قيام التمثيل القنصلي .

وأخيرا سألت الوزير الفرنسي أن يحدد لي بوضوح السياسة التي تنوي فرنسا انتهاجها في الشرق الأوسط فحصرها في نقاط ثلاث : أولا أن فرنسا تحترم الوضع القائم ولا تقبل أي تغيير في حدود المنطقة يأتي عن طريق القوة ، وثانيا أن فرنسا ترى أن تتبع الدول العظمى سياسة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية ، وثالثها أن فرنسا سوف تبذل كل ما في استطاعتها في سبيل تنمية التقدم الاقتصادي في المنطقة . ثم عبر كوف ده مورفيل عن أن ما نسميه نحن بالحياة الإيجابية يفضل هو تسميته بالاستقلال التام ، وهو موضع تقدير فرنسا وتشجيعها .

وفي نهاية اللقاء أعاد على مسامعي نص الاتفاق على عودة التمثيل الثقافي والتجاري المباشر ، ثم عودة التمثيل القنصلي قبل نهاية السنة الحالية . وعلقت بدوري أن البدء بالتنفيذ مرهون بإخطاري بإغلاق محطة الإذاعة السرية نهائيا .

وكانت أنباء هذا اللقاء قد تسربت إلى الصحافة فنشرت مجلة « چورده فرانس » بعدها الصادر في ٣٠ مايو ٥٩ خبر لقائي بكوف ده مورفيل ، وأشارت إلى أن المباحثات التي دارت بين جنيف كانت من أجل إعادة العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا ومصر ، كما تناولت شحنات الأسلحة التي ترسلها مصر إلى جبهة التحرير الجزائرية والمساعدات الفرنسية التي تقدم إلى إسرائيل ، وأن الطريق قد أصبح ممهدا اليوم بعد أن صفت في شهر أغسطس الماضي في زيورخ الخلافات الاقتصادية بين البلدين . بل لقد ذهبت المجلة إلى تحديد اسم أول سفير للجمهورية الفرنسية الخامسة في مصر على أنه جان رويير . كذلك نشرت صحيفة « پاري برس » النشأ في ٢٢ مايو ٥٩ تحت عنوان « ليس وجود هذا المصري الغامض في سويسرا لئلا شيء » ، على حين نشرت مجلة « لوكانار أنشينييه » [ البطة المغلولة ] الساخرة النبأ في عددها الصادر في ٢٠ مايو بأسلوبها التهكمي .

\* \* \*

وكننت قد توجهت إلى سويسرا قبل هذا اللقاء لمقابلة الجنرال كاتروفي الموعد الذي تم الاتفاق عليه ، غير أنه اعتذر في اللحظة الأخيرة نظرا لمرضه المفاجيء وأناب عنه الصديق الصحفي رويير بارا ، كما التقت خلال هذه الزيارة بكل من الوزيرين بيير كوت وأندريه فيليب . وقد أجمع ثلاثتهم على أن ديجول بات مؤمنا بأن استقلال الجزائر أصبح أمرا لا معدل عنه ، إلا أن المعارضة الحادة التي يلقيها من جانب الجيش الفرنسي المحارب في الجزائر ومن جانب الرأي العام الأوربي بالجزائر ، ومن جانب العناصر اليمينية في فرنسا — وهي التي تشكل الأغلبية في حكومته — تفرض عليه السير في طريقه هذا خطوة خطوة . فلقد أوضح بما لا يقبل مجالا للشك الحل الذي يؤمن به والذي تفرضه عليه الظروف في خطابه للذين ألقاهما يومى ٢٣ أكتوبر ١٩٥٨ وأول يناير ١٩٥٩ وهو الاعتراف بالشخصية الجزائرية ومشاركة الجزائر مع فرنسا Association وهو ما يعنى الاعتراف باستقلال الجزائر السياسى استقلالاً ذاتياً في وقت عاجل ، ولكن في نطاق الجامعة الفرنسية الأفريقية [ على نهج النظام المتبع في التوجو وأفي مدغشقر ] حتى تنهأ الظروف لاختيار نظام آخر .

وكان مما يشير إلى نية ديجول إلى الاعتراف بسيادة الشعب الجزائري قوله بصراحة « إن مستقبل الجزائر في يد الجزائريين أنفسهم ، وعلى ذلك يجب تهيئة هذا الشعب للاختيار بين الاستقلال الكامل أو الاتحاد مع فرنسا أو انضمامه إليها » . وكان ديجول قد أفضى إلى أحد المقربين إليه بأنه يأمل أن يتحدد نظام الجزائر السياسى فى المستقبل بعد إجراء استفتاء بين صفوف هذا الشعب أو بعد مفاوضات تدور بينه وبين ممثليه الحقيقيين المنتخبين انتخابا حرا ، إذ أن الانتخابات السابقة لم تكن سليمة ، كما سوف يقل التلاعب فى الانتخابات المقبلة حتى يأتى اليوم الذى تجرى فيه الانتخابات بشكل سليم تماما .

واستطرد محدثى قائلا : إن السبب الذى دعا ديجول إلى التمسك بتنظيم الانتخابات وإلى إعلان إصراره عليها هو رغبته فى اجتذاب الرأى العام الفرنسى إلى الطريق الذى يود السير فيه ، وذلك بأن يقدم له حلا للمشكلة يتمشى مع الروح الديموقراطية المتأصلة فى الشعب الفرنسى . ولهذا السبب رفض ديجول المفاوضات مع جبهة التحرير الجزائرية وجيش التحرير الوطنى حول نظام الجزائر فى المستقبل ، وإن كان هذا لا يعنى أنه يرفض مفاوضاتها حين تسنح الظروف السياسية التى ينبغى أن تتوفر عندما يتم وقف إطلاق النار . وهكذا برز ديجول بوصفه الشخص الوحيد الذى يملك قدرة إقناع الرأى العام الفرنسى بفكرة المفاوضات مع جبهة التحرير الجزائرية ، و بقبول حل يختلف عن ذلك الذى يريده الزعماء العسكريون والذى يرمى الى القضاء التام على الثورة خلال السنوات الخمس المقبلة . وبات من المؤكد أنه إذا لم يستطع ديجول خلال عام ٥٩ - ١٩٦٠ تدعيم وجهة نظره فلسوف تنشأ انقلابات أو مؤامرات عسكرية كما يجوز أن تفرض الفاشية نفسها على فرنسا الأم ، لاسيا وقد كان اليسار الفرنسى مبعثر القوى ، ولم تعد كثرة الشعب الفرنسى تكثر كثيرا بالحياة السياسية أو بالأحزاب عامة .

واستطعت أن أخرج بعد المناقشات العديدة التى دارت بينى وبين هؤلاء القادة والمفكرين بأن الصراع قد تخطى حدود فرنسا والجزائر ليمتد إلى داخل فرنسا ، بين ديجول وأنصاره فى رئاسة الجمهورية وبين الحكومة وأنصارها فى الجمعية الوطنية ، وبين غلاة المستعمرين والرجعيين من أصحاب المصالح فى

الجزائر وفرنسا، وبين الجيش الفرنسي المحارب في الجزائر والجيش الفرنسي المتأهب لإعلان الفاشية، وبين الأحزاب السياسية والتقابات العمالية، وأنه لا مفر من وقوع صدام بين المستعمرين المتعصين في فرنسا وفي الجزائر المصيرين على قمع الثورة والاحتفاظ بالجزائر واقتصادها في قبضتهم وبين ديجول الذي يود وضع حد لهذه الحرب التي تستنزف مجهودات فرنسا وأموالها، ولكنه يجد في هؤلاء المستعمرين عقبة كأداء تحول دونه ودون تحقيق أغراضه.

\* \* \*

وكانت العناصر الموالية لإسرائيل غاضبة عقب المقالات التي أشارت فيها جريدتا لوموند وفرنس سوار إلى أن سبب وجودي في جنيف كان للتفاوض على إعادة العلاقات الدبلوماسية بين الجمهورية العربية المتحدة وفرنسا، ومن ناحية أخرى اتصل الإسرائيليون بجي موليه وطلبوا إليه تحذير ديجول من مغبة هذا الاتجاه، إلا أن جي موليه عجز عن لقاء ديجول نظرا للمتاعب التي نشأت وقتذاك عقب اتهام إحدى الصحف الألمانية له بأنه كان أحد عملاء النازية. وكان ديجول قد أفضى إلى أحد المقربين منه بأنه لم يقتنع بدفاع جي موليه عن نفسه في دفع التهمة، فضلا عما نال مركزه من ضعف في صفوف الحزب الاشتراكي نفسه لهذا السبب. وأراد جي موليه أن ينفي عن نفسه التهمة فقصد إسرائيل لمشاركتها احتفالاتها بمناسبة عيدها الحادي عشر، وليحمل إلى شعبها تحية الشعب الفرنسي، وأشاع عن نفسه أنه يحمل رسالة من ديجول غير أن رئاسة الجمهورية أصدرت على الفور بلاغا ينفي حمل موليه لأية رسالة من ديجول إلى بن جوريون.

ولم يكف الإسرائيليون عن تحذير فرنسا من سياسات الرئيس عبد الناصر، لاسيما بعد أن أقلقهم استيلاء مصر على شحنة سفينة كانت متجهة إلى إسرائيل عبر قناة السويس. وكان عبد الناصر قد عزم على الدفاع عن موقفه بعدم السماح للبواخر الإسرائيلية بالمرور عبر قناة السويس، وتأهب للدفاع عن هذا الموقف أمام المحافل الدولية، كما حل الاتحاد السوفييتي على استخدام حق الفيتو ليؤكد تضامنه مع العالم العربي ضد إسرائيل. كذلك رأت سفارة إسرائيل في باريس في مشروع عبد الناصر القاضي بإنشاء «لجنة وطنية فلسطينية» بقطاع غزة في المستقبل القريب تتعهد بالإشراف على ٥٠٠٠٠ لاجئ فلسطيني في مصر ٥٠٠٠٠٠.

لاجىء في الأردن و١٢٠٠٠٠ لاجىء في لبنان ما يهدد اسرائيل عسكريا ، إذ أنه لوتست الموافقة رسميا على هذا المشروع في مؤتمر القمة العربية الذي كان مزعما عقده في الدار البيضاء في أول سبتمبر ١٩٥٩ ليلتقى فيه لأول مرة أقطاب مسؤولون من مصر ومن العراق ، فسوف يخطوب ذلك الرئيس عبد الناصر الخطوة الأولى نحو تشكيل جيش من عدة آلاف من اللاجئين المؤهلين يتلقون أوامرهم من اللجنة الوطنية الفلسطينية ، وإن يكن الهدف من وراء إنشاء هذا الجيش سياسيا ونفسيا أكثر منه عسكريا . وفي نفس الوقت الذي أعلنت فيه الدوائر الاسرائيلية تأييدها لفرنسا في مواجهة الهجوم السياسى العربى الذى سوف يبدأ ببدء مؤتمر الدار البيضاء حول المشكلة الجزائرية وطالبتها بتأييد اسرائيل بنفس القدر من الحماس ضد مشروعات الرئيس عبد الناصر ، لم تساير رئاسة الجمهورية الفرنسية ذلك الاستعداد الاسرائيلى متذرة بأن المشروع المتصل باللاجئين العرب والذى نسبته اسرائيل إلى الرئيس عبد الناصر هو فى واقع الأمر مشروع غير عملى ولا يمكن تحقيقه ، شأنه شأن مشروع سكرتير عام الأمم المتحدة الذى كان يقضى بإدخال اللاجئين الفلسطينيين تدريجيا ضمن اقتصاد الدول التى يعيشون فيها .

وكان الرئيس ديجول يرى أن الحل الوحيد فى الوقت الراهن الذى يمكن أن يقبله الزعماء العرب والزعماء اللبنانيون المسيحيون ومفتى القدس هو الإبقاء على الوضع الراهن الذى يعتبر ضمانا لمبدأ حق اللاجئين فى العودة الى وطنهم واستمرار إشراف الأمم المتحدة عليهم أطول مدة ممكنة . وفى الوقت الذى أولت فيه رئاسة الجمهورية الفرنسية اهتمامها بمشروعات الرئيس عبد الناصر ، فإنها لم تبد فى نفس الوقت اهتماما بما يبيده الزعماء الاسرائيليون من دلائل على انفعالهم وانفلات أعصابهم والتى كانت تتمثل فى حوادث الحدود والمناورات العسكرية . وكانت أهم المناورات العسكرية الاسرائيلية حينذاك هى التى قاموا بها ضد هجوم برى آت من الشمال استخدمت فيه الدبابات والمدفعية وجنود المظلات والطائرات المطاردة . وكانت الأوساط الفرنسية تعتقد أن جميع هذه المشاغبات التى تمارسها اسرائيل إنما هى بدافع من رغبة بن جوريون فى خلق جو يسوده التوتر و يلهب الشعور الوطنى قبل الانتخابات بأسابيع قليلة ليحقق مآرب حزب الماباى . ولقد

وصل إلى علمى وقتذاك أن تقريراً قد وصل من سفارة فرنسا في تل أبيب إلى الحكومة الفرنسية يغلب عليه طابع النقد الموجه إلى بن جوريون ويحمل معنى التشاؤم بالنسبة لسياسته في المستقبل . وكان خبراء رئاسة الجمهورية الفرنسية المتخصصون في الشؤون الإسرائيلية يستبعدون حدوث صدام إسرائيلي عربي في المستقبل القريب و يبدو أن اهتمامهم بتحريك كل من الرئيس عبد الناصر وبن جوريون في أفريقيا السوداء بعد أن أنشأت إسرائيل إدارة لأفريقيا بوزارة الخارجية وبدأت في التوسع التجاري مع دول تلك المنطقة مثل غانا وغينيا وليبيريا وإثيوبيا .

وعندما زارنى المبعوث الفرنسى المستشار كرستيان دومال فى ٥ أكتوبر ١٩٥٩ بادرنى بقوله : إن فرنسا قد لبّت مطالب الجمهورية العربية المتحدة وأوقفت بالفعل محطاتها السرية منذ نهاية يولية ١٩٥٩ ، فألمحت إلى أن محطة إذاعة باريس قد حلت محل المحطات السرية ، بل فاقتها فى إذاعاتها المغرضة ، وكذلك فعل مكتب الأنباء الفرنسى للشرق الأوسط ، الأمر الذى يعكس المناخ اللازم لتصفية الجو . وبعد أن قدمت له نماذج من الإذاعات الفرنسية التى أشرت إليها داعبته بقولى : إن واحداً فقط من أبناء جمهوريتنا يستمع إلى هذه الإذاعة ، وإن هذا الواحد هو جمال عبد الناصر ! فإذا كنتم لا تكثرثون بضياح الجهد والوقت والمال هباء فإنكم فى الوقت نفسه تقذفون فى حق المستمع الوحيد لإذاعاتكم . وأكدت له أننا نتقبل النقد النزيه البناء فهذا حقهم ، على أن يصاغ بما هو لائق بين الدول ودون أن يتناول أشخاص الرؤساء ، كما أوضحت له أنه من العبث إرسال ممثل لنا إلى فرنسا وإذاعتها تصبّ علينا اللعنات ، وأنه قد يحسن إرجاء هذه الخطوة إلى حين . وأبلغنى المستشار دومال أسفه لهذا الموقف رغم أن النشاط التجارى والثقافى بين البلدين يحتاج إلى بعض الاهتمام ، خاصة المسائل الاقتصادية المعلقة . ثم عقب على حديثى بأن إذاعتنا بدورها بدأت منذ أوائل شهر أغسطس ١٩٥٩ بتناول شخصية الجنرال ديغول بالتجريح وسلمنى بدوره نصوص إذاعة صوت العرب من راديو القاهرة خلال شهر أغسطس ، فضلا عن فقرات من كلمتى السيد كمال الدين حسين وأنور السادات فى احتفالات يوم الجزائر فى ٧ سبتمبر ١٩٥٩ التى تصف الجنرال ديغول بأنه « مجنون » . وفى ختام المقابلة



أشرت إلى ما بيننا من خلافات نأمل أن نجد لها حلولا ، تأتي في مقدمتها مشكلة الجزائر والمحافظة على حقوقها في الحرية والاستقلال ، وكذا اعتراضنا على مشروع فرنسا الخاص بتفجير القنبلة الذرية في صحراء الجزائر .

وقد أبلغني المستشار دومال أنه سيغادر القاهرة إلى باريس يوم الأربعاء ٧ أكتوبر ١٩٥٩ ، ليبدل جهده لوقف هذه الحملات الإذاعية وحث المسؤولين على الاعتدال ، على أن نقابل هذا بالمثل بطبيعة الحال . وبعد زيارة قصيرة لباريس بذل فيها المستشار دومال جهوده لتخفيف حدة الحملات الإذاعية عاد ليشرح لي أن تصاعد لهجة راديو باريس خلال شهر سبتمبر كان ردا على راديو صوت العرب الذي لجأ إلى أسلوب شديد العنف خلال شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٥٩ ، وأن المسؤولين أبدوا استعدادهم لتخفيف لهجة إذاعة باريس بالدرجة التي يخفف بها راديو صوت العرب من حدته . كما أبلغني شكر الحكومة الفرنسية لحكومتنا على قبولها بعثة فرنسية اقتصادية ثقافية وأن حكومته ترحب بعثة مصرية مماثلة ، وأنه من ناحية الاجراءات الشكلية ، فيلزم تبادل الخطابات بهذا المعنى عن طريق وزارة الخارجية المصرية وأنه قد حُوِّل سلطة التوقيع نيابة عن حكومته . ثم طالب المستشار دومال بحق استخدام الشفرة والحقيبة الدبلوماسية لكلا الطرفين ، وفتح «حساب غير مقيم» على أساس المعاملة بالمثل ، وحق الإعفاء الجمركي ، وحق الحصانة الدبلوماسية له ولأعضاء بعثته المكونة من : الميسوماتي والمسيو سيكار المستشار الإقتصادي ومساعدته والمسيو كليز جوري المستشار الثقافي ومساعدته المسيو أندريه ميكيل والمسيو بليقييه كمساعد لرئيس البعثة ، ثم بمزايا دبلوماسية أقل مستوى لأمين المحفوظات وكاتب الشفرة على أساس المعاملة بالمثل . وكذا طالب المستشار دومال بصفته رئيسا لهذه البعثة السماح له باستخدام منزل السفير لسكنه ، واستخدام مكتب السفارة لرئاسة البعثة على أساس المعاملة بالمثل أيضا . وتسأل إذا كان في الإمكان تعيين مساعدين للمستشارين الإقتصاديين والثقافيين في دمشق ، نظرا لشكوى المسؤولين في بيروت من عدم تمكنهم من متابعة النشاط التجاري والثقافي بين الدولتين في الإقليم السوري . كما سألني عما إذا كان في النية افتتاح قنصلية عامة في كل من القاهرة وباريس في أواخر هذا العام ، وذلك طبقا للاتفاق الذي تم بيني وبين

المسيو كوف ده مورفيل وزير الخارجية الفرنسية خلال لقائى به يوم ١١ مايو ١٩٥٩ بجنيف ، فطمأنته إلى أنه من المنتظر أن يتم ذلك فى غضون شهرى يناير أوفراير ١٩٦٠ .

أمضى المستشار كرسيتيان دومال رئيس البعثة الفرنسية فى القاهرة فترة فى باريس تداول خلالها مع المسؤولين الفرنسيين أمر إعادة العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة على ضوء ما حملته إياه من رأى الجمهورية العربية المتحدة فى استعدادها لإعادة العلاقات القنصلية مع فرنسا يوم ١٢ مارس تلبية لرغبة فرنسا وطلبها ، ولكن بشرط موافقة الجمهورية الفرنسية على أن تفتح الجمهورية العربية المتحدة قنصليات لها فى معظم الدول الأفريقية الأعضاء فى دول الجامعة الفرنسية فضلا عن باريس ومارسيليا . حتى إذا عاد من رحلته أبلغنى موافقة الحكومة الفرنسية على تلبية شرطنا وترحيبها بعودة العلاقات القنصلية بيننا . وحين كاشفته بقلقنا من أن سياسة فرنسا مازالت تقوم على تبني إسرائيل واحتضانها ، تشهد على ذلك زيارة موشى ديان وشيمون بيريز نائب وزير الدفاع الاسرائيلى الذى كان مديرا عاما لوزارة الدفاع الاسرائيلية أثناء الاعتداء الثلاثى على مصر ، واجتماعاته أثناء زيارته الشى استغرقت أسبوعا برجال السياسة والدفاع الفرنسيين أمثال مسمير وزير الدفاع وكوف ده مورفيل وزير الخارجية والجنرال إيلي رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى وغيرهم ، وهو ما تعتبره الجمهورية العربية المتحدة أمرا يثير الريبة ، رد دومال على ذلك بأن سياسة فرنسا تقوم على أساس احترام الوضع الراهن فى الشرق الأوسط ، وأنها لن تسمح لمن يخرق هذا الوضع بالمضى فى اعتدائه . وأضاف أن كوف ده مورفيل قد أعلن ذلك بالأمس على نحو ما أكدته لى فى جنيف خلال شهر مايو الماضى ، وأن هذه سياسة فرنسية ثابتة لن تتغير ، وعلى ذلك فلا داعى للقلق من هذه الناحية .

وقد تعمّدت تكبيره بإعلان الرئيس عبد الناصر بأن التصريح الثلاثى [ الفرنسى الإنجليزى الأمريكى ] لعام ١٩٥٠ قد دُفن فى بورسعيد حين وقع العدوان على مصر عام ١٩٥٦ ، وأشارت إلى شحنات الأسلحة الفرنسية التى تصل إلى إسرائيل برغم الاتفاق الذى تم بينى وبين وزير الخارجية الذى أكد لى وقتها أن آخر شحنة متفق عليها قد تم إرسالها وأنه ليس ثمة عقود جديدة . ثم اتفقنا أيضا

على أنه إذا حدث وتم الاتفاق على عقود جديدة فسوف تكون فرنسا على استعداد تبريرا لحيادها أن تبيع الجمهورية العربية المتحدة نصيبا مماثلا من الأسلحة ، وأنه لايسعنى والأمر كذلك إلا أن أعرب عن قلقنا إزاء موقف الحكومة الفرنسية في أمر نعتبره جوهريا بالنسبة لنا مما يجعلنا في حاجة إلى تبين موقف فرنسا الحقيقي حتى نطمئن إلى أن علاقاتنا لن تعود على أساس واه مخوف بالشكوك وعدم الثقة ، وأن كل مانطالب به هو اتخاذ موقف حيادي لاغموض فيه بين مصر واسرائيل .

فرد المستشار دوماال وقد فقد أعصابه : ولكننا لم نطالبكم بالحياد في مسألة الجزائر؟ فقلت له إن موضوع الجزائر أمر مختلف ، وقد جرت مناقشته مع الوزير كوف ده مورفيل في جنيف في شهر مايو الماضي حيث أكد لى أن حكومة دييجول ماضية في سياسة إيجاد حل سلمى لإنهاء حرب الجزائر. ثم كررت على مسامعه - ألا مندوحة لنا عن التضامن مع إخواننا العرب المسلمين في الجزائر وأنه ليس في مقدورنا التخلي عنهم أو عن قضيتهم . وأتبع ذلك بقولى أنه حتى إذا فرضنا أن مصر كانت ترسل إلى الجزائريين أسلحة قبل أكتوبر ١٩٥٦ فقد سلحت فرنسا بدورها اسرائيل بل خاضت إلى جوارها حربا عدوانية ضدنا ، وأن اتصالات فرنسا التى بدأت معى لإعادة العلاقات تارة في روما وتارة في جنيف دليل على أنكم راغبون في تغيير تلك السياسة الخاطئة معنا .

فانبرى دوماال يذكرنى بأن فرنسا ليست الدولة الوحيدة التى تسلح اسرائيل وأن ثمة دولا أخرى تسلحها ومع ذلك نقيم معها علاقات دبلوماسية ، بل إن المساعدات الاقتصادية التى تصل إلى اسرائيل من الدول الأخرى تفوق في حجمها أية مساعدات فرنسية من أى نوع . ثم أشار في النهاية إلى عبارة وردت على لسان كوف ده مورفيل أثناء آخر مقابلة بينها تقول « ترى أى لعبة ستلعبها اسرائيل حتى تحول دون إعادة العلاقات مع الجمهورية العربية المتحدة » ؟ وأردفها بقوله إن الصحافة في فرنسا تنهل كلها من نبع واحد دون أن يكون هناك من يمثلكم كى يزد عليها ويوضح الحقائق . واختتم حديثه بأنه إذا كان الموقف مشحونا بمثل ما شرحت له فلا يسهه إلا السفر إلى بيروت للاتصال مباشرة بالخارجية الفرنسية ،

وأنه إذا لم يصله رد حكومته قبل سفرى إلى باريس فهو يفضل أن يُعالج الموضوع بينى وبين وزير الخارجية الفرنسية مباشرة .

\*\*\*

وكنت وقتها أتردد على منظمة اليونسكو الدولية بشأن إنقاذ آثار النوبة ، وقد أفضى التى رينيه ماهيه مدير المنظمة بأن السيد لوى چوكس وزير الدولة بالحكومة الفرنسية يرغب فى لقائى ، ولما رجبت بهذا اللقاء دعانا سويا إلى مائدة العشاء . وقد تطرّق الحديث بطبيعة الحال إلى العلاقات بين مصر وفرنسا ، فضى يشنى على الترحيب الذى قوبلت به البعثة الفرنسية بالقاهرة مما ترك أكبر الأثر فى نفوس أعضائها ، وقد بدا له أن القائمين بالأمر فى مصر فى طريقهم إلى حل كثير من المسائل المتعلقة . ثم عرج على موضوع اسرائيل مبينا أن فرنسا لم تعد متطرفة فى علاقتها بها وأنها ملتزمة فى الحدود التى يمكن أن تتقارب فيها معنا ولكنها لا تستطيع التخلّى عن اسرائيل .

فأوضحت له أنه طالما كانت فرنسا تساعد اسرائيل وتمّدها بالأسلحة فلن تستعيد أبدا مكانتها المفقودة فى المنطقة ، فأخذ يهون الأمر موجّها نظرى إلى أن أقارن بين ماتعطيه أمريكا وبريطانيا لاسرائيل وماتعطيه فرنسا لها . كما لم يجد فى وجود الفنينين الفرنسيين الذين يدربون الجيش الاسرائيلى ضيرا لأنه من الممكن استعادتهم بين عشية وضحاها . كذلك لم يتصوّر إقدام اسرائيل على أية مغامرة إذا لم يسدّر من جانبنا شيء ، مؤكدا أن اسرائيل لن تلقى تأييدا فى هذه الحالة من جانب فرنسا أو بريطانيا أو أمريكا . بل ذهب إلى القول بأن أية مبادرة عدوانية سواء من جانب اسرائيل أو من جانبنا لن تحظى بموافقة الدول الأخرى ولا الأمم المتحدة ، وبأن اسرائيل لن تقبّ على حرب إلا إذا كانت تبغى الانتحار . كما أنه لا يتوقع أن تؤيد فرنسا اسرائيل فى أى عمل تقوم به ضد الدول العربية ، فثل هذا التأييد يتعارض تماما مع سياسة الجنرال ديغول الذى أوضحته أحداث لبنان . وذكرنى بأن مسيو كوف ده مورفيل كان الوحيد بين ممثلى الدول الغربية فى الأمم المتحدة الذى نادى بوجوب الاعتراف بالقومية العربية . وحين ألححت إلى إمكانية أن يصدر الجنرال ديغول تضريحا يعلن فيه موقف فرنسا المحايد بين العرب واسرائيل شكك فى إمكانية ذلك وإن عاد فأكد أن كوف ده مورفيل قد ألقى تصريحه عن

القومية العربية في الأمم المتحدة بالاتفاق مع الجنرال . ثم تطرق إلى موضوع إعادة العلاقات بين فرنسا ومصر مؤكدا على أن تغيب فرنسا وانجلترا من الشرق الأوسط يترك المجال للاتحاد السوفييتي لتثبيت وجوده فيه وحده وهو ما لن يفيد أحدا ، وأنه ليس من الطبيعي أن تظل مصر غير ممثلة في باريس ولا بد أن تأخذ العلاقات الفرنسية المصرية طريقها الطبيعي رويدا رويدا . فذكرته بموافقتنا السابقة على البدء بتبادل التمثيل القنصلي ريثما تنهأ الظروف لتبادل السفراء . ومالبت أن أبدى بعض الضيق لإعلان قيام الحكومة الجزائرية المؤقتة في القاهرة بوصفه عنصرا معوقا ، غير أنه سرعان ما عرج على موضوع مياه النيل وإمكان الاستفادة منها حين يتم الاتفاق بين مصر والحبشة والسودان ، إذ كان هناك شبه اتحاد بين كبريات الشركات الفرنسية بعد أن وضعت مشروعا للإفادة من مياه النيل ، ومن هنا فقد كانت فرنسا ترغب في تسييط شخصية عالمية لحمل مصر والحبشة السودان على تحقيق اتفاق حول توزيع مياه النيل بينهم .

\* \* \*

واذ كنت أختلف إلى باريس مرتين على الأقل كل عام بوصفي عضوا بالمجلس التنفيذي لليونسكو طوال الفترة من عام ١٩٦٢ إلى ١٩٧٠ ، فقد كانت فرصة للقاء معارفى من الفرنسيين وتجديد العلاقة بيننا . وقد اعتاد الرئيس عبد الناصر أن يعهد إلى مبعوث فرعية خلال إقامتي بباريس . ومن ذلك أنه في أكتوبر ١٩٦٣ زودنى بأحد عشر سؤالاً تفصيلياً طلب منى البحث عن إجابة لها تتصل بمتابعة أوجه نشاط إسرائيل في تطوير قواتها العسكرية والجديد في ميدان الأبحاث الذرية ونوايا إسرائيل لاستعمالها في الأغراض العسكرية والمساعدات التي قدمتها فرنسا في هذا الشأن ، وإنتاج وتطوير الصواريخ المصنوعة في إسرائيل والمستوردة ومدى ماوصلت إليه إسرائيل في مجال استعمال الأسلحة البيولوجية ، والأمد الذي بلغه مشروع نهر الأردن وسياسة إسرائيل في أفريقيا ، وتطور أساليب التدريب في الجيش الإسرائيلي ومابلغه من كفاية في تعبئة قواته الاحتياطية واستدعائها والطرق الجديدة المزمع إنشاؤها في إسرائيل والموقف السياسى الداخلى في إسرائيل ثم الموقف الاقتصادى الاسرائيلى ونسبة ميزانية القوات المسلحة إلى الميزانية العامة للدولة .

هكذا كنت أقضى النهار أزاول واجبى بالمجلس التنفيذى وأستغل  
الأمسيات فى الحصول على المعلومات المطلوبة منى . فأوالى ما يُطلب منى  
تباعا ، وما أكثر ما كان يُطلب منى . وكان مما يث الطمأنينة فى نفسى أن كل  
ما كنت أنقله إلى الرئيس عبدالناصر كان موضع الثقة والتقدير ، وكان من بين  
ما استقيته وقتذاك من معلومات بالغة الأهمية أن إسرائيل توالى أبحاثها الذرية  
باضطراد بهدف استخدامها فى الأغراض العسكرية ، وأنها لا تدخر وسعا فى  
سبيل الوصول إلى غايتها مهما كان البذل ، مؤمنة أن قنبلتها الذرية هى  
السلاح الذى يضمن بقاء الدولة اليهودية على قيد الحياة . وأنها سوف  
تستخدمها فى حالة واحدة وهى حين تحس أنها عاجزة عن مقاومة الجيوش  
العربية المغيرة . ومن هنا كان رأى مجلس الدفاع الوطنى الإسرائيلى أن تلقى  
على القاهرة ثم على الإسكندرية ثم قناة السويس والسد العالى ، متبعة  
استراتيجية القضاء على المدن بدلا من استراتيجية القضاء على الأهداف  
العسكرية . وثبت على وجه اليقين أن إسرائيل تتلقى معونة فرنسية كبيرة فى  
الميدان الذرى ، كما يعمل فى مفاعل ديمونا الواقع على بعد عشرين كيلومترا  
من الحدود الأردنية اثنا عشر عالما فرنسيا منهم من أسهم فى صنع القنبلة  
الذرية الفرنسية ، ويقدم الإسرائيليون لفرنسا فى مقابل هذه المساعدة  
الفرنسية أسرار صناعة القنبلة الهيدروجينية الأمريكية .

على أن القيادة العامة للجيش الإسرائيلى لم تكن تتوقع أن تشن مصر حربا  
بيولوجية نظرا لضيق مساحة الأراضى الإسرائيلية إلى حد يجعل استعمال هذا  
السلاح يصيب الدول العربية المتاخمة أكثر مما يصيب إسرائيل نفسها . أما عن  
الصواريخ فقد كانت واحدة مما لم أتمكن من الظفر بشيء عنه .

وفى غضون شهر سبتمبر ١٩٦٥ وبعد عودة العلاقات الدبلوماسية دعانى المشير  
عبدالحكيم عامر - وكنت وقتها أعمل بالبنك الأهلى المصرى - ليبلغنى أنه تقرر  
سفره إلى باريس فى زيارة رسمية ، وأن الإجراءات لذلك تمضى فى مسارها الطبيعى  
وأنة اختارنى عضوا فى الوفد المصرى إلى جوار د . محمود فوزى ووكيل وزارة  
الخارجية السفير أحمد حسن الفقى ، ثم طلب منى سرعة الانتقال إلى باريس للتمهيد لهذه  
الزيارة على الصعيد الشخصى مع معارفى ثم العودة قبل السفر الذى تقرر له يوم  
١٥ أكتوبر للقائه . وقد أبلغته أنى سأغادر القاهرة فى ظرف بضعة أيام

لحضور دورة المجلس التنفيذي لليونسكو. وبالفعل غادرت القاهرة في يوم ٥ أكتوبر ووجدتها فرصة لألقى نفرا من الرسميين وغيرهم من العالمين ببواطن الأمور تمهيدا للزيارة وتذليلاً لما قد يعترضها من عقبات ، فالتقيت بكل من المسيو لوى چوكس وزير الدولة للإصلاح الإدارى والمسيو كوف ده مورفيل وزير الخارجية والمسيو پير مايار الأمين العام للأمانة العامة للدفاع القومى — وهى أمانة تتبع رئيس الوزراء مباشرة و يرأس جلساتها الجنرال ديجول الذى اختار مايار مستشارا سياسيا له فيها خلال السنوات الخمس السابقة وعيناً له فيها — والمسيو دى بيس مدير مركز الدراسات الذرية ومدير المعهد القومى للعلوم والتكنولوجيا الذرية والمسيو أندريه فيليب الوزير السابق والأستاذ بالسوربون والمسيو پير كوت وزير الطيران السابق والأستاذ بجامعة باريس فضلا عن غيرهم من معارفى من أعضاء الجمعية الوطنية ورجال الصحافة . وعدت إلى القاهرة يوم ١٤ أكتوبر معتنذرا عن مواصلة مهمتى بالمجلس التنفيذى لبضعة أيام لأتوجه رأسا من المطار للقاء المشير، وطمأنته على أن الإجماع يكاد يكون تاما على النجاح الذى ستكامل به هذه الزيارة التى تجىء فى الوقت المناسب ، كما طمأنته إلى أن كل العوامل والتسيات مهيأة ومتضافرة على أن تظفر الزيارة بالتوفيق لتكون فاتحة للمزيد من اللقاءات والتعاون وإعادة الأمور إلى مجارها الطبيعية والتقليدية ، وأكدت له أن كلا من كوف ده مورفيل ولوى چوكس قد أكدا لى هذه الحقيقة بما لا يقبل الشك بصديق قولها فليس ثمة عقبات تحول دون تحقيق هذه الغاية ، وذكرت له آخر عبارة ودعنى بها كوف ده مورفيل بالأمس فى مكتبه بالكاي دورساي بقوله : « أعدك أننى ضامن للمشير زيارة حارة سيلقى فيها كل ترحيب بأوسع المعانى حتى لقد قررنا معاملته معاملة رئيس دولة وهو ما لم يحدث من قبل » .

وقد رأيت واجبا على أن أشير على المشير بأن يتخلى فى تصرفاته عن الأساليب النمطية ويشيع الحرارة فى أحاديثه ، فهذا وذاك مما سيهين استجابة سريعة ، كما بينت له أن اسرائيل غير مستريحة إلى هذه الزيارة لامن حيث ماستسفر عنه من نتائج سريعة ومباشرة ، ولكن من حيث ماستسفر عنه مستقبلا . لذلك ذهبت أقلام الصحافة التى تجتهدا اسرائيل تزعزع الثقة فى جدوى هذه الزيارة ، فإذا تعذر عليهم الحيلولة دون الزيارة ودون عودة العلاقات الطبيعية بين مصر وفرنسا

فلا أقل من محاولتهم التهوين من شأنها . ومن ثم كانت صياغة البيان الرسمي الذى سيصدر فى أعقاب الزيارة أمرا بالغ الأهمية ينبغى أن يراعى فيه التأكيد على التعاون بين البلدين وعلى ماتقدمه لنا فرنسا مما هو ميسورها بما يكون له أثره فى تثبيت همم الاسرائيليين واليمين الفرنسى .

كذلك بسطت له رؤيتى الخاصة بأن نحدد هدف الزيارة فى العمل على توطيد الصداقة بين رأسى الدولتين ومحاولة اكتساب صداقات شخصية مع أكبر عدد ممكن من المسؤولين الفرنسيين ، وهو ما ينبغى معه تجتنب التقدم بأية مطالب من أى نوع كان ، لأن مثل هذا المسلك سيحملهم على المزيد من الاحترام والتقدير ، لاسيما أن هذه أول زيارة له لفرنسا ، ثم إن المقالات الموعز بها من أعوان اسرائيل لا تفتأ تتحدث عن الأزمة الاقتصادية فى مصر وعن أن هدف زيارة المشير هو التسؤل . وذكرت له أن المسيو كوف دى مورفيل قد علق على ما أثرته له بصدد هذه الظاهرة بأننا سنلمس على الفور تغييرا شاملا ، وأنه سيلفت نظر رئاسة الجمهورية إلى ذلك . ثم اقترحت على المشير أن يحصر أحاديثه مع المسؤولين حول السياسة الدولية العامة والتركيز على نقط اللقاء بين السياسة المصرية والسياسة الفرنسية الخارجية التى وإن كانت ماتزال محدودة إلا أنها مع ذلك قائمة على مبدأ الاستقلال المطلق ، والتصدى لنفوذ الدول الكبرى حين تدعو الحاجة إلى ذلك ، تاركا التفاصيل التقنية للجان الفرعية المتخصصة . كما حذرته من مهاجمة سياسة الولايات المتحدة قبل أن يكشف الجنرال عن أوراقه حتى لا يعرض نفسه لتعليق لا يرضاه . فعلى الرغم من سياسة ديجول المتصلبة إزاء أمريكا إلا أن تحالف فرنسا معها حقيقة واقعة ، وإذا كان ديجول يُصدر فى تصرفاته عن رد فعل شخصى إلا أن جانبها كبيرا من رأى العام الفرنسى لا يستسيغ هذه السياسة المرهونة بوجود ديجول على رأس الدولة . كذلك طرحت على المشير إمكانية التعاون الاقتصادى فى أفريقيا ، التعاون المنزه عن أى أهداف سياسية أو تدخل فى شئون أى دولة من الدول وذلك لمناهضة التغلغل الأنجلو سكسونى والاسرائيلى وتنشيط صادراتنا وفتح باب التبادل الاقتصادى مع فرنسا بشكل أوسع . كما أشرت إلى ضرورة الإلماح إلى أن مؤامرات الغرب المتكررة والتى لا تقف عند حد قد حملتنا حملا إلى الكفربالغرب كلية واقتصار تعاوننا مع الشرق وحده ، لاسيما أن الأمر الوحيد



الذى يتفق عليه كل من الاتحاد السوفييتى والصين الشعبية هو تأييد الرئيس عبدالناصر، وأن مدينا إلى فرنسا وعلى رأسها دييجول هى المحاولة الأخيرة للحيلولة دون القسيعة التامة مع الغرب، ولا يجوز أن ننسى أبدا أن الشغل الشاغل لدييجول الذى يقلقه دائما هو إحساسه بوجود تفاهم سوفيتى أمريكى .

وأوضحت للمشير أنه حين يثير موضوع تسليح فرنسا لإسرائيل سيؤكدون له ضالة ماتتسلمه إسرائيل من سلاح ومعدات عسكرية نسبيا عن السنوات السابقة وأنهم على استعداد لتزويدنا بما نشاء من سلاح، ذلك أن السلعة الوحيدة في فرنسا التى تتجاوز الاعتبارات السياسية وتتخطاها هى تجارة السلاح، فهم يبيعون السلاح لجنوب أفريقيا رغم وقوف السياسة الفرنسية علنا في وجه التفرقة العنصرية فيها، وأنه حتى إذا وقفنا إلى إقناعهم بوقف شحنات الأسلحة لإسرائيل، فلن تعدم الأخيرة الوسيلة للإفادة مما نصل إليه في دعايتهم للظهور بمظهر المضطهدين أمام الرأى العالمى وحث الولايات المتحدة لتقديم السلاح لهم مجانا .

كذلك أبدت الرأى بمعالجة مشكلة إسرائيل تحت عنوان قضية فلسطين حتى تأخذ الطابع الإنسانى أكثر مما يبدو طابعا سياسيا أو عدائيا من جانبنا، وهو ما تناهضه إسرائيل ومن يشايعها .

ولما كانت الطبقة المشتغلة بالسياسة في فرنسا هى من أكثر الطبقات ثقافة فقد أشرت إلى أن تكون سن الرمح في سياستنا هو غزو فرنسا في الميدان الثقافى والفنى . كما لا يجوز أيضا أن ننسى أن الصحافة كلها تكاد تكون معادية لدييجول باستثناء القليل منها، لذلك فإن كسب الرأى العام الفرنسى من خلال شغفه بالقيم الجمالية سلاح مؤكد الأثر. واقترحت تكوين لجنة مصرية فرنسية مشتركة من كبار المتخصصين لتحديد مطالبنا في مسائل الطاقة الذرية للأغراض السلمية، فلدى فرنسا وسيلتان للتعاون إحداها عرضية ولا تتعدى بعض المنح الدراسية، والثانية جدية تجاوز هذا إلى كثير غيره، علما بأن الجانب العسكرى محوط بالسرية التامة .

وانتقلت بعد ذلك إلى بسط صورة عامة للتيارات السياسية التى تجتازها حكومة دييجول بما في ذلك قوة مركز بومبيدو، وأنه المرشح لكى يخلف دييجول بعد

اعتزاله الحكم ، وسردت عليه آخر حديث دار بينى وبين الوزير لوى چوكس عن الوضع الداخلى فى فرنسا حيث تجلّت تطلعات چيسكار ديستان نحو السلطة ، الأمر الذى حفز پومپيدو وأعوانه على إزاحته عن طريقهم ، وأنه على الرغم من التفاهم الظاهرى بين پومپيدو وچيسكار ، فقد حذر الأول الجنرال ديجول من أطماع چيسكار التى كان يهيئها له منصبه الخطير وزيرا للمالية . أما فيما يتصل بالسياسة الخارجية لفرنسا فقد صرّح لى لوى چوكس بأن أهم ما يشغل بال الجنرال هو القضاء على الاستعمار الولايات المتحدة لأوربا بصفة عامة وفرنسا بصفة خاصة بعد أن تبين له من دراسة الملفات التى طلبها عن رأس المال الأمريكى المستخدم بفرنسا وفى دول أوربا الصغرى ضخامة النفوذ الاقتصادى الأمريكى الذى يمنح الأمريكين قوة سياسية ضخمة فى الدول التى تتعاون معها . وقد أدرك ديجول أن الخطأ الذى ارتكبه هو اعتقاده أن ألمانيا يمكنها التعاون معه لبناء أوربا الأوروبية فى مواجهة العملاق الأمريكى ، وإيمانه بقدرة أديناور على التأثير الحقيقى فى سياسة ألمانيا ، ثم إذا بألمانيا لا تملك الإفلات من الشرك الأمريكى ، بل إنها ستظل أفضل عميل للتغلغل الأمريكى بأوربا . وهذا هو السبب الذى كُلف من أجله چوكس خلال الصيف الماضى بإعداد عناصر سياسة خارجية بديلة ، عكف عليها فى سرية تامة واستلزمت قيامه ببضع زيارات لبعض دول الكتلة الشرقية ، خرج منها جميعا بضرورة الوثام السياسى مع الاتحاد السوفييتى والمعسكر الاشتراكى بعد أن تبين له أن الاتحاد السوفييتى لم تعد لديه أية أطماع توسعية أو محاولات تطويقية طالما بقيت الدول التى تكتنفه واقعة تحت نفوذه أو تتبع سياسة ودية محايدة . وقد أنهى چوكس حديثه معى بقوله : إن فرنسا لكى تقضى على التوسع السوفييتى قد أوقعت نفسها تحت السيطرة الأمريكية وبات عليها الآن أن تتبع سياسة مستقلة وجديدة فى أوربا .

وانتقلت بعد ذلك إلى استعراض سياسة فرنسا الخارجية عشية انتخابات الرئاسة التى يرتب لها ديجول بادئا بتدهور العلاقات الألمانية السوفييتية ، ثم مستقبل حلف شمال الأطلسى وبقيّة أوربا الصغرى التى يسودها النفوذ الأمريكى الألمانى ، وانتهت إلى استعراض أساء المرشحين ضد ديجول وعلى رأسهم فرنسوا ميتران الذى احتل مكان جى موليه ، ثم سياسة فرنسا الأفريقية .

وكننت قد أعددت تقرير ليليلة سفرى بمقر المندوب الدائم لمصر فى منظمة  
السيونسكولىضم كافة هذه المعلومات كى يرجع إليها المشير حين يحتلى بنفسه ،  
وأضفت إلى هذا التقرير مذكرة تضم نبذة عن كل شخصية من الشخصيات التى  
سيلقاها المشير خلال زيارته ، على رأسها شخصية الجنرال ديجول وجورج بومبيدو  
وكوف ده مورفيل وجيسكار ديستان وأوليفيه جيسار الذى كان يعمل مستشارا  
دبلوماسيا لديجول إلى أن أصبح وزيرا يتابع لحسابه جميع المشكلات  
الاستراتيجية ، ولوى چوكس الذى لعب باسم ديجول الدور الرئيسى خلال  
المباحثات لحل مشكلة حرب الجزائر ثم مثل الجانب الفرنسى السياسى  
والدبلوماسى فى جميع مراحل المباحثات ، وإن حمل على سياسة بن بيلا لانفماسها  
فى سياسة الحياد ، وبيير مايار المستشار السياسى لشئون الدفاع ، وحبيب دى  
لونكل سكرتير الدولة المساعد للشئون السياسية والذى كان محل ثقة الرئيس  
ديجول ، وفوكار المشرف على كافة أجهزة المخابرات الفرنسية ، وشابان دالماس  
رئيس الجمعية الوطنية ، وموريس شومان رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالجمعية  
الوطنية ، الذى ولد فى أسرة يهودية ثم اعتنق المسيحية وكانت مواقفه على الدوام  
متعاطفة مع العرب ، وإدجار فور رئيس الوزراء السابق خلال الجمهورية الرابعة  
والذى يتمتع بثقة ديجول التامة وعهد إليه بمهام دبلوماسية فى موسكو وبكين  
والقاهرة .

وكان طبيعيا بعد ذلك أن أعرج على سياسة ديجول فى الشرق الأوسط ،  
فأوجزت له الحديث المشهور بين ديجول ودين راسك حين أعرب له عن حتمية  
فشل خطة الولايات المتحدة المرتكزة على نفوذ حزب البعث . ففى رأيه أن حزب  
البعث العراقى يصادف مشاكل مع الأكراد من شأنها تجميد إمكانيات توسعه كما  
اعترف له أنه يؤيد البرزائى سراً على حين كان يرى أن هزيمة البعث السورى  
محققة على أيدي الناصريين . وأوضح له أيضا أنه ليس فى سوريا سوى قوتين  
حقيقتين : قوة الإقطاعيين الزراعيين والبرجوازيين التقليديين ، وقوة الناصريين  
المكونة من العسكريين وأبناء الشعب ، ثم البعث السورى الذى يمثل فى تقدير  
ديجول قوة وسطا بين القوتين الأولى والثانية — وهى قوة ضعيفة نسبيا — وأن  
البعث قد ارتكب خطأ إقصاء القوة الأولى وبذلك سوف تكون نهايته على يد القوة

الثانية . ومن هذا كله اتضح له أن الرئيس عبدالناصر هو الشخصية الوحيدة الجادة في الشرق الأوسط التي سوف تنتظر اللحظة المواتية للعمل على إسقاط مشروعات البعث القائمة على أساس إنشاء اتحاد عربي يدين له بالقيادة . ومن هنا — كما تقدر الدوائر الفرنسية — تبدأ سياسة فرنسا : سياسة التقارب من مصر .

وحرصت كذلك على أن أسوق للمشير تعليقي كوف ده مورفيل عن الوضع في الشرق الأوسط خلال زيارتي الأخيرة له قبل مغادرتي باريس حين قال لي إنه لا بد لفرنسا من أن تثبت وجودها بشكل ظاهر وملموس في هذه المنطقة ، وبطريقة لا تثير ثائرة واشنطن ولندن وبون . وبمعنى أكثر دقة فإن ديجول لا يسعى إلى القضاء على الحلف المركزي الذي حل عام ١٩٥٨ محل حلف بغداد ، كما تنهه بذلك بعض الأوساط السياسية الأمريكية ، ولكنه يريد تحويل هذا الحلف من طبيعته الاستراتيجية البحتة إلى طبيعة اقتصادية فلا يعود يعتمد على واشنطن ولندن فحسب كما كان الحال في الماضي ، وإنما يزداد اعتماده أكثر فأكثر على باريس . ومما تثبتت هذه النية مارواه كوف ده مورفيل لأحد معارفه من الصحفيين الفرنسيين من أن ديجول قد فاتح شاه إيران في هذا الأمر صراحة خلال زيارته له في نهاية عام ١٩٦٣ ، باعتبار الشاه هدف سياسة ديجول الأول في الشرق الأوسط . أما هدفه الثاني فهو التقارب بين مصر وبين دول الحلف المركزي الذي سوف يغدو — على حد تعبيره — حلفا اقتصاديا ترعاه فرنسا .

والمعروف في الأوساط السياسية الفرنسية أن ديجول قد أرجأ اتخاذ الخطوة السياسية الهامة بين باريس والقاهرة بالرغم من إيمانه بها كبداية لسياسة التعاون مع العالم العربي إلى أن تتضح له بعض المفاهيم المحددة ، مثل توافر حسن النوايا لدى القاهرة وتخلص الجمهورية العربية المتحدة مما أطلق عليه « مشاكلها السياسية » مثل حرب اليمن التي كانت تجرّ القاهرة جرّا إلى الدخول في صراع وخلافات مع لندن وواشنطن هوفى غنى عن الدخول فيها طرفا ، وانتهاء عوامل الخلاف القائمة بين القاهرة ودمشق وبيروت خاصة وأنه يعتبر دمشق وبيروت من أكثر العواصم قربا من باريس ، واعتقاد ديجول أن الرئيس عبدالناصر شخصيا لا بد وأن ينجح في تحقيق سياسة يقترب مفهومها العام من مفهوم ديجول حيث تقوم

بينها اوجه شبه كثيرة مثل النظام الرئاسى ونظام الحزب الواحد المهيمن [ الاتحاد الاشتراكى العربى بمصر واتحاد الجمهورية الجديدة فى فرنسا ] والنظام المعمول به فى الميدان الاقتصادى [ القطاعين العام والخاص ] مع وجود فارق هام حيث تتمتع رموس الأموال الفرنسية بحرية الحركة دون إشراف الدولة إذا استثنينا بعض القطاعات المؤممة ، والأهداف السياسية المشتركة القائمة على قاعدة اقتصادية فى الشرق الأوسط وأفريقيا حيث تهتم كل من القاهرة وباريس بالمشاركة فى عمليات التطوير المختلفة فى هذه المناطق ، والأهداف السياسية العامة فى مناهضة النفوذ الأمريكى وتسأله ومقاومة النفوذ البريطانى .

وثمة عوامل هامة أخرى كانت تربط بين اتجاهات العاصمتين ، منها التقارب العام — خاصة الاقتصادى والتجارى والفنى — مع دول الكتلة الشرقية والصين ، ومنها الإيمان بأن التبادل الثقافى بينها خير من أى تبادل آخر ، خاصة وأن جميع الفرنسيين قد تلقوا فى سنى دراساتهم على امتدادها معلومات مستفيضة عن « مصر » مهد الحضارات والعلم والمعرفة ، كما أنهم أسهموا بنصيب وافر فى الكشف عن مدلول الكتابة الميروغليفية .

وعلى حين كانت اسرائيل تقوم بدعاية واسعة فى فرنسا لتحقيق أغراضها عن طريق ترويج فرية الاستعمار المصرى أو الاستعمار الناصرى ، يؤيدها فى ذلك سوستيل محترف السياسة الذى كان يقود حملة تقوية الروابط بين فرنسا واسرائيل ، كان ديجول وكوف ده مورثيل ولوى چوكس يرون تقوية العلاقات مع العرب ومصر بصفة خاصة . وعلى ضوء نظرية ديجول الخاصة بتغليب « الاحتكار الفرنسى » كان يؤثر تدعيم علاقاته الاقتصادية بالعالم العربى ، نظرا للمدى الواسع الذى سوف تستفيد منه هذه الاحتكارات من خلال الاتفاقيات وعمليات التبادل التجارى مع هذه المنطقة الشاسعة التى تتضاءل أمامها اسرائيل . ومن ناحية أخرى بدأ ديجول يشعر بمنافسة اسرائيل الاقتصادية لفرنسا فى أفريقيا حيث كانت تقوم مقام الاحتكارات الأمريكية المنافسة لفرنسا . وإذا كانت اسرائيل تتمتع بتأييد فريق من الفرنسيين فهو تأييد العناصر الرجعية والمناوئة فى نفس الوقت لسياسة ديجول نظرا لارتباطاتها بالسياسة الأمريكية ، كما حظيت طوال السنين الماضية بتأييد بقايا أنصار حرب الجزائر ، وبعض

العسكريين الاستعماريين الذين عزّ عليهم زوال دولتهم أمام الحركة الرائدة لتحرير المنطقة العربية من نفوذهم وقبضتهم . ويشك عدد كبير من أعوان دييجول في إيمانه المطلق بإسرائيل كدولة ، وإيمانه بها كسياسة ، وإن كان يؤمن بأنها شر واقع لا مناص من التسليم بوجوده .

و كنت قد انتهزت فرصة لقائي بكوفّ ده مورفيل قبل زيارة المشير وأثرت معه موضوع رابطة «فرنسا - مصر» الذى طال الجدل حوله منذ عام ١٩٥٧ ، واقترح أن تكون زيارة المشير فرصة لإنشاء هذه الرابطة وبدء نشاطها . والحق إنه تمسّس للمشروع واقترح على الفور اسم السفير الكونت ده شايلا سفير فرنسا السابق فى القاهرة ووعد أن يناقشه فى الموضوع ، وسألنى عن أسماء فرنسية اقترحها للعضوية فذكرت له فيما ذكرت الصديق رينيه ويج الأستاذ بالكوليج ده فرانس والأستاذ المستشرق ريجيس بلاشير أستاذى بالسوربون والسيدة كريستيان ديروش نوبلكور عالمة الآثار المصرية والأستاذة بمدرسة اللوفر وغيرهم ، فسألنى إذا كان بوسعى الاتصال بهم قبيل عودتى إلى القاهرة والاستفسار منهم عن قبول عضوية هذه الرابطة التى يفضل تسميتها باسمها الحقيقى وهو «جمعية الصداقة الفرنسية - المصرية» ، فأكدت له أن ذلك ليس فى مقدورى فحسب بل إنى أضمن قبولهم للانضمام لهذه الجمعية بحماس شديد . وهنا استغرق فى التفكير بضع لحظات وإذا هويبادرنى قائلا : « لا تحمل همّ انضمام أعضاء هذه الجمعية ، ففى جمعيتى أسماء أخرى مشرفة لاحصر لها يسعدها الانتماء للجمعية ، ولكن ما رأيك فى تدبير حفل استقبال يضاف إلى برنامج الزيارة تقيمه جمعية الصداقة الجديدة ترحيبا بالمشير عامر والوفد المرافق له ؟ قلت إنها فكرة ممتازة تجمل معنى عميقا إذ ترسّب فكرة عودة العلاقات بين البلدين على الصعيد غير الرسمى أيضا ، فوعد بتنفيذ الفكرة . وفى نفس الليلة اجتمعت مع بعض الأصدقاء الفرنسيين ممن كنت أتوسّم فيهم الحماس لهذه الفكرة وأخذت أجرى الاتصالات مع من أمكن الاتصال بهم من الأسماء المرشحة للانضمام وحصلت على موافقتهم وترحيبهم جميعا دون مجهود ، وكلفت أحد الأصدقاء بابلاغ نتيجة مساعى إلى كوفّ ده مورفيل مع قائمة بأسمائهم وعناوينهم . وبعد عودتى إلى باريس مع المشير فى اليوم التالى وجدت من بين تفاصيل الزيارة حفل استقبال تقيمه جمعية الصداقة الفرنسية

المصرية على شرف المشير عامر يتبادل أثناءها المشير والكونت دى شايلا الخطاب ، فطلب منى المشير أن أنوب عنه في إعداد الخطاب وإلقائه أثناء حضوره الحفل ففعلت . وإذا بالمشير يعلن خلال الحفل أنه إزاء السرعة التى تم بها تكوين جمعية الصداقة الفرنسية المصرية لايسعه إلا أن يتعهد بدوره بتكوين جمعية الصداقة المصرية الفرنسية بمجرد عودته إلى الوطن وأنه سيعهد برياستها إلى شخصى .

وبعد عودتنا إلى القاهرة وكل التى أنشئ جمعية للصداقة وخصص لها مبلغا للتأسيس . وشرعت في تنفيذ المهمة المنوطة بى وإذا بى أطلع في الصحف قرارا بإسناد رياة جمعية الصداقة المصرية الفرنسية إلى الزميل المرحوم المهندس محمود يونس . وكم عجبت لهذا غير أنى لم أعره بالا ، وإذا أنا بعد حين أتلقي خطابا من رياة الجمهورية بأن التى رياة الجمعية ، ولكننى لم أملك عندها غير أن أرسل خطابا للشخص الذى عدته مسئولا في رياة الجمهورية عن هذا كله أعتذر عن قبول هذا العرض الجديد ، وإذا المشير عامر يتصل بى بعد علمه بهذا الخطاب الذى أرسلته يسألنى رأى عن اعتذارى ، فكشفت له عن جلية الأمر وأننى لا أحب أن أدخل في هذا العبث لاسما وأن رياة الجمعية لا تعينى في قليل أو كثير ، فألح على راجيا بأن الجمعية أولى برجل عاش بين البلدين وعرف ماهنا وماهناك . ولم يسعنى إزاء هذا الإصرار إلا أن أقبل وتطوعت لهذا العمل ، ولازلت أشغل رياة هذه الجمعية حتى كتابة هذه السطور بعد أن أصبح أمر الرياسة فيها مرجعه إلى الانتخاب لا إلى التعيين كما كان الأمر يوم إنشائها .

وفي صبيحة يوم ١٥ أكتوبر صحبت المشير عامر في طائرته المتجهة إلى باريس ضمن الوفد المرافق له ، واستقبله في المطار الرئيس پومپيدو الذى أعلن في خطبة الترحيب : « من الآن لم تعد ثمة خلافات جوهرية بين فرنسا ومصر » .

ومضى برنامج الزيارة كما كان معدا له في يسر وود لم يطرأ عليه أى تغيير إلا حين رجوت المشير عامر أن يزور قبر الجندى المجهول ليضع باقة زهور حسب الأصول المرعية لأن ذلك سيكون له أثر طيب بين الأوساط الفرنسية فاستجاب لهذا الرجاء . وكان يوم ١٨ أكتوبر يوما مشهودا حين ألقى الجنرال ديجول خلال الحفل الذى أقامه تكريما للمشير عامر والوفد المرافق له بقصر الإليزيه كلمة أثارت

دهشة وفد مصر بل ودهشة المسؤولين الفرنسيين أنفسهم . فقد كان الجميع يتوقعون كلمة استقبال تقليدية كتلك التى تقال عادة للضيوف الرسميين ، بل لقد كان البعض يتوقع بعض الفتور تجاه دولة كانت منذ وقت غير بعيد معادية لفرنسا ، غير أن الرئيس ديغول أبدى شعورا حارا استثنائيا تجاهها ، وهو المعروف بأنه يزن كل كلمة ينطق بها إذ راح يكيل المديح « لمصر الحديثة » ولرئيسها « عبدالناصر » فقال : « لقد أثبتت مصر ولا زالت تثبت أنها تريد أن تعيش وتعمل فى إطار متحرر وفقا لعبقريتها الخاصة . وهاهى ذى على الرغم من العقبات التى تضعها الطبيعة فى طريقها والتخلف الطويل الذى خضعت له والتزايد السريع فى عدد سكانها ، تبذل الجهود البناءة وتحقق تقدما رائعا فى ميادين عديدة » . ثم مضى بعد تقرر يظه السياسة الناصرية التى تهدف إلى تحقيق الرخاء للشعب المصرى يشيد— وهو يعلم أنه قد يجرح شعور بعض الدول العربية — : « بالمهمة الكبرى التى حددتها الجمهورية العربية المتحدة لنفسها فى الشرق الأوسط والعالم العربى والتى تحمقها تبعا لفن الحقائق » . ثم توج كلمته بتحية سياسة الرئيس عبدالناصر الرشيدة الحازمة قائلا : « إن فرنسا الجديدة التى تشيدها الجمهورية الخامسة تجد نفسها على استعداد كبير للقيام بعمل مشترك مع مصر الحديثة التى تحمقها الجمهورية العربية المتحدة » .

وقد أفضى لى المشير عامر بعد لقائه المنفرد بالجنرال ديغول لمدة ساعة وربع أن الحديث بدأ جامدا بعض الشيء لعدة دقائق ، غير أن المشير حين صارج الرئيس برغبته فى الدخول مباشرة إلى الموضوع وباستعداده للإجابة الصريحة عن كل التساؤلات أحس الحرارة تدب فى الحوار فجرت المحادثات باللغة المباشرة التى يتقنها العسكريون . واتضح من هذا الحوار الواضح أن موقف القاهرة وباريس من المشاكل الدولية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يكاد يكون متطابقا ، كما أن كليهما يعضد انضمام الصين الشعبية إلى منظمة الأمم المتحدة واحترام اتفاقية جنيف بصدد فيتنام . وكذا تقبلت مصر بارتياح وجهة النظر الفرنسية الخاصة بحيااد كمبوديا ، والوقوف فى وجه التدخل الأمريكى فى الكونغو وسان دومينيك وقبرص . وبصدد القومية العربية أعرب ديغول عن رأيه بأنه لا يجد مايسىء فى تجمع الدول العربية بمحض اختيارها فى إطار وحدة لا تضر بمصالحها وتخدم



شخصية كل دولة منها ، وهو ما رد عليه المشير بأنه يتفق وسياسة القاهرة الرسمية ، كما أبدى ديجول ارتياحه لعقد الاتفاق المصري السعودي الخاص باليمن ، وكذلك لموقف الرئيس عبدالناصر الواقعي المعتدل في مؤتمرات القمة الثلاثة التي عقدت في القاهرة والإسكندرية والدار البيضاء .

وقد أثارَت الزيارة خلال أيامها الخمسة الكثير من التعليقات الصحفية المشجعة التي أبرزت عودة الصداقة بين مصر وفرنسا ، وأشارت إلى أن حرب السويس تعتبر حدثاً طارئاً لا تتحمل الجمهورية الخامسة مسئوليتها ، وأن هذه الزيارة تسدل الستار نهائياً على حرب السويس لتعود بعدها العلاقات بين الدولتين على أسس جديدة غير مشروطة وقائمة على المصالح المشتركة ، وبذلك يكون كوف ده مورفيل قد برَّبوعده لى ، فحققت الزيارة في إطارها حُدود لها نجاحا فاق تقدير كافة المعلقين السياسيين واضطرت الاتجاهات المعادية إلى أن تجارى الموقف رغماً عنها . كما أدَّت الإجراءات العديدة التي اتخذت قبل الزيارة لتصفية الكثير من المشاكل المعلقة إلى إخماس الأصوات التي حاولت استغلال هذه الخلافات ، فكان أن حسم البيان المشترك كل هذه التعلّات . كذلك كان لموقف مصر من عدم طلب قروض خلال الزيارة أثره أيضاً في الرد على المقالات التي أشارت إلى إفلاس الخزنة المصرية .

وكانت الإذاعة الفرنسية هي الأخرى إيجابية وموضوعية فتناولت أنباء الزيارة في نشرات الأخبار كل ساعة ، كما عرض التلفزيون أفلاماً عن مصر القديمة فضلاً عن تغطية الزيارة نفسها . ويكفى لمعرفة وقع أثر الزيارة على إسرائيل مطالعة ما كتبه محرر صحيفة « لوموند ديبلوماتيك » في ٨ نوفمبر ١٩٦٥ : « مما لاشك فيه أن تدعيم العلاقات الفرنسية العربية وتثديد الجنرال ديجول بحملة السويس قد غيّر كثيراً من طبيعة العلاقات بين باريس والقدس . لقد كرر المسؤولون الفرنسيون بمناسبة زيارة المشير عامر لباريس رغبتهم في التزام موقف الحياد التام من النزاع الاسرائيلي العربي . وهكذا ولّى العصر المنطوى على تحالف غير مدوّن بين فرنسا والدولة العبرية بصدد حرب الجزائر وسيناء » .

وكان من أهم معالم الزيارة حفل العشاء الذى أقامته المشير عامر بفندق كريون لكافة من رحّبوا به واستقبلوه ودعوه خلال زيارته لباريس . والحق إن السلطات الفرنسية قد حشدت فى هذا الحفل أكبر عدد من أهم الشخصيات الفرنسية على رأسهم مجلس الوزراء بكامل أعضائه ورئيسهم جورج پومپيدو إلى غيرهم من كبار المسؤولين فى الدولة وجملة من رجالات الدبلوماسية والسياسة والإدارة والثقافة والفنون على صورة لم أرها مثيلا من قبل .

\* \* \*

وحين اتصلت فى شهر فبراير ١٩٦٦ بالرئيس عبدالناصر تليفونيا لاستئذانه فى السفر إلى باريس لحضور انعقاد دورة المجلس التنفيذى لليونسكو طلبت إلى الحضور لنتجاذب الحديث فى أمرهام . ولما التقيت به شرع يبدى لى قلقه من تجارب الصاروخ المصرى الذى بُذلت فى سبيله جهود ضخمة مُضنية طوال الأعوام الماضية دون أن نصل إلى نتيجة مرضية بالنسبة لدقة توجيهه ، حتى أنه علّق ساخرا بأن صاروخنا إذا صوّبناه على تل أبيب أخطأ هدفه وأصاب بيروت . وعهد إلى الرئيس عبدالناصر بالبحث لحل هذه المشكلة فى باريس ، وذلك عن طريق أحد سبيلين : إما الحصول على الخبرة الفنية الفرنسية فى هذا المجال وإما الحصول على موافقة السلطات الفرنسية على شرائنا لعدد من آلات الجيروسكوب اللازمة لتوجيه صاروخنا توجيها دقيقا . ثم طلب منى المرور على المشير للتعرف على التفاصيل ، فتوجهت إلى المشير الذى كثر لى الأهمية التى يعلّقها على الحصول على الجيروسكوب . وإذ كنت أجهل ما يصاحب هذا الموضوع من تفاصيل ينبغى أن أتزوّد بها قبل الشروع فى المحاولة طلبت إليه تكليف أحد الخبراء لتوضيح الموضوع لى . فزارنى فى بيتى خبيران مكثا معى ليلة بأكملها يشرحان لى الناحية التقنية من الموضوع . وحين طلبت منها تزويدى بالمواصفات المحددة أصرا على عدم تسليمى إياها إلا على سَلَم الطائرة فى مظروف مغلق . وعجبت لهذا وأنا رجل مسئول كما هم مسئولون ، ثم إن الأمر كان لى أكثر مما هو لهم ، ولم أرميّر هذه السرية المفتعلة أويُسوّغها إلا أن تكون مجافاة للذوق والإدراك .

وفى الشانى والعشرين من فبراير التقيت بالسيد پيرمايار أمين عام جهاز الدفاع القومى الفرنسى الذى شرحت له مشكلة الصواريخ المصرية « أرض —

أرض» وأهمية تزويدنا إما بالخبراء الفنيين الذين يمكن أن يساعدونا في التغلب على صعوبات دقة التصويب وإما بالجيروسكوب نفسه . فردّ بأن السفارة المصرية سبق أن تقدمت في العام الماضي بمثل هذا الطلب ولكن الحكومة الفرنسية اعتذرت عن الاستجابة له . ثم أردف بعبارة أخرج من ذكرها لولا أن أمانة نقل الواقعة والحديث بنصّه تدفعني إلى إثباتها إذ قال : «إن اختيار الرئيس عبدالناصر لك يلفعنا إلى البحث عن حل لهذا الموضوع يكون مرضيا لكم ففرنسا لا تشكر لك جهودك الموصولة في إعادة العلاقات سليمة كما كانت بين الدولتين ، وصلا تك الوطنية بالشخصيات الفرنسية البارزة » .

غير أنه مالبث أن سألني عن سر طلبنا المعاونة منهم لا من غيرهم . فأجبت بأن الخبراء الألمان قدموا ماوسعهم من عون ومازالوا ، ولكنهم لم يوقفوا في ناحية التوجيه الدقيق . أما الروس فهم لا يستطيعون أن يطلعوا الاخصائيين الألمان بالذات على ما توصلوا إليه في أى ميدان من هذه الميادين . وأما الولايات المتحدة والمملكة المتحدة فعلاقاتهما بإسرائيل لا تبيح لهما معاونة في هذا المجال ولهذا لجأنا إلى فرنسا . وهنا طمأننى إلى أن أمله كبير في نجاح مسعاه إن لم تنشأ عقبات خارجة عن إرادته ، ثم استدرك قائلا أنه يقصد العقبات الفنية ولاشئ سواها . ثم إذا به يسألنى عن عدد أجهزة الجيروسكوب المطلوبة ، فأجبت بأننى لا أدرى على وجه التحديد ولكننى قد أتيت سعيًا وراء الموافقة على المبدأ ، أما العدد فأمره يسير إذ يمكننا إحاطته علما به في أقرب فرصة بمجرد أن نتلقى رسميا الموافقة على المبدأ .

وليس المجال مناسبًا للدخول في تفاصيل هذا الموضوع وما صاحبه من جهود للحصول على موافقة وزارة الحربية الفرنسية من الناحية الفنية ثم الأمانة العامة للدفاع القومى من الناحية السياسية . على أن مفاجأة مذهلة صادفتنى حين مرّى المسيو پير ما يارفى اليوم التالى بالفندق ليبلغنى أن الفنيين أنهاوا إليه أن الموصفات الفنية التى أعطيتها إياها تنطوى على ما يخالف ما طلبته منه شفويا . وكان حرجى أمامه شديداً ووعده أنى سأنهى إليه البيانات السليمة على مدى أربع وعشرين ساعة . واستدعيت المقدم فوزى شهدى الملحق العسكرى بباريس وأملت عليه برقية إلى المشير عامر أوضح له الموقف وأشكوا المسئول عن هذا الإهمال الجسيم ، غير أن الملحق العسكرى ناشدنى ألا أرسل هذه البرقية خشية

إلحاق الضرر بهذا المسئول مستعجلاً أن يأتيني في أقل من أربع وعشرين ساعة بالإجابات الصحيحة . وتحت إلحاحه قبلت رجاءه وكان عند وعده فقد وصلتني المعلومات المطلوبة التي سارعت بتسليمها . فإذا هناك مفاجأة أخرى أشد إثارة للفرح بقدر ما فيها من حق لا يصدق ، حيث تبين أن التصميمات التي سلمت لي في البداية كانت خاصة بأجهزة صواريخ « جو-جو » في حين أن المطلوب كان تصميمات أجهزة صواريخ « أرض - أرض » .

وفي السابع من مايو تلقيت بعد عودتي إلى القاهرة رسالة سرية من السفير بيير مايار عن طريق السفارة الفرنسية يحيطني فيها علماً بموافقة الحكومة الفرنسية على تزويدنا بالجيروسكوب المناسب لصاروخنا « أرض - أرض » طالباً معرفة العدد المطلوب من آلة التوجيه هذه ، فاتصلت على الفور بالمشير عبدالحكيم عامر الذي أمر الضابط المنوط بهذه الصواريخ والمسئول عن تزويدي بالمعلومات الخاطئة عن الجيروسكوب بالاتصال بي ، وعندما سأله عن العدد المطلوب منها أجاب هازلاً في استهتار : « حَسْبُنَا واحد ونعمل مثله ! » .

وهنا أحسستُ بهمَّ يعتصر كياني كله ، وأخذت أذكّر في أسى تلك الجهود التي بُذلت في إقناع وزارة الدفاع الفرنسية والظفر بموافقتها الفنية ، ثم بالموافقة السياسية من الأمانة العامة للدفاع القومي . وتذكرت بخجل مرير كيف صارحني السفير بيير مايار باحتواء مواصفائنا الفنية على أخطاء يستحيل معها تصميم الأجهزة المطلوبة . وأحسست بالخطر حين رأيت أن هذا هو أسلوب العمل في مصانعنا الحربية وفي صلاتنا مع الدول الأخرى من إهمال واستهانة وسوء تقدير ، فطويبت النفس على شجن . وبعد تردد وجيز خشية إلحاق الضرر بهذا الضابط الذي كان يشغل مركزاً بالغ الخطورة أفضيتُ إلى المشير عامر بالقصة كاملة لأن المسألة لم تكن تحتل الكتمان ، وانتهت علاقتي بهذا الموضوع .

كان مثل هذا التصرف المشين والإهمال المعيب لاشك من بين ما جرّ مصر إلى تلك الهزيمة النكراء التي مُنيت بها في حربها مع إسرائيل بعد . فلقد كان هذا الإنسان وأمثاله المحيطين بالمشير يستملئ منهم وينتصح برأيهم ويعمل بمشورتهم ويعطيهم ثقته كلها ، ثقة في غير موضعها ، فكانت مشورته على المشير هي التي

فوتت على مصر أن تتزود بالچيروسكوب الموجّه الذى لو كنا حصلنا عليه لربما تغيّر مجرى الحرب .

\* \* \*

وفى شهر مايو من نفس العام كنت أזור الرئيس لأعرض عليه بعض الأمور قبل سفرى إلى فرنسا لحضور جلسة طارئة للمجلس التنفيذى باليونسكو. وبعد أن فرغت من مهمتى هممت بالوقوف استعدادا للانصراف ، فإذا هو يطلب إلى الجلوس و يفاجئنى بقوله : « صبرا فهناك ما هو أهم مما عرضته علىّ بما ينبغى بحثه أثناء وجودك بفرنسا ، وهو معاونة فرنسا لنا فى إنتاج القنبلة الذرية » .

ولم تقو قدماى على حملى فجلست ، وسألته : أترك تمزج ياريس ؟ قال : بل أنا جاد كل الجّد ، فاسرائيل تمتلك الآن القنبلة الذرية ومسئوليتى تحتم علىّ تملك مصر وسائل ردع هذا السلاح ، ولذلك فنحن نحاول فى كل مكان ، حتى فى الصين . فوعدته بطبيعة الحال بذل كل ما بوسعى ولم أخف عليه أنى أشك كثيرا فى إمكانية تحقيق هذه الأمنية . وخرجت من لديه مذهولا أحاول حصر ذهنى فى كيفية تبليغ هذه الرسالة ولن ؟

وكان أول ماقت به هو محاولة معرفة شىء عن هذه القنبلة الذرية ، فانكبت على ما أحتفظ به من مجلدات مجلة - Réalités الفرنسية التى كنت مشتركاً بها لأستعيد قراءة مقال أذكر أنى طالعت بها مطالعة عابرة يحمل عنوان « الدول التى تستطيع أن تمتلك القنبلة الذرية » بقلم محررها العلمى فرانسوا شلوسيه . ذهب المقال إلى أن جميع دول العالم تستطيع امتلاك القنبلة الذرية ، غير أن بينها من تستطيع تملكها خلال خمس سنوات ومن تستطيع ذلك خلال عشر سنوات ومن تستطيع خلال خمسة عشر عاما . وعرج فى تحليله إلى شروط ثلاث ، ينبغى توافرها حتى تستطيع الدولة صناعة القنبلة الذرية : هى تملك الوقود الذرى وهو الأورانيوم ، والتحكم فى النواحي الفنية المعقدة للموّلّدات الذرية التى ينتج عنها البلوتونيوم ، ثم تملك مصنع لتوظيف المواد المشعة لعزل البلوتونيوم الذى يتكون فى أعمدة الأورانيوم التى تغذى الموّلّد . وبعد ذلك تأتى الخطوة الثانية وهى عمل القنبلة نفسها : تجميعها وتجهيزها عسكريا . وانتقل بعدها إلى شرح كيف أصبحت المعدات الذرية سلعة تجارية فتستطيع أى دولة أن تحصل بالشراء

على مفاعل ذرى إذا لم يكن فى قدرتها من الناحية الفنية والعلمية إنشاؤه . وتستطيع الدولة البائعة ممارسة إشرافها على استخدام الوقود الذرى الذى تقدمه لتغذية المركز، ولكن ليس ثمة ما يمنع الدولة المشترية من مضاعفة الجهد وتحقيق التقدم لإنشاء مفاعلها الخاص ، فإيسر الحصول على الجرافيت والماء الثقيل ومعدات التوقيت وأجهزة الحساب الكهربائى . أما بالنسبة لمعدن الأورانيوم - والشائع أنه نادر - فقد غدا موفورا إذ أصبحت الدول المنتجة له مثل كندا وجنوب أفريقيا لديها وقرة منه خاصة بعد اكتشافت الولايات المتحدة المعدن فى تربتها وكفت عن الشراء من الخارج .

وكان الرئيس عبد الناصر فى أثناء لقائى به قد أشار على بأن أطلب من المرحوم الدكتور عبد المعبود الجبيلى رئيس هيئة الطاقة الذرية الاحتياجات بالتفصيل . وكنت على معرفة وثيقة به منذ كنت ملحقا عسكريا بفرنسنا وكان أيامها يواصل دراسته العلمية بباريس ، فأوضحت له المهمة التى عهد بها لى رئيس الجمهورية ، طالبا تزويدى بالقدر اللازم من المعلومات التى تساعدنى فى تحقيق المهمة ، فأعازنى كتاب « انتشار الأسلحة الذرية » الصادر عن معهد العلوم الاستراتيجية البريطانى والذى يكشف عن أن فرنسا لا تملك أى حق للرقابة على مفاعل ديمونة الإسرائيلى الذى أنشأته لها ، ثم انتقل إلى المعلومات التى حصلت عليها إسرائيل من الدول الغربية . وهنا طلبت منه تحديد مطلب رئيس الجمهورية من فرنسا علميا فتطرق إلى أربعة احتمالات ، أولها بطبيعة الحال الحد الأقصى وهو معونة فرنسية كاملة على أن تعوضنا فرنسا عن الوقت الزمنى الضائع بين معونتها لإسرائيل ومعونتها لنا ، وثانيها برنامجا متوسطا ، وثالثها الحد الأدنى ، ورابعها أسوأ الفروض وهو تزويدنا بمفاعل لإنتاج البلوتونيوم ومدنا بالمواد النووية المختلفة ورخصة إنتاج الوقود . وأيا كانت المشروعات التى سنتعاون فيها فلا معدل عن أن تزودنا فرنسا بالتصميمات والرسومات النهائية وبالمعدات والمواد والأجهزة اللازمة لإقامة هذه المشروعات ، وأن تتعاون معنا على التنفيذ فى كافة مراحل الإنشاء والتركيب والاختبار والتشغيل والصيانة ، وأن تمدنا بالمواد النووية وقطع الغيار، وتدريب الخبراء والفنيين المصريين فى المنشآت الفرنسية المشابهة واشترأهم مع الخبراء الفرنسيين فى المراحل المختلفة للمشروع .

وفى يوم ٢٣ فبراير التقيت بالمسؤولى چوكس وزير الدولة الفرنسية لشئون الإصلاح الإدارى بمقر وزارته ، وبعد تبادل عبارات المجاملة التقليدية عرضت الموضوع فقلت : « إننى مكلف برسالة شبه رسمية من رئيسنا أرجو إبلاغها للجنرال ديجول شخصيا ، ولعلمى بمكانتك المقدورة عنده وحسن استماعه إليك ولثقتى بصداقتك لنا التى أثبتتها الظروف فى أحلك الأوقات قصدتك لإبلاغ هذه الرسالة . فبعد تبادل الأمانى الحارة التى تبادلناها فى شهر أكتوبر الماضى أثناء زيارة المشير عامر آتى إليك اليوم بعرض واقعى أرجو أن يصل على لسانك رأسا إلى الرئيس ديجول . وأنتهز هذه الفرصة كى أتقدم بالتهنئة على النجاح الباهر الذى حققته فرنسا بالأمس فى ميدان الفضاء بنجاح صاروخها ديامان ١ ، ونحن نعلم أن فرنسا تعتنق مبدأ عدم انتشار الأسلحة الذرية ، كما نعلم أن سياستها الخارجية سياسة مستقلة تماما ، وعلى ضوء هذين الاتجاهين أعرض المسألة ... لا المشكلة .

لقد تورطت حكومة جى مولى فى عهد الجمهورية الرابعة فى تقديم كافة أنواع المساعدات العسكرية لإسرائيل وخاصة فى الميدان النووى فكان لمساعداتها غير المحدودة أثر فى التقدم الكبير الذى أحرزته الآن فى تكوين مفاعلها الذرى وفى إمكانية حصولها على القنبلة الذرية فى عام ١٩٧٠ ، كما تشهد على ذلك هذه المقالة الرئيسية بعدد شهر فبراير لمجلة Réalités أشد المجلات الفرنسية جدية وموضوعية [ وهنا عرضت عليه نسخة هذا العدد التى يتضح من المقال المنشور بها أن الجمهورية العربية ستتمكن من الحصول على القنبلة الذرية فى عام ١٩٧٥ بينما ستصل إليها إسرائيل فى عام ١٩٧٠ ] . والشعور السائد لدى العرب عامة ومصر خاصة أن فرنسا - سواء كانت الجمهورية الرابعة التى ارتكبت هذه الخطيئة أم الجمهورية الخامسة التى ورثت هذه التبعة - مسئولة أمام التاريخ بلا جدال عن دخول الصراع بين العرب وإسرائيل فى هذا السباق الذى لن يقف عند حد ، فبعد القنبلة الذرية سيتجه التفكير إلى القنبلة الهيدروجينية ، وهكذا سيمضى السباق إلى غير نهاية .

وأردفت قائلا إن الرئيس عبد الناصر يدرك عدم جدوى هذا السباق كما يؤمن بمبدأ عدم انتشار الأسلحة الذرية ، ولكنه غير مستعد لأن يقف مكتوف اليدين أمام الخطر الذى يهددنا . فوق إحصائياتكم تسبقنا إسرائيل بخمس سنوات على

الأقل في هذا الميدان الخطير وهي فترة — كما لا يخفى عليكم — ملأى بكل أنواع التهديد والدمار والخطر . وهو ما يجعل الرئيس يعزّ عليه أن يقف جامدا حتى يتحول شعبنا إلى شراذم من اللاجئين على الرغم من حرصه على أن ينفق الدخل القومي على حل مشاكل بلاده والارتفاع بمستوى سكانه ، إلا أنه لا يرى مفر من وضع نشاط إسرائيل الذرى في حساباته .

واستطردت أقول : وكما تعرفون فقد بدأنا منذ وقت غير قصير بتطبيق برنامج نووى للأغراض السلمية ولإنتاج المواد الانشطارية ، فعلى أى دولة تريد صناعة القنبلة الذرية أن تمر بمرحلتين تختلط المرحلة الأولى منها في جميع تفاصيلها بتطبيق برنامج الذرة المدنى وتنتهى بإنتاج المادة الانشطارية ، والمرحلة الثانية هي مرحلة عسكرية بحجة تنتهى بتجربة القنبلة . وسوف تستطيع إسرائيل خلال خمس سنوات إحراز تقدم أكبر نسبيا في الميدان الذرى . وفي خلال السنوات العشر القادمة سوف تستطيع ثمانى دول أخرى اللحاق بها منها الجمهورية العربية المتحدة ، والمتوقع أنه في حوالى عام ١٩٨٠ سوف تستطيع أغلب الدول الأخرى التى تمارس الآن برامج أبحاث ذرية النظر في صناعة القنبلة الذرية .

ولا يخفى عليكم أنه بانتشار المعرفة والتقدم الفنى في علوم الكيمياء والإلكترونيات والمعادن أصبح من السهل الوصول إلى مرحلة الصناعة الذرية . فقد أسفرت برامج استخدام المعدات الذرية في النشاط المدنى عن أن عددا من الدول وجدت حُلولا للعديد من مشكلاتها الفنية الخاصة التى كانت تواجهها ، بل إن أية دولة تملك اليوم المعرفة اللازمة وأقل المعدات الصناعية يمكنها أن تصنع لنفسها قنبلة ذرية بنصف مليار فرنك فحسب . كما أن سرية السياسة الذرية ثبت فشلها وعدم جدواها لأنه لا يمكن منع انتشار المعرفة ولا التقدم الفنى ولا وصول عدد متزايد من الدول إلى المستوى الصناعى المتوسط ، وهو المستوى اللازم للوصول إلى إمكان صناعة السلاح النووى ، كذلك فإن سياسة الإشراف، التى حلت محل سياسة السرية لم تعد فعالة أو كافية . والحل الوحيد الفعال كما تعلمون حق العلم هو النزاع العام للسلاح النووى ، وأن تنتقل ملكية القوة النووية إلى سلطة دولية لها الحق المطلق في الإشراف والتفتيش على جميع المنشآت الذرية



الحالية والمستقبلية ، غير أن الدول الكبرى لا تبغى السير في هذا الطريق . ولما كان الدور الذى تلعبه فرنسا في الشرق الأوسط كما صرح الجنرال دييجول للمشير عبدالحكيم عامر هو المحافظة على توازن القوى في المنطقة ، فقد آن الأوان لفرنسا لتحقيق هذا الدور ، واسمح لى أن أدعوه تكفيرا عن الذنب الذى ارتكبه الجمهورية الرابعة ...

فقاطعنى الميسولوى چوكس بقوله : هل تريدون ضمنا ؟

قلت : كلا البتة ؟

قال : لماذا ؟

قلت : لنفس السبب الذى آمنت به الجمهورية الفرنسية الخامسة فرفضت الحصول على ضمان الولايات المتحدة الأمريكية وقررت أن تكون المبادأة بيدها فصنعت قنبلتها . ما كان أيسر أن نطلب ضمان الاتحاد السوفيتى ولكننا نهبج دائما سياسة مستقلة ، ومن شأن من يتبع هذه السياسة ألا يضع نفسه تحت رحمة قوى أخرى كى تختار الطريق الذى تقضى به عليها مصلحتها العامة .

وردة الميسوچوكس على قولى بابتسامة .

وأردفت قائلا : هناك حلان : الأول أن تتدخل فرنسا تدخلا إيجابيا لإيقاف اسرائيل عن مواصلة إنتاج قنبلتها الذرية بطريقة تضمن بها زوال هذا التهديد عنا حتى تقتنع أجهزتنا المسئولة عن الدفاع بالانصراف عن المضى في هذا السباق اللا محدود ، وهذا هو الحل الأمثل لأننا نتوق إلى أن نحصر جهودنا في التغلب على مشكلاتنا الاجتماعية واللاحاق بركب الحضارة واعطاء الفرصة للمواطن المصرى كى يحيا حياة كريمة . أما اذا تعذر هذا فلا معدل عن أن تمنحونا مساعدتكم الفنية السريعة والفعالة للحاق بالمستوى الذى بلغته اسرائيل — بفضل عونكم — وأصبحت بذلك خطرا يهدد حياة أفراد شعبنا ومنتجاتنا . ولسنا نطلب تسليمنا القنبلة بطبيعة الحال ولكننا نطالب — مؤمنين أننا نطالب بحق — بالقدر الكافى من المعلومات الذى يساعدنا على إنجاز قنبلتنا في وقت واحد مع اسرائيل . إن نشاطنا النووى يتجه نحو الأهداف السلمية وكذلك تدعى اسرائيل ، ولكنك خير من يعلم ألا حدود هناك بين الأهداف السلمية والعسكرية .

إن هذا الموضوع بالنسبة لنا على جانب كبير من الأهمية العاجلة . ونحن على استعداد لتقديم المقابل بطبيعة الحال في الميدان أو الميادين التي تقدر فرنسا أنها مناسبة لها ، فعلى سبيل المثال [ وهذا ميدان أقترحه بصفة شخصية ] طالعت بصحيفة لوموند عدد ١٥ فبراير الأزمة التي تمر بها صناعة الطائرات الفرنسية الكارافيل بعد أن قررت شركات الطيران الإسكندنافية والسويسرية والإيطالية والبلجيكية والألمانية التخلص من طائراتها الكارافيل الفرنسية التي تعمل على خطوط متوسطة والتعاقد على شراء طائرات أمريكية من طراز D C 9 وطرار بوينج ٧٢٧ الجديد التي بدأ تسليمها إليهم بالفعل . وهو ما قد يسفر عن أن تصاب هذه الصناعة الفرنسية الهامة بكساد شديد في ميدان أوروبي تقتحمه الصناعة الأمريكية فتخشد الكبرياء الفرنسي الذي ظل شامخا في أوربا تحت راية طائرات الكارافيل طوال السنوات العشر السابقة . وأعتقد أنه من اليسير في مثل هذه الحالة أن تتخلص الجمهورية العربية المتحدة وأصدقائها من طائراتها الإنجليزية واستبدالها بطائرات الكارافيل . هذا ميدان واحد من الميادين أسوقه على سبيل المثال لإظهار حسن النوايا . كذلك هناك الكساد الذي تعاني منه ترسانات بناء السفن الفرنسية ، وتستطيع الجمهورية العربية المتحدة أن تعهد إلى الترسانات الفرنسية ببناء أسطولها التجارى . وإذ تنصف سياستكم دائما بالاستقلال ، وهو ما تنتهجه سياستنا بالمثل ، فلماذا لا نقدم على تجربة توحيد سياستنا في كل من الشرق الأوسط وأفريقيا على سبيل المثال بتبادل الرأي بطريقة أكثر عمقا من الطريقة التي نتبادل بها الرأي الآن .

وهنا أعدت على مسامحة الحلين اللذين سبق أن أبديتها ، فأكد لى أنه سينقل للرئيس دييجول فحوى هذه الرسالة من ألفها إلى يائها ، ثم كرّر لى ما عرضته عليه كاملا غير منقوص وأردف يقول : لا أظنك تتوقع منى إجابة في التو واللحظة ؟

قلت : لاطبيعة الحال ، فهو أمر له شأنه ومسؤوليته .

ولما أخبرته أنى سأتى إلى باريس لحضور دورة المجلس التنفيذي لليونسكو في شهر مايو قال إن هذه الفترة تسمح له بدراسة الموضوع والتحدث إلى الجنرال حيث نستطيع استئناف الحديث بعد استيفائه لدى عودتى .

وعدت في شهر مايو إلى فرنسا ، وجمعتنا مائدة العشاء في الحادي عشر من مايو ١٩٦٦ بمطعم « تور دارچان » الذى يطلّ على نهر السين بشرفته الزجاجية الفسيحة التى تتيح لنا رؤية أضواء باريس تومض فى الأفق البعيد بعد أن ينزوى قرص الشمس الغارب بأكمله وسط الشفق وراء كنيسة نوتردام ، وما تلبث العيون أن تنصرف عن التطلع إلى السفن التى تغدو وتروح على صفحة السين إلى طبق البط الشهير الذى يقَدِّم لك مُجَزَّءاً على دفعات تبدأ بالصدر ثم بالفخذ ومعهما بطاقة بالرقم المسلسل للبطاة التى تتناولها منذ قدِّم « التور دارچان » أول طبق من هذا النوع الذى يتميز به هذا المطعم الفريد ، وبهذا يعرف المختلف إليه دوره بين آكلى البط فيه .

كنت متلهفا إلى سماع الإجابة على الموضوع الذى سبق أن أثرته معه خلال شهر فبراير ١٩٦٦ والخاص بالمعاونة على إقامة المراحل اللازمة لاستخدام الذرة ، والذى كنت حريصا على تسميته أمامه « بالتعاون الفرنسى المصرى فى إطار سياسة إيجابية » ، غير أنه اعتذر لى بأن الفرصة لم تسنح له حتى الآن للحديث مع الجنرال ديجول ، فقلت له إن فرنسا إذا بادرت باتخاذ هذه الخطوة فستجنى فائدة كبيرة ، بأن تحتل مركزا خاصا ممتازا بين الشعوب العربية بصفة عامة ، وبين الشعب المصرى — وهو بطبعه شديد الوفاء — بصفة خاصة . وهنا ذكّرته بأن المركز الخاص الممتاز الذى يتمتع به الاتحاد السوفيتى فى مصر مرجعه الأساسى المساهمة فى بناء السد العالى ، ونحن نتطلع إلى أوامر أشد قوة مع فرنسا ولن تكون هذه الأوامر مفتعلة فهى قديمة وعريقة راسخة . وأضفت إلى هذا أننى أذكر فى طفولتى وصباى أن عيد ١٤ يولييه كان يحتفل به فى مصر كأحد الأعياد القومية رمزا للحرية التى نادت بها ثورتكم ، وأن الثقافة الفرنسية قد احتلت مكانها فى قلوب المصريين من قديم الزمان رغم الاحتلال البريطانى الذى جثم على نفوسنا سبعين عاما ، وأنه منذ مطلع الحرب الأخيرة حاولت بريطانيا القضاء على الثقافة الفرنسية بمصر بشتى الطرق إلى حد مصادرة الكتب الفرنسية من المكتبات مستندة إلى المليون جندى المرابطين بالشرق الأوسط ، وأن حملة نابليون — بالرغم من المقاومة التى تعرضت لها — فإن ماخفف وقمها أمام التاريخ أنها استهلت عهدا جديدا فى تاريخنا العلمى والثقافى ببعثة العلماء التى صاحبت الحملة ، وأنه فى عهد

محمد على وسلالته كانت الثقافة الفرنسية متغلغلة وكانت بعثاتنا كلها تتوجه إلى فرنسا ، وأن الكولونيل سيف لم يكن بالنسبة لنا رمزا لسيطرة فرنسية بل بالأحرى كان رمزا للأواصر القريية بين شعبينا وللمركز الممتاز الذي تحتله الثقافة الفرنسية في بلادنا ، إلى أن كان العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ففضى على كل ما تبقى من أثر للثقافة الفرنسية والتعاطف نحوكم . وقد خيبت هذه الخطوة آمالنا لولا تغير الأحوال وانهايار الجمهورية الرابعة التى شئت هذا العدوان الغاشم وظهور الجمهورية الخامسة متبعة سياسة جديدة لانراها بعيدة كل البعد عن سياستنا وآمالنا مستهتة إنجازاتها بإنهاء حرب الجزائر. إن طريقنا هو طريقكم ، ولقد اعتذرت الكتلة الشيوعية عن معاونتنا في المجال الذى أئحدث فيه إليك واكتفت بعرض ضمانها ضد أى عدوان ذرى ينشب ضدنا ، وقد رفضنا بدورنا هذا العرض كما قلت لك إذ هو يجمد بنا عند حد لا نعدوه و ينال من استقلال سياستنا الخارجية ، وما أسهل علينا أن نحصل على ما نريد إذا ما أعلنّا بلادنا ديمقراطية شعبية . فماذا تنتظرون للقيام بخطوة إيجابية ؟ لقد أفلتت الفرصة من قبل من الغرب عند تمويل السد العالى ، ونحن نعرض عليكم فرصة لا تعوض لاكتساب ما فقدتموه بأقصى سرعة والتكفير عما اقترفته الجمهورية الرابعة فى حقنا ، وفى نفس الوقت فى صالح خصمنا الرئيسى اسرائيل .

ولا أكتمك أنه فى اليوم الذى تفجّر فيه اسرائيل قبلتها الذرية فهذا معناه القطيعة التامة بيننا - نحن الشعوب العربية - وبين فرنسا ، فلا نزاع فى أن المسئولية تقع على أكتافكم . لماذا كان هذا التقارب إذن إن لم يتّوج بهدف كبير ذى دلالة واضحة ؟ وهنا ذكرت له ماورد بكتاب « انتشار الأسلحة الذرية » بقلم ليونارد بيتون الذى ينشره معهد العلوم الاستراتيجية البريطانية وسلّمته مقتطفات من هذا البحث كما سلّمته تعليقا عليه . تقول مقتطفات البحث :

١ - المعروف أن فرنسا تمد اسرائيل بكميات من اليورانيوم تعاد بالتالى إلى فرنسا بعد استخلاص الوقود المحترق أو المشع .

٢ - يبدو أن اسرائيل قد حصلت من جنوب أفريقيا على ١٠ طن من اليورانيوم .

٣- يصل إنتاج إسرائيل حالياً من اليورانيوم المستخلص من فوسفات البحر الميت عشرة أطنان في العام ، أى يبلغ مجموع مالدنيا من يورانيوم عشرون طناً (مع العلم بأن إنتاج إسرائيل وجنوب أفريقيا غير خاضع لأي إشراف) .

٤- تحاول إسرائيل المستحيل لزيادة إنتاجها السنوى من اليورانيوم من عشرة إلى خمسة عشر طناً ، فإذا تحقق لها نصف هذه الزيادة فيمكن للمفاعل ديمونه الاستغناء عن استيراد المواد النووية من أى مصدر خارجى .

٥- يتعذر على أى إنسان أن يحدد ما إذا كانت إسرائيل قد وقّعت مع فرنسا عقداً يحدد استخدام إنتاج المفاعل الفرنسى فى أغراض سلمية فقط مثل العقد المبرم بين الهند وكندا ، ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو أن فرنسا لا تملك أى حق فى الإشراف على المفاعل نفسه .

أما التعليق الذى قدمته مع هذه المقتطفات فيذهب إلى أن :  
« هذا معناه أن المواد النووية التى تستوردها إسرائيل من جنوب أفريقيا بالإضافة إلى إنتاجها المحلى - مع استبعاد فرنسا - وهى التى تعتبر عنصراً من عناصر المفاعل الذرى لإنتاج البلوتونيوم لا تخضع لأى إشراف فرنسى ومعنى آخر أن إسرائيل تستطيع التصرف على هواها » .

وافترقنا على أن نلتقى يوم الحادى والعشرين من مايو حيث استهل حديثه بأنه يودّ ببادئ ذى بدء أن يبلغنى أنه ليست لفرنسا الآن أية علاقة عسكرية بإسرائيل . ثم بدأت مناقشة موضوع التعاون فى المجال الذرى فقال : « أحب أنؤكد لك بصفة قاطعة وبعد تبادل الرأى مع الإليزيه ووزارة الخارجية أنه لا توجد ثمة علاقة عسكرية البتة بين فرنسا وإسرائيل فى الوقت الحالى سواء كانت هذه العلاقة رسمية أو غير رسمية . وهذا التأكيد أكرره لك كى تنقله بمخافيره للرئيس جمال عبدالناصر . ثم عرج على موضوع المعاونة فى الميدان الذرى قائلاً أنه لا بد له من أن يستطلع رأى المسيو كوف ده مورفيل .

قلت : إن وزير الخارجية لا يملك البت فى هذا الموضوع وإنما مفتاح الموقف فى يد الجنرال ديجول فهو إذا أضاء النور الأخضر فتحت الأبواب على مصاريعها ، وأن دور وزير الخارجية فى هذه الحالة هو التنفيذ واستقبال طلباتنا ومبعوثينا الفنيين بالطريقة المعتادة لتحقيق السياسة المرسومة .

قال : هذا صحيح وإنما أردت أن أضعه في الصورة قبل الحديث مع رئيس الجمهورية لأنه حتماً سيسألني عن رأي وزير الخارجية ، ولست أعتقد أن مشاعر مسيو كوف ده مورفيل نحوكم سيئة بالمرّة . ولكن كيف ترى أن تسير الأمور ؟ قلت : المطلوب أولاً هو الموافقة السياسية العليا على المبدأ ، أما التفاصيل فأمرها هين ويتولّاها الخبراء .

قال : طبعاً أنا لست متخصصاً حتى أتناول هذا الموضوع بالبحث العميق .

قلت : ولا أنا . وإنما أنا ناقل رغبة للرئيس جمال عبدالناصر .

قال : هل أستطيع أن أعرف بالضبط ما تطلبون ؟

وهنا أوضحت له أن ثمة حداً أقصى للمساعدة وحداً أدنى ، وأن الفارق بينهما بالنسبة لنا كبير جداً ، خاصة من ناحية الزمن المفقود وتفقّد إسرائيل علينا في هذا المضمار بفضل المساعدة التي قدّمها فرنسا لها . ثم أردت قائلاً : إن الفارق بالنسبة لكم هين بسيط ولكنكم ستجنون كسباً كبيراً في هذه المنطقة من العالم إذا ما وافقتم على الحد الأقصى . نحن في الواقع نطلب من خلال المساعدة الذرية توثيق الأواصر بيننا وبينكم كما أوضحتُ قبلُ .

قال : وهل تستخدمون ما قد نعاونكم فيه في أغراض عسكرية ؟

قلت : إن الفرق بين الاستخدام في أغراض عسكرية وبين الاستخدام في أغراض سلمية دقيق أشدّ الدقة ، وأكون مخادعاً إذا قلت لك أننا لن نغضى في نفس الطريق الذي تسلكه إسرائيل ، ولكن سبق لي أن أوضحت لكم أنه بود الرئيس جمال عبدالناصر الذي يؤمن بمنع انتشار الأسلحة الذرية وقف هذا السباق ، فهو يدخر جهده في سبيل رفع شأن مواطنيه بدلاً من الانسياق في سباق لا يُعرف مداه ، إلا أن عليه مسؤولية حماية وطنه وشعبه في نفس الوقت ، فهو يشيّد بيد ويدافع باليد الأخرى ، غير أنني أعتقد أن مجرد معرفة إسرائيل أننا خطونا خطوات إيجابية في هذا الميدان سيجعلها تفكر أكثر من مرة قبل المضى في سياستها القسامّة على الإسراع بتفجير القنبلة الذرية لتضمن التفوق العسكري في المنطقة . فإذا بدأنا نشاطنا بمعاونتكم لنعوّض مافات فأعتقد أن السباق العسكري الذري سيتوقف ، وهنا — وكم نتمنى هذا — يتفرغ علماءنا لاستخدام هذه الإمكانيات الضخمة في أهداف سلمية نحن في ميسس الحاجة إليها .

وعندما سألتني عن ماهية الحدّين الأقصى والأدنى أخذت أشرح له مطالبنا على ضوء المعلومات التي تزوّدت بها قائلا : إن الحل المثالي الذي نتوّخاه هو المعاونة في المراحل الثمانية الأساسية :

- ١ — إقامة منجم تجريبي لكشف الخامات الذرية وخاصة اليورانيوم .
- ٢ — إقامة منجم إنتاجي لكشف الخامات الذرية وخاصة اليورانيوم .
- ٢ — إقامة مصنع تركيز اليورانيوم .
- ٤ — إقامة مصنع تكرير اليورانيوم .
- ٥ — إقامة مصنع إنتاج وحدات الوقود النووي .
- ٦ — إقامة مفاعل ذري ذي قدرة مناسبة لإنتاج البلوتونيوم .
- ٧ — إقامة مصنع استخلاص البلوتونيوم من الوقود الذري المحترق أو المشع .
- ٨ — الحصول على المواد النووية وقطع الغيار اللازمة ، وذلك مع تعويض الوقت الزمني الضائع بأن تكون قوة المفاعل ٥٠ أو ١٠٠ ميجاوات حراري .

وهنا سألتني عن الحد الأدنى فقلت له : مهلا ، فهناك شوط بين الحد الأقصى والأدنى أضرب له الأمثلة التبادلية الآتية :

أولا : تزويدنا بالنقاط ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ مع مفاعل قوته ٥٠ أو ١٠٠ ميجاوات حراري .

ثانيا : أوتزويدنا بالنقاط ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨ على أن تكون قوة المفاعل ٥٠ أو ١٠٠ ميجاوات حراري .

ثالثا : أوتزويدنا بالنقاط ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨ بمفاعل مماثل لما سلمته فرنسا لاسرائيل وقوته ٢٤ ميجاوات حراري .

أما الحد الأدنى — وهو أسوأ الفروض — فهو تزويدنا بمفاعل لإنتاج البلوتونيوم قوته ٢٤ ميجاوات حراري مع مدّنا بالمواد النووية المختلفة وقطع الغيار اللازمة لتشغيله واعطائنا رخصة إنتاج الوقود ووحداته .

وقد حرصت قبل إنهاء المقابلة على أن أوضح أنه في أى حالة من الحالات لا غنى لنا عن التزوّد بالتصميمات والرسوم النهائية والمعدات والمواد والأدوات والأجهزة لإقامة المشروعات ، وكذلك أهمية الإشراف على التنفيذ في كافة المراحل من الإنشاء والتركيب إلى الاختبار والتشغيل والصيانة ، وأعدت عليه القول بضرورة تزويدنا بالمواد النووية وقطع الغيار للتشغيل المستمر ، وتدريب الخبراء المصريين في المنشآت الفرنسية واشترائهم مع الخبراء الفرنسيين ابتداء من التصميم حتى التشغيل النهائي والصيانة .

وكنت قد أعددت مذكرة تتضمن هذه الحلول كلها قدمتها له فتناولها ووضعها في جيبه قائلاً : إنى أودعها في خزانة سرية ، وسأصل بك قبل مبارحتك باريس لإخطارك بالنتيجة بعد عرض الأمر على الرئيس ديغول واستطلاع رأى كوف ده مورفيل .

وقد اتصل بى قبل مغادرتى باريس وذلك في يوم ٢٧ مايو ليخبرنى أنه بتبادل الرأى مع كوف ده مورفيل وجد منه أذناً صاغية ولكنه لم يحصل بعد على رأيه النهائى نظراً لكثرة أسفاره ، فهو الآن بإيران وفى الأسبوع الماضى كان ببولندا وقبل ذلك كان يربعمواسم دول الكتلة الشيوعية . ولكنه اقترح أن يكتب لى رأساً بالرأى النهائى بعد أن ينتهى من مداولاته مع ده مورفيل ثم عرض الأمر على رئيس الجمهورية .

ولقد أثبتت الأيام بعد أن هذه الإجابة كانت لونا من ألوان اللباقة الدبلوماسية ، ولربما كانت ظروف فرنسا عندها فيما يبدو لى تقضى عليها ألا تمتد لنا مثل اليد التى مدتها لإسرائيل فى ظروف سابقة : وما كان ضنها على مصر بالأمر الهين ، فلربما جرّ على مصر بعد شراً مستطيراً .



- (١) ملفّات السويس . مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٨٦ . صفحة ٣٠٠-٣٠١ .  
(٢) Grand Chancelier de La Legion d'honneur .  
(٣) وزراء الدفاع لفرنسا منذ قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢ حتى العدوان الثلاثي هم على التوالي جورج بيدو (١٩٥٢) ورينيه بليغن (١٩٥٣) وبيير كونيغ (١٩٥٤) وبيير بيبوت (١٩٥٥) ثم موريس بورجيس مونوري (١٩٥٦) .  
(٤) Robinet , Louis - Gabriel : **Koenig , Un Chevalier , Editions France -** *Empire 1973* .



## الفصل الخامس

# تجربتي الأولى وزيراً للثقافة



# ١ تجربتي الأولى وزيراً للثقافة مفاجأة مؤرقة

كانت روما تتوقع في خريف عام ١٩٥٨ حدثاً فنياً فريداً هو تقديم أوبرا «بوريس جودونوف» لموسورسكى بمشاركة المغنى العالمى بوريس كريستوف الذى كان ذِكر اسمه يثير بين عُشاق الموسيقى وفنون المسرح ثورة من الشوق والفرح الغامرين . وقد كان الأمر لى مثيراً لأعمق مشاعرى ، فما أكثر ما سمعته عن هذا المغنى القدير وما أشد التوق الذى كان يستحوذ علىّ لأستمع إلى صوته بينما تُتابع عيناي أدائه الفنى الذى حقّق له أيامها شهرة فائقة وهو يقوم بهذا الدور لم يكن يتمتع بها فى هذا المجال غير القلة من أفذاذ الفنانين .

ولم يكد يحل مساء الثامن من أكتوبر ١٩٥٨ حتى كنت فى رفقة زوجتى نشغل مقعدين فى الصفوف الأولى من دار الأوبرا بروما كى لا تفوتنا لفتة أو همسة تبدو من هذا المغنى الموهوب . ومع بداية العرض الأوبرالى أحسنا وكأنما نحيا فى عالم أسطورى لم نعرفه من قبل ينبض بالجلال والرهبة . ويفيض بالألحان الأسرة والأنغام التى تنفذ إلى أعماق القلب . وانتهى الحفل فى دار الأوبرا دون أن تغيب عن أعيننا صورة من صوره ولا عن آذاننا لحن

من ألعانه وظللنا أسرى متعة فياضة حتى ونحن نتناول العشاء . وظلت الألحان تتردد في وجداننا حتى امتدت يدي إلى مفتاح جهاز الراديو لأستمع كالعادة إلى نشرة أخبار الحادية عشرة من إذاعة القاهرة ، فإذا بالخبر الأول يحمل إلينا مفاجأة مذهلة ، فقد كانت القاهرة تذيع قرار تشكيل حكومة جديدة تضم بين أعضائها اسمى وزيرا للثقافة والإرشاد القومي .

انمحت صور الحفل من فكري وخمدت ومضاته فجأة ، وشملني قلق غامر ، وشرذ ذهني إلى ما ينتظرني من عمل في القاهرة . وبرغم إيماني بالعمل الثقافى إلا أن منصب الوزير ذاته لا مفر من أن يُدخلني في غمرة المشتغلين بالسياسة ، وهم في كل بلاد العالم وليس في مصر وحدها رجال ذوو استعداد طبيعى وطباع خاصة تمليها عليهم حرفة السياسة ، وأنا على طبع مغاير . فحين انضممت إلى الضباط الأحرار كنت أحمل بين جوانحي شعورا عاما لتحرير الوطن والشعب دون تفكير في أن أزج بنفسى في غمرة السياسة . ولهذا وبعد نجاح الثورة تنازلت طواعية عن مكانى الذى عرضه عليّ جمال عبدالناصر فى مجلس قيادة الثورة لزميل كريم فاضل لأسباب ذكرتها قبل ، مبتعدا بنفسى عن تيارات السياسة واضعا نصب عيني أن أقدم لوطنى ما تسمح به إمكاناتى . وكان تعطشى إلى المعرفة يجعل الكتاب أقرب رفيق لى كما كان ولعى بالموسيقى يشدنى إلى مواطن النغم . وهكذا كانت هواياتى الفنية تستحوذ على أوقات فراغى كله فتناهى بى عن أن أشارك فى جلسات الدردشة مما خال البعض معه أن بى تباعدا أو تعاليا ، وما كان هذا حقا ، بل هى رغبة ملحة فى مطالعة كتاب جديد أو سماع لحن شجى .

مرّ فى ذهنى العديد من الخواطر والذكريات وأنا أتجول فى غرفتى غاديا رائحا بعد أن أرفنى نبأ تعيينى وزيرا فاستعصى علىّ النوم بقدر ما غاب الهدوء عن وجدانى ، وأخذت أقارن بين رضائى يوم فوجئت بتعيينى سفيرا لمصر فى روما منذ ما يُنيف عن سنة وبين البلبلة التى اعترتني لتعيينى وزيرا . ولم يكن الأمر عندى هو مقارنة بين السفارة والوزارة ، فالسفير رغم مباحج عمله فى عراقة عاصمة أوربية كروما لا يعدو أن يكون موظفا محدود الاختصاصات ضيق الدائرة التى يتحرك فيها أو التى يمتد إليها نفوذه ، فى حين يملك الوزير صلاحيات كبرى ويستطيع التأثير فى مجال ينفسح ليشمل الوطن كله .

غير أن الأمر كما أتصور كان مناخ العمل هنا وهناك ، فلقد كنت أحسّ وأنا سفير أنى بين مجموعة يسودها التواؤم والتوافق ، كلنا نعمل لهدف معين محدّد ، وكما أنا فارغ له هم الآخرون فارغون معى له ، بينما الأمر سيكون فى الوزارة كما كنت أتخيّل على العكس من هذا . إذ كان لابد للوزير من الاضطلاع بمهام أخرى تتصل بالحقل السياسى ، وما كنت أحب أن أرتاد هذا الخضمّ ، لا مجانية منى للمشاركة فى النشاط السياسى ، بل لما كنت أراه من احتوائه على شلل وتجمعات همّها ألا يزاحمها فى سلطانها أحد ، وكثيرا ما تنشأ معها المكائد والوشايات . وكان هذا مبعثا آخر لقلقى ، إذ لابد لى من حذر واسع كى أدفع عن نفسى ما قد يُحاك لى . وقد كان ما توقّعتة وقدّرتة .

وكان أن انتهيت إلى أنه لابد لى من أن أعود إلى مصر قبل مرور أربع وعشرين ساعة ومقابلة الرئيس راجيا إعفائى من شغل منصب الوزير . والحق إن جمال عبدالناصر أدرك منذ مصافحتى له كل ما أضمره وكأنما كان يقرأ أعماقى ، وأخذ يفيض فى السؤال عن أسرّتى وصحتهم وأحوالهم ليؤثّل بضع لحظات بدء مناقشة يعرف أنها ستكون طويلة وشاقة . حتى إذا انتقلنا إلى جوهر الحديث وصارحته باضطرارى إلى الاعتذار عن قبول منصب الوزير الذى لم أستشّر فى أمر إسناده إلّى ، لا تقاعسا عن عمل جاد بل تحاشيا لوقوع صدام محتمل بينى وبين الشلل والتجمعات المتسلّطة ، استمع عبدالناصر إلى حديثى مصغيا كل الإصغاء مقدّرا مشاعرى وأحاسيسى ، ثم أخذ فى إقناعى وهو يقول : إن منصبك الآن وزيرا يختلف كل الاختلاف عن منصبك الذى اعتذرت عنه مستشاراً برياسة الجمهورية . فأنت الآن فى وضع يعلو وضع بعض من لا تطمئن نفسك إليهم ، كما أنك ستشغل مكانا بعيدا عن المكان الذى يحملون فيه ، فوارتك تقع فى مبنى مستقل بقصر عابدين ، فى نفس الوقت الذى ستكثرفيه لقاءاتنا معا بل وبشكل منتظم . كما أن هذا المنصب لن يغير شيئا من أنك تستطيع فى أى لحظة أن تجد بابى مفتوحا لك أو أن تتصل بى برقم تليفونى المباشر .

وحين ذكرت له ثانية عزوفى عن المناصب التى تشوبها صراعات على السلطة والنفوذ وما يتبعها من مضیعة للوقت والجهد وأنى أنفر من الخوض فى

غمارها لأنها تستنفد طاقات مُهدرة، أجبني قائلاً: أصارحك بأني لم أدعك لشغل وظيفة شرفية، بل إنني أعرف أنك ستحمل عبئا لا يجزؤ على التصدي لحمله إلا قلة من الذين حملوا في قلوبهم وهج الثورة حتى أشعلوها. وأنت تعرف أن مصر الآن كالحقل البكر، وعلينا أن نعزق تربتها ونقلبها ونسويها ونغرس فيها بذورا جديدة لتثبت لنا أجيالا تؤمن بحقها في الحياة والحرية والمساواة، «فهذا هو العناء، وهذا هو العمل الجاد» على نحو ما ذكر فرجيل في إنبادته؛ وإنني اليوم أدعوك أن تقبل على هذا العناء وذلك العمل الجاد، وأن تُشمر عن ساعد الجد وتشاركني في عزق الأرض القاحلة وإخصابها، إن مهمتك هي تمهيد المناخ اللازم لإعادة صياغة الوجدان المصري، وأعترف أن هذه أشق المهام وأصعبها، وأن بناء آلاف المصانع أمر يهون الى جانب الإسهام في بناء الإنسان نفسه. ولو أن سفيرا يستطيع أن يؤدي ثلاثين في المائة فقط مما قمت به أنت في روما فحسبي هذا. إن لك دورا تخدم به الوطن في الداخل أهم من دورك في الخارج. وأحب أن أبوح لك بأن على بابي هذا نحواً من عشرين شخصا متطلعين إلى منصبك هذا.

فعلّلت بقولي: إذن فلتمنحه أحدهم فإنني غير راغب فيه، فضلا عن أنني لا آمن من تلك السهام الطائشة التي سوف توجه إليّ من ذوى الأغراض، فساءلني يهدوئه العميق: ومن منّا الذي يعمل آمنا من السهام المعادية؟ أولاً تذكر أننا خرجنا ليلة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ نحمل أرواحنا على أكفنا، وكل منا يضع في احتمالاته ألا يعود إلى أسرته سالما. إن عظم المسؤولية جدير بأن يثير في نفسك ما عهدته فيك من إقدام، ثم ما الذي ستفعله في وزارة الثقافة غير تحقيق أحلامك التي طالما كنت ترونها على مسامعي قبل الثورة وبعدها.

وأخذ الرئيس، يذكّرني بأنني لم أكن أغادر القاهرة في مهمة سياسية خاصة إلا وأعود بحديث مقتضب عن المهمة تاركا التفاصيل للتقرير المكتوب، بينما كنت أظن في الحديث عن النهضة الفنية في الخارج وعما شاهدت من عروض مسرحية وموسيقية وأوبرالية ومن معارض فنية تشكيلية وعن أحدث الإنشاءات الثقافية، وعن أمنيّتي في أن تتحقق مثل هذه النهضة في مصر. وهنا صارحني الرئيس بقوله: لا أخفى عليك أن كل حديث كان يدور حول تنمية الثقافة والفنون كان يجعل صورتك تتراءى في خيالي، وأذكر حديثنا قبل الثورة عن



انحصار المتعة الثقافية وبخاصة الفنون الراقية في رقعة ضيقة لا تنفسح إلا للأثرياء ، وكيف ينبغي أن تصبح الثقافة في متناول الجماهير العريضة وأن تخرج من أسوار القاهرة والإسكندرية لتبلغ القرى والنجوع ، فن بين أبناء هذه القرى الغائرة في أعماق الريف بالدلتا والصعيد يمكن أن يبرز عدد من الفنانين الذين يعكسون في إبداعهم أصالتهم الحضارية . ويدولى أن الأوان قد آن لتحقيق هذا المطمح ، وقد كنت أنتظر هذه اللحظة لأسند إليك مهمة وزير الثقافة . ولا تتصور أنني كنت أوفدك في مهام مؤقتة إلى عواصم أوروبا أوفى مهام طويلة كعملك الدبلوماسي في باريس وروما دون أن أضع في اعتباري ما تتيحه لك هذه الفرص من دراسة الأنشطة الثقافية والفنية في أهم عواصم الفنون والثقافة في العالم . وإنني أرى أنه مازالت أمامك رحلات أخرى في عواصم أخرى تضيف إلى حصيلتك في هذا المجال زادا جديدا . لكنك ستقوم بهذه الرحلات بوصفك وزيرا للثقافة ، وهو ما سيتيح لك فوائد أعظم وأنت تشيد أبنية الثقافة والفن في مصر .

وأحسست أن عبدالناصر كاد أن يُضَيَّقَ على الحصار وأن يمس أوتار قلبي ، وأن يوقظ في نفسي الأحلام والذكريات التي أخذت تلهب خواطري وتشعل في وجداني . قلقا عصيا على الخمود . .

فقلت له : أرجو أن تمنحني فرصة أعيد فيها النظر .

فقال لي مبتسما : حسببتك تريد فرصة تجرب فيها حظك في موقع وزير الثقافة . وعلى كل فليكن لك ماتريد . اخلد إلى عزلتك ليلة أوليلتين ، على أن تتذكر أن قرار رئيس الجمهورية لا يقبل التغيير السريع الذي تودّه أو الذي كنت تودّه .

وصافحني مودعا بعد ساعات أربع من النقاش الذي كان فيه بالغ الصبر ، والذي أعترف أنني كنت فيه شديد العناد والتصلب . اتجهت إلى بيت المشير عامر الذي هنأني بتعييني وزيرا للثقافة وهو يقول لي : ها أنت الآن في الموقع المناسب لتكوينك وتحقيق أمنياتك القديمة لصالح الفن والثقافة .

وحين سردت عليه موجز ما حدث بيني وبين الرئيس قال رحمه الله : إن عبد الناصر يعتمد عليك فلا تختبأ أمله فيك ، ثم إنه أوحى لك بأن تأخذ فرصة في ممارسة مسئوليات هذا المنصب الجديد ، فإذا مضت مدة وجدت أن هناك عقبات فعلية في طريق إنجازك لمشروعاتك كان من حقك ساعتها أن تطلب من الرئيس إعفاءك من المنصب الوزاري . وساعتها سيوافق الرئيس دون أن يجد في ذلك ما يغضبه عليك أو يختبأ أمله فيك ، أما الآن فلا يجوز .

وقد اعتكفت في بيتي ليلتين كما أشار على الرئيس . وفي صباح اليوم الثالث تلقيت مكالمة منه يسألني فيها عن رأيي الذي انتهيت إليه ، فأجبته قائلاً : أصارحك أنني حتى الآن لم أحس بالراحة لقبول هذا المنصب ، فقال ضاحكاً : هيا إلى مكتبك على بركة الله ولا تهتم براحة النفس هذه فأنا كفيل بتحقيقها لك . ونظرت بعدها إلى رفيق السلاح يوسف السباعي الذي كان يزورني عندها ، ولم أكد أكرر عليه قوله جمال عبد الناصر حتى انفجر ضاحكاً وقال لي بمرحه المعهود الذي كان يتسرّب إلى قلوب محدّثيه : « أسرع ياثروت ، فأنت لا تدرك مفهوم كلمة « الراحة » في لغة أهل الصعيد ، لأنها تعني أحياناً « الراحة الأبدية » ، وما أظنك ترحّب بها الآن » .

وأضحكتني هذه المزحة الساخرة التي أطلقها يوسف ، وبعد دقائق وجدتني في سيارته وهو يقودها إلى قصر عابدين ، والتفت نحوي متفرباً في وجهي الذي لا بد أنه كان لا يزال متجهّماً ، فإذا هو ينطلق في قهقهة حلوة أذهلتني ، فسألته عما يضحكه فقال لي : أقول لك ولا تغضب ؟

قلت له : إن الله حباك موهبة إسعاد الناس فلن تستطيع أن تغضب أحداً يوماً حتى لو وجدت الرغبة الصادقة في ذلك . فقال لي : معذرة ، لكنّ تحبهم وجهك بما يعبر عنه من هموم ثقيلة على صدرك جعلني أذكرك يوم كنت أذهب بابني اسماعيل لأول مرة إلى المدرسة ، فقد كان مهموماً وحزيناً وكأنه رأى في المنام أنني سأذبحه مثل سيدنا اسماعيل عليه السلام . وشاركته الضحك من كلّ قلبي معجباً بقدرته الفريدة على إمتاع عارفيه ، فإذا هو يهيمس في أذني : سوف أسجّل هذا الحدث في إحدى قصصى إن شاء الله . ولكن القدر لم يترقّب بنا واختطفته يد المنون غيلة وهو

ما يزال موفور الصحة وقد ترك في قلوبنا فراغا لانملك معه إلا أن ندعو الله صادقين  
أن يتغمده برحمته ورضوانه .

ولقد عزّلتى أن يفارقنى هذا الصديق دون أن أرتيه بكلمة فإذا لسانى يجرى  
بهذه العبارات :

« يا أوفى الأصدقاء ... الليلة تبكى مصر كما لم تبك منذ سنين

تبكى قلبا لم ينبض بغير الحب والحنان .

تبكى ابتسامة تتوارى في مواجهتها الأحران

تبكى تواضعا تستحى أمامه الكبرياء .

تبكى رسول سلام كانت تفتح له عواصم المشرق والمغرب ذراعها في ترحاب .

تبكى أديبا منحته السماء سحر الكلمة ينفذ بها إلى أعماق القلوب ، يبت فيها

الحقيقة ويؤجج فيها أنبل العواطف والأحاسيس ، تكاد تصقّق له الأيدي قبل أن  
تنفجر شفتاه .

تبكى مَلَكاً أسطوريا يسهر آلاف الناشئين في رفقة كلماته وهو يصوغ لهم

أحلامهم ويقوم أسلوهم وينضج مواهبهم ، ويؤنس وحيدهم ويغسل بالآمال

بأنسهم ، ويفرس البسمة على شفاه محزونهم .

يجد فيه الفتية نموذج البطل المثالي ، وتجد فيه الصبايا فارس أحلامهن النبيل .

بوداع يوسف يتشح الأفق في عيني بالشجن .

كان الصديق الذى يصافح نظراتى بالتفاؤل وكلماتى بالمرح ، والذى تزاملت

خطانا طوال العمر منذ شبابنا الباكر في سلاح الفرسان حتى جمعنا العمل المشترك في

حقل الثقافة .

ما اختلفت معه يوما ، وما خبا في نفسى الشوق إلى لقاءه . لكنه مضى إلى عالم

الخلود تاركاً على وجه الأرض بقعة دم تدين شرور البشر ، بطش الظلم وظلم

الإرهاب .

وتظل بقعة الدم التى تركها الشهيد على ثرى نيقوسيا جرة نارتد كالأجيال بجرح

مصر فى فقيدتها الغالى . وأظل بعد وداعك معذباً بالشوق إليك ، أستعيض عن

اللقاء بجميل الذكريات يا أوفى الأصدقاء .

\*\*\*

دخلت إلى مكتبي راضيا بما قُدر لي وقد انخسَم الصراع الذي مزقَ نفسى أياما ثلاثة ، وأخذت أوطد العزم على العمل رغم معرفتى بما قد يجابهنى من عقبات ، ورفعت سماعة التلفون لأبلغ الرئيس جمال أننى أحدثه من مكتبى بقصر عابدين ، وأحسست بدفقة الحماسة فى صوته وهويطمئننى قائلا : تأكد أننى سأوليك كل الدعم والرعاية ، فإننى واثق أنك سوف تستطيع أن تشكّل رباطا وثيقا بين حركة المشقفين وحركة الثورة لتخلق منها وحدة فعالة ، فنحن فى حاجة إلى تعاون كافة المفكرين المستنيرين فى إحداث التنمية الاجتماعية المنشودة .

واستتمهلت الرئيس شهرين أو ثلاثة أقوم خلالها بدراسة مبدئية لأوضاع الوزارة وتفرّعاتها حتى أضع تصوّرى الخاص للانطلاق الثقافى وأحدّد الخطة التى يمكن أن تحقّق هذا الهدف لأعرضها عليه بعد اكتمالها . فقال لى مشجّعا : تلك هى البداية السليمة ، فخذ الوقت الكافى للدراسة والتأمل قبل أن تصبح تصوّراتك قرارات توضع موضع التنفيذ . وبدأت أغرق نفسى فى العمل ليل نهار ، وكأنما مرّت يداً سحرية على ذاكرتى فحوت منها تحوّفاتى السابقة وتردّدى الذى صرت أندم على أنه حدث لى فى فترة كانت تمثل نقطة تحوّل بين عمليّن كلاهما له مسؤولياته الكبرى .

## نظرة استشرافية للعمل الثقافي

ما من شك في أن حكومة الثورة قد اهتمت بالثقافة منذ بداياتها الأولى فأصدرت في ٢٥ يناير ١٩٥٦ قانونا بإنشاء المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في شكل هيئة مستقلة ألحقت بمجلس الوزراء ، وأوكلت إليه تسيق جهود الهيئات الحكومية وغير الحكومية العاملة في ميادين الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية وربط هذه الجهود بعضها البعض وابتكار وسائل تشجيع العاملين في هذه الميادين والبحث عن الوسائل التي تؤدي إلى تنشئة أجيال من أهل الآداب والفنون يستشعرون الحاجة إلى إبراز الطابع القومي في الإنتاج الفكري المصري بشتى ألوانه ويعملون على التقارب في الثقافة والذوق الفني بين المواطنين مما يتيح للأمة أن تسير موحدة في طريق التقدم محتفظة بشخصيتها وطابعها الحضارى المميز. وقد عهد القانون برياسة المجلس إلى وزير التربية والتعليم ، وتطورت تبعية المجلس على مدى الأيام إلى أن صار جزءا من وزارة الثقافة . وبعد ذلك أقامت حكومة الثورة وزارة الإرشاد القومى التى حملت بين مهامها بعض الشؤون الثقافية المحدودة لاسيا في مجال الفنون . وفي عام ١٩٥٨ نشأت أول وزارة للثقافة بمصر ،

وكان هذا الإنشاء إيداناً بإقدام الحكومة المنبثقة عن الثورة على بذل جهد واع وخطط من أجل تنظيم العلاقة بين الدولة وجهود المثقفين واستثمارها في إثراء منجزاتها المادية والسياسية والاجتماعية بمنجزات ثقافية وفنية .

والحق إن وزارة الإرشاد القومي — رغم انحصار وظيفتها الأولى في الدعوة لمبادئ الثورة والتعريف ببرامجها واتجاهاتها الاجتماعية والسياسية — قد مهدت الطريق حين أضافت إلى مهامها الإعلامية والتوجيهية مهمة ثقافية فنية حملت من أجلها فيما بعد اسم « وزارة الثقافة والإرشاد القومي » في ٢٢ فبراير ١٩٥٨ ، فأنشأت مصلحة الفنون ، وإدارة للثقافة والنشر ومركزاً للفنون الشعبية وبرنامجاً إذاعياً على موجة خاصة سُمي « بالبرنامج الثاني » يهدف إلى الارتفاع بذوق الجماهير في مجالات الأدب والفن والموسيقى الرفيعة ، وكانت مدة إرساله ساعتين كل ليلة ثم امتدت إلى ثلاث ساعات . وقد كان للعالم الفنان الدكتور حسين فوزي فضل المشاركة بالجهد الأساسي الواعي في هذا العمل الطليعي الجليل .

وأودّ بادئ ذي بدء أن أسجل إيماني بأن أية إنجازات علمية أو عملية ، فكرية أو فنية لا يمكن أن تولد من فراغ وإنما هي حصيلة أفكار وآمال وجهود أجيال من المثقفين على مرّ السنين . وحين اضطلعت بعبء وزارة الثقافة للمرة الأولى [ من نوفمبر ١٩٥٨ إلى سبتمبر ١٩٦٢ ] وجدت الفرصة أمامي مواتية لكي أضيف إلى تلك الجهود الأولى جهوداً أخرى واجبة تُتمم ما فات . وكان هذا بفضل المثقفين الذين استعنت بهم والذين هيأتهم النهضة الفكرية التي بدأت مع مطالع العشرينات ، وبالاستئناس بجهود أستاذنا النابه فتحي رضوان الذي حقق وزارة الثقافة والإرشاد القومي في عهده إنجازات فنية عظيمة فيها الجِدَّة والابتكار ، وأرست أسساً للفنون على قاعدة صحيحة بالرغم من قصر المدة التي تولّى خلالها مسئوليتها الجديدة .

وما إن أخذت أمضي في مهمتي حتى تبين لي من الدراسات الأولى أنه لم يكن ثمة جهاز ثقافي قائم له تقاليده العريقة بحكم امتداد عمره الطويل عبر التاريخ إلا في مجالين اثنين هما الكتاب والآثار ، أعني دار الكتب ومصلحة الآثار . أما ما عدا ذلك فلم يكن سوى نواتين إحداهما أدبية وأخرى فنية . أما النواة الأدبية فقد غرستها وزارة التربية والتعليم بإنشائها إدارة عامة للثقافة انضمت بعدُ

بهيئاتها المختلفة إلى وزارة الثقافة ، وأما النواة الفنية فهي مصلحة الفنون التي أنشأها سلفي وقد حاطها بعنايته أديبنا المرموق يحيى حقى لترعى فنون المسرح والسينما والفنون التشكيلية ، واستحدثت من هذه المصلحة الوليدة جهازا له من المرونة والقدرة على الانطلاق والتحرر من القيود النمطية المعتادة ما يتيح له الانفساح وسط الحقول الثقافية العريضة على النحو الذى يفى بتطلعات شعبنا وحاجاته ، ولا يمكن إغفال الدور الرائد للأستاذ أحمد حمروش مدير المسرح القومى الذى أرسى له قواعد جديدة نهضت به نهضة وثابة ملحوظة . وكان هذا كله مما مهد لى أن أمضى فى أداء رسالتى عندما اضطلعت بأعباء الوزارة فوجدت بين يدي هاتين النواتين ، وكان على أن أراعاهما الرعاية الحقة وأن أطورهما حتى تصبح ثمارهما يانعة مُظلة تعم الوطن المصرى والعربى . هذا العبء الكبير كان يقتضى الوزارة حينذاك لكى تحققة وتبلغ به المدى جهداً أى جهد ، لذلك ارتبطت بالمتقنين لتفيد منهم أولا فى إدارة أعمالها الثقافية ، ثم لتربط ما بينها وبينهم حتى تهيب لهم المجال الخاص لإنتاجهم فترعاه الوزارة وتكفله .

وإذا نظرنا إلى التاريخ الذى أنشئت فيه وزارة الثقافة وهو عام ١٩٥٨ لعرفنا أنها لم تكن إلا فى طور النشوء ، بل لقد عاب هذا الطور فى رأى ارتباطها بما كان يسمى وزارة الإرشاد القومى التى تحولت فيما بعد إلى وزارة الإعلام سالخة معها دار الإذاعة وهيئة الاستعلامات ، أى أن وزارة الثقافة لم تنشأ حاملة مهامها الذاتية إلا قبل تسلمى شئونها بثمانية شهور ، وهى فترة ضئيلة لم يكن من الممكن أن تحقق أكثر مما حققته ، والذى يعتبر بكل المقاييس إنجازا قيما ملحوظا . لهذا قرّ فى وعيى أن على هذه الوزارة الوليدة أن تخلق وتنشئ فى شتى المجالات قدر استطاعتها ، واضطرت لهذا أن تتحمل عبء الإنشاء والإنتاج معا ، وهو أمر تنوء به أية قدرة مهما عظمت إن لم تستعن بالمتقنين أنفسهم لأنهم أصحاب القضية ، فإن وزارة الثقافة المنشأة حديثا قامت على أكتاف رجال نُقلوا إليها من وزارة التعليم ولم يكونوا كلهم على قدر كاف من الوعى الثقافى ، وكان لزاما عليها أن تجند أكبر عدد من المتقنين وتسلم إليهم قيادات أجهزتها الثقافية ، غير أن تلك القيادات كانت تقتضى هؤلاء المتقنين أعمالا إدارية إلى جانب أعمالهم الثقافية ، وهذان العملان معا كانا يستنفدان جهود هؤلاء المتقنين ، الأمر الذى لم يترك لهم

أحيانا فراغا كافيا يؤدون فيه أعمالهم الثقافية الخاصة، وكانت هذه منهم تضحية لها شأنها ولا معدل للوزارة عنها، فمن أولى بخدمة الثقافة من المثقفين؟ ولحسن الحظ كان جمال عبدالناصر معنيا بمسائل الثقافة، حريصا على دعم المشروعات الثقافية، مؤمنا بأن ازدهار الثقافة يؤدي في مجال الفكر ما يؤديه التصنيع الثقيل في قطاع الصناعة، شغوبا بأن يرى للقلم رسالة في شحذ وجدان الأمة لاتقل عن رسالة المدفع في حماية حدود الوطن، وفي تعانقهما معاً ما يتيح للأمة التطور والارتقاء، ولا ننسى أنه للمرة الأولى في التاريخ المصري قد أنشأ وزارة للثقافة وأخرى للبحث العلمي أثناء اضطلاح الثورة بأعبائها.

وأكاد أقول إنه لم يتحقق للإنسان حقوق ثقافية إلا مع منتصف هذا القرن الذي نعيشه، فعلى حين كان خطو الإنسان أسرع إلى الظفر بحقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية تخلف خطوه لاستكمال حقوقه الثقافية، فقد عاشت هذه الحقوق الثقافية قبل في ظل حقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلى أن أصبحت هذه الحقوق الثقافية رُكنا رابعا من أركان الحياة، حين نصّب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٦ على «أن للإنسان الحق في أن يشترك دون قيد أو شرط في الحياة الثقافية للمجتمع وأن يستمتع بالفنون، وأن يكون له نصيب في التقدم العلمي وما يؤتيه من ثمار»، وهنا اكتملت للإنسان مقوماته كلها مجتمعة، وأصبح له نصيبه في أن يثرى الحياة بثقافته وفنه على وجه أوسع.

وإذ غدت الثقافة حقاً لكل فرد، من هنا كان على الدولة أن تُمكن لكل فرد أن ينال حقه من الثقافة والفنون بالوسائل التي تراها محققة لبلوغه هذه الغاية، بعد أن تهيء له أسباب الحياة الآدمية الكريمة وتأخذ بيده من الأمية المتفشية الى مراتب التعلم. فمحال على الفرد أن يعي أى لون من ألوان الثقافة بمستوياتها الرفيعة والمتوسطة والبسيطة إلا إذا كان على حظ من التعلم يُمكنه من أن يستجيب لأية دعوة ثقافية أو فنية. ولا تزال مشكلة الأمية في مصر مشكلة تتطلب حلاً طويلاً الأمد، ولكن هذا لا يُثبّطنا عن أن نأخذ في إرساء قواعد للفن والثقافة، ونشيد عليها شيئا فشيئا، فما لا نستطيع إدراكه اليوم كاملا، فسوف ندركه تباعا مع الأيام.



وإنعاش الحياة الثقافية والفنية في الأمم الناهضة ، أصبح جزءاً لا يتجزأ من واجبات الدولة الحديثة ، بعد أن باتت جهود الموسرين وحدهم لرعاية الثقافة جهوداً محصورة لا تتسع إلا لفئة بعينها ولبيئة بذاتها ، ومن هنا كان واجب الدولة بقدراتها وإمكاناتها أن تجعل الثقافة والفن منهلاً ينهل منه الجميع ، وأن تفسح لهما السبيل لكي يزدهرا وتُهيئ لهما المناخ لكي ينتعشا ، وهو ما يقتضى أن تكون للدولة سياسة ثقافية تتفق وأحوالها ومطالبها وحاجات المجتمع ، على نحو ما لها من سياساتٍ اقتصادية وتعليمية وتربوية ، على ألا تكون رسالة الدولة تحديد مضمون الثقافة أو توجيه الإبداع في اتجاه معين ، لأن الحياة الثقافية تتطلب أولاً وقبل كل شيء حرية البحث والنقد والابتكار والتعبير وإيصال النتائج الثقافي إلى الناس .

وإذا ذهبنا بعيداً في تصوّرنا لرسالة الدولة حتى تشمل التنمية الثقافية ، فليس معنى ذلك أن تقتضي الدولة على تلقائية الأفراد ، بل على العكس ، فعلى الدولة أن تضع مواردها وقدراتها في خدمة انطلاقات الإبداع ، وأن تُشرك الجُم الغفير من الشعب في المُضى قُدمًا بالعمل الثقافي ، وحسبنا أن نرى منظمة اليونسكو تكرّس العُقد الذي بدأ منذ سنة ١٩٨٨ للتنمية الثقافية وما يتصل بها لتحقيق أهداف أربعة هي الاعتراف بالبعد الثقافي للتنمية ، واحترام الهويّات الثقافية ، وتوسيع رقعة المشاركة في الحياة الثقافية ، وإنعاش التعاون الثقافي الدولي ، وتدعو جميع الدول والمنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية والأفراد المهتمين إلى أن تشارك بنشاط في تحقيق أهداف العقد .

والسياسة الثقافية ليست محاولة من الدولة لصنع ثقافة حكومية ، وإنما هي لتشجيع ازدهار القيم والتطلعات الثقافية بكل أنواعها النافعة حتى تفرّغ الدولة لنشاطها في الميادين الأخرى .

وهذا ما كان نُصبَ عينيّ حين أُلقيت على عاتقي مسؤولية وزارة الثقافة مرّةً ثم مرّةً .. فحاولتُ أن أحقق مادار بخلدى قبل ، وماكنتُ أطمح أن أحققه بعد . وكان مما يُورّقني ويورّق غيري في بدايات الثورة ، أنا وجدنا الدولة قد خططت لسياسة قومية في شتى المجالات من إنتاج وخدمات وغيرهما ، ولكن لم تكن ثمة خطة من بين هذه الخطط لإنعاش الثقافة . غير أن الأمر لم يمكث

طويلا ، فإذا الدولة بعد أعوام قليلة لا تجاوز الستة ترى أن عليها واجبا لا يصح أن تغفلهُ نحو الثقافة ، فإذا هي تُنشئ للثقافة وزارة ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تحظى فيها مصر بوزارة للثقافة ، وكانت هذه اللقطة نتاجا للحرية التي حققتها الثورة لها بعد التخلص من الاستعمار ، فلا يخفى علينا أن الثمرة الأولى للثقافة ، تتجلى في توعية الفرد بما له من حق في الوجود والإحساس بإنسانيته إحساسا كاملا .. وهو ما يخشاه الاستعمار أنى حل .

ولقد كان أمامنا طريقان لا مناص من أن نسلكهما معاً ، أولهما قصير والآخر طويل .. ويرمى الطريق القصير إلى إمتاع المواطنين بالثمار العاجلة للثقافة التي تتنوع بين مسرحية جيدة وفيلم ممتاز ولوحة أخاذة وكتاب ممتع وبحث شيق ، إلى غير ذلك من ثمار الثقافة . أما الطريق الطويل فيقصد إلى تنشئة جيل تنضج على يديه هذه الثمار بإنشاء المعاهد الفنية لتخريج الفنانين المبدعين ، متمثلين قول فرجيل : « هكذا أيها النحل تصنع الشهد ولكن لا لنفسك ، وهكذا أيها الطير تصنع الأعشاش ولكن لا لنفسك ، وهكذا أيتها الأغنام تحملين الجزأت ولكن لا لنفسك » .... فمهمة الدولة هي استكشاف المواهب في كل حقل ورعايتها ، وتيسير السبل أمامها للخلق والإبداع ، هذا إلى إقامة المشروعات الثقافية الكبرى التي لا يقوى لها الأفراد ، والهدف دائما هو رعاية الوجدان القومي وتغذيته وتنميته توطئة لتكوين الإنسان المُنتمى المعاصر ، والمواطن المستنير البصير بمصالح نفسه ووطنه ومصلحة الإنسانية جمعاء .

وإذا كانت الإنجازات الثقافية لا تنشأ - كما سبق أن ذكرت - من فراغ ، فكذلك لا يمكن انبثاق أية سياسة ثقافية من أفكار عشوائية أو نزوات فردية عابرة ، بل لابد من أن تكون منبثقة عن مبادئ راسخة تحدّد مسارها وترعاها ، كما تحدّد أهدافها مرحلياً واستراتيجياً .



والحديث عن الثقافة اليوم تجاوز ذلك السؤال التقليدي عن ماهية الثقافة إلى أمر آخر هو « السياسة الثقافية » أو الإطار العام للعمل الثقافي ، وذلك بعد أن وجد الباحثون والمثقفون أن الوصول إلى تعريف محدّد للثقافة ليس أمراً سهلاً أو يسيراً أو متفقاً عليه تماماً ، فطرقوا المشكلة بأسلوب أكثر كياسة وذكاء من خلال « السياسة الثقافية » . بل إن منظمة اليونسكو حين دعت إلى

مناقشة من هذا القبيل لم تستطع أن تفترض أن هناك شيئا واحدا يمكن أن يُسمّى « السياسة الثقافية » ، لأن هذه السياسة الثقافية تختلف من مكان إلى آخر . وعلى أساس هذا الاختلاف تصبح هناك مناهج أو سياسات ثقافية لا سياسة ثقافية عالمية واحدة يمكن أن تُوحّد أو تُعمّم أو توضع فى قالب قابل للنقل من مكان إلى مكان أو التطبيق فى مواقع متفرقة من الدنيا . فالسياسة الثقافية ليست قالباً تُصبّ فيه الأشياء ، ولا هى كيان مادي يمكن أن يُقاس بالطول أو العرض أو العمق ، وما هى بالمادة تحكمها الأرقام والإحصاءات أو تدلّ عليها الرسوم البيانية . ومع ذلك كان علينا ونحن نضع تفاصيل الخطة التى تجسّد سياستنا الثقافية المتوائمة مع السياسة الاقتصادية والاجتماعية للدولة أن نلجأ إلى الأرقام والوسائل الرياضية ، فلم يكن من الممكن تحديد تكاليف المشروعات الثقافية دون استخدام الأرقام مع إيماننا بأن العائد منها لا يمكن تحديده رقميا بل له معايير أخرى لتقييم جدواه . فليس من المنطقي قياس نتائج عرض مسرحية ذات مستوى فنى رفيع بما تحقّقه من دخل ، ذلك أن المفروض ألا يُقبل على مشاهدة مثل هذه المسرحية إلّا عدد قليل من المثقفين ، غير أنه من المؤكد أن هذا العدد القليل سينبض بشحنة فكرية وعاطفية عميقة التأثير . إلى حد أنه يمكن أن تُسفر مشاهدتها عن تغيير جذري فى مفهوم من المفاهيم الشائعة أو فى عادة من العادات القائمة ، وقد توحى إلى من شاهدها من كُتاب ونقاد وفنانين بإبداع أعمال أخرى أبعد أثرا منها لدى الجماهير وأوسع انتشارا بين صفوفهم . كذلك ثمة صعوبة أساسية فى تحديد المستوى الثقافى سواء على الصعيد القومى أو على الصعيد العالمى ، لأن قياس الرُقّى يقتضى دائما عقد المقارنة بين ما نصل إليه وما يصل إليه سوانا فى مجال الثقافة ، وهذه المقارنة تحتاج إلى معيار ثابت نقيس به . فنحن إذا أخذنا الميزانيات المرصودة للثقافة معيارا لهذا القياس لاكتشفنا على الفور أنها لا تفى بالغرض كاملا ، فعندما نقول على سبيل المقارنة أن السويد وپولندا تخصّصان ٨٪ من الميزانية القومية للأعمال الثقافية بينما تخصّص فرنسا ٤٣٪ من ميزانيتها القومية للنشاط الثقافى نكون قد أخطأنا خطأ مرّكباً ، لأن الأرقام على هذا الوجه لا تصلح للمقارنة . فمقارنة أرقام البسط وحدها لا تدل على شيء ، فضلا عن أن مفردات رقم البسط لا تضمّ نفس الأنشطة فى هذه الدول كلها ، فبينما تشتمل فى فرنسا على جهاز الوثائق

القومية مثلا ولا تشتمل عليها في بولندا تضم الحرف الفنية في بولندا ولا تضمها في فرنسا . كذلك فإن رقم المقام متغير لأن مجمل الميزانية العامة في هذه الدول ليس واحدا . وعلى هذا النحو نكتشف أننا قد اخترنا معيارا واحدا في مظهره ، ولكنّه متغير في تفصيله بما يؤدي إلى نتائج غير دقيقة .

على أن الشيء المحقق هو أن الاتجاه العالمي قد استقر على أن السياسة الثقافية يجب أن ترتبط بالخطّة الشاملة للتنمية ، أو بمعنى آخر ينبغي أن ترتبط السياسة الثقافية بالسياسة الاقتصادية للمجتمع وبالتطور العلمي والتكنولوجي فيه ، حتى رأينا المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية يفتن بأخيرة في أغسطس ١٩٨٢ إلى هذه العلاقة الوثيقة فيؤكد على « أن الثقافة جزء أساسي من حياة كل فرد وكل جماعة ، وأن التنمية - التي ينبغي أن تتخذ من الإنسان غاية لها - تنطوي على بُعد ثقافي أساسي » .

ولقد بدأت وزارة الثقافة خطتها في عام ١٩٥٩ انطلاقا من إيمان عميق بأن دورها لا ينبغي أن يكون قاصرا على تقديم المستوى الرفيع من المتع العقلية للطبقة القادرة على التمتع بها فحسب ، بل يجب أن يكون لها دور فعال في تحقيق أكبر قدر من التكافؤ العقلاني والوجداني في آن معا . ولن يتحقق التكافؤ العقلاني إلا بأن يشيع بين فئات المجتمع بقدر الإمكان قسط متقارب من المعارف ، كما لن يتحقق التكافؤ الوجداني إلا بأن يشيع بينهم قدر مشترك من تذوق الفنون واستشفاف أسرارها . وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن نهبط بالثقافة إلى مستوى العامة والبسطاء ، وأن نقضى على مظاهر التفوق والإبداع حتى يكون كل شيء في قدرة الجماهير العريضة ، فالسياسة الثقافية ينبغي أن تكون من الحذق بحيث تدرك أنها لو فعلت ذلك لما حققت التكافؤ الثقافي بل وقفت في وجه التطور فيصبح إنسان العصر متخلفا ، فإن طبيعة الثقافة من ناحية وديمقراطيتها من ناحية أخرى تقتضيان التطور إلى الأمام ، على أن تيسر للجمهور الحصول عليها دون عناء ، وتلك مسئولية الدولة ، فهي التي تتحمل عبء تطوير الإنتاج الثقافي من ناحية وتيسيره للناس من ناحية أخرى ، فتتحقق بذلك الركيزتان اللتان تستند إليهما الثقافة ، التقدم المستمر في غير تراخ ، وتحقيق التكافؤ العقلاني والوجداني في المجتمع . وهو ما يقتضى من الدولة متابعة التفكير في صيغ جديدة مبسطة تقدّم من خلالها هذه المتع القيمة ، ويصبح من واجب الفنانين والمثقفين أن يشاركوا الدولة في

الوصول إلى صيغ ملائمة يقدمون بها ثمرات الفكر وزهور الفن على أوسع نطاق وفي أرحب دائرة . على هذا النحو تصبح الثقافة عاملا فعلا ورئيسا في تكوين السياسة الشاملة للتنمية التي ترتبط إلى حد بعيد بقدرات الناس وبتفوقهم العقلاني والعاطفي . وكلما اتسعت هذه القدرات اتسعت قدرة المجتمع على النمو الاقتصادي ، وكلما زادت درجة نمو المجتمع زادت حاجة أفرادها إلى الثقافة .. حلقة مُفرغة تدور حول نفسها في انتظام مرتب لا يخلت . وإذن فالسياسة الثقافية ينبغي أن تكون جزء لا يتجزأ من سياسة التنمية الشاملة تتأثر بها وتؤثر فيها ، كما أنها تتأثر بالتطور التكنولوجي للمجتمع وتؤثر فيه . وانطلاقا من هذا المفهوم واستلهاما لروح الثورة حاولنا حصر احتياجات مجتمعنا الثقافية وتبيين مآلدينا من إمكانات مادية وبشرية قادرة على العطاء . وهكذا وبعد دراسة مستأنية تجلّت لنا احتياجاتنا لاستكمال أجهزتنا الثقافية .

وكما قدمت فإن طبيعة الثقافة أنها كيان معنوي واسع وفسيح ، وهي كذلك كيان حساس ودقيق ، وطبيعة هذا شأنها قد ترفض الأرقام وتأبى التقيد بالاحصاءات . كذلك أقول إن حصر احتياجات الفكر العام والوجدان القومي وإرادة الجماعة ، بل حصر ذلك جميعه بالنسبة للفرد ليس من الأمور السهلة الهينة ، كما أن حصر الإمكانيات لا يقلّ عن ذلك صعوبة . ولهذا فطالما أن هذه هي العناصر الأساسية اللازمة لوضع سياسة ثقافية فسيظل وضع هذه السياسة مشكلة عسيرة الحل إذا أردنا لها إطارا صحيحا سليما . وأقول أيضا إن أية محاولة في هذا السبيل لا بُدّ أن تُحاط بكل الدراسات الممكنة . ففي هذه الساحة النفسية الشاسعة لعل أغنية أو نشيدا يكون له من السحر في توجيه المجتمع أضعاف ما لأفلام السينما والمسرحيات والكتب والمقالات ، ولعل لوحة مصوّرة واحدة تدخل سجل الخلود لتضيف إلى الذوق العام عنصرا رائدا في الإحساس بالجمال . من يحكم هذا وكيف يحكمه ؟ تلك هي مشكلة الثقافة وصعوبة وضع السياسة الثقافية .

على أنى لم أدع إيماني بضرورة التكافؤ الثقافي أن يظل حبيسا في نفسي فحسب ، بل لقد حرصت الحرص كله على أن أشرك غيري معي في الرأي . فمنذ اليوم الأول لتسلمي مهام وزارة الثقافة في خريف عام ١٩٥٨ وجدتني

ممثلًا رغبة في الاتصال بكبار المثقفين في مصر حتى لا تكون سياسة الوزارة سياسة فوقية لامشاركة فيها للأفراد . ورأيت في النهاية وبعد عدد من اللقاءات أن أنسب شكل أستطيع من خلاله التعرف على مشكلات المثقفين وأمانيتهم ، والصعوبات التي يلاقونها والحلول التي يتصورونها والوضع الأفضل الذي يمكن أن تتشكل عليه وزارة الثقافة وأهم إداراتها وأجهزتها ، وكل ما كان يشغل بال المثقفين وكل ما كان يشغل بالي أنا نفسي .. رأيت أن التعرف على هذا كله سبيله هو حشد أكبر عدد من الفنانين والكتاب والمثقفين وعشاق الثقافة والفنون والعاملين في مجالات بث الثقافة وتوزيعها ومتابعة أنشطتها في « مؤتمر عام » لم ألبث أن دعوت إليه في شهر مارس ١٩٥٩ بدار الأوبرا ، حيث تواصلت جلسات الحوار الجاد في اجتماعات عامة وأخرى متخصصة في لجان نوعية محدودة العدد . وكان من نتائج هذا المؤتمر الثقافي العام أن تكشف لنا الرؤية الثقافية على لسان جميع الفئات ، فلن يأخذ أمر طريقه إلى النهج السوى إلا إذا كانت الشورى رائده .

وفي الحق إن هذه اللقاءات قد طمأننتني إلى صدق حدسي الذي جاء عن تجربة شخصية ممتدة في تذوق ودراسة الأعمال الثقافية والفنية قضيت منها أعوامًا طالت في مصر وأخرى في أوروبا جائلا أحيانا ومستقرا أحيانا أخرى ، إذ كانت هذه التجربة قد رسخت في نفسي ألوانا من الاتجاهات أو الركائز التي أنارت أمامي السبيل التي يتعين عليّ أن أسلكها من خلال مسئوليتي بالوزارة . وما من شك في أن كل مسئول في مكانه علت به المنزلة أو دنت لابد من أن يكون له طابعه الخاص في مكانه وإلا ما استطاع أن يجيء بجديد .

وتأتي في مقدمة هذه الركائز النظرة الى المثقف نظرة إنسانية مردها إلى إيمان بأن الثقافة حافز للبشر على التضامن من أجل الارتقاء بمستوى رفاهيتهم ، وبهذا تكون الثقافة أعلى قيمة للمتعلمين وغير المتعلمين على السواء . فعلى حين يسعى المتعلم إلى إثراء ذهنه بالمعلومات يسعى المثقف إلى الارتقاء بذوقه ومداركه وفكره ووجدانه بل وإلى تحسين مستوى أدائه حتى في عمله المتخصص ، مما يكون له أثر في إحداث تغيير جوهري في المحيط الذي يعيش فيه . ومن هنا كانت قيمة الثقافة تتحدد بمدى مساهمتها

فى تغيير مجرى الحياة والردّ على تحدّيات العصر ودفع الأحداث فى اتجاه تحقيق أحلام البشرية . فليس هناك شك فى أن البشرية مدينةٌ للأجيال التى سلفت قبل من عباقرة الكتاب والفنانين على مرّ السنين الذين تركوا لنا المؤلفات الموسيقية العملاقة والتماثيل والرسوم واللوحات والعمائر والأدب الرفيع من مسرحيات وروايات وأشعار لولاها لسقطنا فى وهاد الأغاني التافهة والصور الفجّة التى تشين الذوق وقصص العنف والجنس والجريمة الهابطة .

\*\*\*

والثقافة ملتقى علوم الحياة ، فهى كالبحر تصبّ فيه أنهار المعارف جميعا ، علماً وفلسفة وفنا وأدباً ، ثم هى صورة لما يخالغ وجدان الناس ومشاعرهم وحواسهم عامة . ومن اجتمعت بين يديه مقاليد الثقافة كان عليه أن يُعطى كما أخذ ، فالثقافة الحقّة علمٌ وعملٌ معا ، ثم إن المثقف بين العلم والعمل صاحب موقف ، وله رأى يضيف إلى الوجود جديدا ، فما بحسب المرء أن يُشبع نفسه تنقيفا بل عليه أن يجعل مما حصّل وسيلته إلى تطوير نفسه أولا ، ثم إلى تطوير غيره ثانيا بما أفاد من رأى خرج به . فالمثقف عالمٌ وقائدٌ معا : أخناتون . سقراط . الكندى . الفارابى . ابن سينا . فولتير . أندريه مالرو . طه حسين . كلّهم أخذ حظه أولا من الثقافة ، ثم كان بعد هذا صاحب رأى واتجاه ، ثم غدا يحمل لواء التوجيه ، يسعى لحمل الناس على اعتناق ما يرى جاهدا فى هذا السبيل الجهد كله ، لا يعنيه ما يعترض طريقه من عقبات ومشاق . والثقافة فى هذا الضوء ليست رداء يرتديه المرء حين يشاء وينفضه عن نفسه حين يشاء ، وإنما هى منه دمه ولحمه معا . وإذا كان هذا قدّر الثقافة من الإنسان ، لذا كان هذا الصدام بينه وبين غيره دفاعا عما يدين به من رأى . وبعيدٌ على مثقف هذا العصر أن يعيش بمعزل عما يدور حوله من نضال بين فكر متخلف وفكر خلاق فيقف موقف المحايد غير المبالى . فهو لا يستطيع اليوم أن يفرّ بنفسه إلى جبل يعصمه كما فعل ابن نوح ، إنما موقف المثقف الحق من أحداث عصره أن يشارك فيها بكل ما أوتى من جهد وقوة ورأى ليدحض باطلا ويقيم حقا . عليه أن يعيش أوعى ما يكون بما يضطرب به عصره ، فيكون مع من يشرّعون للعالم ويحققون أحلامه يأخذون بأيدي أبنائه إلى النهج القويم .

لقد أصبح العالم الذى نعيش فيه وحدة واحدة لا تكاد تفصل بينها فواصل بعد أن قربت العلوم الحديثة ما بين أقصى الأرض وأدناها، وبات الناس كأنهم فى بيت واحد يظلهم سقف واحد، وأى حدث يحدث فى أى مكان وإن نأى كأنه حدث تحت أبصارنا يعيننا منه ما يعنى أهله، ويتدخل فى مصائرنا فرادى وجماعات. فالتفجير النووى لا يهددنا نحن أبناء هذا الجيل وحدنا، بل يهدد أجيالا عدة بعدنا، بل لقد يمحو بنى الإنسان ويحل محلهم خلقا آخر. والقبلة التى قد ننجو - صدفة - من شرها اليوم، قد يلقيها فى غد طيار لا عقل له ولا ضمير، لأنه دُرب على إلغاء العقل والضمير معا.

والعالم اليوم ليست آحاده على قدرة واحدة من الاستيعاب، فثمة علم وجهل، وواجب المثقف أن ينهض بمن نزلوا إلى حضيض الجهل ليرتفع بهم إلى مرتبة أعلى لها حظها الثقافى الواسع، لا يعنيه أن يكون هذا الجهل فى بيئته القريبة أو فى بيئة بعيدة، فالعالم كما قلت قبل أصبح وحدة لا تتجزأ يشارك فيها مثقفو العالم كلهم على اختلاف جنسياتهم، فواجب المثقف الآن أن يفعل فعل فرسان القرون الوسطى الذين كانوا على حظ كبير من الجود والنبل والتضحية حين كانوا يجوبون البلاد على متون جيادهم عليهم يجدون مأزوما يُفرجون عنه أو من وقع فى ضائقة فينقذونه. ومن هنا كان على المثقف أن يعيش قضايا عصره لا فكاك له منها، فهذا واجبه الأول الذى من أجله كان مثقفا.

وإذا كانت قيمة الثقافة تتحدد - كما قدمت - بمدى إسهامها فى إحداث تغيير جوهري فى البيئة المحيطة، لذا كان الفنان أو المثقف من أول المتمردين الخارجين على ما هو قائم، فهو بطبيعته رائد فى مجتمعه، سباق إلى التجديد فكراً وتعبيراً. وكما أن الحياة فى تغير مستمر، كذا الثقافة هى الأخرى تقوم على الكفاح الذى يقتضى التغيير والتجديد، أو بمعنى آخر فإن الثقافة تشتمل على عنصر حركى تحويلى، لأنها لا تصح إلا إذا كان هدفها التطوير.

وكم سُئلت هل ثمة ارتباط بين السياسة والفن أم أن كلاً منهما يعيش بمعزلٍ عن الآخر؟ وأقول إن الانعزالية قائمة إذا ما أخذنا بمذهب الفن للفن الذى يجعل القيم الجمالية للعمل الفنى منفصلة عن أية ارتباطات اجتماعية أو



سياسية أو خلقية أو غيرها ... وكانت نشأة هذا المذهب في القرن الماضي ردًا على فئة « غير المستيرين » التي أسماها ماثيو أرنولد « بالفلسطينيين الوثنين القدامى Philistines » [ انظر هامش ٤ من الفصل الأول ] ، الذين لا يبالون بالفن أو الثقافة ولا بالقيم الجمالية أو الروحية ، لاستغراقهم في جمع المال والتعلق بالماديات . على أن مذهب الفن للفن لم يعد له شأنه في عصرنا الحالي ، بعد أن زاد ارتباط الفن بالمسائل الاجتماعية والسياسية والسيكولوجية . وأما عن ارتباط الفن بالسياسة فالقول السائد - وأنا معه - أن الفنان كان على مرّ التاريخ فيلسوفًا سياسيًا ، فالفن - كما أسلفت - من مقتضياته التمرّد والعصيان والاحتجاج على ماهو قائم .. وثمة مثال من القرن الخامس ق.م عن مثّالين إغريقيين هما كريسيوس ونيسيائيز حين نحتا مجموعة النحت الشهيرة المعروفة باسم « مصرع الطاغية Tyranicedes » يخلّدان بهما الصديقين هارموديوس وأريستوجيتون بعد أن اغتالا هيباركوس طاغية أثينا ، فظلت هذه المجموعة النحتية عظةً وعبرةً أمام الملوك والحكام حتى لا يتمادوا في الصلف والاستبداد .

وإذا مضينا مع الزمن إلى خاتمة العصور الوسطى الأوربية وبشائر عصر النهضة الإيطالية خلال القرن الثالث عشر تقع أبصارنا على لوحين جداريتين من الفريسكو صوّهما الفنان أمبروزيو لورنرتي على جدران مبنى بلدية سيينا عن « الحكومة الصالحة والحكومة الفاسدة » فكانتا ولا تزالان خير مُعبرٍ أمام الأجيال عن صلاح الحكم وفساده ، تعمّقها المثقفون وقتذاك ممن كانوا يطالعون كتابات أرسطو وشيشرون وسنيكا ، واتّعظ بها من لم يعرفوا هذه الكتابات ويجهلون القراءة والكتابة ، فإذا هؤلاء وأولئك يُعون جميعا ما تنطوى عليه من عبرة سياسية .

وفي قرننا الحالي ، بين أيدينا في مُتحف پرادو بمدير لوحة « جيرنيكا » التي رسمها الفنان پابلو پيكاسو في عام ١٩٣٧ تعبيرا رمزيا صارخا ، احتجاجا على القذف الوحشي لبلدة جيرنيكا خلال الحرب الأهلية الإسبانية بقنابل طائرات ألمانيا النازية . ولماذا نذهب بعيدا ، فخلال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ طلع علينا الفنان محمود الشريف بنشيد « الله أكبر » الذي أثار الهمم بحق وألهب حماس المواطنين . ومن قبل محمود الشريف وضع الضابط الموهوب روجيه ده ليل نشيد المارسيي الذي أثار الحميّة في جيش الراين

الفرنسى عام ١٧٩٥ ، فإذا هذا النشيد يُتخذُ نشيداً للثورة الفرنسية ، ثم غدا بعدُ النشيد الوطنى الفرنسى . وكذا كانت السيمفونية السابعة التى وضعها شوستاكوفتش خلال حصار الألمان لمدينة لىنجراد فى الحرب العالمية الثانية ، والتى عبّر فيها بالنغم عن زحف الألمان على المدينة وحصارهم لها ، ثم ما كان من مواطنيه من مقاومةٍ وصمودٍ أمام ذلك الغزو .

وصفحات التاريخ حافلة ، تنطق بأن زمام الحياة فى أيدي المثقفين والمفكرين والفنانين ، إذا نهضوا نهضت بهم الحياة ، وإذا خَمَلُوا خملت بهم الحياة وعلى أى لونٍ يكون المثقف أو الفنان تكون الحياة .

\*\*\*

على أن الحياة دوما نزاعة إلى الحرية ، وذلك ما يؤكده التطور البيولوجى ، فظهور الإنسان ليس إلا حلقة وثابة فى سلسلة التطور ، على حين أن طبائع الكائنات الحيّة التى سبق وجودها وجود الإنسان هى استجابات لأسباب جسدية لاتخضع لقيم أو معنويات ، نرى الإنسان - وهو أعلى مرتبة فى مراتب التطور - يملك القدرة على الاختيار . فهو لا يخضع فى أعماله لغرائزه وحاجاته الجسدية فحسب بل يخضع كذلك لمجموعة من القيم التى ليست فى طبائع الحيوانات العجماوات . وهكذا نرى هذا التطور الذى انتهى إلى الوجود الإنسانى يرقى بالكائن الحى من حرية الى حرية أرقى حتى يبلغ أسمى الحريات فى الاختيار قيما وسلوكا . ولعل أجلى ما نراه لهذه الحرية هو ما يكون للإنسان من إبداع فيما تناوله من أعمال فنية لا قصد له فيه من ورائه إلى مغنم ، بل لتمضى الحرية دوما فى طريقها لا تتعثر . ولو أننا تتبعنا تطور الفن عبر التاريخ كما تتبعنا تطور الكائنات الحية للاحظنا أنه يمضى هو الآخر الى تحقيق مزيد من الحرية ، ولرأينا عمالقة الفنانين هم الذين كانوا أكثر من غيرهم حرية . ولقد أكّدت الحياة عظمة هؤلاء الفنانين حين أبقت لهم أعمالهم فى ذاكرة الوجود ، فإذا أعمالهم تتميز وتحمل اسم الروائع . وإذا كان الفنان هو تجسيد للحرية والإبداع فإن مهمته الأولى فى الوقت نفسه هى تأكيد حق الإنسان فى الحرية . ومن هنا القول بأن الحرية ليست حق الكتاب والفنانين والمفكرين فحسب بل هى واجبهم أيضا لأنها وظيفتهم فى المجتمع . وما أظن وزارة الثقافة قد حادت عن هذا المعنى الذى رسمته لنفسها اللهم إلا فى القليل النادر الذى لا يُعدّ ، وذلك تحت ضغوط قاهرة .

وإنه ليحضرني هنا مقولة أستاذي الجليل مؤرخ الفن رينيه وبيج في هذا الصدد إذ يقول : « إن تحليل الفن الحديث يكشف لنا عن وجود بعض القوانين التاريخية الكبرى التي تلقى الضوء على عصرنا وراء أعمال الفن التجريدي والسوريالي ، وعن الصراع الذي يقوم به الفنان أحيانا ضد هذه القوانين دون أن يعي سر صراعه ولا لونه ، والحقيقة إن عالم الشعر والفن يختلف عن عالم السياسة والعلم ، والشئ الذي يميّز بين هذين العالمين هو أن الفنانين والشعراء والكتاب يملكون قدرة الإبداع وتأكيد التقدم الإنساني عن طريق خلق أشياء جديدة ، وما يستطيع الإنسان خلق أشياء جميلة وجديدة إلا إذا كان له عقل وذوق . وإذا كان رجل العلم يشرح الأشياء الموجودة ويعمل على تطوير قدراتنا المادية فإن رجل السياسة يخطو خطوة أكثر رقيًا لأنه يقوم - بجانب دراسته للأشياء الموجودة - بدراسة الأشياء التي يُقدّر أن ستوجد وبمحاولة تعديل البناء الاجتماعي لضمان تطور المجتمع وتقدم الإنسانية ، في حين أن الشاعر لا يفكر بطريقة السياسي بل ينصت إلى صوت الغرائز الدفينة في أعماق الإنسان والتي تنزع إلى الحرية ، غير متقيّد بحاضره بل متطلّعا إلى المستقبل . والفنان كالشاعر له حدسه الصادق بالغد وإن لم يدر ما سيكون . ولهذا فإن من واجبا أن نترك رجل العلم يدرس العالم المادى والبيولوجى ، وأن نكل الى رجل السياسة تنظيم المجتمع بكل ما يملك من صفاء ومرونة ، وإزاحة ما يعترض تقدم الانسان من عقبات الأثانية والاستغلال ، وأن نترك الفنان يتنبأ كالعرّاف ويبعث برسائل يصعب أحيانا فهمها وإن حققها المستقبل الذى يولد مع انفعالات الفنان وأفكاره ، فلو أنا خنقنا انفعالات الفنان العظيمة داخل إطار الأفكار الشائعة فى عصره لضحينا بالمستقبل من أجل الحاضر ، فالمستقبل لا يزدهر إلا عبر الأبواب المفتوحة . ثم إن رؤية الفنان تختلف ورؤية غيره ، فهو لا يُملئ - كما يُملئ العالم والسياسى عن نظريات - بل يُملئ عن غريزة ، ومن هنا كان إبداعه أكثر غموضا وأقل ارتباطا بالواقع ، فشعوره وحسه هما رائداه فى إبداعه . وفى كل الأحوال يؤكد تطور الفن التصاق الفنان الدائم بالحياة المعاصرة وتعبيره عن عصره حتى حينما يأخذ موقفا معارضا له . وعلى حين يحبو الفنان العادى مسيرا عصره يكون الفنان العظيم قد سبق خطوه خطوه عصره ، فإن رهاقة حسّ

الفنان تجعله يفهم عصره الذى يعيش فيه بمجرد إيماءة صغيرة إليه . وبينما يعمل السياسى والعالم فى حقل الحاضر وبعدها للمستقبل ، إذا الشاعر يغمض عينيه عما حوله لينصت إلى صوت الحياة المتدفقة فى أعماق الإنسان . فلندع له إذن الحرية كاملة فى الإنصات والإبداع ، ولنحاول أن نصغى لهمساته ونفهم ما يجيش بصدرة .

هكذا أجمع المفكرون على أن الفنان الحق هو الفنان الحرّ ، وأن الدولة إذا ألزمت الفنان بأهداف عاجلة فإنها تكون قد ضحّت بمستقبلها فى سبيل حاضرها . وهذا ما أخذنا به أنفسنا ، فتركنا للفنانين والشعراء والأدباء الحرية لينطلقوا كيف شاءوا إلا فى القليل النادر الذى يخشى منه أن يزعزع أركان الحرية ، وبهذا استطاعوا التطلع إلى آفاق أبعد . فالفنان الحق أو المثقف الحق كلاهما فى غير حاجة إلى توجيه فكرى أو تلقين عقائدى ، فهو ابن نفسه وابن عصره يعيش فى زمانه بحسّه المرفه وبصيرته النافذة ، وكلما غاص فى أعماق مجتمعه أحسّ بالجماعية الإنسانية وانتقلت الى قلبه نبضات الآخرين . وما أشبه الفنان إذا ما ضيق عليه الخناق بمذاهب تفرض عليه بالأسد الحبس فى قفص لا تطلق له حريته ليمرح كيف شاء فإذا هو يوقظ فينا الأهبة لتفادى خطره . فإذا نال الفنان ما نال الأسد كان إبداعه أشبه ما يكون بالكلمة الواعظة قد يؤتسى بها حيناً وقد لا يؤبه لها حيناً آخر . ثم هو لا يملك أن يثير فينا نشوة ولا يحرك منا أهبة لتفادى الأخطاء

ولقد تناول هذا الجانب - وهو حرية الفنان - كاتب حرّ هو الدكتور لويس عوض وأحد أساتذة جيلنا الكبار فى مقال <sup>(٢)</sup> له إذ يقول :

« إن ما يسمى تحرير الثقافة من وصاية الدولة المقترنة بمسؤولية وزارة الثقافة عن الشفافة هو محض وهم كبير ، لأن وزارة الثقافة فى قة المركزية الناصرية لم تفرض وصاية على فنان أو أديب بل تركت أكثر الزهور تفتتح . فمن يستعرض قائمة الأساء والأعمال المسرحية التى ظهرت فى الستينيات يجد أنها تمثل كل مدارس الأدب والفن . فالكلاسيكية قد وجدت لنفسها مكانا وكذلك الرومانسية والواقعية والرمزية والوجودية والمعقول واللامعقول . كذلك وجد أكثر كتاب المسرح الموهوبين من جميع المدارس والانتماءات بعد المصالحة بين الثورة والمثقفين ، وجدوا لأنفسهم مكانا ،

لا يفرق في ذلك بين يمين ووسط ويسار. وألوان الطيف الأدبي والفنى كلها ممثلة من رشاد رشدى وعلى باكثير إلى سعد الدين وهبه وعلى سالم إلى ميخائيل رومان وأهلى الخولى، ومن عزيز أباطة إلى صلاح عبد الصبور إلى عبد الرحمن الشرفاوى.

ولقد كانت أكثر هذه المسرحيات حتى قبل هزيمة ١٩٦٧ وفى قمة المركزية الناصرية تتضمن نقدا صريحا أو مغلفا للتجربة الناصرية سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو حضاريا. ومع ذلك فقد كانت وزارة الثقافة بالذات والدولة بصفة عامة تقف منها موقف الحياد ما أمكن. ولو كانت تمارس أية وصاية متزمتة لما سمحت «بطوفان» نعمان عاشور المتكلم بصديق الفقراء، ولا «لرافير» يوسف إدريس المتكلمين باشتراكيه عبد الناصر، ولا «بشراوى» سعد الدين وهبه وهو رجل مصر المريض المشلول، ولا «بتريزى» ألفريد فرج وهو بائع الأحلام، ولا «بأوديب» على سالم المعزول عن شعبه منذ هزيمة مصر آنثذ. بل لو كانت الدولة فى ظل المركزية المطلقة وملكية الصحافة تمارس الوصاية على الفن والأدب لما استطاع نجيب محفوظ أن ينشر عبر السنوات «أولاد حارتنا» أو «السَّمان والخريف» أو «ميرامار» أو «ثرثرة فوق النيل» أو «الطريق» أو «الشحاذ» الخ. وكلها تتضمن وصفا حيا للعاهات النفسية والتشوهات الخلقية التى ملأت مصر منذ ثورة ١٩٥٢، بل لما استطاع توفيق الحكيم أن ينشر «بنك القلق».... الوصاية على الفن والأدب لا، إنما كانت الوصاية على الفكر وحده».

ثم لا ننسى أننا فى عصرنا الذى نعيشه الآن لا ازدهار لثقافة قومية إلا إذا عبرت عن فئات المجتمع المختلفة فى المدينة والقرية، فإذا أهملت فئة من تلك الفئات كانت ثقافة ينقصها الشمول، ولا قيام لهذه الثقافة الجامعة إلا إذا مكنا الكل من الارتشاف من المناهل الثقافية لا فرق بين طبقة وطبقة ولا بين فرد وفرد. فلا يمكن تصوّر إمكان قيام نهضة ثقافية قبل محاولة إزالة الحواجز القاسية والفواصل المنيعية بين طبقات المجتمع، وما أكثر الأصوات التى انطلقت تزعم أن حواجز التدوق لن تزول بسهولة لأن العوام من الناس لن يفهموا الباليه على سبيل المثال ولن يستجيبوا لروائع المسرح، وأنه ما أغنى هؤلاء بأن نقدم إليهم صورا من البهرجة الزائفة ليس لها من الثقافة العميقة

\* كما تناول هذا الموضوع أيضا أستاذ كبير له مكانته المرموقة بين قرائه من العامة والخاصة هو الدكتور فؤاد زكريا في حديث له مع مجلة الوطن الكويتية ، فقال : « إن الثقافة في عهد الثورة كانت في الواقع تشكّل جزيرة منعزلة إلى حد ما عن بقية جوانب النظام . وكان ذلك - حه أساسا إلى وجود شخصية قوية هي شخصية ثروت عكاشة . فهذا الرجل كان من ناحية و ات من أبرز الضباط الذين قاموا بدور أساسي في ثورة يوليه ، وكان من ناحية أخرى عاشقا حقيقيا للثقافة فتمكّن بفضل قوته ونفوذه من أن يلقي ظلا من الحماية والرعاية على المثقفين ويضمن لهم قدرا لا بأس به من الحرية ويحميهم من الكثير من الشائعات والوشايات التي كان من الممكن أن تلحق بهم ضررا كبيرا لولا وجوده ..... وأتصور أن هذه الشخصية لعبت دورا كبيرا في ضمان جو آمن إلى حد معقول للمثقفين ، وكذلك ضمان قدر كبير من رعاية الدولة بسلطتها وأموالها للمشروعات الثقافية ..... » .

ولا يفوتني أن أسوق ماجاء على لسان الأستاذ الكبير نجيب محفوظ في هذا الصدد في حديث له إلى مجلة « الشباب » إذ يقول : لن نجد إنسانا مخلصا إلا وقد انقسم أمام عبدالناصر ، لأن عبدالناصر زعيم وطني عظيم له إيجابيات لا تنسى ، وله أيضا سلبيات لا تنسى . إذن فأى إنسان يقف أمامه حائرا ، إذا ذكر إيجابياته يبيكي عليه ، وإذا ذكر سلبياته يتحسر ، وقد يطول لسانه بكلمتين . وأنا هنا لا أتكلم عن أعدائه لأن أعداءه عندهم من الأسباب ما يجعلهم أعداء فقد نكل بإناس كثيرين . أما نحن فلم ينكّل بنا بل على العكس فقد أغدق علينا كل مايمكن إغداقه إنسان من تكريم وأوسمة وخلافه ، وفي جزء من عهده خيل إلّي أنني أعيش في دولة عظمى لدرجة استغربت معها كيف تولد دولة عظمى بهذه السرعة ... ومن أصعب المواقف التي صادفتني في حياتي أزمة رواية « ثرثرة فوق النيل » ، فلقد بلغني أنها اعتبرت لدى السلطات وقتها تجاوزا يجب تأديبي عليه ، ولولا الدكتور ثروت عكاشة الذي كان وزيرا للثقافة أيامها ودافع عني عند عبدالناصر لكانوا قد عاقبوني فعلا .

حظ . وهذا رأى لم نأخذ به ، ولجأنا إلى التجربة على أرض الواقع . فأقمنا عروضاً خاصة للعمال قدمنا فيها على مسرح دار الأوبرا عام ١٩٦٠ فاصل الباليه من أوبرا « الأمير إيجور » لبورودين وأوبريت « الأرملة الطروب »\* المعربة لفرانز ليهار ، فإذا آثارهما فى نفوسهم لا تقل كثيراً عن آثارهما فى مرتادى الباليه والأوبرا من نخبة المثقفين ، كما أن باليه « نافورة بختشى سراى » لأصافييف لم يتلقه جمهور القاهرة بمثل الحماس والإكبار الذى تلقاه به أهالى أسوان والعمالون فى السد العالى بقصر الثقافة بأسوان فى نهاية عام ١٩٦٦ . وبنفس الحماس استقبلت فرق الرقص المتطورة فى محافظات نائية كمحافظة البحر الأحمر وندوات الأفلام التى أقيمت فى الريف للفلاحين . وعروض الصوت والضوء مثلاً وإن بدت أنها للخاصة دون العامة ، فهى قد جذبت إليها العامة قبل الخاصة ، لقد أكدت هذه التجارب وتجارب أخرى أن الفجوة بين المثقف والمواطن البسيط فى مستوى التذوق الفنى ليست بهذه الأبعاد التى يخالها البعض إذا ما تعهّدناه صادقين - فى إصرار - بالرعاية ومحاولة الارتفاع بذوقه . فالمشكلة الحقيقية التى تعترض إزالة الحواجز الثقافية فى المجتمع ليست عجز الشعب عن تذوق الفن الرفيع بقدر ما هى عجز الفن الرفيع عن مسّ القيم الشعبية وتمثيلها والتعبير عنها . وهذا يقتضينا أن نتيح الفرصة لفئات العامة لأن تشارك مشاركة جادة فى الإلمام بصور الفن الرفيع سماعاً ومشاهدة ليكون ثمة تمازج نسبي بين فئات الشعب كلها ، فكما ستفيد هذه الطبقة العامة من هذا التمازج ، كذلك سيفيد الفنانون والمثقفون المبدعون بما سيجدون من وراء هذا التمازج من مادة خصبة تفوق كل ما خطر بخيالهم . وقديما كتب الأسقف والأديب النابه بوسويه Bossuet ( ١٦٢٧ - ١٧٠٤ ) يقول : « يُنتزع المختار من بين كتل الجماهير كى يقودها كما تنبتق الأشجار رأسية من الأرض الأفقية . ويموت الفنان الذى لا تندس جذوره وسط الجماهير كما تموت الشجرة التى لا تنفّس جذورها فى أعماق الأرض . فالفنان الحق لا يحيا إلا بالجماهير ، والفنان الذى لا يعبر عن الجماهير فنان زائف .... ثم إن دور الفنان أولاً وأخيراً هو الارتقاء بالجماهير » .

من هنا كان لا معدى عن مزج بين ثقافة العاصمة وبين ثقافة الأقاليم ، تأخذ هذه من تلك ، وتأخذ تلك من هذه . غير أن ديمقراطية الثقافة لا تعنى .

---

\* هذه الأوبريت وغيرها وإن لم تُعدّ عند الغربيين من الفن الرفيع ، لكنها إلى هذا لها خاصيتها فى تهينة الأذن لتقبّل ما هو أسمى وأرقى .

الهبوط بها إلى مستوى العامة فتفقد الثقافة جوهرها وإنما تعنى الأخذ بيد العامة ليرقوا إلى مستواها . والسبيل إلى ذلك الأجهزة التى تحمل على عواتقها عبء التثقيف الجماهيرى بما تقدّمه من عروض فنية على أيدى فرق فنية مدربة لقنت فنّها فى معاهد فنية متخصصة ، يلقن عنها الجمهور ماتسّع له ثقافته وتهيئ له السبيل لينهج نهجها وليسير على دربها . وفى هذه المعاهد الفنية تنشأ القيادات ، فإذا قيادّة تأخذ عن قيادّة ، وتقوم إلى جانب هذه المعاهد فرق متخصصة . وبهذا نستطيع أن نخلق قيادات عمل لا ينقطع مددّها .

وإذا كانت الثقافة الإنسانية ليست ملّكا لشعب دون آخر ، فعلى المثقفين أن يؤمنوا بأن ثقافتهم ليست ملّكا لهم وحدهم ، بل هى ملك للجميع ، ولا يمكن أن تكون وقفاً عليهم دون غيرهم من فئات الشعب الأخرى ، وهم ليسوا إلاّ أمناء عليها وحملّة لها ، كما هم مكلفون بإيصالها إلى مواطنيهم لأن الثقافة لا تعيش - كما قدمت - إذا قُطعت عن جذورها وبقيت سجينّة بضع صفحات وبضعة سطور ، وعودة الثقافة إلى الجماهير هى فى الوقت نفسه وسيلة إلى تنميتها وازدهارها . فالريف - أنى كان - يحمل بصمات ثقافة قديمة تتمثّل فى احتفاله بكثير من آثار الرقص والتمثيل والموائد وأفراح العرس والبكائيات وأغاني الحصاد التى كانت سائدة منذ القدم . وهكذا تتم فى الريف عملية تزاوج بين ثقافة عصرين ، ويصبح الريف نقطة التقاء تتفاعل فيها الثقافة القديمة والحديثة ، والعالمية والقومية .

وكان خير ما يمهد لهذا ويؤكده ويوثقه هو إقامة القصور الثقافية بدءاً من عام ١٩٥٩ وبثّ قوافلها فى مناحى الريف البعيد . وكانت هذه هى المرة الأولى التى شهدت فيها مصر القصور الثقافية والتى أصبحت بعد شيوعها فى أنحاء الوطن كله مظهراً من المظاهر الحضارية الواضحة المعالم . بل إنى لأذهب إلى أبعد من ذلك حين أؤكد أنه لا سبيل إلى ارتقاء وجدان السواد الأعظم من الشعب إلا من خلال اجتذابه لمشاهدة الأعمال الفنية الرفيعة المستوى ، وإلا فستظل الجماهير على نفس مستواها الحالى من الأميّة الثقافية والتشكيلية والموسيقية طالما حَجَبنا الفن الراقى عنها ، وظللنا نلاحقهم بالأعمال المسفّة الغثّة التى تُشبع نهم الغرائز الدنيا وتُرضى أذواق السوق فحسب .



وإذا كان ارتباط الثقافة بعصرها لا ينفى احتواءها على قيم خالدة على مدى العصور ، فإن ارتباطها بمجتمعها لا ينفى أيضا احتواءها على قيم عالمية وإنسانية شاملة تخاطب الإنسان أئى كان ، بل الواقع أنه بقدر ما تتعمق جذور الثقافة فى تربة مجتمعنا وبقدر ما تحمل طابع هذا المجتمع ، تتأتى قدرتها على صدق تمثيل الإنسان بصفة عامة ، فالتعبير المخلص عن الإنسان فى وطن معين هو تعبير عن الإنسانية جمعاء . ويكفى دليلا على ذلك أن أعمال شكسبير التى تعبر عن وجدان الإنجليز ومشاعرهم تعدّ اليوم من أئمن مايملك العالم من تراث الشعر والمسرح . وفى تاريخ القصة لم يتمتع بالعالمية حتى الآن أدب كأدب تولستوى ودستوفسكى وتشيكوف ، وقد كانت أعمالهم جميعا روسية ضاربة فى أعماق التربة الروسية ، فإن قومية الثقافة النقية الراقية هى فى الواقع طريقها الوحيد الممهد إلى عالميتها . وأقصد بقومية الثقافة النقية أن تكون معبرة عن الخصائص الفريدة للشعب الذى تمخضت عنه ، وناقلة أئينة عن تجاربه عبر التاريخ وامتدادا لثقائه القديم ، وأن تكون ملامح الشعب منعكسة لأعلى مضمونها فقط وإنما على أشكالها أيضا وأدواتها ووسائلها فى التعبير . ولا أعنى بذلك أن نحفظ فى عصرنا بكل ما فى التراث من صور وأدوات للتعبير الفنى وأشكال فى الصياغة الفنية فهذا يتنافى وطبيعة التطور الفنى ، لأن كل ما فى الحياة من علاقات ونبض ووسائل قد تغىّر عبر القرون ، ولهذا تتغىّر أدوات التعبير الفنى والشكل الفنى ، ويصبح التمسك بتقليد التراث تقليدا أعمى أمرا متخلفا فى الأدب والفن بقدر ما يكون إهدار التراث ارتجالا وافقتارا إلى الأصالة . ومن ثم كان علينا إلى جوار استلهام روح الشعب وتراثه ولامح الوطن التى هى المنابع الثرة الزاخرة للفن ، الحرص فى الوقت نفسه على الاستفادة من تجارب الآخرين ومن التطور الذى حققوه ، مخلفين رماد موقد الأسلاف جانبا حتى لا نثقل أنفسنا به ، وحسبنا منه شعلته المتوهجة . فإن عظمة تولستوى ودستوفسكى وتشيكوف تتأتى من أنهم استلهموا أصالة الروح الروسية دون أن يتورطوا فى النقل عمن سبقهم ، واستفادوا مع ذلك من تطور الأدب الفرنسى فى زمانهم ومن تراثه النفيس . وزمرة الخمس الكبار فى الموسيقى الروسية «كوتشكا» [ بالاكريف وسيزار كويه وبورودين ورمسكى كورساكوف وموسورسكى ] لم يقفوا عند حد الألحان الشعبية وإنما استقوا من الروح الأصيلة لوطنهم واستفادوا من التقدّم الفنى والعلمى والموسيقى الذى حققه آخرون من شتى

دول العالم ، والمثال مختار في مصر لم ينسخ تماثيل المصريين القدماء وإنما استلهمها وطوّرها . وجاء من بعده فنانون آخرون استمروا في التطوير والإبداع . وفي هذا المجال أمامنا نماذج من روادنا في الثقافة والفنون من الذين حملوا لواءها منذ مطلع القرن التاسع عشر أمثال رفاة الطهطاوى ومحمد عبده ومصطفى المنفلوطى ولطفى السيد وطه حسين وتوفيق الحكيم ومحمود سعيد ويوسف كامل وراغب عياد بل وطلعت حرب<sup>(١)</sup> وغيرهم كثير ، جعلوا التراث منطلقاً لهم وأفادوا من التقدم الثقافى فى العالم بأسره . وعلى هذا تكون الثقافة القومية هى جُماع حياة شعبنا فى تاريخه الطويل وعلاقاته المتشابكة مع غيره من الشعوب فى الماضى والحاضر معا .

ولن يُكتب لثقافة رفيعة النجاح إلا إذا حرصت على أن تجنى أنضج الثمار الثقافية والفنية والتكنولوجية من هنا ومن هناك . فنحن لم نر من قبل قط ظاهرة « عالمية الفن » تتجلى بمثل ما نراه حين نشاهد عبقرية شاعر مسرحى فذ مثل شكسبير الإنجليزى تجتمع معها مواهب موسيقى عملاق مثل فردى الإيطالى ليخلق منها أوبرا مثل « عطيل » . يتضافر على العزف لها أوركسترا فرنسى يقوده مايسترو من اليابان ، ويصمّم مناظرها وثيابها فنان من إسبانيا ، ويعكف على الأدوار الغنائية الرئيسية فيها مغنون من أمريكا وألمانيا وإيطاليا ، ويقوم بالأدوار الراقصة « باليرينات » من السويد والدانمرك ، وراقصون من روسيا ، بل ومن مصر ... أجل من مصر ومن خريجي معهد الباليه بأكاديمية الفنون المصرية بالجيزة ، فيستهوى نفوس المشاهدين غربا وشرقا بنفس الشجن والانبهار . إن الإنسانية لم تشهد من قبل أبدا مثل هذه الإمكانيات لتحقيق أحلام لم تكن لتتحقق إلا فى الخيال الذى لا يعيش إلا فى وجدان الطفولة النقية ، فالجمال طليق لا يحده مكان ولا يحيط به زمان .

إن الأمم لا تغزو المستقبل إلا إذا تجاوزت الإنجازات المادية ، وكل غزو عملى فى الحاضر مقضى عليه لأن الحاضر لا مناص من أن يتوقف ذات يوم ، والدول الراسخة هى التى تدفع الحاضر إلى المستقبل ، والمستقبل لا وجود له إلا فى الثقافة ، لأنه إذا أمكن لأمة ما أن تكون عظيمة بذاتها فلن يتسنى لها أن تسمخ بين الدول العظمى - شأنها شأن الناس - إلا إذا تجاوزت قيمتها الذاتية لتجعل منها إسهما نزيها فى القيم الإنسانية وفى القيم الكلية . والقيم الثقافية هى وحدها القيم الكلية ، لأن تحديدها معناه تحديد النقطة التى عندها

تتخذ المعتقدات والأبحاث والاكتشافات التي يقوم بها الإنسان قيمة عند الجميع كما هي عند الذين أنشأوها . وليس ثم ميدان آخر غير الثقافة توجد فيه مثل هذه القيمة الكلية الشاملة، أعني المستوى الكلي العالمي ، وما أصدق الفنان روبنز حين قال : « إني أعدّ العالم كله وطني » .

إن علينا أن نحدد موقفنا من التراث العالمي ، وأن نردّ على الدعوات التي تتصاعد بين الحين والحين والتي تحذّر من الغزو الثقافي القادم من الخارج . فعلى حين ينادى البعض بضرورة الاحتراس من الوقوع ضحية عقدة الخواجا أو الإعجاب الأعمى بكل ما هو وافد ، يخزّ فريق آخر راكعين أمام أفكار غيرهم فيستوردونها استيراداً ويسعون - هم الآخرون - إلى فرضها على أنفسهم وعلى غيرهم . غير أن وجود هاتين الظاهرتين لا ينبغي أن يتخذ ذريعة لمحاربة الثقافة الإنسانية بكل ما فيها من قيم باقية ، ولا يجدر بنا أن نشجّع ما يصدر عن حسنى النية وسيئيتها على السواء من دعوة إلى الاكتفاء الذاتى فى حقل الثقافة .

وأنا من المؤمنين جدّ الإيمان بالرؤية التوفيقية للثقافة العربية فى اتصالها الدائم المثمر بالثقافات الأخرى غرباً وشرقاً وبتفاعلها معها . فما أشبه الثقافة المحلية بين الثقافات الأخرى بالنهر ، إذا فقد روافده التى تنحدر إليه من الغرب والشرق فقدّ مَعِينَهُ الذى ينضب دونه ، فلا مناص من فتح الأبواب بيننا وبين الشعوب الأخرى لتُتيح لأنفسنا الحوار الحر الطليق ، ونأخذ بالأصلح والأُنفع دون أن نستسلم ونذوب فى غيرنا فنفقد كياناتنا .

وعلىنا قبل أن تُتيح لأى لون من ألوان الثقافة الوافدة أن يقتحم علينا أدبنا وثقافتنا أن نُنعم النظر فيه لنرى مدى ما يصلح لنا منه ذوقاً وإحساساً ووجداناً وشعوراً واجتماعياً .. وما أعيا الفرد عن أن ينهض بهذا العبء الثقيل وحده ، فالدولة بإمكاناتها المادية والمعنوية أقدر على هذا منه . فهناك من الأدب الغربى ما تأباه البيئة العربية لخلاف فى الذوق والشعور .. فعلى حين تقبل البيئة العربية مأساوات شكسبير مثلاً - لأنها تتصل بنظرة عامة يشترك فيها الناس جميعاً وهى مصير الإنسان - إذا هى لا تميل إلى ملهاواته ، لأنها ليس فيها ما يشوق البيئة من غرضٍ مشترك ، بل هى تعتمد الاعتماد كله على العَرَضِ اللغوى بما فيه من توريّاتٍ تتفقُ والذوق الإنجليزى لا الذوق العربى . وعلى حين تتلقّى البيئة العربية راضية أعمال برناردشو وتشارلز ديكنز

وتولستوى وجوته وغيرهم - لما تنطوى عليه من معانٍ إنسانيةٍ مشتركة - إذا هي لا تميلُ مثلاً لأعمال ملتون لأن قراءتها تقتضينا دراسةً لاهوتيةً متعمقة . وكذا لا تميلُ بينتنا العربية لأشعار وردزورث لأنها مقصورةٌ على وصف طبيعة موطنه الخاص في شمال إنجلترا بإمكانياتها .

فالدولة أقدر على تعرّف ما يتفق وما لا يتفق من تلك الآداب مع ذوقنا العام ، بشرط ألاّ تلزم البيئة به ، فحرية إرادة المتلقى هي الضمان لانتفاع البيئة بالوافد المختار انتفاعاً باقياً لا يزول . كذلك فإن الدولة بإمكانياتها المادية والمعنوية أقدر على تعرّف ماهو رائع ، وماهو ناجح فحسب ، وماهو مبتذل ، وعلى تعرّف إلى أين ينتهى الترويح ومن أين تبدأ الثقافة . وهذا يقتضى أن نعرف على سبيل المثال الفرق من ناحية القيمة بين مأساوات سوفوكليس ويوريبيديس وبين ما اصطلاح على تسميته بأوبرا الصابون\* . وما من شك في أن أعمال سوفوكليس ويوريبيديس وشكسبير تفوق جودةً مسلسلات أوبرا الصابون ، ولكننا مع هذا نجد أنفسنا أشدَّ انجذاباً إلى هذه المسلسلات ، ومرجع هذا الانجذاب إلى فراغٍ لا تملؤه روائع ، وإنما يزدحم بنتاج يحتشدُ بمغرياتٍ تصرف الناس عن الأدب الرفيع إلى غيره مما يزخرُ بالفوايات ، كالاعتماد على الموسيقى التصويرية وعلى المناظر الخلابة وعلى الإيقاع الساحر وعلى المشاهد السافرة لجذب المشاهد بإبهارها ، على حين يخلو الأدب الرفيع من مثل هذه المؤثرات . من هنا كان جمعُ القراء أو المشاهدين على ماهو رائع من الصعوبة بمكان ، فقصص دوستويفسكى أو تولستوى مثلاً التى بلغت من الروعة مبلغها ، لا نجدُ فيها مثل هذه المغريات الجاذبة ، بل نجدُ فيها ما يُكدُّ العقل ويُنهكُ الخاطر ، بما تنطوى عليه من تأملاتٍ عميقة وفلسفةٍ ذهنية .

وثمة حَبِكَات لا تخرج عنها القصة أو الرواية أو المسرحية ، يُعدها النقّاد ما بين ست حَبِكَاتٍ إلى ستٍ وثلاثين حَبِكة ، والرائع والهابط منها يشترك في هذه الحَبِكَات .. ومن هنا كان التمييز بين ماهو رائع وماهو هابط لا يعتمد على

\* Soap - opera هي مسلسلات تُبثُّ إذاعياً أو تلفزيونياً بدأت بها الولايات المتحدة الأمريكية ، والعلّة في نسبتها إلى الصابون أن الشركات التى كانت تتفق عليها في البداية كانت شركات إنتاج صابون . وكانت هذه المسلسلات تعرض خلال الفقرات الإعلانية ، وكان أكثر ما تشتمل عليه أحداثاً أسرية ذات مضمون عاطفى أو مشجّوى - أعني ميلودرامى - وقد أخذ مضمونها يتطور على مدى الأيام ، فإذا هي تتناول موضوعات لم تكن مباحة من قبل مثل الخيانة الزوجية والطلاق والاعتصاب والإجهاض وأبناء السفاح . وأشهر ما يُعرف من هذه الحلقات التمثيلية حديثاً مسلسلات دالاس وديناستى وفالكون كريست ونوتس لاندنج .

الحبكات وإنما يعتمد على شيئين آخرين هما : أن تكون اللغة شاعرية ذات أصالة وعمق في التعبير ، ثم أن يتمثل فيما هو رائع تصوير ما ينطوى عليه مصير البشر من حياة وفناء وحُب وكُرّه ، وغير هذا من المشاعر الإنسانية ، مأساوية كانت أم ملهاوية ، في أسلوب تخيلي فلسفي يصورُ الفاجعة أو

السخرية . فالأعمال الرفيعة تعتمد أكثر ما تعتمد على الكلمة ، وهي التي تميّزها عن غيرها من الأدب الدارج . ومن هنا اختلافُ المشاهدين في الحكم على تلك الروائع حين تُقرأ أو تُشاهد ، فإن لم تصحب الكلمة المشهد في هذه الروائع ، بات القارئ أو المشاهد في حيرة من أمره . فحين يقرأ القارئ أو يُشاهد المشاهد أوديب يفتق عينيه في مسرحية « أوديب ملكا » لسوفوكليس ، أو هاملت يقتل عمه زوج أمه في مسرحية « هاملت » لشكسبير ، فإن لم تسعف الكلمة القارئ أو المشاهد في هذين الموقفين كان من المنكرين لما يقرأ أو يُشاهد ، وحين يُحسّ القارئ أو يشهد المشاهد تنكّر بنات الملك لير في مسرحية شكسبير « الملك لير » لأبيهن باستثناء كورديليا يُنكر ذلك ، ولكن سرعان ما تسعف الكلمة ، فإذا هو يعود مبرراً لما كان ، ولما قد يتوقّعه كل منا من جحود البنات والأبناء . وحين يقرأ القارئ رواية « الحرب والسلام » لتولستوى يحار : هل الرجال ذوو الشهرة لهم أثرهم في التاريخ أم الصدفة هي التي أسبغت عليهم هذا الأثر ؟ وإلى هذا الرأي الثاني يذهب تولستوى في روايته ، فيجعل البطل ليس غير أداة أمام مصير أعمى لا يديره .. أما الذي يُهون هذا التخريج كله فهو « الكلمة » التي لا شك هي مفتاح الأدب الرفيع .

ولقد كانت الكلمة هي المحور الذي يدور عليه حديث الثقافة قبل أن تدخل الأمة العربية إلى ميادين الحضارة المختلفة . وحين كان للأمة العربية نصيبها من تلك الحضارات المختلفة أصبحت الثقافة والفن شريكين ، وغدت البيئة العربية لا تُعنى بالكلمة فحسب بل تُعنى أيضا بما انضم إليها من فنون . غير أنه لاتزال للكلمة حظها الأوفر في البيئة العربية ، إذ بلاغة القول هي التي لاتزال تشوق النفوس وتجذبها إليها ... وما عُقدت الأسواق قديما إلا للمباراة في الكلمة .. أيتها أجود وأيتها أبلغ ... وهل تلك المعلقات التي اختيرت وخُصّت بها الكعبة لتعلق عليها تشريفاً لها ، هل كان هذا إلا لمقام

الكلمة فى الأسماع ؟ وما تحدّى القرآن الكريم العربَ إلا بالكلمة السماوية ،  
فقد تحدّاهم بأن يأتوا بمثله ، أو بسورةٍ منه ... أو بكلمةٍ .

\*\*\*

وثمة مصاعب فى الموازنة بين الثقافتين العالمية والمحلية وأثرُ كلٍّ منهما  
فى الأخرى إنماءً لامحاكاةً .. ولن يتحقق هذا إلا بإنماء الملكات المحلية مع  
تطعيمها بما هو سوى مستتير من النتائج الحضارى الوافد . وهنا نتساءل مثلاً :  
هل نأخذ فن الأوبرا كما هو ، أم نأخذ الهيكل الأوبرالى على أن نُضَمِّنَه  
موضوعاً شرقياً وموسيقى شرقية ، كما كانت الحال فى فن الرواية ؟ فلم ننقلها  
كما هى بل حاكينا صيغتها ، وكان مظهر هذا فيما فعله محمد المويلحى فى  
مطلع هذا القرن فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » وهو استيحاءٌ من أدب  
الرواية الأوربى على صورة عربية .. ومن قبل المويلحى ، بل ومن قبل  
التاريخ المدوّن كانت البيئة العربية تملأ فراغها الواسع بما تجود به القرائح  
من تخيلات كثيرة ، تصوغها على ألوانٍ مختلفةٍ أشبه ما تكون بالأحدثة -  
أعنى الحدثة - ثم تطوّرت شيئاً فشيئاً وأخذت مظاهر أخرى ، كما كانت  
الحال فى « السّير » التى تناولت تاريخ الملوك والعظماء ، وأقدم ما وصل إلينا  
فى هذا النوع سيرة تبع الحميرى ملك اليمن التى صاغها نظماً الشاعر  
المعروف يزيد بن مفرغ فى عهد معاوية ، ثم تتالى أسلوب السّير النثرية على  
مرّ السنين ، وكان من أقدم ما وصل إلينا منها سيرة أحمد بن طوّلون للمؤلف  
المعروف ابن الداية . كذلك أخذ فن الأحداثة شكلاً آخر فى مقامات بديع  
الزمان الهمدانى والحريرى ، ثم جاء على نهج آخر على لسان الجاحظ حين  
اختار أحاديث البخلاء مادته فى القصص وصنّف فى هذا الموضوع كتابه  
المعروف « البخلاء » ، إلى أن استوحى كُتّاب قصص « ألف ليلة وليلة »  
الشعبية المتنوعة - الذين ماتزال أسماؤهم مجهولة إلى اليوم - مادتهم من  
« أحداثات » قديمة البسوها ثوباً فضفاضاً من الخيال الواسع فيه المغامرات  
التي تشوق القارىء ، وما نستطيع أن نقول إن هذا كلّهُ كانت له صورة الرواية  
فى عصرنا الحاضر مساقاً وأسلوباً وأخذاً وردّاً . فحين انفتح الباب بيننا وبين  
الأدب الغربى كانت لنا خطوة واسعة جريئة خرجنا بها من القصة فى ثوبها  
القديم الى ثوب جديد يتفق شكلاً مع الرواية الغربية ، ولكنه يختلف عنها  
مضموناً وتصويراً . وإذا نحن بهذا التطور نبغ فى فن الرواية مبلغ الغرب

فيها، وحسبنا جائزة نوبل العالمية للأدب التي مُنحت مؤخرا للروائي العربي الكبير نجيب محفوظ .

وكما لم تكن للرواية بُنيته الحديثة في الأدب العربي القديم ، كذلك لم تكن المأساة والملهات لهما هما الآخران بُنيتهما .. وكذا فن النقد الأدبي ، وإن كان العرب قد شاركوا فيه مُستملين من نظرة لهم خاصة ، فلقد بدأ النقد عند العرب مقصورا على بنية اللفظ ومعناه لا يعدو هذا الى الأسلوب العام ، لأن الحياة عندها لم يكن لها شغلٌ شاغلٌ غير اللغة . وكُلنا لا ينفك يذكر ذلك المثل الطريف في النقد الأدبي الذي جرى بين الخنساء وحسان بن ثابت حين نقدت له بيتا من الشعر في سوق عكاظ ، وهو قوله :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعن في الضحى . . . وأسيافنا يَقْطُرْنَ من نجدة دما فلننظر ماذا كان من نقد الخنساء لحسان :

قالت : قُلْتُ الجَفَنَاتُ وهو جمع قَلَّة ، ولو قلت : الجَفَنَانِ كَتَّ أبلغ ، لأنه جمع كثرة . وقلت : الغُرُّ ، والغُرَّةُ بياض صغير في الجبهة ، ولو قلت : البياض كان أعم .. وقلت يلمعن ، واللمعان ظهور الضوء ثم خفته سريعا ، ولو قلت : يبرقن كان أجود ، إذ البرق يمتد طويلا .

وقلت في الضحى ، والضحي ليس موعد نزول الضيف .  
وقلت أسيافنا وهو جمع قَلَّة ، ولو قلت : سيوفنا كان أبلغ .  
وقلت : يَقْطُرْنَ ، والقطر قطرة بعد قطرة ، ولو قلت : يَسِيلْنَ كان أبلغ .... » .

وتلك صورة تجلو لنا في وضوح كيف كان النقد عند العرب قديما ، فهو كما قلت لا يعدو الميدان اللغوي بتتبع اللفظ بنية ومعنى .. ثم مالبت هذه النظرة النقدية أن اتسعت فشملت ملامح نحوية وأخرى صرفية وكذا عروضية ثم بلاغية ، تمخضت هذه كلها عن علمي النحو والصرف وعلم العروض ثم علوم البلاغة . وما إن أهل هذا القرن الذي يُظَلُّنا حتى اتسعت من جديد هذه النظرة النقدية لملامح غربية ، فأخذت بالمذهب الكلاسيكي والمذهب الرومانسي والرمزي والواقعي ، وكذا تأثرت بالعروض الغربي شيئا ، وكان من نتاج هذا الشعر الحديث .

وعلى الرغم من أن العرب قد اتصلوا بالفكر الفلسفي اليوناني عن طريق فيثاغوراس وأفلاطون وسقراط وأرسطو على أيدي الفارابي والكندي والرازي وابن سينا وابن رشد وغيرهم .. إلا أن الغريب أن الأدب اليوناني لم يُطعم

الأدب العربي من قُرب أو من بُعد ، لأنه كان ثمة أدبٌ عربي محلي له شأنه في البيئة العربية يَشْغُلُ على العرب أذهانهم ونفوسهم حرباً وسلماً .. فالذى نجده في الشعر اليوناني من بطولات كالذى تحدّثنا عنه ملحمنا الإلياذة والأوديسيا نجد مثله عند العرب ، فما كان أكثر الشعر البطولي والحماسي في الجاهلية ، ثم ما كان أكثر الشعراء الفرسان وعلى رأسهم عنترة بن شدّاد ، الذي يُعدُّ أول من دافع عن حقوق العبيد في الجزيرة العربية ، وسيرته تكادُ تناظرُ سيرة أخيل وأجاكس وأوديسيوس وهكتور ، أبطال هوميروس شجاعةً وفتوةً ودهاءً ونجدة .

وقد يُعزى هذا إلى أن الترجمة عن اليونان حينذاك لم تُعن بالكتب الأدبية وإنما عُنيّت بالمناحي العامة التي يُعنى بها البشر جميعاً ، والتي كانت تحملُ جديداً كالفلسفة والفلك والطب والجغرافيا وغيرها ... فهذه سرعان ما يتلقّفها الناس في أيّة بيئة كانت . وإذا كانت البيئة العربية قديماً ، حين كانت تأخذ من الحضارة اليونانية ، كانت تأخذ ما كانت تُسيّغه وما تتسع له حضارتها وما تُفيدُ منه ، فإن حضارتنا اليوم غير حضارة البيئة العربية بالأمس ، فنحن اليوم أكثر استساغةً للأدب اليوناني والأوربي ، ثم أكثر أخذاً وإعطاءً . وما تتسعُ له العقولُ اليوم غير ما كانت تتسعُ له العقول بالأمس .

\*\*\*

ولنا أن نتساءل كيف نجتمع بين الأصالة والتجديد ، أو بين ماهو محليّ وماهو وافد ؟ فالثقافات قد تختلف غير أن نهج الحياة يفرض عليها جميعاً وحدةً جامعة ، فكيف السبيل إلى أن نحذّر التضحية بهذا الاختلاف الثقافي أمام تلك الوحدة الجامعة في نهج الحياة ، واعين بأن الثقافة وإن كانت إرثاً يُحاكى ويُستملَى فهي أيضاً ابتكارٌ وإبداعٌ ونظرةٌ إلى المستقبل .

لقد استطعنا هذا في يسر ، ف « الملهة » التي هي من أدب الغرب خاصةً ، تمثّلها الفنان نجيب الريحاني ورفيقه بديع خيرى فألبساها ثوباً مصرياً بعد أن ألما بأدب مارسيل پانيول وغيره ، فإذا هما يقدّمان ملهةً وملهةً .. تنفذ الى القلوب العربية وتستهوئها وتطبعُ البسمات على الشفاة ولم يكن في عملهما ما يشيرُ شبهةً غزو ولا استغراء ، وإنما كان إضافةً جديدةً تنطوى على إبداع محلي .



والفن عامة لغة إنسانية منذ دب الإنسان على وجه الأرض ، وقد اختصت الطبيعة كل بيئة بخصائص مميزة تعبيراً ومظهراً ومذاقاً ، والتعبير هو الصفة الأولى للبيئة ، ومن هنا كان لابد أن تجمع بين اللون البيئي الخاص والطابع الشامل العام ، فإذا ما تنوع التعبير أثرى الفن .. وهذا التنوع التعبيري هو ثمرة من ثمرات الحضارة التي جمعت بين البيئات المختلفة بما جاءت به من وسائل اتصال لاحصر لها ، فإذا الناس جميعاً على وجه الأرض شبه وحدة ، وبات الإنسان يسمع لأخيه الإنسان ويرى ما يفعل مهما نأى به المكان وإن كان على سطح جرم سماوى ، يتخير من هذا كله ما يروق له ويستمتع ، ويرفض ما سواه .

ولنضرب لهذا مثلاً من فن التصوير ، فعلى الرغم من ضيق مجال الإيهام بالعمق أمام المصور المسلم قديماً - عربياً كان أم فارسياً أم تركيا - فيما أبدع من تصاوير المنمنمات التى ترقن المخطوطات ، لاقتصره على استخدام البُعدين الأفقى والرأسى فحسب ، ولافتقاره إلى إمكانيات التأثير بالظلال والمنظور والتجسيم ، فقد وُفق فى التعبير عما يريد بوسائل بديلة .. فمثلاً كان يوحى فى صوره بالتراجع فى الفراغ عن طريق وضع الأشياء البعيدة أعلى الصورة والأشياء القريبة أدناها .. ووراء هذا النوع من التشكيل الفنى يكمن الخيال الشرقى العريق الذى ينظر الى مشكلة التصوير نظرة تختلف عن النظرة الأوربية ، إذ تضع العقلية الشرقية فى اعتبارها دائماً ما يستهوى المشاهد ، فيحاول المصور إرضاءه بأن يسوق العجائب والغرائب والمعجزات التى تبدو خارقة فى نظر العقلية الأوربية المدققة فى احترامها لقوانين الطبيعة ، فيظهر المصور المسلم مشاهد الليل فى حين لا يسود الصورة ظلام دامس ، ويدفع النجوم الى التالى فى مشهد حافل بضوء النهار .

وإذا كان العلم الحديث يطالعا بجديد يُصحح أوضاعاً أولى ، ترى هل نقف جامدين أمام مايقول به العلم الحديث ونبقى على ماكنّا عليه تشبثاً به ، أم نجارى العلم الحديث فيما أخذ فيه من تطور ، يمضى بنا إلى آفاق واسعة فى مجال الفن التشكيلي ، على شريطة ألا يمس ما نأخذ جوهر ماعدنا ويصيبه فى الصميم ، فإذا نحن قد فقدنا ماضينا بجملته وانغمسنا فى حاضر بجملته ، ونكون بهذا قد انتزعنا من بيئتنا العربية بوجدانها وأحاسيسها ، وأصبحنا أمة أخرى لاتعرف لها ماضياً كما لاتعرف لها حاضراً .

فثمة نظريات أوربية فى الفن التشكىلى لها شأنها ولها قيمتها منذ عصر النهضة الأوربية ، وما نظننا ونحن آخذون فى الانتفاع بما حولنا مما لا يضيرنا فى شىء لانتلفت لمثل هذه النظريات .. فثمة نظرية لأوتشيللو تُعرّف بقواعد المنظور والتضاؤل النسبى ، وثمة نظرية ثانية لجوتو ومازاتشيو تكشف لنا عن إثارة الحسّ اللمسى للمشاهد ، فإذا هو يُحسُّ وكأنه يلمسُ بيديه الشكل المصوّر ، وثمة نظرية ثالثة لهولايولو تتناول تمثيل الحركة ، وثمة نظرية رابعة لليوناردو تبيّن لنا تقنية السفوماتو [ أعنى الضبابية الموحية بالغور ] ، وثمة نظرية خامسة لبوتشيللى تُبرز القيم التى تبث الحياة فى الصورة مع إغفال محاكاة الواقع ، وثمة نظرية سادسة لكاراچيو ورمبرانت تفتح لنا السبيل أمام استخدام تقنية الكياروسكورو [ أعنى تقنية الضوء والظل أو الإشراق والعتمّة ] . ثم جاء العلم المعاصر ليضيف أبعاداً جديدة تكشف للفنان آفاقاً أخرى للتعبير وتثري رؤيته ، فثمة نظرية للعالم النفسانى زيجموند فرويد ، تكشف لنا عمّا وراء الواقع من أحلام وكوابيس وعُقِد نفسية ، مهّد الطريق أمام المذهبين التعبيرى والسوريالى كى يضيفا للصورة بُعداً خيالياً لم يكن معهوداً من قبل . حتى إذا طلع علينا براك بأخيرة بنظريته التحليلية والتركيبية كشف لنا عن أن بلوغ الكمال فى الفن لا يقوم على انفساح اللوحة بغير حدود ، وإنما على اختصار عناصر اللوحة داخل حدود بيّنة نستطيع سبر أغوارها وتبيين خباياها ، كما فُجّر فيما يوجز من رسوم سلسلة من العلاقات والتوافقات المستحدثة بتحليل الأجسام إلى خلايا وذرات ثم بإعادة تركيبها من جديد .

هذه النظريات قد أضافت إلى علمنا جديدا لا يضير تراثنا فى شىء بل يضيف إليه ما ينفع ، وما نظننا نفعل هذا كله ونلتزم بالقواعد التى استنها السلف من فنانينا خلال العصور التى عايشت حضارتنا الإسلامية ..

وما أحسبنى أباعد عن الموضوع ، إذا تطرّقت إلى الموسيقى ، فالموسيقى فن من الفنون ، وما دما نتناول الفنون جُملة فلا يصح أن نغفل فرعاً منها . فالموسيقى شرقاً وغرباً كما نعلم ليست غير صوتٍ أو تردد سمعى يبنى على أسس رياضية بحتة . والعلاقة التى بين الأصوات المتتالية هى علاقة رقمية ، وما نراه من تغاير فيها مرجعه إلى الإلهام والدراسة والتدريب وميراث الفولكلور لوفّق البيئة ، ثم إن العلاقات بين النسب الرياضية هى مصدر

الإبداع الموسيقى بما نُحسُّ فيه من ميلودية وإيقاع وصنعة في البناء الموسيقى . وأهم ما يميّز الملامح القومية للموسيقى هو الفولكلور النغمي ، وهو ما يتوارثه جيل بعد جيل في كل بيئة ، ولهذا أثره في الإيقاعات التي هي الأخرى من مُتوارث الأجيال ، فإذا هذا كله تاريخ سمعي يختلف من شعب إلى آخر . كذلك الآلات الموسيقية تكاد تكون واحدة على مرّ العصور وفي كل البيئات ، فالآلات الفرعونية واليونانية قديما لا تختلف كثيرا عن الآلات الموسيقية في عصرنا الحاضر ، سواءً أكانت آلات وترية أو إيقاعية أو نفخية ، وما طرأ عليها الآن ليس غير تطوير علمي أدخل عليها مزيدا من الإمكانيات أدت إلى حُسن الأداء وجودة الصوت ، كما أفسحت للفنان الانطلاق إلى آفاق لم تكن متاحة له قبل .

ولقد أخذ العرب عن الفُرس فنّ الموسيقى واستخدموا لذلك آلات دخلت عليهم أيضا من الفرس ، وتطوّرت هذه الآلات شيئا على يدى ابراهيم الموصلي ، ثم على يدى ابنه اسحق خلال القرن الثالث الهجرى . وعلى أيديهما أيضا بدأ تدوين الموسيقى قبل أن يعرفه الغرب بمائة عام على يدى القديس أودو وجويدو دارتزو . وانتقل هذا كله إلى الأندلس فأثرى الموسيقى الأوربية وأسهم في تطوير الأداء بالعود العربى الذى مالبث أن أصبح أوريبا ، كما غدا أساسا لآلات أوربية أخرى هامة ، وكذا نقلت الحروب الصليبية الى أوربا خلال القرن الثانى عشر عدداً كبيراً من الآلات الموسيقية العربية ، منها الآلات النحاسية التى استخدمت بعدُ فى الحروب لإثارة حماسة الجند ، والتى نشهد بعضها فى منمنمات مخطوطة مقامات الحريري للفنان الواسطى . كما أن القوالب الموسيقية الغربية اندمجت مع نظيراتها فى الأندلس ، ونتج عن هذا أسلوب جديد للأداء ليس بين الشرق والغرب فيه ثمة خلاف إلا فى الطابع واللامح القومية . وإذا الآلات الموسيقية العربية تأخذ أشكالاً أخرى حين انتقلت إلى أوربا ، فإذا الرّبابة تتحوّل إلى الفيولينه ، وإذا العود يفرض نفسه كما هو إلى أن لحقه التطوير ، وإذا آلة القانون العربية تصبح آلة الزمبالوم .

وكما أخذت أوربا عن العرب أيام كان الفن الموسيقى العربى أعلى مرتبة من الفن الموسيقى الغربى ، إذا الكُرّة تعود ، فبدأ الشرق يأخذ عن الغرب حين بلغ الغرب فى الفن الموسيقى شأواً ملحوظاً فى آلاته الموسيقية وفى

علوم التأليف الموسيقى .. ولكن هذا الأخذ مُحالٌ أن يُباعد بيننا وبين أن نُضمّن هذا المأخوذ مضمونا شرقيا بحيث لاتطغى الموسيقى الأوربية بكلياتها على الموسيقى العربية الكلاسيكية التى كُتب لها البقاء ، والتى تتجلى فى الموشحات والسماعيات والبشارف وما إليها من قوالب رصينة . وعلى هذا النحو مزج موسيقيون عرب بين الفولكلور العربى وعلم الموسيقى الغربى ، وخرجوا علينا بتجربة جديدة يستسيغها الذوقان معا ، الشرقى والغربى . فإذا نحن جَمَدْنَا عن مواكبة رُكْب الحضارة ، نقفُ بموسيقانا عند درجة لا نعدوها والشعوب عامة لم تَجْمُدْ بتراتها وإلا وقفت عجلة الحياة . وهذا الغرب الذى نأخذ عنه اليوم قد أخذ عنا قبلُ ، ثم ما يزال يأخذ عن غيره بما يُجددُ موسيقاه ، فإذا هو يقتطف عن أمم مختلفة من هنا ومن هناك ما يراه مُثْرِيّاً لموسيقاه حين لم يجد بين يديه وسائل مُسَعِفَةً للنهوض بموسيقاه ، وإذا هو يجنح أيضا إلى « الإكزوتية » [ أعنى الأخذ عَمَّا هو ناءٍ غريبٍ مجلوب ] ، فنرى الموسيقى بوتشيني الإيطالى يؤلف أوبرا « مدام بترفلاي » مستوحيا ملامح موسيقية يابانية ، ونرى بورودين الروسى يستوحى ألحان أواسط آسيا فى أوبراه « الأمير إيجور » ، ونرى رمسكى كورساكوف الروسى يستوحى ألحانا عربية فى « متابعة شهرزاد » ، كما نرى كامى سان صانص الفرنسى يستوحى فى الحركة الثانية المتهادية من كونشيرتو البيانو الخامس ألحانا تمتد جذورها إلى صعيد مصر .. ويؤكد هذا الرأى ما نزال نسمعه الى اليوم من ألحان مماثلة تجرى على ألسنة أهل الصعيد والنوبة ، فلقد كانت لسان صانص رحلة الى صعيد مصر ، يقضى وقته خلالها فى ذهبية على النيل ، وكان لاشك يستمع الى مايدور حوله من ألحان ملأ صداها أذنيه ، وكانت منها هذه الجمل الموسيقية ، وهو ما يؤيد أن ألحاننا العربية لها نصيبها هى الأخرى فى الموسيقى العالمية .

وفى مطلع عَقْدنا الحالى طالعنا الموسيقى الإنجليزى لويس كلارك بسلسلة أعماله المعروفة باسم « إدمان الألحان الخالدة Hooked on Classics » ضَمّت كل حلقة منها أشهر الألحان الكلاسيكية السالفة بعد أن أضاف إليها إيقاع الهوب Pop الحديث لتقريبها إلى وجدان الشباب ، فإذا الناس جميعا يُقبلون عليها إقبالاَ يهولُ ولاسيما النشء ، وإذا هم جميعا يأخذون فى تذوّق الموسيقى الكلاسيكية بعد أن كانوا فى غيبةٍ عنها ولا يتذوّقون غير موسيقى

الرقص والطرب ، فجزّ هذا بعضهم إلى رجعة نحو تراثهم الموسيقي السالف ، وبهذا أحيا هذا الفنان بعمله ذاك فى نفوس فئات جديدة حُبّ الموسيقى الكلاسيكية ، وكما فعل كلارك هذه ، فعل أخرى فأثرى موسيقى البوب نفسها بما ضمه إليها من إمكانيات العلوم الموسيقية الحديثة وإمكانيات الأداء الأوركسترالى السيمفونى ، وجاء من بعده الكثيرون ممن قلّدوه وإذا التراث الموسيقى الغربى على أيدي هؤلاء جميعا يُكتب له الانتشار والازدهار .

ثم لا ننسى أن الموسيقى - غربية كانت أم شرقية - تجمع بينها قوالب مشتركة ، وليست ثمة تفرقة إلا فى استخدام كل منها لمقامات لها أبعادها الموسيقية الخاصة بها ، هذا إلى أن لكل بيئة إيقاعاتها الخاصة . ومن هنا اختلط على الناس أن يفرّقوا مثلاً بين لحن الحركة الثالثة المينيوتو السريع من سيمفونية موتسارت الأربعين وبين لحن الموشح الأندلسى « لما بدا يتثنى » ، فمنهم من يعزو هذا الى توارد الخواطر هنا وهناك ، على الرغم مما يفصل بينهما من اختلافات الزمان والمكان ، ومنهم من يرى أن موتسارت قد أخذ عن الموشح الأندلسى لتأخره زمناً ، على نحو ماذهب بعض المستشرقين الى أن دانتى فى كتابه « الكوميديا الإلهية » قد تأثر بقصة المعراج وبرسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، كما أفاد من إشارات محبى الدين بن عربى فى وصفه للآخرة فاستوحاها جميعاً فنياً فى قصيدته ، على حين يذهب البعض الآخر الى أن هذا وذاك كان من توارد الخواطر . وما أجدرنا ونحن نستمع إلى موشح لما بدا يتثنى وإلى لحن موتسارت ، وكذا ونحن نطالع قصة المعراج وفردوس دانتى وجحيمه ، أن نكون كعاشق الزهرة نتنسم عبقها دون أن نشق على أنفسنا فى معرفة المصدر الذى استقت منه كل هذا الأريج .

إن عجلة الحياة تدور وليست هناك قوة تستطيع أن تقف حجر عثرة فى سبيل دورانها ، وكل ما تملك الدولة فى اختياراتها أن تصحّ مسار تلك العجلة حتى لا تُفاجأ بما يُفسد علينا بيئتنا ويبدّل من ثقافتنا .. وأما ما يثار من جدل حول رفض ما يفد إلينا من ثقافات نافعة فهو لاشك جدل لا طائل وراءه .

\*\*\*

كذلك لا يعنى تطوير العمل الثقافى فصم الروابط بالماضى ، فالإنسان تاريخ متصل ، وقيم المستقبل هى الثمار الجديدة على نفس الشجرة التى طرحت الثمار القديمة .. ولن يكون ثمة عمل أدبى أو فنى له قيمته إلا إذا كان

موصولا بماضيه ، فإذا انبتَّ عن ماضيه فَقَدْ روعته وتحوَّل إلى شكل أجوف برآق المظهر خاوى الباطن . لذلك فإن بناء العمل الثقافى على أساس من التراث هو فى الواقع إقامة له على أسس إنسانية عريقة وقيم ثقافية حيَّة ورصينة ، ولا يمكن أن نتصور عملا فنيا أو أدبيا يتضمن مثل هذه القيم إذا كان منبت الصلة بتراث الماضى وقيمه التى خلفها لنا ، ولا يجوز أن نضحى بالتراث القومى بحجة التطور أو نجمد بدعوى الحفاظ على التراث ، وإنما نقتحم مجالا يجمع بين التراث والتطور . فلقد أثبتت التجارب الإنسانية المعاصرة أن ثمة منهجا وسطا يجمع بين الاهتمام بالقديم والجديد بصورة لاتناقض فيها ولا اضطراب . ولعل أبرز هذه التجارب ما أقدم عليه اليابانيون خلال المائة عام الأخيرة من تطوير فنونهم كلها مستعينين بالأساليب العلمية الجديدة فى صياغة فنونهم التقليدية دون أن تفقد هذه الفنون ما فيها من طابع قديم ، فأبدعوا روائع جديدة ذات طابع متفرد ينطوى على روح اليابان الأصيلة ولا يفتقد الأساليب الحديثة . كما تألقت من بين تجارب دول كثيرة فى أمريكا اللاتينية محاولة المكسيك التى استوحت القديم فى فنونها استيحاء ذكيا رائعا ، فطوّرت الأزياء القديمة والألوان والألحان ، وجددت الأساطير والأعياد ، فباتت تحيا حياتها المعاصرة بروح تاريخها الحضارى القديم . فكما نقسّم الزمن أطواراً علينا أن ندع الحاضر يعانق الماضى بالذكرى ويطوّق الغد بالحنين . وقد كان ذلك هو المسار الذى اتخذته حركة النهضة الأوربية خلال القرن الخامس عشر التى عكفت على دراسة الحضارة اليونانية واستلهاها ، فأعادت الحياة إلى آلهة الإغريق الوثنيين ، ولكنها نزعّت عنهم صفة الألوهية . ولقد قرأنا كيف كان المثال الإغريقى الشهير پراكستيلس الذى عاش فى القرن الثالث ق . م يصوغ تماثيل عدّة لأفروديتى بوصفها ربّة الجمال التى كان عميق الإيمان بها شأن جميع الإغريق فى عصره ، فى حين اتجه المصوّر بوتشيللى الذى عاش فى أواخر القرن الخامس عشر والذى لا ينبض قلبه برؤية أفروديتى الى تصويرها بوصفها نموذجا للفتنة والغواية ، وهكذا أعادها إلى الحياة بالفعل ، لا إلهة مقدسة بل نمطا فنيا بالغ الروعة . وفى كل ناحية من نواحي الحضارة نلمس مثل هذا التناسخ الذى تتخذ فيه القيم الحضارية القديمة بمرور الزمن صورا أخرى مغايرة لتلك التى انبثقت عنها ، حتى بات كل عصر يعيد صياغة « مختاراته » الفنية والأدبية من العصور السالفة من زاوية رؤياه العصرية . وعلى هذا النهج أيضا ما اضطلعت به وزارة

الثقافة عند تنفيذها لمشروع « الصوت والضوء » بأهرام الجيزة والقلعة ومعابد الكرنك وفيلة وأبي سمبل ، فقدّمت عروضاً لآثارنا المجيدة فى صورة فنية مشرقة تضمّ فى تركيبها الصورة والرواية التاريخية والأداء الفنى والموسيقى بأسلوب عصرى يضاعف المتعة والمعرفة ويرقق الذوق والمشاعر بعد أن كانت تلك الآثار القديمة حجارة صماء بكماء .

وهكذا يمكن أن تكون الالتفاتة إلى التراث القديم استقاء لعناصر جمالية واستلهاماً لمعان وقيم دون أن يكون فى ذلك تجميداً لحركة الفكر أو خضوعاً لعناصر الجمال البالية ولا سقوطاً فى قبضة قيم تجاوزها الزمن ، وإنما هى البراعة فى اختيار مفردات من ثقافات العصور السابقة وفنونها لوضعها فى إطار البناء الحضارى المعاصر وعبر مسلك تتلاقى فيه الحضارات جميعاً لإثراء ثقافتنا الجديدة . هذا إلى أن العودة إلى منابع التراث القديم تكشف لنا عن مفاهيم ومأثورات استطاعت قهر الزمن وسوف تبقى كذلك إلى الأبد ومنها مسرحيات سوفوكليس وموليير وشكسبير وغيرهم ، فبقيت خالدة لأنها تهيب بالإنسان أن يتسامى فوق غرائزه الدنيوية ويخلص مما قد يجوس بخاطره من نزعات الشر . وما أظن إنساناً لا تستولى على مشاعره تلك العبارة النبيلة الخالدة التى جاءت على لسان الأميرة الفتية أنتيجونا أميرة طيبة فى مأساة « أوديب ملكا » حين قالت وهى تطلّ من فوق سفح الأكروبول « لم أخرج إلى هذا الوجود لأشاركه حقداً وضيغينة بل لأشاركه ودّاً ومحبة » .

\*\*\*

كانت تلك الرؤية التى تمخّضت عن تجربتى الخاصة وعن اللقاءات والمشاورات والندوات والمؤتمرات والتى كان لها صداها فى نفسى هى نبراسى الذى أهتدى به فى الحقل الثقافى ، لم أجدُ عنها طوال تحمّلى مسئوليتى الوزارية سواء فى مجال الكتاب أو المسرح أو السينما أو الموسيقى أو تشييد قصور الثقافة والانطلاق بقوافلها إلى أقاصى الريف ، أو الحفاظ على التراث وإنقاذ معابد النوبة بعد أن أوشك النيل أن يغمرها بمائه ويبتلعها ، وكان لابد لهذا كله من أن نسبق فنهيّء رأى العام العالمى للإسهام فى هذا المشروع إذ لم تكن مصر وحدها تطيق أن تتحمل أعباءه كلها .

وإنى لأترك لمن عاصروا تلك الحقبة الزمنية أن يقولوا كلمة صدق عمّا وعوه ورأوه ويكون لهم حكمهم فيما إذا كنت قد التزمت بما عاهدت نفسى

وغيرى عليه أوجدتُ عنه ، وهل كنت عند ما وعدت به من الربط فى مشروعات الوزارة بين النظرة الإنسانية وبين النظرة القومية إلى الثقافة ، والجمع بين التراث القديم والتطور الحديث ، ورفع الحواجز بين طبقات المجتمع بتطوير الثقافة الإقليمية ، وإتاحة الفرصة للتفاعل بين أفراد الشعب وبين الفن الرفيع المستوى ، ثم تضمين الثقافة قيما عالمية وإنسانية خالدة ، الأمر الذى كانت له انعكاساته على كافة أنشطة الوزارة ، وأخيرا إتاحة حرية الإبداع للفنان حرية لا معوق لها . هل كنت عند هذا أم أطرحته جانبا ، وهل كان ثمة مجافاة بين النظرية والتطبيق ؟ . وما من شك فى أن التطبيق فى الستينات يختلف عنه الآن فى الثمانينات والتسعينات لاختلاف الظروف أولا وآخرها ، غير أن جوهر النظرية يظل كما هو فى كافة الظروف .

كان أول ما قمنا به أن أعدت الوزارة خطة خمسية للعمل الثقافى فى حدود سبعة ملايين جنيه تشمل : إقامة المتحف المصرى ( ٢ مليون جنيه ) ، ودار الأوبرا الحديثة ( مليون جنيه ) ، ودار الكتب الجديدة ومطبعة حديثة ( مليون جنيه ) ، واستكمال وبناء مسارح ( ١٥٠٠٠٠ جنيه ) ، ومتحف بورسعيد ( ٧٥٠٠٠ جنيه ) ، ومتحف النيل ( ٥٠٠٠٠ جنيه ) ، ومدينة القسطنطينية السياحية ( ٣٠٠٠٠٠ جنيه ) ، وإعداد متحف دار البلدية بالقاهرة ( ١٠٠٠ جنيه ) ، ومدينة الملاهى بالقاهرة ( ٥٠٠٠٠٠ جنيه ) ، ومطبعة ودار نشر ( ٢٥٠٠٠٠ جنيه ) ، ومسرح صيفى بالإسكندرية ( ٥٠٠٠ جنيه ) ، ومتحف الممثل مختار ( ١٥٠٠٠ جنيه ) ، ومتاحف إقليمية ( ١٧٠٠٠ جنيه ) ، ومراكز للحرف الشعبية ( ٥٦٠٠٠ جنيه ) ، وإنشاء قصور الثقافة ( ٥٢٥٠٠٠ جنيه ) ، ووحدات ثقافية متنقلة للعمل بالريف ( ٧٥٠٠٠ جنيه ) ، ومتحف الإسكندرية ( ٥٠٠٠٠٠ جنيه ) ، وعرض الآثار الكبرى بالصوت والضوء ( ٢٠٦٠٠٠ جنيه ) ، والسيرك القومى ( ٢٠٠٠٠٠ جنيه ) ، ودار لعرض الفنون التشكيلية وبيع إنتاج الفنانين التشكيليين ( ٣٠٠٠٠٠ جنيه ) .

على أن هذه المشروعات لم تكن كلها قصيرة الأمد بحيث يمكن إنجازها فى سنوات محدودة ، فقد أمضيت السنوات الثلاث الباقية لى فى الوزارة الأولى وأنا أكده وأعوانى من أجل إنجاز هذه المشروعات التى سأعرض لها تفصيلا ، والتى أمكن بالفعل تنفيذ بعضها ، أما ما كان يستغرق وقتا أطول فقد



قطعنا شوطا فيه ، غير أنى تركت الوزارة فى سبتمبر ١٩٦٢ قبل استكمال هذه المشروعات الطويلة الأمد ، وأدمجت وزارة الثقافة فى وزارة الإعلام والسياحة فطغى الطابع الإعلامى والسياحى على الطابع الثقافى ، وتراجعت للأسف المشروعات الثقافية الكبرى وبخاصة مشروع دار الأوبرا والمتاحف ، وانتقلت الميزانيات المرسودة لتلك المنشآت الثقافية إلى خدمة أهداف أخرى . وبقي الحال على هذا المنوال إلى أن امتدت إلينا يد اليابان فأقامت على نفقتها هذا الحلم الذى كان يراودنا وهو مبنى دار الأوبرا عام ١٩٨٨ .

وقبل ان أنتقل إلى الخوض فى مسيرة تجربتى وزيرا للثقافة أرى واجبا على أن أذكر للمستشار الفنان أحمد لطفى الذى اخترته مديرا لمكتبى للشئون الفنية على مدى سنوات ثمان ماعهدته فيه من كفاية نادرة ، وبذل دون مأرب أو ترقب لجزء ، وإخلاص فى المشورة مجرد عن الهوى . كما أذكر أنه جاء إلى العمل إلى جوارى ثم عاد إلى موقعه بسلك القضاء فى نفس الدرجة التى كان يشغلها . ولا أغفل أيضا المرحوم الأستاذ عبد المنعم الصاوى الذى ضمته إلى وزارة الثقافة مستشاراً ثم وكيلاً لها ثم وكيلاً أول خلال السنين الأربع الأولى التى توليت فيها شئونها فكان على مستوى المسئولية أمانة وإشرافا وحركة دائبة لا يضمن بوقت أوجه فى متابعة تنفيذ التخطيط الذى استقرت عليه السياسة الثقافية فى كافة المجالات بهمة مشكورة . أما الأستاذ حسن عبد المنعم الذى شغل منصب الوكيل الأول فى الفترة الثانية فقد كان إلى هذا كله يتميز بالدماثة والفكر النير والتفانى والقدرة على تناول المشكلات التى قد تعترضه بأسلوبه المتأنى فيحتونها ويجدها الحلول المبتكرة التى تتفق مع كل موقف طبقا لتقديره السليم وفى هدوء ودون ضجة أو انفعال . وكذا لا أنسى الفترة القصيرة التى عمل فيها اللواء عمر شكيب إلى جوارى فأعطى من إخلاصه المطلق وتجرده المثالى الكثير . كما أسجل هنا لكل المشاركين ممن سأذكرهم وأنا أتحدث عن الأعمال التى شاركوا فيها من ذوى الشقافة المرموقة والكفاية الفنية والإدارية العالية العرفان بصفحاتهم المشرفة وأياديهم الناصعة .

## ٣ نهجى فى وزارة الثقافة

لم أكد أبدأ فى بسط تجربتى وزيراً للثقافة حتى وجدت القلم يتردد فى يدي إحصاءاً وإقداماً ، لكن سرعان ما وجدتني لا بد لي من أن أمضى فى تسجيل هذه التجربة . فلقد أسندت إلى مهام وزارة الثقافة خلال فترتين طالت كل منها أربعة أعوام ، وفصلت بين تلك الفترتين فترة ثالثة امتدت هى الأخرى أربعة أعوام ، اتخذت فيها الوزارة فلسفة مغايرة . وإذ كانت تلك الفترات قد تداخلت وحملت كل منها بعض آثار التسيب سبقتها ، لذا رأيت لزاماً عليّ أن أتحدث عن الوزارة فى تلك الفترات الثلاث . وقد بدأت الأولى من نوفمبر ١٩٥٨ حتى سبتمبر ١٩٦٢ ، والثانية من سبتمبر ١٩٦٢ إلى سبتمبر ١٩٦٦ ، والثالثة من سبتمبر ١٩٦٦ إلى نوفمبر ١٩٧٠ . وقد يرانى القارىء مفصلاً هنا وهناك ، غير أن ما جرتى إلى هذا التفصيل المسهب هو ما وجدته لبعض الأفلام من رؤية غير واضحة ، وقد يكون بعضها مغرضاً .

— ١ —

كان مشروع «الألف كتاب» الذى صدر أول ماصدر بالإدارة العامة للثقافة حين كانت تابعة لوزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٧ من بين المشروعات

الشفافية الأولى في عهد الثورة ، ثم رأت وزارة الثقافة أن تعيد فيه نظرة تشمل الأسس التي يقوم عليها وأنواع المعارف التي يضمها . وهذا كُتب لهذا المشروع أن يخرج من جديد على طريقة سوّية مدروسة دراسة واعية فشمّل كتباً تمثّل المراحل المختلفة قديمها ومتوسطها وحديثها ، هذا إلى كتب أخرى مترجمة . وكانت الخطوة الثانية التي أظلمتها الثورة في مجال التخطيط لصدور الكتاب هي « المكتبة العربية » فأصدرت جملة من الكتب في فروع مختلفة لاسيما في مجال التراث وإن جاءت قليلة ، ومرجع هذا إلى أن الذين عهد إليهم بالتأليف أو الترجمة أو التحقيق لم يفضوا بما وُكل إليهم . وحين حوّلت وزارة الثقافة إدارة النشر في عام ١٩٦٠ إلى مؤسسة مستقلة رسمت لها سياسة تضع الكتاب في خدمة كافة مستويات القراء متعلّمين ومثقفين ، وتأتى خطتها للنشر ثالث مشروع للثورة في مجال صدور الكتاب ، فأنشأت أربع سلاسل دورية أولاها سلسلة « تراث الإنسانية » ، وهي دراسات لأهمّات الكتب العربية والأفريقية التي أثرت الفكر العالمى والفكر العربى صدر منها نحو مائة عدد . وثانيها سلسلة « المكتبة الثقافية » التي استهدفت إثراء القارئ العادى بمعرفة ذاته وتراثه والكون الذى يعيش فيه ومساعدته على بناء حياته بالمعرفة والفهم ، وقد ظلت تصدر مرتين في الشهر وكانت تُباع بثمان زهيد في مقدور كل قارئ [ هو ثلاثة قروش ] وقد صدر منها نحو من أربع مائة كتاب إلى أن توقفت في عام ١٩٧١ . وثالثها سلسلة « أعلام العرب » التي حرصت على تعريف القارئ بأبرز الأعلام في التراث العربى وصدر منها نحو من مائة كتاب . ورابعها سلسلة « مسرحيات عالمية » وصدرت منها جملة وفيرة . وقد اضطلعت هذه السلاسل عامة بما كان يعوز الثقافة والمثقفين ، إذ أتاحت فرص القراءة أمام الآلاف العديدة من القراء فحققت ما يمكن تسميته بشعبية الثقافة ، فلقاء قروش قليلة كان القارئ المصرى يزود بزاد ثقافى قيم لا تبخل الدولة بدفع العجز في ميزانية نشره إيمانا منها بأن زاد الشعب الثقافى لا يقلل قيمة عن زاده المادى ، وبألا يكون التوسع في تقديم الخدمة الثقافية على أساس من هبوط المستوى . فقد كان الشعار الذى ينادى بأن الثقافة للشعب مقترنا على الدوام بأن حق الشعب هو أن يحصل على الثقافة الرفيعة في صورة مبسطة وبأسعار زهيدة في متناول قدرته . ولقد كانت هذه السلاسل وسيلة فعالة

للمساهمة في إرساء قاعدة عريضة للقراءة في البلاد ، وفي إغراء القراء بالمطالعة واقتناء الكتب ، فكان أن أصدرت الوزارة تلك السلاسل وغيرها لتباع — ولأول مرة — بأقل من تكلفتها . وإلى جانب هذه السلاسل أصدرت الوزارة كتباً مختلفة تنتظم المعارف العامة والفلسفة والدين والاجتماع والفنون والعلوم البحتة . وكان للأستاذ ابراهيم زكى خورشيد الموسوعى الثقافة مجهودات كثيرة مثمرة في سبيل تحقيق هذه الأهداف خلال عمله مديراً عاماً لإدارة الثقافة بالوزارة ثم مديراً لمؤسسة التأليف والنشر .

وأذكر أنى حين عُيِّنَ وزيراً للثقافة طلبتُ إلى الدكتور لويس عوض ، وكان وقتها يعمل أستاذاً بجامعة دمشق الانضمام إلى وزارة الثقافة ليعمل إلى جوارى مديراً لإدارة الثقافة ، فاعتذر مؤثراً أن يواصل رسالته الجامعية ، غير أنه إزاء إصرارى قبل وتولى هذه المهمة وأبدى كفاية نادرة كما نتوقع منه دائماً . وبعد أربعة شهور — من العاشر من ديسمبر ١٩٥٨ إلى الثامن والعشرين من مارس ١٩٥٩ — فوجئت بأنه قد اغتُقل بتهمة الشيوعية وأنا أعلم علم اليقين أنه لا يدين بالمبادئ الماركسية وأنه شيخ الليبرالية في مصر . وقد حاولت المستحيل لإطلاق سراحه غير أن كبار المسؤولين كانوا لا يؤمنون إلا بما يستجله رجال مباحث أمن الدولة عن الأفراد ، وعجزت تماماً عن أن أستنقذه من كارثة الاعتقال وتألّمت أشد الألم لإحساسى بمسئوليتى عن تركه عمله في سوريا وبجيئه إلى القاهرة حيث تيسر لهم القبض عليه ووضعه خلف الأسوار . ومن العجيب أنه منذ اليوم الذى عُيِّن فيه الدكتور لويس بالوزارة انهارت على احتجاجات مسعورة من بعض المشقّفين للأسف وعلى رأسهم من لم أكن أتصور أن يحدث منهم ذلك ، غير أنى لم أرضخ لطلب إبعاده وأصررتُ على بقاءه للإفادة من مواهب هذا العالم القدير . والراجع أنهم وقد خاب أملهم في إثنائى عن التمسك به اتجهوا وجهة أخرى شريفة أنجح أودت به إلى المعتقل . وبعد إطلاق سراحه رجوته أن يعود للعمل بالوزارة فاعتذر واعداً أن يكون في خدمتها أنى كان . وقد برّ هذا الرجل الكريم بوعده فكان لصيقاً بمجهود الوزارة وعضواً بقاءً نشطاً بمجلس إدارة مؤسسة المسرح والموسيقى حتى عام ١٩٧٠ وغيرها من النشاطات المتعددة لاسيما ما يخص الثقافة والنشر .

ولقد كانت ثمة كتب تراثية ظهرت في أيام أولى ، وكانت محط اهتمام القراء ، غير أن طبعاتها كانت قد نفذت ولم يعد بين أيدي القراء منها شيء ، ففكرنا في إعادة طبعها لتيسر على القراء تداولها . ولعل أهم ما أصدرناه في هذا الميدان معجم « لسان العرب » الذي كانت ثُباع النسخة منه كاملة بما يربو على المائة والخمسين جنيها ، هذا إلى ندرة وجوده ، فأعدنا طبعه وإذا النسخة منه بأجزائها العشرين تباع بعشرة جنيات . وكذلك كانت الحال فيما كان مطبوعا من أجزاء كتاب « الأغاني » و « النجوم الزاهرة » و « نهاية الأرب » و « ضُبح الأعشى » ، فأصبحت كل مجموعة من هذه المجموعات ثُباع كاملة بجنيهات معدودة .

وكان علينا أن نصل أبناءنا بتراثنا لينظروا فيه نظرة فاحصة سليمة كي يتعمقوه ويُلْمُوا بأطرافه جميعا ويستمتعوا به استمتاعهم بالأدب الغربي . ولعل خير وسيلة رأيناها لتحقيق ذلك أن نمهد لهذا التراث الضخم بميسرات تدلّل لهم تلك الصعوبات في التراث الذي يستعصى معها فهمهم له . فلا يزال تراثنا لغزا مغلقا أمام جمهور كبيرة من القراء العرب . وحين يُلْم به القارئ يجد أنه أشبه ما يكون في زيارة لمتحف لغوي لا يعي عن مفرداته شيئا . ولا تزال الشروح التي أضيفت إلى كتب التراث أخيرا هي الأخرى بحاجة إلى شروح أبسر وأخف . فقدّمنا هذا التراث في صور ميسرة تخفف عن القارئ الناشئ ، لبقوى بعدها على الرجوع إلى أصولها الأولى ، وصدر من هذه السلسلة نحو من عشرين كتابا ، وكان للمحقق القدير الأستاذ إبراهيم الأبياري الفضل كل الفضل في النهوض بالأعباء التراثية فمكّن لها من الظهور في مظهرها اللائق ، هذا إلى دوره الأول في إخراج المعاجم العربية ، فقد تبنت وزارة الثقافة في ميدان النشر مشروعات طموحة لإصدار المعاجم ودوائر المعارف كان الهدف منها أن تكون مصر مركزا لإصدار المعاجم بعد أن تبنى هذا الأمر أقطار عربية أخرى .

وكان مما فكرت فيه وزارة الثقافة إعداد معاجم موسوعية في عبارات ميسرة لا تقليدية حتى نحفز الناشئ على الإقبال على تراثه إقباله على غيره ، فلا يلفته إليه تراث وافد بمتعة المغرية . ثم إن تاريخنا وأدبنا وما إليهما من علوم أخرى لا يزال موزعا في كتب كثيرة يستعصى على الباحث الرجوع

إليها، ومن هنا كانت لنا لفظة إلى التراث نلّم شتاته، فمهمة إحياء التراث يجب ألا تقف عند حدودها المرسومة المعروفة من نشر المخطوطات محققة فحسب، فنحن حين نلّم بالتراث عن موضوع بعينه لا يكفيننا في هذا مرجع ومرجع، بل نرى أنفسنا موزعين بين مراجع لا تحصى ولا تعدّ. وفي هذا إهدار للوقت والجهد قد نخرج بعده ونحن لم نلّم بأطراف الموضوع كله. ولذلك كان التفكير في أن نجتمع حول الموضوع الواحد ما كتب عنه لا نبقى ولا نذر، ثم نختار من هذا كله مختارا جامعا يلّم بأشتات الموضوع كلها، فيصبح بين أيدينا كتاب يغني عن كتب، غير أن الوقت لم يسعنا لإنجاز ما رجونا.

ولقد آمنت وزارة الثقافة بأنه من أهم واجبات الدولة في ميدان النشر احتضان المشروعات الضخمة مثل دوائر المعارف والمعاجم، فبدأت عام ١٩٥٩ بمشروعين أساسيين هما «دائرة المعارف الإسلامية» على أن تكتب بأقلام عربية متخصصة و«القاموس الإنجليزي العربي» للمترجمين المتخصصين على أساس قاموس أكسفورد المعروف والذي عهدت به إلى الدكتور لويس عوض. وإذا كنت أومن بتنوع المعاجم العربية على غلط ما كان للسلف أو على غلط ما للغرب في هذا الميدان، فقد تمثّيت أن يكون في أيدي قراء العربية معجما يجمع «المترادفات» يتفوق على كل ماسبقه، وأن يكون لنا معجم يجمع المعاني بتداعيا، مما يوفر على القارئ العنت الكثير في البحث وراء ما ينبغي من معنى ومعنى يتبعه، وهو ما اضطلع على تسميته بمعجم «تداعي المعاني». ورغبة مني في أن يمسى هذا المشروع دفعت بكتب أملكها في هذين الموضوعين لأيسر على اللجان المختصة الدرس والاحتذاء.

ومن بين المعاجم التي اهتمنا بإصدارها «الرائد الصغير»، وهو معجم لغوي على أسلوب حديث يُسعف قراء العربية عامة ولا يعوزهم إلى الرجوع إلى أصل الكلمة. ولقد خطت اللجان المختصة التي ألّفت لذلك خطوات واسعة حتى كاد بعض هذه المعاجم يقارب الانتهاء، ولأمر ما توقفت هذه الجهود في ديسمبر ١٩٦٢. كذلك انتهت اللجنة المكلفة بإعداد معجم «الرائد المصور» منه — وهو لا يزال إلى اليوم حبيس الصناديق — وهو معجم على غلط المعاجم العربية الأولى مثل «المختص لابن سيده» و«فقه اللغة» للشعالبي، غير أن ما فعله الغربيون



تغليف قناع توت عنخ أمون قبل نقله من المتحف المصرى إلى أمريكا



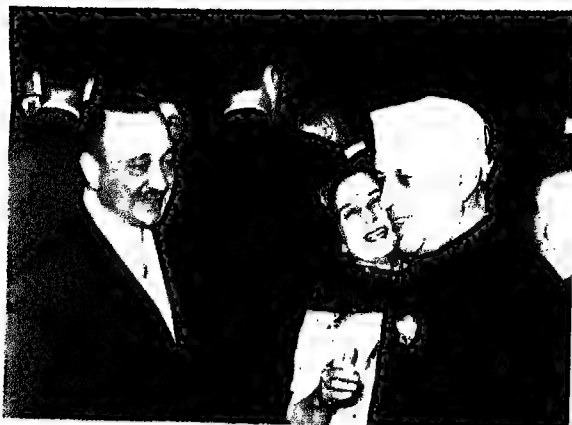
توت موبيل . وفرقة الجاز تعزف  
لحن الوداع الجنائزى فى توديع  
توت عنخ أمون الراحل. عزف فى  
إحدى مدن الولايات المتحدة .



جماهير المواطنين الإنجليز فى انتظار دورهم لزيارة معرض توت عنخ آمون بالمتحف البريطانى بلندن  
جماهير المواطنين اليابانيين فى انتظار دورهم لزيارة معرض توت عنخ آمون بطوكيو







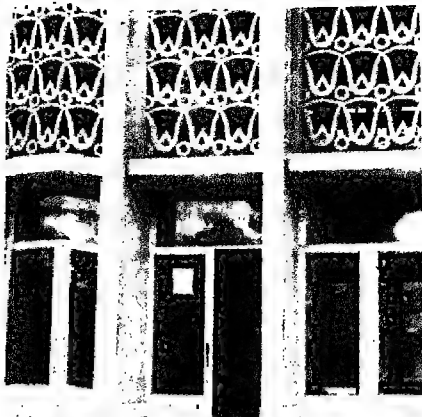
مع الرئيس نهرو فى السفارة الهندية بمصر



صورة تذكارية مهداة من الرئيس نهرو



فى رفقة الرئيس نهرو بالاقصر



المعهد العالى للبلديه

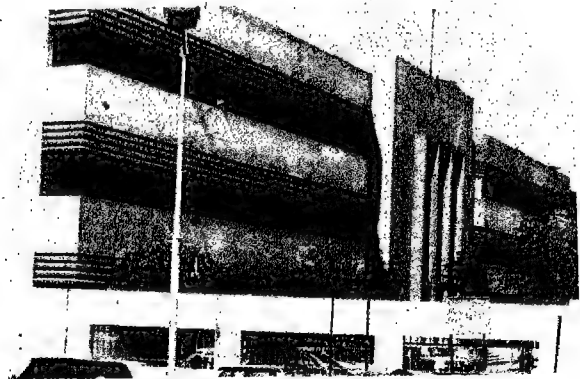
في استقبال الرئيس سوكرنو  
عند زيارته للمتحف المصرى



المعهد العالى للموسيقى ( الكونسيرفاتورى )



المعهد العالى للفنون المسرحية



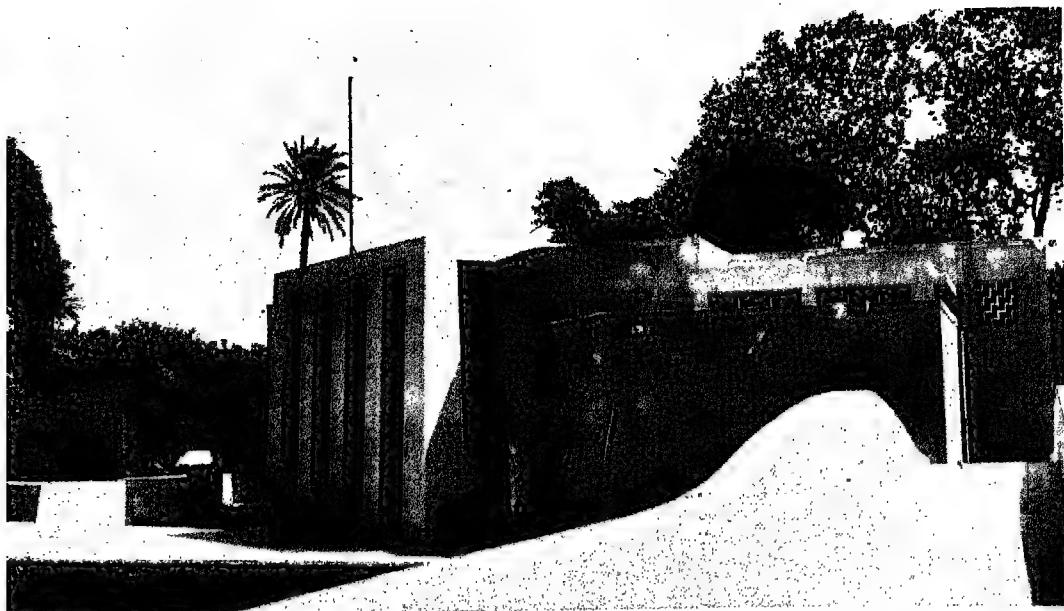
المعهد العالى للسينما



طلبة وطالبات معهد الباليه اثناء التدريب

مع د . محمد مندور في افتتاح المعهد العالي للفنون المسرحية





متحف الفنان محمود مختار بالقاهرة

متحف محمد محمود خليل وحرمه





في استقبال الرئيس عبد الناصر عند افتتاح متحف دار ابن لقمان التاريخي بالمنصورة ( مايو ١٩٦٠ )



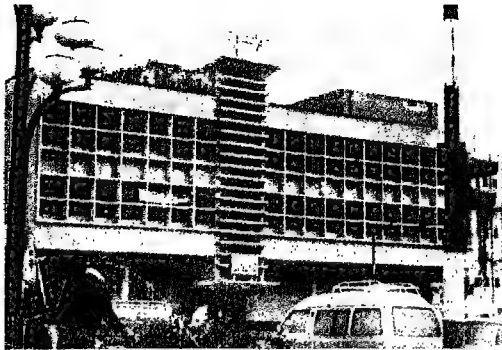
وضع حجر الأساس لمتحف  
بورسعيد ( يوليه ١٩٦٢ )

في زيارة متحف المخطوطات الإسلامية بطشقند



مع وزير الثقافة السوفيتي بموسكو

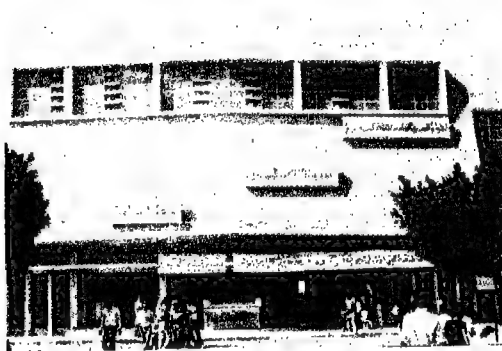




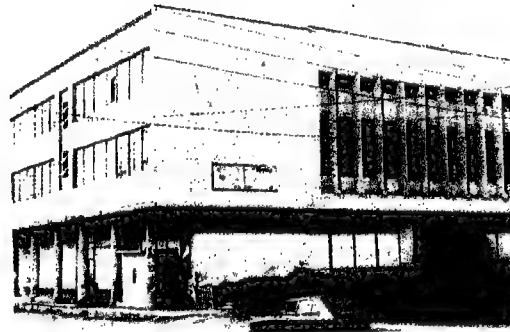
قصر الثقافة ببيروت



بيت ثقافة الماء



قصر الثقافة بالسويس



قصر الثقافة بشبين الكوم



في زيارة المعزة بسوريا مع  
السيد يوسف شقرة أمين عام  
وزارة الثقافة السورية





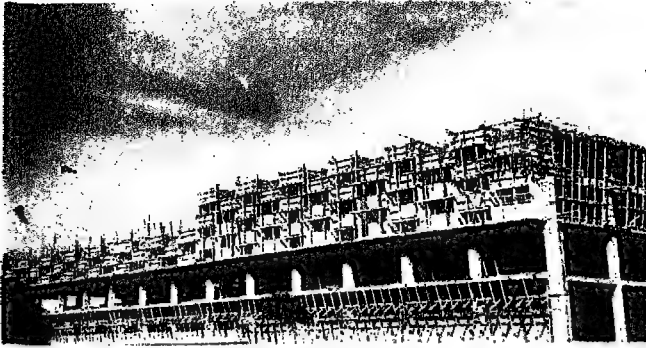
الاستاذ فكرى اباطة يلقي كلمته



حوار مع السيدة ام كلثوم

جمهور المشاركين في المؤتمر الثقافى بدار الاوبرا ١٩٥٩





مبنى دار الكتب الجديد يرتفع .....



إحدى رقصات الفرقة القومية للفنون الشعبية



إحدى رقصات الفرقة القومية للفنون الشعبية

تصميم زى من أزياء الفرقة القومية للفنون الشعبية للفنان عبدالغنى أبو العينين .







الفنان يوسف وهبي يلقي كلمته



الأستاذ طه حسين يلقي كلمته

حوار يجمع بين د . السعيد مصطفى السعيد ود . احمد بدوي ، والمهندس الموسيقار ابو بكر خيرت والفنان يوسف وهبي ود . احمد حسين . وكاتب هذه السطور اثناء المؤتمر العام بدار الاوبرا



د . طه حسين ود . السعيد مصطفى السعيد والسيدة ام كلثوم والاستاذ فكرى ابازلة  
فى مؤتمر الثقافة العام المنعقد بدار الاوبرا فى مارس ١٩٥٩



مع الفنان الموسيقى آرام خاتشاتوريان بمكتبي ، لتنظيم  
الحفل الذي قاد فيه اوركسترا القاهرة السيمفوني بالقاهرة .



في استقبال الرئيس عبد الناصر بدار  
الأوبرا عند حضوره حفل اوركسترا القاهرة  
السيمفوني لعزف أعمال أبو بكرت خيرت



Глубоко уважаяму 2. министр  
культуры Окана с чувством  
большой симпатии и благодарности  
Арам Хаташурян

8 мая 1961 г. К.

صورة تذكارية مهداة من الموسيقار آرام  
خاتشاتوريان لكاتب هذه السطور .



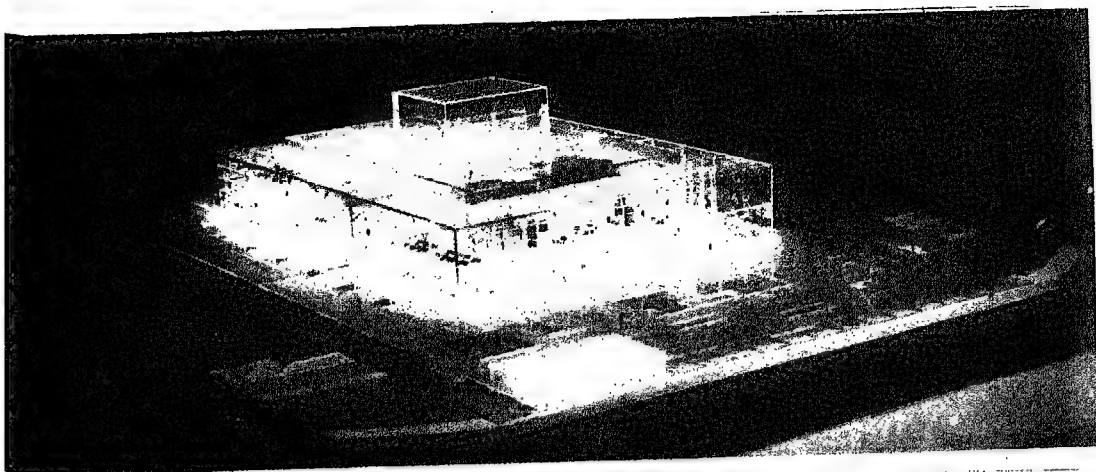
مشهد من أوبريت الأرملة الطروب



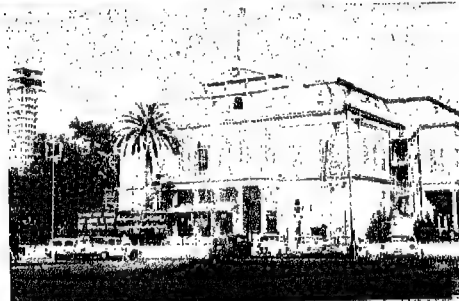
مع أعضاء فريق أوبريت الأرملة الطروب  
لتهنئتهم على نجاح عرضهم

حوار مع السيدة أم كلثوم برفقة الأستاذ يوسف  
السباعي أثناء الاستراحة ليلة افتتاح أوبريت الأرملة  
الطروب بدار الأوبرا .





ملكيت دار الأوبرا الجديدة

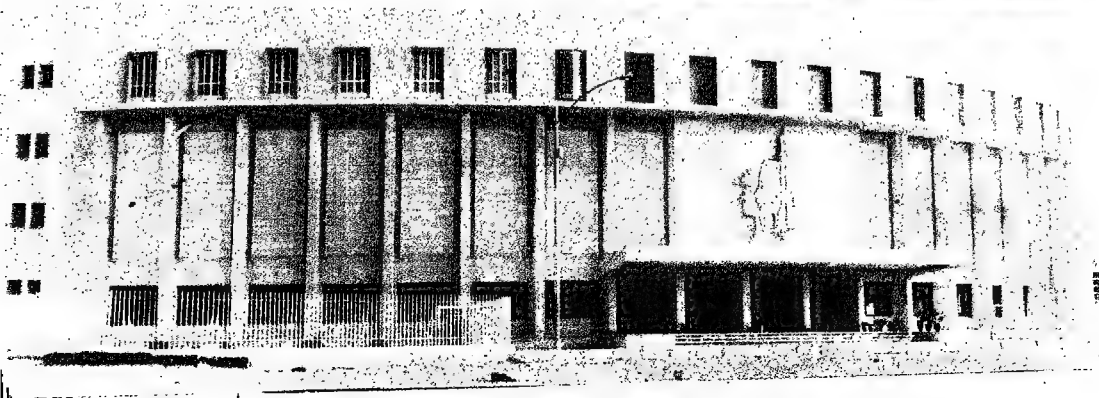


دار الأوبرا القديمة بالقاهرة

مع المهندس أبو بكر خيرت لتفقد  
أعمال بناء مبنى الكونسيرفاتوار



قاعة سيد درويش للاستماع الموسيقى

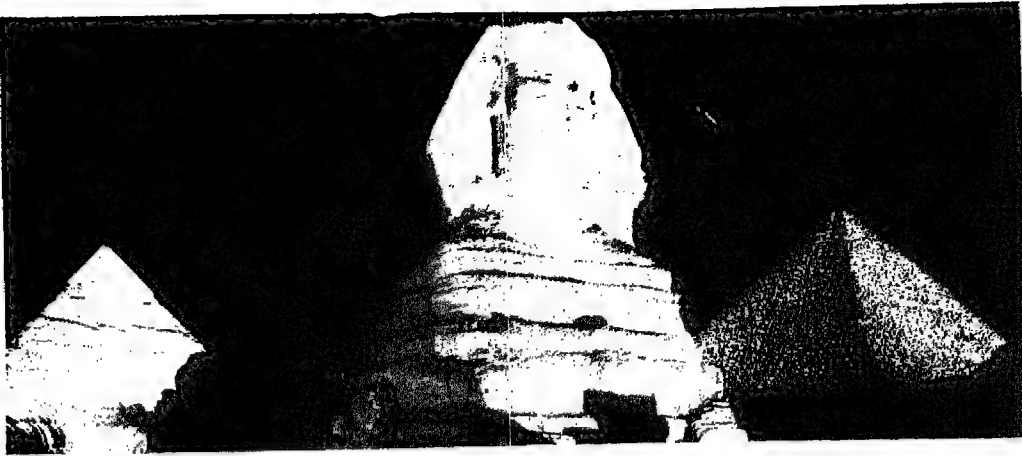




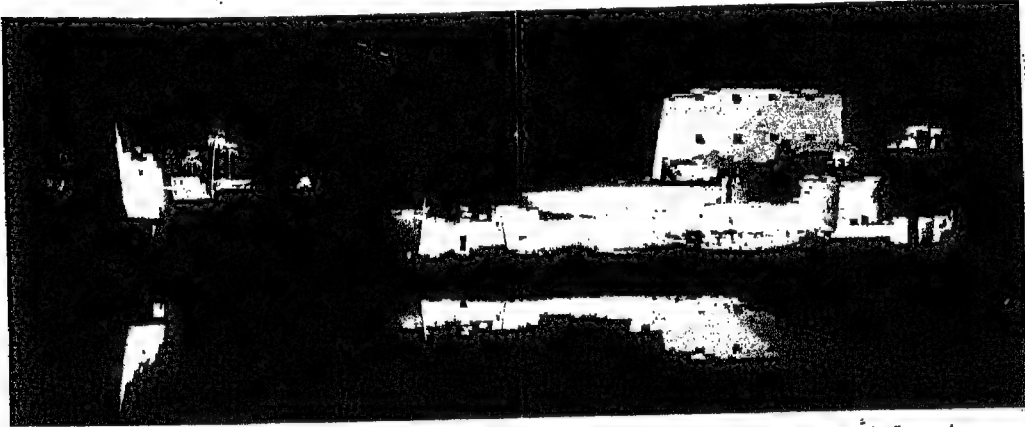
فى صحبة الرئيس عبد الناصر وضيغه الرئيس تيتو وقرينته فى عرض الصوت والضوء بالهرم

فى استقبال الرئيس عبد الناصر والأمير قسطنطين ليلة افتتاح حفل الصوت والضوء بالهرم يوم ١٣ إبريل عام ١٩٦٠

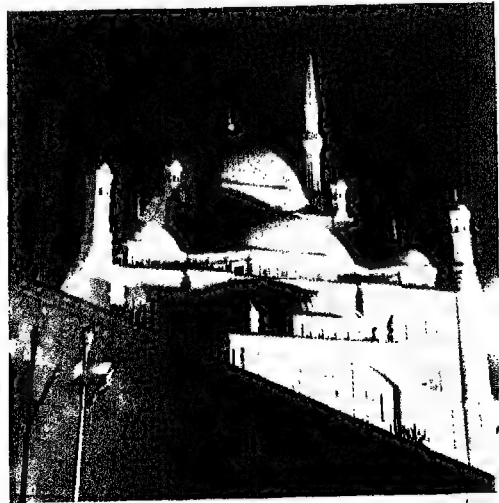




« وذهبت اسمائى جميعا ، وبقي لى اسم واحد .. اسم بذلته السنون والأيام .. وبهذا الاسم أربض هنا . على حافة هذه الصحراء الحافلة بالأمجاد أحرس هؤلاء .. الخالدين . [ الصوت والضوء بالهرم ]

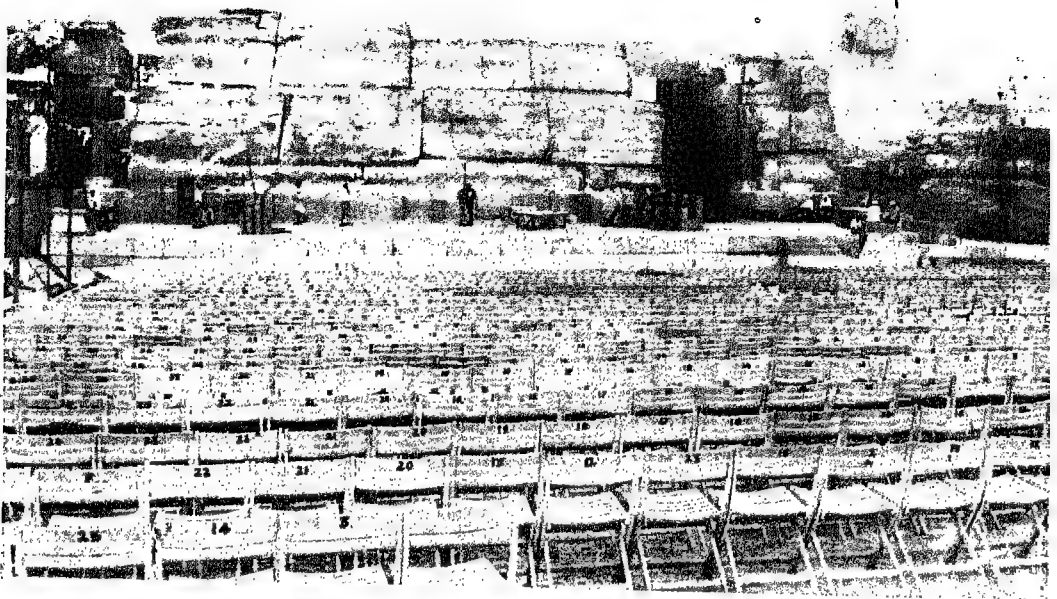


« لم يبق إلا ديار الآلهة ، أما ديار سائر البشر فقد تبددت كالأوهام » [ الصوت والضوء بالكرنك ]



« من عليك أيتها القلعة أطلتى على القاهرة الخالدة »  
تتألق فى الأفق ، تضيء طريق الحقيقة نوح قبابها  
نور الإيمان .. [ الصوت والضوء بقلعة صلاح الدين ]





استخدام الاماكن الاثرية لتقديم العروض الفنية والمسرحية والغنائية : مسرح خوفو المجاور لابي الهول .





استخدام الأماكن الأثرية لتقديم العروض الفنية  
عرض فولكلورى  
بصحن وكالة الغورى بالقاهرة ، تصوير الفنان  
عبدالوهاب عطية





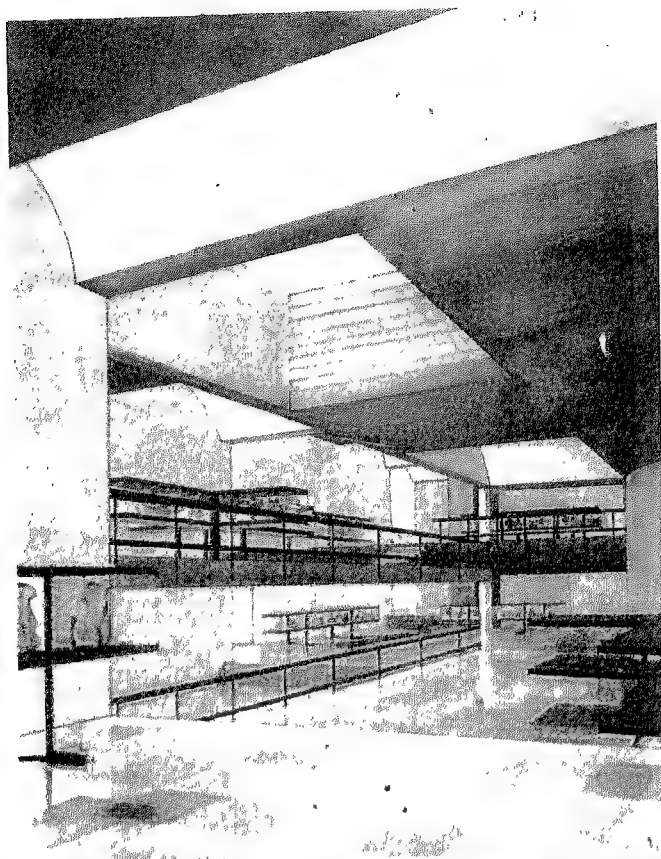


استخدام الأماكن الأثرية لتقديم العروض المسرحية . فرقة أولدفيك الإنجليزية تقدم مسرحية روميو وجوليت لشكسبير على مسرح خوفو المجاور لأبى الهول في أغسطس ١٩٦١

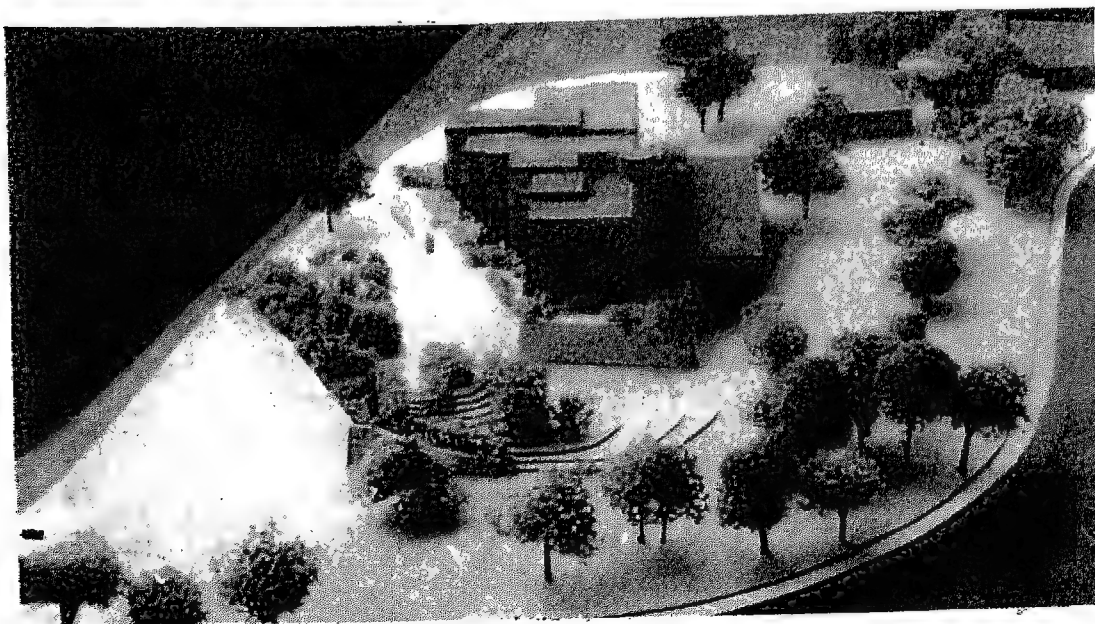


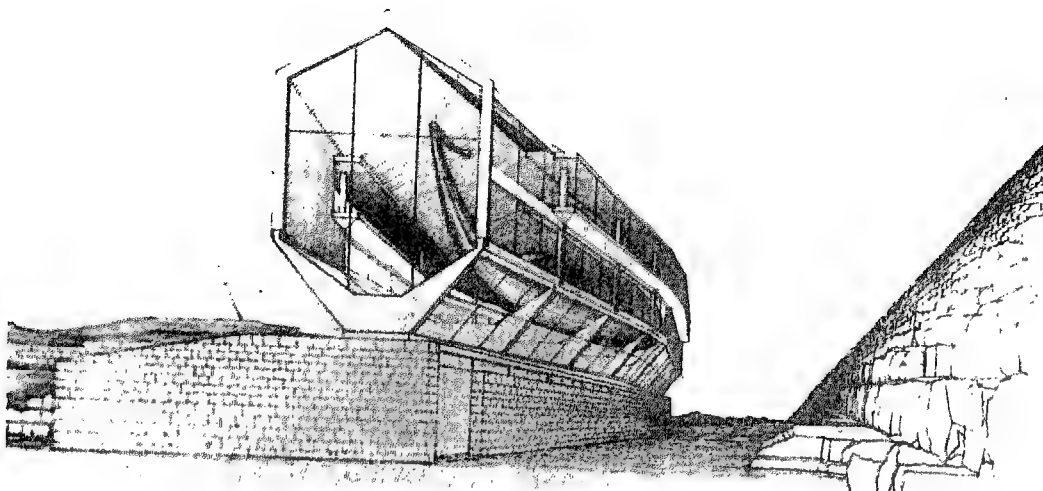


ماكيت تصميم المتحف اليوناني الروماني  
الجديد بالإسكندرية من الداخل



ماكيت تصميم المتحف اليوناني الروماني  
الجديد بالإسكندرية من الخارج

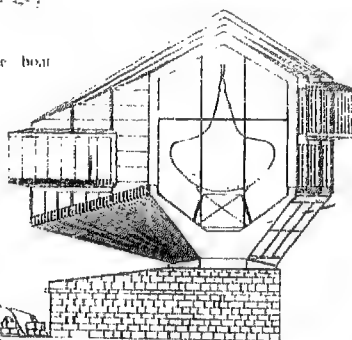




واجهة متحف سفن حفر

متحف مركب خوفو

Front facade of the boat museum.



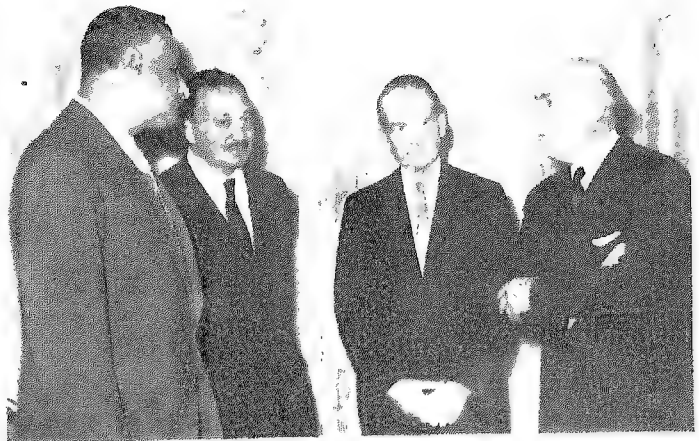
تصميم متحف مركب خوفو

في حفل افتتاح معرض ٥٠٠٠ سنة  
من الفن المصري ببروكسل





مع الملكة الوالدة إليزابيث في  
حفلة العشاء الذي أقامه السيد  
صالح خليل بمقر السفرا  
المصرية ببروكسل بمناسبة  
معرض ٥٠٠٠ سنة من الا  
المصري



مع الرئيس جمال عبد الناصر والسفير  
الامريكي والمستشار الثقافي الامريكي



في استقبال الرئيس عبد الناصر  
وضيفه الملك محمد الخامس  
سلطان المغرب بدار الاوبرا



صورة تذكارية مهداة من الرئيس  
جوزيف بروز تيتو

جاء على غمط مصور إذ يقدم الصورة و يتناول أجزائها جزءا جزءا معرّفا باسم كل جزء . وقد نقل هذا المعجم عن الألمانية مُستأنساً في هذا النقل بالترجمات التي جاءت عنه إلى لغات أوربا كلها ، وأضيف مايمسّ بيئتنا ، وعُمل له فهرس في خاتمته بما ورد فيه من مسّميات بالعربية وأمامها نظائرها باللغات المختلفة . وهذا الفهرس لاشك كان سيعين المترجمين كل الإعانة ويهديهم إلى المسّميات العربية .

ولقد كنّا حريصين كل الحرص على أن تخرج هذه المعاجم في صورة مشرّقة وعلى رأسها « دائرة المعارف الإسلامية » التي كانت ستكون ذخرا للأمة العربية والتي كانت ستُسجّل فيها تاريخها بأفلامها الصادقة غير مشوبة بنقص أو غلو . ومع مطلع عام ١٩٦٢ كان قد تمّ جمع الجزرات التي تُهيء لإخراج هذه الموسوعة جمعا شبيهاً كامل ، ولم يكن يبقى بعد هذا غير اختيار الكاتبين ليكتبوا المواد ، ولقد تركت هذه الأمانة للزمن ولمن يجيىء بعدى يتولّونها .

كذلك اتفقت الوزارة مع بعض دور النشر الأجنبية على إصدار مطبوعات عربية أوربية تجسّد الشخصية الثقافية لمصر ظهر منها كتاب « الفن المصري المعاصر » باللغات الثلاث العربية والإنجليزية والفرنسية مع مجموعة من أهم لوحات الفنانين المصريين الملونة بالاشتراك مع إحدى دور النشر اليوغوسلافية .

وأصدرت كتيباً نفذ بمجهود طه بوري يحوى لوحات الفنان « بهزاه » الواردة في مخطوطة « بستان سعدى » المحفوظة بدار الكتب المصرية مع شرح باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية ، وذلك بالاشتراك مع إحدى دور النشر بألمانيا الغربية . وبدأت الوزارة عام ١٩٦١ إعداد كتاب « القاهرة في ألف عام » بالاشتراك مع دار نشر بألمانيا الشرقية باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية .

وكانت وزارة الثقافة قد أصدرت في عهد الأستاذ فتحى رضوان مجلّتين شهريتين : الأولى مجلة « المجلة » في يناير ١٩٥٧ وتولى رئاسة تحريرها بالتعاقب الأساتذة د . محمد عوض محمد ثم د . حسين فوزى ، وكان أمراً طبيعياً أن تستمر المجلة في الظهور خلال وزارتي ، وتولى رئاسة تحريرها د . على الراعى ثم الأستاذ



يحيى حقى . وقد جاءت هذه المجلة لتسد فراغا في الحقل الثقافى ، وكانت مخصصة للأبحاث والإنتاج الفنى والأدبى الرفيع فاضطرت إلى أن تلبى كل الحاجات لخلو الميدان من مجلة أدبية أوفنية . وكان لهذا التنوع أثره فى عدم تخصصها إلى أن جاءت المجلات الأخرى ذات الميدان المتخصص . وكان مستوى المجلة رفيعا ، ولا شك أنها أدت دورا هاما خلال تلك الحقبة فظلت أكثر من عشرة أعوام تلبى حاجة ثقافية لاغنى عنها وتربط بين الأقلام العربية فى مصر وشقيقاتها العربيات ليتحدث الكتاب من فوق منبر مشترك . وأما المجلة الثانية فهى « نهضة أفريقيا » التى استمرت رغم قصر عمرها تسد حاجة متخصصة واضحة وهى ربط الشعوب الأفريقية المتحدثة بالعربية حول موضوعات تهتمهم . ثم كان التفكير فى إصدار مجلة « الفكر المعاصر » لتستوعب تيارات الفكر العالمى المعاصر شرقا وغربا .

\* \* \*

وكانت النظرة الأولى لدار الكتب القائمة بميدان باب الخلق بالقاهرة كافية لتصور عجزها عن الوفاء برسالتها الضخمة بل وبما تملكه من إمكانيات هائلة معقدة بالإضافة إلى قدم المبنى الذى لم يعد يحتمل مقتنياته . والواقع أن هذا المبنى كان قد أقيم عام ١٩٠٤ ليضم خمسة وأربعين ألف مجلد كانت شبه مخزونة فى سراى مصطفى فاضل بشارع درب الجماميز الذى كان فى الأصل مقرا « لنظارة المعارف » ، وخصص على باشا مبارك ناظر المعارف الطابق الأسفل من المبنى لإنشاء « الكتبخانة الخديوية » عام ١٨٧٠ ، وجمع فيه آنذاك كل ما أمكن جمعه من الكتب العربية المطبوعة والمخطوطة والتى كانت متناثرة فى مكاتب المساجد والمدارس والأضرحة ، ثم لم تلبث أن ازدحمت شيئا فشيئا وتركت لها نظارة المعارف الطابق الأعلى ، غير أنها ضاقت بتزايد الكتب وأصبح من الضرورى إقامة مبنى باب الخلق الذى يتيح حسن الاستفادة من القدر الكبير من المطبوعات التى باتت تحويه .

ودار الزمن دورته ، ولم يأت عام ١٩٣٠ حتى امتلأت مخازن مبنى دار الكتب بباب الخلق ولم يعد بها مكان للمطبوعات الجديدة المتوافدة يوما بعد يوم ، كما لم تعد قاعاتها تنفس للأعداد المتزايدة من المتردين عليها . ولم يكن هناك حل ميسور غير السح من مخازن خارج الدار تنتقل إليها المطبوعات القديمة لتُفسح مجالا



للمطبوعات الجديدة ، وهكذا نُقل مائة وخمسون ألف مجلد إلى أحد مخازن القلعة بعد جلاء القوات البريطانية عنه عام ١٩٤٨ لتتبعها آلاف أخرى كل عام . ومع حلول عام ١٩٥٩ ارتفعت مقتنيات دار الكتب بمبنى باب الخلق إلى خمسمائة ألف مجلد مكدسة بطريقة لايسهل معها تنظيفها ولا صيانتها ولا الانتفاع منها ، وأصبح التلف يترتبص بأكثر الكتب قيمة وندرة . كما ارتفع عدد المترددين إلى مائتين وخمسين ألف مستعير وباحث في العام تضيق بهم القاعات والردهات وغرف الموظفين الذين أقيمت لهم في الممرات قواطع خشبية وزجاجية ينحشرون فيها مع مكاتب أعمالهم . وكان أول الحلول التي قدمتها وزارة التربية والتعليم ووزارة الإرشاد القومي في مستهل سنى الثورة إنشاء عشرة فروع لدار الكتب في أحياء القاهرة تتيح خدمة مكتبية يسيرة ومريحة وتُخفّف عن الدار بعضا من عبء المطبوعات وعشاق المطالعة ، إلى جانب إقامة مكتبة خاصة للفن بالقرب من ميدان التحرير تجمع إلى كتب الفنون المتخصصة مكتبة أسطوانات موسيقية من التراث القومى والعالمى .

كان هذا هو الموقف حين اضطلعت بمسئولية الوزارة ، ولم أجد مفرا من النظر إلى المستقبل القريب فنشأت فكرة إقامة مبنى جديد لدار الكتب على أحدث طراز يوفر الخدمة المكتبية السليمة ويحقق أفضل الظروف للمحافظة على التراث الفكرى الذى تضمته آلاف المطبوعات والمخطوطات النادرة . وقد استعنت بمنظمة اليونيسكو في اختيار البيوت الهندسية ذات المكانة العالمية والخبرة الطويلة في مجال تصميم مباني دور الكتب ، فوقع الاختيار من بين من رشحتهم المنظمة على مجموعة من المهندسين الإنسيان هم يدرو لويز وجيليرمو جيراالدوزا فييه سوبياس الذين شيّدوا مكتبة كلية حقوق برشلونه ، وأشرطنا معهم المهندسين المصريين أنطون نحاس الأستاذ بكلية هندسة جامعة القاهرة وأحمد شرمى كبير مهندسى شركة التعمير والمساكن الشعبية . وقد اختاروا لإقامة الدار الجديدة رقعة من الأرض الفضاء على كورنيش النيل برملة بولاك المواجهة للزمالك تبلغ مساحتها خمسة عشر ألف متر مربع .

وجاء تصميم المبني محققا للمطالب والمواصفات التى وضعتها اللجان المتخصصة ، غير أنى حين حملت الرسوم التفصيلية للتصميم لأعرضها على الرئيس

جمال عبدالناصر اجتذب انتباهه وقوع غرف الإدارة على النيل وتمنى لو كان ممكناً أن تكون قاعات المطالعة هي المطلّة على النيل . وقد عُذّل التصميم على ضوء لفظة عبدالناصر الذى وافق لتوّه بتخصيص مليون جنيه لإقامة هذا المبنى فى الخطة الخمسية الأولى ، فأُرسيتُ حجر الأساس للمبنى فى ٢٣ يوليه ١٩٦١ . غير أن العقبات مالبشت أن تكاثفت منذ مستهل عام ١٩٦٣ حتى خريف ١٩٦٦ لتبطىء إجراءات نزع الملكية وتُرخى العنان لعمليات الهدم والحفر . بل حتى بعد أن كان عطاء إقامة المبنى قد رسا منذ أغسطس ١٩٦٢ على شركة رولان للمقاولات فإن الجهاز الإدارى بالوزارة لم يتحرك للتعاقد مع الشركة إلا فى شهر فبراير من العام التالى ، ويبدو أن الشركة قد فطنت إلى فتور الحماسة لهذا المشروع فلم تتردد فى إنساق المبالغ التى كانت قد تسلمتها لحساب مبنى دار الكتّاب على مشروع آخر لمؤسسة السياحة ! التى كانت ملحقة وقتذاك بوزارة الثقافة والإعلام ، على أن تسدّه أعمالاً اتسمت بالبطء والتراخى على سنوات .

وظل هذا الحال حتى عدت إلى الوزارة فى خريف ١٩٦٦ فجهدتُ جهدى فى أن أذلل العقبات حتى دبّت الحركة فى البناء وارتفعت طوابق القسم الرئيسى فى نوفمبر ١٩٧٠ إلى الطابق الرابع ، وقسم المخازن إلى السادس ، وقسم المبانى إلى طابقين . وكانت الاعتمادات المدرجة لهذا المبنى حتى ذلك التاريخ ١,٣٧٧,٥٠٠ جنيه أنفق منها ١,٠٣٣,٤٩٣ جنيه . وكان نقل الكتب والمخطوطات من مبنى باب الخلق إلى الدار الجديدة قد بدأ بالفعل منذ عام ١٩٦٩ ، وأذكر أنى عقدت فى قاعة الاجتماعات بالمبنى دورة المجلس الأعلى للفنون والآداب الذى كنت أتشرف برياسته فى ربيع عام ١٩٧٠ فى الجلسة التى فاز فيها المرحوم الدكتور عبدالرازق السنهورى بجائزة الدولة التقديرية عن العلوم الاجتماعية .



والمعروف أن دور الكتب في العالم كله لها استقلالها الذاتي ولها مجالسها العليا التي تتولى شئونها ، أما إذا انطوت تحت جهات إدارية وانتظمت في سلك غير سلكها المستقل أصبحت تابعة ، وهذه التبعية تنال كثيرا من شئونها الثقافية المستقلة . وهذا ما حدث فعلا لدار الكتب المصرية بعد أن فقدت استقلالها الذاتي عام ١٩٧١ وأصبحت تتبع إداريا « الهيئة المصرية العامة للكتاب » وكأنها قسم من أقسام هذه الهيئة . وإذا ما رجعنا إلى الوراء قليلا منذ أن أنشئت دار الكتب وتتبعنا تاريخها على مرّ الأيام والأعوام وجدنا ما يصدق قولي ، فلقد كان لها مديرون مختارون من كبار رجال العالم الغربي ثقافة وعلم وفنا ، وكان إلى جانبهم مجلس أعلى يُختار هو الآخر من كبار رجال العلم والفن والأدب والقانون في مصر حفظاً للدار من أن تطغى عليها الروح الأجنبية . وما إن أحسّت مصر أن فيها كفايات علمية تضارع تلك الكفايات العلمية الأجنبية حتى رشحت لإدارة هذا الدار مديريّن مختارين من المصريين ، فكان منهم القانوني الشهير المرحوم عبد الحميد أبوهيف ومن بعده المرحوم أحمد باشا لطفى السيد ، ثم تنال غيرهم من رجال مرموقين .

والآن وبعد أن فقدت دار الكتب استقلالها الذاتي ، وبعد أن أصبحت تابعة لجهاز إداري أصبحت الحال غير الحال ، ولم تعد دار الكتب اليوم هي دار الكتب بالأمر بعد هذا الضمّ الخاطيء الذي حوّلها من جهاز ثقافي له عراقته في مصر إلى جهاز شبه إداري تُملّى عليه الناحية الإدارية أكثر مما تُملّى عليه الناحية الثقافية . ففى الناحية الثقافية كانت دار الكتب مثلاً تتابع كل ما يُنشر في مصر وخارج مصر ولا يفوتها اقتناء ما يخرج من هذا النوع ومن ذاك إلى مكتبتها . أما اليوم فما أظن أن شيئاً من هذا يحدث اللهم إلا ما يُضمّ إلى دار الكتب جبرا في ظل قانون المطبوعات ، أما عما يُطبع في الخارج فما أظن دار الكتب تملك فرض ذلك ، وكذا فليس ثمة من قانون ملزم لدور النشر في الخارج من أن تهدى دار الكتب ما تخرجه ، ولهذا فدار الكتب كل ما يُطبع في الخارج ، هذا إلى شيء مما يُطبع في الداخل . وغدت دار الكتب لا تعنى الباحث المدقق في قليل أو كثير

إذ لم تعد دار المراجع العامة والخاصة التى كان يهرع إليها كل قارىء دارس ففقدت قيمتها التى أنشئت من أجلها . هذا إلى المخطوطات العربية الموزعة فى الخارج فلم يعد نشاط تصوير تلك المخطوطات كما كان بالأمس - على الرغم من الوثبات الواسعة فى تقنية تصوير المخطوطات - وأصبح ما يصور منها قلة قليلة لا تعدّ . هذا إلى ما كنا نطمع فيه بعد إعداد دار للكتب جديدة خاصة على طراز حديث ، فنجدها أكثر استعدادا وأكثر نظافة وأكثر راحة ، فإذا نحن لانجد شيئا من هذا كله ، لأن الهيئة المصرية العامة للكتاب مشغولة بما رأت نفسها متخصصة له وهو الطباعة والنشر ، وأهملت جانبا التأثيث والتدعيم لهذه المدرسة الثقافية العتيقة وهى دار الكتب ، فهل من رجعة نرى فيها دارا للكتب لها استقلالها الذاتى أسوة بما هو متبع فى بلدان العالم المتحضر أجمع شرقا وغربا بلا استثناء ؟ وهل من عودة إلى حشد نفر ممن لهم صلة بالكتاب وعلم المكتبات يكونون هم المسئولون فى دار الكتب ؟ وهل من عودة الى تهيئة نفر فى مخازن دار الكتب يكونون معيّنين لهذه المهمة الإعداد التام الكامل ؟ اللهم إنا نرجو هذا كله .

## - ٢ -

هذا عن الكتاب ، أما عن المسرح والموسيقى فقد اجتاز مجتمعنا فترة ركود طويل امتد قرونا قبل النهضة الحديثة فى مطالع هذا القرن غشى معه كثيرا من ألوان التعبير الفنى بالجمود والتكرار والتقليد فسادتها الغلظة والضحالة ، وجنح بها إلى تملق الغرائز وتنمية الشعور بالأناية الفردية مما دفع بالمجتمع إلى النظر إلى الفنّون على أنها أدوات للترفيه والتسلية ، وإلى أهل الفن بكثير من الرية أو الازدراء . والشواهد على ذلك باقية ولا تزال رواسها قائمة فى الحكم على ممثلى الفن القديم بأنهم - كما كانوا يُلقَّبون - « مشخّصاتية » ، وعلى المغنين والراقصات بأنهم غوازى وعوالم ، وكذلك الشعراء والأدباء لم يسلموا من هذه النظرة التى فيها انتقاص لقدرهم . ومع النهضة الحديثة أخذت هذه النظرة تتغير

شيئا فشيئا ، فإذا نحن نشاهد حشدا من الفنانين فيهم من بلغ الغاية في فنه وأصبح موضع التقدير من الجميع ، وإذا نحن نرى مكان « الغزيرة » التي كانت تستثير الغرائز برقصات البطن ، راقصة الباليه التي تقدم الرقص الشاعري والتعبير الحالم ، ومكان الغناء الفردى المملّ الرتيب الغناء الأوبرالى وإنشاء الكورال الجماعى ، ومكان « المشخصاتى » الذى كان مثار الهزؤ والسخرية الممثل الدرامى المؤمن برسائله الفنية الرفيعة ، ومكان المداح الشاعر المبدع والأديب الناصع العبارة . فإذا نحن أنعمنا النظر فى هذا التدرج الفنى من أدنى إلى أعلى وجدنا أن الواجب الأول لوزارة الثقافة هو أن تحتضن من الفنون أعلاها وأسماها لأحفظها وأدناها . وقد كانت هذه النظرة التاريخية إلى جانب الشعور بالمسؤولية نحو المستقبل ونحو قيام المجتمع العصرى والدولة العصرية هما الإطار الذى رُسِّمَت داخله سياسة وزارة الثقافة فى مجالى المسرح والموسيقى . وفى ضوء هذا الإطار أدركنا أن بعض الفنون الرفيعة قد نشأت فى تربة أجنبية كالباليه والأوبرا والموسيقى السيمفونية والفن الدرامى ، وأن غربة النشأة تقيم نوعا من العقبات أمام تذوق هذه الفنون بالرغم من أنها فنون إنسانية عالمية . وهوما دفعنا إلى إعادة النظر فيما نشأ فى التربة الوطنية نفسها وتنقيته من الشوائب ورواسب عصور التخلف للارتفاع بمستواه ارتفاعا يجعل الانتقال من تذوقه إلى تذوق الفنون العالمية ميسورا سهلا وتهيئة المناخ للإيجاد فن قومى أوفن عالمى له طابع قومى .

كانت نقطة البدء هى إنشاء مؤسسة عامة لفنون المسرح والموسيقى لها رئيس ومجلس إدارة يدير شئونها ، راعيت أن يضم من الكفاءات أعلاها لافرق بين يمينى ويسارى . وكان الهدف المحدد لها هو إتاحة الظروف لأكبر انطلاق ممكن لطاقت الإبداع المسرحى والموسيقى والغنائى القومى ، ولإدخال صور التعبير التى تفوق علينا فيها غيرنا كالرقص الجماعى والباليه والغناء الأوبرالى والموسيقى السيمفونية وفن العرائس . وكانت النظرة فى ذلك أن كل شكل جديد من أشكال التعبير يُتاح للثقافة القومية يحفزها على مزيد من الإبداع والإفصاح عن نفسها .

والتفتت المؤسسة أول ما التفتت إلى المسرح القومى — وكان قد نال فى عهد الأستاذ فتحى رضوان عناية مستفيضة — فدعمته بعناصر جديدة ووضعت له نظما

تطمئن أعضائه على أرزاقهم، ورفعت مرتبات العاملين ، كما زوّدت بنصوص قيمة ومدرّسة من الأدب المصرى والعالمى التى تكوّن له رصيداً « ريرتواراً » مناسباً ، وأتاحت الفرصة للكتاب بعرض مؤلفاتهم المسرحية ومكافآتهم عنها مكافأة مجزية ، فلمع عدد كبير من المؤلفين المسرحيين وأقبلت الطلائع الشابة لاقتحام هذا الميدان وامتاع الجماهير بنصوص قوية محكمة تعالج العديد من مشكلاتنا الاجتماعية والقومية . ومن بين المسرحيات التى قدمت فى الفترة من سنة ١٩٥٩ إلى نهاية ١٩٦٢ : « زقاق المدق » لنجيب محفوظ ، و« الناس اللى فوق » لعثمان عاشور ، و« الفراشة » لرشاد رشدى ، و« جميلة » لعبدالرحمن الشرفاوى ، و« القضية » للطيفى الخولى ، و« السلطان الحائر » لتوفيق الحكيم ، و« ملك القطن » ليوסף إدريس ، و« فى بيتنا رجل » لإحسان عبدالقدوس ، و« أفراح الأنجال » لأحمد لطفى ، و« المحروسة لسعد الدين وهبة ، و« أنتجونا » لسوفوكليس و« كانديدا » لبرنارد شو ، و« بيوت الأرامل » لبرناردشو .

وعرف فن العرائس دعماً لإحياء فن « القرة قوز » الشعبى بعد انكماشه كى يحظى بإقبال الصغار والكبار على السواء ، فاستقدمت وزارة الثقافة قبل أن أتولى مسئوليتها خيريتين رومانيّتين وصلتا فى شهر سبتمبر ١٩٥٨ ، وبدأتا تدريب الأفراد المختارين لإنشاء فرقة « مسرح العرائس » التى ما لبثت أن تزوّدت بعدد من الفنانين التشكيليين المصريين وبنصوص عربية كُلف بها فريق من الأدباء إلى أن ظهر أول عرض لمسرح القاهرة للعرائس فى التاسع من شهر مارس ١٩٥٩ ، كما شهدته الرئيس عبدالناصر بصحبة ضيفه الملك محمد الخامس فى الثالث من شهر مارس ١٩٦٠ بمسرحه المؤقت فى أرض المعارض . وعلى هدى هذا المنطق واصل مسرح العرائس الاستفادة من الخبرة العالمية للاتحاد السوفييتى وتشيكوسلوفاكيا والصين ، كما استفاد من الزيارات المتبادلة مع أشهر المسارح المتخصصة فى أنحاء العالم حتى فاز فى عام ١٩٦٠ بالجائزة الثانية فى مهرجان بوخارست العالمى لفن العرائس . وبدأت الوزارة فى عام ١٩٦١ فى تشييد مبنى خاص لمسرح العرائس بعد إجراء مسابقة لتصميمه بين المهندسين المصريين :

وفى هذه المرحلة أيضاً شرعت الوزارة عام ١٩٦٠ فى إنشاء « الفرقة القومية للفنون الشعبية » على غرار الفرق القومية فى الدول المتحضرة

لتطوير الأصول الشعبية فى الرقص والموسيقى والأزياء ، واستعانت لانشائها بخبراء من الاتحاد السوفييتى الذى كان فى ذلك الحين أسبق من غيره فى هذا الميدان وعلى رأسهم الفنان إيجور رامازين ، وكان اختيار أعضاء الفرقة من خريجي المعاهد العليا المتخصصة فى التربية البدنية والموسيقى . واستغرق إعداد هذا الفريق وتدريبه تحت إشراف الفنان أحمد سعدالدين مدة طويلة ضمنا لنضجه وحماية له من مواجهة الفشل ، وانتقت الفرقة لوحاتها وموسيقاها بعناية من محيط فنوننا الشعبية الأصيلة خطى ورقصات وعادات وأعرافا وأنغاما وإيقاعا ، وكذا الأزياء التى أبدع الفنان عبدالغنى أبو العينين تصميمها ، وعرضتها على الجماهير بعد أن استوى لها عودها على مدى سبع سنوات من التدريب الشاق المتصل ، فلاقت منها الإقبال والإعجاب ، وطافت بعروضها فى أنحاء العالم شرقا وغربا ليسجل لها نجاحها رصيدا مرموقا فى خدمة الفن والوطن . وما لبثت محافظات الجمهورية أن أسرعت إلى تكوين فرقها للفنون الشعبية هى الأخرى ، واضطلع البارزون من الفرقة القومية ، وأذكر من بينهم الفنانين الموهوبين حسن خليل وكمال نعيم ومحمد خليل ، بتدريباتها وإعدادها حتى عمت هذه الفرق أنحاء البلاد .

وكم أثير من جدل وقتذاك حول اختيار خبراء أجنب لهذا الفن الشعبى وفى مصر ما يغنى عنهم ، وفات أصحاب هذا رأى أننا مهما كنا على علم بالفنون الشعبية فخطؤنا فى هذا الميدان كان متأخرا عن خطو الدول المتقدمة فيه ، ثم إن الاستعانة بهم كانت استعانة موقوتة إلى حين قصير ، حتى إذا ما لقننا عنهم ما نحن فى حاجة إليه رد الأمر إلى أهله من أبناء مصر ، إذ سيكون إليهم بعد أن يلقنوا أصول هذا الفن على أسسه السليمة أن يطوروه بأسلوبهم الخاص وبالطابع الذى يتفق ومقتضيات البيئة والمجتمع والتقاليد ، وكان هذا ما وقع ، فمضت الفرقة مصرية لحما ودما إلى اليوم ، وقد كان لنا فى هذا أسوة بما فعله بطرس الأكبر حين عهد إلى مصمى رقصات الباليه الفرنسيين بتكوين فرقة الباليه الروسية بمدينة بطرسبرج التى استطاعت بعد انتهاء مهمة الخبراء الأجانب أن تقف على أقدامها مستقلة بفضل حماسة أعضائها فصارعت أعظم فرق رقص الباليه فى العالم .

وكان الدكتور حسين فوزى وكيل وزارة الثقافة الأسبق فى عهد الأستاذ فتحى رضوان قد كتب يقول : « انتهت كل البدايات المبشرة [ يقصد إنشاء

مركز الفنون الشعبية [ إلى الروتين المعهود عندما فترت الهمم وشحذت في ناحية أخرى أكثر «دعاية» و«إعلانا» كإنشاء الفرق للرقص الشعبي والطلب والزمير لها ، وكأن المركز العلمى لل فولكلور قد انتهى إلى غايته فى تلك العروض الصبائية الساذجة ، وبدل أن تعنى وزارة الثقافة والإرشاد القومى باستخدام علماء فى الفولكلور ذهبت تلتمس من بلاد الكتلة الشرقية خبراء كوروجرافيين « لتوليف » رقصات شعبية مصرية ، وتداركت الوزارة الأمر بآخرة عندما استقدمت عالما فى الموسيقى الفولكلورية ، حاولت فرق الرقص الشعبى الاستعانة بخبرته فلم يرضَ عليها بالإرشاد ، ولكنه أفهم القائمين على أمورها بأن هذا الأمر ليس من شأنه ، وعاونته وزير الثقافة بكل نفوذه على جمع نماذج الأغاني الشعبية من كل أقاليم الجمهورية المصرية .

ولست أدري لماذا حكم الأستاذ الجليل على هذا الفريق وهو فى فترة تجاربه الأولى هذا الحكم الجائر ، ولماذا استهان بخبراء الكوروجراف الروس مع رسوخ أقدامهم عالميا ، ولا أعتقد أنه يجهل قيمة فريق مويسيف للرقص الشعبى الروسى الذى لا يكف عن الطواف بالعالم حيث يستقبل بالحماس المنقطع النظير دون أن يتهم أحد الرقص الشعبى بالصبائية الساذجة ، حتى إذا استعنا بخبير عالمى فى الفولكلور زعم أنه لا علاقة له بفرق الرقص الشعبى ، ثم إنى أتساءل اليوم هل لا تزال هذه هى نظرته إلى الفرقة القومية للفنون الشعبية وهى تمثل مصر فى المهرجانات الدولية بنجاح يشرف مصر والمصريين ؟ .

على أنى فى هذا المجال ، مجال الرقص الشعبى ، لا أملك إلا أن أشيد أيضا « بفرقة رضا » التى نشأت معتمدة على جهودها الذاتية شاقة طريقها بنجاح ملحوظ على يدى رائد فن الرقص الشعبى فى مصر ومصمم الرقصات الفنان الموهوب محمود رضا ، فقدمت أول عروضها على المسرح فى أغسطس ١٩٥٩ ، غير أنه كان لكل من فرقة رضا وفرقة الفنون الشعبية طابعها الخاص ولا تداخل بينهما ، فعلى حين كانت « النجومية » فى فرقة رضا لفردين فحسب هما الراقص محمود رضا والفنانة الراقصة فريدة فهمى ، كانت « النجومية » فى الفرقة القومية للفنون الشعبية للفرقة جمعاء ، وهذا وذاك لهما مسوغاتهما فى الميدان الفنى ، ثم ما لبثت فرقة رضا أن انضمت إلى فرق الدولة فى عام ١٩٦١ .



وفى نفس الوقت وبناء على رغبة شخصية من الرئيس جمال عبدالناصر وضعت الوزارة نواة «السيرك القومى» مع نهاية عام ١٩٦٠ إحياء لفنون السيرك الشعبية التى كادت تنقرض والتى هبط مستواها وتعثرت نتيجة للظروف الاقتصادية التى مرت بها مشروعات السيرك الخاصة والفردية مع أهمية هذا الفن للترويج عن الأطفال بل والكبار . وقد استقدمت الوزارة فى مبدأ الأمر الخبير السوفيتى مايسترنكو الذى مضى يطوف بصحبة الفنانين المصريين بفرق السيرك الأهلية و ببعض مدن الأقاليم لاختيار العناصر الصالحة ، ثم أجرى اختبارا لكل المرشحين للإلتحاق بالسيرك القومى قبل إنشاء مركز التدريب الذى أقيم بالفناء الخلفى لقصر عابدين مع مطلع عام ١٩٦١ ، وذلك تحت إشراف الفنان أحمد سعد الدين ، ثم ما لبثت الوزارة أن استعانت إلى جوار الفنان مايسترنكو بخبراء سوفيت آخرين فى فروع عروض السيرك المختلفة إلى أن أخذ التدريب حقه ، فقدم السيرك القومى أول عروضه فى شهر يناير عام ١٩٦٦ .

كذلك لم يفت الوزارة العناية بمشكلة نقص عدد المسارح التى تكفل توفير أكبر عدد من مقاعد المتفرجين وفى نفس الوقت إتاحة الفرصة لكافة المواهب أن تعتلى خشبة المسرح وتقدم الصيغ الفنية التى تبدعها ، وفى هذا المجال عالجت الوزارة هذه الأزمة منذ عام ١٩٥٩ بإنشاء مسارح جديدة وتحويل بعض دور السينما إلى مسارح ، واستطاعت فى وقت وجيز وبأقل التكاليف أن تصل بعدد مسارح القاهرة من مسرحين إلى تسعة مسارح . وبعد أن كان عدد المقاعد فى القاهرة مجتمعة ألفا وخمسمائة مقعد أصبح قرابة تسعة آلاف مقعد ، كما قدمت الوزارة لفرق القطاع الخاص الجادة مثل «المسرح الحر» وغيره معونات تشجيعية مختلفة ، بمنحها قدرا من المال تستعين به أو تأجير مسارحها لهم نظير مبالغ رمزية .

\*\*\*

وفى التفاتة إلى الموسيقى استلقت نظرنا أوركسترا الإذاعة الذى كانت إذاعة القاهرة قد بادرت عام ١٩٥٦ فأنشأته تابعا للدولة . والحق إنها كانت بداية طيبة وإن لم تتوفر لها الظروف والإمكانات المالية والإدارية التى تضمن استقرار الأوركسترا جهازا له دور ثقافى رئيس فى حياة المجتمع ، إذ كانت

الميزانية التي خصصت للأوركسترا تقوم على اتفاق ثلاثي بين دار الإذاعة ومصلحة الفنون ومصلحة السياحة وقتذاك ، يتحمل كل منها حصة مالية سنوية ، وسرعان ما تخلّت بعض هذه الأطراف عن الوفاء بحصتها مما ربط بين استمرار وجود الأوركسترا ومدى استجابة جهات لا ترى دائما علاقة مباشرة بين رسالتها وعزف الموسيقى . وكان أن تضاعف الارتباط الموسمي بين العازف والأوركسترا ، هذا إلى أن الإذاعة نفسها لم تحقق لنشاط الأوركسترا الجو الملائم لانتظامه ونموه ، مما دعا المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية إلى التدخل فأوصى في عام ١٩٥٧ قبل اضطلاعى بمسئولية وزارة الثقافة بأكثر من عام بنقل تبعية الأوركسترا إلى دار الأوبرا وهي الموقع التقليدي للموسيقى الكلاسيكية ، ومن هذه البداية بما أحاط بها من ظروف عصيبة رغم جهاد نفر من المثقفين يأتي على رأسهم الدكتور حسين فوزى فى الارتقاء به مضى أوركسترا الإذاعة ليحتل مكانه بين أجهزة وزارة الثقافة والإرشاد القومى مع بداية عام ١٩٥٩ تحت اسم أوركسترا القاهرة السيمفونى ، حيث صدر قرار مجلس الوزراء بنقل تبعيته إلى وزارة الثقافة وتحديد أهدافه ، ثم رصدت له للمرة الأولى بدءا من ميزانية الدولة عام ١٩٥٩ الاعتمادات المخصصة له ، وبذلك تهيأ لهذا الأوركسترا أن يمتد نشاطه إلى كل المجتمع المصرى المعاصر بدلا من أن يقتصر عمله على تنفيذ القليل من الأعمال الموسيقية المرتبطة بالإذاعة . وقد تحمس لهذا الاتجاه كل من يُحسب فى مجال الموسيقى العالمية من مثقفى مصر ، غير أنه من المؤسف أن يشيخ بعضهم فى هذه الأيام وجهه عن الحقيقة الناصعة التى عاصرها وتحمس لها قبل ، فإذا به يدعى أن وزارة الثقافة سلبت الإذاعة أوركستراها . ولا يزال الأوركسترا السيمفونى فى وزارة الثقافة يخدم الثقافة المصرية ، وإلى زمن طويل يأذن الله . ولأمر ما كانت ثمة قطيعة بين الإذاعة والأوركسترا ، فلم يُسمع للأوركسترا صوت فى الإذاعة رغم محاولات كثيرة كنت أحاولها للحيلولة دون استئراء هذه الآفة .

وما لبثت الوزارة أن أوفدت نفرا من أعضاء الأوركسترا المصريين فى منح خارجية لتجويد العزف وقيادة الأوركسترا ، ورفعت عدد العازفين إلى ثمانين عازفا حتى يتمكن الأوركسترا من التجديد فى نواحي نشاطه بإضافة مؤلفات عالمية تتطلب إمكانيات فنية خاصة لم يسبق للأوركسترا تقديمها ، كما اشترك

معه للمرة الأولى عنصر الغناء الجماعى [ الكورال ] . وانتظم تقديم الحفلات الأسبوعية صباحا للطلبة بأسعار رمزية ومساء للجمهور ، وتقديم بعض حفلات أوركسترا الحجرة أثناء انشغال الأوركسترا فى تقديم موسيقى الأوبرا والباليه . وارتفع عدد رواد الحفلات السيمفونية من ستة آلاف شخص فى عام ١٩٥٩ إلى الضعف تقريبا فى عام ١٩٦١ ، كما اتبع نظام القادة الزائرين لإتاحة الفرصة للإفادة من أكبر عدد ممكن من الخبرات مع الارتباط فى نفس الوقت مع قائد ثابت . واتجه الأوركسترا إلى تشجيع التأليف الموسيقى المصرى فقدم أعمال أكثر من خمسة مؤلفين مصريين معاصرين ، ولم يكن قد سبق للأوركسترا أن تقدم سوى أعمال مؤلف واحد من القدامى . وأذكر أنى بينما كنت سفيرا لمصر فى روما عام ١٩٥٨ حرصت على لقاء المعمارى أبوبكر خيرت بعد أن سمعت تسجيلا لأحد مؤلفاته على البيسانو ، فزرتة فى مكتبته الهندسى بالقاهرة لأوثق ما بينى وبينه ولأحيط علما بمجهوداته الموسيقية ، وكانت له تسجيلات سألته أن يعيرنى إياها لأتيسر لمن يفد إلينا فى السفارة من ضيوف إيطاليين ودبلوماسيين أن يستمتعوا بسماع جهود مؤلف مصرى . ولأزداد ثقة بقدرته الموسيقية الإبداعية رجعت إلى إحدى دور الخبرة الموسيقية الإيطالية لتقييم موسيقاه علميا ، فكان رأيها « أن فى أعماله إجادة خلّاقة » ، مما زادنى تقديرا لهذا الفنان . وعندما توليت أمر وزارة الثقافة فى نفس العام رأيت تشجيعا له أن أعهد إلى أوركسترا القاهرة السيمفونى بعزف أعماله كاملة للجمهور ، وكان هذا فى حفل دعوت إليه رئيس الجمهورية ، وكانت المرة الأولى التى حضر فيها رئيس الدولة حفلا سيمفونيا ، ومع انتهاء الحفل قلّده جمال عبد الناصر وسام الاستحقاق .

كذلك أشرت بعقد اتفاق مع إحدى الشركات اليوغوسلافية لتسجيل أعمال أبوبكر خيرت على أسطوانات كى تكون فى متناول مواطنيه بأسعار زهيدة ، وكى تكون شاهدا على قدراتنا الخلاقة فى الخارج ، وسُجلت جميع هذه المؤلفات بعزف أوركسترا بلجراد الفيلهارمونى وبقيادة المايسترو جيكا زدرافكويتش (٣) . وقد عهدتُ إلى أبى بكر خيرت بوصفه مهندسا معماريا بتصميم مبنى الكونسيرفاتور وقاعة سيد درويش للاستماع الموسيقى ، ثم وكلت إليه عمادة الكونسيرفاتور الذى بدأ فى فيلا بجزيرة الزمالك تطلّ على النيل كمكان مؤقت إلى أن تم تشييد

المبنى الأساسى . وأحسست بعد فترة أن موسيقى أبوبكر خيرت وحدها هى التى تُقدَّم وتُعزف ، فشكَّلتُ لجنة محايدة لاختيار أعمال موسيقيين مصريين آخرين رأسها المستشار أحمد لطفى وضمت موسيقيين محترفين منهم عبد الحليم نويرة وچيكا زدرا فكوفتش وأحمد المصرى وغيرهم من المتخصصين ، واستبعدت أبوبكر خيرت عامدا من أجل إتاحة الفرصة لغيره ، فاختارت اللجنة أعمالا من تأليف يوسف جريس وعزيز الشوان وحسين رشيد وجمال عبد الرحيم ويوسف شوقى ورفعت جرائنه وغيرهم ، وقد تم تسجيل بعض هذه الأعمال على أسطوانات على غرار ما اتبع مع مؤلفات أبوبكر خيرت .

واتجهنا كذلك إلى إفساح المجال أمام عشاق فنون المسرح بمشاهدة أعمال مدارس أوبرالية جديدة فى المواسم الشتوية لدار الأوبرا ، فاستضفنا فرقا ألمانية ويوغوسلافية إلى جوار الفريق الإيطالى التقليدى . كذلك جهدت الوزارة فى توفير آلات عزف جديدة للأوركسترا بدلا من الآلات التى كان يستأجرها والتى جعلتها كثرة استخدامها لأكثر من ربع قرن عاجزة عن الوفاء بالمستوى المنشود .

ومن أبرز ما يُذكر عن نشاط الأوركسترا خلال تلك الفترة خروجه إلى الجُمَاهِير . وبدلا من قصر تقديم الحفلات على دار الأوبرا وحدها التى كان من النادر أن تمتلئ بالرواد على قلة عدد مقاعدها ، انتقل الأوركسترا إلى دار سينما قصر النيل التى كانت تضطر فى بعض الحفلات إلى قفل شباك التذاكر أمام الرواد قبل موعد الحفل بعد أن غصت بالمشاهدين ، كما خرج الأوركسترا للمرة الأولى لتقديم حفلاته خارج الوطن إلى بيروت . ومن المعالم التى لا تُنسى لنشاط الأوركسترا خلال تلك المرحلة تقديم بعض حفلاته بقيادة آرام خاتشاتوريان من أعلام الموسيقى المعاصرين بعد دعوتى له خلال لقائى به فى موسكو عام ١٩٦١ لقيادة أوركسترا القاهرة السيمفونى بأعمال من تأليفه ، وكان ذلك بحضور السيدة إكاترينا فورتييفا وزيرة الثقافة بالاتحاد السوفيتى التى رحبت بالفكرة وحثته على قبول الدعوة . وقد أقبل الجمهور على مشاهدته وهو يقود عزف مؤلفاته الشهيرة حتى ضاقت بالمستمعين مقاعد دار سينما قصر النيل فافتشوا الأرض ، وهو ما لم يُشهد له مشيل من قبل فى حفلاتنا الموسيقية . كما أنى أعدت تقديم أوركسترا

القاهرة السيمفونى للسيمفونية التاسعة لبتوفن فى ربيع عام ١٩٦٢ بعد مران شاق وتدريب دعوب دام قرابة عامين بالاشتراك مع كورال أوبرا القاهرة الوليد واثنين من السوليسيت المصريين واثنين من الأجانب من أجل ماقدمه الأوركسترا نجاحا وروعة أداء . ثم كان أن وُضعت خطة فى عام ١٩٦٢ لتنمية نشاط الأوركسترا بغية الوصول بعدد أعضائه إلى مائة وعشرين عازفا بحيث يمكن توزيعهم إلى شعبتين لكى لا تتوقف حفلات الكونسيرثناء اشتراك الأوركسترا فى موسمى الأوبرا والباليه . ومامن شك فى أن الرعاية التى أولاها الأستاذ الفنان صالح عبيدون للأوركسترا السيمفونى كان لها أكبر الأثر فى تطويره ونهضته إلى أن تقلد منصب مدير دار الأوبرا .

وكانت وزارة الإرشاد القومى فى عهد الأستاذ فتحى رضوان وبرعاية الأديب الفنان يحيى حقى قد نفخت فى روح المسرح الغنائى فإذا هو ينتعش بعد كبوة بتقديمه مسرحية « يا ليل يا عين » الغنائية . ولما كان الأمر إلى حاولت أن أزيد فأطوره بهدف تأهيله لأن يتجاوز حدود الأعمال القومية الهامة لسيد درويش وزكريا أحمد فيقدم الى جانبها بعض العروض العالمية الذائعة الصيت . وقد وقع الاختيار لبدء عمل الفرقة فى المجال العالمى على أوبريت « الأرملة الطروب » لفرانز ليهار وقام الشاعر عبدالرحمن الخميسى بتعريبها ونهض بإخراجها المخرج النمساوى نيزنر . وكنت حريصا أن أُلْمس بنفسى مدى ما بلغته الفرقة من نجاح . ودعوت فى ليلة الافتتاح كبار أساتذة الفن والغناء والموسيقى والمسرح والأدب والفكر والصحافة ، واحتجرت مقصورة الشرف لسيدة الغناء العربى « أم كلثوم » بعد أن أشرت بتوشيتها بأجمل الورود والأزهار ، وظللت طوال العرض موزّعة القلب والعين بين أضواء المسرح والتماعات عيون المشاهدين . ولم تكد تنتهى الأوبريت حتى كنت بين يدى أم كلثوم أستمع إلى رأيها فإذا هو حماسة متدفقة وإعجاب عميق بأن تنبثق فى مصر تلك الطاقات الهائلة من الموسيقيين وأفراد الكورال والمغنيين والمغنيات المنفردين والممثلين الذين يؤدون عملا أوربيا له قيمته العالمية يمثل هذه المقدرة والجدارة والتفوق . وأسعدنى أن تصارحنى بأنها باتت مؤمنة أن هذه الفرقة تستطيع أن تخرج للعالم وتبهره حين يتوافر لها أوبريت مصرى الموضوع والموسيقى .

وحدثنى المرحوم الدكتور محمد مندور بجرارة صادقة عن عمق المتعة التى أشاعها العرض فى حواسه كلها ، إذ لم تكن الأنغام وحدها مصدر سعادته بل لقد شكّلت الأضواء والألوان والديكورات والمناظر والملابس أمامه سيمفونية بصرية رائعة الجمال . وكانت شاعرية النص العربى الذى كتبه عبد الرحمن الخميسى والتواؤم بينه وبين الألحان أحد مصادر متعته . كما عبّر لى بأن أمنيته أن يتاح لأكبر عدد من أفراد الشعب رؤية هذا العمل الذى يثق فى أنه سينعم بتذوقه ، فطمأنته إلى أننى قد أعددت الخطة لذلك فتلك أمنيتى أيضا منذ بدأ الإعداد لظهور هذا العمل الفنى .

واقترب منى الإذاعى اللامع الأستاذ سعد لبيب كالمستيقظ من حلم لم يكن يريد له أن ينتهى مؤكدا أنه يحسّ بأن نسمة جديدة من الحضارة قد هبت على بلادنا وأن حياتنا أصبحت أكثر ثراء وغنى ، وامتحاح العناية الفائقة التى أعدت بها كل عنصر من عناصر هذا العمل الكبير بما فى ذلك أدق التفاصيل التى يتجلى أنها عولجت بأناة وتريث بعد دراسة مستأنية وجادة .

واعترف الأستاذ أحمد بهاء الدين بأنه كان لايسخف فى الأوبرا والأوبريت لأنه لايفهم لغة أغنياته فإذا بالأرملة الطروب بنصها العربى الشاعرى تفتح له عالم الأوبرا السحرى وتتيح له الألفة معه ، وتتيحها فى نفس الوقت لآلاف من المصريين ، كما تحفز المؤلفين المصريين على أن يبدعوا فى هذا المجال الذى يتهيبه الكثيرون .

ثم كانت كلمات الدكتور لويس عوض كلمات أستاذ قدير يدرك أبعاد الأمور حين كتب يقول : « إن ( الثورة ) أثبتت أنها ( شعبية ) لأنها أتاحَت للشعب بكل فئاته أن ينعم بألوان الفن التى كان الاستمتاع بها حكرا على فئة مرقّهة من الطبقات العليا الحاكمة فى ظل النظام الملكى . كما أثبت الشعب قدرته على تذوق أرفع الفنون وأنه لا توجد أسوار للشقافة يستعصى اجتيازها على العامة » . والحق إن الدكتور لويس عوض كان من أكثر المحققين بكل عمل جاد تنجح الوزارة فى تقديمه ، ولكنه لم يكف عن حقّى سواء فى حديثه معى أم فى مقالاته على أن أذب الذباب الكثير المتجمع فى الوزارة وحولها - الكبير منه

والصغير على حد قوله — الذى يعوق فى بعض الأحيان مسيرة الوزارة من نجاح إلى نجاح .

وعلى امتداد ثلاثة أسابيع لم يخف إقبال الجماهير على دار الأوبرا التى لم يكن يسقى فيها موضع لقدم لم يشغله المشاهدون ، ولم يفتر فيها التصفيق المشتعل إعجابا وسعادة وانتشاء وتقديرا للفنانين والفنانات وعلى رأسهم السبدة رتيبة الخفنى والممثلين والراقصين والموسيقيين . وهكذا أثبتت تجربة « الأرملة الطروب » حاجتنا إلى إحياء فن الأوبريت الذى وضع سيد درويش لبناته الأولى وإلى تشجيع المؤلفين ليقدموا لشعبنا متعة فنية ترقى بوجدانهم وتسرى عنهم وتشجذ همهم للإبداع والإنتاج .

وكم كان الكاتب أحمد رجب موفقا فى عبارته البليغة التى تقول : « نجحت الأرملة الطروب ونجح الجمهور . فالجمهور كان ينجح دائما وكانت الأوبريتات تسقط دائما . وغير صحيح أنه مطلوب جمهور ناجح للمسرح الغنائى عندنا ... ولكن الصحيح أنه مطلوب مسرحيات ناجحة للجمهور عندنا » .

\* \* \*

وكان من بين المشروعات الطموحة التى تضمنتها الخطة الخمسية إقامة دار جديدة للأوبرا بدل تلك الدار التى بدأت معالم الكهولة تدب فى أوصالها رغم ماتسميزه من رقة وجمال ، بل لقد كانت واحدة من أبداع منشآت القرن الماضى شيدتها الخديوى اسماعيل عام ١٨٦٩ للمشاركة فى احتفالات افتتاح قناة السويس ، وتم إنشاؤها على عجل لم يترك لها فرصة تسمح بتزويد يدها بكل مقومات دور الأوبرا الحديثة . وقد استخدم فى بنائها الخشب لا الحجر ، ولم يزود مسرحها الصغير بالآلات الميكانيكية الحديثة الموجودة فى معظم دور الأوبرا فى العالم بل وفى أغلب مسارحه ، لأنها صُممت لاستقبال الفرق الأجنبية التى تفد من الخارج ومعها كافة احتياجاتها ، فلم تقم بها قاعات مناسبة لتدريبات الموسيقيين والفنيين والراقصين والمخرجين ومهندسى الديكور ، ولم تزود بمكتبة للبحوث والدراسات ولا بقاعة للمحاضرات ، فأغلب الظن أن الذين أقاموها لم يحل

بخاطرهم التعمق في هذه الفنون، بل إن مقاعدها لا تستوعب أكثر من سبعمائة وخمسين مُشاهداً، وهو عدد يقصر دخله عن الوفاء بنفقات العروض المسرحية أو الأوبرات الحافلة أو عروض الباليه التي يقدمها عدد ضخم من الراقصين والراقصات، ولا يتسع مكان الأوركسترا إلا لخمسين عازفاً فقط، بينما لا يقل أوركسترا الأوبرات العادية الآن عن ثمانين عازفاً. هذا إلى أنها لم تكن تستغل في أوقات الصيف إذ كانت تتعرض لدرجة من الحرارة مرتفعة، وهو ما استحال علاجه، إذ تبين لنا بعد استشارة الخبراء أن إدخال نظام تكييف الهواء يعرض سلامة بنائها للخطر. ولقد أبدى جمال عبد الناصر حماسه لهذا المشروع ضمن مشروعات الثقافة والفنون، وحين وافق على إدراج سبعة ملايين من الجنيهات للمشروعات الاستثمارية في حقل الثقافة نال منها مشروع بناء دار الأوبرا الجديدة مبلغ مليون جنيه ضمن الخطة الخمسية فيما بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٦٥ أنفق منها حوالي ٣٥٥٠٠ من الجنيهات في الدراسات والتصميمات الأولى التي قام بها المهندس الألماني مصمم الدار والمهندسون المصريون المساعدون.

كان أول ما شغل بالنا هو اختيار المواقع التي ستقام فيها المباني الفنية الجديدة التي تضمنتها خطة وزارة الثقافة الخمسية وعلى رأسها دار الأوبرا الجديدة والمتحف المصري الجديد. وكان من الطبيعي أن نفكر في أن تكون دار الأوبرا والمتحف لاثقين بمركز مصر المرموق وأن نعدّهما ليكونا أبداع مراكز الفنون في الشرق الأوسط، وذلك بإقامتهما لوفق أحدث التصميمات المعمارية في العالم واستكمالهما لأحدث الوسائل الفنية والمسرحية والمتحفية. لهذا رأينا أن نغشدهما الخبرة اللازمة داخليا وخارجيا، فكان أن اتصلت في أغسطس ١٩٥٩ بمنظمة اليونيسكو طامعا في خبرتها في هذا المجال، فأوفدت على نفقتها بعثة من خبراء التخطيط والعمارة في فبراير ١٩٦٠، وعلى رأسهم المعمارى العالمى الشهير وولتر جروبيوس مؤسس «مدرسة باوهاوس» والذي لا يتنازع في الاعتراف بعقريته اثنان ومعه الأستاذ ريشير مدير المجلس الدولى للمتاحف والدكتور پول مدير جامعة أمستردام وعددا آخر من الخبراء المتخصصين. وبعد البحث والدراسة واستعراض رقعات الأرض المتاحة التي وضعتها محافظة القاهرة تحت تصرف وزارة



الثقافة لاختيار موقعين من بينها لدار الأوبرا والمتحف الجديد ، رأت اللجنة المكونة من هؤلاء ومن نفر آخرين مختارين من أساطين علماء مصر ومهندسيها أن حديقة الحرية بمنطقة الجزيرة هي أنسب المناطق التي تصلح لتشييد دار الأوبرا ، وأن أرض المعارض بالجزيرة هي الأخرى أنسب المواقع لإقامة المتحف الجديد .

وكانت الخطوة التالية أن طلبت إلى منظمة اليونسكو في عام ١٩٦٠ ترشيح أفضل المؤسسات الهندسية العالمية ذات الخبرة في مجال تصميم الأوبرات والمتاحف. والتي سبق لها أن قامت فعلا بتنفيذ مثل هذه المشروعات في الخارج . وقامت المنظمة بترشيح بعض المهندسين العالميين المتخصصين في بناء دور الأوبرا هم المهندس جويرن أوزدن الذي قام بتصميم وتنفيذ أوبرا سيدني بأستراليا والمهندس فريتز بورغمان الذي قام بتصميم وتنفيذ أوبرا برلين والمهندس ويليام ريشان الذي نفذ أوبرا كولونيا . وقد وقع اختيار لجنة الخبراء التي شكلتها وزارة الثقافة على المهندس فريتز بورغمان الذي شيد أوبرا برلين الغربية أحدث دور الأوبرا في أوروبا كى يتولى تصميم مشروع أوبرا القاهرة ، ورأيت أن يشترك معه في التنفيذ المهندسان المصريان المرحوم أبوبكر خيرت ومحمد شريف نعمان ، وكان أولهما يدرك احتياجات دار الأوبرا الجديدة بفضل اشتغاله بالموسيقى إلى جانب خبرته الهندسية ، وكان الثانى عميداً لكلية الهندسة بجامعة القاهرة ، وكلاهما اتخذ من إقامة دار أوبرا القاهرة مادة لرسائله الجامعية في الخارج .

وقد رأت هذه المجموعة من المهندسين بدورها أن حديقة الحرية بمنطقة الجزيرة هي أنسب المناطق التي تصلح لتشييد الدار الجديدة لانفساح خضرتها وقلة ضوضائها ، كما أن انخفاض مستوى الحديقة عن مستوى الشارع ببضعة أمتار يسمح بإقامة بدروم للمسرح يستوعب كافة احتياجاته الميكانيكية والكهربائية اللازمة لتغيير المناظر في سرعة ويسر ، بالإضافة إلى أن هذا الموقع يعتبر متوسطا بين مدينة الجيزة ومدينة القاهرة . وقد تم إعداد المشروع بالفعل على أن تكون الدار في الجزء الجنوبي من الحديقة [ حيث يقوم الآن فندق شيراتون الجزيرة ] في مواجهة نافورة النيل على مساحة قدرها عشرة آلاف متر مربع ، يتوسطها المبنى الرئيسى الذى تحيط به شرفة يبلغ عرضها خمسة أمتار ونصف ، وتتصدر الواجهة الرئيسة

بعرض المبنى تمتد على هيئة جسر حتى مياه النيل . و يبلغ مسطح هذه الشرفة خمسة عشر ألف متر مربع ، وطولها على النيل مائة وخمسة وعشرون مترا ، وتحتضن في أسفلها كافيتريا تلامس مستوى النيل ، تفتح أبوابها نهارا وليلا ، بينما يتيح مسطح هذه الشرفة التي يُصعد إليها من سلالم متعددة أن ينعم الزائر بمشاهدة الحدائق الممتدة في المنطقة ويمدّ بصره إلى آفاق نهر النيل . أما المبنى نفسه فيرتفع عن سطح الأرض واحداً وعشرين مترا وبشكل مستطيل ومنظم ، ويمتد من الشارع إلى داخل الحديقة حتى البركة الموجودة بها حاليا . ويعلو وسط المبنى الجزء المخصص للمسرح الرئيسى عن الأرض بمقدار اثنين وثلاثين مترا ، وعن باقى المبنى بخمسة عشر مترا .

وقد أرسيتُ حجر الأساس لدار الأوبرا نيابة عن رئيس الجمهورية في يوم ٢٣ يولية ١٩٦٢ ، وكان إعداد الدراسات الخاصة بالمشروع قد بدأ من قبل ذلك بمدة ، وأجريت الفحوص اللازمة لأرض المبنى ، وتم فرز العروض الابتدائية المختلفة التى تقدمت بها الشركات المتخصصة في التركيبات الميكانيكية للمسرح وملحقاته والأعمال الفنية للإضاءة المسرحية والإنارة وآلات تنبيه الحريق وساعات الحراسة والإشارات الإلكترونية وأعمال تكييف الهواء والتهوية الصناعية وأجهزة الإطفاء تمهيدا للبدء في التنفيذ . غير أن تقديم استقائى إلى الرئيس عبدالناصر في سبتمبر ١٩٦٢ قد غير مجرى المشروع على نحو ما ساورده تفصيلا .

### — ٣ —

أما في مجال السينما فكلنا يعرف أن صناعة السينما في مصر ترجع إلى عام ١٩١٧ حين أنشئت « الشركة السينمائية المصرية » بالإسكندرية والتي سارت بخطى متعثرة بالرغم من انفساح السوق وتزايد الطلب عليها ، ولعل مرة هذا التعثر التركيب العضوى لتلك الصناعة التى انعقدت السيطرة فيها لمجموعة من أصحاب الأموال الأجانب والمتمصرين الذين لم يكن يعينهم غير الحصول على الكسب السريع ، فضلا عن تجاهل الفن السينمائى القائم على الدراسة والتخصص ، مما

جعل حقل السينما مجالاً مفتوحاً على مصراعيه للهواة من ناحية وللمحترفين غير المؤهلين علمياً من الناحية الأخرى ، وذلك باستثناء التجربة الرائدة لبنك مصر في هذا الميدان فكانت حين أنشأ « شركة مصر للتمثيل والسينما » عام ١٩٢٥ . ولقد كان في إمكان المسيطرين على السينما استغلال فرصة الزواج الاستثنائي خلال الحرب العالمية الثانية والفترة التي تلتها لزيادة العناية بالإنتاج السينمائي ، غير أن مجهوداتهم كانت قاصرة إلى حد كبير . لأنها تركّزت في إنشاء الاستوديوهات والمعامل دون مواجهة النقص في النواحي الفنية أو مجاراة التطور المحتوم ، فإِنْ أخذت موجة التضخم في الانحسار حتى أخذ ارتياد دور السينما يقلّ والإنتاج يضعف .

وقد تسبّحت حكومة الثورة مبكراً إلى أهمية السينما بجانبها الفني والاقتصادي فأصدرت عام ١٩٥٤ تشريعاً يقضى بدعم صناعتها ، وفرضت ضريبة إضافية تُخصّص حصيلتها لدعم السينما ، غير أن غياب الجهاز المتخصص الواعي بأمور هذا الفن أدى إلى ذوبان تلك الحصيلة في ميزانية الدولة دون أن تحقق الهدف الذي فُرضت من أجله . وكان أن اتخذت الدولة بعد ذلك خطوة متقدمة في هذا المجال فأنشأت ضمن إطار وزارة الإرشاد القومي في عام ١٩٥٧ جهاز خدمات لتكوين نواة لتطوير هذه الصناعة على أساس سليم وأطلقت عليه اسم « مؤسسة دعم السينما » ، غير أن هذه المؤسسة لم تبدأ نشاطها الفعلي إلا في عام ١٩٥٩ حين اعتمد لها في الميزانية مبلغ ٢٤١٣٠٠ جنيه لإنتاج الأفلام وتوزيع وتسويق وتقديم جوائز للأفلام الجيدة من القطاع الخاص والمهرجانات الدولية والدعاية استغل جزء منها في بناء معاهد أكاديمية للفنون وشراء أجهزة ومعدات إنتاج ومعمل ألوان . وكان عدد العاملين بالمؤسسة آنذاك محدوداً للغاية ومتناسباً مع ما يطي بها من واجبات ، فلم يتجاوز مجموع مرتباتهم ٢٩٠٠٠ جنيه . وفي عام ١٩٦٠ اعتمد للمؤسسة مبلغ ٣٠٠٠٠٠ جنيه أنفق منها في نفس الأغراض مبلغ ٢٤٢٦٠٠ جنيه فقط ، وفي عام ١٩٦١ اعتمد لها مبلغ ٢١٤٣٠٠ جنيه أنفق منها مبلغ ٢١٢١١٠ جنيه في نفس الأغراض . ومن هذا المبلغ شاركت مؤسسة دعم السينما بالتقويل والخدمات في إنتاج فيلمين على درجة كبيرة من الجودة شكلاً ومضموناً هما « الناصر صلاح الدين » و « والإسلام » . كذلك أعدت المؤسسة خطة بعيدة

المدى لإنشاء معامل وأستوديوهات حديثة التصميم بمنطقة دار السلام ، تزود بإمكانيات تصوير المناظر الطبيعية تقام إلى جانبها فنادق صغيرة ومساكن مناسبة للإقامة بالمنطقة بما يمكن معه جذب الشركات العالمية لتنتج بعض أفلامها في مصر غير أن هذا المشروع لم يتحقق على وجه ما .

كانت وزارة الثقافة تدير المؤسسة خلال المرحلة الأولى ( ١٩٥٩ - ١٩٦٢ ) وقد وضعت لها أهدافاً محدّدة ، منها رفع المستوى الفنى والمهنى للسينما بزيادة الاهتمام بالمشتغلين بها ومنح الجوائز التشجيعية للأعمال الجيدة والمجيدى فى الحقل السينمائى وإيفاد البعثات الطويلة والقصيرة الأجل لدراسة الفن السينمائى فى الخارج وإعطاء الفرصة للمعاملين فى السينما لتوسيع نطاق معارفهم عن طريق الاشتراك فى مؤتمرات ومهرجانات السينما الدولية وإقامة أسابيع الأفلام العربية والأجنبية فى الداخل والخارج ، ومنح التسهيلات المالية للمعاملين بصناعة السينما بإقراض الإنتاج الهادف ، وتمويل الأستوديوهات بالقروض وضمانها لدى هيئات الائتمان ، وتشجيع عرض الأفلام المصرية داخل البلاد وخارجها . وفى ضوء هذه الأهداف وضعت الوزارة للمؤسسة خطة متدرّجة لإنتاج عدد محدود من الأفلام الروائية والتاريخية تم انتقاؤها بعناية لمعالجة بعض الموضوعات الجادة من خلال شركة مصر للتمثيل والسينما . كذلك أنتجت عددا محدودا من الأفلام التسجيلية اليسيرة التكاليف لتعبّر عن قيم المجتمع ولتعرف المواطن ببلده وبتراثها الحضارى ، وجاء على رأسها فيلم « ينابيع الشمس » الذى أشرف على إخراجه المخرج الكسندى چون فينى يعاونه جملة من الشباب المصرى الواعد ، ويشمل تاريخ نهر النيل من منبعه إلى مصبه فى إيقاع فنى رائع وأسلوب شاعرى لم يسبق إليه ، وكان الهدف منه التثقيف إلى جانب الدعاية وترويج السياحة .

وحرصت الوزارة على عدم دخول المؤسسة فى متاهة العمل السينمائى إلا فى حدود مرسومة ، بالاكْتفاء بضم ستوديو مصر ورصد نصف مليون جنيه لتطويره والاهتمام برفع مستوى كفاءته على أساس أن جودة العمل السينمائى لا تقوم فقط على الموضوع أو الإخراج أو التمثيل فحسب ، ولكن على « التقنية » أيضا ، وهنا يمكن أن يفرض العمل الجيد نفسه بل ويؤثر فى المنتجين الآخرين . وبالفعل تم تزويد أستوديو مصر بمعدّات حديثة للصوت والتصوير ومعامل لتحميض وطبع

الأفلام الملونة وغير الملونة .

وخلال هذه المرحلة [ ٥٨ — ١٩٦٢ ] أنشأت الوزارة « نقابة للمهن التمثيلية والسينمائية والموسيقية » ، وتكوّنت « جمعية الفيلم » في عام ١٩٦٠ لعقد الندوات السينمائية الدورية لعرض الأفلام المختارة وتنظيم المحاضرات عن الفن السينمائي وتكوين مكتبة سينمائية . ووزعت الوزارة لأول مرة خلال أعوام ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦١ جوائز مالية للسينما لتشجيع فروع الفن السينمائي من الفكرة إلى السيناريو إلى الحوار إلى الإخراج إلى الأداء والموسيقى والتصوير والتسجيل الصوتي والديكور ، ثم أضافت الوزارة إلى هذا النظام في عام ١٩٦٢ مبدأ شراء نسخ من أجود الأفلام تشجيعاً للمنتجين على تقديم الأعمال ذات المستوى بما أسفر عن إقبالهم على موضوعات لم تكن تُطرق من قبل ، وإلى الارتفاع بمستوى الفيلم المصري إلى حد كبير ، فتبدّى مناخ من الاستقرار النسبي يسود قطاع السينما . ومع ذلك فقد كان من الواضح حاجة العمل السينمائي إلى تطوير أكبر وتشكيل جيل جديد من السينمائيين الأكفاء ، فأنشأنا « المعهد العالي للسينما » في أغسطس ١٩٥٩ الذي فتّح آفاقاً جديدة لأصحاب المواهب التي كانت تتجه من قبل للدراسات التقليدية بغض النظر عن احتياجات المجتمع وتطوره وما جدّت من الأساليب التقنية في العالم . وفي تحرك متواز اختارت الوزارة أفضل الكتب السينمائية العالمية وعهدت إلى المتخصصين بترجمتها ثم أحالتها إلى مؤسسة النشر التابعة لها لإصدارها ، وفرضت على دور عرض الدرجة الأولى التي كانت مخصصة أصلاً للفيلم الأجنبي أن تلتزم بعرض عدد مناسب من الأفلام المصرية الطويلة كي تتيح فرصة للمنافسة بين الفيلم المصري والفيلم الأجنبي . وحتى سبتمبر ١٩٦٢ حين تركت وزارة الثقافة لم يكن هناك أى تفكير في تأميم السينما أو أن تتولى الدولة الإنتاج السينمائي لما كان يعنيه ذلك من الانزلاق في مشاكل لا حصر لها دون إعداد مسبق . ولعل المسارعة غير المدروسة للسيطرة على السينما بعد ذلك هي التي أدت إلى اقتحام الدولة ميدان الإنتاج السينمائي دون تحوط . وكانت ثمة عوامل كثيرة مكّنت لهذا التيار من التغلب ، فاندفع بحرف أمامه السينما المصرية إلى مرحلة جديدة هي المرحلة الثانية (١٩٦٣ — ١٩٦٦) .

وكانت الوزارة قد أعدت من قبل مشروع « قانون التنظيم السينمائي » ، غير أنه لم يكن قد صدر حتى سبتمبر ١٩٦٢ ، بل أهمل شأنه تماما بعد ذلك على الرغم من أهميته القصوى وقتذاك ، وأعزو ذلك الى أن الاتجاه قد تغير من محاولة الدولة رفع شأن السينما وهي في أيدي أصحابها من القطاع الخاص أساسا دون تدخل مباشر من الدولة إلا بالمشاركة في الإنتاج أحيانا أو إنتاج عدد قليل من الأفلام الجيدة ، تغير ذلك الاتجاه رأسا على عقب إلى ضم السينما كلها إلى الدولة إنتاجا وتوزيعا وعرضا ، وهي فلسفة مغايرة تماما لما كنت أراه في هذا الصدد .

وتنبع أهمية مشروع قانون التنظيم السينمائي من أنه كان يجعل من مؤسسة دعم السينما الجهاز القائم بإنهاض كافة أنواع العمل السينمائي ، ويوضح الشروط الواجب توافرها في المنشآت السينمائية كالإنتاج والتوزيع والاستوديوهات ، والضمانات اللازمة لحماية الفنانين والفنيين حتى طبقة الكومبارس من الاستغلال وتطبيق العدالة بينهم ، كما وضع حولا لاستيراد الفيلم وتوزيعه وتسويقه ، وكذا استيراد الأجهزة والآلات . كل ذلك تحت إشراف مؤسسة دعم السينما والوزير المشرف على الثقافة ، بلا حاجة إلى أية صيغة أخرى كالشراء أو نزع الملكية أو التأمين الشكلي .

## - ٤ -

ثم ما أغنانا أمة تراثية حفلت بألوان من التراث أربعة : التراث الفرعونى واليونانى - الرومانى والقبطى والإسلامى ، فإن كثرة هذا التراث الأثرى وتنوعه وتباعد ما بين مواقعه يخلق مشكلة يتعذر معها رغم الجهد المتواصل الإشراف عليه إشرافا تاما . وقد واجهنا أول ما واجهنا سؤال هام كان لابد من الإجابة عليه إجابة حاسمة . هل نستمر نتوسع فى سياسة الحفر لنستخرج كل يوم أثرا جديدا من جوف الأرض فنضيف إلى مالدينا من تراث ضخم ومتنوع آثارا جديدة لاشك فى روعتها ، أم أن الصالح العلمى والعملى يقتضى أن نترى قليلا لترميم مالدينا من آثار حفاظا عليها مع تحسين مواقعها وتسجيل ما يحتاج منها إلى تسجيل ومع تناول بعضه بالنشر العلمى سواء فى الكتب أو الدوريات المتخصصة ، حتى إذا فرغنا من هذه المهمة الرئيسة نعود إلى سياسة التنقيب من جديد ؟

ولم يكن الوقوف على إجابة لهذا السؤال أمرا هيئا ، فقد كان أى كشف جديد وما فيه من إغراء تمليه رغبة إنسانية دفينه من العسير مقاومتها ، فضلا عما يمكن أن يحدثه قرار إرجاء أعمال الحفائر من تأويلات ضارة فى بعض الدوائر العملية ، وانتهى بنا الأمر إلى الأخذ بسياستين متلازمتين : أولاها إعطاء الأسبقية الأولى للترميم والتنظيف والتسجيل والنشر العلمى ، وثانيتهما تشجيع البعثات الأجنبية على مواصلة الحفائر والتنقيب تخفيفاً للحمل الواقع علينا من جانب ، وقطعا لأى تفسير سلبى من جانب آخر ، وحرصاً على أن يستمر تيار علم الآثار متجدداً ومضطردا ، خاصة وأن أى كشف جديد قد يزيح ستارا عن غموض يكتنف ماتم اكتشافه فعلا ، وقد يضيف تفسيرات من الجائز أن تغير من تفسيرات سابقة .

كما أنى تطلعتُ إلى ربط الأثر بالناس حتى نضمن حمايته لأن وقوعه في دائرة الاهتمام العام يمكن من التعرف عليه ومراقبة ما قد يصيبه بقدر ما يتيح دراسته التزود بالمعلومات التي يصبو إليها الناس ، وهو ما يعين في النهاية على الاستيعاء منه في إنجازات فنية متعددة . على أنى سرعان ما تبين أن هذا الربط ليس ميسرا بالنسبة لكل أثر ، فمن الآثار ما هو واقع في أماكن مكدسة بالسكان ، بل منها ما بات يُستغل في غير الأغراض التي ينبغي أن يُخصص لها ، كما هو الحال في الآثار الإسلامية بالقاهرة ورشيد على وجه الخصوص . ولم أتردد حين طلبتُ إلى مصلحة الآثار حصر هذه الآثار حصرا علميا دقيقا ووضع برامج زمنية لترميمها وصيانتها في طرح فكرة تكوين جمعيات ثقافية أو نواد فنية بالأحياء التي توجد بها آثار إسلامية بهدف إشاعة نوع من التوعية الفنية بهذه الآثار في خلق حد أدنى من التدقّق لما تحويه من إبداع فني لدى عامة الناس ، غير أن هذه الأمانة لم يتحقق منها شيء لتقاعس الاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي من بعده عن مد يد العون لنا في هذا المجال ، وقد كان ذلك في تقديري أحد سلبات التنظيم السياسي تجاه وزارة الثقافة .

وقد حرصت قبل البت في شئون الآثار على قضاء أسبوعين في تفقّد مختلف المواقع الأثرية مستقلا طائرة هليكوبتر وضعتها القوات الجوية تحت تصرفي تجنباً لاستخدام المواصلات العادية في زيارة المواقع النائية التي كانت ستستغرق وقتاً أطول كان العمل الوزاري يقتضى أن أدخره له . هذا فضلا عن أسبوعين آخرين أمضيتها بين معابد النوبة متنقلا بالباخرة ما بين وادي حلفا جنوبا حتى أسوان شمالا ، ورافقني في هذه الرحلة الاستطلاعية المرحوم الدكتور أحمد بدوي مدير جامعة عين شمس والمرحوم المهندس محمد مهدي رئيس الإدارة الهندسية بمصلحة الآثار وقتذاك .

وأذكر أن أول قرار اتخذته في مجال الآثار كان يتعلق بأحد العلماء الفرنسيين العاملين في ترميم المجموعة الجنائزية للملك زوسر في سقارة . وكان قد فوجيء بعد قطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا بجرماته من تجديد التصريح اللازم لمواصلة رسالته العلمية التي وهبها حياته كلها ، فسعى إلى لقائي نابض القلب بالعواطف الجياشة تغرورق عيناه المحمرتان بالدموع وهو يلتمس أن ينال التصريح الذي يتيح



له مواصلة مهمته العلمية التي تتطلب إشرافه الشخصى . ووجدت نفسى حائرا بين تطبيق القواعد المعمول بها وبين تحقيق رغبته التي لم أشك في نبهها ، ولم ألبث أن كسرت طوق الحيرة ودعوته إلى استئناف العمل في نفس اليوم متحملا مسؤولية قرارى . وقد أثبتت الأيام أنى كنت محقا في قرارى ، فالإنجازات التي قام بها المهندس جان فيليب لوير بسقارة تكتب لاسمه الخلود إلى جوار اسم المهندس إيمحوتب بعد أن أمضى حياته بقرب آثاره منقبا وكاشفا ودارسا حتى كتابة هذه السطور .

وكانت مصلحة الآثار قد انتقلت عام ١٩٥٨ من وزارة التربية والتعليم إلى وزارة الثقافة ، فأضافت هذه العلاقة الجديدة مسؤوليات ثقافية تفرضا طبيعة وزارة الثقافة إلى جوار العناية التقليدية بالمناطق الأثرية والمتاحف ، فنبضت عروق المصلحة بنشاط ثقافى تجلّى أكثر ما تجلّى في « مشروع الصوت والضوء » الذى أدخلته بأهرامات الجيزة وبواهل ، ثم في قلعة صلاح الدين وأخيرا في معبد الكرنك . وقد تم تنفيذ المشروعات الثلاثة على مستوى رفيع جمع بين النص التاريخى وبين الموسيقى والأداء الفنى في صياغة جمالية تليق بجلال المكان الذى تدور فيه ، أتاح لآثارنا المصرية أن تجتذب إليها عيون العالم وتستحثه على المشاركة في إنقاذ آثار النوبة التي تشتمل على سبعة عشر معبدا حتى لا تغرقها مياه النيل عند إقامة السد العالى .

ولأول مرة منذ عهد الخديو إسماعيل أرسلت مصر بعض آثارها إلى الخارج في مجموعتين : مجموعة « معرض الـ ٥٠٠٠ سنة من التاريخ المصرى » الذى طاف أوروبا كلها ، ومجموعة « معرض توت عنخ آمون » الذى طاف الولايات المتحدة وكندا ثم اليابان وباريس ولندن .

وفي الحق إن المشكلة الجوهرية التي استولت على أغلب جهودى واستأثرت بمعظم اهتمامى في مجال الآثار كانت مشكلة إنقاذ معابد النوبة نظرا للمصير المأساوى الذى كانت ستعرض له معابد هذه المنطقة السبعة عشر مهددة بطغيان المياه عليها وغمرها إلى آخرها في وقت مرهون أجله بمراحل تشييد السد العالى . ولا أنكر أن انصرافى المطلق نحو إيجاد حل لهذه المشكلة جعلها تتمتع أكثر من

غيرها بالأسبقية ، فحين يتحمل المرء مسؤولية ما ويحدد الهدف الذى يبغي الوصول إليه عليه أن يتخذ القرار بتحديد الأولويات فى مشروعاته . فالمال والطاقة محدودان ، ولا يمكن للمرء أن يحقق كل شىء فى وقت واحد ، فضلا عن أن عنصر السباق مع الزمن — على نحو ما سأوضحه تفصيلا فى فصل مستقل — كان ملزما فى تحديد هذه الأولويات وإرجاء مشروعات أثرية أخرى . ومع ذلك فلم نهمل الآثار الإسلامية بل فعلنا ما فى الإمكان حيالها فى حدود الوقت والمال والإمكانات البشرية المتاحة ، تاركين للخلف المضى فى المسيرة .

\*\*\*

ومنذ أن كنت ملحقا عسكريا بباريس عام ١٩٥٤ أدركت شأن العلاقة بين الآثار والناس حين شاهدت عروض الصوت والضوء بقصرى قرساي وفانسن فى باريس وقصور اللوار التى تؤدى دورا تثقيفيا جذابا فتشّد الناس إلى فهم الآثار وتذوّق أسرارها وربطها فى وجدانهم وذاكرتهم بالصورة والرواية التاريخية والأداء الفنى والموسيقى . فكلما تنوّعت أسباب الحضارة تنوّعت الوسائل التقنية المؤدية إليها ، فإذا نحن نشاهد كيف خرجت الآثار العظيمة والروائع الفنية التليدة مجلوة فى النور ، فبعد أن ظلت آلاف السنين جامدة فى أماكنها لا تنطق أصبحت اليوم صفحة منشورة نقرأها ونستمع إليها وكأنها صور حية تروح وتغدو فى ميدان الحياة حافلة بأصوات أبطال مسرحيين قوميين بل عالميين يخفّ لمشاهدتهم والاستماع إليهم الناس من هنا ومن هناك لافرق بين مقيم ونازح ، ولا غرو فالفن لغة العالم أجمع لاتحدّه حدود .

وما كدت أحمل على عاتقى عبء وزارة الثقافة عام ١٩٥٨ حتى ألحّ علىّ خاطرٌ بإقامة مثل هذه العروض فى مواقعنا الأثرية الخالدة ، ولم أتردد فى استدعاء بعض الفنانين والمتخصصين من باريس رغم أن العلاقات الدبلوماسية كانت ماتزال مقطوعة بين مصر وفرنسا ، وأمضينا عشرة أيام نتجول بين المواقع الأثرية فى القاهرة والجيزة وسقارة والأقصر حتى استقرّ الرأى على إمكان تحقيق هذا المشروع بدءاً بمنطقة أهرام الجيزة لتغطية التاريخ الفرعونى وقلعة صلاح الدين لتغطية التاريخ الإسلامى ، على أن تنتقل إلى الكرنك حين نفرغ من التجربة الأولى . فعهدت إلى لجنة من علماء الآثار والتاريخ بإعداد المادة العلمية للمشروعين

وبعثت بها إلى الأديب الفرنسي جاستون بونير لإعداد النص الفني المصاحب للعرض ، فجاء نصه ليصل الإنسان بتاريخه ويبعثه على التفكير والتأمل بعد أن آمن بمجدنا التليد فضلا عن خياله الفضفاض الذي أضفاه ، وإذا هو يتخير من اللفظ آنقه ومن العبارات أسماها مما جعل النص وكأنه شعر لانيروا ثم سكون الليل وهدأته . وعهدت إلى الفنان جاستون پابلو بالإخراج الضوئي الذي به تبرز معالم الأثر ومساوراه من خلود وعقيدة وعراقة أحجاره العتيقة على وجه لا يبعث على الملل . كما كلفت الموسيقى الشهير جورج دي لرو بوضع الموسيقى المصاحبة ، وأشركت معه المؤلف الموسيقى المصري حليم الضبع فأوفدته إلى باريس لمعايشة الموسيقى الفرنسية وتزويده بالألحان القومية لإضفاء الطابع الأصيل على النص الموسيقي . فالموسيقى التي تصاحب هذه المشاهد لا تقل شأنًا عن غيرها من العناصر ، إذ تصل المتفرج باللوحات بعضها إلى بعض ، كما تجلوين يديه المعاني فإذا هو يلقي عنها كما يلقي عن الصوت والضوء ، فهي حين تسير النص تكشف عما دقّ وغُمض وتؤكد أغراضه ومقاصده ، وتبعث الرهبة في النفوس شأنها شأن تراتيل الطقوس الدينية . والمستمع إلى الموسيقى التي وضعها دي لرو في عَرْضِ الهرم والكرنك يحسّ ما لها من جلال في الفضاء المحيط بالأثر . وفي الحق لقد وفق هذا الموسيقار في أن يعيد إلى الخيال مجد الفراعنة التليد ، وحسبنا أن المشاهد لا يكاد يغادر المكان بعد العرض حتى يرّدّد في خاطره ما سمع من ألحان أسرة .

ولقد كنا نهدف من وراء هذا العرض أن نكشف للمواطن المصري عن ذلك الماضي الزاخر بترائه كى يباهى به ويفخر ، ثم أن نجعل من تلك المشاهد الساحرة المنطوية على متعة للروح والعين والأذن ما يجذب السائحين عن إعجاب ورضا . فما أبعد الأثر الذي تتركه تلك المشاهد في نفوس المواطنين تثقيفا ، ثم ما أعظمها من وسيلة لجلب السائحين ، بعد أن هيأنا لهم متعة ليلية تخالف متع الملاهى ، إذ ينصتون لصوت التاريخ وهو يسرد عليهم أحداث السنين في تتابع وفي سكون الليل وهدأته ، وقد لفت الضوء بأثوابه المختلفة ما بين البياض والزرقة الخافتة والحمرة المداكنة والصفرة البرتقالية تلك الآثار مع أنغام الموسيقى الشجية فيجاري السمعُ البصر ، فإذا الماضي السحيق حاضر حيّ بين يدي الرائي ، وإذا الناس في

جوا آخر غير ذلك الجو الذى كانوا يرون فيه هذه الآثار فى ظل الشمس اللافتة وبين صخب الجماهير وهى غادية رائحة .

وحين وصلنى النص الفرنسى للمشروعين عكفت على دراسته بعناية شديدة تدفعنى إليها رهبة الإقدام على مثل هذا المشروع الجديد كل الجدة على المواطنين إلى الجدل الذى ثارت معه حملة معادية وساخرة فى وسائل الإعلام ، فذهب أحد الكتاب إلى أنه يؤثر عليه الاستمتاع بمشاهدة أبى الهول فى سكون الليل وفى ضوء القمر، غير أن الكثرة لم تلبث حين رأت ما أضفته الإضاءة الفنية على أبى الهول من تأثير وماتدقق فى نفوسهم من صوت أبى الهول الذى خرج من صمته بعد آلاف السنين ليحكى تاريخ أمة عاصر نهضتها الكبرى حتى نبضت الحماسة فى قلوبهم لهذا المشروع .

على أننى حين تسلمت النصين وجدت بعض المآخذ التى كان منيع أكثرها خفاء بعض الجوانب على الكاتب الأوروبى ، فرددت النصين إليه ليتعاون مع فنان النص الضوئى فى المراجعة والتعديل الضرورىين لتواءم النصين . وحين عادت الصياغة محققة لكل مطالبى عهدتُ إلى بعض أساتذة الجامعة الذين لهم خبرة واسعة باللغتين الفرنسية والعربية بترجمتهما إلى العربية . وكان لابد بعدها من صياغة هذا النص صياغة شاعرية ، فوكلتُ هذا الأمر إلى الشاعر المرحوم صالح جودت ليصوغ النصين صياغة فنية أولى . واستكمالا لأن يخرج النص سليما أدبيا وفنيا عهدتُ إلى لجنة يتمثل فيها من له إلمام واسع باللغة العربية ومن له إلمام بالآثار ومن له إلمام بالفن المسرحى أذكر من بينهم الأساتذة إبراهيم الأبيارى وأنور شكرى وعلى الراعى . وحين أقرت هذه اللجنة النص فى صورته الأخيرة ، ولكى تطمئن نفسى أشركت معى من شاركوا فى إعداد النص لمشاهدة تجارب الضوء المتتابة والمتناوبة على الأهرام الثلاث وأبى الهول ليلة بعد ليلة حتى تطمئن قلوبنا إلى خروج النص العربى موشى بجلال اللفظ وجزالة العبارة . فجاء النص العربى تحفة رائعة تفاعلت فيها وتضافرت عليها بصدق جهود هذه الكوكبة اللامعة من الأدباء والشعراء والعلماء . وبعد الفراغ من إعداد النص قام نجوم فرقة « الكوميدي فرانسيز » بتأدية النص باللغة الفرنسية ، ونجوم فرقة « أولدفريك »

باللغة الإنجليزية ، ونجوم المسرح الألماني بها مبرج باللغة الألمانية ، ونخبة من نجوم « المسرح القومي » باللغة العربية .

وكان ثمة العديد من العقبات التي كان يمكن أن تؤجل المشروع إلى تاريخ لا يعلم إلا الله مداه . ورغبة منى في تذليل كافة هذه العقبات أعلنت تاريخ افتتاح المشروعين بادئا بمشروع أهرام الجيزة حتى يلتزم كل من الفريقين الأوربي والمصري بالموعد المحدد . وكنت قد دعوت الرئيس عبدالناصر لافتتاح المشروعين ، ودعوت إلى جواره فضلا عن الأدباء والفنانين والمسؤولين وأعضاء مجلس الأمة من المصريين بعض الضيوف الأجانب كان من بينهم ولّى عهد اليونان وقتذاك الأمير قسطنطين والأمير صدرالدين خان وغيرهما من كبار الأدباء والدبلوماسيين الأجانب ورجالات العالم المعنيين بالثقافة والفنون . وحددت لافتتاح « عرض الصوت والضوء بالهرم » مساء الثالث عشر من أبريل ١٩٦٠ ، فلقى العرض تقديرا صفق معه المشاهدون دقائق متصلة ، كانت كل دقيقة منها تضاعف الفرحة بالنجاح في قلوب كل من شاركوا في تنفيذ هذا المشروع الذى قفز إثر افتتاحه إلى صدارة المعالم السياحية في بلادنا حتى بات الرئيس عبدالناصر لا يزوره زائر من رؤساء الدول إلا صاحبه لمشاهدة هذا العرض ، فبلغت هذه الزيارات سبع عشرة مرة في رفقة سبعة عشر رئيس دولة ، وما يزال هذا المشروع إلى اليوم المشروع الحى الذى يستأثر بزيارة من يزور مصر من الضيوف والسائحين .

كان عرضا تعاونت فيه الوسائل العلمية الحديثة ، وكان للذوق الفنى فيه نصيب كما كان للجهد الفكرى نصيب آخر مما بعث فى هذا التراث الصامت روحا دافقة ، كما أعاد للناس اليوم مظاهر الحياة القديمة فى أسلوب يقرب تلك الحياة من خيالهم و يربطها بعقولهم و يصلها بحواسهم و يعزجها بمشاعرهم بعد أن بقيت تلك الآثار على الزمن أكثر من أربعين قرنا لا تحس لها همسا . ومن هنا كان علينا وعلى العالم أجمع حق الإجلال لها ولن شادوها ، فألقينا عليها الضوء الذى يشرق معه تراثنا الخالد . ولم يكن ذلك سهلا ولا هينا : أن تُعد المادة التاريخية ، وأن تُصاغ صياغة فنية ، وأن توضع فى قالب جديد ، وأن تُحاط معالم منطقة الأهرام بكشافات كهربائية وصلت إلى خمسمائة وثمانين كشافا ، وأن تُربط بموصلات للتيار بلغ طولها تسعة وعشرين كيلومترا ، وأن تُعد الأشرطة الصوتية

بلغات أربع لتتنقل نتاج الفكر والفن . لم يكن سهلا ولا هينا أن تتكامل هذه العناصر كلها لتعرض أمامنا هذا التاريخ الحافل بأحداثه المليء بعظاته الزاهر بأعجاده في وقت وجيز . ولقد كانت هذه هي الحلقة الأولى في سلسلة البعث تلتها حلقة أخرى عن قلعة صلاح الدين ثم معبد الكرنك لتتصل حلقات تاريخنا القومي موقظة فينا إحساسنا بالأصالة والعزة .

ومن طريف ما أذكره عن تلك الليلة أن كبير الأمناء جاءني ليهمس في أذني خلال العرض الافتتاحي بأن فريقا من أعضاء مجلس الأمة قد اكتشفوا موقع البوفيه الذي كان مُعدًا للضيوف جميعا ببهو خوفو - الذي أنشئ خصيصا لخدمة المشروع - فاجتذبتهم ألوان الطعام الشهية وكأنما خافوا أن ينكمش نصيبهم نى زحمة المدعوين فأثروا افتراس ما يستطيعون التهامه فى غيبة الكثرة . وكان منظرا متيرا أن أرى مندوب فندق الهيلتون يلطم خديه أسى على ما حاق بالمائدة من خسائر فادحة ، فبادرت بتهديته وطلبت استخدام جميع مالدينا من سيارات لاستجلاب بديل لما استباحه بعض أعضاء المجلس لأنفسهم قبل انتقال الرئيس وضيوفه إلى المقصف .

ويهمنى فى هذا المقام أن أسجل أن عرض الصوت والضوء بالهرم قد تكلف مائتى ألف جنيه - هذا إلى مبلغ آخر زهيد سيّد به مبنى « بهو خوفو » لخدمة زائري المشروع - ، وأن عدد رواد هذا العرض حتى ينيه عام ١٩٨٩ بلغ خمسة ملايين مشاهد ، وبلغ إيراد العرض عن نفس الفنة ما يربى على ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات ، علما بأن هذا العرض لم يتوقف ليلة واحدة منذ افتتاحه حتى الآن سوى فى أضيق الحدود وقت الحروب وحظر التجول . ولم يتغير النص الأصلي الذى قدمناه منذ ماينيف عن ربع قرن عما كان عليه بلغاته الأربع ، وإن تكلف تجديد المعدات المستهلكة بعد خمسة عشر عاما ٣١٥ ألف دولار .

وفى يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٢ افتتح الرئيس جمال عبدالناصر « عرض الصوت والضوء بقلعة صلاح الدين » ، وكان المشروع قد تكلف مائة وخمسة وعشرين ألف جنيه . واستمر يقدم عروضه الى أن توقف فى ٥ يونيه ١٩٦٧ بسبب إغلاق المنطقة مساء لظروف الحرب<sup>(٥)</sup> . ولما كان مشروع القلعة

يتناول أمورا لما تغيب بعد عن الأذهان لذا كان اختلاف الناس إليه قليلا ، على حين كان مشروع الهرم يتناول أمورا بعيدة كل البعد في الماضي السحيق ، وكانت مطالعة الناس بها تنبها غريبا جذابا ليس في ذاكرتهم منه إلا القليل ، لذا كان اختلاف الناس إليه كثيرا ، ولن ينقطع هذا الاختلاف إليه مع مرّ الأجيال .

وكان طول مشهد الهرم يُرَبِّي على طول نظائره في العالم كله . قفى فرنسا لايزيد طول المعروض من أى قصر من قصور اللوار عن مائة متر ، وقصر فرساي عن خمسين وخمسمائة متر ، والپارثينون في أثينا عن بضع عشرات من الأمتار ، على حين امتد مشهد الأهرام إلى كيلومترين طولا وتسعمائة متر عمقا ، هذا إلى ما يميز به الهرم الأكبر من ارتفاع يبلغ خمسين ومائة متر . وكان لابد من أن نفسح للمتفرج أن يرى المشهد دون عائق ، فيجتمع له ما يشاهد بنظرة واحدة ، الأمر الذى اقتضى إزالة بعض المباني التى كانت تقف حجرة عشرة في سبيل تنفيذ العرض . فإذا نحن أمام هذا الباليه الليلي بين يدي مشهد حتى حق يشارك فيه الصوت والموسيقى والمؤثرات الصوتية والأضواء والظلال التى تسدل ملازمة لها . وأبطال هذا المشهد ليسوا بأناس من لحم ودم ، بل هم خير ما أبدعته يد الإنسان من قبل ، فإذا هى تحكى حضارات اندثرت وعفى عليها الزمن ، وتبدو في أشكال لم تكن معهودة بالأمس ساجدة في ظلال كأماج الخلود ، وما قد نراه فيها من كلوم من فعل الزمن يجعلها الصوت والضوء أشد عراقة ونفاسة .

وقد بدأت الوزارة في الإعداد « لمشروع الصوت والضوء بالكرنك » منذ يناير ١٩٦٢ ، غير أنه توقف بعد تركي لها . وبعد عودتي عام ١٩٦٦ استأنفت العمل فيه وأسندته إلى نفس الشخصيات التى سبق وتعاونت مع الوزارة في المشروعين السابقين فى الخارج والداخل ، وقد فوّضت السيد فؤاد العرابي بتوقيع عقد تنفيذه بهولنده فى عام ١٩٦٩ . وثمة اختلاف هنا صاحب عروض الصوت والضوء بما يتواءم مع موقع وهندسة بناء المعبد ومساحته الممتدة . حيث يبدأ العرض من أمامه بعد طريق الكباش فيصغى المشاهدون عند المدخل الى مقدمة تاريخية وفنية تحت اللوحات الضوئية المعبرة مع صوت الموسيقى ، ثم ينتقلون بين صالة الأعمدة وجنابت المعبد فى طريق مرسوم يوضح المراحل التاريخية لهذا المعبد العظيم ، حتى إذا

بلغوا البحيرة المقدسة وجدوا أماكنهم تنتظرهم حيث يُطلون على المعبد والبحيرة من هضبة مرتفعة يسمعون منها بقية الرواية التاريخية إلى نهاية العرض الفني . وما من شك في أن هذا العرض كان يمثل تطورا جديدا في تقديم عروض الصوت والضوء بصفة عامة حيث يتحرك مع المشاهدين ليشمل كل عناصر معبد الكرنك .

وقد اكتمل العمل في هذا المشروع مع مطلع عام ١٩٧٠ ودعوت رئيس الدولة الى افتتاحه في خريف العام نفسه ، غير أن المنية وافته رحمة الله قبل ذلك ، كما أنى خلفت بدورى وزارة الثقافة فلم أشهد افتتاحه في ١٩ ديسمبر ١٩٧٢ . وقد تكلف هذا المشروع مليوناً من الجنيهات ، وبلغت إيراداته حتى نهاية شهر يونيه ١٩٨٩ ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات ، وبلغ عدد رواده عن نفس الفترة أربعة ملايين مشاهد . ويدلنا هذا على أن مشروعات الصوت والضوء كانت إلى جانب ماحققته من كسب أدبى وفنى . ذات كسب مادى أيضا . ومالبت « الصوت والضوء » أن جاوز هذه المناطق الى غيرها مما تولاه غيرى بعد<sup>٣٠</sup> .

وكننت قد أشرت بتسجيل النصوص كاملة على أسطوانات باللغات الأربع لبيعها إلى جمهور المشاهدين الذين توقعوا سلفاً أنهم سيؤخذون بروعة العروض ولن يلبثوا حتى يطالبوا بما يذكّرهم به على مدى الحياة . كما طلبت طباعة كتيبات أنيقة باللغات الأربع تضم النص المنطوق . وقد أعيدت طباعة تلك الأسطوانات والكتيبات مرارا ، وحقت هي الأخرى كسبا ماديا كبيرا إلى جوار ماتنطوى عليه . من مادة ثقافية .

على أن نجاحنا في بعث الحياة في الآثار بعروض الصوت والضوء والذي لم تعد معه هذه العاديات قطعاً جافة صلبة خرساء بل باتت تنطق بصوت الزمن ولونه وطابعه وأسلوبه ، كما تهمس بعادات أسلافنا المصريين القدماء وتقاليدهم وخلجات قلوبهم ونجواهم مما جعل مشاهديها يتخيلون ملوكا ووزراء وكهنة ومهندسين وأطباء ومعلمين يحولون هنا وهناك بين تلك الآثار القائمة ؛ كل هذا

\* بلغ إجمالى إيرادات الصوت والضوء عن العام المالى ٨٨ - ١٩٨٩ ثمانية ملايين و١٠٧ ألف جنيه مقابل ٦ ملايين و٨١٢ ألف جنيه العام الماضى ، كما حققت الشركة أرباحاً هذا العام بلغت ٥ ملايين و٧٥٤ ألف جنيه مقابل ٤ ملايين و٥٥ ألف جنيه العام الماضى ( تصريح رئيس الصوت والضوء . الأهرام فى ١٣ / ٩ / ١٩٨٩ ) .



دفعنا إلى التفكير في إنشاء مسارح لإقامة المهرجانات الفنية في الأماكن الأثرية .  
وبدأنا تنفيذه الفكرة للمرة الأولى في أغسطس ١٩٦١ بالمنطقة المجاورة لبوهاول  
حيث قدمت على مسرحها فرقة « أولدفيلك » الإنجليزية الشهيرة خلال أربع  
حفلات مسرحيتي « زوميو وچولييت » لشكسبير و« سانت جان » [ القديسة  
جان دارك ] لبرناردشو . وعلى الرغم من أن العرض وقع في شهر أغسطس فقد  
كان الطريق الصحراوي من الإسكندرية للقاهرة يعجّ بأرتال السيارات تقلّ  
الوافدين للاستمتاع بهذا العرض . كذلك شددت فوقه السيدة أم كلثوم بأغنية  
« الأطلال » في حفل أسهمت بدخله في إنقاذ معبد فيلة عام ١٩٦٨ ، وأدت  
عليه فيما بعد فرقة « باليه كوفنت جاردن الملكية » رقصاتها في شهر سبتمبر  
١٩٦٩ خلال الاحتفال بالعيد الألفى لمدينة القاهرة . كما جرى إعداد  
المسرح الروماني بالإسكندرية بمعاونة البعثة البولندية التي كانت تقوم  
بالتنقيب في المنطقة لعرض المسرحيات الكلاسيكية ، واستخدم صحن وكالة  
الغوري لتقديم بعض المسرحيات والعروض الفولكلورية التي ظفرت بإقبال  
متقطع النظير ، كما استغلت الوكالة في الوقت نفسه مركزاً لإحياء الصناعات  
التقليدية . وكنت قد وكلت إدارة مشروع الصوت والضوء منذ عام ١٩٥٩ إلى  
الأستاذ فؤاد العرابي فتولّاها بحماس وإخلاص على خير وجه وأكمّله .

\*\*\*

وحيث أخذت أطوف بأرجاء متحف الآثار المصرية بدأ يراودني الفكر في  
إحياء تراثنا الحضاري العظيم الذي كان ولا يزال جزء كبير منه مخبوءاً في باطن  
التربة المصرية ، والذي كان دوماً مصدراً سحرياً يجتذب العلماء ومحبي الآثار  
ويحفز الدولة إلى مواصلة أعمال الحفر حتى ازدادت كمية الآثار المكتشفة زيادة  
كبيرة فاقت كل ما كان متوقعا عند إنشاء المتحف المصري الحالي . وكنت  
أحسّ الأسى وأنا أشهد تراكم الآثار إلى حدّ يفقد الزائرون معه متعّتهم ، بل وقد  
يشير فيهم شيئاً من الضيق كما يشتت أفكارهم ، وهو ما كان يحرك في وجداني  
الرغبة في اتخاذ إجراءات سريعة لتطوير المتحف القائم إلى أن يتم وضع تصميم  
لبناء متحف جديد وتشيينه في مكان مناسب بمدينة القاهرة مع بناء متحف ثان  
بالإسكندرية يكون صنواً لمتحف القاهرة ، فكان اتصالى الذي سبق أن ذكرته

عند الحديث عن دار الأوبرا بمنظمة اليونسكو وأسفر عن إفادها بعثة على رأسها المهندس ولتر جروبيوس في فبراير ١٩٦٠، ضمنت إليها جملة من علماء مصر الأجلاء. وانتهت هذه المجموعة بعد البحث والدراسة إلى استبعاد فكرة تطوير المتحف المصرى الحالى، موصين بضرورة بناء متحف جديد بوصفه حلًا حتميا لمشكلات المتحف الراهنة واحتمالات النفوق المستقبل، ورأوا أن أصلح المواقع التى اقترحتها الوزارة لإقامة المتحف هو أرض المعارض بالجزيرة نظرا لقرىها وقوعها وسط مساحة واسعة من الحدائق، فضلا عن أن اتساع مساحتها يتيح توزيع أبنية المتحف بطريقة أكثر جمالا واتساقا.

ورشح هؤلاء الخبراء للوزارة مهندسين عالميين من ذوى الخبرة العميقة فى هذا المضمار لاختيار واحد منهما لوضع تصميم متحفى القاهرة والإسكندرية أولهما المهندس الإيطالى فرانكو ألبنى الذى قام بعمل التصميمات الحديثة لمتاحف باتروبيانكو ويلاتزو وزوزو بمدينة جنوا، كما قام بتصميم نفق كاتدرائية هذه المدينة الذى يعد تحفة فنية رائعة، وبرهن فى مبانيه الحديثة على ذوق فنى رائع. وثانيهما المهندس الأمريكى جوزيه لوى سيرت عميد كلية الهندسة بجامعة هارفارد المشهور بالخبرة الكبيرة والباع الطويل سواء فى أبنية المعارض أو أساليب إضاءتها أو أجهزة تكييف الهواء التى تزود بها.

وقد وكلت الوزارة إلى المهندس الإيطالى ألبنى وضع تصميم المتحف إذ كان أكثر من غير. موصولا بطابعنا المعمارى، وأشركت معه نفرا من المتخصصين المصريين هما المهندس المرحوم على لبيب جبر الأستاذ بكلية الهندسة فى جامعة القاهرة والمهندس محمد عبد المنعم هيكمل عميد كلية الفنون الجميلة الأسبق، وذلك لضمان خروج المشروع فى صورة تتناسب مع أرقى مستوى معمارى مع الالتزام بطابعنا القومى الأصيل (٥).

وقد بلغ حرصنا على إتمام المشروع وتمكين المهندسين من العمل أن اتفقت

الوزارة مع الهيئة العامة للمعارض في الخامس والعشرين من ديسمبر ١٩٦١ على أن تخلّى الأرض في موعد لا يتعدى منتصف مارس ١٩٦٢ ، وإن عادت الهيئة في الرابع عشر من يونية تطالب بإرجاء تسليم الأرض إلى مطلع عام ١٩٦٥ وذلك حتى يتم استلامها لسوق القاهرة الدولية بمدينة نصر .

كذلك وضع المهندس فرانكو ألبيني تصميم مشروع بناء « المتحف اليوناني الروماني الجديد » بالإسكندرية لكي يضم بين معروضاته مجموعة التماثيل الصغيرة الحجم الدقيقة التفاصيل والمعروفة باسم « تناجرا » والتي تعدّ من المتحف البديعة النادرة ذات الأهمية الإثريّة والفنية الكبيرة ، وقطعا من أحجار المباني الأثريّة ولوحات الفسيفساء الملوّنة وبعض التماثيل ومجموعة صغيرة من آثار الفن الفرعوني والقبطي (٦) .

وكان كل من يقف أمام مركب خوفو الذى بناه المصريون فى عهد خوفو منذ خمسة آلاف عام تعروه الدهشة أمام رهافة تصميمه وروعة مميزات التقنية . وكان هذا الإحساس العام هو الدافع وراء فكرة إقامة متحف لهذا المركب يتيح للجمهور أن يراه كاملا للتعرف على دقائقه ، بل لقد وُضع فى الاعتبار تشييد بناء معادل ومتناسب لمركب ثان مدفون إلى جانبه ، وإن لم يبدأ بعد الكشف عنه ، والذى يغلب على الظن أنه مشابه للأول تماما أو أن له على الأقل نفس مقاييسه وأبعاده . وكان أول ما فكر فيه العلماء المصريون هو بناء « متحف مركب خوفو » فى نفس المكان الذى عُثر عليه فيه ، ولم يكن ذلك إلا وليد إحساس بطبيعة المكان وارتباط المركب بالموقع ارتباطا عضويا وثيقا . ولو أنا تأملنا تخطيط موضع الحوضين اللذين حُفظ بهما المركبان اللذان لم يكتشف ثانيهما بعد - وإن أُوحت بمكانه وأبعاده شواهد سطحية - لوجدنا أنهما قد وُضعا فى موضع يتسق مع وضع الهرم نفسه ، فقد وُضعا على استقامة واحدة ومتوازيين مع ضلع الهرم الجنوبي . ثم إننا لو أغفلنا البواعث الدينية والطقوس الجنائزية التى حدّدت وضع المركبين على مقربة من قبر الملك فإن تأمل الموقع يكشف لنا عن أن الحوضين قد حُفرا قرب الهرم طبقا لفكرة هندسية وثيقة الارتباط بتصميم الهرم . ولو أنه كان قد تم نقل أجزاء المركب الخشبية بعد اكتشافها إلى مكان آخر لإعادة تكوينها لتخلف عن ذلك

فراغ عديم الجدوى فى هذا الموقع ، ولتحتّم أيضا تشييد مبنى لحماية هذين الحوضين والكتل الكبيرة التى كانت تغطيهما والتى تمثل فى الواقع عناصر قيمة من حيث التقنية الأثرية ، ذلك لأن المعمارين القدماء كانوا قد خصّصوا لكل منها مكانا محددا طبقا لنظام موضوع لا يسمح بتحريك أى منها قبل تحريك الكتلة التى تعدّ بمثابة مفتاح للحوض كله . كما أن الاحتفاظ بهذين المركبين المعاد بناؤهما وعرضهما فى نفس موقعيهما الأصلي مع تزويدهما بالوثائق الخاصة بإصلاحهما وإعادة تكوينيهما يمثل عرضا رائعا وقيّما لبناء السفن نفسها واكتشافها المعجز بعد خمسة آلاف سنة . وكان أهم ما يشغل البال هو كيف نقيم هذا المركب فى بيئته تلك ذات الطابع الخاص وبحيث تقع عين المُشاهد على كل جوانبه الأثرية والمعمارية التى لا تُظير لها<sup>(٧)</sup> .

وكان اختيارنا للموقع الحالى الذى أقيم عليه متحف مركب خوفو لأسباب ثلاثة ، أولها الحرص على ألا يصيب المركب تلف بنقله إلى مكان بعيد ، فقد نالت السنون من أخشاب هذا المركب فأصبحت هشّة لاتقوى على الانتقال . وثانيها أن هذا المركب يرتبط ارتباطا كليا بالمكان الذى عُثر عليه فيه إلى جوار الهرم الأكبر . وثالثها ما يُضفيه هذا المتحف بصغر مساحته على الهرم ، فيتجلّى الأخير بإزائه شامخا فى جلال .

\*\*\*

ولقد تبين لى أثناء الإعداد للحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة فى سنة ١٩٥٩ متعاوننا مع منظمة اليونسكو أن بين أيدينا مجموعة ضخمة من الآثار أشبه ماتكون بالسفراء لنا لدى الدول تنطق بلسان أفصح مايكون بيانا وإقناعا . فقد يختلف معنا الغير حول رأى أو اتجاه ، لكن أحدا لن يختلف معنا على قيمة ماغلك من تراث ، ولم أشك فى أننا لو أرسلناه للعرض الخارجى لحمل إلى العالم رسالة خلاصتها أن الناس الذين استطاعوا أن يقدموا للإنسانية هذا الجلال المهيّب منذ آلاف السنين قادرون على استئناف الرحلة إلى التقدم والامتيّاز ، واطمأنت نفسى إلى أن هذه السفارة تستحق العناية على مافيه من عناء . هكذا نشأت فكرة عرض آثارنا فى الخارج لأول مرة . غير أن مصاعب جمة وعقبات لا حصر لها أخذ يقيمها فى سبيلنا البعض ؛ منهم من أثار حملة على هذا المشروع فى الصحف ، ومنهم من كان له رأى مضاد فى المجلس الأعلى للآثار . ولكن على الرغم من هذا وذاك

فقد غلبت كلمتنا كلمتهم ، فأوفدنا سنة ١٩٦٠ أول معرض لآثارنا تحت اسم « ٥٠٠٠ سنة من الفن المصري » طاف بعواصم أوروبا ومدنها الكبرى بادئا ببروكسل. وحقق نجاحا لانظير له ، ومكّن الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة من أن تقول للناس : هذا نموذج للتراث الذى نناشدكم أن تتكاتفوا معنا لإنقاذه . وكأنت لى مع هذه العروض المختلفة فى البلدان المختلفة فرصة بعد فرصة التقيت فيها برؤساء الدول والوزراء المعنّين لأحفزهم على بذل مايمكن من عون لإنقاذ آثار النوبة على نحو ماسياتى تفصيله فى الفصل السادس .

ونجح هذا السفير ونجحت سفارته ، الأمر الذى حفزنا إلى إرسال ثلاث وثلاثين قطعة من تحف « توت عنخ آمون » إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٦١ ، فطافت بالعديد من ولاياتها ، وكانت أصدق سفير حمل الولايات المتحدة على الرغم مما كان من خلاف سياسى بيننا على الإسهام فى إنقاذ آثار النوبة بإثنى عشر مليون دولار لأبى سمسبل ، أضيف إليها مليون جنيه للمساهمة فى إنقاذ المعابد الصخرية ، هذا إلى ما اعتمدته للإنفاق على الحفائر والبحوث وأعمال التسجيل . ولا أغالى إذا قلت إن معرض توت عنخ آمون كان واحدا من أنجح المعارض الفنية العظيمة التى أقيمت خلال القرن الحالى ، فبعد أكثر من ثلاثة آلاف عام من موت هذا الملك الشاب إذا هو يغزو أمريكا وقد شق طريقه عبر ولاياتها فى زهو وكبرياء وكأنه نجم من نجوم الفن المعاصرين أكثر منه ملكا تاريخيا ، وكان من اختلفوا إلى رؤيته يربون كثرة عمّن اختلفوا إلى غيره من المعارض ، وما من صحيفة ولا من مجلة إلا وكانت تطالع القراء بصورة وجهه الحالم الغضّ ، كما حفلت فترينات المحال عامة بصور له ونماذج من قناعه ، وكذا لم يفت التلفزيون عرض الكثير من المشاهد المتصلة به ، إذ كان الغموض الذى أحاط بسيرة هذا الملك قد استولى على خيال الأمريكيين وأثار فيهم الشوق إلى رؤية معرضه ، فإذا الحفلات تقام فى المدن مدينة بعد مدينة احتفاء بهذا الزائر « توت » ، وإذا قوائم الطعام تستحيل فى الكثير من المطاعم إلى حروف هيروغليفية ، وإذا نحن نرى سيارة مبتكرة أطلق عليها اسم « توت - موبيل » عجلة قيادتها تمثل الكوبرا ، وعلى سلمها تماثيل أبى الهول ، وشبكاتها الأمامية تمثل رأس توت عنخ آمون . وكذا رأينا مدينة من المدن الأمريكية تطلى الشارع الرئيسى فيها باللون الأزرق الذى يحكى مياه

النيل وتعد فرقة موسيقية « للجاز » لتعزف ألحان الوداع الجنائزية وهى تشيخ توت عنخ آمون الراحل عنهم . وما إن انقضت بضعة شهور حتى رأينا « المولَّهين بتوت » Tut maniacs - كما كانوا يدعون - قد أقبلوا بنهم على شراء الحلّى والتماثيل والآوانى الممهورة بصورة توت عنخ آمون ، وكذلك الكتب والنشرات التى تروى سيرته . هذا إلى أربطة العنق والأوشحة والقمصان التى صوّرت عليها بعض النماذج التى امتلأ بها تابوته . وبلغت قيمة التمثال الجميل المُستنسخ للإلهة سِلْكْت - إحدى الإلهات الأربع الحارسات لمقبرة توت - ألف وخمسمائة دولار . وإذا مقدار ما أنفق فى هذا المجال يبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الدولارات خلال بضعة شهور . وكان إقبال الناس فى كل مكان أقيم فيه معرض الملك توت يعدّ من الخيال ، فكم لبث الناس فى انتظار دورهم ساعات وساعات بلغت فى المتوسط سبعا ، وبقيت المتاحف التى تُعرض بها هذه الكنوز مفتوحة الأبواب طيلة أيام الأسبوع .

ونظرا للنجاح الذى لقيه معرض ٥٠٠٠ سنة من الفن المصرى ومعرض توت عنخ آمون فقد تقرر نقلهما إلى اليابان حيث نجح كل منهما فى شدّ انتباه اليابانيين بشكل لم يتوقعه أحد . وأسفرت هذه السفارة الجديدة فى اليابان عن تحوّل جذرى فى موقف اليابان من الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة ، فضلا عما تركته المعروضات من أثر فى الدعوة للحضارة المصرية وتأثير الأزياء بالتصميمات الفرعونية . وانتقل « توت » بعدها إلى أوروبا ، حيث عُرض فى باريس سنة ١٩٦٧ ، ثم فى لندن سنة ١٩٧٢ ، فكان له فى كل من البلدين صدى عميق .

\* \* \*

— ٥ —

ويمثل مشروع إقامة « أكاديمية الفنون » حجر الزاوية فى الخطة الطويلة المدى لوزارة الثقافة ، وكان النهوض بمسؤوليات مثل هذه الرسالة يقتضى وفرة هائلة رفيعة المستوى فى القدرات والإمكانات البشرية ، فوزارة الثقافة كانت تتطلب نوعية خاصة من الأفراد الذين اكتسبوا إلى جانب العلوم والمعارف ثراء الموهبة وخصوبتها وسعة القدرة ، فضلا عن حسن التعامل وذكاء التناول وسلامة

القيادة الإدارية مع تخصص عميق في أحد فروع الآداب أو الفنون أو مجالات الفكر. وإذ كنت قد استشعرت هذا النقص في الإمكانيات البشرية المتاحة كان لامناص من رسم سياسة طويلة المدى لإعداد هؤلاء الدعاة والرواد الذين سيضطعون يوما ما في المستقبل بالعمل الثقافي، والذي هو طبيعته عمل يقتضى الريث والأناة والتحصيل والإتقان والجهد الدائب المتصل، فبحال أن تتم منجزات ثقافية أو تقام صروح للثقافة دون أن تؤسس على دعائم وطيدة راسخة نُحكم لها التخطيط. وإذ كنا نتحدث عن رفع مستوى الثقافة فلا شك أن أول مانع فيه بذلك رفع مستوى المضمون الفكرى فى الأعمال الفنية والثقافية المختلفة دون أدنى إغفال للشكل التعبيري. فالثقافة لا تكون رقيقة بمضمونها الفكرى وحدها وإنما أيضا بوسائلها فى التعبير، أى بامتلاك أربابها لخاصية الفن الذى يعبرون به، وفهمهم الكامل لمقاييسه العلمية النقدية واستيعابهم لأسسه وخبراته العمالية، إلى الحد الذى يؤهل العمل الثقافى لكى يدلى بدلوه، فينشط لرفع المستوى الفنى للعاملين فى حقل الثقافة باعتبار ذلك شرطا للوصول إلى ثقافة رفيعة فنيا وفكريا.

ولذا فقد كانت إقامة المعاهد الفنية بالنسبة لوزارة الثقافة نقطة بدء ضرورية فى هذا الاتجاه، فاختترت مع نهاية عام ١٩٥٨ فريقا من رواد الفن فى مصر شكلت منهم لجانا للدراسة، ومالبثوا أن عكفوا على مهمتهم بجد وحماة حتى التقوا حول القواعد والأسس التى تنهض عليها المعاهد الأربعة لتلك الأكاديمية المنشودة [المعهد العالى للموسيقى ومعهد السينما ومعهد الباليه ومعهد الفنون المسرحية]. وحين أصبح إنشاء هذه المعاهد أمرا ممكنا عرضت مشروعها على مجلس الوزراء، غير أنه لم يلاق الترحيب المنشود، بل لقد أثارت وزارة التربية والتعليم مشكلة إنشاء المعهد العالى للموسيقى إذ رأت فيه ازدواجا مع معهد العالى للموسيقى. فأوضحت أنه على حين أن الهدف من معاهد وزارة التربية والتعليم هو الوفاء باحتياجات المدارس من معلمى الموسيقى والأنشيد فإن الكونسيرفاتورى يقوم لتوفير متخصصين فى التأليف الموسيقى وقيادة الأوركسترا وإجادة العزف والغناء. وحرصا منى على طمأنة المجلس إلى سلامة هذا الإجراء شكلت لجنة من مسئولى الوزارتين أوصت فى شهر أغسطس ١٩٥٩ بسلامة المشروع. ومع ذلك أحسست

بفتور تجاه إنشاء هذه المعاهد داخل مجلس الوزراء ، فضيئت أستجد بالرئيس الراحل جمال عبدالناصر الذى أعطانى أذنا صاغية وأنا أعرض تفاصيل المشروع وأبسط ماينتظر أن تحقّقه هذه المعاهد من خير مؤسّسين على علم أصيل ، وإذا هوى النهاية يبدى اقتناعه و يطلب الى أن أظفر أولاً بموافقة كتابية من عدد من الوزراء «المركزيين» الذين حدّدهم لى حتى يستند إلى هذه الموافقة فى إصدار قراره الجمهورى بإنشاء هذه المعاهد . وكان من بين هؤلاء الوزراء الزملاء عبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين وحسين الشافعى وعبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين على ما أذكر ، ولما كنّا فى فترة العطلات الصيفية فقد مررت بهم واحدا واحدا حيث يقيمون بالإسكندرية للحصول على موافقتهم كسبا للوقت .

وصدر القرار الجمهورى رقم ١٤٣٩ فى الثانى والعشرين من أغسطس ١٩٥٩ بإنشاء «المعهد القومى العالى للموسيقى» [الكونسيرفاتوار] ، وهو منشأة علمية مستحدثة وغير مسبقة فى تاريخ الحركة الفنية بمصر ، و«المعهد العالى للفنون المسرحية» الذى صار بديلا لمعهد الفن المسرحى الذى كان قائما من قبل ولم تكن تتوافر له كل المقومات والمزايا التى أنشئ من أجلها المعهد الجديد ، و«معهد الباليه» الذى أصبح بديلا لفصل الباليه التدريبى الذى أنشئ فى عهد الأستاذ فتحى رضوان ، وحين توليتُ أمر وزارة الثقافة دعوت الخبير السوفيتى ألكسى چوكوف فى ديسمبر ١٩٥٨ ليتولى مسئولية التدريب فيه . وفى أكتوبر ١٩٥٩ بدأ المعهد رسالته الفنية بعد أن استقدمتُ له من الخبراء السوفيت من أثمرت جهودهم فى تكوينين فريق مصرى للباليه بعد عشر سنوات<sup>(٨)</sup> ، و«المعهد العالى للسينما» ، وهو أيضا منشأة فنية علمية مستحدثة وغير مسبقة فى مصر . وقد وكلتُ إلى المرحوم الفنان محمد كرم عمادة هذا المعهد ، وشاركه فى الإعداد المرحوم الفنان أحمد بدرخان ، فوضعا معا الأساس العلمى والإدارى السليم للمعهد فى قدرة فائقة وتفان مذهل ، وشاركهما كذلك الأستاذان أحمد كامل مرسى وعلى فهمى وغيرهم من كبار الفنانين السينمائيين . ثم استقدمتُ للمعهد فيما بعد الخبراء الفرنسيين الذين خرجوا جيلا جديدا من المخرجين الشباب المؤهلين تأهيلا فنيا عاليا فاحتلوا بعدُ مركز الصدارة فى حقل السينما فى فترة



وجيزة . وكنت قد أرسيت حجر الأساس لمبنى « المعهد العالى للسينما » فى الرابع من أغسطس ١٩٥٩ ، وبدأت الدراسة الفعلية فى موقع مؤقت فى الرابع والعشرين من أكتوبر من نفس العام . كما أرسيت حجر الأساس « للمعهد العالى للفنون المسرحية » فى الحادى والعشرين من يولييه ١٩٦٢ ، غير أن مشروع المبنى تعثر بعد ذلك شيئا ومضى بخطوات متثاقلة أوحى بأن فى النية صرف النظر عنه .

وأود أن أوضح أنه برغم صدور القرار الجمهورى بإنشاء هذه المعاهد فإن الدولة لم ترصد فى ميزانية عام ١٩٥٩ أى مبلغ لشراء الأرض التى تقام عليها هذه المعاهد أولبائها . وأمام هذا الموقف لجأت إلى الزميل الأستاذ أحمد طعيمة وزير الأوقاف التى تفضل مشكورا واستجاب لرجائى ومنح وزارة الثقافة قطعة الأرض التى أقيمت عليها المعاهد فى بداية طريق الهرم بشروط ميسرة وعلى مدى طويل . كما أنى لجأت إلى مؤسسة دعم السينما التابعة للوزارة لأقترض مبلغا يكفى تكاليف بناء المعاهد وخروجها إلى الوجود ، وهو ما كانت اللوائح تسمح به . وقد انبثقت وسط أبنية هذه المعاهد « قاعة سيد درويش للاستماع للموسيقى » التى شكا

البعض فى البداية بُعدها عن وسط المدينة ، ولكن بناءها تم باعتبارها قاعة ملحقة بمبنى الكونسيرفاتور استفادة من مساحة الأرض المتاحة والقرض المالى المتيسر . . . ولعلها الآن إضافة قيمة لقاعات الاستماع فى مصر ، ولم تعد بعيدة بأى مقياس .

وقد بدأت الدراسة فى هذه المعاهد جميعا فى أكتوبر ١٩٥٩ فى أماكن مؤقتة متفرقة إلى أن فرغت الوزارة من تشييد المباني . وكان من حسن حظ « المعهد القومى العالى للموسيقى » أن بناءه أُقيم وفق تصميم ملائم لمهمته من مبدأ الأمر ، وكنت قد أرسيت حجر الأساس له فى ٢١ يولييه ١٩٦٢ ، وإن كانت الدراسة به قد بدأت من أكتوبر ١٩٥٩ بفصول إعدادية وثانوية وفصل أول من المرحلة العليا ، وأسندتُ عمادته إلى المهندس الموسيقار أبو بكر خيرت الذى عهدتُ إليه أيضا بوضع التصميم المعماري للمبنى كما أسلفت . وفى سنة ١٩٦٢ رأيت إعادة تقييم الدراسة فى المعهد ووضع ما يستلزمه التقدم الفنى فيه وتطويره طبقا لأحدث النظم العالمية ، فاتفقت مع السلطات الإيطالية فى أغسطس ١٩٦٢ لإيفاد خير

من معهد سانتا شيشيليا الموسيقى بروما ليعمل إلى جوار العميد المصرى ، غير أنى تركت الوزارة فى الشهر التالى .

كذلك أرسيت حجر الأساس « لمعهد الباليه » فى ٢١ يوليه ١٩٦٢ ، وكانت فكرة إنشاء هذا المعهد غربية على بلادنا بلا جدال ، وكان طبيعيا أن يهتمها البعض بأنها فكرة مستوردة . والباليه فن شاق يحتاج التمكن منه إلى جهد كبير وإعداد مُضن طويل للراقصين والراقصات ، كما يحتاج إلى دراسات عالية لتخريج مصمى الرقصات والمخرجين ودارسى الديكور وتاريخ الباليه . ولما كان العالم كله يشهد للروس بأنهم أساتذة هذا الفن الرفيع ، فقد كان طبيعيا أن تعهد وزارة الثقافة إلى خبراء منهم بالإشراف على معهد الباليه منذ إنشائه . وكان هؤلاء الخبراء من فريق مسرح البولشوى بموسكو الذى وافق لأول مرة فى تاريخه على تدريب راقصين وراقصات من غير الاتحاد السوفييتى وعلى احتضان معهد نشأ فى غير بلاده .

وكان من أهم البذور الطيبة التى غرسها الأستاذ فتحى رضوان فى عالم الفن والثقافة « مركز الفنون الشعبية » الذى أنشأه عام ١٩٥٧ ليكون مؤسسة علمية لتسجيل التراث الشعبى بمختلف أنواعه . وقد اشتعلت حماسى أنا الآخر لرعاية هذا المركز منذ الخطة الخمسية الأولى [ ١٩٦٠ — ١٩٦٤ ] وتعبّلت إرسال الباحثين لجمع القصص والأغانى الشعبية ورصد العادات والممارسات الشعبية فى مختلف المناسبات والمواسم وتسجيل ذلك كله صورة وصوتا قبل أن يطمس الزمن طابعها الحىّ الأصيل تحت عجلات التطور الزاحف من المدينة إلى أعماق الريف . والفن الشعبى هو التعبير الصادق عن روح الجماعة والانعكاس الأمين لمشاعرها المختلفة عن لحظات انتصاراتها بما فيها من نشوة وزهو ولحظات محنتها بما فيها من إحباط وانطواء . ولقد كانت المقاومة الباسلة التى تميز بها شعب مصر مطبوعة دائما على صفحة الفن الشعبى ضد غزاته ممن أرادوا استغلاله وتسخيريه لتحقيق مصالحهم ، ومداراته بالخدعة والحديث البراق والمصالحة الخبيثة ، فإذا هم يواجهون روحا مدركة ذكية قادرة دائما على كشف ما يحاول الغزاة إخفائه . ظهر ذلك كله فى الفن الشعبى قصصا وملاحم وأزجالا ومواويل وغناء وصورا تعبيرية رائعة خلّدت فترات حياة الشعب فى كفاحه وآماله ، كما سجلت عاداته وتقاليده وأعرافه وأساليب حياته وقيمه الفنية والجمالية .

غير أن الدكتور لويس عوض ما لبث أن أشار على بإنشاء معهد للفنون الشعبية لما له من أهمية ، حيث إن ما يقوم به المركز من مسح وتسجيل وتوثيق لن تكون له صبغته العلمية إلا إذا أُعِدَّ من يقومون به إعدادا علميا نظريا .

وحين اقتنعت بالفكرة رأيت أن فى إنشاء « المعهد العالى للفنون الشعبية » ما يمثل إضافة ودعما لجهد سلفى الجليل للإمساك ببداية الخيط وليكون جيلا من الدارسين يعرف ماذا يجمع من هذه الفنون وكيف يجمعه ثم كيف يصنّفه ويدرسه بحيث يصبح مادة صالحة لدرس الدارسين ووجودا فنيا يستلهمه الفنانون فيجد الفن بذلك طريقه إلى الارتباط العضوى بين مبدع الفن ومتذوّقه من خلال التعبير الفنى الأصيل . فشكّلت لجنة من ذوى الخبرة لوضع أسس إنشاء المعهد ، فخطّطوا للدراسة فيه كما خطّطوا لإيجاد نماذج فنية ومعمارية للمواقع الأثرية الخصبّة العامرة بالفنون الشعبية كمنطقة النوبة والوحدات تمثّل روعة فنونها المعمارية ونماذج لصناعاتها وحرفها التقليدية وأزياءها وفنونها الشعبية . واستكمالا لهذه البحوث طلبت تقارير علمية من علماء متخصصين فى الخارج من بينهم الأستاذ إيفانز پرتشارد من جامعة أكسفورد تولّى أمرها الدكتور لويس عوض لتتجمع بين أيدينا العناصر الفنية والعلمية الضرورية لإقامة معهد علمى على أرقى مستوى قادر على تطوير فنونا الشعبية وتنقيتها من الشوائب وتخليصها من الجمود . وعلى هذا استقرّ الرأى على أن ينقسم برنامج المعهد إلى قسمين : أولهما للدراسات ومعامل تحليل الأصوات والألوان ، وثانيهما متحف مكشوف فى العراء ينمو مع الزمن ويعرض نماذج الحياة فى أنحاء البلاد من عمارة وتقاليد وعادات ، وقد عهدت إلى العالم الجليل والمعماري العالمى حسن فتحي بإعداده ، فقام يعاونه الفنان النابه عبدالغنى أبو العنين بتخطيط الأرض المخصّصة للمعهد والبالغ مساحتها سبعة عشر فدانا ، ثم وضع تصميمات مبنى المعهد والمتحف المفتوح الذى يمثّل العمارة المصرية من أسوان جنوبا إلى رشيد شمالا ، ويضمّ فى داخله الحرف البيئية والفنون الشعبية لكل إقليم ، بعد أن رفع ثمانية عشر بيتا من بيوت النوبة قبل أن تغمرها مياه السد العالى ، وانتهى من هذه التصميمات جميعا فى نهاية عام ١٩٦٢ . وها أنذا ألخص رؤيته لمشروع المتحف المفتوح التى كان أساسها أن تتمثّل فيه أنواع العمارات وألوان الفنون الشعبية فى مصر عامة على نحو ترتّب فيه المعروضات ترتيبا تاريخيا وجغرافيا ليتمكن

الزائر من مسامرة التطور الذى عرض فى مجالات العمارة والفنون الزخرفية والتشكيلية الشعبية فى كل إقليم . فتمت فرق كبير بين مثل هذا المتحف المفتوح والمتاحف الأركيولوجية التى تعرض فيها النماذج عرضاً جُزائياً فلا يستطيع الزائر أن يعي التطور الذى أشرت إليه . واستملاء من الظروف البيئية كان لزاماً أن يُقسَّم هذا المتحف المفتوح إلى بيئات نوعية خمس ، هي النوبة والصعيد والوجه البحرى والصحارى وبواحاتها والسواحل ، على أن يمثل كل بيئة شارع طولى . وتطبيقاً للتقسيم الزمنى كانت ثمة شوارع عرضية ثلاث تتقاطع مع الشوارع الطولية . وهذه الشوارع العرضية الثلاث ينتظم أولها فترة ما قبل عام ١٩٠٠ وثنائها الفترة بين عام ١٩٠٠ وعام ١٩٤٠ وثالثها ما أنشئ بعد عام ١٩٤٠ . والعلة فى هذا الاختيار هي مسامرة تلك التقسيمات للحقبات الزمنية والعهد الفنية التى مرّت بها العمارة والفنون الشعبية فى كل إقليم . ولقد خصّصت للمعهد قطعة أرض إلى جوار سائر المعاهد وأُرسيتُ حجر الأساس له فى عيد الثورة العاشر عام ١٩٦٢ ، غير أن الظروف لم تشأ أن تتحقق هذه الأمنية على يدى وأرجىء افتتاح المعهد العالى للفنون الشعبية إلى مارس ١٩٨٢ ، إلا أنه جاء على غير المنهج الأول الذى رُسم له .

ومنذ عام ١٩٦١ راودتنى فكرة الارتفاع بمستوى التذوق الفنى لهواة الفنون إلى المستوى الذى يتيح لهم استيعاب ما يشاهدونه من عروض ومعارض فنية استيعاباً شاملاً لما تنطوى عليه من قيم رفيعة فضلاً عن منجزات الإبداع الفكرى والأدبى . وكنت أدرك أيضاً أن نقطة الضعف فى مشروع قصور الثقافة الذى تهض به الوزارة ليست هى المال الذى يمكن أن ندبره يوماً ما بل هى غيبة رواد الثقافة القادرين على تبسيطها وتقرئها من قلوب الجماهير ووضع أيديهم على القيم الجمالية فى الفنون وإثراء قدرات الأفراد على الاستيعاب والفهم الصحيح والمناقشة الموضوعية والتذوق الواعى ، وكذلك الكشف عن المواهب الكامنة فيهم ، ثم تنسيق البرامج الثقافية طبقاً لخطة محكمة تضع فى اعتبارها تفاوت مستويات عاشقى الثقافة واختلاف مناطق إقامتهم . كانت تنشئة هؤلاء الرواد من الضرورة بمكان ، فبدونهم يتعذر توجيه الحركة الثقافية وإثرائها بالنقد السليم القائم على الدراسة العلمية الموضوعية والتذوق السوى للفنون ، فهم الطليعة التى ينبغى أن تعتمد عليهم وزارة الثقافة فى

وصلها بالجماهير وحمل رسالتها إلى مختلف الأقاليم ، وهم أخيرا الدعامة التي تقوم عليها رسالة قصور الشقافة وبيوتها . لهذا أخذت تشغلنى فكرة إقامة « معهد للتذوق الفنى » يتخرج فيه عدد مناسب من هؤلاء الرواد الذين تحتاجهم الوزارة في مشروعاتها المختلفة في المستقبل ، فلذغوت لفيفا من أساتذة الفنون والمتخصصين

لأأخذ في تنفيذ هذه الفكرة فوضعوا الأسس وبرامج الدراسة كما حددوا الميزانية اللازمة للتنفيذ . وفى السادس والعشرين من يولييه ١٩٦٢ أصدرت قرارا بإنشاء فصل « للتذوق الفنى » يُلحق بالمعهد العالى للفنون المسرحية ، تقدم له لفرط دهشتى ألف وعشرون طالبا من خريجي الجامعات ، الأمر الذى كان يعكس مدى اللهفة والتعطش إلى مثل هذا النوع من الدراسات . وقد أسندت الإشراف على هذا القسم للمرحوم الدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس والجماليات بكلية الآداب يعاونه كل من المهندس عبد المنعم هيكمل عميد كلية الفنون الجميلة الأسبق والأديب الفنان المرحوم بشر فارس . على أنى ما لبثت أن خلفت الوزارة بعد ذلك بشهور قليلة فلم يُكتب لهذا المشروع أن يرى النور عندها .

## - ٦ -

وكانت ثمة حقيقة يعلمها كل المهتمين بالفنون هى أن كثرة من المصورين والنحاتين يعكفون على الإبداع فى حماسة ودأب جديرين بالإعجاب ، غير أنهم محاصرون بصعاب تعوق بلوغ الحركة الفنية قمة الازدهار . وإذ كنت مقتنعا بأنه ينبغى أن يكون لوزارة الثقافة دور مؤثر فى تيسير قيام نهضة فنية دافقة تملأ حياتنا بالإنتاج النابض بالحياة فقد طالبت بعمل دراسة كشفت عن مواجهة الفنانين لصعاب ثلاث : أولها ضيق فرصة عرض إنتاجهم على الجمهور ، وثانيها عجزهم عن تسويق أعمالهم وهو ما يحرمهم من جنى الثمار المادية لجهدهم ، وثالثها ضغط الظروف المعيشية إلى الحد الذى لا يجدون فيه الوقت الكافى للإنتاج والتواصل مع الإبداعات الفنية المنتجة داخل البلاد وخارجها .

والفنان لا يعمل لنفسه ولكنه يعمل للناس ، ولهذا فهو يشعر أن من حقه أن يتصل بجماهيره مباشرة ، يعرض عليهم إنتاجه ويرى وقع هذا الإنتاج فى

نفوسهم ؛ كيف تأثروا به ، وماذا لهم عليه ؟ وإن خير ما يصبو إليه الفنان أن يجد طريقه إلى عرض ما ينتجه ، وذلك حقه . وقد رأينا أن على وزارة الثقافة الاضطلاع بعبء ذلك ، فليس من المنطق أن ينتج الفنان ويكدس ما أنتج في مخازن لا ترى النور . كما لا بد للمشاهد أن يعيش الفن دائما حتى يترك الأثر المطلوب في نفسه ويرتفع بذوقه ويثري وجدانه ، ولذا كان لتسويق الأعمال الفنية من الأهمية ما للعرض الفني ، فإن فرص العرض تقدم الفنان للناس ، لكن تسويق الأعمال الفنية يربط الناس بفن الفنان . ومن هنا رأينا أن نجعل تسويق العمل الفني مما تضطلع به وزارة الثقافة حتى يحصل الفنان على ثمن ما ينتج ، كما رأينا أن وزارة الثقافة حين تتيح للجماهير أن يعيشوا الفن في بيوتهم وغرف مكاتبهم فتقع عليه عيونهم صباح مساء وتكون ثمة معاشة دائمة للفن ، فإنها تتيح فرصة تطوير الذوق الفني بين الناس . بل إنه ينبغي أن تبقى الأعمال الكبرى من حق المجتمع ، يعرضها بين القطع الشامخة في متاحف الدولة . إذ هي ضرورة للفنان نفسه توقظ من إلهامه ، كما هي ضرورة لكافة الناس .

ومعنى هذا أن سياسة اقتناء الأعمال الكبرى في متحف الفن الحديث وفي المتاحف المختلفة وفي تصور الثقافة هي ضرورة لتطوير العمل الفني ودفعه إلى النهوض . كذلك فإن عرض هذه الأعمال في المرافق العامة له من الأهمية قدر كبير ، فهو أول ما يدلل على ذوق عام شفاف ومستنير يتحسب لنفسه الإحساس بالحرص والاحترام لكل ما هو جميل أو مفيد مما ينعكس في تصوره الفنى اليومي ويدفعه إلى المحافظة على مكان عمله أو على ما يستخدمه ، عمله من أدوات وآلات ، وهذا في ذاته وسيلة لحفزه إلى الحرص على الثروة القومية العامة ؛ فضلا عن أن أداء العمل في مكان تطلله الجماليات يزيد من الإنتاج ، وعلى هذا الأمر أجمع علماء النفس والاجتماع والجمال ورجال الأعمال الذين خطوا في كثير من البلاد المتقدمة خطوات جادة نحو زيادة إنتاج الأفراد مستعينين بالفنون الجميلة كالموسيقى والفنون التشكيلية . ثم هو فوق ذلك وسيلة لترجيع العمل الفني ونشره على نطاق واسع في أماكن يختلف إليها الناس لأعمالهم المختلفة . بل إن سفاراتنا في الخارج وكذلك المرافق الكبرى داخل البلاد كالمطارات ومحطات السكك الحديدية وأماكن التجمعات ينبغي أن تزخر بهذه الأعمال بشرط أن تكون منتقاة

بعناية حتى لا نهبط بمستوى المادى الناس من حظ من الثقافة الفنية أو اختزان للمشاعر الفنية ، وأن تُعرض العرض الطيب الذى يقدمها فى أجل إطار . ولا أزعج أن وزارة الثقافة كانت قادرة على ذلك كله فجأة أوبين يوم وليلة ، لكنها مع هذا لم تتخل عن مسئوليتها . ففى مجال تهيئة فرص عرض الأعمال الفنية استطعنا أن نوفر

أربعة أماكن للعرض إلى جوار رعايتنا لقاءة أنلييه القاهرة واستشجارنا أبهاء الفنادق الكبرى لعرض الأعمال الفنية . وفضلا عن ذلك فقد وقرنا فى كل قصر ثقافة قاعة لعرض الأعمال الفنية لنشر النهضة الفنية فى القاهرة والأقاليم على حد سواء .

ثم كانت التفاتة نحو الفنانين أنفسهم الذين قد تضطربهم الحاجة والسعى وراء العيش إلى سلوك مختلف المسالك لتأمين حياتهم ، فقد يضطرب البعض إلى بذل الجهد فى عمل مرهق غير مناسب يصرفه عن فنه ، وقد يقع فى أسر ظروف نفسية واجتماعية تحول بينه وبين الإبداع . وكان الدكتور اويس عوض قد تقدم الى فى مطلع عام ١٩٥٩ بمذكرة مستنظمة تناوّل موضوع « تفكير الفنانين » صادفت كل الهوى من نفسى فتبتيها ورعيتا إذ كنت أشاركه رأيه الثابت فى أن واجب وزارة الثقافة هو حماية المواهب ، وذلك بأن تسنح الفنان الواحد فرصة التعبير عن نفسه بعيدا عن مشكلات الحياة ، نواتجها ، ثم تقدم بعدها للجماهير ، وعندنا يكون عليه أن يستقل فى مسيرته الفنية بعد أن تُمنح فرصة العمل بالفرع وبعد أن تم تقديده للجماهير ، فإن نجح بعدها فذلك كسب ، وإلا فإن وزارة الثقافة تكون قد أرضت تخميرها وصانت احتمالات الإبداع من أن تتبدد . وهكذا أرسينا « نظام التفريغ » الذى تقدم فيه وزارة الثقافة راتبا شهريا للفنان مدة عام أو أعوام حسب تقييم لجنة من المتخصصين والنقاد المشهود لهم فى هذا المجال عهدت بها إلى الفنان حامد سعيد حتى يتفرغ الفنان تفرغا كاملا لإبداعه الفنى .

ومما لاشك فيه أن نظام التفريغ كان تجربة رائدة تتيح للفنان عزلة يبدع فيها آمنا مطمئنا ، فقد أظّل هذا النظام إلى أن تركت الوزارة تفرغ ثلاثة وثمانين فنانا تشكيلييا وأربعة من الموسيقيين وأربعين كاتبين اثنين من المشتغلين بالفن السينمائي ، فدفع كثيرا من الطاقات لاسيا فى مجال الفنون التشكيلية نحو

الاكتسـمال ، بل كشف عن مواهب كان يمكن أن يجرفها تيار الحياة العاتى دون أن يتنبّه لها أحد أو يلتفت إليها إنسان . وأعتقد أن هذه الحصيلة تؤكد أن ما كان يُنفق سنويا على التفرغ — وهو حوالى عشرين ألف من الجنيهات — لا يعادل ما أضافه من إنتاج انضم إلى الثروة الفنية القومية . وكانت هذه التجربة التى أرسيت قواعدها والتى كان لها هذا النفع العظيم هى الأولى من نوعها فى مصر .

غير أن الأمر المثير للدهشة والرضا معا أن قراءة التاريخ قد كشفت لنا أن هذه التجربة التى تحمّسنا لها وتحمّس معنا الفنانون لم تكن جديدة كل الجدة على مصر ، وأنتا كنا نمضى فيها على هدى خطى أسلافنا ، إذ سبقنا متحف الإسكندرية إبان العصر البطلمى بمنح العلماء العاملين فى مكتبته الشهيرة مرتبات شهرية ليتفرغوا إلى أبحاثهم فى مجالات تخصّصهم .

وقد أدت سياسة التشجيع إلى إقامة المزيد من المعارض للفنانين المنفردين إلى جانب إقامة المعارض لمجموعات من الفنانين عن طريق اتحاداتهم وجمعياتهم . كما نظّمنا « معرضا عاما للفن التشكيلي » يقام سنويا ليكون فرصة تُقدّم من خلالها الأعمال الجديدة للفنانين جميعا . وحرصت على توفير مزيد من الاعتمادات المالية لاقتناء الأعمال الفنية ، كما اتفقت مع وزارة الخارجية على تخصيص مبلغ معين سنويا لاقتناء أعمال فنية تُعرض فى السفارات «القنصليات بالخارج» ، ولا تزال إلى اليوم هذه الأعمال الفنية مفخرة سفاراتنا فى الخارج . ولوأن الوزارات الأخرى حذت هذا الحذو لتزايدت فرص التسويق والعرض مقابل مبالغ زهيدة تتنازل عنها فى سبيل خدمة عامة حيوية ولازمة . كما كشفت الدراسة عن أن لدى الناس الرغبة فى الاقتناء ، لكنهم لا يعرفون الطريق إلى العمل الفنى ، فأقننا فيما بعد سوقا لبيع الإنتاج الفنى سنة ١٩٦٧ و١٩٦٨ و١٩٦٩ ، ونجحت هذه السوق نجاحا كبيرا . ولعل أهم نجاح حققته أنها نقلت كثيرا من أعمال الفنانين إلى المنازل لتعايش الناس وتدور حولها المناقشات والتعليقات والمقارنات .

كذلك أنشأت الوزارة « متحف المثال محمود مختار » بمديقة الحرية جمعت



فيه أعمال هذا الفنان الرائد في مبنى فريد وضع تصميمه المعماري رمسيس  
و بصا واصف ، وافتتح مع العيد العاشر للثورة .

وتنفيذا لوصية المرحوم محمد محمود خليل وحرره قامت الوزارة بإعداد بيته  
ليكون متحفًا يحمل اسمه واسم حرره يضم مقتنياته الفنية الزاخرة بلوحات  
المدرسة الانطباعية الفرنسية وتم افتتاحه في عيد الثورة العاشر في يولية ١٩٦٢ .  
وكذا أقامت الوزارة « متحف دار ابن لقمان التاريخي » بمدينة المنصورة  
الذي افتتحه الرئيس عبدالناصر في شهر مايو ١٩٦٠ .

وإلى جوار هاتين الخطوتين الرئيسيتين بدأنا نتجه نحو إقامة المراسم الجديدة ،  
ورأينا أن بعض البيوت الأثرية تعتبر رؤوس أموال وطنية موروثة يجب أن تُستغل  
مثل مبنى « المسافر خانة » و « وكالة الغوري » و « بيت السحيمي » فجعلنا  
غرفها مراسم ومحارف للفنانين تكون لهم مقرًا دون أن يتكبدوا أجرا ، يستملون من  
تلك البيئة الأثرية المشبعة فنا وجمالاً . وكان هذا كله يجرى تحت رقابة الوزارة  
حتى لا يُساء استخدامها في غير الغرض المخصصة له ، غير أن هذه الرقابة قد فُقدت  
بعد فلم تعد تلك المراسم تؤدي الغرض المنشود منها بل لأكد أنها أسيء  
استعمالها .

كانت هذه الأنشطة كلها فرصا كبيرة لكسب حضارى لاحد له مهّد  
الطريق لفكرة قديمة تختمر في وجداني منذ عام ١٩٦٠ حيناً راودتني الرغبة في أن  
أعدّ العدة لإنشاء « متحف للمستنسخات » في فن التصوير العالمى مستعينا  
بالكتالوج القسيم الذى أعدته منظمة اليونسكو في مجلدين أحدهما للصور  
الكلاسيكية منذ عصر النهضة والآخر للتصوير المعاصر . فقد كنت أومن أن من  
حق المواطن في مصر أن يقف على الحضارات الإنسانية الأخرى ، وأن علينا أن  
نتيح للمثقف المصرى — في القاهرة أولا ثم في الأقاليم بعد — أن يستكمل دراسته  
بمشاهدة التراث الحضارى الإنساني حين لا يملك وسائل الانتقال إليه في موطنه

---

\* بليت مؤخرا رساله رقيقة من رئيس جمعية أصدقاء متحف مختار يبلغنى فيها بقرار الجمعية العمومية  
فى اجتماعها يوم ٣١ أكتوبر ١٩٨٨ باختبارى عضو السرف للجمعية : « اعترافا بالحق والفضل  
لصاحبه فى إنشاء متحف المنال الكبير محمود مختار والذى يعود شأنه إلى كرم أسرة المنال الكبير  
وإلى جهدكم ومبادرتكم خلال توليكم وزارة الثقافة بإنشاء وافتتاح هذا المتحف » .

الأصلية وذلك من خلال نماذج من هذا التراث . وطلبت إلى سفراء الدول التي تمتلك هذه اللوحات في متاحفها إهداءنا ماتستطيع من مستنسخات بشرط أن تكون من الطباعات التي أقرها كتالوج منظمة اليونسكو ضمانا لجودة مستواها . ولم يخيب السفراء ظمتي وإنهالت علينا هذه المستنسخات التي ادّخرناها لعرضها في متحف المستنسخات « بقصر الفنون » الذي كانت الوزارة تزمع تشييده . تلك كانت النواة الأولى للمشروع الذي كنا نملك إلى جواره أكبر مجموعة أثرية من العصر الفرعوني والعصر اليوناني الروماني والعصر القبطي والعصر الإسلامي . غير أنني وجدت هذا المشروع مع البدء في تجربتي الثانية وزير للثقافة أثرا بعد عين ، ولا أدري أين ذهبت تلك المستنسخات الفنية التي بذلنا الجهد في جمعها من هنا ومن هناك .

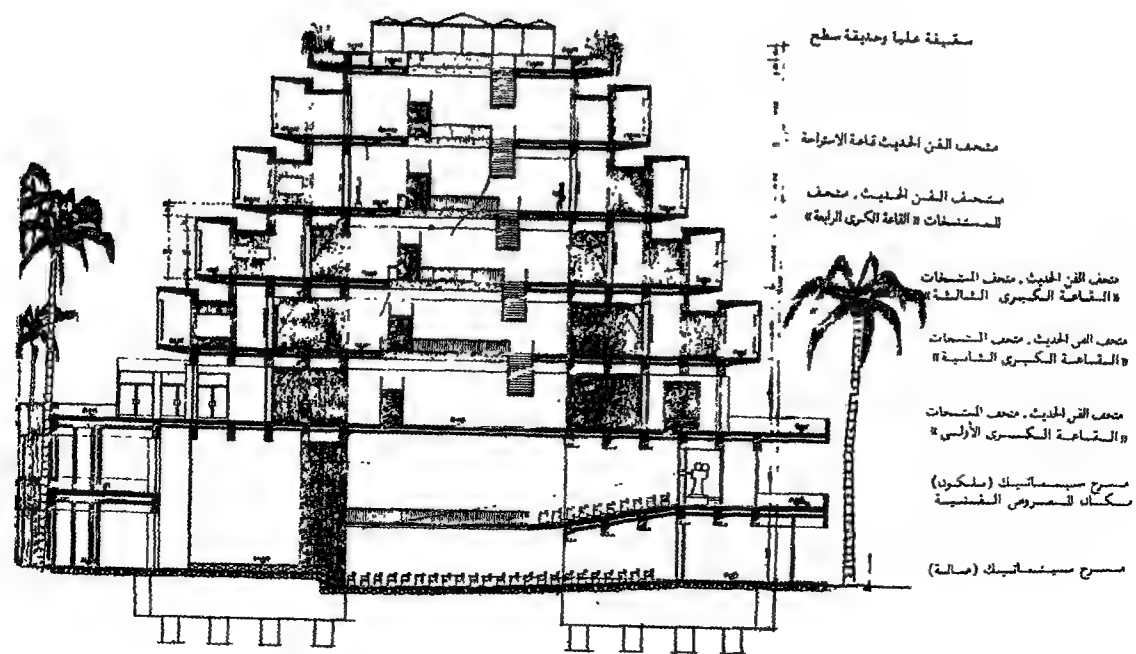
وعلى أية حال كان السؤال الذي ظل يراودني دوما هو هل ستبقى أعمالنا الفنية وذخائرنا الموروثة التي جادت بها عشرات السنين خلال هذا القرن مخزونة يكاد يقضى عليها الإهمال وتنال منها الرطوبة أم تعرض على هذه الصورة المؤقتة ريثا تتييسر الظروف للحل الأمثل ؟ وجدت أن شيئا وإن قلّ خير من لا شيء . وكان الحل الحاسم والأوفق هو إقامة « قصر الفنون » الذي حشدت له كل إمكانيات الوزارة لنجعل منه مجمعا فنيا يستوعب النشاط الفني بالعاصمة وليصبح منطلقا إلى إشعاع شامل على الحركة الفنية التشكيلية والتعبيرية جميعا .

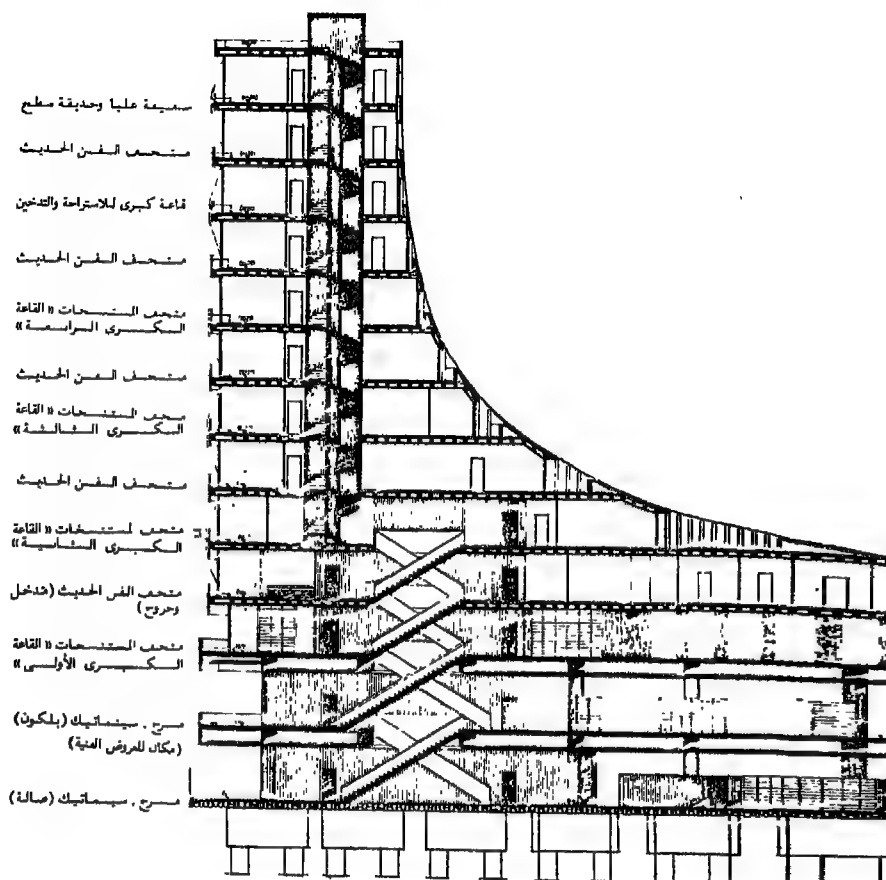
وكانت فكرة إقامة مبنى ثقافي ينتظم مكاتب ومتحفا فنيا ويعانق السينما والمسرح وينفسح للعروض الموسيقية فكرة نابعة عن إيماني بقيمة التقاء وسائل التعبير الفني وقدرتها على فتح آفاق رحبية فسيحة أمام الإنسان وإتاحة الفرصة للأجيال الجديدة أن تتشرب آثار الماضي وتبدع في حاضرها ما يحدث عنها في المستقبل . وليس ثمة شك في أن الكلمة الصادقة الشفافة التي تكاد تكون كالوحي ، والخط الرقيق المعبر الذي يطلق الخيال واللون والشكل واللحن ، كل ذلك يكون وحدة متكاملة تعبر عن الإنسان وما فيه من قدرات تعقل وتشعر وتنفعل وتتحرك بإرادة الحياة . أحسست أثناء وضع الخطة أن جمهورنا القاهري في حاجة إلى منتدى ثقافي يضم تلك الوسائل التعبيرية في مكان واحد وتحت سقف واحد في مجمع للفنون تحتشد فيه وسائل التعبير الفني وتقوم فيه وحدة الإبداع الإنساني

في نوع من الدراسة والتطبيق وإشاعة التدوُّق لدى المثقفين جميعا . وانتقلت فكرة إقامة قصر للفنون إلى مجال الواقع حين قُت بوضع حجره الأساسى في يولييه ١٩٦٢ في الأرض الواقعة خلف مبنى المتحف المصرى ، غير أن عقبات وقفت في وجه هذا المشروع ، كان آخرها قرار لجنة تخطيط القاهرة الكبرى مَتهاية شارع رمسيس [ كوبرى ٦ أكتوبر الآن ] مما استتبع الإغضاء عن الأرض التى أرسى فيها حجر الأساس لامتداد الكوبرى عليها .

وقد اتجه تفكيرى بعد ذلك إلى الحديقة المستطيلة الفسيحة التى يستقر متحف محمد محمود خليل وحرمة في طرفها والممتدة بين نهر النيل وشارع الجيزة على مقربة من كوبرى الجلاء لتتكون مقر هذا القصر المرتقب . وعهدتُ إلى المهندس الإيطالى «فرانكو منيسى» مصمّم متحف مركب خوُفو بوضع تصميم لقصر الفنون بحيث يضع في اعتباره اجتذاب جماهير الشعب بجميع فئاته وطوائفه من مختلف سنوات العمر لكي يظفروا بنصيبهم من منابع الفنون المختلفة . وانتهى في

تصميمه إلى أن يجعل القصر يبدو وكأنه ذراعان مفتوحتان تحتضنان الرواد محظما بذلك جميع أشكال البناء التى تبعث الرهبة في الشخص العادى وتباعد بينه وبينها حتى لاينفذ إلى حجراته وقاعاته المغلقة إلا فئة قليلة من المثقفين الجسورين . وقد صُتّم المشروع على أساس خلق جناحين كبيرين يوحيان للمبتطلع إليهما من بعيد أنه يرنو إلى هرم خوُفو قائما إلى جوار أبوهول ، و يظل يشده هذا الشكل المحوّر حتى يجد نفسه أمام مبنيين ابتكرهما خيال معمارى عشتت في وجدانه آثار الحضارة المصرية الخالدة الإلهام ، يضم الجناح الأول منها وهو لهرمى الشكل متحفى « مستنسخات المدارس الفنية العالمية عبر التاريخ » مزودة بالإحصاءات والتواريخ ، و« الفن الحديث » الذى تتوزع مساحته على عدة مستويات تدور حول طوابق متحف المستنسخات ، ويتبع الزائر له اتجاهها واحدا في صعوده واتجاهها واحدا في هبوطه ، و« قاعة عرض الفنون المعاصرة » لإحتضان المعارض المعاصرة ، و« قاعة الحفلات » التى تتسع لماينيف عن ألف شخص مزودة مقاعدها بآلات استماع للترجمة الفورية ، وتستخدم لعروض نادى السينما والمسرحيات والحفلات الموسيقية والمحاضرات الفنية . ويضم الجناح الآخر « المكتبة الفنية » التى تتسع لحوالى سبعين ألف كتاب تتناول الموضوعات الفنية





المختلفة ، وتتيح للمتروّد عليها أن يخدم نفسه بنفسه ، و« مكتبة الأسطوانات » التى يمكن أن تضم ثلاثين ألف أسطوانة تدار إما فى قاعة الاستماع الجماعى أو فى كبائن الاستماع الفردى . و يضم أيضا جناح الأطفال الذى يشمل متحفا للقصص والحكايات المصورة باللوحات والتماثيل ومكتبة وقسم للألعاب يحتوى على نماذج عديدة لمختلف اللعب منذ أقدم العصور مع بيان التطور الذى طرأ عليها ، فضلا عن قاعة لحفلات الأطفال تقدّم بها العروض السينمائية والمسرحية لا يشترك فى أدائها غيرهم بعد توجيههم وتدريبهم ، ثم مسرح العرائس . ويحتوى هذا الجناح أيضا على معهد « التذوق الفنى » التابع لأكاديمية الفنون فضلا عن عشرة مراسم تطلّ على النيل يقيم بها الفنانون المتفرغون .

وكم كان هذا حلما جميلا يراود المثقفين جميعا ، وكم تمنّوا أن يتم فى يوم وليلة .

\* \* \*

## - ٧ -

وكان الإيمان بالعدل الاجتماعى فى نشر النتاج الثقافى لاشىء غيره هو الذى حفزنى إلى الأخذ بنظام « قصور الثقافة » المطبق فى الدول الاشتراكية . من أجل هذا زرت قصور الثقافة فى الاتحاد السوفيتى أثناء وجودى به فى ديسمبر ١٩٦٠ وكنت عندها أتولى رئاسة الوفد الثقافى المصرى . ومع إدراكى بأن تنفيذه فى مصر يتطلب جهدا غير يسير ، فالحال عندنا غير الحال عند هؤلاء ، فإن هذا لم يشننى عن عزمى على تحقيقه قدر ما نستطيع ، نلقد كنا بمصر فى حاجة ماسة إلى أن نجتمع العقول عامة على ثقافة مشتركة ولانترك: الجمهرة الكبرى من سكان مصر بعبيدين كل البعد عن الإسهام فى الثقافة والارتشاف من منابعها الثرة . وما إن استوت تلك الفكرة فى ذهنى على ما فيها من صعوبات وعلى ما يلزمها من جهد حتى أدرجت لها الميزانية المناسبة فى خطة التنمية الخمسية على نحو ما أسلفت ، وبدأنا تنفيذ مشروع نشر قصور الثقافة هنا وهناك بدءا بعواصم المحافظات ثم بالمدن والقرى على نحو ما يتاح لنا ، إن يكن ذلك قصرا للثقافة أو بيتا أو دوارا ، فما من شك فى أن هذه القصور والبيوت والدوريات سيكون وراء اتصالها بالجماهير الغفيرة بثّ للوعى وإيقاظ للفكر على اختلاف درجاته . وكانت مهمة هذه القصور فى مبدأ الأمر أن تقتحم على الناس مقارهم وتدخل عليهم بيوتهم ومجتمعاتهم وأنديتهم تعرض نصيبا من الأنشطة الفنية التى تزاول فى العاصمة من مسرحيات وأفلام ومعارض فنية وعروض موسيقية وخدمة مكتبية . ولا نزاع فى أن رسالة قصور الثقافة وقوافلها تختلف الاختلاف كله عن رسالة التلفزيون ، فثمة فرق بين العرض الحى والعرض المصور . هذا إلى أن قصور الثقافة قد أعيدت لحوار يدور بين الرواد المختلفين إلى القصور وبين المشرفين على تلك القصور بما يوضح لهم معالم قد تغيب عن أذهانهم . فالتلفزيون والإذاعة هما وسيلتان لنشر الوعى حقا ولكن ليستا وسيلتين كاملتين للتوعية وتمكين المثقفين مما يحول بخواطيرهم ؛ فى حين أن قصور الثقافة بالأقاليم هى مدارس ثقافية إلى جانب المدارس التعليمية ، لهذه مهمتها ولتلك مهمتها لا تغنى مهمة عن مهمة . بل إن هذه القصور الثقافية هى للريف المحروم والبعيد عن منابع الثقافة ألزم منها لساكنى العاصمة الذين فى متناول أيديهم كل مناهل الثقافة بفروعها المختلفة ولا يميز عليهم منها شىء . ونحن

نعلم كم يعاني سكان القرى من حرمان من مكتبات خاصة أو عامة تكثر مثيلاتها في العواصم ، فأنتى لساكن الريف قديما ما يستمتع به ساكن الريف حديثا بعد أن ذللت له القصور الثقافية تلك المكتبات يختلف إليها متى شاء ؟ وتلك المسارح يُهرع إليها مع كل عرض ما كان أتوقه إلى أن يراه و يستمتع فيه بما يشاهده ؟ ثم أنتى له أن يشاهد تلك المعارض الفنية الحافلة بالفنون التشكيلية ، وأنتى له أن يشاهد تلك العروض السينمائية والغنائية والفنون الشعبية التى كان إذا تآقت نفسه إليها سعى أياما وليالى على أقدامه حتى تحفى ؟

كانت الخطة فى عام ١٩٦١ أن تُرسى فى عاصمة كل محافظة قصرا وأن نعد قوافل ثقافية لتجوب القرى وتشيع الثقافة بين سكانها ليكونوا أهلا لأن يصلوا حبلمهم بجبل الثقافة فى المدينة ولكى يحظموا بذلك أسوار العزلة التى فرضتها عليهم عصور الجهالة : هكذا كان الغرض من إنشاء قصور الثقافة إيجاد مراكز إشعاع تشع بنورها الثقافى على من تظلم من تظلم وتربط بين الثقافتين : ثقافة المدينة وثقافة الريف ، وهذا تقرب بين هؤلاء وهؤلاء ثقافة وفنا . وفى ظل هذا التمازج يمكن أن نجنى أثرا مزدوجا ، فكما يظفر فنان المدينة بوعى كامل وأعماق عن الريف ومشاكله ، كذلك سوف يظفر ساكن الريف بوعى عن ثقافة المدينة . وهذا العيب الكبير كان يقتضى إنشاء إدارة عامة تلى شئون هذا كله متعاونة مع مؤسسات الوزارة الرئيسية من مسرح وموسيقى وسينما وخدمة مكتبية وفنون جميلة وشعبية ، وتكون هذه الإدارة قد أخذت مكان الجامعة الشعبية قديما التى آلت إلى وزارة الثقافة من وزارة التربية والتعليم وكان نشاطها محصورا فى تعليم الفنون اليدوية والحرفية ، وأطلقنا على هذه الإدارة الجديدة التى تضم قصور الثقافة وقوافلها خلال تلك المرحلة جامعة الثقافة الحرة .

وقد راعينا فى تصميم قصور الثقافة أن يضم القصر قاعة للعروض السينمائية والمسرحية ومنتدى فكريا وأديبا ومعرضا للفنون التشكيلية وقاعة استماع موسيقى وناديا للأطنان ومراكز لتلقى فنون العرض والأداء الدرامية والشعبية والموسيقية ومكتبة . ولقد كنا نؤمن بأن قصور الثقافة فى مدن الأقاليم ليست إلا خطوة على الطريق الطويل من أجل بناء « بيت الثقافة » فى مراكز المحافظات ثم « دوار الثقافة » فى سائر القرى يوما ما ، حتى يكون هناك منتدى ثقافى فى كل مكان



ترتفع به مدرسة ، فهو المكمل لرسالتها في بناء العقل البشرى حتى يعطى الأمة بقدر ما يأخذ ، وحتى يغدو الإنسان المثقف المبدع هو نموذج الإنسان المصرى الحضارى فى كل مكان من ثرى مصر . أثرا قد حققنا ما كنا نصبو إليه من إنشاء قصور الثقافة ؟ ما أنكر أن تلك القصور الثقافية وما معها من قوافل قد حَبَّتْ أول الأمر حَبْوًا كان معه شىء من القصور ، وكذلك شأن كل تجربة ولا سيما تلك التجارب الجديدة على الريف وبصفة خاصة ريفنا المصرى . ولكنى أقول إلى هذا إننا أفدنا من تلك الكبوات واستطعنا أن نتخفف من قدر منها ، والزمن ممتد وهو كفيل بأن نبلغ مع امتداده الغاية الكاملة مادما نستفيد من زلاتنا . وما من شك فى أن قصور الثقافة قد أسهمت إسهاما حقا فى خلق جيل من كتاب القصة والمسرح والشعر والرجل والموسيقى من أبناء الأقاليم تبادل الزيارات فيما بينه ، وتنافس فى الحصول على الجوائز فى المسابقات التى كانت تعقد بين أفراد وفرقه ، مما أخصب التربة الفنية بعناصر جديدة من العاملين بالمسرح والموسيقى الشعبية والأدب الشعبى ، كما شجّع على تطور فنوننا الأصيلة وتجدها وإثرائها بالاحتكاك بينها وبين غيرها .

وهذا كما ناهتمامنا فى هذه المرحلة الأولى موجها إلى تهيئة الوسائل المادية التى تعين على إنشاء قصور الثقافة وقوافلها كى تحمل رسالتها إلى الريف ، ثم إعداد من سيفظطلعون بهذا العبء فى تلك القصور وما إليها من قوافل . وكنت أعلم مع هذه التجربة أن دولة عظمى وهى فرنسا عندما أخذت فى مشروع مماثل بدأت تخطط لعشرين قصرا على حين دفعنا طموحنا إلى أن نبدأ تجربتنا بأربعة عشر قصر ثقافة بالعواصم وأحد عشر مركزا ثقافيا بالمدن ، هذا إلى إمدادها بسبع عشرة قافلة استوردناها من الخارج . وعندها بدأ الريف المصرى يتذوق للمرة الأولى طعم الشقافة على أجنحة الأمسيات التى كان تقام فيه ، وهُرع الفلاحون لمشاهدة العروض المسرحية والسينمائية والمعارض الفنية لوفى ماواتتنا الفرصة فى ذلك . وكم أحسنا من هذه التجربة مدى تعطش أهل القرى لهذه الألوان الثقافية العطش كله .

وكنت قد أدركت مع زيارتى لبلدان أوربا الشرقية التى سبقتنا فى هذا الميدان وكانت لها فيه خطوات أن أرسخها قدما وأصحبها منها هى يوغوسلافيا .

لهذا أوفدت مبعوثين مصريين إليها ليخبروا ما عندهم من خبرة و ينقلوها إلينا لنفيد منها في تجربتنا . وكان أن وقع الاختيار على نفر من المتخصصين كل في شعبته أوفنه من مسرح وسينا وموسيقى وفنون تشكيلية ومكتبات وتنظيم وإدارة . وأخذت هذه البعثة طريقها إلى يوغوسلافيا في أواخر نوفمبر ١٩٦١ وأمضت شهورا ثلاثة في التلقّي والدراسة وتطواف الريف اليوغوسلافي ليعرفوا أسباب نجاح تلك التجربة هناك . وقد وفقت تلك البعثة كل التوفيق في مهمتها وشهدت لها الحكومة اليوغوسلافية بمجديتها وحاستها وذأبها على العمل والتحصيل ، ورفع التّى المستشار أحمد لطفي رئيس البعثة تقريرا عما يراه ورفاقه في التطبيق هنا بعد استئناسهم بما رأوه هناك . ولم أنفرد بالبيت في هذا الأمر، بل جمعت إلى جانبي نفرا من المتخصصين في كافة أجهزة الوزارة لاستخلاص خطة تنفيذية محكمة وتقدير ماهو جدير بالأخذ به .

وبعد هذا أخذنا نمضى على الطريق ؛ ففي الوقت الذى بدأت فيه الوزارة تصنيع المسارح والمكتبات المتنقلة على سيارات من نوع خاص ومجهزة لهذا الغرض لنقلها هى وآلات السينما إلى أعماق الريف ، بدأنا أيضا في تدريب العاملين لوفى منهج مرسوم لكى نؤهلهم للمهمة التى سيضطلعون بها . وكانت ثمة ظروف سأتناولها بعض قليل اضطررت معها إلى ترك الوزارة في سبتمبر ١٩٦٢ ، وكان هذا بعد أن تم بناء بعض قصور الثقافة في عواصم المحافظات والشرع في بناء بعضها الآخر وإعداد بعض مراكز الثقافة .

## — ٨ —

وفي عام ١٩٦١ أسند إلى الرئيس عبدالناصر بالإضافة إلى عملى وزيراً للثقافة في مصر وزارة الثقافة بسوريا . وانتهزت أول فرصة سنحت لى لزيارة « الإقليم الشمالى » كما كانت سوريا تسمى في عهد الوحدة ، مصطحبا معى جمهرة من كبار المثقفين والفنانين من بينهم المرحوم أبوبكر خيرت والفنان حامد سعيد والمستشار أحمد لطفي وغيرهم للتعرف على الإقليم ولزاداد إياحاحا بالأحوال هناك . واستغرقت تلك الزيارة أسبوعين بدأناها في ١٨ سبتمبر ١٩٦١ تعرفنا خلالها على المعالم الثقافية في دمشق وحمص وسد الرستن وحماة والمرة وحلب

وأدلب وصلبنفة والحفة واللاذقية والمنطقة الأثرية برأس شمراء وغابة الفرنلق وطرطوس وجزيرة أرواد وقلعتها ودرعا وقلعة الحصن وبصرى الشام وقلعتها ومسرحة الرومانى المدرج والسويداء ودير الزور والقامشلى وتدمر. وقد صاحبنا فى زيارة هذه المحافظات الخمس عشرة السيد يوسف شقرا الأمين العام لوزارة الثقافة السورية، فكان نعم الرفيق علما وثقافة وأدبا ولطفا وحفاوة.

وانتهينا من هذه الزيارات إلى البدء فى إعداد فرقة موحدة للفنون الشعبية للجمهورية العربية المتحدة، كما أسفرت لقاءاتى بالشخصيات السورية التى قابلتها فى مختلف المواقع التى زرتها — وكانوا من البارزين ثقافة وفنا وحماسة — عن إمام سليم بالواقع الثقافى هناك بعد أن بادلتهم الرأى وبادلونى. كما كانت لى اجتماعات شتى برجال وزارة الثقافة فى سوريا انتهينا فيها إلى وضع خطة طموحة رُصد لها مبلغ مليون وثمانمائة ألف ليرة سورية لإنشاء ثلاثة مراكز ثقافية فى دير الزور والسويداء ودرعا والإسهام فى إنشاء مجمع ثقافى بمدينة حمص، وشراء وتجهيز ثلاث وحدات ثقافية متنقلة للرقه والحسكة ودير الزور وإنشاء معهد للموسيقى بدمشق، وبناء مركز ثقافى فى عين العرب، وتشيد مسرح فى حلب، وإكمال مسرح العرائس بدمشق، وبناء متاحف إقليمية فى كل من حلب ودمشق وتدمر. وكان أن تعهدت وزارة الأشغال السورية التى أسند إليها البناء المساهمة بإنشاء بعض هذه المؤسسات على نفقتها كاملة. وكنت قد حصلت على موافقة المشير عبد الحكيم عامر — بوصفه نائب رئيس الجمهورية فى الإقليم الشمالى — قبل قيامى بالزيارة بشهرين على تخصيص مبلغ خمسة ملايين ليرة على عشر سنوات لإحياء مدينة تدمر وإجراء التنقيبات عن الآثار المطمورة، ظفرت الوزارة منها بنصف مليون ليرة عن ميزانية ١٩٦٢/٦١.

وفى مدينة حلب عاينتُ قلعتها الشاغرة لإدخال مشروع الصوت والضوء بها، كما تفقدتُ قاعة العرش بالقلعة التى كان القائمون على الآثار بصدد إنشاء سقف لها بعد الذى تهدم، فرأيت استشارة كبار المختصين فى الآثار الإسلامية، وحددت بالفعل الدكتور فريد شافعى والأستاذ حسن عبد الوهاب، وتم هذا الاتصال واكتملت الخطة على أن تعرض على المجلس المتخصص بالوزارة.

وإذ كانت دار الكتب تحتل المكتبة الظاهرية التي شُيّدت منذ قرون سبعة وتحولت إلى مكتبة عامة منذ حوالي ثمانين سنة، فقد انعقد الرأى على تشييد دار حديثة بدمشق تم إختيار موقعها بشارع بيروت، خصص منه ١٤٠٠٠ متر مربع للمبنى الذى تلتف حوله حديقة فسيحة، على أن تتسع المكتبة لسبعمئة مطالع في وقت واحد، وتضم الدار قاعة كبرى للمحاضرات والسينما تتسع لأربعمئة شخص وصالة معارض وقاعة للاستماع الموسيقى. وقُدرت تكاليف المشروع بـ ٤٣٥٠٠٠٠ ليرة لم نستطع إدراج قدر منها في ميزانية ١٩٦٢/٦١، فأدرج له مبلغ ٢٠٠٠٠٠ ليرة بميزانية ١٩٦٤/٦٣ ومثلها في ميزانية ١٩٦٥/٦٤ لتنفيذها ضمن مشروع الخطة الخمسية التالية.

ومن دمشق أُرسلت إلى رنيه ماهيه مدير عام اليونسكو أول رسالة لى وزيراً للثقافة في سوريا أطلب إسهام منظمة اليونسكو في ترميم قلعة الحصن، كما عهدت إلى المشال المصرى المعروف مصطفى نجيب بتصميم تمثال للمجاهد السورى ابراهيم هنانو لإهدائه إلى مدينة إدلب بمحافظة حلب.

كنا مدفوعين إلى هذا كله برغبة قوية وحمية شديدة بأن نهض بالقطرين معا نهضة صادقة تمكن لغيرها من نهضات أخرى مرجوة، إذ كان الأمل في نفوسنا أن تسبع تلك الوحدة وحدات أخرى، غير أنه ما كل ما تتمناه النفوس تدركه. ففي فجر يوم ٢٨ سبتمبر أيقظنى سكرتيرى ليخطرني أن انقلابا وقع في سوريا قرر القائلون به الانفصال وفصم عرى الوحدة. وكان مما صُدمت له صدمة عثيفة أن أسمع تلك الهتافات الموالية التي كانت تتردد أصداؤها بالأمس في جود دمشق وغيرها فإذا هى تختفى فجأة بين يوم وليلة، وإذا مكانها صرخات على الضد من الأولى تنادى بالانفصال وتقضى على أول تجربة رائدة تجمع بين بلدين عربيين في ظل علم واحد.

كان الوقت يمرّ بطيئاً متثاقلاً ولا أدري ماذا سيحلّ بنا، فدعوت أعضاء البعثة المرافقين لى للانضمام إلى فندق أورينت بالاس، وطلبت من أبى بكر خيرت رحمه الله أن يحاول انتزاعنا مما نحن فيه من فراغ وقلق وترقب لينجز لنا عملاً إيجابياً، وقُدته نحو البيانو الموجود في بهو استقبال الفندق الخاوى، مقترحاً عليه أن

يحاول تحقيق أمنية طالبت بها من قبل ، وهى صياغة موشح « لما بدا يتشنى » وفقا لأساليب العلوم الموسيقية من هارمونية وكنتربنتية . وأخذ النهار ييمضى لحظة بعد أخرى ونحن نصغى إلى محاولاته المتكررة بإعجاب وتقدير حتى فرغ منها قرب نهاية النهار ساعة جاءنى السيد يوسف شقرا ليبلغنى أنه يمكننا عبور الحدود الليلية إلى لبنان ، وأخذنا فتخطى بنا جملة من تعقيدات بيروقراطية ثقيلة كانت تعترض طريقنا فذلّلها بلباقته وكرم سجاياه ، ووصلنا بيروت فى منتصف الليل بحيث قضينا الليلة . وفى الصباح التالى استقلنا أول طائرة إلى القاهرة ووجدت إلى جانبى فيها المرحوم كمال رفعت . ومن المطار توجهنا سويا إلى مقر جمال عبد الناصر الذى كان وقع الانفصال عليه عميق الأثر فتردّدت أممءاء الأسى فى نفسه . وما من شك فى أن الانفصال كانت له عواقبه بعدّ فى جلّ ما أخذ فيه من تصرف هنا وهناك ، إذ كانت هذه الوحدة مناط أمل كبير فى نفسه ، وكم بنى عليها من أمنيات جسام فإذا هى تنهار كلها فى طرفة عين حين انهار ذلك الأساس .

وطوال طريق العودة من سوريا كان يحزّ فى نفسى ماسمعت من هتافات محمومة تستدّ بالقوانين الاشتراكية التى نالت من جم غفير من كبار الملاك ثروة ونفوذا ، وبما كان يفعلها رجال السلطة من السوريين الذين أسلمتهم القيادة السياسية فى مصر زمام الحكم فى سوريا فإذا هم يتكلمون بخصوصهم باسم الوحدة فحملت وزرائها منه بريئة ، فكان للاعتداءات على الحريات الشخصية أثرها فى زعزعة الوحدة فانفضّ عنها مؤيدوها إلا القليل منهم . هذا إلى ما بلغنى عن عبث بعض سفار الضباط المصريين غير المُعَدّين لمثل هذه المهمة النبيلة التى تقتضيهم أن يبلغوا الأعماق ليعرفوا أحاسيس الجماهير فيكون تصرفهم سويا . وما من شك أيضا فى أن بعض رجال البعث فى سوريا غير الراغبين فى الوحدة انتهزوها فرصة وأخذوا يؤلّبون الجماهير ضد الوحدة مصوّرين لهم مافى الوحدة من آثام وأنهم جاءوا ليخلصوهم منها . وما أظن تلك الضربة التى ظن قواد الانفصال فى سوريا أنهم نكبوا بها جمال عبد الناصر نكبوه وحده بها ، بل لقد نكبوا الأمة العربية جمعا حين وأدوا تلك التجربة فى مهدها .

وأعترف أنني طوال الساعات الثلاثين التي مرت بين سماعي نبأ الانفصال ولقائى بعبد الناصر لم يجد ذهني قيد أمثلة عن التفكير في هذه المسألة وعن ظروفها وأسبابها . وكان قد أتيحت لى في لقاءاتى بالمشفقين هنا وهناك أن أستمع إلى تلميحات توحى بأن أكثر السياسيين تقديرا لعبد الناصر وأشدهم حماسة للوحدة قد باتوا يحسّون أن قنوات الاتصال بينهم وبين الرئيس، قد سُدّت ، وأن الأمور في سوريا باتت تسير في غير المجرى الذي كان ينبغي أن تسلكه . وقد أدركت بما يشبه الحدس ، أن المحيطين بعبد الناصر لم يحملوا له من الحقائق إلا ما يطيّب له سماعه . ومن هنا فإنه حين أصدر القرارات الاشتراكية التي تصوّر إسهامها في تصحيح الأوضاع الاقتصادية في سوريا قد أصدرها انطلاقا من وصف غير صادق وغير دقيق ، للأحوال المادية للفئات الاجتماعية ، بل ودون معرفة عميقة بالمواقف والارتباطات الفكرية بين مختلف التكتلات السياسية ، إذ كان أصعب المشروحات الكبرى من السوريين أكثر حرصا على مصالحهم من ارتباطهم بدولة الوحدة ، ولو أنهم علمت فيما بعد أن بعض الخبراء الاقتصاديين قد نصحوه بعدم الإقدام وتشدّد على هذه الخطوة لما تحمل من خطورة أكيدة . كما كانت الدواتان العنسيان : الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفييتي ، مجموعة الدول العربية المرتبطة بهذه الدولة أو تلك ، بل وفرنسا الغاضبة من دعم مصر لثورة الجزائر وأصدقائها في سوريا ، كانت تلوب مؤلّا . جميعا تفيض عداوة للوحدة .

ومكّنّا كان يكتفى بأن يتحرّك أصحاب الشركات والمصانع التي تقررت تأميمها حتى ينضمّ إليهم أعمدة الوحدة المرتبطون بالدول الكبرى ، وينخرط معهم من خباب أملهم في أن تقدم لهم الوحدة خيرا كانوا يطمعون فيه ، بينما ينكص أنصار الوحدة الحقيقيون ممن خذلتهم مصر عن التصدّي للإعصار المدّمّر لكل شيء . يعترض طريقتي . وعلى الرغم من الحزن الفادح الذي هزّ كيان عبد الناصر حتى أدق خلجات قلبه فقد كان يدرك أبعاد الأخطاء ، لكنه كان يدرك بالمثل أن التسرع في قبول الوحدة كان الخطأ الأساسي ، وأنه كان نذيرا بكل ما استتبعه من رزايا ونتائج مهلكة . وكان أقسى ما يعاينيه هو إحساسه بإجهاض أمل عزيز على العرب جميعا ، إذ كان يخشى من ردود فعل الانفصال في قلوب المتطلعين إلى

الوحدة الشاملة ، وكانت أمنيته ساعته أن يستخلصوا من تجربة الوحدة والانفصال أعمق الدروس والدلالات .

\* \* \*

وأخيرا فقد عملت خلال تجربتي الوزارية الأولى في ظل اثنين من رؤساء الوزارات هما الدكتور نور الدين طراف الذي يشهد له الجميع بالكفاية العالية والنزاهة المطلقة والمواقف الوطنية المشهودة قبل الثورة وبعدها ، والأخ كمال الدين حسين رفيق الكفاح الطاهر السريّة النقيّ اليد ، والثائر الذي لا يهدأ والوطني الذي لا تحمد له حماسة . ثم كان أن حظيت بالعمل في وزارة يرأسها جمال عبد الناصر الذي امتلأت صفحات هذا الكتاب بآثره وقدره ومكانته .

- (١) أنشأ شركة مصر للتعميشيل والسينا وستوديو مصر ومسرح الازبكية ومطبعة مصر وغيرها من الأعمال الثقافية الخاصة.
- (٢) مشكلات ثقافية . الأهرام في ٧ ديسمبر ١٩٧٩ .
- (٣) هي كونسيرتو البيانو والأوركسترا مقام دوصغير عزف المؤلف ، والمتالية الشعبية من مقام دو ، والسيمفونية الثانية الشعبية من مقام صول الصغير ، والسيمفونية الثالثة من مقام دو الكبير .
- (٤) بلغ عدد رواد هذا المعرض في الفترة من ٢٣ يولييه ١٩٦٢ حتى ٤ يونيه ١٩٦٧ قرابة ستين ألف مشاهد ، وبلغ إيراد العرض حوالي عشرة آلاف جنيه .
- (٥) بادرت الوزارة إلى اتخاذ العدة لتنفيذ المشروع فخصصت مبلغ مليوني جنيه بميزانية خطة التنمية الخمسية لتحف القاهرة ، ونصف مليون جنيه لمتحف الاسكندرية ، كما اتصلت بوزارات الخزانة والاقتصاد والشئون البلدية والقروية لتقدير قيمة المباني في أرض المعارض . وتبين من المناقشات والدراسات أن هذه المباني لا تمثل عقبة اقتصادية تحول دون إقامة المتحف المصري بمد أن كادت تستغد أغراضها . واستقر الرأي على تعويض الجمعية الزراعية بمبلغ ٧٥ ألف جنيه هي قيمة مباني الجمعية في هذا الموقع . وفي شهر أبريل ١٩٦٢ تعاقدت الوزارة مع المهندس الإيطالي فرانكو ألبيني على تصميم متحفى القاهرة والإسكندرية ، وقام المهندس بإعداد تصميمات المتحفين مراعى أن يكونا على أحدث مايلفه فن تصميم المتاحف .
- وقد وضع تخطيط مشروع المتحف المصري الجديد بأرض الجزيرة بحيث يضم ثلاثة مداخل رئيسية هي : مدخل الجمهور ومدخل الإدارة والخدمات ومدخل المعارض والأدوات . ويقع مدخل الجمهور في أقصى الجانب الشرقي عند رأس المثلث المواجه لكوبرى قصر النيل ، ويصدره طريق مائل دائرى ذو اتجاه واحد يفضى إلى البهو الكبير ، وينطلق منه طريق آخر إلى موقف السيارات الخاصة بالبدروم ، ويقوم عنده مقصف مكون من طابقين ومكان مخصص لسيارات النقل العام وشركات السياحة الموجودة أسفل مبنى « المركز الثقافي » .
- (٦) اختير موقع هذا المتحف بمدينة الشلالات التى يتوسطها سور حجرى قديم يبلغ ارتفاعه نحو سبعة أمتار احتضنه التصميم ليكون جزءا من البنى الجديد ، على أن يقام جناح مستقل يضم الإدارة ومكاتبها في الناحية القبلية من حديقة الشلالات . وقد وقع الاختيار على نظام القاعات الصغيرة المتتابعة التى يبلغ طول كل منها نحو تسعة أمتار بوصفه النظام الأمثل لمعارض هذا المتحف التى تتميز كثرتها بدقة أحجامها . وقد وُزعت قاعات العرض
- المستتابة على ثلاثة طوابق ترتفع كل منها عن السابعة بمقدار متر واحد ، ويستمر الانتقال في اتجاه واحد من قاعة إلى أخرى صعوداً حتى الطابق الأعلى ، ثم يعود الزائر فيبسط في اتجاه عكسى ، ويستمر النزول في اتجاه واحد حتى نقطة البداية عند قاعة مدخل المتحف على غرار متحف جوجنهايم للفن الحديث بنيويورك . وتجري إضاءة قاعات العرض بالطوابق العليا من السقف بمظلة خاصة لإسقاط الضوء وتوزيعه منتظما ، بينما تضاء القاعات الأخرى بنوافذ زجاجية تحجب الظلال المتداخلة وتغطى بمأكس للضوء مصنع من الأسمنت وكسر الرخام يقوم بتنظيم الإضاءة غير المباشرة . وتوضع قطع أثفية من كسر الرخام والأسمنت فوق الجدران الخارجية بحيث تكون منفصلة عنها لحمايتها من أشعة الشمس المباشرة ولتجديد الهواء .
- كما راعى المهندس أن تكون أجزاء المبانى ذات مظهر بسيط ، مقسمة أفقيا ورأسيا تبعاً للمناسيب المختلفة المستدرجة لقاعات العرض ، وأن تؤدي الأضواء والظلال المنعكسة عليها من الأشجار العالية بالحديقة دورها في جمال البنى المتميز بشخصيته الفريدة النابعة من الطريقة المبتكرة التى عولج بها المشروع عمليا وعلميا وفنيا .



(٧)

كانت قد أجريت خلال السنوات الأخيرة عدة تجارب لإضافة مبان جديدة إلى مواقع أثرية ، مثل مشروع بناء متحف على أكروبول أثينا ، ومثل مشروع حماية نقوش أبواب مدينة قرطبة القديمة ، وأخيرا مشروع « التوفر الكبير » الذى بدأ تنفيذه فى عام ١٩٨٥ الذى يتضمن إقامة أهرامات زجاجية مشابهة للأهرامات المصرية القديمة لتتوسط أجنحة مبانى اللوفر التى ترجع إلى عهد نوبس الرابع عشر . وأكدت النتائج التى تحققت فى هذه المشروعات إيجابية التجارب ، وأتاحت الوسائل الحديثة إمكان خلق آثار مستتيرة فى مادتها وروحها عن كل ما يحيط بها ثم إدماجها فيما حولها فى تناسق يجنب أية عاكاة أو تكرار زائف للأسلوب ، ويتحاشى أى ربط مصطنع بينها وبين الموقع التاريخى وآثاره القديمة .

وقد كلفت وزارة الشفافة المهندس الإيطالى فرانكو مينسى بناء على توصية منظمة اليونسكو بوضع مشروع بناء متحف خاص يحتضن جسد المركب الرشيق فى تناسق متناغم ، على أن تتحقق فيه أنسب الظروف لحماية هذه التحفة الأثرية الفريدة والمحافظة عليها محافظة كاملة ، مع إعداد ممشى داخلى يتبع الزائر بين الاستمتاع بمشاهدة المركب مشاهدة كاملة وملاحظة أدق التفاصيل والقسامات المميزة من الناحيتين الشكلية والتقنية ، على أن يبقى الزائر على اتصال بصري بالوسط الخارجى . وقد كان هذا التعايش البصرى بين المركب وبينه الطبيعية هو الذى حسم مسألة إنشاء المتحف فى مكان المركب الأصيل .

ويضم المتحف قاعات تعرض جميع الوثائق الخاصة بمراحل اكتشاف القارب وإخراجه وإعادة تكوينه واحتضان الحوض الطويل الذى كيان يضم المركب ، وكذلك كتل الأحجار السميكة التى كانت تغلق فتحته على الأبحر الزائر خلال تحواله وسط هذه الأجزاء التى تضم الحوض والأحجار بالتمزله من الجو المحيط به ، بل يحس على العكس من ذلك بانتمائه فى هذا الوسط ، ويستشعر عبر الأسطح الشفافة الواقية بتطبيقات اتصال الأشياء التى يشاهدها فى المتحف ببقية المساطب المجاورة والمحدار جوانب الهرم الصاعدة .

وإذا كان أصعب ما واجهنا من ناحية التناسق الشكلى هو إضافة كيان جديد إلى مجموعة أثرية قديمة وإدماجها فيها دون أن يتنافر معها ، فقد كانت أشق المشاكل العملية هى ضيق المساحة التروكة لتنفيذ المشروع ، ذلك أن المسافة بين قاعدة الهرم وحافة الحوض القريبة منه لا تزيد من ثمانية عشر مترا ، كما أن المسافة بين حافة الحوض البعيدة عن الهرم وبين بقايا أقرب مصطبة لا تزيد عن ستين مترا . ومع ذلك فقد كان التفكير فى بناء متحف شامل من طابق واحد مستحيلا استحالة التفكير فى تجزئته بين طابقين متمايزين تماما أو طابق عدة محدودة . وانتهى التفكير إلى تشكيل مبنى موحد توزع فيه الآثار وتربطها جميعا ممرات معلقة فى مستويات وأوضاع مختلفة تساعد على تنوع مواضع الرؤية للزائر ، وتتبع أكبر قدر من الاستمتاع برؤية التحفة الفريدة فى مجموعها أو فى تفاصيلها . ولكن هذا كله لم يتم فى جولة أوجولتين بل استوعب جولات كثيرة استعين فيها بأرله الخبراء المحدثين .

ويتكون الهيكل الذى يحمل المبنى من قاعدة من الخرسانة المسلحة ومن دعامات حديدية ، وقد شكّل خطأ الطابق الأسفل من سقف من القرميد والخرسانة المسلحة مغطى بطبقة من الفلين العازل للحرارة والذى يحضن غرفة هوائية فوق السقف . وشيّدت الأجزاء غير الشفافة مزدوجة من جدار خارجى من الحجر الجيرى ومن جدار داخلى من قوالب القرميد المبوقة التى تشكل غرفة هوائية فى نفس الوقت التى تحتوى فيه على مادة عازلة . وشكّلت الجدران والأسطح غير الشفافة من طبقتين من ألواح الحديد التى يبلغ سمكها مليمتر ونصفا بينها طبقة من الصوف الصخرى مشكّلة بطريقة تجعلها أكثر مانكون كفاءة فى عزل الحرارة ، وقد غطيت الألواح الحديدية من الداخل والخارج بطلاء واقى معتم اللون قليل الامتصاص ، بينما تكوّن الجدران الشفافة من مربعات زجاجية مزدوجة من النوع العازل للحرارة تشدها الأحزمة المعدنية وتضم غرفات هوائية مجففة . وقد شكّلت مربعات

الجدران المائلة العليا والسفلى من بللور مسقّى غير قابل للكسر لتجنب وقوع خسائر فادحة إذا تعرض أحد الألواح للكسر . وهكذا تتصل رؤية المركب فى مجموعها أو فى تفاصيلها منذ بداية الزيارة حتى نهايتها دون انقطاع ، بينما تسمح جميع مراكز الرؤية الأساسية برؤية جزء يختلف فى انقاسه أو ضيقه عن المشهد المحيط بالمتحف عبر جدرانه الشفافة .

( ٨ ) ألكسى چوكوف ولودميلا تنيركاسوفا وسيرجيه پافلوف وزينايدا غاسيليك وغيرهم .

# فهرس

٧	..... كلمة أولى
٢٥	..... الفصل الأول : تجربتي ضابطا بسلاح الفرسان
٢٧	١ - شذرات من الأمس البعيد .....
٣٤	٢ - صلتى تتوثق مع عبدالناصر .....
٣٩	٣ - أرض فلسطين الذبيحة .....
٥٤	٤ - تنظيم الضباط الأحرار .....
٧١	٥ - ليلة تاريخية لها ما قبلها .....
٩٦	٦ - إجراءات وأحداث ما بعد ليلة الثورة .....
١٠٠	٧ - رئاسة مجلة التحرير .....
١٢١	..... الفصل الثاني : تجربتي ملحقا عسكريا
١٢٣	١ - شهوّر في سويسرا .....
١٣٢	٢ - سنوات في باريس .....
١٧٨	٣ - شواغل عسكرية .....
١٩٦	٤ - باريس بعيدا عن السياسة والحرب .....
٢١٦	٥ - الفترة بين عملي ملحقا عسكريا وسفيرا .....
٢٤٢	..... الفصل الثالث : تجربتي سفيراً
٢٤٧	١ - سفير لدى الكويرينالي .....
٣٢٩	٢ - روما بعيدا عن السياسة .....
٣٤١	٣ - إطلالة من روما على فرنسا وقضية الجزائر .....
٣٦٣	..... الفصل الرابع : عودة العلاقات مع فرنسا
٤١٣	..... الفصل الخامس : تجربتي الأولى وزيرا للثقافة
٤١٥	١ - مفاجأة مؤرقة .....
٤٢٣	٢ - نظرة استشرافية للعمل الثقافي .....
٤٦٠	٣ - نهجى فى وزارة الثقافة .....

الترقيم الدولى ٨٨٧٨ - ١٩٨٩  
ISBN ٩٧٧ - ١١٨ - ٤٥٩ - ٨



## قالوا في هذا الكتاب

خرجوا من بين سائر طبقات الشعب ، ولن يستطيع أحد أن يهدم هذا الجيل أو يقضى على دوره إلا إذا استطاع أن يهدم الأهرام أو يسد مجرى النيل بالصخر والتراب .

\* وهذه مذكرات ثروت عكاشة يقدمها إلينا وهو في قمة نضجه واكتمال تجربته ، ولا نبالغ إذا قلنا إنها ملحمة بكل معنى الكلمة ، فيها ما في الملحمة من اتساع وعمق وتنوع وجلال ، وهي مذكرات تحمل وجهة نظر جديدة ومتميزة في أحداث كبرى عشناها ولم نفهمها بوضوح ودقة حتى الآن ، مئات الصفحات في هذه المذكرات نقرأها بل ونلتهمها في سرعة وسهولة من شدة ما توفر لها من الصدق والجمال والمعلومات الجديدة المذهلة .

\* ليس لهذه المذكرات أو هذه الملحمة الكبرى مثيل بين المذكرات التي ظهرت في ٣٥ سنة تمتد من ١٩٥٢ إلى ١٩٨٧ ، لأنها لم تتوقف عند الأشخاص والأحداث المادية فقط ، بل سجلت كفاحنا من أجل ترقية الروح وتنقية الذوق من شوائب الماضي وتحويل الفكر والفن إلى ضرورة ولقمة خبز في حياة كل مواطن فوق أرض مصر .

\* قرأت هذه المذكرات وقلبي ينبض بالدفء والفرح مع كل ما أطلعه من صور ومعارك وشخصيات ، وعلى كثير من الصفحات سالت دموعي ، لأن معارك الجهاد الثقافي والروحي التي يرونها صاحبها كانت في خطورة معارك السلاح ، وسوف تثير هذه المذكرات عاصفة من ردود الفعل المختلفة ، ولكن أحدا من الذين يتفقون معها أو يختلفون حولها لن يستطيع أن ينكر عليها الصدق والأصالة والجمال والأمانة وغزارة ما تكشفه من حقائق ووثائق .. والحديث يطول عن هذه المذكرات وصاحبها ، ولكن لابد من السكوت عن أي كلام مباح لنسمع ثروت عكاشة نفسه في مذكراته أو ملحمة الفريدة وسيمفونيته الفذة .

\* الدكتور ثروت عكاشة رجل له صوت وضوء ، أما الصوت فنسمعه في « الكونسيرفاتوار » و« فرقة الموسيقى العربية » و« الأوركسترا السيمفونية » ، وفي غير ذلك من المؤسسات الرفيعة التي أنشأها بل أنجبها هذا الرجل ، وسوف تبقى ما بقيت مصر ، وأما الضوء فنحن نراه كل مساء مع آثارنا التي عاشت في الظلام آلاف من الليالي بعد آلاف حتى جاءها ثروت عكاشة بالنور فأصبحت هذه الآثار مشرقة على الدوام ، لا يغيب عنها الضوء في ليل أو نهار .

\* كلنا نعرفه .. كل من قرأ كتابا جميلا في جيلنا أو سمع لحنا ممتعا أو شاهد رقصة رفيعة من رقصات الباليه ، أو دخل أحد معارض الفنون أو وقف أمام معابد أبي سمبل فوجدنا حياة وناضرة كما كانت منذ آلاف السنين ، بعد أن خرجت هذه المعابد بمعجزة علمية حضارية من الماء الفائض والهادر من السد العالي ، وبعد أن كادت هذه المعابد الخالدة تغرق إلى الأبد ، وتصبح أثرا في الذاكرة بعد أن كانت جبلا راسخا فوق الأرض .. كل هؤلاء .. وكل من شاهد فيلما يرتفع بالسينما في مصر إلى مستوى العصر ، وكل من شاهد مسرحية مثلوها ومخرجوها من أصحاب المواهب الذين تخرجوا من معاهد العلم الرفيعة .. كل هؤلاء يعرفون ثروت عكاشة لأنه هو الذي صنع التربة الثقافية الجديدة ، وأتى لها بالطمى والبدور الصالحة ، ورعاها بالجهد الدائب والحزم العظيم ، إيمانا منه وبقينا بأن أي تغيير لا قيمة له إذا لم يكن للوطن عقل مثقف وذوق جميل .

\* ثروت عكاشة هو بطل الثورة الثقافية الشاملة في مصر ، ففي وسط صعوبات ومتنوعات كثيرة استطاع أن يحقق هذه الثورة على مدى ثماني سنوات تولى فيها أمور الثقافة ، فقامت على يديه مؤسسات كبرى أهمها أكاديمية الفنون التي قدمت لنا أجيالا من الفنانين الدارسين المتعلمين الذين

رجاء النشاش

١٠ جنيها